



Bibliotheca Alexandrina

0128787

نَهْمُ الْقَارِئِ

للإعداد والدراسة الثانية

الجزء الأول

تأليف

الشيخ أحمد الإسكندري

المدرس بدارالعلوم

يطلب من

الدار

دارالعلوم

حقوق الطبع محفوظة

« الطبعة الأولى »

١٣٤٠ هـ = ١٩٢١ م

مطبعة المعارف شارع إفريقيا بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَافٍ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَوَّلَى الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

أَمَّا بَعْدُ فَأَنَا وَجَدْتُ الشَّدَاةَ مِنْ قِرَاءَةِ الرَّيَّةِ يَنْشَوْنَ إِلَى كِتَابٍ مُجِيبٍ بِعَارِئِهِ
السَّهْلَةِ الْقِرَاءَةِ إِلَيْهِمْ ، وَتُطْلَقُ فُنُونُهُ لِلتَّوَسُّعِ الْأَعْيُنِ لِقَوْلِهِمْ ، وَهَوْمٌ أَسَالِيهِ الْخَطْفَةُ
مِنْ لَهْجَةِ السَّنَنِ ، وَفَسَّرِي طَرِيقَهُ السَّامَ عَنْ قَوْلِهِمْ ، وَرَأَيْتُ أَنْ تَأْلِفَ مِثْلَ هَذَا
الْكِتَابِ قِرْضٌ كِفَايَةً عَلَى طَائِفَةِ الْمُطْلَعِينَ ، غَيْرَ أَنَّهُ تَطَاوَلَتِ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ ، وَالْأَمْرُ
عَلَى مَا كَانَ

فَأَسْتَحِثُّ اللَّهَ أَنْ أَقْرَمَ بِهَذَا الْقِرْضِ وَاهِبًا كُلَّ أَوْقَاتِ رَاحَتِي لِخِدْمَةِ طَائِفَتِي
وَنَائِي لَعَنِي ، وَوَضَعْتُ هَذَا الْكِتَابَ مُشْتَلًا عَلَى حِكَايَاتِ خَلْقَتِي ، وَأَخْبَارِ تَارِيخَتِي
وَجُغْرَافِيَّتِي ، وَمُطْعَمَاتِ شَرْعِيَّةٍ ، وَمَنَاجِجِ إِنْشَائِيَّةٍ ، وَرِسَالَتِ أَدَبِيَّةٍ ، وَخُطْبِ بَلِيغَةٍ
وَمَقَالَتِ عَلِيَّةٍ أَقْرَبَ صَحْبَتَهَا الْمُلُوكُ بِهِمْ فِي تَدْرِيسِ عَلَيْهَا

وَبَذَلْتُ وَسْعِي فِي شَرْحِ غَرِيبِهِ وَالتَّعْرِيفِ بِرَجَالِهِ وَأَمَّا كِتَابُهُ وَضَبُّ أَلْفَاظِهِ مُتَقِلًا
مِنْ مُعْجَمَاتِ الْأَلْفَاظِ إِلَى مُعْجَمَاتِ الْمَعَانِي

فَإِنْ أَرْضَيْتُ بِهِ إِخْوَانِي الْمُطْلَعِينَ ، وَسَدَدْتُ مِنْ حَاجَةِ أَبْنَائِي الطَّالِبِينَ ، فَخَرِيقٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَإِنْ كُنْتُ الْأُخْرَى ، فَقَدْ أَهْلَيْتُ عَذْرَاءَ
وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَهْدِيَنِي جَمِيعًا إِلَى خَيْرِ أَمْتَا وَلِقَتَا ، وَهُوَ الْمَأْمُولُ ، لِإِجَابَةِ السُّؤْلِ ؟

محمد السكندري

المدرس بكلور العلوم

وَكُتِبَ بِالْقَاهِرَةِ ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠ هـ : ٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ م

حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ^(١)، وَبِحَمْدِكَ، نَحْمَدُكَ عَلَى نِعَمِكَ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا عَدَدٌ، وَلَا يَنْقُطِعُ لَهَا مَدَدٌ^(٢) : وَهَبْتَ لَنَا نِعْمَةَ الْحَيَاةِ فَظَهَرْنَا إِلَى هَذَا الْوُجُودِ الْمُبْدَعِ بِنُظُمِ قُدْرَتِكَ، الْمُقَمِّمِ^(٣) بِغَيْرِ حِكْمَتِكَ : لِنَنْتَظِمَ فِي سَبِيلِكَ نِظَامَهُ، وَنَقَرُفِي فِي مَعَارِجِ^(٤) كَلَامِهِ . وَكَرَّمْتَنَا بِالْعَقْلِ لِتَفَكَّرَ فِي عَجَائِبِ خَلْقَاتِكَ، وَنَنْظُرَ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِكَ وَأَيَّاتِكَ، وَتَعَرَّفَ سُنَنُكَ^(٥) فِي خَلْقِكَ، وَتَفْهَمَ كُنْهَكَ الْمُتَزَلِّةَ عَلَى رُسُلِكَ، (عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُكَ)؛ فَتُذْعِنَ^(٦) لَكَ بِالرُّبُوبِيَّةِ^(٧)، وَتُوَدِّىَ شَعَائِرَ^(٨) الْمُبُودِيَّةِ، وَتَتَّبِعِينَ الرُّشْدَ مِنَ النَّبِيِّ، وَالنَّافِعَ مِنَ الضَّالِّ، وَتَحْمِلَ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ كَمَا شِئْتَ مُسَخَّرًا لَنَا، وَمُبْتَعَرًا لِأَمْرِنَا . وَمَتَّحْتَنَا مِنَ الْحَوَامِ وَالْجَوَارِحِ^(٩) مَا تَكَمَّلَ بِهِ حَيَاتُنَا، وَتَقَيَّرُ حَالَتُنَا، وَنَكْشِفُ بِهِ الْفُرْشَ عَنَّا : مِنْ بَصَرٍ نُشَاهِدُ بِهِ السَّمَاءَ وَزِينَتَهَا، وَالْأَرْضَ وَبَهْجَتَهَا، وَنَهْتَدِي

(١) مصدر لَسَجَ، ثُمَّ جَلَّ آمَنَّا لِنَسِيحَ (أى التَّنْزِيهِ والتَّهْنِئَةُ مِنَ النِّقْصِ) وَنَضَعُ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ؛ فَعْنَى سُبْحَانَ اللَّهِ : تَزْيِينُهَا قُدْرَةً . وَالْهَمُّ مَرْكَبٌ مِنْ لَفْظِ الْجَلَالَةِ وَالْمِيزِ، وَهُوَ مُنَادِي حَذَفَتْ فِيهِ يَاءُ النِّدَاءِ وَأُلْحِقَتْ بِهِ الِهْمُ عَوَضًا عَنْهَا . وَالْوَاوُ فِي (وَبِحَمْدِكَ) زَائِلَةٌ كَأَنَّ فِي نَحْوِ (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ النَّسِيحِ بِالْحَمْدِ مَجْرُودًا مِنَ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَنَحْنُ نَسِيحٌ بِحَمْدِكَ وَقُدْسٌ لَكَ) (وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) (٢) الزَّادَةُ بِمَا يُسْتَعَانُ بِهِ مِنْ جَيْشٍ وَمَعُونَةٍ (٣) الْمَلُوءُ (٤) جَمْعُ مَرَجٍ وَهُوَ الثَّلْثُ وَالْمَصْدَرُ (٥) السَّنَنُ الطَّرِيقُ، أَيْ عَادَاتِكَ فِي خَلْقِكَ (٦) قَرَرْتُ (٧) اسْمٌ مِنْ لَفْظِ اللَّابِ أَيْ (كُونُهُ رَبًّا) (٨) جَمْعُ شَعِيرَةٍ وَهِيَ مِنَ الْفَيْنِ مِثْلُهُ الَّتِي تَنْدُبُ إِلَيْهَا وَأَمْرٌ بِالْقِيَامِ بِهَا (٩) جَمْعُ جَارِحَةٍ، وَهِيَ مِنَ الْإِنْسَانِ الْعَضْوُ الْقَسِي يُكْتَسَبُ كَالْيَدِ وَالرِّجْلِ

به في طلبِ أَرْزَاقِنَا، ومُحاوَلَةِ أَعْمَالِنَا، ونَدْرُسُ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ مَا يَنْفَعُنَا فِي دُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا؛ وَمَنْ سَمِعَ وَمَنْطَقَ يَتِمُّ بِهِمَا قَاهُتُنَا، وَيَكْمُلُ أَنْسُ أَجْتِمَاعِنَا؛ وَمِنْ شَيْءٍ وَذَوْقٍ ظَلَمْنَا عَلَى مَمْلَكَتِنَا الْبَاطِنَةِ حَارِسِينَ يَقْظِينَ، وَصَاحِبِينَ رَفِيقِينَ يُجِيرَانِ إِلَيْهَا مَا تَسْتَرْهُ^(١)، وَيَدْرَأَانِ^(٢) عَنْهَا مَا تَسْتَبْشِرُهُ^(٣)؛ وَمَنْ أَيْدٍ بِهَا تَبْطِشُ، وَعَلَيْهَا نَعْتِدُ: فَهِيَ أَدَاةُ حَيَاتِنَا، وَمَصْدَرُ أَعْمَالِنَا؛ وَمَنْ أَرْجُلُ بِهَا نَسَى إِلَى مَقَاصِدِنَا؛ وَعَلَيْهَا نَنْتَقِلُ مِنْ حَزْنٍ إِلَى سَهْلٍ، وَتَحْوُلُ مِنْ جَلْبٍ إِلَى خَيْبٍ

فَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ مَا أَجَلَ مِثْلِكَ^(٤)! وَأَعْظَمَ قَدْرَتِكَ!

اللَّهُمَّ إِنَّا جِئْنَا بَابَ كَرَمِكَ مُسْتَفْتِحِينَ، وَلَدَعَوْتِكَ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مُسْتَحِينَ، وَبَنُورِ هِدَايَتِكَ مُسْتَهْدِينَ، وَمِنْ جَلِيلِ عَوْنِكَ مُسْتَعِينِينَ، فَلَا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ

اللَّهُمَّ وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، وَآمِدْنَا فِي أَبْدَانِنَا بِصِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَانْزِ بِصَافِرِنَا لِمَعْرِفَةِ دُرُوسِنَا؛ فَسَهِّلْ عَلَيْنَا صَعِبَهَا، وَأَهْدِنَا الصَّوَابَ فِي قَهْمَهَا، وَأَعِزَّنَا بِهَا فِي حِفْظِ أَهْمِنَا وَدِرِينَا وَلَتْنِنَا وَوَطْنِنَا

اللَّهُمَّ وَأَعْظِفْ عَلَيْنَا قُلُوبَ الدُّنْيَا وَمُكَلِّمِنَا وَرُؤَسَاتِنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا، وَوَقِّتِنَا إِلَى طَاعَتِهِمُ وَالْعَمَلِ بِنَصَائِحِهِمْ، وَأَلْهِنَا وَإِلْهَامِهِمُ السَّدَادَ^(٥) فِي الرَّأْيِ وَالنَّجَاحِ فِي الْعَمَلِ؛ لِنَعِيشَ آمِنِينَ فِي أَسْرَابِنَا^(٦)، مُعْتَرِينَ فِي أَوْطَانِنَا. إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، آمِينَ!

(١) تَجِدُهُ هَتِيئًا حَسَنَ الْمَقْبَةِ (٢) يَدْفَعَانِ (٣) تَسْتَكْرِهُ (٤) نَمِثُكَ

(٥) الصَّوَابُ (٦) جَمْعُ سِرْبٍ وَهُوَ الْفُسْ وَالْبَال

قِرَاءَةُ الْكُتُبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ
مِنْ عَلَقٍ »^(١) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ،

القراءة غذاء النفس، وَخَفَافٌ^(٢) العقل، وقوام^(٣) الخلق، وَزُهِدُهُ الخلط
وهي أنس المستوحش، وسلوة المحزون، وسئل الخليل^(٤)، ولغة
البائس^(٥). حَتَّى الشرائع على تلهمها، ونزلت الكتب لفهمها، وأستنبط
الإنسان حر وفها، منذ خطا أول خطوطه في سبيل الحضارة. ولعلهم شأنها
وطيل قعيا كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم أقربها منوهاً بفضلها^(٦).
ولأمر ما جعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فدية من لم يكن له مال
من أسرى بدر تعليم عشرة من أصحابه الأنصار القراءة والكتابة.

والقراءة ميسار^(٧) يعرف به تقدم الأمم وتقهقورها : فانتشارها في
أمة وكثرة إقبال قرائنها على الكتب والصحف والمجلات علامة على
نبوغها وعلو كمنها في العلم والأدب؛ وعلى عكسها غيرها
وقراءة الكتب درس طائم لا يرتبط بمكان ولا زمان. ولا غنى ولا فقر؛

(١) من دم. (٢) أصل التفاض الآلة التي تُفَف بها الرياح : أى تعلل، والمراد بها
هنا الأمور التي تقوم العقل (٣) قوام الأمر نظامه وعماده وملاكه، أى القى يستقيم به
(٤) الفارغ من العمل (٥) التقدير المحتاج (٦) وهي قوله اقرأ باسم ربك الآية
(٧) المعيار والعبارة ما جعل نظاماً وأساساً لمعايرة الموازين والمكاييل والنفود ونحوها

فِتِلْقَاءُ الْقَارِئِ إِمَامَ الْمُعَلِّمِ، وَفِي سَاحَةِ الْمَدْرَسَةِ، وَبَيْنَ مَقَاصِدِ^(١) الْقُصُورِ،
وَمَقَاوِزِ^(٢) الصَّحَارَى، وَتَحْتَ ظِلَالِ الْأَشْجَارِ، وَعَلَى شَوَاطِئِ الْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ
وَفِي عَجَلَةِ الْقِطْرِ، وَعَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَفِي شَرْخِ^(٣) الشَّبَابِ، وَعَجَزِ
الشَّيْخُوخَةِ، وَفِي بَسْطَةِ الْغَنَى وَعَوَزِ^(٤) الْفَقْرِ. وَرُبَّمَا كَانَتِ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْإِلَهَةُ
الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَصْبَحَتْ مَيَّسَرَةً لِلْغَنَى وَالْفَقْرِ؛ لِقَلَّةِ أَثْمَانِ الْكُتُبِ وَالصُّحُفِ
بكَثْرَةِ أَنْتِشَارِهَا لِلطَّالِبِ

وَالْقِرَاءَةُ أَسْتَاذُ عَالِمٍ بِكُلِّ عِلْمٍ، مَاهِرٌ فِي كُلِّ فَنٍّ؛ فِينَهَا هِيَ قَصُّ عَلَيْنَا
أَخْبَارِ التَّارِيخِ، وَمَا صَنَعَهُ الْإِنْسَانُ مِنْذُ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتَعْمَرَهُ
فِيهَا، وَتَحَدَّثَنَا بِأَنْبَاءِ الرُّسُلِ وَمَا لَاقَوْهُ مِنْ أُمَمِهِمْ، وَتُعَدِّدُ لَنَا الْمُلُوكَ وَفَتْوَحَهُمْ،
وَالشُّعُوبَ وَحَضَارَتَهُمْ، إِذَا هِيَ تَصِفُ لَنَا الْأَرَضِينَ وَالْبَحَارَ، وَالشُّهُولَ وَالْجِبَالَ
وَمَا فِيهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ، وَمَمَائِنَ وَأَحْجَارٍ، وَمَسَالِكَ وَمَمَالِكٍ. ثُمَّ تَكْشِفُ
لَنَا بَعْضَ الْحُجُبِ عَنْ بَدِيعِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا: مِنْ شُمُوسٍ مُضِيئَةٍ،
وَأَقْيَارٍ مُتَشَكِّلَةٍ، وَسَيَّارَاتٍ^(٥) سَابِجَةٍ، وَنُجُومٍ ثَابِتَةٍ، وَشُهُوبٍ مُنْسَاقِلَةٍ. ثُمَّ
لَا يَزَالُ هَذَا الْأَسْتَاذُ الْعَلِيمُ يُبَدِّئُ كُلَّ جَدِيدٍ مِنْ حَقَائِقِ الْعُلُومِ وَدَقَائِقِ الْفُنُونِ
بِمَا أَفْتَى الْأَبَاءُ وَالْأَجْدَادُ الْوَلَفُ السَّنِينَ وَيَدْرُ الْأُمُورِ فِي اسْتِنْبَاطِهِ وَتَحْقِيقِهِ،
وَتَجَرِبَتِهِ وَتَهْذِيبِهِ، حَتَّى صَارَ قَوَاعِدَ مُطَرِّدَةٍ يُغْنِينَا الْعِلْمُ بِهَا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ

(١) جَمْعُ مَقْصُورَةٍ وَهِيَ الْحِجْرَةُ (٢) الْمَقَاوِزُ الْيَدَايُ لِلْمَلِكَةِ، جَلَّتْ كَأَنَّهَا مَكَانٌ

مَنْفُوزٌ قَائِلًا لِسَالِكِيهَا (٣) شَرْخُ الشَّبَابِ أَوَّلُهُ (٤) الْعُزْزُ الْحَاجَةُ (٥) جَمْعُ سَيَّارٍ
وَسَيَّارَةٌ. وَأَوَّلُ السَّيَّارِ الْكَثِيرِ السَّيْرِ، أَطْلَقَتْ عَلَى الْكَوَاكِبِ الَّتِي تَطُوفُ حَوْلَ غَيْرِهَا
كَالْكَوْكَبِ وَالْمَرْيَخِ وَالْأَرْضِ لِأَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ

تجارتنا الفعلية المشوبة^(١) بالتعاب والآلام. فلو أن ربنا^(٢) لا يهتر في
الملاحه حتى تكثر على يديه حوادث الفرق لكان ربنا شقياً. نحووماً من
التوفيق. والتاجر الذي لا ينجح في تجارته إلا بعد كثرة الخسائر، وتعدد
الإفلاس عاجز سبب الخط. وإن الحكمة التي لا تكسب إلا بالحن
والمصاب لعل حكمة عالية الثمن

وقراءة الكتب محدث لا يكذب، وراو لا يشك ولا ينسى، هما
تطاوالت على الكتب الدهور، واختلفت المصور

وقراءة الكتب إذا استوفت شروطها أعدت الطالب بعد خروجه من
الدرسة إلى أن يقف في مصاف العلماء وعظماء الرجال؛ فإننا نرى الطلبة
يذترسون على منهاج واحد، ونبالون شهادات متحدة الصفة، ثم يصير
بعضهم بعد سنين طالماً عظيماً وطلبها شهيراً، وتصبح الآخر خاملاً مستضعفاً؛
ذلك بأن الأول أكب على القراءة والتحصيل وتكميل معارفه، ونوى الآخر
ما تعلمه بأنمائه في غمار الكمالي القانعين بفضيل المكسب، المتساقطين
على أخونة القهوات تساطع الذباب، حيث يقتلون — كما يقولون —
أوقاتهم في لعب الزرد، أو القهقهة من نكتة لفظية، أو الشغب والصخب
في مناقشة عقيم

— وإذا أحسننا من القراءة صَجراً وساماً وقلة فائدة ظلم العيب منا
لا منها: بأن لم تكن تغيرنا الكتب المناسبة لنا ولم نسأل أهل الذكر عنها.
فإذا اتقينا كتاباً هروء يبنى أن تنهمة بتمعن حتى ترسخ له صورة مجلّة

فِي أَذْهَانِنَا نَسْتَيْدُّ مِنْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا . وَالْأَ تَطَرَّحَهُ مِنْ أَيْدِينَا حَتَّى نَنْقُلَ
إِلَى كُتُبَاتِنَا الْخَاصَةِ أَسْمَاءَ مَبَاحِثِهِ النَّافِعَةِ لَنَا فِي أَعْمَالِنَا وَمُنَاقَشَاتِنَا وَمُحَاضَرَاتِنَا
وَأَرْقَامَ صَفْطَاتِهَا

وَعَلَى مَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي فَنِّ الْأَ يَكْتَفِي بِقِرَاءَةِ كِتَابٍ وَاحِدٍ ، وَأَمَّا يَسْأَلُ
عِلْمَاءَ الْفَنِّ وَلُغَوِيَّاتِ خَزَائِنِ الْكُتُبِ وَالْوَرَاثَةِ صَمَّا أَلْفَ فِيهِ وَيَسْتَوْجِبُ مَا
يَعْتَرُ عَلَيْهِ مِنْهَا بِحُجَّتِهِ وَتَمْهِيمًا

نُجْبَاءُ الْأَبْنَاءِ

لَمْ يَخُورِ التَّارِخُ بَيْنَ دِفَاقِ^(١) كُتُبِهِ أَخْبَارًا أَغْزَرَ نَفْعًا وَلَا أَبْقَى أَثَرًا مِنْ
أَخْبَارِ عُلَمَاءِ النَّاسِ وَأَذْكَائِهِمْ ، إِذْ كَانُوا أَسْتَاذِي الْعَالَمِ وَمُضَكِّبِي نِظَامِهِ
وَوَاضِعِي عُلُومِهِ وَمُؤَسِّسِي حَضَارَتِهِ . وَلَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى
الْأَلْبَابِ يَمَنْ خَلَفَ مِنْ بَدَمِهِ لِيَقْتَنُوا أَثَرَهُمْ ، وَيُكْمِلُوا مَا لَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا قِصَصُهُمْ .
وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ صُحْبَةَ الْعُلَمَاءِ تَزِيدُ اللَّيْبَ عَقْلًا عَلَى عَقْلِهِ فَمَسَاعُ أَخْبَارِهِمْ
لَا يَقِلُّ كَثِيرًا عَنْهَا فِي هَذَا الْأَثَرِ . وَسَمِعَ الْمَأْمُونُ يَقُولُ : لَا شَيْءَ أَطْيَبُ مِنْ
النَّظَرِ فِي عُقُولِ الرِّجَالِ

وَلَيْسَ أَمْرُهُ الْفَقَارَى وَلَا أَعْجَبُ السَّمَاعِ مِنْ وَفْوِهِ عَلَى مَا كَانَ يَحْدُثُ
مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ ، وَهُمْ أَطْفَالٌ يَلْمَبُونَ أَمَامَ دُورِهِمْ ، أَوْ فِتْيَانٌ يَدْرُسُونَ فِي
مَكَاتِبِهِمْ . وَبِكَادِ يُكُونُ مِنَ اللَّتَقِّقِ عَلَيْهِ أَنْ لَا شَيْءَ أَشْعَى لِنَفْسِ الْوَالِدِ وَلَا
أَشْرَحَ لِمَصْدَرِ الْأَيْمِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَلَدٌ نَجِيبٌ يُصْبِحُ بِهِ كَالِهَ وَأَجْهَلِهِ

(١) دَفِيقُ الْكُتُبِ خِلْمَتُهُ الْفَتَانُ تَضَامُنُ بَيْنَهُمَا بِحِجَابِهِ مِنَ الْجُلْدِ وَالْقِرَاسِ لِلْقَوَى

قُرَّةُ أَعْيُنِهِمَا إِبْرَاهَانَ الصَّبَا وَسُلُوَّةَ أَفْتِدَتِهِمَا زَمَانَ الشَّيْخُوخَةِ. وَلَقَدْ يَتَرَفَّبُ كَثِيرٌ
 مِنَ الْآبِلَةِ وَالْمُطْعِنِينَ الَّذِينَ طَالَ عَهْدُهُمْ بِمَارِسَةِ تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ بِمَعْنَى أَمَارَاتٍ
 يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى نَجَاجَةِ الْفَيَّانِ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِمْ وَعَظَمَةِ مُسْتَقْبَلِهِمْ أَوْ عَلَى
 فَسَادِهِمْ^(١) وَخُضُولِهِمْ. فَمِنْ دَلَائِلِ النِّجَاجَةِ فِي الطِّفْلِ شِدَّةُ تَيْقُظِهِ لَمَّا يَلْقَى عَلَيْهِ،
 وَسَكِينَتُهُ، وَقِلَّةُ تَلَفُّتِهِ، وَسُلُوكُهُ جَادَّةَ التَّوَسُّطِ فِي الْمَلْعَبِ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَلْعَنِ،
 وَأَجْتِنَابُهُ مَا يَخْفَى ضَرَرُهُ مِنْ صَحْبَةِ الْأَشْرَارِ وَمُخَالَطَةِ الْكُفَّالِ. وَأَقْوَى
 الدَّلَائِلِ عَلَى نُبُلِهِ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ صَرَاحَتُهُ فِي الْقَوْلِ مَعَ تَوْخِي^(٢) الْأَدَبِ، وَتَوَقُّرِ
 الْكِبَرِ، وَشِدَّةِ رَغْبَتِهِ فِي تَجَرِيدِ مَا يَصْنَعُهُ وَتَثْبِيتِ مَا يَفْهَمُهُ، وَالْعَمَلُ عَلَى فَوْقِ
 أَقْرَانِهِ، وَإِعْجَابُهُ بِأَعْمَالِ عَظَمَاءِ الرِّجَالِ

وَالْيُ الْقَارِئُ بِمَعْنَى حِكَايَاتٍ قَصِيرَةٍ أَثَرَتْ عَنْ عَظَمَاءِ الْأَسْمِ فِي صَرَاحَةِ
 الْقَوْلِ وَاحْتِرَامِ الْعِلْمِ وَإِقَامِ الْمَجَادِلِ قَصَصَهَا عَلَيْهِ مِنْ حِينَ لَا خَيْرَ عَلَيْهَا تَبْدِيرُ كَامِنٍ
 هِمَّتِهِ، وَتَحَرُّكُهُ إِلَى الْمَجْدِ نَفْسَهُ

نُبُلُ عَبْدِ اللَّهِ بِهِ الرِّبَازُ^(٣)

مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بِصَيِّدَيْنِ يَلْعَبُونَ، وَفِيهِمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 الزُّبَيْرِ، فَهَرَاوَانِ رَأَوْهُ، وَثَبَتَ عَبْدُ اللَّهِ. فَقَالَ عُمَرُ: مَا لَكَ لَا تَقْرُبُ مَعَ
 أَصْحَابِكَ؟ قَالَ: لَمْ أَجْزِمْ فَأَخَافُكَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الطَّرِيقِ ضَيْقٌ فَأَوْسَعَ لَكَ

(١) قِلة المروءة والنفع (٢) تَوْخَى الْأَمْرَ تَحَرَّاهُ وَتَمَدَّدَ بَعْدَ تَأَمُّلِ

(٣) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ، دَعَا نَفْسَهُ بِالْخُلَاقَةِ زَمِنْ يَزِيدَ، وَبِأَيِّهِ أَهْلُ
 الْأَنْطِقَارِ مَا دَعَا الشَّامَ، وَبَقِيَ فِي مَكَّةَ حَتَّى زَمَنَ عَبْدُ الْمَلِكِ، فَبِثَّ إِلَيْهِ بِجَيْشٍ عَلَى رَأْسِهِ
 الْحِجَاجَ فَتَلَاهُ سَنَةَ ٥٧٣ هـ

محل المأمون

رَوَى عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الزَيْدِيِّ^(١) أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أُؤَدِّبُ الْمَأْمُونَ ، وَهُوَ فِي كَيْفِ التَّسْمِيدِ الْجَوْهَرِيِّ ، فَجِئْتُ دَارَ الْخِلَافَةِ ، وَسَعِيدٌ قَادِمٌ إِلَيْهَا . فَوَجَّهْتُ إِلَى الْمَأْمُونِ بَعْضَ خُدَامِهِ يُطْلِمُهُ بِمَكَانٍ ، فَأَبْطَأَ عَلَيَّ ، ثُمَّ وَجَّهْتُ آخَرَ فَأَبْطَأَ . فَقُلْتُ لِسَعِيدٍ : إِنَّ هَذَا الْفَتَى رُبَّمَا تَشَاغَلَ بِالْهَيْلَةِ وَتَأَخَّرَ . فَقَالَ : أَجَلُ ! وَمَعَ هَذَا إِنَّهُ إِذَا طَوَّقَكَ تَرَمَّ^(٢) عَلَى خَدَمِهِ ، وَلَقُوا مِنْهُ أَذَى شَدِيدًا . فَقَوَّمَهُ بِالْأَدَبِ . فَلَمَّا خَرَجَ تَنَاوَلَتْهُ بَعْضُ التَّأْدِيبِ . فَإِنَّهُ لَيَذِلُّكَ عَيْنِيهِ مِنَ الْبُكَاهِ إِذْ قِيلَ : جَعْفَرُ بْنُ بِيحَى (الوزير) قَدْ أَقْبَلَ . فَأَخَذَ مِنْدِيلًا فَمَسَحَ عَلَيْهِ ، وَجَمَعَ رِيَابَهُ ، وَقَامَ إِلَى فِرَاشِهِ ، فَتَعَدَّ عَلَيْهِ مَتْرَبًا . ثُمَّ قَالَ : لِيَدْخُلْ فَصُفِّتْ عَنِ الْمَجْلِسِ ، وَخِفْتُ أَنْ يَشْكُونَنِي إِلَيْهِ فَأَتَيْتُ مِنْهُ مَا أَسْكُرُهُ . (قَالَ) فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ ، وَخَدَمَتُهُ حَتَّى أَصْحَكَ وَضَحِكَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا هَمَّ بِالْحُرُوكَةِ دَمَا الْمَأْمُونُ بِدَابَّةِ جَعْفَرٍ ، وَدَمَا غُلَامَاتِهِ فَسَمِعُوا بَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ سَأَلَ عَنِّي ، فَجِئْتُ . فَقَالَ : خُذْ عَلَيَّ بَقِيَّةَ حِزْبِي^(٣) . فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَطَالَ اللَّهُ بِقَالِكَ ، لَقَدْ خِفْتُ أَنْ تَشْكُونَنِي إِلَى جَعْفَرِ بْنِ بِيحَى . وَلَوْ فَطَلْتُ لَتَشْكُرَنِي . فَقَالَ : تُرَانِي يَا أَمِيرَ مُحَمَّدٍ كُنْتُ أَطْلِعُ الرِّشِيدَ عَلَى هَذِهِ ؟ فَكَيْفَ^(٤) بِجَعْفَرِ بْنِ بِيحَى حَتَّى أَطْلِمَهُ أَنَّنِي أَتَّحِاجُ إِلَى أَدَبٍ ! خُذْ فِي أَمْرِكَ ، حَافَكَ اللَّهُ ! فَقَدْ خَطَرَ بِكَ مَا لَا تَرَاهُ أَبَدًا ، وَلَوْ عَلِمْتُ إِلَى تَأْدِيبِي مِائَةَ مَرَّةٍ

(١) هو أبو محمد يحيى بن الخيرة المقرئ النحوي توفي سنة ٢٠٢ هـ (٢) اعتدى عليهم

(٣) اسم لي بقية درسي (٤) الباء زائدة ، وكيف خبر مقدم ، وجعفر مبتدأ مؤخر

ولم المأمون

نظر المأمون إلى ابن صغير له في يده دَفْتَرٌ، فقال: ما هذا الذي يديك؟
فقال بعض ما تُسَجِّلُ بِهِ الْفِطْنَةَ، وَيُبَيِّنُ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَتُؤَنِّسُ مِنَ الْوَحْشَةِ. فقال
المأمون: الحمد لله الذي رزقني من ولدي مَنْ يَنْظُرُ بَيْنَ عَقْلِهِ أَكْثَرَ مِمَّا
يَنْظُرُ بَيْنَ جِسْمِهِ وَسِنِّهِ

نبأه عبد الله بن المعتز^(١)

قال محمد بن ظفر^(٢) الصَّقَلِيُّ بلغني أن أبا العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله
نطق بالحكمة صغيراً؛ فكان مما حفظ عنه في صباه أن مؤدِّبَه قال له: لقد
همتُ بتأديك لشيء كان منك، ثم رأيتُ التجاوَزَ عنكَ أَوَّلِي. فقال له
عبد الله: أصلحك الله! إنك تُرَادُّ للتأديب لا للتجاوُزَ، وإنه يلزم الحارِمَ
قبل أن يُنَبِّهَ على عَفْوِهِ أن يُنَبِّهَ للمسيء على إِسَاءَتِهِ: ليتجافى عن أشباه زَلَّتِهِ،
ويُنْزَلَ الْعَفْوُ بِمَنْزِلَتِهِ.

٥٠ وسأله مؤدِّبُه أن يكتبَ كتابَ شِفَاعَةٍ لِإِنْسَانٍ يَمُرُّ عَلَيْهِ؛ فجعل يتباطأ
في كتابته، وطلبُ التأمُّلِ. فقال له مؤدِّبُه: اكتبْ على ما خِلْتَ؛
ظننتُ مَنْ يَتَّقِدُّ عَلَيْهِ. فقال: كَلَّا! إِنْ عَقَلَ الْكَاتِبُ فِي قَلْبِهِ.

(١) هرايزن المعتز الخليفة العباسي كان طلياً كاتباً شاعراً، خرج رؤساء الكتاب على
المقتدر خليفتهم وبايعوا ابن المعتز قاتر غلمان المقتدر وقتلوه من يومه (٥٢٩٦) (٢) أحد
علماء صِيقَلِيَّة ومؤلف «أنباء نجيلاء الأبناء» و«سلوانة المطلاع» توفي بحياة سنة ٥٦٥
تُرْجَمَةُ الطُّرَيْ (٢)

فصل العقل

(قل الأصمعي) ^(١) قلت لفلان حدث السن من أولاد العرب أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنتك أحق؟ فقال: لا والله! قلت ولمة؟ قل: أخاف أن يميني على حنقي جناية تذهب مالي ويبقى على حنقي.

صبي يغم فيلسوفا

قل ثمامة بن أسير أحد كبار المتكلمين من المعتزلة زمن المأمون: دخلت إلى صديق لي أعوده، وتركت حماري على الباب، ولم يكن معي غلام، ثم خرجت وإذا بصبي عليه قفلت: أتركب حماري خير إذن؟ قل: خفت أن ينهب فخطئه لك: قلت لو ذهب ما باليت بذهابه. قل: فإن كان هذا رأيك في الحمار فأعمل على أنه قد ذهب وهبه لي، وأرجع شكري. فلم أدر ما أقول.

مقطعات شعرية

التعلم في الصغر

أنشد أبو عبد الله قَطَوِيَه لنفسه رحمه الله ^(٢)

لَرَأَيْتِي أَنَّمَا تَمَلَّكْتُ فِي الْكِبَرِ وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَمَلَّكْتُ فِي الصِّغَرِ
وَمَا أَلَيْمُ إِلَّا بِالتَّعْلُمِ فِي الصِّبَا وَمَا أَلِظُّ إِلَّا بِالتَّعْظُمِ فِي الْكِبَرِ

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرْبُكْ كلن راوية زما نه توفى سنة ٢١٦ هـ

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي القرني الشاعر توفى سنة ٣٣٣ هـ

وَلَوْ فُتِقَ الْقَلْبُ الْمُتَلَمِّمُ فِي الصَّبَا
وَمَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إِلَّا تَصَفُّ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا اثْنَانِ : عَقْلٌ وَمَنْطِقٌ
لَأَتَى فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ
إِذَا كَلَّ قَلْبُ الْمَرْءِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ
فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا وَهَذَا فَقَدْ دَمَرُ^(١)

التعلم في الصغر أيضا

وَمَا يُنْشَدُ خَلْفَ الْأَحْمَرِ^(٢)

خَيْرُ مَا وَرَثَ الرِّجَالُ بَنِيهِمْ
هُوَ خَيْرٌ مِنَ الذَّنَائِيرِ وَالْأَوْ^(٣)
تِلْكَ تَقَى وَالِدَيْنِ وَالْأَدَبُ الصَّ
لِحَ لَا يَفْنِيَانِ حَتَّى الْفُلُكَاءُ^(٤)
لِنْ تَأْدَبْتَ يَا بَنِي صَغِيرَا
وَإِذَا مَا أَضَعْتَ نَفْسَكَ الْفِي^(٥)
لَيْسَ عَطْفِي لِلْعُودِ إِنْ كَانَ رَطْبًا
أَدَبٌ صَالِحٌ وَحُسْنُ ثَنَاءٍ
رَاقٍ فِي يَوْمٍ شِدَّةٍ وَرَخَاءٍ
كُنْتَ يَوْمًا تَمُدُّ فِي الْكِبَرَاءِ
مَتَ كَبِيرًا^(٦) فِي زُرَّةِ الْغَوَاةِ
وَإِذَا كَانَ يَابِسًا بِسَوَاءِ

العلم والعمل

ومن شعر لمنصور الفقيه

أَيُّهَا الطَّالِبُ الْحَرِيصُ تَلَمَّ
لَيْسَ يُجْدِي عَلَيْكَ عِلْمُكَ إِنْ لَمْ
قَدْ تَلَمَّرِي أَغْتَرَبْتُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ
وَلَقِيتَ الرِّجَالَ فِيهِ وَرَاحُضْتَ عَلَيْهِ الْجَمِيعَ حَتَّى سَمِعْتَهُ
إِنَّ لِلْحَقِّ مَذْهَبًا قَدْ صَلَّتَهُ
تِلْكَ مُسْتَعْمِلًا لِمَا قَدْ عَلِمْتَهُ
وَحَاوَلْتَ جَمْعَهُ فَجَبَّعْتَهُ
وَرَأَيْتُ الرِّجَالَ فِيهِ وَرَاحُضْتَ عَلَيْهِ الْجَمِيعَ حَتَّى سَمِعْتَهُ

(١) أى هلك (٢) كان رواية للشعر والأدب وشيخنا من شيوخ النحويين
البرصيين توفي سنة ١٨٠ هـ (٣) جمع ورَق مثله وهى الدراهم المضروبة من الفضة
(٤) يوم اللقاء أى لقاء الله وهو يوم القيامة (٥) أى وجدت (٦) نصب على الحال

ثُمَّ صَبَّحْتَ أَوْ نَسِيتَ، وَمَا يَنْفَعُ عِلْمٌ نَسِيَتَهُ أَوْ أَضَعَتْهُ
وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ عِلْمُكَ إِنْ لَمْ يُجِدْ قَعًا عَلَيْكَ أَمْ مَا جَعَلَتْهُ
كَمْ إِلَى كَمْ تُخْلِعُ النَّفْسَ جَهْلًا ثُمَّ تُجْرِي خِلَافَ مَا قَدْ عَرَفَتْهُ
تَصِفُ الْحَقَّ وَالطَّرِيقَ إِلَيْهِ فَإِذَا مَا عَمِلْتَ خَالَفتَ سَمَتَهُ^(١)

عجائب الدنيا

فَطَرِ الْإِنْسَانَ عَلَى الْمَجَبِّ مِمَّا لَمْ يَأْلَفْهُ، أَوْ مَا حَوَى سِرًّا يَجِزُّ مِنْ
تَأْوِيلِهِ؛ فَكُلٌّ فِي أَوَّلِ أَطْوَارِ بَدَاوَتِهِ وَأَعْصَارِ جَاهِلِيَّتِهِ يُنْذِرُ لِرُؤْيَةِ الدُّوَابِّ
الْهَالِكَةِ الْخَلْقَةِ أَوِ الدَّقِيقَةِ الْإِلْهَامِ أَوِ الْمُرْقَشَةِ الْأَلْوَانِ أَوِ الرَفِيقَةِ الْعَمَلِ،
وَسَعْدٌ مِنَ الْعَجَائِبِ شُرُوقُ الشَّمْسِ وَغُرُوبُهَا، وَتَهَاوُتُ حَرِّهَا وَبَرْدُهَا،
وَتَزَايِدُ الْقَمَرِ وَتَنَاقُصُهُ، وَزُرُوعُ الْكَوَاكِبِ وَأَفْوَلُهَا، وَتَسَاقُطُ الشُّهُبِ،
وَأَنْتِيَابُ الزَّلَازِلِ، وَكَانَ مَعَ قَرُطِ حَيَرَتِهِ فِي مَعْرِفَةِ كُنْهَيْهَا^(٢) وَإِكْبَارِهِ
لَأَمْرَاهَا يَرَى لَهَا مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرَرِ مَا جَعَلَهُ يُعْظِمُ النَّافِعَ مِنْهَا أَبْتِغَاءَ قَعِّهِ،
وَيَسْتَلِيقُ الضَّارَّ أَتْقَاءَ شَرِّهِ. وَلَيْسَ تَعْظِيمُهُ هَذَا وَتَقْلُقُهُ ذَلِكَ الْأَشْرُوبَاكَ مِنَ
الْيَبَادَةِ؛ فَبَدَدَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَالْقِيلَ وَالْبَقَرَ كَمَا عَبْدَ
الْمَتَاسِيحِ وَالْحَيَاتِ

فَلَمَّا أَلِفَ فِطْرُهُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْفِطْرِيَّةَ، وَتَعَهَّمْ أَسْرَارَ الْكَثِيرِ مِنَ
الْمَشَاهِدِ الْكُونِيَّةِ، وَأَصْبَحَ بَنُو جَنْسِهِ يُهَيِّمُونَ بِأَيْدِيهِمْ مَا يُسَامِي الْجِبَالَ

وَنُطَاطِحُ السُّحَابِ : مِنَ الْبُرُوجِ الْمَشِيدَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْمَنَاقِبِ الشَّاهِقَةِ ،
وَمَا يُمَاطِلُ الْحَيَوَانَ مِنَ التَّمَائِيلِ الْهَائِلَةِ وَالصُّوَرِ الْبَدِيعَةِ ، وَمَا يُجَاكِي أَصْوَاتَ
الْمُفْرَدَاتِ : مِنَ الْآلَاتِ الْمُطَرَّبَةِ ، وَمَا يُضَاهِي أَلْوَانَ الزُّهْرِ وَرَيْشِ الطَّيْرِ .
وَأَجْنِحَةُ الْفَرَاشِ مِنَ الْأَصْبَاغِ الْمُؤَلَّفَةِ وَالْمُخْتَلَفَةِ الَّتِي زَخَرَفَ بِهَا الْقُصُورَ ،
وَنَقَّ بِهَا الْبُسْطَ وَالطَّنَافِيسَ ، أَخَذَ مَجْرَى عَجَبِهِ يَتَحَرَّفُ رُؤْيَا إِلَى مَا هُوَ
بَدِيعٌ مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِ ؛ حَتَّى رَأَيْنَا مُؤَرِّخِي السَّلَفِ وَجَوَابَةَ الْآفَاقِ مِنْ
الْعُلَمَاءِ إِذَا أَحْصَوْا عَجَائِبَ الدُّنْيَا قَلَمًا يَدْرُجُونَ فِي إِحْصَائِهِمْ بَعْضَ
الْعَجَائِبِ الْفِطْرِيَّةِ

فَقَالَ الرُّومَانُ مَثَلًا : إِنَّ عَجَائِبَ الدُّنْيَا سَبْعَةٌ ^(١) ؛ عَدَّوْا مِنْهَا أَسْوَارَ بَابِلَ
وَحَدَاقِمَهَا الْمَلَقَةَ ، وَتَمَثَّلَ رُودِنْسَ الْهَائِلِ وَمَنَارَةَ الْأَسْكَندَرِيَّةِ . ثُمَّ لَمَّا ضَرَبَ
السُّلْحُونَ لِبَعْدِنَا هَذَا فِي الْأَرْضِ وَطَوَّفُوا الْمَمَالِكَ وَالْأَمْصَارَ صَارَتْ عَجَائِبُ
الدُّنْيَا تَعْدًا أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةٍ فِي جَمَلِهَا سُوْرُ الصِّينِ الْأَعْظَمُ وَبُرْجُ يَزِيدِ الْهَائِلِ .
وَأَتَّفَقَ الْمُتَقَدِّمُونَ وَالْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى أَنَّ مِنْ أَعْجَبِهَا هَرَمِي الْجِيزَةِ مِنْ مِصْرَ .

(١) هِيَ الْأَهْرَامُ وَالثَّلَاثَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الصَّلْبِ ، وَالْخَامِسُ مَعْبَدُ دِيَانَةِ بَافُسُوسَ مِنْ
الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ لَأَسِيَا الصَّغْرَى بَنَاهُ مَهَنْدَسُو الْإِغْرِيقِ فِي أَيَّامِ الْأَسْكَندَرِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ
حَوْلَى سَنَةِ ٣٣٠ ق . م ، وَدَمَرَهُ الْقَوُوطُ سَنَةَ ٦٦٢ م ، وَكُشِفَ سَنَةَ ١٨٨٣ م وَقَدِّرَ أَنَّهُ كَانَ
٤١٨ قَدَمٌ فِي ٢٣٩ قَدَمٍ . وَالسَّادِسُ تَمَشَالُ جَبْتِيرَ (الْمَشْتَرَى) بِأُولِيَا صَنْعِهِ فِدَاسُ
الشَّهْرِ سَنَةَ ٤٥٠ ق . م فِي الْبَيْسِ بِالْمُورَةِ ، وَكَانَ ارْتِفَاعُهُ ٤٠ قَدَمًا يَمَثَلُ جَبْتِيرَ
جَالِمًا مُرْتَدِّيًا قَاضِيًا يَدَهُ الْيَمْنَى عَلَى رِمَازِ النَّصْرِ ، وَالْمُظَنُّونَ أَنَّهُ كَانَ مَكْنَى الْمَصْدَرِ وَالْوَجْهَ
بِالطَّعْجِ الْمَكْنَفِ بِالْقَهْبِ عَلَى صُورِ أَزْمَارٍ . وَالسَّابِعُ ثَاوُسُ أَرْتَمِيْزِيَا فِي هَلِيْكَرَتَاسَ . عَلَى
شَاطِئِ الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ لَأَسِيَا الصَّغْرَى ، بَنَتْهُ أَرْتَمِيْزِيَا لِزَوْجِهَا أَحَدُ وُلَادَةِ الْفَرَسِ سَنَةَ ٣٨٠ ق . م

أسوار بابل

فأما أسوارُ بابل فكانتُ أسواراً هائلةً الشان، سميعةً البُنْيَانِ، تُحِيطُ
بمدينةِ بابلِ العظيمةِ التي كانت في إِبَّانٍ عَظَمَتِهَا أَى منذ ٢٥٠٠ سنة تقريباً
تَشْغُلُ مِنْ بَسِيطِ الأرض ما يبلغ نحو مائة ميلٍ مُرَبَّعٍ
وكان عُلُوُّ الأسوارِ في بعضِ جهاتها يبلغُ ٣٣٥ قدَمَ في سَمَكِ ٨٥ قدماً،
عليها نحو مائة بابٍ كلها من الصُّغُرِ^(١)

وكان بالمدينةِ جُلَّةٌ صُروح كالأهرامِ المدرَّجةِ كثيرة الغرف والنوافذ
ومن بينها بُرْجُ بابلِ العظيمِ المضروبُ به المثلُ في الارتفاعِ
وكان من مرافقِ القصرِ المملُكيِّ بالمدينةِ (حداثُ بابلِ المُعلَّقةِ) المشهورة
وهي حداثُ بديعةٌ غُرِسَتْ أشجارُها في أَصْصٍ^(٢) هائلةٍ من الفخارِ، ملئتُ
بالطينِ، ونُصِبَتْ عَلَى قناطرٍ رُفِيتْ عن الأرضِ بنحو ٧٥ قدماً. في شكلِ
مُرَبَّعٍ، ضِلَعُهُ نَحْوُ ٤٠٠ قدَمَ. وكان الماءُ يَهِيلُ إليها من نَهْرِ الفُراتِ بِطُنُوبٍ
لَوَلِيِّ عَجِيبٍ يَدُورُ عَلَى مِحْوَرِهِ

تمثال رودس

وأما تمثالُ رُودِسَ الهائلُ فكانَ تمثالاً عَظِيماً من الشَّبَةِ^(٣) يُنْتَلُ أَحَدَ مَعْبُودَاتِ
اليونانِ، أَرْقاعُهُ ١٢٠ قدَمٍ، أُقِيمَ عِندَ مَدْخَلِ مِيناءِ رودس سنة ٢٨٠ ق. م،
ثم سقط سنة ٢٢٤ ق. م على أثر زَلْزَالٍ شَدِيدٍ، قَهَقَمَ، وَبَقِيَ أَقْصَاهُ
(١) النحاس الأصفر (٢) جمع أبيض وهو وِطْلٌ شبه نصفِ جِرَّةٍ تَقرَسُ فيه
الرياحين (٣) هو ما يسمى (البُزْبُز)

هناك الى أن استولى العرب على جزيرة رودس سنة ٦٥٦ م ، فبيعت من
أحد تجار اليهود ، فسخّر في حملها ألف رجل

منارة الإسكندرية

وأما منارة الإسكندرية أو منارة فاروس^(١) فهي منارة عظيمة بناها
بطليموس الثاني ما بين سنتي ٢٨٣ و ٢٤٧ ق . م ليكون هداية للسفّار^(٢)
في البر والبحر ومرفأ تلج منه السفن على بُعد عظيم ، وكان يؤقّد في رأسها
النيران ، فترى على أكثر من سبعين ميلاً . ولم يعلّم مقدار ارتفاعها
بالضبط زمن البطالسة . وأعدّل الأقوال فيه أنه أربعمائة ذراع بالذراع
السوداء^(٣) . والمشهور أنه سقط من أعلاها زمن الوليد من بني أمية مقدار
عظيم حامت الظنون والتخوّصات حول سبب سقوطه
وكانت هيئتها مركبة من ثلاثة أشكال : الأول منشور رباعي ، والأوسط
منشور مثنى مساحة قاعدته أصبغ ذراعاً ممّا قبله ، والأعلى مدور أسطوانى .
ولعل المصريين قد حاكوا هذا الشكل في بناء منارات مساجدكم ولا سيما
ما بئى منها زمن المماليك

ولما استبد أحد بن طولون بمصر رمّمها ، وبني عليها قبة من خشب
أطارتها الرياح بعد زمن ، وكذلك أصلح ما تشعّت من جانبها ابنه أبو العيش
خيارويه . ثم حدثت في سنة ٣٤٤ هـ زلزلة عظيمة أسقطت من أعلاها نحو

(١) نسبة الى جزيرة فاروس وكانت منفصلة عن الاسكندرية ثم وصلت بها

(٢) جمع سافر لا فعل هـ (٣) هي الذراع العباسية النبيلة

ثلاثين ذراعاً. وشاهدنا ابن جبير^(١) الرحالة المشهور سنة ٥٧٨ هـ في علو نحو خمسين ومائة قامة، وزرع ضلع قاعدتها السفلى، فكان ذرعها أكثر من خمسين ذراعاً، وذكر أنه صعد فيها وصلى في المسجد الذي بئى في أعلاها، فشهد من شأن مبناه عجيباً لا يستوفيه وصف واصل؛ وفي أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى تداعى بعض أركانها، فأمر يئله ما نهضم سنة ٦٧٣ هـ وأخذ بناء المسجد، ولكنه سقط في سنة ٧٠٢ هـ في زلزال عظيم، ثم جددته الأمير ركن الدين بيبرس الجشنيكي سنة ٧٠٣ هـ ووصفها بعد ذلك الرحالة ابن بطوطة^(٢) عند وصوله إلى مصر الاسكندرية ابتداء رحلته سنة ٧٢٦ هـ فقال ما خلاصته:

قصصت المنار فرأيت أحد جوانبه مهدماً. وصفت أنه بناه مربع ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبّر عليها إلى بابه فإذا أزيلت لم يكن له سبيل؛ ودخل الباب موضع لطوس حارس المنار، ودخل المنار بيوت كثيرة، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع أربعون ومائة شبر، وهو على تلة مرتفع الخ. ثم قال:

- (١) هو الرحالة المشهور الكاتب الشاعر الأديب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنتاني البلسي، جاء إلى مصر وحج ودخل العراق والجزيرة والشام ورجع إلى بلاده ثم عاد إلى الاسكندرية وتوفي بها سنة ٦١٤ هـ
- (٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي ذهب إلى مصر والحجاز والعراق والروم وقارس وبلاد القبرك والمند والصين والسودان والاندلس

وَقَصَدْتُ الْمَنَارَ عِنْدَ عَوْدِي إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ سَنَةَ ١٧٥٠ هـ فوجدته قَدْ
اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَرَابُ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دُخُولُهُ وَلَا الصُّعُودُ إِلَى بَابِهِ اهـ
ثم تساقطت المنارة بحقب ذلك . فلما زار السلطان الملك الأشرف قايتباي
مصر الاسكندرية سنة ٨٨٢ هـ وكان مولماً بالمهارة ، رَسَمَ بأن يُنْشَأَ عَلَى أُسَاسِهَا
بُرْجٌ عَظِيمٌ قَبِيْلَ شَمِّ هَدْمِ ، وَيُنْشَأُ عَلَى أُسَاسِهِ مُجَلِّدٌ مِصْرَ مُحَمَّدٍ عَلَى بِلَاسِهَا
حَصْنًا سُمِّيَ وَلَا يَزَالُ يُسَمَّى حِصْنِ (طَايَةِ) قَايْتَبَايَ ، وَقَدْ شَعْنَتِ الْأَسَاطِيلُ
الْأَنْجَلِيزِيَّةُ عِنْدَ ضَرْبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ زَمَنَ الثَّوْرَةِ الْمَرَايَّةِ . وَبَقِيَ مَا وَى لِبَعْضِ
خَفَرِ السَّوَاخِلِ ، وَهُوَ الْآنَ فِي حُكْمِ الْخَرَابِ

سور الصين

وَأَمَّا سُورُ الصِّينِ أَوْ السُّدُّ الْأَعْظَمُ فَهُوَ أَهْوَلُ مَا بَنَتْهُ أَيْدِي الْجَبَّارِينَ



سور الصين

مِنْ بَنَى آخَمَ . أَمَرَ بِإِقَامَتِهِ عَاهِلُ الصِّينِ الْعَظِيمُ شَيْ هُوَنْجِ قِي فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ
الثَّالِثِ مِنَ الْمِيلَادِ شِمَالِيَّ بِلَادِهِ ؛ لِيَنْفِخَ عَنْهَا غَارَاتِ الْمَشُولِ وَالْتَارِ ؛ فَلَمَّا
نَزَعَهُ الْهَارِي (٣)

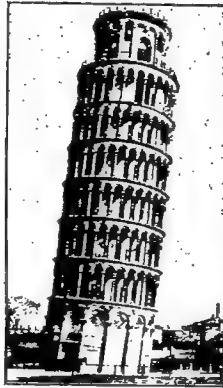
على طول ألفي ميل وأكثر، وأقام عليه من الأبراج والقلاع ما لا يقل عن ٧٥٠٠٠ قلعة. وقد طال عليه الزمان، وعَبَقَتْ بِهِ يَدُ الْحَدَثَانِ، ولكنه لا يزال موضعَ دَهْشَةِ النَّاظِرِينَ وإِكْبَارِ السَّامِعِينَ، فلم يقع عليه نظرُ إنسانٍ إلا وقد هالَتْهُ رُؤْيَاهُ، وَعَدَّهُ أَعْجَبَ عَجَائِبِ الدُّنْيَا، وَأَيَّمنَ أَن لا يُضَاهِيَهُ بِنَاؤُ آخَرٍ في صَخْلَتِهِ وكَثَرَةِ مَنْ سَخَّرُوا فِي بِنَائِهِ. ولا عَجَبَ فَقَدْ قَال كاتبٌ من الثَّقَاتِ: إِنَّهُ لَوْ أُسْتَمْلِتْ أَقْصَاهُ فِي بِنَاؤِهِ مِنْطَقَةٌ عَلَى طُولِ خَطِّ الاسْتَوَاءِ لَأَوْفَتْ عَلَى إِقَامَةِ سُورٍ حَوْلَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ يَبْلُغُ عُلُوُّهُ ثَمَانِي أَقْدَامٍ، وَمَمْلَكَةُ ثَلَاثِ أَقْدَامٍ: وَإِنَّ ذَلِكَ لِيُقَرَّبُ إِلَى أَذْهَانِنَا مَقْدَارَ مِثَالِ الْأُلُوفِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ سَخَّرُوا فِي بِنَائِهِ، وَمَبْلَغَ مَا طَوَّقَهُ هُمْ وَأَهْلُوهم مِنَ الْقَمَسِ وَالشَّوْءِ خَلْفًا بَدَ خَلْفٍ. ولقد كَانَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَشْتَرِ الصِّينِيُّونَ لِمَهِلِهِمْ هَذَا الْعَسْفَ الْمَبِينَ لَوْجِي السُّورِ مَانِعًا لَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ؛ وَلَكِنْ أَتَتْهُ الْمُقْلَابُ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ؛ فَلَمْ يَمُضْ عَلَى إِيْصَامِ السُّورِ عَهْدٌ طَوِيلٌ حَتَّى تَوَاتَرَتْ غَارَاتُ النَّارِ وَالْمُغُولِ عَلَى الصِّينِ إِلَى مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ

برج يزا المائل

وأما د. برجُ يزا^(١) المائل، فكان بُرْجًا لِلْكَنِيسَةِ الْأُسْقُفِيَّةِ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ يُدَقُّ مِنْهُ نَاقُوسُهَا، بُنِيَ فِي سَنَةِ ١١٧٤ م مِنَ الرُّخَامِ الْأَيْضِ عَلَى يَدِ اثْنَيْنِ مِنْ مَهْنَدِسِي مَدِينَةِ أَنْزِرُوكْ مِنْ أَعْمَالِ التَّيْرُولِ. وَقَدْ حَدَثَ فِي قَاعِلَةِ أَسْلَاسِهِ بَعْضُ ارْتِجَاجٍ فَجَأَتْ أَفْضَى إِلَى ارْتِكَاظِهِ فِي مَوْضِعِهِ الْمَائِلِ الَّتِي يَرَى

(١) مِنْ مَدَنِ إِيْطَالِيَا

عليه الآن. وإن الناظر الى هذا البرج لَيَدْعُو من بقاءه ثابِتاً مع شتّة تيّله؛
إذ يبلُغُ انحرافُ قِمَّتِهِ عن النّصْبِ المودى نحو أربع عشرة قدماً. والظاهرُ أنه



برج وينا المائل

حدّثَ قريباً بمضْ أهُزَازاتٍ أُخرى في أُسْلَمِهِ جعلتْ هذا الأثرَ المَجِيبَ
مُهْدِداً بِالسَّقُوطِ . ومع ما يقومُ به الآنُ أُولُو الشَّأْنِ من الأَحْطِياظِ لتلافي ذلكَ
يقولُ المارِفُونُ إِنَّهُ سَيَسْقُطُ عما قَرِيبٍ لا عِالَةَ . والمُظَنُّونُ أَنَّ الدِّينَ يَنْظُرُونَ
إلى صورته المَدْرَجَةِ في هذا الكتابِ لا تُتَأَخَّرُ لَهُمْ مِشَاهَدَتُهُ قَبْلَ سَقُوطِهِ

ملهى رومية (الكولسيوم)

وأما ملهى الكولسيوم رومية فهو بقعة عظيمة بيضيّة الشكل شاهقة
الجلتان، كثيرة الطيقان، محيط دائرها ٥٧٧ ذراع فرنسية، وقطره الأصغر
١٥٥ ذراع، والأكبر ١٧٨ ذراع

بناه الماهل الروماني فسبسين حول بركة كانت وسط حدائق الطاغية
المهل نيرون، وأتمه الماهل طيطس ليكون ملهى يجتمع أعيان رومية
ورجال حكومتها

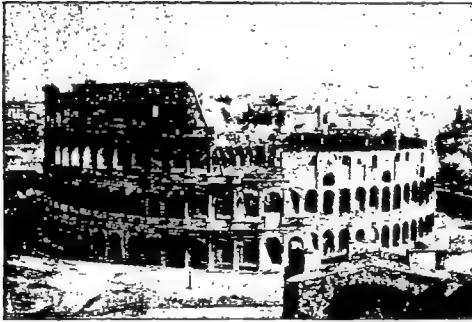
وكان يستند الى جداره العظيم من الداخل مقاعد مندرجة بعضها فوق
بعض تسع لجلس خمسين ألف مشاهد، وتطيف بقاع متسع من الأرض:
وهو بركة نيرون. وقد صنع لها أقنية وجداول تنساب فيها المياه من
بحيرة قريبة بحيث يمكن تجفيفها فتصبح ممرحاً، أو ملوها فتعود بحيرة
وقد نصبت على الملهى قبة عظيمة من أفواس ووشائج^(١) من الحديد،
فحُترت عليها مظلة من النسيج المزوّق بصورة السبل والكواكب، يظللها
أنايب تنبعث منها للروائح الذكية

وكان به لقياسة الرومان وحاشيتهم مقاصير خاصة بهم وبسائهم، تليها
مراتب أهل الدولة وقوادها وحكامها الذين يهرعون إليه في أيام الزينة
والفعل بصير أو عيد، ويدخلونه من ثمانين باباً

(١) أصل الوشائج جمع وشيجة وهي ما التفت من عروق الشجر أو أغصانه
للتشبكة شبت بها قضبان الحديد المشبكة

وفي عام ٢١٧م أُلْقِيَتْ عَلَى الْمَلْهَى صَاعِقَةٌ دَمَرَتْ مِنْهُ جَانِبًا ، فَرُمَتْهُ
بَعْضُ الْقِيَاصِرَةِ

وكانتِ لِلشَّاهِدِ الَّذِي تَقَامُ فِي هَذَا الْمَلْهَى صُنُوفًا شَتَّى : مِنْهَا الْمَقْبُولُ الْمُحْمَدُ
وَمِنْهَا الْمُسْتَحْجَنُ الْفَطِيحُ ، وَإِنْ كَانَ كِلَاهُمَا مُسْتَمْلَكًا فِي عُرْفِ الرُّومَانِ
فَنَ الْمَقْبُولِ - وَهُوَ أَكْثَرُهَا - تَمَثِيلُ بَعْضِ الْقِصَصِ وَالْأَسَاطِيرِ وَإِجْرَاءُ
بَعْضِ الْأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَةِ وَالتَّمْرِينَاتِ الْمُسْكِرَةِ : مِنْ مُبَارَاةِ الْأَقْرَانِ ،



ملهى رومية (الكولسيوم)

وَمُسَارَعَةُ الْفَتَيَانِ ، وَمُسَابَقَةُ الْجِيَادِ وَالْحَبَلَاتِ . وَمُبَارَاةُ الْمُدَايِنِ . وَكَانَتْ
الْمِيَاءُ إِذَا أُطْلِقَتْ عَلَى سَاحَةِ الْمَلْهَى مِنَ الْبَحِيرَةِ الْقَرِيبَةِ دَخَلَ مِنْ جُدُولِهَا
بَعْضُ الْقَوَارِبِ ذَوَاتِ الْجَادِيْفِ وَالشَّرْعِ فَتَجْرِي فِي الْبِرِّ كَمَا تَمْسَاقَةُ عَلَى رِيْهَانٍ
وَمِنْهَا غَيْرُ الْمَقْبُولِ وَهُوَ أَكْثَرُهَا ، كَمَا طَلَقَ بَعْضُ السِّبَاعِ الْكُؤَاسِرَ عَلَى

بعض أو على السبيد والاسارى . وعند ما أفتَح الماهل طُيَئِسُ الملهى بدأ
الافتاح بأحتفال أمتنت مدته الى مائه يوم هلك فى خيلائها نحو خمسة
آلاف وحشٍ

وكن لليباع من الأسود والثورة والفيلة ونحوها فى الطبقة السفلى من
الملهى تحت الأرض أوجرة وأقص عليها أسوجة من حديد تُفتح أبوابها
الى ساحة الملهى : فلذا أرادوا مشاهدة قتال الكواسر فتحوا باب أسيد . ثلثاً
فراً يمدو الى ساحة لللى ؛ فاهو إلا أن يشاهد تلك الجموع المتراسة ،
ويستمع ضجيجها المرتفع الى السماء طرباً وحبوراً حتى ينهل ويقف مبهوتاً
متحيراً ؛ فلا يقى من ذهوله إلا بسبع آخر يطلق عليه كفيل أو غر أو
كر ككين . فيقع بينهما من الضخس والنشس والطاح والصيال ما يشغلها
بأنفسهما عن الناس حتى يفنك أحدهما بالآخر . وتارة يطلقون جملة سباع
بعضها على بعض فيكون المشهد أهول وأقطع ؛ ولكنه كان يُعتبر يُبوع
سرور وأتجاج فى عرف أولئك الجبابرة القساة القلوب

ولما دخلت الديانة النصرانية بلاد الرومان كان يؤتى بالفرق المنتصرة الى
ساحة هذا الملهى أفواجاً حيث يُقطئون أو يُصلبون ، أو تُطلق عليهم
السباع فتفترسهم

ولقد ليث هذا الملهى ممرحاً لإحداث هذه الفظائع الى أقراض الدولة

(١) هو حيوان عظيم من ذوات الجله الصفيق قصير القوائم غليظ له قرن واحد
فوق آفته يقتل به أحياناً الغنيل والأسد

الرومانية الغربية من رومية، فأغفل أمره إلا قليلاً حتى القرن التاسع؛ فأهمل شأنه جملةً، وتخرّب. وشرع أمراء القرون الوسطى ينقلون أحجاره لبناء قصورهم وكنائسهم إلى أن منع ذلك بعض البابوات في منتصف القرن التاسع عشر، وبقي فيه متبداً صغيراً ليكون تذكاراً لشمس المسبيين الذين سقّكت دماؤهم في ساحتهم.

ويُعدُّ هذا الملهى إلى الآن من أشهر آثار رومية القديمة، ويُقدَّر في سبيل حفظه كثير من المال. ومع أنه لم يبقَ من جداره إلا نحو الثلث قرمَّ بعض المهندسين ما بقي فيه من الحجارة والرَّخام بثمانية آلاف ألف درهم (فرنك). ولا غرو فقد ظل بعض المؤرخين: إنه لم يتمَّ بنائه هذا الملهى إلا بعد أن جرى فيه نهر من الذهب.

أهرام مصر

وأما أهرام مصر فقد وَفَّقنا الطمَّ الحديث على حقيقتها، وكشف لنا الستار عن إنشائها، وتبيَّنَّا بواطنها وظواهرها، حتى أصبح حديث المعاصرين عنها ليس بأعجب لدينا من وصف المتقدمين لها. فمن أقوال المتقدمين ما وصفها به الرَّحالةُ الحكيمُ السُّلَيبُ الموزَّحُ عَبْدُ اللطيف البغداديُّ عند زيارته مصرَ أواخر القرن السادس من الهجرة في كتابه المختصر الذى سماه الإفادة والأخبار قال رحمه الله:

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فثنى به لم أرَ ولم أسمع مثله في مثلها؛ فأعجب على أعجب ما شاهدته.

فإن ذلك الأهرام . وقد أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ ذِكْرِهَا وَوَصَفِهَا وَمِثْلَتِهَا
وهي كثيرة المدد جدًا ؛ وكلُّها بِيرِ الجيزة ، وعلى سَمْتِ مِصرِ القديمة .
وتتخذُ في نحوِ مسافةِ يومين . وفي بُوصيرِ منها شيءٌ كثيرٌ . وبعضُها كِبَارٌ ،
وبعضُها صِغارٌ ، وبعضُها طِينٌ وَلَبْنٌ ، وأكثرُها حَجَرٌ ؛ وبعضُها مَدْرَجٌ ،
وأكثرُها مَخْرُوطٌ أَمْلَسُ ؛ وقد كان منها بالجيزةِ عِدَّةٌ كثيرٌ لكنَّها صِغارٌ ،
فهُدِمَتْ في زمنِ صلاحِ الدينِ يُوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ عَلَى يَدَيْ قَرَاقُوشَ بعضِ
الأمراء ، وكان رُومياً سَابِغِ الحُمَةِ ، وكان يتولَّى عِمارَ مِصرَ ، وهو الذي بَنَى
السُّورَ مِنَ الحِجَارَةِ مَحِيطاً بِالْفُسْطَاطِ والقاهرةِ وما بينهما وبالقلعة التي على
المَقْطَمِ ، وهو أيضاً الذي بَنَى القلعةَ ، وأُنِيطَ فيها البَئْرُينِ المَوجودَتَينِ اليومَ ،
وهما أيضاً مِنَ العِجَابِ ، وَيُنْزَلُ اليَهما بِدرَجٍ نحوِ ثَلَاثَةِ درَجَةٍ . وأخذ
حِجَارَةَ هذه الأهرامِ الصِّغارِ وَبَنَى بها القِناطِرَ المَوجودَةَ اليومَ بالجيزةِ ، وهذه
القِناطِرُ مِنَ الأبنيةِ الحَصِيَّةِ أيضاً وَمِنْ أَعْمَالِ الجِبارِينَ ، وتَكُونُ نِيفاً وَأَرْبَعِينَ
قَنْطَرَةً . وفي هذه السَّنَةِ وهي سَنَةُ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمِيسَةً تَوَلَّى أَرْهَا مَنَ
لَا بَصِيرَةَ عِنْدَهُ فَسَدَّهَا رَجَاءً أَنْ يَحْتَسِنَ الْمَاءُ فَيُرَوِيَ الجيزةَ ، هَوَيْتَ عَلَيْهَا
جَرِيَةَ الْمَاءِ ، فَزُلْزِلَتْ مِنْهَا ثَلَاثُ قَنْطَرٍ وَانْشَقَّتْ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يُرَوْ مَا رَجَا
أَنْ يُرَوِيَ . وقد بَقِيَ مِنْ هذه الأهرامِ لِلْهُدُومَةِ قَلْبُهَا وَخَشَوْنُهَا ، وهي
رَدْمٌ وَحِجَارَةٌ صِغارٌ لَا تَصْلُحُ لِلْقِناطِرِ فَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَرَكْتُ

وأما الأهرامُ المتحَدِّثُ عنها المِشارُ اليَها الموصُوفَةُ بِالْعِظَمِ ثَلَاثَةُ أَهرامٍ
مَوْضُوعَةٌ عَلَى خَطِّ مَسْتَقِيمٍ بِالْجِيزَةِ قِبَالَ الْفُسْطَاطِ ، وَبَيْنَها مَسَافَةٌ يُسِيرَةُ ،
زَوَالِهَا مُتَقَابِلَةٌ نَحْوَ الشَّرْقِ وَاثْنَانِ مِنْهَا عَظِيمَانِ جَدًّا وَفِي قَلْبِ وَاحِدٍ ؛ وهما

أولع الشعراء. وهما متقابلان ومبينان بالحجارة البيض. وأما الثالث فصغير
 عنهما نحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد الصلابة
 ولا يورث فيه الخديء إلا في الزمن الطويل. ونجده صغيراً بالقياس إلى ذنك؛
 فإذا قربت منه وأفرده بالنظر، هالك مرآة، وحسر الطرف عند تأمله.
 وقد سلك في بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان، ولذلك
 صبرت على ممر الزمان، بل على ممرها صبر الزمان؛ فإنك إن خبرتها
 وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والمقول الصافية قد أفرغت
 عليها عهودها، والأقنص النيرة قد أفضت عليها أشرف ما عندها، والملكات
 الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً هو غاية إمكانها؛ حتى إنها تكاد
 تخط عن قوسها، وتضرب بحالهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم
 عن سيرهم وأخبارهم؛ وذلك أن وضعها على شكل مخروط يتدنى من قاعدة
 مربعة، وينتهي إلى نقطة، ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله
 في وسطه، وهو يتساند على نفسه، ويتواقع على ذاته، وتحامل بمضه على
 بعض؛ فليس له جهة أخرى خارجة عنه ينساقط عليها. ومن عجيب وضعه
 أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مكاب الرياح الأربع؛ فإن الريح تنكسر
 سورتها عند مضادتها الزاوية، وليست كذلك عند ما تلقى السطح
 ونرجع إلى ذكر الهرمين العظيمين فإن المساح ذكروا أن قاعدة كل
 منهما أربع مائة ذراع طولاً في مثلها عرضاً، وأرتفاع عمودها أربع مائة ذراع،
 وذلك كله بالذراع السوداء. وينقطع المخروط في أعلاه عند سطح مساحته
 عشر أذرع في مثلها. وأما التي شاهدته من حالها فإن رأياً كان معي

رَبِّي سَهْمًا فِي قَطْرٍ أَحَدَهُمَا فِي سَهْمِكِ، فَسَقَطَ السَّهْمُ دُونَ نَصْفِ الْمَسَافَةِ.
وَحَبَرْنَا أَنَّ فِي الْقَرْيَةِ الْجَاوِرَةِ لَهَا قَوْمًا قَدْ أَعْتَادُوا ارْتِقَاءَ الْحَرَمِ بِلَا كُفْلَةٍ،
فَلَمَّا سَعَيْنَا رِجَالًا مِنْهُمْ، وَرَضَخْنَا^(١) لَهُ بَشِيرًا، فَجَلَّ يُصْعِدُ فِيهِ كَمَا يَرْتَقِي أَحَدُنَا
فِي الدَّرَجِ، بَلْ أَسْرَعَ؛ وَرَكِبِي بَنِيَّةً وَأَثَوَاهُ، وَكَانَتْ سَابِقَةً، وَكَانَتْ أَمْرُهُ
أَنَّهُ إِذَا اسْتَوَى عَلَى سَطْحِهِ قَلَسَ بِمَامَتِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ ذَرَعًا مِنْ عِمَامَتِهِ مَقْدَارَ
مَا كَانَ قَاسٍ، فَكَلَنَ إِحْدَى عَشْرَةَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْيَدِ. وَرَأَيْتُ بَعْضَ أَرْبَابِ
الْقِيَاسِ قُلَّ: أَرْقَاعُ عُمُودِهَا ثَمَانِيَةُ ذِرَاعٍ وَنَحْوُ سَبْعِ عَشْرَةَ ذِرَاعًا، يُحِيطُ بِهِ
أَرْبَعَةُ سَطُوحٍ مُثَلَّثَاتِ الْأَضْلَاحِ، طَوْلُ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهَا سِتُونَ وَأَرْبَعُمِائَةِ ذِرَاعٍ
وَأَرَى هَذَا الْقِيَاسَ خَطَأً. وَلَوْ جَلَّ الْعُمُودُ أَرْبَعُمِائَةِ ذِرَاعٍ لَصَحَّ قِيلُهُ. وَلَئِنْ
سَاعَدْتُ لِلْمَقَادِيرِ قَوْلِيْتُ قِيَاسَهُ بِنَفْسِي

وَفِي أَحَدِ هَذَيْنِ الْهَرَمَيْنِ مَدْخَلٌ يَلْجُهُ النَّاسُ يُفْقِي بِهِمْ إِلَى مَسَافَتِ
صَيْقَةٍ، وَأَسْرَابٍ مُتَافِتَةٍ، وَأَبَارٍ، وَمَهَالِكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْكِيهِ مَنْ لُجِبَهُ
وَيَتَوَغَّلُ فِيهِ؛ فَإِنْ نَلَسَا كَثِيرِينَ لَهُمْ غَرَامٌ بِهِ وَتَحِيلٌ فِيهِ فَيُورَغَلُونَ فِي أَعْمَاقِهِ وَلَا
بُدَّ أَنْ يَنْتَهَوْا إِلَى مَا يَحْجِزُونَ عَنْ سُلُوكِهِ. وَأَمَّا الْمَسْلُوكُ فِيهِ الْمَطْرُوقُ كَثِيرًا
فَرَلَا فُهُ هَضْبِي إِلَى أَعْلَاهُ، فَيُوجَدُ فِيهِ يَتُّ رُبْعٌ فِيهِ نَافُوسٌ مِنْ حَجَرٍ. وَهَذَا
الْمَدْخَلُ لَيْسَ هُوَ الْبَابُ الْمُنْتَخَذُ لَهُ فِي أَصْلِ الْبِنَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَنْقُوبٌ قَبْلَ صُورِفِ
إِتْقَانًا. وَذُكِرَ أَنَّ لِلْمَأْمُونِ هُوَ الَّذِي فَتَحَهُ. وَجُلُّ مَنْ كَانَ مَعَنَا وَلَجُوا فِيهِ،
وَصَعِدُوا إِلَى اللَّيْتِ فِي أَعْلَاهُ. فَلَمَّا نَزَلُوا حَدَّثُوا بِعَظِيمِ مَا شَاهَدُوا، وَأَنَّهُ
مَمْلُوءٌ بِالْخَفَافِشِ وَأَبْوَاهَا حَتَّى يَكَلَّ يُنْمَعُ السَّالِكُ. وَبِعَظْمٍ فِيهَا الضُّفَافُ حَتَّى

(١) رَضَخَ : أَعْطَاهُ عَطَاءً غَيْرَ كَثِيرٍ

يَكُونُ فِي قَدَرِ الْحَمَامِ. وَفِيهِ طَيْقَانٌ وَرَوَازِنٌ نَحْوُ أَعْلَاهُ، وَكَأَنَّمَا جُعِلَتْ مَسَالِكُ
الرَّيْحِ وَمَنَافِذُ اللَّصُوءِ. وَلَجَتْهُ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ جَاعَةٍ، وَبَلَّتْ نَحْوُ ثُلَاثِي الْمَسَافَةِ
فَأَغْبَى عَلَى مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ، فَرَجَعَتْ بِرَأْفَةٍ

وهذه الأهرامُ مُبْنِيَةٌ بِحِجَارَةٍ جَافِيَةٍ يَكُونُ طُولُ الْحِجَرِ مِنْهَا مَا بَيْنَ عَشْرِ
أَذْرَعٍ إِلَى عَشْرِينَ ذِرَاعًا، وَسَمُكُهُ مَا بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ إِلَى ثَلَاثٍ، وَعَرْضُهُ نَحْوُ
ذَلِكَ. وَالْمَجْبُ كُلُّ الْمَجْبِ فِي وَضْعِ الْحِجَرِ عَلَى الْحِجَرِ يَهْتَدَمُ لَيْسَ فِي
الْإِمْكَانِ أَصَحُّ مِنْهُ؛ بَحِثْ لَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا مَبْدُخْلَ إِتْرَةٍ، وَلَا خَلْلَ شَعْرَةٍ،
وَيَنْهَمَا طِينٌ كَأَنَّهُ الْوَرَقَةُ لَا أُدْرِي مَا صِفَتُهُ، وَلَا مَا هُوَ. وَعَلَى تِلْكَ الْحِجَارَةِ
كِتَابَاتٌ بِالْقَلَمِ الْقَدِيمِ الْمَجْهُولِ الَّذِي لَمْ أَجِدْ يُدِيرُ مِصْرَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِمَّعٍ
بَيْنَ يَمِينِهِ. وَهَذِهِ الْكِتَابَاتُ كَثِيرَةٌ جَدًّا، حَتَّى لَوْ قِيلَ مَا عَلَى الْهَرَمَيْنِ فَقَطَّ
إِلَى صُفِّ لَكَانَتْ زُهَاءُ عَشْرَةِ آلَافٍ صَحِيفَةٍ

وَكَانَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُثْمَانُ بْنُ يُوسُفَ^(١) لَمَّا اسْتَقَلَّ بَعْدَ أَبِيهِ سَوَّلَ لَهُ
جَهْلَةُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَهْدِمَ هَذِهِ الْأَهْرَامَ، فَبَدَأَ بِالصَّغِيرِ الْأَحْمَرِ — وَهُوَ ثَالِثَةُ
الْأَلْفِ^(٢)، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الْجَبَلِيَّةَ وَالنَّقَابِيْنَ وَالْحَصَّارِيْنَ وَجَمَاعَةً مِنْ عِظَمَاءِ دَوْلَتِهِ
وَأَمْرَاءِ مَمْلَكَتِهِ، وَأَمْرَهُمْ يَهْدِيهِ، وَكَكَلَهُمْ بِمُجَرَّاهِ. فَخَيَّمُوا عَنْدهُ، وَحَشَرُوا
عَلَيْهِ الرِّجَالَ وَالصَّنَائِعَ، وَذَفَرُوا^(٣) عَلَيْهِمُ النَّفَقَاتِ، وَأَقَامُوا نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ
يَحْتَلِمُهُمْ وَرَجُلُهُمْ، يَهْلِمُونَ كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ بَذْلِ الْجَهْدِ وَاسْتِفْرَاجِ الْوُسْعِ
الْحِجَرَ وَالْحَجَرَيْنِ؛ فَقَوْمٌ مِنْ فَوْقُ يَدْفُسُونَهُ بِالْأَسَافِينِ^(٤) وَقَوْمٌ مِنْ أَسْفَلُ

(١) أَيُ يُوسُفَ صَلاَحُ الدِّينِ الْأَبُو بِي (٢) جَمْعُ أَثْنِيَّةٍ: أَجْمَارٌ تُصَعَّبُ عَلَيْهَا

الْقَدِيرُ (٣) أَكْثَرُوا (٤) جَمْعُ إِسْفِينٍ يُرِيدُ بِهِ الْإِزْمِيلُ وَالْمَتَلَّةُ

يَحْجُونَ بِالْقُلُوبِ وَالْأَشْطَانِ^(١). فَإِذَا سَقَطَ سَمْعٌ لَهُ وَجَبَتْ عَظِيمَةٌ مِنْ مَسَافَةٍ
بَعِيدَةٍ؛ حَتَّى تَرْتَجِفَ الْجِبَالُ، وَتَزُولَ الْأَرْضُ، وَيَفُوصُ فِي الرَّمْلِ. فَيَتَبَوَّنَ
تَعْبًا آخَرَ حَتَّى يَخْرُجُوهُ. ثُمَّ يَضْرِبُونَ فِيهِ بِالْأَسَافِينَ بَعْدَ مَا يَقْبُونَ لَهَا
مَوْضِعًا، وَيُنْبِتُونَهَا فِيهِ، فَيَقْطَعُ قِطْعًا، فَتُسْحَبُ كُلُّ قِطْعَةٍ عَلَى الْحَبْلِ؛ حَتَّى
تُلْقَى فِي ذَيْلِ الْجَبَلِ، وَهِيَ مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ. فَلَمَّا طَالَ قَوَاوِمُ^(٢) وَقَدَلَتْ فُتَقَاتُهُمْ،
وَنَضَاعَفَ نَصَبُهُمْ، وَوَهَتْ عِزَانُهُمْ، وَخَارَتْ قَوَامُ، كَفُّوا مَحْشُورِينَ^(٣)
مَنْمُومِينَ، لَمْ يَنَالُوا نَفِئَةً، وَلَا بَلَّغُوا غَايَةً؛ بَلْ كَانَتْ غَايَتُهُمْ أَنْ شَوْهُوَ الْهَرَمَ
وَأَبْلَوْا عَنْ عَجَزٍ وَقَشَلٍ. وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتَسْمِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. وَمَعَ
ذَلِكَ فَلَمَّا رَأَى لِحَاجَةِ الْهَدْمِ يَظُنُّ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ أُسْتُوْصِلَ، فَلَمَّا بَإَيْنَ الْهَرَمَ
ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يَهْدَمْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَمَّا جَانِبٌ مِنْهُ قَدْ كَشِطَ بَعْضُهُ. وَحِينَئِذٍ
شَاهَدَتْ التَّمَشُّقَةُ الَّتِي يَحْدُونَهَا فِي هَدْمِ كُلِّ حَجَرٍ سَأَلَتْ مُقَدِّمَ الصَّجَّارِينَ؛
فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ بُدِّلَ لَكُمْ أَلْفُ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تَرُدُّوا حَجَرًا وَاحِدًا إِلَى مَكَانِهِ
وَهِنْدَانِهِ، فَهَلْ كَانَ يُمَكِّنُكُمْ ذَلِكَ؟ فَاقْسَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى إِنَّهُمْ لَيَحْجِرُونَ عَنْ ذَلِكَ،
وَلَوْ بُدِّلَ لَهُمْ أَضْعَافُهُ

وبازاء الأهرام من الصفة الشرقية منابر^(٤) كثيرة المدد كبيرة المقدار
عميقة الأغوار، متداخلة^(٥). وفيها ما هو ذو طبقت ثلاث. وتسمى المدينة؛

(١) جمع قلنس: الحبل الضخم. والأشطان جمع شطن: الحبل الطويل
(٢) مكثهم (٣) المحصور: المعيا المتعب (٤) جمع منارة والقياس مناود
ولكنه ورد فصيحا أيضا منابر ومنائر بالهمز (٥) يُشير الى ما يُسمى الآن معبد
أبي الهول وما كُشف حوله حديثا

حتى لَمَلَّ الفارسَ يَدْخُلُهَا بِرُعْمِهِ، وَتَحْطُلُهَا يَوْمًا أَجْعَ، وَلَا يُنْهِمَا لَكُتْرَتَهَا
وَسَمَتَهَا وَيُمْدَهَا، وَيُظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ
وَأَمَّا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الصَّوَانِ الْأَحْمَرِ فَيَقَالُ إِنَّهَا بِالْقُلْزُمِ وَبِأَسْوَانٍ

وَعِنْدَ هَذِهِ الْأَهْرَامِ بِأَكْثَرِ مَنْ غَلَوْفٌ ^(١) صُورَةُ رَأْسٍ وَعَنْقٍ بَارِزَةٌ مِنْ
الْأَرْضِ فِي غَايَةِ الْعَظَمِ يُسَمِّيهِ النَّاسُ أَبَا الْهَوَلِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جَسَدَهُ مَدْفُوعَةٌ
تَحْتَ الْأَرْضِ ^(٢). وَقَدْ نَضِيَ الْقِيَاسُ أَنْ تَكُونَ جَسَدُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَأْسِهِ سَبْعِينَ
ذِرَاعًا فِصَاعِدًا. وَفِي وَجْهِهِ حُمْرَةٌ وَدِهَانٌ يَلْمَعُ عَلَيْهِ رَوْنَقُ الطَّرَاقِ. وَهُوَ
حَسَنُ الصُّورَةِ مَقْبُولُهَا، عَلَيْهِ مَسْحَةٌ بَهْلَاءٌ وَجَمَالٌ؛ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ تَبَسُّمًا.
وَسَأَلَنِي بَعْضُ الْفَضَلَاءِ مَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ؟ فَقُلْتُ: تَنَاسَبُ وَجْهِ أَبِي الْهَوَلِ؛
فَإِنَّ أَعْضَاءَ وَجْهِهِ كَالْأَنْفِ وَالْعَيْنِ وَالْأُذُنِ مُتَنَاسِبَةٌ كَمَا تَصْنَعُ الطَّبِيعَةُ الصُّورَ
مُتَنَاسِبَةً؛ فَإِنَّ أَنْفَ الْبَقْلِ مِثْلًا تَنَسَّبَ لَهُ، وَهُوَ حَسَنٌ بِهِ؛ حَتَّى لَوْ كَانَ
ذَلِكَ الْأَنْفُ لِرَجُلٍ كَانَ مُشَوَّهًا بِهِ، وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ أَنْفُ الرَّجُلِ لِلصَّبِيِّ
لَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ، وَعَلَى هَذَا سَلُّ الْأَعْضَاءِ؛ فَكُلُّ عَضْوٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
عَلَى مِقْدَارِ وَهَيْئَةِ الْقِيَاسِ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ وَعَلَى نِسْبَتِهَا؛ فَإِنْ لَمْ تُوجَدْ
الْمُنَاسَبَةُ تَشَوَّهَتْ الصُّورَةُ. وَالْعَجَبُ مِنْ مُصَوِّرِهِ كَيْفَ قَدَّرَ أَنْ يَحْفَظَ
نِظَامَ التَّنَاسُبِ فِي الْأَعْضَاءِ مَعَ عَظَمِهَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَعْمَالِ الطَّبِيعَةِ مَا
يُحَاكِهُ وَيَنْقُلُهُ أَه. أَتَمَّى بِخَنَفٍ بِسِيرٍ

(١) الْغُلُوفُ رَمِيَّةٌ سَهْمٌ. وَقَالَ هُوَ قَدَرُ ثَلَاثَةِ ذُرَاعٍ إِلَى أَرْبَعِيَّةٍ

(٢) كَأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ قَبْلَ إِزَاحَةِ الرَّمْلِ عَنْ أَبِي الْهَوَلِ أَنَّهُ تَحْتَالُ رِجْلُ وَاقِفٍ

وقد وصف الأهرامَ الشعراء بما لا يحصى . ومن ذلك قولُ محمود ساسي
البارودي يصفُ هَرَمِي الجيزة وأبا الهول :

صل الجيزة الفيحاء عن هَرَمِي هَرَمِي؛	لَمَلَكَ تَدْرِي غَيْبَ مَا لَمْ تُكُنْ تَدْرِي
بِنَاجٍ رَدَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عَنْهُمَا؛	وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَنْبَلِيَ صَوْلَةَ الدَّهْرِ
أَقَامَا عَلَى رَغَمِ الخُطُوبِ لِشَهَادَا	لِيَانِيهِمَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ بِالْفَخْرِ
فَكَمْ أُمٌّ فِي الدَّهْرِ بَلَدَتْ وَأَعَصِرَ	خَطَتْ وَهِيَ أَصْجُوهُ الْمَيِّنِ وَالْفَكْرِ
طَوَّحَ لَأَقَارِ الْعُقُولِ عَلَيْهِمَا	أَسَاطِيرُ لَا تَنْفَكُ تَتَلَّى إِلَى الْخَشْرِ
رُؤُوسُ لَوْ اسْتَظَلَّتْ مَكُونُ سِرِّهَا	لَأَبْصَرْتَ مَجْمُوعَ الْخَلَائِقِ فِي سَطْرِ
فَمَا مِنْ بِنَاءٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنَّ،	يُدَانِيهِمَا عِنْدَ التَّأَمُّلِ وَالنَّجْرِ
يُفَصِّرُ حُسْنًا عَنْهَا صَرَحُ بَابِلِ،	وَيَمْتَرِفُ الْإِيوَانُ ^(١) بِالْعَجْرِ وَالْبَهْرِ
كَأَنَّهُمَا تَذَلِّلَانِ فَلَحًا بِدِرَّةٍ	مِنْ النَّيْلِ تَرْوِي غَلَّةَ الْأَرْضِ إِذْ تَجْرِي
وَيَنْهَمَا بَلْبَبٌ ^(٢) فِي زِيٍّ رَابِضٍ	أَكْبَ عَلَى الْكُفَّينِ مِنْهُ إِلَى الصَّدْرِ
يُغْلِبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةً وَاقِي؛	كَأَنَّ لَهُ شَوْقًا إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ
مَصَانِعُ فِيهَا لِلْعَالَمِ غَوَامِضُ	تَذُلُّ عَلَى أَنَّ ابْنَ آدَمَ ذُو قَلْبِ
رَسَا أَصْلُهَا، وَأَمْتَدَّ فِي الْجَوِّ قَرَعُهَا،	فَأَصْبَحَ وَكَرَّرَ اللَّيْلَ كَيْنَ ^(٣) وَالنَّسْرِ ^(٤)
أَقْتَبَ بِهَا شَهْرًا، فَأَذْرَكَتْ كُلَّ مَا	تَمَيَّنَتْهُ مِنْ نِعْمَةِ الدَّهْرِ فِي شَهْرِ

- (١) هو إيوان كسرى كان بهواً عظيماً في قصره بالمناخ، سقفه أزج مقود وبه
سمى قصره الأبيض (٢) اسم لأبي الهول عرف به صدر الإسلام . ولعل أبا الهول
عُرف عنه (٣) السالكان نيمان نيران في السماء أحدهما الملك الراجح والثاني الملك
الأعزل (٤) الترس كوكبان : الواقع والطائر . وفي الترس تورية

نروحُ ونغدو كلَّ يومٍ لِنَجْتَنِي أَزَاهِرَ عِلْمٍ لَا تَجِفُّ مَعَ الزَّهْرِ
وَمَا سَاعَتِي إِلَّا صَنِيعُ مَعَاشِرِ أَلْهَوُوا عَلَيْهَا بِالْخَيَانَةِ وَالْغَدْرِ
أَبَادُوا بِهَا شَمْلَ الْعُلُومِ ، وَشَوَّهُوا حَاسِنَ كَانَتْ زِينَةُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
فَكُم سَمَلُوا عَيْنَا بِهَا^(١) تَبْصُرُ الصَّلَا ، وَشَاوُوا يَدَا كَانَتْ بِهَا رَايَةُ النَّصْرِ
إِلَّا قَبِجَ اللَّهُ الْجَهْلَةَ ، إِنَّهَا عَدُوَّةٌ مَا شَادَتْهُ فِينَا يَدُ الْفِكْرِ

أمثالٌ على السنةِ الحيوانِ

و بحسب المكر السيِّئ إلاَّ بأهله

زَعَمُوا أَنَّ عَلَجُومًا^(٢) عَشَّشَ فِي أَجَاقٍ كَثِيرَةٍ السَّمَكِ ، فَطَاشَ بِهَا مَا
طَاشَ ، ثُمَّ هَرِمَ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا . فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ . فَجَلَسَ حَزِينًا
يَلْتَمِسُ الْحِلَّةَ فِي أَمْرِهِ . فَمَرَّ بِهِ سَرَطَانٌ ، فَرَأَى حَالَتَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ
الْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ . فَدَنَّا مِنْهُ ، وَقَالَ : مَا لِي أَرَاكَ أَبْهًا الطَّائِرُ هَكَذَا حَزِينًا
كَثِيبًا ؟ قَالَ الْمَلْجُومُ : وَكَيْفَ لَا أُحْزَنُ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ صَيْدٍ مَا
هَذَا هُنَا مِنَ السَّمَكِ . وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ مَرَّ بِهَذَا الْمَكَانِ .
فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هُنَا مِمَّا كَثِيرًا أَقْلًا نَفِيسُهُ أَوْلَا ؛ فَقَالَ
الْآخَرُ : أَتَنِي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانٍ كَذَا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ ؛

(١) يشير الى ما فعله جماعة من المتورعين والصوفية من تشويه وجه أبي المحول

ومنهم الشيخ محمد صالح المقر سنة ٧٨٠ هـ (٢) هو طائر أبيض

فَلْيُبْهِدُوا بَذْلَكُمْ ؛ فَلَذَا فَرَعْنَا مِنْ جَنَّا إِلَى هَذَا فَأَفْنَيْتَهُ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا
 إِذَا فَرَعَا مِثْلَ هَذَاكَ انْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْأَجْمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا . فَإِذَا كَانَ
 ذَلِكَ فَهُوَ هَلَاكِي وَهَذَا مُدْنِي . فَأَنْطَلَقَ السَّرَطَانُ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى جَمَاعَةِ
 السَّمَكِ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ . فَأَجَبْنَاهُ إِلَى السَّلْجُومِ ، فَسَنَسَرْتَهُ ؛ وَقُلْنَا لَهُ :
 إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنَا ، فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ لَا يَدْعُ مُشَاوَرَةَ عَدُوِّهِ . قَالَ الْمَلْجُومُ :
 أَمَا مُكَابَرَةُ الصَّيَّادِينَ فَلَا طَاقَةَ لِي بِهِمَا ، وَلَا أَعْلَمُ جِلَّةً إِلَّا الْمَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ
 قَرِيبٍ مِنْ هَاهُنَا فِيهِ سَمَكٌ وَمِيَاهٌ عَظِيمَةٌ وَقَصَبٌ . فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ الْإِتِّعَالَ
 إِلَيْهِ كَانَ فِيهِ صَلَاحُكُمْ وَخَصْبُكُمْ . قَالُوا لَهُ : مَا يَمْنُ عَلَيْنَا بِذَلِكَ غَيْرُكَ .
 فَجَعَلَ الْمَلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى بَعْضِ
 التِّلَالِ ، فَيَأْكُلُهُمَا ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ لِأَخِيذِ السَّمَكَيْنِ ، جَاءَهُ
 السَّرَطَانُ . قَالَهُ : إِنِّي أَيْضًا قَدْ أَشْفَقْتُ مِنْ مَكَانِي هَذَا ، وَاسْتَوْحَشْتُ
 مِنْهُ ، فَأَذْهَبُ بِي إِلَى ذَلِكَ التَّنْدِيرِ . فَحَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التِّلِّ
 الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ السَّمَكَ فِيهِ قَطَرَ السَّرَطَانُ ، فَرَأَى عِظَامَ السَّمَكِ بِمَجْمُوعَةٍ
 هُنَاكَ ، فَعَلِمَ أَنَّ الْمَلْجُومَ هُوَ صَاحِبُهَا ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ ذَلِكَ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :
 إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا هَالِكٌ ، مَوْلَاهُ قَاتِلٌ
 أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفَاطًا . ثُمَّ أَهْوَى
 بِكِلْبَتَيْهِ عَلَى عُنُقِ السَّلْجُومِ ، فَصَرَّهُ ، فَاتَتْ . وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ
 السَّمَكِ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ

عاقبة امرء العنبر لمه لا ينصح

زَعَمُوا أَنْ جَمَاعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ كَانُوا سَكَّانًا فِي جَبَلٍ . فَاتَّسَمُوا فِي لَيْلَةٍ
بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَّاحٍ وَأَمْطَارٍ نَارًا ، فَلَمْ يَجِدُوا . فَرَأَوْا يَرَاةً ^(١) طَيْرٌ كَانَتْهَا
شَرَارَةٌ نَارٌ ، فَظَنُّوْهَا نَارًا ، وَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا ، فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا ، وَجَعَلُوا
يَنْفُخُونَ طَمَعًا فِي أَنْ يُوقِدُوا نَارًا يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ الْبَرَدِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ
طَلْرٌ عَلَى شَجَرَةٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا ، فَجَعَلَ
يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ : لَا تَتَّبِعُوا فَإِنَّ النَّارَ لَنَافِثَةٌ لَكُمْ . فَطَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ
عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيَتَنَاهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ . فَرَبَّاهُ رَجُلٌ ، فَصَرَفَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ
فَقَالَ لَهُ : لَا تَلْتَمِسْ قَوْمًا مَالًا يَسْتَعِيمُ ؛ فَإِنَّ الْحَجَرَ الْمَانِعَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ
لَا تُجَرِّبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ ، وَالْعُودَ الَّذِي لَا يَنْخَنِي لَا تُمَلِّئُ مِنْهُ الْقَوْسُ ، فَلَا
تَتَّبِعْ . فَأَتَى الطَّاغُوتُ أَنْ يُطِيعَهُ ، وَهَدَمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعْرِفَهُمْ أَنْ الْيَرَاةَ
لَيْسَتْ نَارًا ، فَتَنَاقَلَتْ بَعْضُ الْقِرَدَةِ ، فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَهَاتَ

عاقبة منه يتعرض لما ليس منه شأنه

زَعَمُوا أَنْ قِرْدًا رَأَى تِجَارًا يَشُقُّ خَشَبَةً ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، وَكُلَّمَا شَقَّ
مِنْهَا ذِرَاعًا أَدْخَلَ فِيهَا وَدِدًا . فَوَقَّعَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ
التِّجَارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ . فَهَامَ الْقِرْدُ وَكَتَفَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ ؛ فَكَبَّ
النَّخْبَةَ ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبَلَ الْوَتِيدِ وَوَجْهَهُ قِبَلَ النَّخْبَةِ ، فَتَكَلَّى ذَنْبَهُ فِي الشَّقِّ
وَنَزَعَ الْوَتِيدَ فَلَقِيَ الشَّقَّ عَلَيْهِ ، فَكَادَ يُغْفَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ . ثُمَّ إِنَّ التِّجَارَ
وَأَقَامَهُ فَأَصَابَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِضَرْبِهِ . فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ التِّجَارِ
مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ النَّخْبَةِ

(١) البراع ذباب يطير بالليل يضئ كأنه نار

سُوم التوبة

قال مؤيد الدين الحسين بن محمد الطنتراني صاحب لامية العجم المقتول عام ٥٠٣هـ

لَقَدْ جَلَّ فِي أَمَالِهِمْ أَنَّ تَمَلُّكَ
أَضْرَى بِهِ جُوعٌ شَدِيدُهُ فَشَقُّهُ^(١)
فَنَازَ لَدَيْهِ الدُّبُّ يَوْمًا بِخُلُوعٍ
فَكُلَّهُ، وَأَطْعَمَهُ^(٢)؛ فَاهْوَشَ كُلَّ نَاءٍ
عَلِمَا أَحْسَنَ التَّمَلُّكُ^(٣) بِكَيْدِهِ
وَقَالَ: أَرَى بِالْمَلِكِ ذَلِكَ مُحَاطًا
وَفِي كَيْدِ الدُّبِّ الشِّقَاقَ لَدَائِهِ
فَصَادَفَ مِنْهُ ذَا قَبُولًا. فَمَنْدَحَا
فَأَقْلَعَتِ عَسَلُوحُ الْإِهْلَبِ^(٤) مَرَمَلًا^(٥)
وَصَاحَ بِهِ يَا لَيْسَ الثَّوبُ قَاتِلًا^(٦) أ
وَذَرَبًا أَصَابَا عِنْدَ لَيْثٍ تَهْتُمَا
وَأَبْقَى لَهُ جِلْدًا رَقِيقًا وَأَعْظُمَا
قَالَ: كِفَاكَ التَّمَلُّبُ الْيَوْمَ مَعْظُمَا
وَلَسْتُ أَرَى فِي أَكْلِهِ لَكَ مَائِمَا
تَطِيبَ عِنْدَ الْيَتِّ، وَأَخْتَالَ مَقِيمَا
تَهْدِمَ مِنْهُ جِسْمَهُ وَتَحْطُمَا
فَإِنْ نَالَ مِنْهَا يَنْجُ مِنْهُ مُسْلِمًا
أَحَالُ^(٧) عَلَى الدُّبِّ الْخَلِيطِ، فَصَمَمَا
عَلِمَا رَأَى التَّمَلُّكُ تَبَسُّمًا
مَتَى تَنْظُرُ بِالسُّلْطَانِ فَاسْكُتْ لِنَسْلَمَا

أثر النقد في القول والعمل

أثره في تحريم العبادة

حُكِيَ أَنَّ حَاكِمَ بَلَدَةٍ كَانَ سَلْطَرًا ذَاتَ لِيَلَةٍ مُظْلِمَةٍ فِي أَحَدِ شَوَارِعِهَا،
فَصَلَحَهُ إِنْسَانٌ. فَأَمْلَرَ مَنْ غَدِيهِ مَنَشُورًا أَلَّا يَمْرِيَ أَحَدٌ لَيْلًا إِلَّا وَفِي

(١) شفه الهم والمرض أتعط (٢) أى وأطعمنا منه (٣) الحب الدكر

(٤) أقبل (٥) الجهد (٦) أى ملطمتنا بالهم (٧) أى شديد الحرمة

يَدِهِ قَانُوسٌ^(١). وَبَيْنَمَا هُوَ يَسُجُّ اللَّيْلَةَ الثَّالِيَةَ فِي أَثْمَلِهِ الْبُلْعَةَ إِذْ لَاقَى الرَّجُلَ عَيْنَهُ وَجْهًا لَوْجَةً. فَقَالَ لَهُ، وَهُوَ يَكَاذُ يَتَمَرُّ مِنَ الْغَيْظِ: وَيَنُتَلِّكُ! أَلَمْ تَسْلَمْ الْأَمْرَ الَّتِي أَمَرْتُ! فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلَى يَا مَوْلَايَ! قَدْ قَرَأْتَهُ، وَهِيَ هِيَ ذَا قَانُوسِي. فَتَأَمَّلَهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: وَلَكِنَّهُ خَالَ مِنَ الشَّمْعِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّكَ يَا مَوْلَايَ لَمْ تَذْكُرْ فِي أَمْرِكَ مَا يُوجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَضَعَّ فِيهِ شَمْعًا. فَغَضِبَ الْحَاكِمُ، وَأَصْدَرَ فِي الْفَدْرِ أَمْرًا يَقْضِي عَلَى السَّارِقِينَ أَنْ يَضْمَعُوا الشَّمْعَ فِي فُرْوَائِهِمْ. وَبِمَا خِيمَ اللَّيْلُ أَنْطَلَقَ يَسُجُّ فِي الْأَزَقَةِ وَالْثُرُوبِ؛ عَلَيْهِ يَنْتَرُ بِرَجُلٍ قَدْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَأَهْمَلَ طَاعَتَهُ. فَحَضَى سَوْءَ الْحِظِّ أَنْ يَصْطَلِمَ بِصَاحِبِهِ مَرَّةً أُخْرَى. فَقَالَ لَهُ: وَقَدْ تَقَلَّكَ الْغَضَبُ: لَا أُمُّ لَكَ! لَقَدْ خَلَفْتُ بِكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ وَسَأَنْزِلُ بِكَ مِنَ النَّكَالِ مَا يَحْمِلُكَ عِبْرَةً لغيرِكَ؛ قَدْ اسْتَخَفَّضْتَ بِأَمْرِ حَاكِيكَ، وَسَرْتَ بِغَيْرِ قَانُوسٍ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا مَوْلَايَ! أَلَيْسَ هَذَا قَانُوسًا؟ فَقَالَ لَهُ الْحَاكِمُ: وَلَكِنْ لَا شَمْعَةَ فِيهِ! فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ بَلَى! فِيهِ شَمْعَةٌ، وَمَدَّ يَدَهُ فَلَمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِ الْقَانُوسِ شَمْعَةٌ غَيْرَ مُشْمَلَةٍ. فزَادَ غَضَبُ الْحَاكِمِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ لَمْ تُسْمِعْهَا! فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ فُورِهِ: وَأَنْتَ يَا مَوْلَايَ لَمْ تَذْكُرْ فِي مَنْشُورِكَ مَا يُوجِبُ عَلَيَّ إِشْمَالَهَا

عند ذلك أَصْطَرَّ الْحَاكِمُ إِلَى أَنْ يُصْدِرَ أَمْرًا آخَرَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ بِأَنْ يُوقِدُوا الشَّمْعَ فِي فُرْوَائِهِمْ حِينَ يُلْجُونَ. وَأَخْفَضَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يُدَقِّقُ فِي تَحْرِيرِ أَوَامِرِهِ تَدْقِيقًا لَا يَتْرَكُ لِلنَّاسِ فُرْصَةً بِهَا يَتَنَبَّهُونَ إِذَا كَلَمُوا بِالْأَوَامِرِ يَخَالِفُونَ

(١) الْقَانُوسُ فِي الْفَنِّ الثَّمَامُ قَدَّ الْقَانُوسِ عَنِ الْمَازَرِيِّ شَيْخُ الْقَاضِي عِيَّاشٍ، قَالَ وَكَأَنَّ قَانُوسَ الشَّمْعِ مِنْهُ. أَذْنُ هُوَ حَقِيقَةُ عَرَفِيَّةٍ مَثْوَوَةٍ عَنِ الْحَاجِزِ، جَارِيَةٌ عَلَى أَسْلُوبِ الْعَرَبِيَّةِ

أمره في العشاء

اشتهرت الصين من غابر الأزمان بالنقش والتصوير، حتى لا تخلو آنياتهم وماعوتهم وملابسهم وفروشهم وأحوات عملهم من صور الحيوان والنبات والمنزل والأنهار والجبال. فبلغ جاهل الصين أن في الروم مصوراً فوق مصوري بلاده مهارة وإتقاناً، فأشخصه إليه، وأمره بعمل شيء مما يقدر عليه من النقش والتصوير ليعرضه على الناس بباب قصره؛ فنقش له في رُفعة صورة سُنْبِلَةٍ حِطْطَةٍ خضراء قائمة، وعليها عصفور، وأتقن نقشه وهيئته؛ حتى إذا نظره أحد لم يشك أنه عصفور حتى على سُنْبِلَةٍ خضراء، ولا يكره شيئاً من ذلك غير عدم الثقل والحركة، فأعجب الماهر ذلك، وأمر بتعليقه، وبإدراك الرزق عليه إلى أعضائه مدة التطبيق. فضت سنة الآبض أيام، ولم يقدر أحد على إظهار عيب أو خلل فيه. فحضر شيخ مسن، ونظر إلى المثال، وقال: هنا فيه عيب. فأحضر إلى الماهر، وأحضر النقاش والمثال، وقال: ما الذي فيه من العيب؟ فأخرج عما وقعت فيه بوجه ظاهر ودليل جلي، وإلا جلت بك النسم، فقال الشيخ: أسعد الله الماهر! وألهمه السداد، مثال أي شيء هنا الموضوع؟ فقال الماهر: مثال سُنْبِلَةٍ من حِطْطَةٍ قائمة على ساقها، وفوقها عصفور؛ فقال الشيخ: أصح الله الماهر! أما العصفور فليس به خلل، وإنما الخلل في وضع السُنْبِلَةِ. قال الماهر: وما الخلل؟ وقد امتزج غضبا على الشيخ. فقال: الخلل في استقامة السُنْبِلَةِ؛ لأن في العرف أن العصفور إذا حط على سُنْبِلَةٍ أمالها لثقل العصفور وضغف ساق

السُّنْبُلَةُ . ولو كانت السُّنْبُلَةُ مُرَوَّجَةً مائِلةً لَكُنْ ذَلِكَ نِهَايةً فِي الْوَضْعِ
وَالْحِكْمَةِ . فَوَاهِهِ الْعَاهِلُ عَلَى ذَلِكَ وَأَجَازُهُ

وليمة مصرية قديمة*

يقرأ المرء كتبَ الأخبارِ وأسفارِ التواريخ فلا يَنقُصُ بما تصِفُ من الحروبِ
والغاراتِ ، ولا يكتفي بما تَقْصُ من الهزائمِ والأنتصاراتِ ، وما تُورِدُ من
أسماءِ الملوكِ والسلاطينِ ، وما تُسرِّدُ من أرقامِ الشهورِ والسنينِ ، بل يتوقُّ
إلى معرفةِ ما كان عليه الناسُ في خاصَّةِ أنفسهم ، ويهتسُّ إلى الوقوفِ على
طُرُقِ معاشهم ، وأدبهم في اجتماعهم وتعاشرهم . وأشدُّ ما تكونُ رغبته إذا
تَلَبَّثَ عليه أخبارُ أسلافِهِ الأوَّلِينَ وأجدادهِ القابرينِ ؛ إذ كان تَلَمُّحُهُ تَكْمِلَةً
لتاريخهم ، وسيرتهُ تَمِّمَةً لِسِيرِهِم

لهذا كان موضوعُ قراءتِنَا اليومَ وصفَ وليمةٍ من ولائمِ قدماءِ المصريين
أقيمت في مدينةٍ طيبةٍ عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ منذُ ثلاثةِ آلافٍ من السنينِ .
ولنفرضُ أَنَّا كُنَّا من المدَّعُوِّين فنَصِفُ لغيرنا ما شاهدناه .

سِرْنَا إلى دارِ داعينَا وبلغناها وقتَ الظَّهِيرَةِ ، فإذا غيرُثنا من الضَّيْفَانِ
مُقبِلونَ : من بينِ سائرِ عَلَى قديمِهِ أو مَحْمُولٍ فِي مَحَقَّةٍ أو مستظهِرٍ فوقِ
عَجَلَةٍ . وأسْتَشْرَفْنَا الْبَارَ ، فرَأَيْنَاهَا مُشَيَّدَةً عَلَى أَجْمَلِ نِظَامٍ وَأَبْدَعَ طِرَازٍ ، يُحِيطُ
بِهَا سُورٌ مَالٍ مَنْقُوشٌ بِأَبْدَعِ الْخَطوطِ ؛ مُرَوَّقٌ بِأَعْجَبِ التَّهَاطُلِ . وَقِبَالَةَ الْبَابِ

* ترجمها المرحوم عبد القادر حسن اقتدى الذي كان مدرِّساً بدار العلوم
وقدَّحها المؤلف

مِسْلَتُنْ خُرَ عَلَيْهِمَا أَسْمُ صَاحِبَيْهَا، وَذُوْنَتْ مَأْثَرُهُ وَمَفْلَخَرُهُ. ثُمَّ دَخَلْنَا مِنْ بَابِ السُّورِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ جُعِلَتْ عِصَابَاتَاهُ^(١) بُرْجَيْنِ شَاهِقَيْنِ

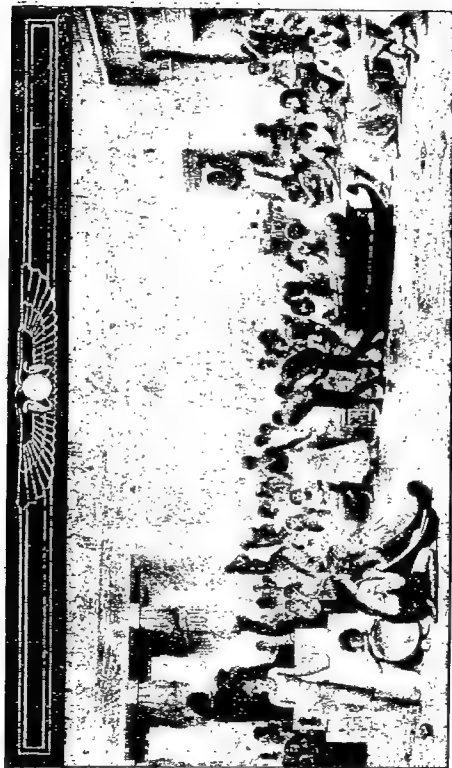
وَسَرْنَا فِي طَرِيقٍ طَوِيلٍ مَتَسِّعٍ تَصَافَّتْ عَلَى جَانِبَيْهِ الْأَشْجَارُ، حَتَّى بَلَغْنَا دَاراً مَبْنِيَةً بِالْآجَرِ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهَا بِالْقُرْءَانِ (الْهِدَى وَغُلْفِيَّة) «الْبَيْتُ الْمُبَارَكُ». وَلَقَدْ زَادَ هَذَا الْبَيْتُ رَوْقاً وَهَجَّةً كَثْرَةً مَا فِيهِ مِنْ الْأَيْهَةِ الْأَيْقَةِ وَالْأَرْوَقَةِ الْبَدِيَّةِ وَالسَّاحَاتِ لِلْكَشْفَةِ الَّتِي تُظَلِّلُهَا الْمَرَائِشُ وَلِلظَّلَالِ الْمَبْرُقْشَةِ يَبْهُتُفِ الْأَلْوَانُ، وَزَاهَى الدِّهَانُ، وَحَوَّلَى ذَلِكَ حُلَاتُقُ الْأَزْهَارِ وَذَوَالِي الْكُرُومِ وَعَوَالِي الْمَرَاقِبِ وَالْمَنَاظِرِ

وَقَدْ وَصَلَ إِلَى الدَّارِ فِي هَذِهِ الْمَهْمَةِ وَجِيهُ رَاكِبٌ عَجَلَةٌ، يَسُوقُ جَوَادَهَا يَدُهُ وَطُيْفٌ بِهِ غِلْمَةٌ مِنْ حَشِيئِهِ. فَلَمَّ يَكُنْ يَقِفُ حَتَّى نَزَلَ أَحَدُهُمْ فَتَرَعَ الْقَلْبَ، وَبَلَدَرَ آخَرَ إِلَى الْأَخْذِ بِنِجَانِ جَوَادِهِ، وَغَيْرُهُ إِلَى مُعَاوَنَتِهِ عَلَى التَّنْزُولِ وَآخَرُونَ إِلَى حَمَلِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَابِسِ وَالْأَدَوَاتِ؛ وَدَخَلَ الدَّهْلِيْزَ، فَتَسَلَّمَ خَادِمٌ مِنَ الدَّارِ نَعْلَيْهِ، وَأَتَى بِعَاءٍ فَتَسَلَّى بِهِ رِجْلَيْهِ. حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ دُعِيَ إِلَى حُجْرَةِ الْوَلِيَّةِ حَيْثُ يَجْلِسُ فِي صَدْرِهَا صَاحِبُ الدَّارِ وَزَوْجَتُهُ وَقَدَرِطًا إِلَى كَرَامَتَيْهِمَا قَرَدَمَاهُمَا الَّذِي يُعْزَاهُ وَيُدْأِعِيَانِهِ

وَلَحِظْنَا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ مَطْلُوقُ الرَّأْسِ لِابْنِ شَعْرًا مُسْتَعَارًا تَسْتَرْمِلُ مِنْهُ لِمَةُ طَوِيلَةٍ خَلْفَ أُذُنَيْهِ، وَلَهُ عَشْتُونَ قُصِيرٌ فِي ذَقْنِهِ إِذَا كَانَ مِنْ آدَابِ الْمِصْرِيِّينَ أَلَّا يُؤْذَنَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمَلِكِ بِإِطَالَةِ عَشْتُونِهِ. وَطَلِيهِ قَوْبٌ مِنَ الْكُتَّانِ الْأَبْيَضِ رَقِيقُ النَّسِجِ وَاسِعُ الْأَرْدَانِ^(٢)، وَأَعْضَاؤُهُ مَحَلَّةٌ بِالْقُودِ وَالْأَسَاوِرِ

(١) جَانِبَاهُ (٢) جَمْعُ رَدْنٍ وَهُوَ أَصْلُ الْكَمِّ

ولاية مصر القديمة



والجواهر، وتليقُ أمراءه ثوبا مثله إلا أن خواشبَ شعرها تكتوى من خلف
أذنيها منطقة على صدرها، ولها من قُرطيتها وعقدِها وخطخالها وصائلُ عِدَّة
ولها داخل الضيف حياتها، فردا تحية بأحسن منها، وأتيا إليه بكرمى جلس
عليه، وتقدم إليه خادمٌ فظف رأسه بالطيب، وتاوله زهرة من زهر البشنيين
وكلل رأسه وعنقه بالزهر، وقدم إليه قدحا من الشراب، وبهذا انتهى استقبال
هذا الضيف الكريم

بشاهدنا أن لكل سيدة جارية قائمة في خدمتها. ثم عرفت للمازف،
ورقصت الراقصات أثناء قدوم الزائرين. حتى إذا تم استقبالهم جلسوا
على الكراسي متقابلين، وجعلوا يتحدثون ويتسامرون. ويدور حديث
النساء حول ما يلبسن من الجواهر والحلي. ويحكي بعضهن بعضا بياض
أنهار البشنيين

ورأينا في الحجرة كثيرا من الأثاث والوسائد والمآور^(١) والكراسي
المخلفة من خشب الآبنوس المكفنة بالماج المزينة بأشكال الحيوان المكسوة
المقاعذ بالفراء

وشاهدنا الشقوف مجهزة مزخرفة بأزهى الألوان، والحوائط منقوشة
بالكتابة الشقنة وشكل الزهر البديعة، وللوائد ممدودة والمآرق^(٢) مصفوفة
ويدنا بناؤل الطعام، فجلسنا أيدينا وأخذنا بحالسناء كل اثنين منا على
خزان. وطيف علينا بألوان الأطعمة من خضر ولحم وسمك وطيور ودار
علينا اللؤلؤ^(٣) بأكواب الشراب يملؤها من جرار الفخار

(١) جمع مسر أو مسورة وهو متكأ من جلد (٢) الوسائد الصغيرة (٣) خدم الولية

ولما طلب سرور القوم وعظم أبتهاجهم، أتى لهم بشمال يُمثل موميّة^(١) بشرية. فدار به عبيدان على القوم تذكرة لهم بالموت والبقاء، وإشماراً بالروال والاقضاء، وكأنه يقول لكل منهم ما يقوله أبو النعاهية

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سُلْكَاً فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
يُسْعَى إِلَيْكَ بِمَا اسْتَبِيحَتْ لَدَى الرِّوَاكِ فِي الْبُكُورِ
فَإِذَا النُّفُوسُ تَفَرَّغَتْ^(٢) بِزَفِيرِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهُنَاكَ تَمَلِّمْ مُوقِفًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

ولم يُعكرْ علينا هذا الأمر كثيراً من صفونا. ذلك أن شمال الموميّة لم يكن يُحدث في قماء المصريين هذا الشعور ويُفقد عليهم ما كانوا فيه من السرور، لتعودهم رؤيته في ولائهم، ومشاهدته في مآذهم

غير أن هناك من بين أولئك المدعورين ضيقاً لم تُقدم له هذه التذكرة ولم يذكر تلك العبرة، وهو وإن غُلف بالطيب رأسه وقُلد بالزهر عنقه ونُصِب أمامه خوانه، لا يتناول مما وُضع أمامه من أطياب المأكَل ولقد ائذ المشارب فما ذلك إلا أنه موميّة ميت من أعضاء الأسرة قد استبقاه صاحب الدار بضعة أشهر قبل أن يُغيب في الرَّمْس، ويُوضع في ظلمة التناؤس؛ بل هو الذي من أجله قد أقيمت هذه الوليمة تكريماً له وتوديعاً، وأحتفاله به وتشرعاً. وتكون أمثال هذه الموميّة التي ليست إلا جثة قريب عزيز أو صديق حميم من أشد أسباب سرورهم، وأعظم دواعي أبتهاجهم وخيورهم حين اجتماعهم

(١) جثة، منسوبة إلى الموم، وهو مربب قديم: دواء يعالج به كالشمع أو هو نوع منه ومنه دواء يركب وقد يؤخذ من قبور قدماء المصريين - عبد الطيف وابن اليطار وابن سينا وغيرهم (٢) التفرغ والتفرغ والحشرجة تردد الصوت والنفس في حلق المحتضر للموت

أذكياء القضاة

المروء والناجس

حَدَّثَ فِي إِحْدَى مُنَى أَوْ رُبَّةَ أَنْ تاجرًا قَدَّ هِمَانًا^(١) بِهِ أَرْبَعًا دِينَارٍ،
فَأَسْتَأْجَرَ مُنَدِيًا يَفْضُدُهُ فِي الْأَسْوَاقِ وَيَقُولُ: مَنْ وَجَدَ هِمَانًا صَفْتَهُ كَذَا وَكَانَا
ظَهْرَ نِصْفٍ مَا فِيهِ خَلَالًا سَائِلًا إِذَا رَدَّهُ إِلَى صَاحِبِهِ. وَكَانَ قَدْ أَتَقَطَهُ مَلَّاحٌ
فَقَبِرٌ، فَدَفَضَهُ أَمَاتُهُ وَكَرَّمُ نَفْسِهِ إِلَى أَنْ يُخْبِرَ الْمُنَادِي أَنَّهُ وَجده. فَذَهَبَ
بِهِ إِلَى صَاحِبِ الْكَيْسِ، فَقَمَلَهُ لَوْمْ نَفْسِهِ أَنْ يَنْدُرَ بِالْمَلَّاحِ، وَيُخْلِفَ وَعْدَهُ؛
فَقَالَ: إِنْ الْهِمَّانَ كَانَ فِيهِ زُمْرَةٌ ثَمِينَةٌ فَمِلْ هِيَ فِيهِ؟ فَذَهَبَ الْمَلَّاحُ وَأَدْرَكَ
كَيْدَهُ وَأَنَّهُ يُرِيدُ جِرْمَانَهُ؛ فَاخْتَصَمَا وَتَرَافَعَا إِلَى الْقَاضِي

فَسَأَلَ الْقَاضِي الْمَلَّاحَ عَنِ الزُّمْرَةِ، فَأَقْسَمَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا الدَّنَانِيرَ،
فَسَأَلَ التَّاجِرَ عَنْ أَوْصَافِ الزُّمْرَةِ، فَتَلَمَّعَ، وَأَخَذَ يَتَغَبَّطُ فِي قَوْلِهِ. فَأَدْرَكَ
الْقَاضِي مَكْرَهُ وَخَبَثَ بَيِّنَتِهِ. وَقَالَ: يَا هَذَا! تَقُولُ: إِنَّكَ فَقَدْتَ هِمَّانًا فِيهِ
زُمْرَةٌ صَفْتُهَا كَذَا وَكَانَا، وَمَا فِي هَذَا الْهِمَّانِ زُمْرَةٌ، فَلَيْسَ بِهِ؛ فَأَنْشُدْ
هِمَّانَكَ الَّذِي فِيهِ الزُّمْرَةُ عَمَّا تَعْبُدُهُ، ثُمَّ أَلْفَتِ إِلَى الْمَلَّاحِ وَقَالَ لَهُ: أَحْفَظْ
هَذَا الْهِمَّانَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِذَا لَمْ يَحْضُرْ مَنْ يُسْأَلُكَ عَنْهُ فَهِيَ لَكَ. فَصَنَدَهَا
أَصْطَرُ التَّاجِرُ إِلَى الْإِقْرَارِ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَذِبِ، وَأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ حَرَمَانَ الْمَلَّاحِ،
وَأَسْتَدَلَّ بِمَا يُثَبِّتُ أَنَّهُ هِمَّانُهُ حَقًّا، فَفَزَّرَهُ^(٢) الْقَاضِي عَلَى كَذِبِهِ، وَأَعْطَى
الْمَلَّاحَ نِصْفَ مَا فِي الْهِمَّانِ

(١) - الْهِمَّانُ وَهُوَ الْقَتْلُودُ كَالْحِرَامِ يَنْتَخِذُ مِنْ جِلْدِ وَنَحْوِهِ وَيَشْدُ عَلَى الْوَسْطِ وَهُوَ

الْمَسِي بِالْعَامِيَةِ (الْكِر) (٢) أَدَبٌ

فراصة إيليس^(١)

استودع رجلٌ آخرَ مالا، ثم طلبه. فبجده. فخاصمه إلى إيليس القاضي فقال الطالبُ: إني دفعتُ المالَ إليه. فقال القاضي: ومن حضرك؟ قال: دفعتُ في مكانٍ كذا وكذا، ولم يحضرنا أحدٌ. قال: فأى شيء في ذلك الموضع؟ قال: شجرةٌ. قال: فأنتطيقُ إلى ذلك الموضع، وأنظر الشجرة، فلعلَّ الله تعالى يُوضِّحُ لك هناك ما يتبينُ به حقُّك، لعلَّك دفعتَ مالكَ عند الشجرة ونسيتَ فتذكرُ إذا رأيتَ الشجرة. ففى الرجلُ. وقال إيليسُ للمطلوب: أجلسْ حتى يرجعَ خصمُك. فجلس، وإيليسُ قضى وينظرُ إليه ساعة. ثم قال له: يا هذا! أرى صاحبك بلغَ موضعَ الشجرة التي ذكرَ؟ قال لا! قال: يا عدوَّ الله! إنك لخائنٌ! قال: أقلى^(٢)! أألكَ الله! فأمرَ من يحتفظُ به حتى جاء الرجلُ. فقال له إيليس: قد أقرَّ الله لك خصمك بحقك فخذْه

زلة قاضي واسط^(٣)

تَلَدَ القضاء بواسطَ رجلٍ ثقةٍ كثير الحديث. فجاء رجلٌ فأستودع بعضَ الشهود^(٤) كيساً مضموماً، ذكر أن فيه ألفَ دينار. فلما حصل الكبسُ

(١) هو أبو وثاق إيليس بن معاوية بن قرة البرقي المضروب به المثل في القضاة والفراصة، أمر عمر بن عبد العزيز الخليفة الأمويُّ عليه عديُّ بن أرطاة أن يستغضيه على البصرة، فولَّاه قضاءها، ومات سنة ١٢٢ هـ عن ٧٩ سنة (٢) أقاله عثرته: أنهضه، والمراد سامخني (٣) مدينة على دجلة بين بغداد والبصرة، بناها الحجاج، وهي الآن خراب الأقبلا (٤) كان بكل مدينة شهودٌ عدولٌ يثق بهم القضاء ويستشهدونهم في عقودهم، وكادت هذه العادة تبطل في زماننا

عند الشاهد، وطالت غيبة الرجل، قدّر أنه قد هلك، فهم يأتحاق للمال .
ثم دبر وقتق الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكلتها دراهم،
وأعاد الخياطة كما كانت. وقدّر أن الرجل وافي وطالب الشاهد بديته،
فأعطاه الكيس بمحتويه. فلما حصل في منزله فضّ ختمه، فصلاص في الكيس
دراهم، فرجع إلى الشاهد، فقال: حافظ الله! أردد على مالي؛ فإني
أستودعك دنانير، والتي وجدته دراهم. فأنكر ذلك؛ وأستمدى عليه
القاضي المقدم ذكره، فأمر بإحضار الشاهد مع خصمه. فلما حضرا سأل
القاضي الشاهد منذ كم أودعك هذا الكيس؟ قال منذ خمس عشرة سنة.
فأخذ القاضي الدراهم وقرأ سيكتها، فإذا هي دراهم منها ما قد ضرب منذ
سنتين وثلاث ونحوها. فأمره أن يدفع الدنانير إلى صاحبها فدفها إليه.
وأسقطه من الشهادة. ونادى مناديه: ألا إن فلان بن فلان القاضي قد أسقط
فلان بن فلان الشاهد فأعلموا ذلك، ولا يفترون به أحد بعد اليوم. فباع
الشاهد أملاكه بواسطه، وخرج عنها هاربا. فلم يعلم له خبر، ولا أحسن منه أثر.

مثال الطالب النجيب^(١)

مَنْ مُنْشِدٌ مِنْ كُتُبِ^(٢) شِعْرَ كِرَامِ الْعَرَبِ؟
وَمَنْ أَرَاهُ مُحْصِنًا نُطْقَ اللِّسَانِ الْأَجْنَبِ
ثُمَّ يَكُرُّ دَارِسًا لِلْعِلْمِ بَعْدَ الْأَدَبِ

(١) من نظم المؤلف (٢) قريب

يَكُونُ حِينًا رَافِعًا وَمُمَنَّا^(١) فِي اللَّعِبِ
 تُمَتَّ^(٢) لَا يَلْبَثُ أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ الْكُتُبِ
 فَلَا قَرِيَّاتَ لَهُ يُوصِيَنَهُ بِالذَّأْبِ^(٣)
 وَلَا أَبٌ يَلُومُهُ فِي طَلَبٍ لَمْ يُحِبِّ
 حَذَقُ الثَّرُوسِ عَنْهُ يَرُوقُ إِنْ لَمْ يُحِبِّ
 إِخَالُ هَذَا طَالِبًا يَرُومُ أَسْمَى مَطْلَبِ
 وَأَنَّهُ لِبْنُ قُرَّةَ لِعَيْنِ أُمِّ وَأَبِ
 كَأَنِّي بِهِ^(٤) وَقَدْ سَمَا رَفِيعَ الرَّتَبِ
 وَعُدَّ فِي أَوْطَانِهِ مِنْ الْفُحُولِ الثُّجُبِ
 وَذَوْنَتْ أَخْبَارُهُ فِي صَفَحَاتِ الْحَقِيبِ^(٥)
 إِذْ لَيْسَ بَعْدَ الْعِلْمِ فِي دَرْكِ الْمَلَا مِنْ سَبَبِ

-
- (١) امن في الأمر تباعد فيه وتوغل (٢) لغة فصيحة في ثم (حرف السلف)
 (٣) الذأب يسكون الهبة وتحريكها كما هنا الجدل في العمل (٤) معنى كأن هنا
 التقريب - أي قريباً نراه قد سما الخ وفيه اعرابات، أمثلها أن مدخول كأن اسمها
 والباء زائدة والضمير خبر على حذف مضاف تقديره مبصره - أو الباء أصلية أي كأنني
 بصير به وجملة « وقد سما » حال متممة للمعنى نحو فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرَةِ مُعْرِضِينَ
 (٥) جمع حبة اسم اللثة من المهر لا جد لها والسنة

الأرضُ التي نعيشُ عليها

لما كانت الأرضُ مَسْكَنَ الإنسانِ، وَمَنَبَتَ مَعَالِيهِ، وَمِيدَانَ أَعْمَالِهِ، وَمَتَوَاهُ الْأَخِيرِ، لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَصِيرَ مَوْضِعَ بَحْثِهِ وَمَقْصِدَ عُلُومِهِ وَفَنُونِهِ فَتَنَدُّ عَقْلَ الْإِنْسَانِ، تَأَمَّلَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَخَذَ يَفْرِضُ فِي حَقَائِقِهَا فُرُوضًا، وَيَخَيَّلُ أُخْيَلَةً: بَعْضُهَا بَابِنَ الْحَقِيقَةِ، وَبَعْضُهَا قَارِبَهَا؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَنِدْ فِي جَمِيعِهَا إِلَى بُرْهَانٍ مَنْطِقِيٍّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمَدَّيْنِ وَدَرَسَ الْفَنُونَ وَالصِّنَاعَاتِ وَأَسْتَدَلَّ بِالْقِيَاسِ

وَقَلَّمَ وَافَقَ رَأْيَ أُمَّةٍ مِنَ الْقَدَمَاءِ رَأْيَ غَيْرِهَا فِي حَقِيقَةِ شَكْلِ الْأَرْضِ: فَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا مُسَطَّحَةٌ كَالْحَصِيرِ. وَقَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا كَالسُّطُوانَةِ. وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّهَا عَلَى هَيْئَةِ طَبْلٍ. وَخَالَفَهُمْ غَيْرُهُمْ فَقَالَ إِنَّهَا كَقَارِبٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْكَالِ؛ إِلَى أَنْ ظَهَرَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْيُونَانِ، وَفَرَضَ أَنَّهَا كُرَةٌ تَشْغُلُ وَسَطَ الْعَالَمِ، وَأَنَّ الْعَالَمَ فَلَكٌ مُحِيطٌ بِهَا وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي وَسْطِهِ. وَقَضَا أَرَاهُ غَيْرُهُ مِنْ حُكْمِهِمْ، وَقَالَ بِمَحْرَكَتِهَا هِيَ، وَإِنَّ الْفَلَكَ ثَابِتٌ

دَوَّنتْ هَذِهِ الْآرَاءَ وَغَيْرَهَا فِي الْكُتُبِ، وَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِمُحْضَرَاتِهِ حَاتِمًا عَلَى النَّظَرِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالِاسْتِدْلَالَ مِنْهَا عَلَى بَدَائِعِ صُنْعِ الْخَالِقِ، وَقَرَأَ الْعَرَبُ كُتُبَ الْجَمِيعِ، وَعَمِلُوا عَلَى تَحْقِيقِ كُلِّ مَنْهَبٍ، وَأَقْرَعُوا فِرْعَاكًا، مَا يَبِينُ عَالِمٌ مُدَقِّقٌ أَوْ قَاصٍ مُتَمَشِّدٍ. فَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَجَنَحُوا إِلَى الْمَقُولِ الصَّحِيحِ مِنْ أَقْوَالِ الْيُونَانِ، وَأَكْمَلُوا عَلَيْهَا، وَكَشَفُوا فِي شَكْلِ

الأرض وقياس درجتها وأنواع حركاتها ما كان سبيلاً مُعَبِّداً^(١) لمن أتى بعَدَمِ
من الأوربيين. وكتبهم الفلكية مملوءة بإثبات كُرِّيَّةِ الأرض وما يتعلق
بكُرِّيَّتِها؛ وعلى هذا الأساس بنوا حسابهم في علمي الفلك والبيقات وغيرهما
قالوا بذلك ودرسوه ودوّقوه ولم يُكْفِرْهُمْ مُكْفِرٌ أَوْ يُحَرِّقْهُمْ مُمَلِّكٌ جَبَّارٌ
كما فعلتْ بَعْدَهُمْ أُرُوبَةُ بُلْغِيَّتِهَا وفلاسفتها، فإنه ما كَادَ يَنْتَشِرُ العلمُ فيها وَتَقُلُّ
العلماء أقوال اليونان والعرب في شُكْلِ الأرض حتى ثارت بهم حاصفةُ
التُعَصُّبَةِ من جملة القساوسة والملوك والأمراء، وسجنوهم وعذبوهم وحرّقوهم؛
ولكن العلم والنور ينلبان الجهل والظلام؛ فإِذَا زَالَ العلماء منهم في جِهَادٍ
حتى أَخْتَارُوا رُؤُوسَ الْمُتُعَصِّبِينَ، وَهَبُوا يَتَفَهَمُونَ أقوالهم في الأرض والسماء،
وظهر لهم من أسرارها قَدْرٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ

والرائي الذي عليه عالمُ العلم الآن أَنَّ الأرضَ سَيَّارٌ من السَّيَّاراتِ التي
تَدُورُ حول الشمس، وهي تدورُ على قَمَرِهَا أيضاً. وهي السَّيَّارَةُ التي نَعْرِفُ
من أحوالِهَا أَكْثَرَ مما نَعْرِفُ من أحوالِ غَيْرِهَا لأننا نَسْكُنُهَا، أما السَّيَّاراتُ
الأخرى فبصيلة عنا لَا نَعْلَمُ منها إِلَّا بَعْضَ أُمُورِهَا المَرَضِيَّةِ كالبُعْدِ وَالضُّبُوءِ
وَالْكَثَافَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

والأرضُ في رَأْيِ أَغْيُنَانَا جَرْمٌ مُسْتَقَرٌّ في وَسْطِ الفَلَكِ وهي في الحقيقة
سَاحِجَةٌ في الفضاء على مَدَارٍ خَاصٍ بِهَا حَوْلَ الشَّمْسِ وَعَلَى أَيْمَانٍ مَحْدُودَةٍ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ الكَوَاكِبِ وَتَجَذَّبُ فِيهَا بَيْنَهَا يُنْسِكُهَا أَنْ تَتَصَادَمَ. ذَلِكَ تَقْدِيرُ
العنبرِ العظيم

وَلَقَدْ يُخَيَّلُ لَنَا بِسَكْنَتِهَا أَنَّهَا أَكْثَرُ الْأَجْرَامِ الْفَلَكيَّةِ مَعَ أَنَّهَا تَصْنَعُ
عَنِ بَعْضِ نَجْمِ السَّيَّارَةِ بِمَا لَا تَهْدُرُ مَعَهُ بَذْرَةٌ . وَلَقَدْ تَكَبَّرُ عَنْ
بَعْضِ الْكَوَاكِبِ كَالْهُرَّةِ وَطَارِدَ مِنْ زَمِيلَاتِهَا سَيَّارَاتِ الشَّمْسِ ، وَلَكِنَّهَا
تَصْنَعُ عَنْ بَعْضِ هَذِهِ السَّيَّارَاتِ كَالْمُجْتَرِي وَزُحَلِّ

وَمَا زَاهٍ مِنْ أَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَشُرُوقِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا وَطُلُوعِ
الْكَوَاكِبِ وَأَفْوُجِهَا لَيْسَ إِلَّا نَتِيجَةُ حَرَكَةِ الْأَرْضِ عَلَى مَحْوَرِهَا ، لِأَنَّ هَذَا
الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ يَدُورُ حَوْلَنَا . وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ هِيَ إِحْدَى حَرَكَاتِ عِلَّةِ لِلْأَرْضِ
تَنْشَأُ مِنْهَا فَصُولُ السَّنَةِ الْأَرْبَعَةِ وَطُولُ النَّهَارِ وَقِصَرُهُ

وَلَيْسَ هُنَا مَكْلَنٌ لِلتَّحْدِيلِ عَلَيْهَا وَإِثْبَاتِ بَرَاهِينِهَا ؛ فَقَدْ تَكْفَّلَ بِبُذْنِ عِلْمِ
الْفَلَكَ وَالْجُغْرَافِيَّةِ وَالرِّيَاضَةِ

تَكْوِينُ الْأَرْضِ

يَقُولُ الْعِلْمَاءُ الْآلَنَ : إِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ ، أَجْزَاؤُهَا
نِهَاجَةٌ فِي الدَّقِيقَةِ تُسَمِّيَهَا مَادَّةَ الْكَوْنِ وَمِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ مَا هُوَ بَاقٍ عَلَى دِقَّتِهِ ،
وَمِنْهَا مَا تَكَثَّفَ بِتَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَيَكُونُ ثَارَةً صَمَادًا ^(١) مُتَقَدِّمًا أَوْ بَارِدًا ،
وَطَوْرًا سَائِلًا مُتَقَدِّمًا أَوْ بَارِدًا ، وَجَنَابًا صُلْبًا أَوْ هَشًّا ، وَأَوْنَةً نَبَاتًا أَوْ حَيَوَانًا
وَقَدْ كَانَتِ الشَّمْسُ وَسَيَّارَاتُهَا كُتْلَةً وَاحِدَةً مِنْ دُخَانٍ ^(٢) مُتَقَدِّمٍ كَثِيرٍ

(١) الصَّمَادُ هُوَ مَا يُسَمَّى (التَّلَاز) وَجَاءَ فِي كِتَابِ الْحَيَوَانِ لِلْجَاهِظِ أَنَّ الْأَجْسَامَ
إِمَّا صُلْبَةٌ وَإِمَّا سَائِلَةٌ وَإِمَّا صَمَادٌ (٢) يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى « ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى
السَّيِّءِ وَهِيَ دُخَانٌ » وَيَسَمَّى هَذَا الدُّخَانُ الْآنَ السُّدِيمَ وَأَصْلُهُ لُغَةُ الضَّبَابِ الرِّقِيقِ

من أجرام السماء، ففتق^(١) الله بعض الكواكب من بعض، وفتق الأرض من الشمس، فسبح كل في فلكه^(٢)، ودار حول نفسه، وحول ما هو أكبر منه على نظام مطرد وقدير حكيم.

فصارت الأرض يدورانها على محورها كرة نضي بذاتها كالشمس وبعض الكواكب. ويدورانها حول الشمس في طبقات القضاء البارد جداً شتت حرارتها وبردت شيئاً فشيئاً حتى صارت كرة سائلة، وتناقص حجمها تناقصاً عظيماً، وانخفضت قليلاً من وسطها، وتغلطحت من قطبيها تبتاً لقانون دوران السوائل. إلا أنه لم تسيل كل كتلتها، وبقي بعضها جواً صماداً حولها تظلله بمد حين بخار الماء. وازدياد البرد على تراخي الزمان جمد سطحها، وتغطت بقشرة أخذت تملظ وتبيض بالشرح.

ولما انخفضت درجة حرارة الجو المحيط بها سالت بخار الماء، فكان يسقط مطراً على الأرض، حتى إذا لامسها أصعد ثانية لحرارة سطحها، ثم يسقط ببرودة الجو، ثم يصعد وهكذا؛ حتى أصبح سطحها ملاماً لاستقرار الماء عليه في حالة سيولة، فتمر جميع سطحها وصار بحراً واحداً. ولكن تقبض فشرق الأرض وتصلبها بالبرودة كما تقبض قشرة التفاح والنيارة إذا جفت وطوبتها جعل بعض سطحها يملو عن بعض، فتكون من المالى القارات والجزائر والجبال، وتكون من المنخفض البحار. ثم لما أزداد التقبض والتغض^(٣)

(١) يشير الى ذلك قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً متصفتان) (٢) يشير الى ذلك قوله تعالى في سورة يس (كل في فلكه

ينبحون) بعد ذكر الأرض والشمس والقمر (٣) تغض الشيء تشنج وتثني
تزمة القوي (٧)

انحصرت البحار عن بعض البقاع فزادت على مساحة القارات كثيراً من الوديان والشهول والجبال؛ يُلَمَّ ذلك بما نشاهد في أحافيرها من بقايا الحيوان المائي. وهذا هو طورُ التكوين الأول. وكلُّ أرضه صخرية بلورية التركيب والشكلي. ومنها عامةُ الجبال والصخور

وإذ كانت الأودية والشهول تحفُّ بها جبالٌ شاهقة تصدُّ بخار الماء المنشعب به الهواء برَد ذلك البخار على سطحها أو بحوارها وتكاثف وصار مطراً. فلذا اشتدَّ البرد صار ثلجاً وجَداً. ثمَّ يسيلُ المنضِضُ منه بالحرارة، ويندفعُ سيولاً وأنهاراً تصُبُّ الجبل، وتجرفُ ما يؤهِّنه اختلافُ الحرِّ والبرد وخفقُ الريح، وتحمله وتلقيه في البحار والمهول. فنه ما يصبُّ بضغطةٍ حديثه لعدمه وثبت في مكانه ويكون طباقاً من الجير والجصِّ والطفال^(١)، ومنه ما يبقى هَيلاً وينقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ كمضِ الحصى والرَّمال والتراب. وهذا الراسبُ من فيلِ السيول والأنهار أو انحصارِ البحار القديمة يسمى أرض الرُسوب

ثمَّ لما أصبحت الأرضُ صالحةً للحياة خلقَ الله النباتَ على أطوار، فقرةً وخطمً، وتكاثفَ أجساماً وغاباتٍ غيَّاه^(٢) ثمَّ جرفته السيولُ وحطَّته العواصف ونبتَ غيره، وهكذا حتى كان منه طبقاتٌ مدفونة في بطن الأرض استحالَتْ بعد حينٍ قصصاً حجرياً. ثمَّ خلقَ الله أوائلَ الحيوان المائي ثمَّ ذوات القشور والمحار كمضِ أنواع السراطين والحلَّازين^(٣). ثمَّ توَّ إليها من ذوات الفقار كالسنانين وبعض الأسماك، ثمَّ أنواع الزواحف والورل ذوات الحياتين البرية

(١) الطفال: الطين اليابسُ الناعم (٢) ملفه (٣) ذوات الحمار المحمَّوى

والبحرية، ثم الدواب والوحوش والسباع؛ حتى عمت الأرض، وبادت وخطفها غيرها، ثم غيرها وغيرها في دهور طويلة ثم بالوف الأوف^(١). وأمنزج بعض ما تخلف من بقايا الحيوان والنبات بأرض الرثوب، فتكونت الأراضى لزراعية الحديثة التى يكثر خصبها بكثرة المواد الحيوية فيها^(٢)

الجرأة والاقدام

قال صاحب كتاب الأذكياء^(٣): حدثني أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب قال حدثني بعض الأشراف بالكوفة: أنه كان بها رجل حسنى يعرف بالأدعج شديد القلب جداً قال: وكان في خرائب الكوفة شئ يظهر للمجتازين فيه ناري يطول قارة وقصير أخرى يقولون هو غول يفرع منها الناس. فخرج الأدعج ليلة راكباً في بعض شأته، قال لي الأدعج: فاعترض لي السواد والنار؛ فطال الشخص في وجهي، فأنكرته، ثم رجعت إلى قمى. فقلت: أما شيطان وغول فهو، وليس إلا إنساناً. فذكرت الله تعالى،

(١) ولا ينافى ذلك ما ورد في القرآن الكريم من أن الله خلق الأرض وقدر أقواها في أربعة أيام فان أيام الله ليست كالأيام التى نعدّها. قال تعالى: (تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) وهذا من قيل التمثيل ولا فلا يعلم مقدار أيامه الآ هو^(٢) قد أطلع على هذه المقالة الأستاذ «ميخايل فرج بك» مدرس

علم التاريخ الطبى بمدرسة المعلمين السلطانية وأقر بصحة ما فيها من الحقائق العلمية (٣) هو الزاهد الواعظ المحدث القاص المؤرخ الشاعر أبو الفرج عبد الرحمن بن

علي بن الجوزى عين أعيان بغداد في القرن السادس الهجرى

وَصَلَّيْتُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَعْتُ عِنَانَ الْفَرَسِ، وَقَرَعْتُهُ بِالْمِقْرَعَةِ،
وَطَرَحْتُهُ عَلَى الشَّخْصِ، فَزَادَ طَوْلُهُ، وَعَظُمَ الضُّوءُ فِيهِ، فَفَرَعَ الْفَرَسُ،
فَقَرَعْتُهُ، فَطَرَحَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ، فَهَضَرَ الشَّخْصُ حَتَّى حَادَ عَلَى قَلْبِ قَلَمَةٍ. فَلَمَّا
كَادَ الْفَرَسُ يَخْلُطُهُ وَلَّى هَلْبًا. فَحَرَكْتُ الْفَرَسَ خَلْفَهُ، فَاتَّهَى إِلَى خَرِبَةٍ
فَسَلَّطَهَا. فَسَلَّطْتُ خَلْفَهُ، فَلَمَّا هُوَ قَدْ نَزَلَ سِرْدَابًا فِيهَا. فَنَزَلْتُ عَنْ فَرَسِي
وَسَلَّدْتُهُ وَنَزَلْتُ، وَسَقَى عَجْرَدًا. فَحِينَ حَصَلْتُ فِي السِّرْدَابِ أَحْسَسْتُ
حَرَكَةَ الشَّخْصِ يُرِيدُ الْفِرَارَ مِنِّي، فَطَرَحْتُ نَفْسِي عَلَيْهِ. فَوَقَعْتُ يَدِي عَلَى
بَدَنِ إِنْسَانٍ قَبَضْتُ عَلَيْهِ فَأَخْرَجْتُهُ؛ فَإِذَا هِيَ جَارَةٌ سَوْدَاءُ. فَقُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ
أَنْتِ؟ وَالْأَتْلُكَ السَّاعَةِ. قَالَتْ: قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتِ إِنْسِي أَمْ جَنِي؟ فَمَا
رَأَيْتُ أَقْوَى قَلْبًا مِنْكَ قَطُّ. فَقُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أُمَّةٌ لآلِ مُلَانَ
(قَوْمٌ بِالْكُوفَةِ)، أَبَقْتُ مِنْهُمْ مِنْذُ سَنِينَ، فَتَغَرَّبْتُ فِي هَذِهِ الْخَرِيبَةِ، فَوُلِدَ لِي
الْفِكْرُ أَنْ أَحْتَالَ بِهِمْ الْحِيلَةَ وَأُوهِمَ النَّاسَ أَنِّي غَوْلٌ حَتَّى لَا يَقْرُبَ لِلْمَوْضِعِ
أَحَدٌ، وَأَتَعَرَّضُ لَيْلًا لِلْأَحْدَاثِ؛ وَرُبَّمَا رَمَى أَحَدُهُمْ مَنَدِيلًا أَوْ زَادًا فَأَخْذُهُ
فَأُيَمَّةٌ نَهَارًا وَأَتَلَّتُ بِهِ أَبَاطِمًا. قُلْتُ: فَمَا هَذَا الشَّخْصُ الْقَدِي يَطُولُ وَقَصُرُ؟
وَالنَّارُ الَّتِي تَظْهَرُ. قَالَتْ: كِسَاءٌ مَعِي طَوِيلٌ أَسْوَدُ (وَأَخْرَجْتُهُ مِنَ السِّرْدَابِ)
وَقَصَبَاتٌ هِنْدِيَّةٌ أَذْخُلُ بِمَقْصَا فِي بَعْضِ الْكِسَاءِ وَأَرْفَعُهُ فَيَطُولُ؛ فَلَمَّا
أَرَدْتُ تَقْصِيرَهُ دَفَعْتُ مِنَ الْأَتَايِبِ وَاحِدَةً فِي وَاحِدَةٍ فَيَقْصُرُ. وَالنَّارُ قَتِيلَةٌ
شَمِعٌ مَعِي فِي يَدِي لَا أُخْرِجُ إِلَّا رَأْسَهَا مَقْدَرًا مَا يُبْصِرُ الْكِسَاءَ (وَأَرْتَقِي
الشَّمْعَةَ وَالْكِسَاءَ وَالْأَتَايِبَ) ثُمَّ قَالَتْ: قَدْ جَازَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ نَيْفًا
وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَأَتَعَرَّضْتُ فُرْسَانَ الْكُوفَةِ وَشُجَّانَهَا وَكُلَّ أَحَدٍ، فَمَا أَقْدَمَ أَحَدٌ

على غيرك ولا رأيتُ أشدَّ قلباً منك . فحملها الأدرعُ الى الكوفة، فردّها الى موالها . فكان يُحدثُ بهذا الحديث ، ولم يُرَ بعد ذلك أثرُ غول ، فعلم أن الحديث حق

وصايا الآباء للأبناء

عنه الاستماع

أوصى الحسنُ البصريُّ^(١) أبنه فقال : يا بُنَيَّ اذا جالستَ العلماءَ فكُنْ على أن تسمعَ أحرصَ منك على أن تهولَ . وتعلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلَّمُ حُسْنَ الصمتِ . ولا تقطعَ على أحدٍ حديثاً وإن طالَ حتى يُتمِّيكَ^(٢)

أدب السؤال والجواب

أوصى يحيى^(٣) بن خالد بن برمكٍ أبنه جعفرًا فقال : لا تُردِّ على أحدٍ جواباً حتى تفهمَ كلامه ؛ فإن ذلك يصرِّفُك عن جوابِ كلامه الى غيره ، ويؤكِّدُ الجهلَ عليك ؛ ولكن أفهمْ عنه ، فإذا فهمته فأجبه . ولا تتجلَّ بالجواب قبل الاستفهام . ولا تستعجلَ أن تستفهمَ اذا لم تفهمْ ؛ فإن الجوابَ قبل الفهمِ حقٌّ . وإذا جهلتَ ما قيلَ فسؤالُك واستفهامُك أجملُ بك وخيرٌ من السكوتِ على الشيءِ

(١) كان من خيار التابعين علماً وقهاً وتورعاً وفصاحة توفى بالبصرة سنة ١٦٠ هـ

(٢) يملك : ينهى كلامه

(٣) كان وزيراً لرشيد ثم خلفه ابنه الفضل فجهر ثم نكبهم الرشيد فقتل جعفرًا

سنة ١٨٧ هـ وسجن يحيى والفضل فتوفى يحيى سنة ١٩٠ هـ في السجن

وصية قيس بن عاصم^(١)

لما احتضر قيس بن عاصم قال لنيه : يا بني "أحفظوا عني ثلاثاً ، فلا أحد أنصح لكم مني : إذا أتيت فسدوا^(٢) ، كباؤكم^(٣) ، ولا تسودوا صغاركم ؛ فيحقر الناس كباؤكم ونهونا^(٤) عليهم . وعليكم بحفظ المال ؛ فإنه منبهة^(٥) للكريم ، وتستغنى به عن اللئيم . وإياكم والمسألة ؛ فإنها آخر كسب الرجل

بجالة أهل العلم

روى أبو علي القالي^(٦) في أماليه من كلام العرب ووصاياها : «جالس أهل العلم ، فإن جهلت علموك ، وإن زللت قوتك ، وإن أخطأت لم يُغفرك^(٧) ، وإن صحت زانوك ، وإن غبت ففقدوك^(٨) . ولا تجالس أهل الجمل ؛ فإنك إن جهلت عفتوك ، وإن زللت لم يُقوِّموك ، وإن أخطأت لم يُثبِّتوك

وصية عبد الله بن معاوية^(٩)

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لأبنته : أي بني ! إني مؤثر حق الله في تأديبك ، فأدِّ إلى حق الله في الاستماع مني . كُفْ الْأَثَى

- (١) هو سيد أهل الزبير في الجاهلية وسيد بني تميم جاهلية وإسلاماً أسلم سنة ٥٩ هـ ثم رحل إلى البصرة ومات بها (٢) أي اجعلهم سادة وروساء (٣) يسهل أمركم عليهم أي تصفرون في أعينهم (٤) أي مُشَرِّعٌ يقدِّره ومُعَلِّمٌ لَشَأْنِهِ
- (٥) هو القنوى الأديب الراوية رحل من المشرق إلى الأندلس وحظي عند ملوك بني أمية بها وله كتب جليلة منها أماليه توفي سنة ٢٥٦ هـ (٦) يكذبوك (٧) يحشوا عنك (٨) أخرج علي مروان آخر خلفاء بني أمية واستولى على فارس ثم هزم والتهجأ إلى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية فسجنه ومات في السجن

وأرفضُ البَدْءَ^(١)، وأستين على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك الى الكلام؛ فإنَّ للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها الخطأ، ولا ينفعُ فيها الصوابُ. وأحذرْ مشورةَ الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذرْ مشورةَ العاطل إذا كان غاشاً؛ لأنه يُردِّيك^(٢) بمشورته. وأعلم يا بُنَيَّ أنَّ رأيك إذا احتجَّتْ اليه وجدته نائماً، ووجدتَ هواك يقظاناً، فإياك أن تستبدَّ برأيك؛ فإنه حينئذٍ هواك، ولا تفعلْ فعلاً إلا وأنت على يقينٍ أن عاقبته لا تُردِّيك، وأن نتيجته لا تجني عليك

بُيَيْيَنِي

ذَكَرْتُ كُتُبَ التَّارِيخِ الْقَدِيمَةِ أَنَّهُ كَانَتْ قَوْمٌ بِسَفْعٍ وَرُؤُفٍ إِلَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ نَابِلِي مَدِينَةٍ جَمِيلَةٍ الدُّوَرِ وَالْقُصُورِ كَثِيرَةٍ الشُّوَارِعِ وَالْحِمَامَاتِ وَالْبَرَكِ وَالْفُورَاتِ، رَاقِعَةً الْهَيَاكِلِ وَالْمَلَاهِي وَالْمَلَاعِبِ، يَسْكُنُهَا نَحْوُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ نَسَمَةٍ. تِلْكَ هِيَ مَدِينَةُ بُيَيْيَنِي الَّتِي بَنَاهَا الْيُونَنُ قَبْلَ الْمَسِيحِ بِمِائَاتٍ مِنَ السَّنِينَ وَأَسْتَحْذَ طَيْبُهَا الرُّومَانُ فِي جُمْلَةٍ مَا أَسْتَحْذُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ الْيُونَانِيَةِ

بَنَاهَا، وَقَدْ أَمْنُوا غَائِلَةً وَرُؤُفَ الَّتِي خَدَعَتْ أَقْبَاسُهُ قَبْلَ بَنَائِهَا بَيْتَهُ قُرُونًا، وَمَا دَرَوْا أَنَّ أَتُون^(٣) جَوْفِ الْأَرْضِ مَا زَالَتْ تَتَلَّى مَرَّاجِلَهُ^(٤)، وَأَنَّ

(١) البَدْءُ: الكلام الفاحش. قصره للسجع (٢) يهلكك

(٣) هو الموقد العظيم لعل الجير والجص والحمامات وأفران الخبز

(٤) جمع مَرَجَل وهي القدر الكبيرة

النفطة الذي طمَّ أحد. نافذ لهما لبس الإطفاء^(١) لا تلبث أن تطير
بليضة من تيار قلبه الخالق

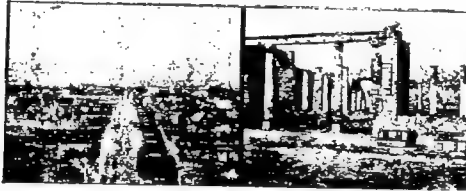
فعلها الرومان في أزمان ترفهم وبنهم ولهم ولعهم، وشادوا فيها
القصور والهيكل، وإنهم لفي سكرتهم يعمهون^(٢) إذا وزوف يُذرم أن
قد لَن الرحيل، ووجبت الهجرة، فزلزلهم زلزالاً شديداً أتى بنيانهم من
القواعد، فأتقصت الهياكل والأبراج، وتداعت القصور والتلالى، ولم
يبق بالمدينة إلا البيوت الصغيرة الأحادية الطباق. قهرت للدولة عن تجديدها
خشية كرم وزوف عليها. فلبثت ردحاً^(٣) من الزمن خاوية على عروشها
محوست عشرة سنة؛ حتى أذنت لهم بنيانها، فجندوها على الطراز الروماني
الحديث إلا أنهم في هذه المرة أخذوا بالخطية؛ فبنوا دورها أحادية
الطباق أو ثنائيتها، ومن رغبوا في التعلل بنوا أسفل المباني بالحجارة وعلاليها
بالجب. وهيئات أن يتفع حذر من قدر؛ فلم يكتف وزوف أن يأخذهم
بالرجفة في غضبه الأخرى حتى شفعها يكسف من الصمم^(٤) والزباد
المثوق والصواعق، فأصبحوا في ديارهم جائعين كأن لم يننوا فيها

حدثت هذه الداهية الملهمة^(٥) في شهر أغسطس سنة ٧٩ م، والقوم
محتشون في ملهى المدينة الكبير محتفلون يوم زينة غارقون في بمار
من القهر والحب؛ فلم يشعروا إلا وقد زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت
أهلها تطاير من خلق وزوف العظيم. فانبعث منه سحابة سوداء من

(١) ما طمان زيد القدر (٢) يضلون (٣) مدة طويلة، لبثت خربة ١٦ سنة

(٤) الغحم (٥) السوداء

الرَّمَادِ طُبِقَتِ الْأَفْقَ، وَنَسَاقَطَتْ عَلَى الْمَدِينَةِ. فَطَارَ أَهْلُهَا مِنَ الْمَلْهَى مِرَاعًا
مُطَالِبِينَ التَّجَلَّةَ. وَبِهِمُ مِنَ الذُّعُرِ^(١) مَا يَنْجِزُ الْقَلَمُ عَنْ وَصْفِهِ. وَمَنْ سَاعَلَتْهُمْ
الْمَقَادِيرُ، وَمِ الْأَكْثَرُونَ، نَجَوْا قَبْلَ أَنْ يَمُدَّ وَيَزُوفَ رَمَادُهُ بِالْحُمَمِ وَالضُّخُورِ
الْمُتَهَبَةِ. وَمِنْ عَثَرَتْ بِهِمْ جُدُودُهُمْ^(٢)، وَمِ الْأَقْلُونَ، أَذْرَكَتْهُمْ كِسْفُ وَيَزُوفِ
الْمُشْتَمِلَةِ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ وَعَلَى الْعَارُقِ مُصْرَعِينَ



منظران في بَيْتِنَه

وَكَاثِنًا بِهِؤْلَاهِ التَّخْلُفِينَ وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ سَحَابَةَ وَيَزُوفِ الرَّمَادِيَةِ
سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَهْتَشُّ، فَلَجَبُوا إِلَى مَخَادِعِ^(٣) دِيَارِهِمْ، فَكَانَتْ مَقَابِرَ
لَهُمْ. وَقَدْ ظَنَّ آخَرُونَ أَنَّ فِي أُسْطَاعَتِهِمْ أُسْتِنْقَاذَ أَمْوَالِهِمْ وَجَوَاهِرِهِمْ،
فَذَفِفَتْ مَعَهُمْ. يُلَمَّ ذَلِكَ مِنْ مَشَاهِدَةِ مَصَارِعِهِمْ بِنَدِّ كَشْفِ الزَّمَانِ النِّطَاطِ
عَنْ مَدِينَتِهِمْ

ظَلَّ وَيَزُوفُ ذَلِكَ الْيَوْمَ يُمَطِّرُ الْمَدِينَةَ وَابِلًا^(٤) مِنْ نَارِهِ، خَرَّقَ طِبَاقَ
الْخَشَبِ وَمَصَارِيحَ الْأَبْوَابِ وَالطِّيقَانِ، ثُمَّ زَفَرَ فَطَرَ الْمَدِينَةَ بِطَبَقَةٍ مِنَ الرَّمَادِ

(١) الخوف (٢) حظوظهم ويخوتهم (٣) جمع مَيْخَدَعٍ وَمَيْخَدَعٌ وَهُوَ الْحَرَاةُ
وَالْيَتِ دَاخِلُ الْبَيْتِ (٤) المطر الشديد الضخم القطرات

تُملأ الأرضُ بأكثرَ من عشرين قديماً . وتملئت فنائمه المدينة الى المدنِ
المجاورة والممالكِ المصاحبة؛ حتى بلغت شواطئ إفريقيا، وظنَّ الناسُ أن قد
أدَّتِ الساعةُ بالقيامِ

سُويتِ المدينةُ بالأرضِ وشُيِّلَ الناسُ بأنفسِهِم عنها، وأغفلَ خلائقُهُم
أمرَها، فضلُّوا مكثَها، وجرُّوا أرضَها حقولاً وزراعَ قروناً طويلةً،
وأصبحتْ نسياً منسياً

وبينما كان أحدُ المهندسينِ يُجرى قناةً مياهٍ سنة ١٥٩٧م الى مدينة قرييةٍ
منها عبرَ على خرائيها، ولكنَّ دولةَ الطليانِ لم تُنْ بكتشِها إلا منذُ سنة ١٧٤٨م
فظهرتِ المدينةُ بذورها وشوارعُها وحماماتها . وعرفوا من أطلالِ المباني وبقايا
الماعونِ والآنيةِ كيف كانت مبعشةُ الرومانِ ونظامُ بيوتهم ، وعرفوا من
رُفَّتِ الموني كيف كانت مصارعُهم ، وعلى أيِّ حالٍ دهمتهم غاشيتهم^(١)
وحاقت بهم يلبثتهم

فبينَ أيمَ رَومٍ^(٢) ضمتْ طفلها الى صدرها للوداعِ لا لِرُضاعِ
ومن رُبِّ بيتِ بينِ زوجه وأولاده ، وافقتهم منايهم في لحظة ، وضمتهم
من الدارِ قبرٌ واحدٌ

ومن اسارى صرَّعوا والأغلالُ في أعناقِهِم والسلاسلُ والأثامُ^(٣) في
أرجلِهِم ، فأراحتهم الفاجعةُ من تمذيبِ مُعْظَمِهِم
ومن خيلٍ وبنالٍ عاشتْ دهرآ في خدمةِ البشرِ ، ثم هلكتْ في جرائِرِهِم
وساوتهم في مدافنِهِم

(١) الناشئة من أبناء النار (٢) الروم التي تعطف على والدها وتقره

(٣) جمع آدم وهو القيد

وإذ كان الفعلة منذ عهد قريب يُفَرِّغُونَ شارقاً صغيراً من الرّذم والأقحاض رأوا فراغاً يحتوي عظاماً، فدعوا مديراً العمل إليه فسكّب فيه جصاً مائلاً حتى كسا العظام، وملأ الفراغ. فلما أراح ما حوله إذا بأرملة أشخاص من الجص الصلب لا ينقصهم إلا الحيلة والنطق : ثلاث نساء، يحجب إحداهن قطعُ قهودٍ وقدسان من فضة صفاتيج وجواهر، وفي أصبع الأخرى خاتم حديد، ورجلٌ مُستلقٍ على ظهره، وجرمونه ^(١) مشدودان على ساقيه، ولم تزل المسامير في نعليه، وفي يده خاتم حديد، وفمه مفتوح، وبعض أسنانه مفقود. وكان قُرْب هذه المدينة ثلاث مدن، وهي «هر كيولا يوم»، و«زينا» و«بلتة» نُكِبَت في يوم بمعية بتل نكبتها. وفي خير بمعية ما بُني عن خبرها

عقلاء المجانين

قال ابن القصاب الصوفي : دخلتُ المارستانَ فرأيتُ فيه قتيّ مُصاباً. فوَلِمْتُ به ^(٢)، وزدت في الولع، فأَتَمَمْتُه، فصاح، وقال : أنظروا إلى شعور مُطَرَّزة ^(٣)، وأجساد مُعَطَّرة، قد جالوا الولع بضاعة، والشخف صناعة. فقلت له : من السخى ؟ قال الذي رَزَقَ أمثالكُم، وأتم لا تساوون قوت يوم. قلت له : من أقل الناس شكراً ؟ فقال : من عوفي من بَلِيَّتِهِ، ثم رآها في غيره فترك الشكر. فانكمرتُ بذلك. وقلت له : ما الظرفُ ؟ قال : خلاف ما أتم عليه

(١) مثني جرمون وهو العصاية التي تشد فوق الخف (الألشين)

(٢) أي سخرتُ به (٣) من طرّرت الجارية اتَّخَذَتْ لها طرّة

كان في بني أسد مجنون، فز به قوم من بني تيم الله فسيبوا به وعذبوه، فقال: ما أعلم في الدنيا قوماً خيراً من بني تيم الله! قلوا وكيف؟ قال: بنو أسد ليس فيهم مجنون غيري، وقد قيدوني وسلسلوني. وكلكم مجانين وليس فيكم مقيد.

مر بهلول^(١) بقوم في أصل شجرة، وكانوا عشرة. فقال بعضهم لبعض: تمالؤا حتى نستخر بهلول. فسمع بهلول ما قالوا فخامهم. فقالوا: يا بهلول! نصد لنا رأس هذه الشجرة وتأخذ عشرة دراهم؟ قال: نعم! فأعطوه عشرة دراهم، فصيرها في كفه، ثم ألفت، فقال: هاوا سلماً. فقالوا: لم يكن هذا في الشرط! فقال: كان في شرطي دون شرطكم!

مقطعات شعرية

قال محمود سالي البازودي^(٢)

بَادِرِ الْفُرْصَةِ ، وَأَخْطَرِ قَوَّتَهَا	فَبُلُوغِ الْعِزِّ فِي نَيْلِ الْفُرْصِ
وَأَغْنِ عُرْكَ إِبَانِ الصَّبَا	فَهَوَ إِنْ زَادَ مَعَ الشَّبَبِ قَصَصُ
وَأَبْتَلِ مَسَلَكُ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ مِنْ	بَادِرِ الصَّيْدِ مَعَ الْفَجْرِ قَصَصُ
إِنْ ذَا الْحَاجَةِ إِنْ لَمْ يَنْتَرْبِ	عَنْ حِمَاةٍ مِثْلُ طَيْرٍ فِي قَفَصِ

(١) هو أبو وهيب الكوفي محدث زاهد مؤسس كان في زمن الرشيد وتوفي سنة ١٩٠ هـ (٢) كان رئيس الوزارة للصيرية زمن الثورة العراقية واشترك فيها ونفى إلى سرنديب فكث بها ١٧ سنة ثم عفى عنه وجاء مصر ومات سنة ١٣٢٢ هـ

وَأَجْنِبْ كُلَّ غَيْبٍ مَاتِيٍّ فَهُوَ كَالْعَذِيرِ^(١) ؛ إِذَا جَدَّ قَمَصُنْ
إِنَّمَا الْجَاهِلُ فِي الْعَيْنِ قَدِّي حَيْثُمَا كَانَ ، فِي الصَّدْرِ غُصَصُنْ
وَأَخْتَبِرْ مَنْ شَتَّتَ تَعْرِيفَهُ ؛ فَمَا يَمْرِفُ الْأَخْلَاقُ إِلَّا مِنْ فَحَصُنْ

وقال أبو إسحاق إبراهيم النخعي^(٢)

بَسِيرِهِ قَمَصَ الْهَلَالُ ، وَزَادَا فَاجْعَلْ كَرَاكِ^(٣) إِذَا اعْتَزَمْتَ مُهَادَا^(٤)
لَوْلَا أَنْصَلَتْ^(٥) الْبَيْضُ^(٦) مِنْ أَعَادِهَا^(٧) مَشْخُودَةً لَمْ تَقْضِلِ الْأَعْمَادَا
وَفَضِيلَةُ الْحَيَوَانِ فِي حَرَكَاتِهِ لَوْلَا مَنَافِعُهُ لَكَانَ جَمَادَا
مَا الْعَمْرُ إِلَّا رَاحِلٌ ، وَأُظْلِمَتْ أُنْخَذَ الشَّبِيحَةُ لِلْمَسَافَةِ زَادَا
لَا تَخْلَمَنَّ عَنِ اللِّسَانِ لِبَاطِمَةٍ وَقَوِّقْ فَرَطَ جِلْحِهِ الْبُعْتَادَا
فَأَلْفُهُ خَصٌّ الْإِسْتِمَاعَ بِأَلَةٍ مَتْنً ، وَجَارِحَةُ الْكَلَامِ فُرَادَى

وقال أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي^(٨)

حَاوِلْ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ ، وَلَا تَهَلْ إِنَّ الْحَمْدَ وَالْعُلَا أَرْزَاقُ
وَأَرْغَبُ بِنَفْسِكَ^(٩) أَنْ تَكُونَ مُقْصِرَا عَنْ غَايَةِ فِيهَا الطَّلَابُ سِبَاقُ

- (١) الحمار (٢) هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي شاعر مجيد بنجاح مطولات ، وله ديوان اختاره لنفسه ، وله بئزة سنة ٤٤١ هـ وقصرت به الأخوال فذهب إلى المشرق ومات بين مرو وبلخ سنة ٥٢٤ هـ (٣) الكرى النوم (٤) السهاد السهر (٥) فيرد (٦) السيوف (٧) جمع رغند وهو قراب السيف (٨) هو أبو نصر عبد العزيز ابن عمر المشهور بابن نباتة ، ونُسب إلى سعد تميم ، وعد في شعراء سيف الدولة الحمداني ، وله ديوان حافل توفي سنة ٤٠٥ هـ بقتاد . وهو القاتل : ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

(٩) صُنْ قَسَك

لا تشفقن^(١) فإن يومك إن أتى ميقاته لم ينفع الإشفاق
وإذا عجزت عن المدو فداره وأمزج له إن الزاج وفلق
فالنار بللاء الذي هو ضئها تُعطى التضاج، وطبها الإحراق

العلم النافع أمان من الفقر

قال صاحب الفرج بعد الشدة^(٢)

حدثني أبي، قال: بلغني من غير واحد أن أبا يوسف^(٣) صحب أبا حنيفة
على قصر شديد. وكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش، فيعود إلى منزله
على جهد. وكانت أمه تحال فيما يقتاتون به يوماً بيوم. فلما طال ذلك عليهم
خرج إلى المجلس يوماً فقام فيه، وحاد ليلاً، وطلب ما يأكل، فجاءته بنضارة^(٤)
مُطَاوَّة، فكشفها، فإذا فيها دقائر. فقال: ما هذا؟ قالت: ما أنت مشغول
به نهارك أجمع! فكل منه ليلاً! فبكي، وبات جائعاً، وتأخر من غده عن
المجلس، حتى احتال فيما أكلوه. فلما جاء إلى أبي حنيفة سأله عن سبب
تأخره، فصدقه. فقال: هلا عرفتني فكنت أمثلك! ولا يجب أن نغم؟
فإنه إن طال عمرك فستأكل بالقيء اللوزنج^(٥) بالقيء المقتسر. قال:
أبو يوسف: فلما خدمت الرشيد، وأختصصت به قدم بمحضرتي يوماً

- (١) لا تخافن (٢) هو القاضي المحدث الأديب الشاعر المحاضر أبو علي البهسين
ابن أبي القاسم على التتويح توفي سنة ٣٨٤ هـ بخداد (٣) هو صاحب الإمام أبي
حنيفة ومزيد مذهبه وأول من لقب بقاضي القضاة توفي سنة ١٨٢ هـ (٤) صحنه
منخذ من الطين الحرة (٥) نوع من الحلواء شبيه الطائف يؤدم بدهن اللوز

تَوَزَّيْتُ بِمُسْتَقٍ مَقْشَرٍ، فَدَعَانِي إِلَيْهَا، خِينٌ أَكَلْتُ مِنْهَا ذَكَرْتُ أَبَا حَنِيفَةَ،
فَبَكَيْتُ وَحَمِدْتُ اللَّهَ تَعَالَى، فَسَأَلَنِي الرَّشِيدُ عَنِ السَّبَبِ فَأَخْبَرْتَهُ

وَرَوَى أَيْضًا فِي كِتَابِهِ الْآخِرِ الذِّكْرَ قَالَ

وَجَلَسْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ ^(١) قَالَ: كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ أَطْلُبُ
الْعِلْمَ وَأَنَا مُقِلٌّ. وَكَانَ عَلَى بَابِهَا بَدَأْتُ، إِذَا خَرَجْتُ بِكَرَّةٍ يَقُولُ لِي: إِلَى أَيْنَ؟
فَأَقُولُ: إِلَى فَلَانِ الْحَدِيثِ، وَإِذَا عُدْتُ الْمَسَاءَ يَقُولُ لِي مِنْ أَيْنَ؟ فَأَقُولُ:
مِنْ عِنْدِ فَلَانِ الْأَخْبَارِ أَوْ الْقُتُوبِ. فيقول: يَا هَذَا أَقِيلْ وَصِيَّتِي؛
أَنْتَ شَابٌّ، فَلَا تُضَيِّعْ قَسَمَكَ، وَأَطْلُبْ مَعْلَمًا يَمُودُ عَلَيْكَ قَعْمُهُ، وَأَعْطِنِي
جَمِيعَ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْكُتُبِ أَطْرَحُهَا فِي هَذَا الدَّنِّ، وَأَصُبُّ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ
لِلْمَشْرِقِ أَرْبَعَةً، وَأَبْنِيهِ، وَأَنْظُرْ مَا يَكُونُ مِنْهُ. وَاللَّهُ لَوْ طَلَبْتُ مَنِي يَجْمَعُ مَا
لَدَيْكَ مِنَ الْكُتُبِ جَوْزَةً مَا أَعْطَيْتُكَ. فَيَضِيقُ صَدْرِي بِمُدَاوِمَةِ الْكَلَامِ؛
حَتَّى كُنْتُ أَخْرُجُ مِنْ بَيْتِي لَيْلًا وَأَدْخُلُهُ لَيْلًا، وَحَالِي فِي خِلَالِ ذَلِكَ يَزْدَادُ
ضِيقًا؛ حَتَّى أَفْضَيْتُ إِلَى بَيْعِ آجُرٍ دَارِي، وَبَقِيتُ لَا أَهْتَدِي إِلَى تَهَقُّةٍ يَوْمِي،
وَطَالَ شَعْرِي، وَأَخْلَقْتُ ثَوْبِي؛ وَأَتَمَسَّخَ بَدَنِي. وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ مُتَحَيِّرٌ فِي
أَمْرِي، إِذْ جَاءَهُ لِي خَادِمٌ لِلْأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ ^(٢) قَالَ: أَجِبِ الْأَمِيرَ. فَقُلْتُ:
مَا يَصْنَعُ الْأَمِيرُ بِرَجُلٍ قَدْ بَلَغَ بِهِ الْفَقْرُ إِلَى مَا تَرَى. فَلَمَّا رَأَى سُوءَ حَالِي وَقُبْحَ
مَنْظَرِي رَجَعَ، فَأَخْبَرَ الْأَمِيرَ بِمَجْزِي، وَعَادَ إِلَيَّ، وَمَعَهُ مَخْوُوتٌ ^(٣) ضِيَابٌ

(١) هو الراوية الشهير توفى سنة ٢١٦ هـ (٧) من بيت الخلافة وهو محمد بن

سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (٣) جَمَعَ تَخْتٌ وَعَلَاهُ نَصَانٌ فِيهِ الْبَابُ

وَدُخِرَجُ^(١) فِيهِ بَحُورٌ، وَلَيْسَ فِيهِ دَنَائِرُ. وَقَالَ: قَدْ أَمَرَنِي الْأَمِيرُ أَنْ أُدْخِلَكَ
 الْحَمَامَ وَالْبَصَكَ مِنْ هُنَا ثَلَاثِينَ، وَأَدْعَ بِأَقْبَحِهَا عَلَيْكَ، وَأَطْلِعَكَ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ،
 (وَإِذَا بَحُورَانِ^(٢) كَبِيرٌ فِيهِ صَنُوفُ الْأَطْعِمَةِ) وَأَخْرَجَكَ لِتَرْجِعَ إِلَيْكَ رُوحَكَ ثُمَّ
 أَطْلِعَكَ عَلَيْهِ. فَتَبَرَّرْتُ بِذَلِكَ مُرُورًا شَدِيدًا، وَدَعَوْتُ لَهُ. فَحَمَمْتُ وَعَمِلْتُ
 مَا قَالَتْ، وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقَرَّبْتُ بَنِي
 وَرَفَقَتِي. ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ اخْتَرْتُكَ لِتَأْدِيبَ وَلَدِ الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَاعْمَلْ
 عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى بَابِهِ، وَأَنْتَظِرْ كَيْفَ يَكُونُ. فَشَكَرْتُهُ وَدَعَوْتُ لَهُ. وَقُلْتُ:
 مِمَّا وَطَّاعَةً، سَأَخْرِجُ شَيْئًا مِنْ كُتُبِي وَأُتَوَّجَهُ. فَقَالَ دَعْنِي وَكُنْ عَلَى الطَّرِيقِ.
 فَتَقَبَّلْتُ يَدَهُ، وَأَخَذْتُ جَمِيعَ مَا احْتَجَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ كُتُبِي، وَجَعَلْتُ بِأَقْبَحِهَا فِي يَدَيْ،
 وَسَدَدْتُ بِأَبَاهُ، وَأَقَامْتُ عَلَى الدَّارِ عَجُوزًا مِنْ أَهْلِنَا تَحْمِلُهَا، وَبَاكَرَنِي
 رَسُولُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَأَخَذَنِي إِلَى الْخَزَائِنِ^(٣) قَدْ اتَّخَذَنِي، وَفِيهَا أَسْتَأْجِ إِلَيْهِ.
 وَجَلَسَ مَعِيَ يُنْفِقُ عَلَيَّ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى بَنْدَادٍ، وَدَخَلْتُ عَلَى الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،
 فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ. وَقَالَ: أَنْتَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ قُرَيْبٍ الْأَصْمِيُّ؟ قُلْتُ
 نَعَمْ! أَنَا عَبْدُ الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ قُرَيْبٍ الْأَصْمِيِّ. قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ وَكَدَّ الرَّجُلِ
 مُهْجَةً قَلْبَهُ، وَغَرَّةَ قَوَائِدِهِ، وَهَذَا أَسْلِمُ إِلَيْكَ ابْنِي مُحَمَّدًا بِأَمَانَةٍ أَفْهٍ؛ فَلَا تَطْلَعُهُ
 مَا يُهْشِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ؛ فَلَعَلَّهُ لَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَامًا. قُلْتُ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ!
 وَأَخْرَجَنِي إِلَى. وَتَحَوَّلْتُ مَعَهُ إِلَى دَارٍ قَدْ أَخْلَيْتُ لَنَا لِتَأْدِيبِهِ فِيهَا، وَهِيَ مِنْ
 أَصْنَافِ الْخَلْدَمِ وَالْفُرُشِ مَا يَمُرُّ؛ وَأَجْرِي عَلَى كُلِّ شَهْرٍ عَشْرَةُ آلَافٍ
 (١) سُبَيْطُ صَنْدُوقٍ تَدْخِرُ فِيهِ الْمَرْأَةُ طَيِّبَهَا وَأَدَوَاتَهَا (٢) كَفَرَابُ وَكِتَابُ مَا يُوَكَّلُ
 عَلَيْهِ الطَّعَامُ (٣) نَوْعٌ مِنَ الْقَوَارِبِ

ديهم، وأمر بأن يُخرج إلى في كل يوم مائدة، فزومته. وكنت أُنقِذُ جميع ما
يجمع لديّ أولاً فأولاً إلى البصرة، فأبني دارى وأشتري ضياعاً وعقاراً. فأقت
منه حتى قرأ القرآن، وثقّه في الدين، وروى الشَّعْرَ والأقْصَا. وروى أيام
الناس وأخبارهم، واسترضه الرشيد فأعجب به، وقال: يا عبد الملك أريد
أن يصلي بالناس إماماً في يوم جمعة، فأختر له خطبة وحفظه إياها. فحفظته
عشراً، فخرج وصلى بالناس وأنامه، فأعجب الرشيد به، وأخذ به تبارك الدرام
والدنانير من الخاصة والممة، وأتت الجوائز والصلوات من كل ناحية، فجمعت
مبالغ عظيمة؛ ثم استبدعني الرشيد؛ فقال: يا عبد الملك قد أحسنت الخدمة
فتمنّ، فقلت: ما عسيت أن أتمنى وقد حُرْتُ آملي. فأمر لي بمال عظيم
وكسوة كثيرة، وطيب فاخر، وعيد وإملاء وظهور^(١) وفرش وآلة فقلت: إن
رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بالإمام بالبصرة والكتابة إلى عامله بها أن
يخاطب الناس الخلصة والعامة بالسلام على ثلاثة أيام وإكرامى بعد ذلك.
فكتب لي عنه بما أردت، وأُنحِرت إلى البصرة، ودارى قد عمرت، وضياعى
قد كثرت، ونعمتى قد فُشَتْ، فأتأخَّر عني أحد؛ فلما كان اليوم الثالث
تأملت أصاغِر من جاني فلذا البدال. وعليه عملةٌ وسيخةٌ ورداءٌ خفيف
وجبةٌ قصيرةٌ وقصٌّ طويلٌ في رجله جُرْمُوقَانٌ^(٢) فقال لي: كيف أنت
يا عبد الملك؟ فاستضحكت من حماقه وخطابه لي بما كان يُخاطبني الرشيد.
فقلت بمخير! وقد قبلت وصيبتك، وجمعت ما عندي من كتب العلم،
وطرحتها في اللّٰن كما أمرت، وصيبت عليه من الماء للعشرة أرملة فخرج ما
ترى. ثم أحسنت إليه بعد ذلك وجعلته وكيلى

(١) الظاهر ما يركب من العوالب. (٢) عصاة تشد على الخلف

العمل

الجسم الحي متحرك بطبيعته. وحركته عمل يصير منه لحفظ ذاته مدة أو لبقاء نوعه ما شاء الله أن يبقى. فالتنفس والتغذي وتورق الحري والبرد والاستكثان في مأوى يدفع عواذي الخليفة كل أولئك عمل لا حتى يتفاوت قوة وضعفاً بتفاوت قوة حياته وضعفها. إذا فلا معنى للحياة بدون عمل والإنسان الحي جسم كامل، فيحسب كثرة عمله النافع وقلة تعطيل حياته أو تضعف. ومعنى عظمة الحياة طول دواها سليمة من العمل مفعمة بالشروع.

فلما أردنا أن نمش متشعين بهذه الحياة فليس لنا طريق إليها إلا العمل العمل وحده هو الذي يكفل لنا هذا العيش الرغد المشتمل على اللذائذ والطيبات المشفوع بحسن السمعة ورضا الخالق. والكسل لا يورثنا إلا أمية ضنكا^(١) مخوفة بالوئس والسامة، مشوبة بالوساوس والأحزان مقرونة بخذلان^(٢) من الله ومقت^(٣) من الناس

كل إنسان يستطيع العمل، ولا يكلفه طلب المباشرة الشرفه عملاً فوق طاقته؛ والعمل المستطاع الدائم هو كل ما يطلب من المرء ليعيش سعيداً في نفسه وعشيرته وبين أبناء جنسه

ويمكننا استدامة أعمالنا بتنظيم أوقاتنا؛ فنعين وقتاً منها لنومنا، ووقتاً لنذايتنا، ووقتاً لعبادة ربنا؛ ووقتاً لترويح قوسنا، وبقية لأعمالنا. وإن هذه البقية وإن قلت عن ثلث اليوم واليلة لهي كثيرة جداً بطول

(١) ضيقة (٢) الخذلان ترك النصرة (٣) مصدر مقته اذا أهضه

دوامها ؛ فإن نحن تمايلنا ، فأفرطنا في العمل ، وظلنا من نورنا وراحتنا كانت عاقبة أمرنا نهك^(١) أجسادنا ، وإخفاق عقولنا ، وحرمان أنفسنا للقدرة على استدامة العمل ؛ وإن نحن توانينا فأستطبنا الكسل ، وآثرنا النوم والخمود ، وأعزلنا العمل ، فقد تشبهنا بالموثق ، ونعجلنا الفناء وخالفنا قانون الحيلة وهو العمل

فالعمل الشريف مُمَيِّزٌ لنا ، وأوقتنا كافية له . ومن العجز والجبن أن نبرر كسلنا ، ونحتج لفنور همتنا بإبداء المآذير الباطلة : فنشكوا حيناً قلة الوقت ، وتارة فوات الفرص ، وآوثة ضُفِّفَ القدرة . وهيئات أن تقبل المقول السليمة والنفوس الأيَّبة والطباع الحرَّة هذه المآذير المتَّحلة^(٢)

الوقت كثير ؛ وإنما نحن الذين نذرُهُ ، وننْفَقُهُ بلا حساب ، ونصرفه بغيرِ عَرْضٍ مِنَ الْعَمَلِ أو بعملٍ حقيرٍ مِنَ الْهَوَى وَالْعَبِّ وَالْهَوَى وَالشَّخْصِيَّةِ وَالْفُرْصُ سَامِيحَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ ، وإنما يَهْدِي إِلَيْهَا الْعَامِلُونَ الْمُجْتَهِدُونَ ، وَالْأَقْطَابُ الْمُتَنَبِّهُونَ ، الَّذِينَ يَنْحُتُونَ عَنْهَا فَيْتَهْرُونَهَا . أما الْكُسَالَى السُّوَانُونَ فهُمْ عَنْهَا خَافُونَ وَفِي كُفُوفِهِمْ نَائِمُونَ . وإذا كانت الْفُرْصُ كما يزعمُ الْكُسَالَى نَادِرَةً الْوُقُوعِ فَالْمَمَلُ الدَّائِمُ يُصَادِفُهَا دَائِمًا لَا عَمَالَةَ . أما الْعَمَلُ الْمُتَقَطِّعُ فَقَلْبًا يُصَادِفُهَا أَوْ تُصَادِفُهُ . وكثرةُ مُصَادَفَةِ الْفُرْصِ تُمَرِّنُنَا عَلَى مَعْرِفَةِ أَمَارَاتِهَا وَبِشَارِ قُدُومِهَا ؛ فَتَهَيَّئُ لَهَا الْمُنَّةَ ، وَتَنْصِبُ لَهَا الْفِتَاخَ

(١) إضاف (٢) اتحل الشيء ادخله لنفسه والحق أنه لغيره أى يتدرجما ليس فيه

والجبال^(١) . والعاجز^(٢) الوكل^(٣) لا يعرف الفرصة إلا إذا صادته بمصادمة؛ فأخذته في وجهها، وأجرته معها شوطاً بعيداً

والقدرة الضعيفة ممكنة النجاح إذا رفقنا بها، واحتفظنا بسلامتها، وأستعملناها في الوجه الذي نستطيعه لخدمة أقمينا وأمتنا . فكثير من المؤمنين والخضرعين والإداريين والسياسيين وأصحاب الأعمال العظيمة قضوا أكثر حياتهم بين مكابدة آلام الهاء وتجرح غصص الدواء، ولم ينتفعمر منهم عن أن يستعملوا بعض طاقهم في رفعة أنفسهم وتزويق ملتهم وتأيد دولتهم . وكثير من المجزة^(٤) والمكفوفين^(٥) والمجانز والأراذل يستزفون بيع حقير البقول والثمار أو حلوى الأطفال؛ لأن قورسهم الأيية تأتي أن يرقوا ماء وجوههم وشرفهم في سؤال الناس أو خدمة القمام؛ إذ هما كان العمل الحلال خسيساً فاسؤال أخس منه

وكل عمل ينتج ولو فائدة قليلة لصاحبه وأمتيه عمل شرف يستحق عليه صاحبه الاحترام والتبجيل أكثر مما يستحق أولئك الذين يأكلون ثراث^(٦) الموتى ويحجرون كل عمل إلا لعب التبشير وإلا المترسال مع دواعي الشرور والشهوات . والذين يحسبون النبى والشهوة لا يتفان مع الكد والعمل ثم قدوة سيئة ومثال خيب لأبنائهم ولأهل بيته . وقد يصبرون إذا كثر عديدهم داء عضالاً في جسم الأمة يوردها موارد الحنف

(١) جمع حيلة وهى المصلحة (٢) الذى يكبل أموره الى غيره لمجزه

(٣) العميان (٤) ميراث

وَالذَّمَارِ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَرَفُّونَ الَّذِينَ تَحْرَبُ الْقُرَى وَلِلدَّائِنِ بِكَثْرَتِهِمْ ، وَهَئِذَا
الْأُمَمُ بِحِيَابِهِمْ

إِنَّ التَّرَفَ وَالذَّمَّةَ وَأَطْرَاحَ الْعَمَلِ تَنْهَكُ الْأَجْسَادَ ، وَتُغْشِي الْعُقُولَ .
فَالْجِسْدُ الَّذِي لَا تَتَحَرَّكُ أَعْضَاؤُهُ بِالْعَمَلِ الْمَشْيُوقِ تَهْتَرُ أَعْصَابُهُ ، وَتَقْتَرِهَلُ (١)
عَضَلَاتُهُ ، وَتَحْتَلُّ نِظَامُ هَضْبِهِ وَدَوْرَةُ دَمِهِ ، وَتَتَرَاكُمُ الْفُضُولُ السَّابِغَةُ فِيهِ ؛
فَلَا يَمُودُ يَقْوَى عَلَى شَيْءٍ حَتَّى الصَّلَةِ الْهَيِّنِ . وَلِلذِّكْرِ نَزَى بَعْضُ الْأَطْلَامِ
يَقْتَصِرُونَ فِي مُعَالَجَةِ مَرْضَاهُمْ عَلَى الْمَتْنِيِّ الْكَثِيرِ . وَالرَّيَاضَةُ الْمَنِيفَةُ
وَالْقَتْلُ الَّذِي لَمْ يَمُودِ التَّفَكُّيرَ وَدَقَّةَ النَّظَرِ تَمُوتُ مَوَاهِبُهُ ، فَلَا يَسْتَعْرِضُ
إِلَّا الْأَخِيلَةَ الْفَالِسَةَ ، وَالْأَمَانِيَّ السَّخِيفَةَ ، وَالْوَسَاوِسَ الشَّيْطَانِيَّةَ

وَإِنَّ الْعَمَلَ الْبَدَنِيَّ وَالْعَقْلِيَّ وَالْمُشْتَرَكَّ يَنْتَهِيانِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالزَّرَاعَةِ
يُقَوِّى الْبَدَنَ ، وَيُخْرِجُ الْفُضُولَ ، وَيُهْذِبُ الْخُلُقَ ، وَيُكْسِبُ النِّظَامَ ،
وَيَطْرُدُ الْوَسَاوِسَ وَالْأَوْهَامَ ، وَيُمَوِّدُ صَاحِبَهُ مِصْحَةَ الْحُكْمِ وَبُعْدَ النَّظَرِ
وَالْاِقْتِصَادَ فِي الْوَقْتِ وَالْمَالِ . وَإِنَّا لَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ وَأَسَاتِذَةِ
الْعَالَمِ تَخَرَّجُوا فِي مَدْرَسَةِ الْعَمَلِ الْعَمَلِيَّةِ ، مَدْرَسَةِ الْحِرْفِ وَالْمِهْنِ ؛ فَكُلُّهُنَّ أَكْثَرُ
الْأَنْبِيَاءِ رُحَمَاءَ لِلْحَيَوَانِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرُوا رُحَمَاءَ لِلْإِنْسَانِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ
وَعُثْمَانُ تِجَارَةً ؛ وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ قَاطِعُ مَصْرَ جَزَارًا ، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَهَاؤُهُ
لِلْمُسْلِمِينَ وَمُحَدِّثُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ يَحْتَرِفُونَ بِالْحِرْفِ ، وَيَكْسِبُونَ بِالْمِهْنِ ، وَفَقَّهَلُونَهَا
عَلَى الْقَضَاءِ وَمَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ . وَكَانَ الْخَوَارِثِيُّونَ أَصْحَابُ عَيْمَى طَلِيهِ السَّلَامِ
صِيَادِي سَمَكٍ ، وَكَانَ قَوَادُّ الرُّومَانِ زُرَّاعًا يَمُودُونَ مِنْ مِيَادِينِ النَّصْرِ ،

ورُفُسُهُمْ مُكَلَّلَةٌ بِأَكَالِيلِ الظَّفَرِ إِلَى زَارِعِهِمْ يَلْعَنُوهَا بِأَيْدِيهِمْ . وَلَمَّا
اسْتَخْلَعُوا فِي الزَّرَاعَةِ وَالْأَعْمَالِ الْمَيْدَ مِنْ أَسْرِ الْحُرُوبِ ، وَاحْتَرَقُوا
الْمَعَلَ ، وَرَكَنُوا إِلَى الرَّاحَةِ لَمْ يَصْبِرُوا عَلَى حَرِّ الْقِتَالِ ، وَبَادُوا أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ
الْأَعْدَاءَ . وَإِذَا قَرَأْنَا تِلْكَ عَظَمَاءَ الْإِنْجِلِيزِ وَأُمَمَ أَوْرُبَّةَ ، وَجَدْنَا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ
كَانُوا أَصْحَابَ حِرَافٍ وَمِصْنَاعَاتٍ . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ ؛ فَإِنَّ الْعَالَمَ الْإِنْسَانِيَّ
مَدِينٌ فِي رُقِيَّةٍ وَحَضَارَةٍ لِأَهْلِ الْمَعْلَى ، حَتَّى أُولَئِكَ الْكُسَالَى هُمْ مَدِينُونَ
أَيْضًا لِمَوَازِينِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَجْمَعُوا زَوْجَهُمْ إِلَّا بِالْكَدِّ وَالْمَعْلَى

إِذَا عَلِمْنَا هَذَا عَلِمْنَا أَنَّ أَوْجِبَ الْوَاجِبَاتِ عَلَيْنَا هُوَ الْمَعْلَى ؛ فَيَجِبُ أَنْ
نَعْمَلَ لِأَفْسَانِنَا بِحِفْظِ صِحَّتِنَا وَرَفِيَّةِ^(١) عَيْشِنَا ، وَتَنْمِيَةِ مَعَارِفِنَا ، وَمِصْنَاعَةِ شَرَفِنَا
وَنَعْمَلَ لِنَتِيرَنَا مِنَ الْأَقْرَبِ وَالْبُعْدَاءِ ، وَثَلَاثُ : بَرِيَّةِ آبَائِنَا وَتَقْصِيفِ
عُقُولِهِمْ وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ وَأَعْدَادِهِمْ لِأَنْ يَكُونُوا أَبْطَالًا فِي مِيدَانِ التَّنَازُعِ
الْبَشَرِيِّ الْعَظِيمِ ، ثُمَّ بَرَقِيَّةِ أُمَّتِنَا وَجَلِيلِهَا عِزَّةِ الْجَانِبِ مَرْفُوعَةِ الرَّاسِ يَنْ
أُمَّمِ الْأَرْضِ ؛ فَنَكُونُ جَمِيعًا جُنُودًا لَهَا فِي الْحَرْبِ وَمِصْنَاعًا وَتِجَارًا وَزُرَّاعًا فِي
السَّلَامِ ، ثُمَّ بِمُسَاعَدَةِ اخْوَانِنَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ بِحُسْنِ مُعَامَلَتِهِمْ وَتَخْفِيفِ آلامِ
مِصَابِيهِمْ عَلَيْهِمْ

وَنَعْمَلَ لِقَهْمِ مَطْطِيعِينَ لِمَالِدَيْنِ ؛ فَنُوَدِّي شِعْلَارَ دِينِهِ ، وَنَعْمَلَ عَلَى تَقْيِينِهِ وَتَعْمِيقِهِ
هَذَا وَقَدْ آتَيْنَا لَنَا بِهَذَا أَنْ لِمَاهِدٍ بَعْضُنَا بِمِصْنَاعٍ عَلَى أَنْ نَكُونَ جَمِيعًا مِنْ
أَهْلِ الْمَعْلَى النَّافِعِ الصَّالِحِ ، وَأَنْ نَبْذُلَ غَايَةَ طَاقَاتِنَا فِي رُقِيَّةِ قَوْمِنَا وَتَأْيِيدِ
وَطَنِنَا وَدِينِنَا

دَعْوَةُ الدَّاعِي

نَسِي فِي ذُرَا النَّسَبِ مِنْ قُدَانِي ^(١) وَمِنْ عَرَبِ
وَبَاخِبَارِ أُمِّي سَارَ مَنْ قَصَّ أَوْ كَتَبَ
لَقِي دُونَ غَيْرِهَا سَلِمَتْ مِنْ يَدِ الثُّوبِ
لَمَسَ الدِّينَ وَالْدُّنَا لَمَسَ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ
وَبَلَدِي بِنِيلِهَا زُرْبَةُ تُنَبِّئُ الذَّهَبَ
لِمَ لَا أَرْجِي وَلَمْ يَكُ الْحَجَرِ مِنْ سَبَبِ؟
أَلَيْمَا قِيلَ إِنِّي لَا ظِلَامَ وَلَا ذَابَ
أَوْ لَيْمَا قِيلَ إِنِّي أَطْلُبُ الرِّزْقَ مِنْ كَثَبِ
أَوْ لَيْمَا قِيلَ إِنِّي جَعَلَ الْآنَ قَدِ غَلَبَ
فَلَنْ كَانَ كُلُّ ذَا سَبَبًا إِنَّهُ النَّجَبُ
لَيْسَ بِي قَعَصُ فُطْرَةٍ عَاقِقُ لِي عَنْ الْأَرْبِ
أَمَّا الْأَمْرُ عَزَمَةٌ بَمَشَا الْآنَ قَدْ وَجِبَ
فَهَلُّوا إِلَى الْمَلَا نَسْتَعِذُ بِعَصَا مَا ذَهَبَ
تَنْشُدُ الْعِلْمَ نَافِصَا فِي دِيَارِ وَمُتَرَبِّ
قَرَّرَ صِنَاعَةَ مَسَهَا الضَّرُّ وَالْعَطَبُ
وَنَحَابِي زِرَاعَةَ لَمْ تَزَلْ بِمَدَى فِي وَصَبِ
وَنَافِي ^(٢) تِجَارَةَ أَصْبَحْتَ خَيْرَ مُكْتَسَبِ
كُلُّ صَبٍّ مَيَّسَرُ لِلَّذِي جَدَّ فِي الطَّلَبِ

(١) أي من قدماء المصريين والعرب الفاضلين (٢) نجحها بالتحذية المناسبة

مَنْشَأُ الْحَيَاةِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ^(١)

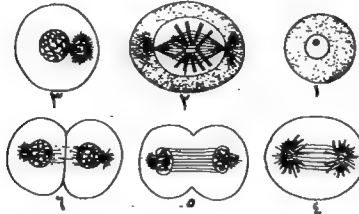
عِنْدَ مَا بَرَدَ سَطْحُ الْأَرْضِ، وَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهَا مِائَةُ الْبَحَارِ وَالْفُتُورَانِ أَصْبَحَ
يُطُولُ تَعَرُّضُهُ لِنُورِ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا هَذَا صَالِحًا لَوُجُودِ الْحَيَاةِ
وَالْحَيَاةُ قَابِلِيَّةُ الْجِسْمِ وَقَتًا مَا لِلتَّغْذِي لِحِفْظِ شَخْصِهِ وَنَوْعِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ
أَنْ يُحْفَظَ. وَتِلْكَ الْقَابِلِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَعَ حَرَكَةٍ وَإِحْسَانِي ظَاهِرِينَ، وَهِيَ
حَيَاةُ الصَّيَّوَانِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مَعَ حَرَكَةٍ وَإِحْسَانِي غَيْرِ ظَاهِرِينَ. وَهِيَ حَيَاةُ
النَّبَاتِ. وَإِذَا هَئِهِ الْحَيَاةُ النَّبَاتِيَّةُ أَوْ عَجَزَ عَنْ تَنَاوُلِهِ وَأَسْتَبْرَاهُ^(٢) نَافَسَهُ وَإِفْرَازَ
ضَارَهُ هَئِهِ الْحَيَاةُ لَا مَحَالَةَ، وَأَسْتَطَالَ إِلَى مَوَاتٍ

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَادَنَ وَالْأَحْجَارَ وَالْأَنْجِرَةَ وَالسَّوَائِلَ مِنْ كُلِّ مَا
لَا يَتَوَقَّعُ بَقَاؤُهُ عَلَى الْغِذَاءِ وَالْإِفْرَازِ لَيْسَتْ بِكَائِنَاتٍ حَيَّةٍ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مَوَاتٌ
وَقَدْ تَنَظَّرَ الْمَلَكِيَّ فِي الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَأَسْتَعْمَلُوا الرُّؤْيَا دَقِيقَهَا الْمِجْمَرِ
الْمُطَمِّمَ، فَوَحَّدُوا أَنَّ مِائَةَ الْبَحَارِ وَالْفُتُورَانِ مَلَأَتْ بِالْأَحْيَاءِ، وَأَنَّ بَعْضَهَا أَقْلُ
تَرْكِبًا مِنْ بَعْضٍ؛ بَلْ لَئِنْ مِنْهَا مَا يَعْلُ تَرْكِبُهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى ذَرَّةٍ دَقِيقَةٍ جَدًّا
أَغْلَظَ قَوَامًا مِنَ الْمَاءِ فِي وَسْطِهَا قُطْعَةً مُتَدَمِّجَةً هِيَ نَوَاتُهَا وَرَكَزُ حَيَاتِهَا
وَمَلَكُهَا كَأَطْرَافِ لَهَا، سَمَوُهَا «خَلِيَّة»^(٣)، وَهِيَ تَتَغَذَّى وَتَنْمُو بِالتَّغْذِيَةِ

(١) اطَّلَعَ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ حَضْرَةُ الْأَسَازِ أَحْمَدُ شَوْقِي بِكِيرُكَ مَدْرَسَ عِلْمِ الْأَحْيَاءِ
بِمَدْرَسَةِ الزَّرَاعَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَأَقْرَبُ بَصَحَةٍ مَا فِيهَا مِنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ

(٢) اسْتَبْرَاهُ الطَّعَامَ وَجَدَهُ هَنِيئًا مَرِيئًا أَيْ نَافِعًا لِلْجِسْمِ (٣) أَصْلُ الْخَلِيَّةِ يَت
التَّحَلُّلِ أَطْلَقَتْ عَلَى الْقُوَّةِ الْحَيَوِيَّةِ كَأَنَّهَا عَشَّ لِلْعُنَاصِرِ الدَّقِيقَةِ جَدًّا الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْجِسْمُ

وبعضها يتكاثر بطريقة أن الخلية إذا نمت أقسمت نواتها وأطرافها خليتين مستقلتين، ثم كل منهما أثنيتين، وهكذا؛ وبعضها يتحرك؛ وبعضها لا يتحرك، وبعضها يترأكم بنفسه على بعض، فيكون كائنا، ركبًا حيًا ووجدوا من هذه الخلايا ما تكون مُحاطة بنفسه زلائي، ومنها يتكون



(١) خلية فردة مجردة
(٢) خلية متشعبة
(٣) خلية أقسمت نواتها
(٤) خلية تباعد شطرا نواتها
(٥) خلية تكاد تنقسم إلى اثنين
(٦) خلية أقسمت قسمين

الحيوانه وما تكون مُحاطة بنفسه نشوي، ومنها يتكون النبات؛ وتمازج فوق ذلك بأحتوائها على المادّة الخضراء

ووجدوا أن المَرَكَبَاتِ الحَيَّةِ الدَّقِيقَةَ ذَوَاتِ أحوالٍ مُبَيَّنَةٍ أو مُتَشَابِهَةٍ :
فنها ما يكون ظاهر الحِصْنِ والحَرَكَةِ أو الأَتَقَالِ في طلبِ الغِذَاءِ من حَيٍّ^(١)
إلى حَيٍّ، وهذا لم يشك العلماء في أنه حيوانٌ ضئيل، ولو لم تكن له أعينٌ
ولا أطرافٌ، ومنها ما يَقَعِدُ ذلك فيَقْتَنِعُ البَاحِثُونَ بأنه نباتٌ، ومنها ما

(١) الناحية والمكان

تَشَابَهُ أحواله؛ فلا تُنَلَمُ حركته إن كانت أختياريَّة أو بدافع اضطراري من الأجسام المحيطة به، فيتوقف الباحثون عن البتِّ في أمره وقد وجدوا أيضاً أن جميع الحيوان والنبات: صغيرهما وكبيرهما يتألف نسيج جسمه من جملة خلايا دقيقة جداً؛ فالفرق بين أدقِّ جرثومة حيَّة وبين الفيل مثلاً أن الأولى خلية واحدة أو خلايا قليلة تستوفي بذاتها جميع مطالب حياتها، وأن الفيل مركَّب من ألوف ألوف من الخلايا، ولكنها ليست جميعاً متشابهة في العمل؛ فبعضها يُكوِّنُ العظم، وبعضها يكوِّنُ اللحم، وبعضها يكوِّنُ الشعر، وهلمَّ جراً

فأصلُ الأحياء خلية نشأت في الماء هَذَرَةُ العنبرِ العظيم، ثمَّ تكاثرت، فكوَّنت أجساماً حيَّة، ثمَّ تميَّزت الأجسامُ حيواناً ونباتاً. وهذا يُفسِّرُ قوله تعالى « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » وقوله تعالى « وَافْقَهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ » .

وكان الماء في بداءة الخليقة يُعْرُ سطَح الأرض جميعه . فلما صفا جو الأرض من الأبخرة، ونفذت أشعة الشمس الى ظاهرها، وأحمَرَ الماء عن بعض بقاعها، رسَبَ بعض الكائنات الحيَّة عليها، وتنوعت بعض الشيء فكلن منها النبات الأحادي الخلايا، وهو خلية واحدة تمتصُّ غذاءها بنفسها، وتؤدي جميع مطالب حياتها بنتاجها كالعُطْب^(١) . ثمَّ تميَّزَ بعض أنواعه وظهر له أطراف ليفيَّة دقيقة يمتصُّ بها غذاءه، وهي جذور ضئيلة جداً . ثمَّ لما اعتدل الجو صار للنبات سوقٌ وأوراق قليلة التراكُّب والتفرُّع . ثمَّ ظهر النبات

(١) هو الغبار الأخضر الذي يلو سطح الماء الراكد وسطح آنية الماء من الغتار

المتشعب الجذور والسوق والأوراق، الخفي الزهر أو الخالي منه جملة. ثم فرة



النبات وعظم لكثرة الحرارة

والرطوبة وأمسلاء الجو

بلحامض الفحمي ومادة

النبات الخضراء التي يكون

لأشعة الشمس في ظهورها

أثر أي أثر. ثم نشأ النبات

ذو الأزهار المتنوعة الحاملة

للثمار والبذور ذات الفلقية

الواحدة ثم ذات الفلقتين

ولما برد سطح الأرض

وأصبح مثلاً لحياة الحيوان

ظهر في الماء الحيوان الضئيل

القليل التركيب والحركة

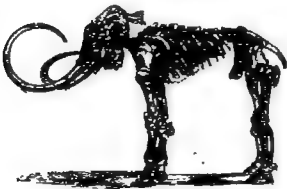
كالجراثيم الصغيرة، ثم

الإسفنج والمرجان، ثم

الديدان والحلزون^(١) وذوات

التمتار، ثم أنواع المراتين

والحشرات. ثم ظهر الحيوان الفقري، وأولهُ السمك، ثم الزواحف التي



ماكل عظية لبعض الحيوانات

(١) جمع حلزون : دويبة رخوة كالجمود تسكن صدقة مملوءة ومنها البرية والبحرية

تَنَوَّعَتْ أَنْوَاعُ شَيْءٍ : فَكَانَ مِنْهَا أَصْنَافُ الْوَرَلِ ^(١) الْهَائِلَةُ الَّتِي تُهَاسُ بِمَشْرَاتِ الْأُذْرَعِ ؛ وَكَانَتْ مُتَغَلِّبَةً عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانِ ، مُرَوِّعَةً لَهُ ؛ وَكَانَ مِنْهَا مَا يَمْشِي فِي الْبَرِّ ، وَمَا يَمْشِي فِي الْبَحْرِ ، وَمَا يَمْشِي فِيهِمَا مِمَّا . وَمِنْهَا ذُو الْمُنْقِ الثَّعْبَانِي . وَمِنْهَا الْخِلَافِيشُ الرَّاحِفَةُ . ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ الطَّيُورَ ، ثُمَّ الدَّوَابَّ وَالْوُحُوشَ مِنَ الْحَيَوَانِ الثَّدْيِي ؛ فَأَقْرَضَ بَعْضُهَا وَبَقِيَ بَعْضُهَا . وَمِنَ الْمُنْقَرِضِ الْفِيلُ الْبَائِدُ ذُو الْأَيْلَابِ الْمَلَوْتَةُ وَالْجَلْدُ الْمَكْسُوبُ بِالْوَبَرِ الْكَثِيفِ . وَلَمَّا صَارَ ظَهْرُ الْأَرْضِ صَالِحًا لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ؛ وَكَفَّلَ لَهُ الْخِلَافَةَ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانِ بِمَا وَهَبَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ الْعَقْلِ وَسُهولةِ الْإِمْسَاكِ بِالْأَصَابِعِ

فَيَعْلَمُ مِمَّا قَدْ دَمَّ أَنْ أَحْيَاءَ عَصَرْنَا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ لَمْ تَكُنْ مَحْلُوفَةً مِنْ قَبْلِ ، وَأَنَّهُ قَدْ سَبَقَهَا مَا لَا يُحْصَى مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَأَتَقَرَّضَ . وَرَبَّتْ ذَلِكَ الْأَحْيَاءُ الَّتِي كَانَتْ مَدْفُونَةً فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ؛ فَإِنَّهَا كُلُّهَا كَانَتْ أَوْغَلَ عُمُقًا فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ كَانَتْ أَعْدَمَ تَكُونًا ، وَكُلُّهَا كَانَتْ أَعْدَمَ كَانَتْ أَبْعَدَ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْحَالِيَةِ

وَقَدْ مَضَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْذُ ظَهَرَتْ أَحْيَاءُ عَلَيْهَا الْوُفُ الْأُلُوفُ مِنَ السِّنِينَ وَالْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْأَحْيَاءِ ظَهْرًا عَلَى وَجْهِهَا لَمْ يَلِدْ مُبْدَأُ ظُهُورِهِ عَنْ مَاتِيٍّ أَلْفِ سَنَةٍ . فَسُبْحَانَ اللَّهِ مِنْ إِلَهِ حَكِيمٍ ذَرَأَ ^(٢) الْخَلْقَ عَلَى نِظَامٍ بَاهٍ ، وَفَطَرَهُمْ عَلَى سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ ؛ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا

(١) أصل الورل دابة من نوع الوزغ كبيرة . وفصيصة الورل كل ما كان على هذا الشكل من الضباب والتماسيح والحراشي ونحوها (٧) خلق

نجباء الأبناء

حكى ابنُ عُفْرَ الصَّقَلِيِّ أَنَّ الْفَضْلَ^(١) بْنَ سَهْلٍ أَرْسَلَ وَهْبَ بْنَ سَعِيدٍ إِلَى فَارَسٍ مُطَافِيًا لِمَعَالِيهَا. فَلَبِثَهُ أَنَّهُ خَانَ، فَغَزَاهُ وَسَخِطَ عَلَيْهِ، وَبَسَّ يَدَهُ إِلَى أَخِيهِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ. فَأَحْسَنَ وَهْبُ بْنُ سَعِيدٍ الشَّرَّ، فَأَوْصَى إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ وَاسِطٍ قَعَةَ مُؤَمِّرٍ يَحْتَرِفُ بِالْجِزَارَةِ، وَتَجِرُ فِي الْجُلُودِ؛ فَأَعْطَاهُ مَالًا عَظِيمًا، وَضَمَّ إِلَيْهِ وَلَدَيْهِ الْحَسَنَ وَسُلَيْمَانَ، وَهُمَا صَغِيرَانِ. ثُمَّ تَوَجَّهَ وَهْبُ إِلَى بَدَادَ فَرَّقَى. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْوَصَى أَخْبَرَ بِهِ الْغُلَامَيْنِ. وَقَالَ: اخْتَارَا حِرْفَةً تَحْتَظُنَّ بِهَا، وَأَنْ اخْتَرْتُمَا الْجِزَارَةَ وَبِيعَ الْجُلُودَ يَصْرُثُكُمَا بِذَلِكَ. وَلَكُمَا عِنْدِي مَالٌ سَأَشْتَرِي لَكُمَا بِهِ ضِيَاعًا تَسْتَظْهِرَانِ بِهَا عَلَى أَحْدَاثِ الزَّمَانِ. فَقَالَا: مَا لَنَا وَلِحِرْفَةِ الْعَوَامِّ وَصِنَاعَتِهِمْ؟ وَإِنَّمَا حِرْفَةُ امْتِلَانِنَا جِزْرُ أَعْنَاقِ الرِّجَالِ فِي الْقِرَاطِيسِ! فَسَمِعَ الْجَزَارُ كَلَامًا لَا عَهْدَ لَهُ بِسَمَاعِ مِثْلِهِ، وَرَأَى بَرًّا^(٢) لَيْسَ مِنْ مَوْفِهِ. فَهَيَّيْهُمَا وَضَمَّ إِلَيْهِمَا مِنْ يَوْزُئِهِمَا، وَصَلَحُ مِنْ شَأْنِهِمَا. فَلَمَّا أَشْتَدَا قَالَا لَوْصِيَّتُهُمَا: إِنْ وَاسِطًا لَا تَقَى لَنَا بِمَا نَرُومُهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَتَوْمِلُهُ مِنَ الرِّيسَةِ. فَقَالَ لَهُمَا الْوَصِيُّ: لَنْ مِثْلَكُمَا لَا يُؤَلِّيُ عَلَيْهِ؛ فَفَرَّقَانِي بِأَمْرِكُمَا أُطِيعُ. فَقَالَا لَهُ: جَهِّزْنَا إِلَى مُعْتَرِضِ الْعُلَمَاءِ وَمُسْتَعْرِ خُلَفَاءِ. فَجَهَّزَهُمَا إِلَى بَدَادَ، وَدَفَعَ إِلَيْهِمَا مِنَ الْمَالِ مَا أَحْبَبَا. (وَذَكَرَ الصُّوْبِيُّ^(٣) أَنَّهُ دَفَعَ إِلَيْهِمَا مَالَهُمَا كُلَّهُ) فَلَمَّا صَارَا إِلَى بَدَادَ نَالَا مَا أُمِّلَا مِنَ الرِّيسَةِ وَالْعِلْمِ.

(١) الفضل بن سهل والحسن بن سهل كانا وزيرين للأمون

(٢) أصل البزالياب وبأنه بزار (تاجر مانيقافورة) والمراد رأى منها ما لاخبرة له به

(٣) هو أبو بكر محمد الصولي الشَّعْرَانِيُّ صاحب كتاب الوزراء توفي سنة ٢٨٢ هـ

ثم كتباً ممّا في دار المأمون في حال غُلُوّ يَتَهِمَا وصِغَرِ سِنِيهِمَا. ورأى المأمون يوماً أحدهما في الدار يمشي، فقال له: مَنْ أَنْتَ يَا غَلامٌ؟ فقال أنا الناشئُ في دولتك، المقتدى بعميتك، للكرمِ بِخِدمَتِكَ، عبدك وابن عبدك سليمانُ بنُ وهب^(١). فقال المأمون: أَحَسَنْتَ يَا غَلامُ.

ثم إن المأمون دعا سليمانَ بنَ وهب، وهو غَلامٌ، فأمره أن يكتبَ بين يديه كتاباً لم يَمْلُغْ قَدْرُهُ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَهُ. فخرَّره على ما أَرَادَ المأمونُ على أَحْسَنِ خَطٍّ وَأَصَحِّ صَبْطٍ وَأَسْهَلِ لَفْظٍ وَأَجْوَدِ مَعْنَى. فسرَّ به المأمونُ سروراً ظَهَرَ عَلَيْهِ. فلما خَرَجَ سُلَيْمَانُ كَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ إِخْوَانِ أَبِيهِ يَقُولُ:

أَبُوكَ كَلَّفَكَ الشَّأْوَ^(٢) الْبَعِيدَ كَمَا قَدِمَا تَكَلَّفَهُ وَهَبٌ أَبُو حَسَنِ
فَلَسْتَ تُحْمِلُهُ إِنْ أَدْرَكَتْ غَايَتَهُ وَلَسْتَ تُعْذِرُ مَسْبُوقًا فَلَا تَهِنُ
وَلَمْ تَزَلْ أُمُورُهُمَا تَنْتَهِ حَتَّى نَالَا الْوِزَارَةَ. وَبَقِيتَ فِي أَعْقَابِهَا مَدَّةً

أمثال على السنة الحيوان

مثل الخنزير والردود

زعموا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ فِيهِ ثَلَاثُ مِمَكَاتٍ: كَبَسَةٌ، وَأَكْبَسُ مِنْهَا، وَعَاجِزَةٌ. وَكَانَ ذَلِكَ الْغَدِيرُ بِبَنْجَوَيْهِ^(٣) مِنَ الْأَرْضِ لَا يَكَادُ يَقْرُبُهُ أَحَدٌ. وَقَرُبُهُ نَهْرٌ جَارٍ. فَاتَّقَى أَنَّهُ أَجْتَنَزَ بِذَلِكَ النَّهْرِ صَيَادَانِ، فَأَجْصَرَا الْغَدِيرَ. فَتَوَاعَدَا أَنَّهُ يَرْجِعَا

(١) ويروي أن القدي لقيه المأمون في دار الخلافة هو الحسن بن رجا. القدي صار بعد أحد رؤساء الكتاب (٢) النائية والمدى (٣) مكان مرقع .

إليه بشياً كهما، فيصيد ما فيه من السمك. فسمع السمكتان قولهما. فأما
أَكْبَسُهُنَّ فلما سمعت قولهما أرتابت بهما، وتخوفت منهما، فلم تخرج^(١) على
شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى القدير.
وأما الكيسة الأخرى فإنها سكنت مكانها حتى جاء الصيادان. فلما رأتهما
وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء، فإذا بهما قد سدا
ذلك المكان. فحينئذ قالت: قد فرطت. وهذه عاقبة التفريط. فكيف
الحيلة على هذه الجمال، ولما تنج حيلة الصياد والإرهاق^(٢)؛ غير أن الماقل
لا يفتن من منافع الرأي، ولا يبتس على حال، ولا يدع الرأي والجد.
ثم إنها تماوت فطقت على وجه الماء متقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها.
فأخذها الصيادان، فوضعاها على الأرض بين النهر والقدير. فوثبت إلى النهر
فنبت. وأما الماجة فلم تر في إقبال وإدبار حتى صيدت

عاقبة السر والهرم

زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قاصد، ومعه قوسه ونشاب، فلم
يجاوز غير بعيد حتى رمى ظلياً، فحمله ورجع طالباً منزله. فأعترضه
خنزير برى، فرماه بنشابة فذلت فيه. فأدركه الخنزير، وضربه بأنيابه
ضربة أطارت من يده القوس، ووقعا يتين. فألقى عليهما ذنب، فقال:
هذا الرجل والظي والخنزير يكفيني أكلهم مدة؛ ولكن أبدأ بهما
الوتر فأكله، فيكون قوت يومى. فصالح الوتر حتى قطعه. فلما أقطع
طارت سية^(٣) القوس، فصربت حلقه فمات

(١) أى لم تخرج (٢) الضيق والهرم (٣) سية القوس طرفها المنحني

عائشة فضول الكهولم

زَعَمُوا أَنَّ عَدِيْرًا كَانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ، وَكَانَ فِيهِ بَطْلَانٌ. وَكَانَ فِي النَّدِيرِ
سُلْخَاةٌ يَنْبُهَا وَيَبْنِي الْبَطْلَانُ مَوَدَّةً وَصَدَاقَةً. فَأَتَقَوْا أَنْ غِيضَ^(١) ذَلِكَ الْمَاءُ؛
لِجَاهَةِ الْبَطْلَانِ لَوْدَاجِ السُّلْخَاةِ، وَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ! فَإِنَّا ذَاهِبَتَانِ عَنْ
هَذَا الْمَكَانِ لِأَجْلِ قُصَّانِ الْمَاءِ عَنْهُ. فَقَالَتْ: إِنَّمَا بَيْنُ قُصَّانِ الْمَاءِ عَلَى مِثْلِ؛
فَإِنِّي كَأَنِّي السَّفِينَةُ لَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَيْمِشِ إِلَّا بِالْمَاءِ. فَأَمَّا أَنْتُمَا فَتَقْدِرَانِ عَلَى
الْمَيْمِشِ حَيْثُمَا كُنْتُمَا، فَأَذْهَبَا بِي مَعَكُمْ. قَالَتْ لَهَا: نَعَمْ! قَالَتْ: كَيْفَ
السَّبِيلُ إِلَى حَمَلِي؟ قَالَتْ: نَأْخُذْ بِطَرَفِي عُودٍ وَهَبِصَيْنِ فِيهِكَ عَلَى وَسَطِهِ،
وَنَطِيرُ بِكَ فِي الْجَوِّ. وَإِلَيْكَ إِذَا سَمِعْتَ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ أَنْ تَنْطِقِي. ثُمَّ
أَخَذَتَاهَا، فَطَارَتَا بِهَا فِي الْجَوِّ. فَقَالَ النَّاسُ: عَجَبٌ! سُلْخَاةٌ بَيْنَ بَطْلَانٍ قَدْ
حَمَلَتَاهَا! فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ: فَقَا اللَّهُ أَغْنَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ! لَمْ
تَحْتَظْ لَهَا بِالنَّطْقِ، وَتَحْتَظْ عَلَى الْأَرْضِ فَاتَتْ

صبر الملوك

قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ طَفَرٍ الصَّقَلِيُّ فِي كِتَابِهِ «سُلْوَانِ الْمُطَاعِ»
صَبْرُ الْمُلُوكِ عِبَارَةٌ عَنْ ثَلَاثِ قُوَى: الْقُوَّةُ الْأُولَى قُوَّةُ الْيَطْمِ، وَثَمَرُهَا
الْبَقْوُ، وَالْقُوَّةُ الثَّانِيَةُ قُوَّةُ الْكِلَافَةِ^(٢) وَالْحِفْظِ، وَثَمَرُهَا عِمَارَةُ الْمُلْكَةِ، وَالْقُوَّةُ
الثَّالِثَةُ قُوَّةُ التَّجَاعَةِ، وَثَمَرُهَا فِي الْمَلِكِ الثَّابِتُ. وَأَمَّا ثَمَرُهَا فِي حُمَاةِ الْمُلْكَةِ

(١) نَضَبَ وَجَفَ. (٢) مَصْدَرٌ كَلًّا بِمَعْنَى حِفْظِ

من المُقَاتِلَةِ فَلَا إِقْدَامَ فِي الْمَارِكِ . وَلَا يُرَادُّ مِنَ الْمَلِكِ الْإِقْدَامُ فِي الْمُبْكَافَةِ ؛
فَإِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ تَهَوُّرٌ وَطَيْشٌ وَتَغْرِيرٌ^(١) وَإِنَّمَا شَجَاعَةُ الْمَلِكِ ثَبَاتُهُ
حَتَّى يَكُونَ قُعْبًا لِلْمُطَارِينَ ، وَمَعْقِلًا لِلْمُنْزِمِينَ . وَهَذَا مَا دَامَ بِحَضْرَتِهِ مِنْ
يَقِينٍ بِذِيَّةٍ عَنْهُ وَدِفَاعِهِ دُونَهُ وَحَايَتِهِ لَهُ . فَلَقَدْ ذَكَرُوا عَنِ الْفَرَسِ أَنَّ فِيلًا
هَاجَ فَدَخَلَ قَصْرَ كِسْرَى أُنُوشِرْوَانَ (وَالْفِيلُ إِذَا هَاجَ نَكِرَ سَوَاسَهُ ، وَلَمْ
يُثَبِّتْ لَهُ شَيْءٌ إِلَّا أَتَى عَلَيْهِ) قَالُوا : وَإِنْ ذَلِكَ الْفِيلُ قَصَدَ جُلَسَاءَ كَانَ فِيهِ
كِسْرَى ، وَكَانَ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ كُفَاةِ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا رَأَى الدِّينَ مَعَ كِسْرَى أَنَّ
الْفِيلَ قَصَدَهُمْ فَرَّوْا مِنَ الْمَجْلِسِ ، وَثَبَتَ كِسْرَى عَلَى سَرِيرِهِ ، وَثَبَتَ مَعَهُ
رَجُلٌ كَانَ مَكِينًا عِنْدَهُ يَتَّقُ ثَبَاتِهِ . فَقَامَ ذَلِكَ الْأُسْوَارُ^(٢) بَيْنَ يَدَيْ سَرِيرِ
كِسْرَى ، وَيَدَيْ طَبْرَزِينَ^(٣) . وَقَصَدَ الْفِيلُ ، فَثَبَتَ لَهُ حَتَّى غَشِيَتْهُ ، فَضَرَبَهُ
بِالطَّبْرَزِينَ عَلَى فِطْيَسِيَّتِهِ^(٤) فَكَرَّ الْفِيلُ رَاجِعًا مِنْ حَيْثُ جَاءَ ، وَقَدْ نَالَتْ
مِنْهُ الضَّرْبَةُ مَنَالًا شَدِيدًا ، وَكِسْرَى لَمْ يَتَحَطَّلْ^(٥) مِنْ مَجْطَسِهِ ، وَلَا تَغْيَرَتْ
هَيْئَتُهُ ، وَلَا فَارَقَتْهُ أَهْبَتُهُ . فَهِيَ غَايَةُ الشَّجَاعَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ الْمَلِكِ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ
بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ مَنْ يَتَّقُ بِدَفْعِهِ عَنْهُ حَسَنٌ مِنْهُ حِينَئِذٍ أَنْ يَذُبَّ عَنْ نَفْسِهِ : إِمَّا
بِالْإِقْدَامِ عَلَى الْمَدُونِ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ الْامْتِنَاعُ مِنْهُمْ بِالْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ ، وَإِمَّا بِأَنْهَزَامِهِ
إِذَا أَتَاهُ مَا لَا يَقِيلُ لَهُ بِهِ ، وَأَشْفَقَ مِنْ عَطَبِ رَعِيَّتِهِ يُهْلِكُهُ : كَمَا حُكِيَ أَنَّ
مُؤْسَى الْهَادِي كَانَ يَوْمًا فِي بُسْتَانٍ ، وَمَعَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ وَجِلَاتُهُ ، وَهُوَ رَاكِبٌ

(١) أَي مَخْطَرَةٌ بِنَفْسِهِ (٢) الْأُسْوَارُ الْقَائِدُ مِنَ الْفَرَسِ أَوِ الرَّامِي بِالسَّهْمِ مِنْهُمْ
(٣) الطَّبْرَزِينَ وَالطَّبْرَ آتَةٌ لِقَاتِلِ شَبِّهِ فَأَسَ الْأَنْ رَأْسَهُ قَاتِمٌ لَا مُسْتَرَضٍ وَهُوَ
السُّي (الْبُلَّةُ) (٤) فِطْيَسِيَّةُ الْفِيلِ وَنَحْوُهُ خَرْطُومُهُ (٥) يَتَحَرَّكُ
تَوَمَّةُ الْقَتْلَى (١١)

على حمار ، وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلاً من
الخوارج جىء به أسيراً . وكان الهادى حرصاً على الظفر به ، فأمر بإدخاله .
فدخل بين رجلين قد أمسكا يديه . فلما رأى الخارجى الهادى جذب يديه
من الرجلين اللذين كانا يُمسكانه ، وأخترط^(١) سيف أحدهما ووثب نحو
الهادى . ولما رأى ذلك من حول الهادى من أهله وخاصته فروا جميعاً ، وبقي
الهادى وحده ، فثبت على حمارة بمكانه ؛ حتى إذا قرب الخارجى منه ، وكاد
يلوه بالسيف قل الهادى : اضرب يا غلام عنقه . فالتفت الخارجى حين سَمِعَ
ذلك . ووثب الهادى عن سرجه ، فلما هو على الخارجى ، والخارجى تحت . فقبض
الهادى على يديه ، وأترع منه السيف ، فذبحه به ، ثم عاد إلى ظهر حمارة . وتراجع
إليه خاصته وأهله ينسلون^(٢) ، وقد ملئوا رعباً وحياءً . وما خاطبهم في ذلك
بجرفٍ واحد . ولم يكن بعد ذلك يُمارقه سيفه ، ولم يركب إلا الخيل^(٣)
وقد جلا لك هذا الخبر ما أيد الله به موسى الهادى من ثبات الجأش^(٤)
وأصالة الرأي وشدة الكيد^(٥) وشجاعة القلب والبدن (رحمه الله تعالى)

(١) اخترط السيف استله (٢) تسل أطلق في استخفه أى ذهبوا إليه غير

مواجهين له خجلاً منه (٣) الجأش فرغ القلب وأضطرابه

(٤) الكيد الحذية والمكر

حياة الحيوان^(١)

يَكُونُ هذا الوجودُ من كائناتٍ حيّةٍ وغير حيّةٍ . فالكائنُ الحيُّ كلُّ ما تَعَاوَرَهُ^(٢) التَّجَدُّدُ والفناء ، وَتَوَقَّعَ بَقَاؤُهُ التَّوَقُّوتُ على التنفس والنِّدَاءِ ؛ والحيُّ هو الحيوانُ والنباتُ ، وغيرُهُ هو المواتُ : مِنَ الجَمَادِ والسَّائِلِ والصَّمَادِ . ونَأْتِي في كتابنا هذا عَلَى بُيُوتَةِ بِسِيرَةٍ مِنْ أحوال الكائناتِ مُبْتَدِئِينَ بِأَرْقَاهَا وهو الحيوانُ

الحيوانُ كلُّ ذِي رُوحٍ . وَتَمَازُجُ حياةِ الحيوانِ مِنْ حياةِ النباتِ بِالْحِصْنِ والحركةِ الإراديةِ لَطَلَبِ النِّدَاءِ أَوْ النِّجَاجِ

ولِذَا هذا الْعَالَمُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ لِيَصْمُغَ بَيْنَ أَرْجَائِهِ مِنْ أَلْوَفِ الْوَفِ الحيوانِ الْمُتَخَلِّفَةِ الشُّكُولِ وَالْأَلْوَانِ مَا لَا نَكَلُ نَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا ؛ وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى حَقًّا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ لَعَلَّنَا هَفُفُ بَأْفَعِنَا عَلَى بَعْضِ أَسْرَارِ تَرْكِيبِهَا وَنُفُوتِهَا وَأَحْوَالِ مَا يَشْهَرُ ؛ وَفِي ذَلِكَ مَا يَكْشِفُ النِّيطَاءَ عَنْ مِقْدَارِ نَزَلَةِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَبَرِيدُنَا إِيمَانًا بِقُدْرَةِ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ ، وَبُرُودُنَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِبَرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْبَصَنَةِ بِمَا يُقَرِّبُنَا مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَهْدِينَا سَوَاءَ السَّبِيلِ

وَيَرَى النَّازِلُ فِي أحوالِ الحيوانِ أَنَّهُ عَلَى كَثَرَةِ تَعَدُّدِ أَنْوَاعِهِ مُؤَلَّفٌ مِنْ طَوَائِفٍ مُتَمَيِّزَةٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، يَجْمَعُ أَفْرَادَ كُلِّ مِنْهَا شَيْءٌ مِنَ الشَّبَهَةِ .

(١) قد اطلع على هذه المقالة حضرة الأستاذ ميخائيل فرج بك مدرّس علم التاريخ الطبيعي بمدرسة المعلمين السلطانية وأقرّ بصحة ما فيها من الحقائق العلمية (٢) تدلّوه

ففي طائفة منها يَجِدُ لِكُلِّ قَدَمٍ خَمْسَ أَصَابِعَ أَوْ مَخَالِبَ مُكَابِلُ فِي الْإِنْسَانِ أَصَابِعَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ: كَالْقِرْدَةِ وَالْكَلَابِ. وَفِي أُخْرَى يَجِدُ بِهَا أَرْبَعًا كَالْخَزِيرِ وَفَرَسِ الثَّمَرِ. وَفِي أُخْرَى ثَلَاثًا كَالْكِرْكَدَنِ، وَيَجِدُ فِي الْحَيَوَانِ الْمَجْتَرَةِ، وَهُوَ ذَوَاتُ الطَّلْفِ: مِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَمِ وَمَحْوَاهَا اثْنَتَيْنِ^(١)، وَفِي ذَوَاتِ الصَّافِرِ مِنَ الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَاحِدَةً. وَبَرَى فِي غَيْرِهَا أَنَّ قَدَّ اسْتَحَالَتْ أَصَابِعُ الْحَيَوَانِ أَوْ مَخَالِبُهُ آلَاتُ طَيْرَانٍ شَبِيهَةٍ بِالْأَجْنَحَةِ، كَالنَّفَافِشِ

ثُمَّ هُوَ يَرَى مِنْهَا مَا تَكُونُ أَسْنَانُهَا مَدْرَبَةً^(٢) كَأَكْثَرِ أَكَلَةِ اللَّحْمِ، وَمَا تَكُونُ أَسْنَانُهَا قَوَاضِمَ وَطَوَاحِينَ كَأَكَلَةِ الْعُشْبِ وَالْحُبُوبِ، وَمِنْهَا مَا طَالَتْ ثَنَائِيهَا، وَأَعْيَتْ لِقَرَضِ الْعُشْبِ وَمَحْوَاهُ كَالْجَرَذَانِ^(٣) وَالْأَرَائِبِ، وَمَا لَيْسَ لَهَا أَسْنَانٌ كَالضَّفَادِعِ، وَمَا طَالَتْ ثَنَائِيهَا الْعِلْيَا كَالْفَيْلَةِ

وَرَى مِنْهَا مَا كُسِيَتْ جُلُودُهَا شَعْرًا كَالْمِيزِ، وَمَا كُسِيَتْ صُوفًا كَالنَّمَمِ وَمَا كُسِيَتْ وَبَرًا كَالْأَيْلِ، وَمَا كُسِيَتْ رِيَشًا كَالطَّيْرِ، وَمَا كُسِيَتْ حَرَشَفًا كَالسَّمَكِ، وَمَا كُسِيَتْ ذَبَلًا^(٤) كَالسَّلَاحِجِ وَالتَّمَسِيحِ، وَمَا كُسِيَتْ قِشْرًا كَالسَّرَاطِينِ، وَمَا كُسِيَتْ صَدَقًا كَذَوَاتِ الْحَارِ مِنَ الْوَدَعِ وَالْحَلَّازِينِ، وَمَا خُلِقَتْ بِلَدِيَةِ الْأَدِيمِ^(٥) كَالضَّفَادِعِ وَالِدِيدَانِ

وَيَرَى مِنْهَا الثَّقَلَيْنِ^(٦) وَالْجَمَاءَ، وَالْمُجْتَرَّةَ وَغَيْرَ الْمُجْتَرَّةِ، وَمَا تَلِدُ وَمَا تَبْيِضُ وَمَا تَنْقَعِمُ عَلَى نَفْسِهَا: مِمَّا لَا يُحْصِيهِ عَدَدٌ، وَلَا يَجْلُوهُ نَفْسٌ. فَسُبْحَانَ خَالِقِهَا الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ.

(١) وعدد أصابعها الفطرية أربع بعد الزممتين وهما الهتان البارزتان فوق الظلف

(٢) حديدية (٣) جمع جرذ وهو الثأر الكبير (٤) جلد السلحفاة ونحوها مما

كُنِيَ بمادة قرنية (٥) الجلود (٦) ذات القرون والجماء الحالية من القرون

وقد قسمها العلماء جميعاً قسمين عظيمين : فقري وغير فقري
فالفقري كل ما له هيكل عظمي يقوم أسلسه على الصلب . والصلب
(ويسمى في الرُف المود الفقري أو سلسلة الظهر) مجموع قمار أى
عظام اسطوانية مثقوبة الى جانب منها متضامة طولاً بحيث تكون منها
سلسلة قابلة للانحناء قليلاً أو كثيراً ، وبملا جوفها نخاع يتفرع منه كثير
من الأعصاب تنقل الإرادة والاحساس من الدماغ لأعضاء الجسم

وغير الفقري ما ليس له هيكل عظمي
وتحت هذين القسمين أقسام صغيرة تسمى أصنافاً
فالحیوان الفقري خمسة أصناف هى : —

(١) الحيوان الثنائي — وهو الذى يلد ويرضع صغاره . ويكسو جلده
شعر كثير أو قليل
(٢) الطيور — وهى كل ما كسى بالريش ، ولا يلد بل يبيض ،
فالخفاش ليس طير وإن طار ؛ لأنه يلد . والنعام طير وإن لم يطر
لأنه يبيض

(٣) الزواحف — وهى مما يبيض ويغطي جلده ذبل صفيق أو رقيق
(٤) ذوات الحياتين (المائية والهوائية) — وهى تبيض ، وقبل أن
يكمل تكونها تمر بأطوار من ضروب الخلقة كالصفادع ، وهى مارية الأدمة
(٥) السمك — وهو يعيش فى الماء ، ويكتفى باستنشاق الهواء
الذائب فيه بالخيشتيم . وجلده مغطى بالحرشف ؛ فأبال وقرس البحر
ليسما بسماك وإن سبحا فى الماء لأنهما يتنفسان بالهواء الجوى ، ولهما
رثنان ، ولا يبيضان بل يلدان

أما الحيوانُ غيرُ الفقريّ فله أَصْنَافٌ كثيرةٌ :

(١) مِنْهَا الحيوانُ الرِّخْوُ — وَمُحِيطٌ بِجَسَدِهِ غِشَاءٌ رَفِيقٌ يُسَمَّى البُرْسُ وهو ذوات الحمار والأصداف من الحلازين والودع والدُّلَيْس (أم الخلول)

(٢) ومنها الحيوان القشري كالسراطين وجراد البحر

(٣) ومنها المناكب والمقارب، ولها ثمانية أرجل

(٤) ومنها الحشرات — وهي التي لها سِتُّ أَرْجُلٍ وأربعةٌ أَجْنِحَةٍ

(٥) ومنها الديملان

ولِكُلِّ مِنْ الْأَصْنَافِ لِلتَّقْدِيمَةِ أَقْسَامٌ صُغْرَى تُسَمَّى طَبَقَاتٍ تَمَازُكُ طَبَقَةٌ مِنْهَا عَنْ الْأُخْرَى بَعْدُ فِي تَرْكِيبِهَا هَلْ فِي الظُّهُورِ عَنِ الْفُرُوقِ الَّتِي تُمَيِّزُ كُلَّ صِنْفٍ عَنِ الْآخَرِ ؛ فَتَمَازُكُ مِنَ الطَّبَقَاتِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا صِنْفُ الْحَيَوَانِ الثَّنَدِيِّ طَبَقَةُ السَّبَاعِ الْمَفْتَرَسَةِ ، وَهِيَ تُمَيِّزُ مِنْ غَيْرِهَا مِنْ طَبَقَاتِ الْحَيَوَانِ الثَّنَدِيِّ بِشَكْلِ أُنْيَابِهَا الْمُصَلِّ^(١) وَأَضْرَاسِهَا الْحَدِيدَةِ ؛ لِأَنَّ أَسْنَانَهَا لَمْ تَعُدْ لِمَضْغِ لَحْمٍ فَرَأَتْهَا بِلِ لِنَهْشِهَا وَتَجَرِيدِهَا مِنْ عِظَائِهَا . وَمِنْ طَبَقَاتِ صِنْفِ الْحَشَرَاتِ الْخَنَاضِرُ وَالْجَمَلَانُ . وَهِيَ تَمَازُكُ بِأَنَّ جَنَاحَيْهَا لِلْعُلُوبَيْنِ صُلْبَانِ ، وَلَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا وَقَايَةُ الْجَنَاحَيْنِ السُّفْلَيْنِ عِنْدَ عَدَمِ اسْتِمَالِهِمَا

عَلَى أَنَّ كُلَّ هَذَا التَّقْسِيمِ لَا يَكْفِي ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ السَّبَاعِ الْمَفْتَرَسَةِ يَخْتَلِفُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ مِنْ وُجُوهٍ عِدَّةٍ ؛ فَالضَّبُعُ مَثَلًا تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا بَيِّنًا عَنِ الْأَسَدِ كَمَا يَخْتَلِفُ الْأَسَدُ عَنِ الذِّئْبِ ، وَالذِّئْبُ عَنِ الْفَهْدِ

(١) جمع أعصَل وهو الثَّابِ الْأَعْوَج (٢) جمع جُمْلٍ وهو أبو جُرَّان

الإيمان بالقضاء والقدر

قال صاحب^(١) كتاب عجائب الهند :

من طرف الأخبار ما حدث به بعض أصحابنا قال : ركبْتُ سفينةً من الأُبُلَّةِ^(٢) أريدُ يَنْتَوَةَ^(٣) ، فأخذتنا الرياحُ والأمواجُ ، وزاد الأمرُ علينا حتى نزعنا ثيابنا ، ولم يكن عندنا شكٌّ أنَّا نالِقون . وكان في السفينة معاً امرأةٌ معها صبيٌّ ، وكانت ساكنةً قبل ذلك . فلما اشتدَّ بنا الأمرُ أخذتُ تُرْقِصُ الصبيَّ ، وتضحكُ . ولم يكن فينا فضلٌ لخطابها ؛ لأنَّا يئسنا من الحياة . فلما صرنا في الشطر ، وأمنا التفرقَ قلتُ لها : يا هذه أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ! أَلَمْ تَرَيْنِ مَا حَلَّ بنا من البلاء ، وأنا قد يئسنا من الحياة ، وترْقِصِينَ الصبيَّ وتضحكين ، أَمَا خِفْتَ الفرقَ كما خِفْنَا ! فقالت : لو سَمِعْتُمْ حديثي لتَجَبَّيْتُمْ ، وما أنكرتُمْ عليَّ صبري وتهاوني بالفرق . قلنا لها : حدثينا . فقالت أنا امرأةٌ من أهل الأُبُلَّةِ ، وكان لوالدي صديقٌ من بُناتِيَّةِ^(٤) المراكبِ المخطفةِ^(٥) من عُمانَ إلى البصرة . وكان إذا وردَ المركبُ الذي هو فيه من عُمانَ نزلَ البنا ، وأقام عندنا أياماً ، وأهدى إلينا . وإذا أرادَ الخروجَ فقلنا مثلَ ذلك وأهديتنا إليه ما يُمكننا . وكان رجلاً مستوراً . فزوجني أبي به ، وما مضى غيرُ ثلاثِ سنينَ حتى توفِّيَ أبي . فقال لي : قومي حتى أحملكِ إلى عُمانَ فلنَ لي بها والدةٌ وأهلاً ، فخرَجْتُ معه إلى عُمانَ . وكنتُ مع أهله بها مقدارَ

(١) هو بزرگ بن شهریار الناختاه (الزبَّان) الرَّاهِرُ مَزَى من أهل القرن الرابع

الهجري (٧) الأُبُلَّةُ مرقاً البصرة (٣) بلدةٌ بالبحرين (٤) يظهر أنهم ملاحون

يُسمون إلى بناتة : محلةٌ بالبصرة (٥) المترددة بين البليدين

أربع سنين، وهو يختلف بين عُمان والبصرة. ثم توفى بعمان بعد أن ولدت هذا الصبي بخمسة أشهر. فلما قضيت المدة لم يطلب لي المقام بعمان؛ لأن مقامى إنما كان بسببه. فقلت لوالدته وأهله: أريد أن أرجع إلى أهلى بالأجلة. فقالوا لى: إن أمت عندنا فاحميناك حياتنا؛ فليس لنا فى الدنيا غير هذا الصبي. وسألونى الأئمة بينهم فأبيت، فلما عزمْتُ على الخروج اشتريت للصبي سريراً وثيقاً من خيزران، وجعلت فيه ثياباً كنت قد جمعتها للصبي وذخيرة كنت أدخرتها، وغطيت ذلك كله وأحكامه، وجعلت الصبي فوقه، وخرجت فى مركب يريد البصرة. فبينما نحن كذلك إذ أخذنا النصب^(١) فانكسر المركب نصف الليل، وتفرقت الركاب والبنايتة فى البحر؛ فلم ير أحد منا صاحبه. وتعلقت بلوح من الألواح فضبطته، ولم أزل عليه إلى نصف النهار من التدحى وأنا صاحب مركب مجتاز، فجمع من الركاب نحو عشرة أفسس، كنت أنا أحدهم. وحملنا إلى مركبه، وتكسوا رؤوسنا حتى قدفنا الماء الذى شربناه فى البحر. وسقونا أدوية، وعلجونا إلى النداء من التدحى حتى رجعت قهوسنا إلينا. وأنا قد نسيت أبى لما أنا فيه، وزال الفكر فيه عن قلبى. فلما كان الندى قل صاحب المركب، وأنا أسمع: انظروا هذه المرأة ألهما لبن؟ فلن هذا الصبي الذى وجدناه يموت. فقالوا لى: ألك لبن؟ فتذكرت الصبي، فقلت: قد كان لى لبن، ومع ما مربى ما أعلم أنه قد بقي منه شيء. فقالوا: أبصرى هذا الصبي قبل أن يموت. فجاءونى بالسرير، وفيه الصبي بمجالة؛ ما تحسره،

ولا أخذوا منه شيئاً. فلما رأيته وقعتُ على وجهي؛ وصرختُ وغشيَ عليّ؛
فرشوا عليّ الماء، وقلّوا: ما أنت؟ فأقفتُ بعد ساعة، وأقبلتُ أبكي وأضمُّ
الصبيّ فقالوا: يا هذه ما لك؟ فقلتُ: هنا الصبيّ أبني! فقام صاحب
الركب إليّ، وقال: هنا أبناك؟ فأبى شيء الذي تحته؟ فأقبلتُ أعدُّ عليهم
ما تحته، وجعلوا يخرجون شيئاً بعد شيء؛ كأنه انما وُضِعَ الساعة. فامنهم
أحدٌ إلّا أبكى بكاءً عظيماً، وحمدوا الله وشكروا له

فأنا التي غرقتُ في ذلك البحر، وفرّقَ بيني وبينَ أبني، فجَعَلَ اللهُ بيني
وبينه على تلك الصورة أخافُ من هذه الرحلة؟ إن كَتَبَ اللهُ عليّ الفرقَ
لم ينفعني الحذرُ!

التصوير الشمسي^(١)

كان الناسُ قبل أن يعرفوا التصويرَ الشمسيَّ يُلاحقون من التصوير
بالأدهنة عنه كبيراً، ويضيعون فيه زمناً طويلاً، وكان المصورُ يكُدُّ قريحته،
ويستفْرِغُ جهده، ليُخْرِجَ مما يَصُورُ مثلاً مطابِقاً له. ولما كانت الصورةُ
تُشبه الأصلَ المنقولةً هي عنه من كلِّ وجه. وتبعدُ مسافةَ الفرقِ إذا كان المصورُ
إنساناً؛ فإنه لا يقوى على الجلوسِ أمامَ المصورِ ساعاتٍ متواليةٍ دونَ أن يُحركَ
عضوًّا. وليس معنى هذا أن السالِفينَ من المصورين لم يُخْلِقُوا لنا صورةً
جديرةً بحسن الذكر، ولا حقيقةً بالثلثاء، فإن منهم من برعَ وأبدعَ أيّما

(١) ترجمها المرحوم عبد القادر افندي حسن وقصها المؤلف

إبداع : مثل دُائِل^(١) وقانديك^(٢) وغيرها ؛ وانما المقصود أنه لم يبلغ أحد من هؤلاء براعته وحذقه ومهارته وتوَّعُّغه في تقريب الصورة من أصلها ، وإخراجها على حقيقتها ، ما بلغه المصورون اليوم باستخدام الأشعة الشمسية وإن كانت القيمة الفنية للتصاوير اليدوية أكبر خطأ من قيمة التصاوير الشمسية لأن الإبداع فيها يتم عن ذلك ذاتي وعجبرية^(٣) شخصية جديدة بالإكبار . ولأن التصوير الشمسي يُقْنِئُه مَنْ يقتصر على حفظ قواعده ووعدها وإحكام تطبيقها وإغناؤها . على أن الفطرة كانت أسبق من الإنسان إلى إمالة اللثام عن هذا المخترع الثمين ؛ لأنها تُجَرِّبُه وتستخدمه منذ خلقت العيون وكوَّنت الأبصار ؛ إذ العين لا تستطيع أن ترى أي مرتئي شاخص أمانها إلا إذا عكست أشعة الأضواء الشمسية صورة ذلك المرتئي عليها . وكذلك يفعل الإنسان اليوم ، فالعين التي يصور بها المرتئي هي الآلة الشمسية : يُوجِّهها أنَّى شاء ، ثم يفتح جفنها ، فترسم في هنيئة ما كان النقاش يقضى في رسمه الأيام الطوال

وإن من آلات التصوير ما يرسم المرء سائرًا في الطريق ، والطارئ مُحَلِّقًا في السماء ، والمهم مارقًا في الهواء ، والقطار منسابًا على النبرله ، دون أن يُحِلَّ بإحكامها إسراعه ، أو يُقَلِّل من تحقيقها تحرفه

والصور ضرب من ضرب التفاهم ، ووسيلة من وسائل التعارف ؛ فهو في ذلك كالكلام إلا أنه أبلغ وأفصح ، أو الكتابة غير أنه أئين وأعم ، لأن الناس إنما يتم تفاهمهم باللغة بمد إحاطتهم بها علماء ، والغريب عنها

(١) أعظم مصوري الطليان (١٤٨٥ - ١٥٢٠ م) (٢) مصور هنكي اشتهر في وطنه ثم انتقل الى اميخته غنلى عند ملوكها (١٥٩٩ - ١٦٤١ م) (٣) إجادة ونبوغ

لا يُجيدُ الكلامُ بها إلا بعدَ قتلها بحثًا ودرسًا. أما لُفَةُ التصويرِ فهي لُفَةُ
فِيهِمَا النَّاسُ كُلُّهُمْ يَغْطِرُهُمْ؛ لِأَنَّهُا تُحَاكِي مَا يُدْرِكُ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي
عَالَمِ الْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ

والصورة إذا نظرت إليها نظرة واحدة أغتثك عما يكتبه السُّنْبُ في
وَصْفِ صَاحِبِهَا؛ وَلَرَبَّمَا قَرَأْتَ الْوَصْفَ الْمَطْوَلَ فَلَمْ تَنْطِيعِ الْحَقِيقَةَ فِي ذَهْنِكَ،
وَلَمْ تَرْسِمِ فِي مُخَيَّلَتِكَ بِمَثَلِ مَا تَنْقُلُهُ إِلَيْكَ الصُّورَةُ الشَّمْسِيَّةُ فِي طَرْفَةِ الْعَيْنِ
وَالصُّورَةُ تُخَلِّدُ ذِكْرَ الْعَظَمَاءِ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَعَبِّينَ مِنَ الْأَبْطَالِ، لِيَقْتَدِيَ
الْخَلْفُ بِهِمْ فِي جَلَالِ أَعْمَالِهِمْ، وَطُرُقِ قَوَائِمِهِمْ^(١) لَا تَقْصِمُهُمْ مَفَاخِرُ كَمَا خَرَمَ وَذَكَرَا
كَذَرَهُمْ. وَالصُّورَةُ خَيْرٌ مَا يُثَوِّبُ عَنْ وُجُوهِ الْأَقْرَابِ وَالْأَصْدِقَةِ عِنْدَ
غِيَابِهِمْ؛ فَهِيَ تَحْفَظُ الصِّلَاتِ بَيْنَهُمْ، وَتُهَوِّنُ آلَامَ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمْ

وقد أُدْخِلَ التَّصْوِيرُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ، وَأُسْتَعِينَ بِهِ عَلَى اسْتِجْلَاءِ غَوَامِضِ
الْفَنُونِ، فَأَتَى بِالنَّفْعِ الْكَثِيرِ، وَكَانَ لَهُ ثَرٌ جَلِيلٌ: أُدْخِلَ فِي الْقَضَاءِ فَاهْتَدَى بِهِ
ذُووهُ إِلَى تَتَبُّعِ آثَارِ الْجَنَازَةِ الْفَارِثِينَ مِنْ وَجْهِ الْمَدَالَةِ، وَتَعَمَّقُوا بِهِ مِنَ الْقَبْضِ
عَلَيْهِمْ، وَحَمَاةِ النَّاسِ مِنْ شَرِّهِمْ. فَسَدَّ هَذَا الْفَنُّ فِي الْقَضَاءِ ثُلُمَةً مَا كَانَ
يَسُدُّهَا الْوَصْفُ الْمُسَهَّبُ لِإِلْمَاحِ الْمَارِينِ مِنَ الْجَانِينِ؛ لِتَشَابُهِ الْوُجُوهِ

وَأُدْخِلَ فِي عِلْمِ الْفَلَكَ؛ فَصَوِّرَ أَجْرَامَ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ، وَبَيَّنَ حَرَكَاتِهَا
وَمَثَلَ دَوْرَانَهَا بِمُسَاعَدَةِ الْمِرْقَبِ مِمَّا لَمْ تَكُنْ تَسْتَطِيعُهُ الْعَيْنُ الْبَشَرِيَّةُ الطُّوْلَ
الْوَقْتُ الَّذِي يَسْتَرْقُهُ رَصْدُهَا، وَلَمَّا يُصِيبُ الْعَيْنَ مِنَ الْحَمَرِ وَالْكَلَّالِ فِي
الشَّخْصِ إِلَيْهَا، وَيُعْجِزُهَا عَنْ تَتَبُّعِ سَيْرِهَا؛ هُنَا أَلَى قُصُورِ التَّلَاكُزَةِ فِي

(١) طُرُقَ نَفْسِهِ جَلَّ لَهَا طَرِيقًا إِلَى الشَّيْءِ

أغلب الأحيان عن استمالة صورها واستجلاء حقائقها ووقائها؛ على حين أن الآلة المصورة كلما طالت مدة تعرضها للضوء المكسوس من الصورة المنقولة زادت بنسبة خاصة في تجميع الضوء وتوضيح الشكل

وأدخل التصوير الشمسي في علم الطب، فأمكن به تصوير الصور المكبرة لصغير الأجسام ودقيقها؛ فيكفي طالب هذا العلم في كثير من الأحوال أن تصفح صورة مكبرة للمضو الذي يدرسه، وكأنه نظر إلى حقيقته من خلال قبة المجهر، غير أن الصورة الشمسية لا تكلفه من التناء والتنفقة والانتباه والعناية ما يكلفه المجهر. وقد قرنت الآلة الشمسية بأشعة «رونتجين»^(١) فأثبتت على الصحف بواطن الأجسام، وأبانت للعين ما تحت الجلد والمضئ من هياكل المظام

وزيَّنت بالصور الشمسية الطروس^(٢)، والكتب؛ فكانت خير معين على توضيح مفصلات العلوم وعريصات المسائل بتجسيم حوادث القصص هذا إلى ما يجده القارئ فيها من اللغة والرغبة، وما تبع فيه من الميل إلى متابعة المطالعة وتيسير القراءة، وبخاصة القارئ الصغير السن السريع الملل. والصورة تنقل اليك مناظر الأقطار النائية ومظاهر الأصقاع القاصية وأنت لم تكلف عناء الأسفار؛ فتصبح كمن شد إليها الرحال، ورأى في السبي إليها للمصاعب والأهوال

وإذا كنا نذكر للتصوير كل هذه الفوائد فلا ننسى أكبر آثاره، ولا

(١) علم طبي للماني ولد سنة ١٨٤٥م وأهتدى إلى الأشعة المشهورة التي نُسبت إليه

(٢) جمع طروس وهو الصحيفة

فَوُتِنَا التَّوْبَةَ بِأَعْظَمِ مَنَافِعِهِ وَهِيَ «النَّيَالَةُ» الَّتِي لَمْ تَهْمُ لَهَا قَائِمَةُ الْآبَةِ؛ إِذْ هِيَ صُورٌ شَمْسِيَّةٌ تُؤْخَذُ عَنِ الشَّيْءِ بِصُورٍ مُتَعَلِّقَةٍ مِثْلَةً إِلَيْهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ؛ ثُمَّ تُعْرَضُ أَمَامَ الْأَعْيُنِ عَرْضًا سَرِيعًا، فَتُخَالِفُهَا مُتَحَرِّكَةً، وَتُكَلِّدُهَا تَظَاهِرَ حَقِيقَةٍ

مُقَطَّعَاتُ شَعْرِيَّةٍ

أَنْشُودَةُ الطَّالِبِ النَّبِيلِ^(١)

لَا رَوَانِي النَّبِيلُ يَوْمًا مِنْ ظُلْمًا !	وَتَجَرَّعْتُ ^(٣) زُفَاقًا ^(٣) عَلَقَمًا ^(٤)
وَعَدَانِي ^(٥) فَضْلُ آبَائِي الْأَلِيِّ	شَرَّفُوا الْعُرْبَ، وَزَانُوا الْحَجَا
إِنْ طَلَبْتُ الْعِلْمَ إِلِمًا، وَلَمْ	أُفْخِذْهُ لِلْعَالِي سُلَّمَا
أَوْ حَذَقْتُ الْعِلْمَ لَا أَشْفَعُهُ	بِخِصَالٍ تَسَامِي كَرَمَا
أَوْ حَمِدْتُ الْقَوْلَ لَا أَتَبِعُهُ	بِمَقَالٍ لِي يَتَلَى حِكْمَا
أَوْ قَرَأْتُ الْكُتُبَ أَبْنَى سَبَقًا ^(٦)	فِي أَمْتَحَانٍ، ثُمَّ أَنْسَى كُلَّ مَا ^(٧) ...
أَنَا لَا أَرْغُبُ فِي الْمَبَشِيِّ إِذَا	كَانَ حَظِّي مِنْهُ جَهْلًا وَعَمَى
كَيْفَ أَشْفَعِي، وَالْوَرَى تَسَعَّدُ مِنْ	قَفَرٍ آثَارٍ جُدُودِي الْمُظْمَا
كَيْفَ أَسْتَأْهِلُ ^(٨) وَصَفَ الْعِلْمِ إِنْ	لَمْ يَكُنْ لِي مِنْهُ حَظُّ الْعُلَمَاءِ :
أَكْرِمُ النَّفْسَ، وَأُعْلِي مَعَشَرِي	ثُمَّ لَا أَحْرِمُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ

(١) من نظم للزُّلْف (٢) شَرِبْتُ بَلْعًا (٣) الزُّطْقُ الْمَاءُ الْمُرُّ الْغَلِيزُ لَا يُطَاقُ شُرْبُهُ (٤) الْعَقَمُ هُنَا أَشَدُّ الْمَاءِ مَرَارَةً (٥) تَجَاوَزَنِي (٦) السَّبَقُ خَطَرُ السَّبَاقِ : أَى الْجَارِزَةِ . وَالْمُرَادُ بِهَا شَهَادَةُ النِّجَاحِ فِي الْأَمْتَحَانِ (٧) فِيهِ اكْتِفَاءٌ بِالْمَوْجُودِ عَنِ الْمَحْذُوفِ : أَى أَنْسَى كُلَّ مَا قَرَأْتُهُ (٨) أَكُونُ أَهْلًا : أَى أُسْتَحِقُّ

علمم وقواب

قل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٤١هـ :

إذا جارت في خلقي دينًا فأنت ومن تجاربه سواء
رأيت الحرَّ يختبئ المتحاري ويحميه عن التندر الوفا
وما من شدة إلا مياقي لها من بعد شدتها رخاء
لقد جربت هذا الدهر حتى أفادتني التجارب والقنا
إذا ما رأس أهل البيت ولّى بداهم من الناس الجفا
يمشئ المرء ما استحيًا بخير ويبقى المؤد ما بقي اللجاء^(١)
فلا واقه ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
إذا لم تحش عاقبة الليالي ولم تستحي فأصنع ما تشاء

فصل النفي

قل أعرابي من باهلة^(٢) :

سأعيل نص العيس^(٣) حتى يكفني غنى المال يومًا أو غنى الحدائ^(٤)
فللموت خير من حياة يرى لها على المرء ذى العياء من هوان
متى يتكلم يبلغ حكمه مقالاه وإن لم يقل قالوا : عديم بيان
كأن النني في أهله (بورك النني) بغير لسان فاطق بلسان

(١) الحلة عود الشجرة قشره . وبه تكون حياة الشجرة . أى إن الانسان يكون

حسن العيش مع الناس ما دام الحياء غلبًا عليه . فإذا زال زال الخير عنه

(٢) إحدى قبائل العرب المضرية (٣) النص السير السريع . والعيس جمع

عبياء . وهى التافة البيضاء (٤) الحدائ غير الزمان وتوابعه . كفى بها عن الموت : أى

سأرحل في طلب الرزق حتى يفتني عن الرحلة المال أو الموت

سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو شيخ المسلمين، وأولُ الخلفاء الراشدين، مولانا وقُدوتنا أبو بكر
عبد الله الصديق بن أبي قُحافة عثمان بن عامرٍ وينتهي نسبه الى تيمٍ أحد
بطون قريش

وكان أَسْمُهُ في الجاهلية عبد الكعبة؛ فسماه رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) عبد الله، وسماه عتيقاً

وُلِدَ قَبْلَ الْبَيْتِ بِثَمَرٍ ٣٤ سنة. ونشأ بحكمة المُكرَّمة. وأُحترِفَ بِالْجَارَةِ
كَأَكْثَرِ قُرَيْشٍ؛ وَأَخْصُ مَا كَانَ يَتَجَرُّ فِيهِ الْبِرَازَةُ (بيع الثياب). وكان
صديقاً لرسول الله قبل الْبَيْتِ؛ فَلَمَّا بَيْتَ (صلى الله عليه وسلم) كان
أبو بكرٍ أوَّلَ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ إِسْلَامًا. وَأَخَذَ يَصِدِّقُ النَّبِيَّ فِي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ
بِلَا تَرَدُّدٍ؛ فَسَمِيَ «الصديق» لذلك. وأَيَّدَ الْإِسْلَامَ بِمَالِهِ وَحُسْنِ رَأْيِهِ
وَأَسْتَمَلَهُ النَّاسُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ صَدُوقًا أَمِينًا لَيْتَ الْجَانِبِ طَيْبَ الْحَدِيثِ مُحِبًّا
إِلَى قَوْمِهِ عَالِمًا بِأَيَّامِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ؛ فَكَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ لِدَلَالَةِ كَرَامِ قَوْمِهِ.
فَجُعِلَ يَدْعُو مَنْ يَشِيقُ بِهِ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ فَاسْتَمَّ عَلَى يَدَيْهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ
وَالْزُّبَيْرُ بْنُ النَّوَّامِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَمَسْعُودُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَطَلْحَةُ
ابْنُ عُقَيْدٍ أَهْلُهُ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ. ثُمَّ فَشَى الْإِسْلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ.
وَكُنَّ يَشْتَرِي الْمَوَالِيَ الَّذِينَ يُسْلِمُونَ، وَيُعْتَدُّهُمْ أَرْبَابَهُمْ لِإِسْلَامِهِمْ؛
وَمِنْهُمْ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، الَّذِي صَارَ بَعْدَ مُوَدَّتِنَا لِرَسُولِ اللَّهِ
وَمَا زَالَ يَرْضَى اللَّهَ عَنْ خَيْرِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى أَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ بِالْهِجْرَةِ

إِلَى الْقَدِينَةِ الْمُتَوَرِّةِ، فَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَيْهَا، وَأَقَامَ مَعَهُ فِي الْفَارِثَانِ اثْنَيْنِ. ثُمَّ أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ، يُصَدِّقُ رَسُولَ اللَّهِ وَيُؤَيِّدُهُ. وَزَوْجَةُ ابْنَتِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا). وَحَضَرَ مَعَهُ الشَّاهِدَ وَالنَّزَّاتِ. وَلَمَّا مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَرَضَ الْمَوْتِ أَسْتَخْلَفَهُ عَلَى النَّاسِ فِي إِمَامَةِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ فِي تَوَلِّيَةِ إِمَامَةِ الْوَلَايَةِ بَعْدَهُ. وَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فَكَانَ أَجْلَدَ النَّاسِ لِفِرَاقِهِ وَأَرْبَطَهُمْ جَاشَأً وَأَشَدَّهُمْ تَبْكًا؛ فَصَارَ خَيْرَ قُدْوَةٍ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فِي تَخْفِيفِ جَزَعِهِمْ؛ حَتَّى اتَّفَعَ بِنَلِكِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

ثُمَّ أَظْهَرَ مِنَ الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ هُوَ وَصَاحِبُهُ عُمَرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) حِينَ افْتَتَحَ النَّاسِ يَوْمَ وَفَاةِ النَّبِيِّ وَدُخَاءِ الْأَنْصَارِ إِلَى يَمَةِ خَلِيفَةٍ مِنْهُمْ وَمِثْلِ بَنِي هَاشِمٍ إِلَى أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ فِيهِمْ مَا جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَلْيِيقَةِ دَعْوَتِهِ وَمُبَايَعَتِهِمْ بِالْخِلَافَةِ لَهُ. فَجَمَعَ كَلِمَتَهَا وَأَشَدَّ فِي إِنْفَازِ مَا كَانَ يُرِيدُهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ فَتْحِ مَمْلَكَةِ كَسْرَى وَقَيْصَرَ. وَأَوَّلُ عَمَلِهِ بَعْدَ تَوَلِّيَةِ الْخِلَافَةِ إِتْقَانُ الْحَيْشِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ جَوَّزَهُ قُبَيْلَ مَرَضِ الْمَوْتِ لِنُزُوحِ أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ بِقِيَادَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ. فَنَهَبَ الْجَيْشُ وَغَزَا أَطْرَافَ الشَّامِ، وَرَجَعَ غَانِمًا

وَلَمَّا تَنَبَّأَ كَثِيرٌ مِنَ شَيَاطِينِ الْعَرَبِ، وَارْتَدَّتْ جَاهِلِيَّتُهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَصَنَّتِ الْعَرَبُ الزُّكَاةَ، وَهِيَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، دَعَا (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الْمُسْلِمِينَ إِلَى غَزْوِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَأْدِيَةِ الزُّكَاةِ، عَلَى قِلَّةٍ مِنْ بَقِيٍّ مُخْلِصًا لَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ أَهْلِ الْمُدُنِ

الثلاث . فنصحه أكابر الصحابة ألا يهيج الرب ويجمعهم على عداوته ،
ومنهم عمر وعلي (رضي الله عنهما) فقال : والله لو متوني عقلاً كانوا
يؤثرون لرسول الله لقاتلتهم عليه . فكان رأيُه أصوب الآراء في هذه
الكلية ؛ فاساق جيوشه الصغيرة على هؤلاء المتنبيين والمرتدين حتى
أظهر الله دينه ، وخذل أهل الضلال ، ورجعت العرب إلى الإسلام خاضعين
نلدين . فرأى أن الفرصة قد حانت لتحقيق بشارَةِ النبي لفتح الممالك ،
جميع بضعة وأربعين ألف مقاتل ممن لم يدخل قلبه ردة — وكان أكثرهم من
قرشي وقحيف — ولما لم يفتحهم لغزو الفرس وبعضهم لغزو الروم . ففتح
الله على الأولين أكثر سبغى الفرات ، وعلى الآخرين مشارف الشام
وفلسطين حيث وقع بينهم وبين الفرس والروم من الوقائع ما لم يفلحوا
بمدها في موقعة مع المسلمين

ومات (رضي الله عنه) وجيوشه تحاصر دمشق ، وتهدد المدائن ،
ويجيئ إلى المدينة ومكة ثمرات القطرين ويدر الذهب والفضة من المملكتين :
مما حمل الناس على حب الغزو ، ومهد للخطيفة عمر من بعده طريق الفتح ،
وأن يسوق بقية العرب على المملكتين ، ويتم تأسيس تلك الدولة العربية
العظيمة التي شاحت من ملكها الضخم في أقل من قرن ما لم تشهده دولة
قبلها ولا بعدها ، ونشرت من الدين والمعلوم والفنون في الأرض ما جعلها من
أكرم الأمم أثراً ، وأعجدها تليحاً وأشرافها ذكراً

فصل كل ذلك أبو بكر في أقل من ثمانية وعشرين شهراً ؛ فكان بذلك
المُجدد لدين الله والمؤسس الأول لدولة الإسلام . فجاء الله عن المسلمين
خير الجزاء .

وَتُوفِيَ (رحمه الله) بالصُّحَّى لِثَمَانِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ جُمَايِ الْآخِرَةِ لَيْلَةً
الثَّلَاثَةَ سَنَةِ ١٣ هـ. وَأَوْصَى أَنْ يُكْفَنَ فِي تَوْبَتِهِ — وَقَالَ : الْحَيُّ أَحْوَجُ إِلَى
الْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ — وَأَنْ يَرُدَّ أَهْلُهُ مَا أَخَذَهُ مِنْ يَتِّ الْمَالِ فَهَقَّةً لَهُ مُدَّةً
وَلَايَتِهِ ، وَنَزَلَ لَيْتَ الْمَالِ فِي مَقَابِلِ هَذَا النِّفْقَةِ عَنْ حَاطِطٍ (بُسْتَانٍ) كُنَّ لَهُ .
وَكُنَّ لَهُ مِنَ الْفَقْرِ ^(١) عَبْدٌ يَخْدُمُهُ وَيَسِيرُ يَسْتَقِي عَلَيْهِ ، فَأَوْصَى بِرَدِّهِمَا إِلَى يَتِّ
الْمَالِ ، فَقَبِلَهُمَا عَمْرُ

وكان (رحمه الله) أَيْضَ خَفِيفَ الْعَارِضِينَ أَفْقَى غَارِ الْمَيِّتِينَ ، مَقْرُونِ
الْوَجْهِ ^(٢) ، نَحِيفًا يَخْضِبُ بِالْحِصَاءِ وَالْكَتَمِ ^(٣)

الشجاعةُ أمانٌ لصاحبها

رَوَى صَاحِبُ كِتَابِ الْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَةِ عَنْ رَجُلٍ كُرْدِيٍّ شَجَاعٍ يُعْرَفُ
بِأَبِي عَلِيٍّ كُنَّ قَدْ لَحَازَ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ شَاهِينَ الْكُرْدِيٍّ — وَهُوَ فَاتِكٌ يَقُوذُ
طَائِفَةً مِنَ الْقُصُوصِ أَشْهَرَتْ بِقَطْعِ الطَّرِيقِ فِي جِبَالِ الْكُرْدِ — قَالَ :
خَرَجْنَا مَرَّةً بِالْجِبَالِ فِي أَيَّامِ مَوْسِمِ الْحِجِّ ، وَعَدَدُنَا مَسْبُوعُونَ رَجُلًا مِنْ فَارِسٍ
وَرَجُلًا ، فَاعْتَرَضَنَا الْحَاجُّ الْخُرَّاسَانِيَّةُ . وَكَانَ لَنَا عَيْنٌ ^(٤) مِنَ الْقَافِلَةِ ، فَمَادَ
وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي الْقَافِلَةِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ شَاشٍ ^(٥) وَفَرَّغْنَا مَعَهُ اثْنَا عَشَرَ جِلًّا
وَجَارِيَةً فِي قَبَّةٍ ^(٦) عَلَيْهَا حُلِيٌّ ثَقِيلٌ . فَعَمَلْنَا أَعْيُنَنَا عَلَيْهِ حَتَّى وَبَّئْنَا عَلَيْهِ ، وَهُوَ

(١) غَنَامُ الْحَرْبِ (٢) أَيْ لَيْسَ بِمَرِيضِ الْوَجْهِ (٣) الْكَتَمَاتُ بِحُطِّ الْحِصَاءِ
وَيُخْضَبُ بِهِ الشَّرَفِيُّ لَوْنَهُ (٤) الْعَيْنُ الْقَدِي يَمُوتُ لِيَتَجَسَّسَ الْخَبِيرُ (٥) بِلْدَةٌ مِنْ
بِلَادِ مَا وَرَاءَ الْتِهَرِ (بِلَادِ التُّرْكِسْتَانِ) وَفَرَّغْنَا مَدِينَةَ وَكُورَةَ نَسَى بِاسْمِهَا فِي هَذِهِ التَّوَاحِي
(٦) هُوَ دَجٌّ كَالْقَبَّةِ

والجارية في عمارية^(١) فقطعنا قطارَه، وكشفناه وأدخلناه وما معه بين الجبال،
 وقتلنا على ما معه، وفرحنا بالنيمة. وكان للرجل برذون^(٢) أصفر يساوي
 مائتي درهم، فلما رأنا نريد القفول^(٣) قال: يا فتيان! هتاكم الله بما أخذتم!
 ولكنني رجلٌ حاجٌ بعيدُ الدار؛ فلا تعرضوا لسطط الله بمنعني من الحج،
 فأما المالُ فيذهبُ ويحیی، وتعلمون أنه لا نجاة لي إلا على هذا البرذون
 فتركوه لي، فليس بيني ثمته في النيمة التي أخذتموها. فتشاورنا. فقال شيخ
 مجرب: لا تردوه عليه، وأتركوه مكتوفاً هنا؛ فإن كان في أجله تأخير
 فسيفيض^(٤) الله له من يطل كيتافه - فكنت فيمن عزم على هذا - وقال
 بمضنا: ما مقدار دابة بما تاتي درم حتى نتمها رجلاً حاجاً؟ وجعلوا يرققون قلوب
 الباقيين حتى سمحنا بذلك، فأطلقناه، ولم ندع عليه الا ثوباً يسيره. فقال:
 يا فتيان! اتم منتم على وردتم دأبتي، وأخشي اذا أنا ميرت أن يأخذها
 غيركم؛ فأعطوني قوسي ونشائي أذب بها عن قوسي وفرسي، قتلنا: لا نرد
 سلاحاً على أحد. فقال بمضنا لبمض: وما مقدار قوس ثمنها درهمان؟ وما
 نحشى من مثل هذا؟ فأعطيناه قوسه ونشأته، وقلنا: أنصرف. فشكرنا
 ودعانا، ومضى حتى غاب عن أعيننا. فأكذنا لسير، والجارية تبكي؛ حتى
 كره الرجل راجعاً، وقال: يا فتيان! أنا لكم ناصح؛ فإنكم قد أحستم إلى، ولا
 بد لي من مكافأتكم على إحسانكم بنصيحتي لكم. قتلنا: ما نصيحتك؟
 فقال: دعوا ما في أيديكم وأنصرفوا سالين بأقميكم، ولكم الفضل؛

(١) العمارة نوع من الهواذج (٢) فرس تركي (٣) الرجوع - أي نريد
 أن نتركه مكتوفاً (٤) يفيض

فإنكم منتم على رجل واحد، وأنا آمن على سبعين رجلاً منكم . وإذا به قد أنقلب عيناه في أم رأسه ، وخرج الزبد على أشداه كالجلل الهاج . فهرأنا به وضجنا . فأعاد علينا النصيحة فقال : يا قوم ! قد مننت عليكم ، لا تجعلوا لي على أرواحكم سبيلاً ! فزاد غيظنا منه ، فقصدناه وحملنا عليه ، فأنحاز عنا ، ورعى خمس نشابات كانت يده ، فقتل بها من خمسة رجال وأخذ خمس نشابات آخر ، وقال : إن جماعتكم تموت على هذا إن لم تخطوا ما في أيديكم . فلم نزل ندفعه ، وقتل منا حتى قتل خمسين رجلاً ، وبقي معه بعض النشاب في جعبته . ثم قتل من جماعة آخرين . فأضطربنا إلى أن ترجلنا . فجاز دوابنا وحملنا وساقها قليلاً ، ثم رجع وقال : من رعى بسلاحه فهو آمن ، ومن تمسك به فهو أبصر بنفسه . فرمينا سلاحنا . فقال : اذهبوا آمنين ، وأخذ جميع السلاح والدواب . وقاتلنا الغنمة والخيل والسلاح . وكان ذلك سبب توبى عن قطع الطريق أمة لما لحقني منه ، وأنا على ذلك الحال إلى اليوم

العصر الحجري والعصر المعدني

من أعجب مشتهيات الإنسان وأبلغها في إحنال السرور على قلبه معرفته بأخبار السابقين الأولين من بني جنسه ، ووقوفه على مبعشة أول من عروا الأرض منهم ، وكيف كانوا يمتثلون لمقاومة عواذي الطبيعة : من حر لافح^(١) وبرد قارس^(٢) ، وسبع^(٣) صار ، وعدو مفاجئ ، على ما م عليه من ضعف قوة

(١) محرق (٢) شديد (٣) كل ما يهترس ويأكل فريسته من حيوان البر والبحر يسمى سباعاً

ورقة بشرة، وتجريد من الأصواف والأوبار والأشعار والحراشيف^(١) التي تندر^(٢) بها غيرهم من الحيوان

لا شك أن أفصح لسان يُنبئنا عن حالهم هو ما دَوَّوه في كتبهم وحشوه على جذران مصانيمهم ومعابدم. وهيات أن نخبرنا الكتابة بأبعد من خمسة آلاف سنة. وليست هذه الحسة الآلاف إلا حقة من سلسلة حياة الجنس البشري الطويلة. فهل وقف الإنسان جامداً في يدها التقدّم وبجاهل التاريخ، وهو ذلك المخلوق المحيَّب الذي أودعه الله من قوة النظر واستنباط المجهول من المعلوم ما أودعه؟ كلا! إنه بعد أن قاتته قراءة أسفار الإنسان لم تفته قراءة سفر الخليقة والآثار؛ فنقب وبحت، واستخرج خبايا الأرض ودقائق الرموس^(٣) ودائع المغاور والكهوف؛ حتى وقف على كثير من أحوال معيشة الإنسان الفطرية، وكيف توالى عليه الأطوار، وتماقت الأعصار؛ حتى أتى به الزمان إلى عصر التاريخ

ويظهر من تتبع آثار الإنسان أن أول ما استعان به على تذليل صعب الحياة الآلات الحادة ليصطاد بها من الدواب ما يأكله، وينفع بها من السباع والأناسي^(٤) ما يقتل به. فوجد أن بعض شطايا^(٥) الصخور والعظام وفروع الأشجار وقرون البقر والأومال^(٦) تقوم بحاجته؛ غير أن كثيراً

-
- (١) جمع حَرَشَفَ فطرس السمك وقشره (٢) أي تكون له كالذئار وهو ما فوق الشعار من الثياب (٣) جمع رَمَس وهو القبر (٤) جمع إَسَى وهو الواحد من بني آدم (٥) جمع شَطِيَّة وهي القلعة من الصخر (٦) جمع وعِل وهو دابة من صف الغزال أضخم منه ولها قرون عظيمة

منها لا يقي بها إلا بحد شيء من التهذيب والتحسين؛ فاستعمل بعضها في إصلاح بعض حتى أصبحت عامة آلات قتاله وصناعاته من الطران^(١) والبيدال. فأتخذ من الطران أشباه سكاكين وسيوف، وصنع أسنة رماح ونصول سهام ورؤوس فتوس وقواديم ومناقب يركب بعضها في أطراف الهراوى^(٢) والقضبان، ويربطها بشيور من جلود الحيوان. وربما استعان على حر سوق الأشجار الغليظة بوضع الجمر على مكان النقر حتى يحترق ماتحته بقدر ما يريد، وأتم النقر بالظُرر؛ فكان أحدهم إذا شاء أن يصنع زورقا عمد إلى ساق شجرة، فمطعمه بالحرق والنقر، وجوف جانيا منه كنلك ويستدل على هذا بما عثر عليه المنقبون في ناحية من نواحي برطانيا من قارب تملؤه آثار إحراق، وفيه رأس فأس من الظُرر

وما زال المتوحشون في جزائر المحيط الهادى ينحون هذا النحو إلى يومنا هذا. وعثر في جنوبي إفريقيا على هيكل رجل في تابوت ردىه الصناعة ذراعه منفصلة من كتفه، وقد نشيت في العظيم المهشم شظية من الصوان. فلا بد أن هذا الشخص أصابه ضربة شديدة بأحد ظر من يد رجل أيد^(٣) قوى الساعد. وقد مضى على ذلك الحادث ألوف السنين ونطق ذلك الظر البصابت بجنه بأجل يان. وإن من البقاع ما وجد فيه ألوف من أمثال هذه الآلات: مما يدل على أنها كانت ميادين للملاحم عظيمة

ومن المصطفات الصخرية التي عرف بها طرف من أصول ملك الفارين

(١) جمع ظُرر: وهى الحجر له حد كحد السكين (٢) المعنى الغليظة

(٣) شديد القوة

وَأَرْكَانَ دِيَارِهِمْ مَا وَجَدَ فِي قُبُورِهِمْ وَوَأَوْصِيَهُمْ : مَنْ يَصَالُ السَّهَامَ ، وَأَسِنَّةَ الرِّمَاحِ الَّتِي بَلَيْتَ قُضْبَانُهَا لِتَقَادُمِ الْمَهْدِ عَلَيْهَا . وَالْمُظَنُّونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلَاتِ كَانَتْ تُودَعُ قَبْرِ اللَّيْتِ لِأَعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ سَيُبْعَثُ مِنْ مَرْقَدِهِ ، فَيَلْقَى عَالَمًا حَافِلًا بِالصَّيْدِ مُزْدَحَمًا بِالْمُنَافِسِينَ وَالْأَعْدَاءِ ؛ فَلَا يَلْقَى عَنْاءَ فِي إِعْدَادِ آلَاتٍ جَدِيدَةٍ لِنَفْسِهِ . وَفِي دَارِ الْمَادِيَّاتِ بِالْقَاهِرَةِ حُجْرَةٌ مَلَأَى بِأَنْوَاعِ الظَّرَّانِ



بعض آلات من العصر الحجري
١ و ٢ و ٣ آلات قطع في الطور الاول .
٤ - ٩ آلات مهددة في الطور الثاني منها : -
٤ مثلث - ٥ طير - ٦ و ٧ سهم - ٨ و ٩ مطرقة ومقطع
٨ و ٩ حربة - ١٠ و ١١ مطرقة ومقطع

وَلَقَدْ غَبَرَ الْإِنْسَانُ دُهوراً طَوِيلَةً وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَى تَغْيِيرِ عَادَةٍ ، وَلَا تَهْدِي إِلَى طَرِيقِ حَضَارَةٍ ، حَتَّى عَثَرَ فِي بَعْضِ مَجْرَاهِ عَلَى بَعْضِ قِطْعٍ مِنَ الْمَعَادِنِ ، فَأَسْتَمَلَهَا أَسْتِمَالِ الظَّرَّانِ بِالطَّرِيقِ وَالذَّقِّ . وَظَنَّ أَنَّ قَدْ سَقَطَتْ مِنْهُ مَرَّةً قِطْعَةً سَهْلَةً الْأَنْصِهَارِ كَالْقَصْدِيرِ وَالشُّحَاسِ فِي نَارٍ مُتَأَجِّجَةٍ فَأَنْصَهَرَتْ ، ثُمَّ بَعْدَ خُضُودِ النَّارِ جَمَعَتْ وَتَشَكَّلَتْ بِشَكْلِ آخَرَ ؛ فَاهْتَدَى بِذَلِكَ إِلَى صَهْرِ الْمَعَادِنِ . ثُمَّ خَلَطَ الْقَصْدِيرَ بِالشُّحَاسِ فَتَشَجَّ مِنْهُمَا مَعْدِنٌ أَصْلَبُ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَهُوَ الشَّيْبَةُ (الْبُرُّز) ؛ فَانْفَتَحَ أَمَامَهُ بَابُ الْمَصْرِ الْعَمَلِيِّ . وَتَوَسَّعَ فِي أَسْتِمَالِ الْأَلَاتِ الْمَعْدِنِيَةِ وَالطُّلِيِّ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَسْتَكْرَمَ مِنْهَا ، وَتَمَدَّدَتْ صُنَاغِيَّتُهُ وَمِرَاقُهُ ، فَحَقَّقَ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَرَحَلَةٍ مِنْ

وَلَقَدْ غَبَرَ الْإِنْسَانُ دُهوراً طَوِيلَةً
وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي لَا تُؤَدِّي
إِلَى تَغْيِيرِ عَادَةٍ ، وَلَا تَهْدِي إِلَى طَرِيقِ
حَضَارَةٍ ، حَتَّى عَثَرَ فِي بَعْضِ مَجْرَاهِ
عَلَى بَعْضِ قِطْعٍ مِنَ الْمَعَادِنِ ،
فَأَسْتَمَلَهَا أَسْتِمَالِ الظَّرَّانِ بِالطَّرِيقِ
وَالذَّقِّ . وَظَنَّ أَنَّ قَدْ سَقَطَتْ مِنْهُ
مَرَّةً قِطْعَةً سَهْلَةً الْأَنْصِهَارِ
كَالْقَصْدِيرِ وَالشُّحَاسِ فِي نَارٍ مُتَأَجِّجَةٍ
فَأَنْصَهَرَتْ ، ثُمَّ بَعْدَ خُضُودِ النَّارِ
جَمَعَتْ وَتَشَكَّلَتْ بِشَكْلِ آخَرَ ؛

طريق الحضارة والعم . قطع للمعادن الأحجار ونحتها وبني منها بيوتاً ومصانع بدل للكهوف والمناوير والأكواخ ، وقطع الأشجار ، فأتخذ منها سقفاً وأبواباً وسُرراً وكراسي وأخريّة وموائد وصناديق وخزائن

وتأخر الإنسان في استعمال الحديد لصعوبة صهره وشدة اختلاطه بغيره . ولم يدلّ هذه الصعوبة إلا بعد أن وقف على كثير من أسرار الطبيعة ، وتبيّن له بناء الأتّين^(١) الكبيرة ، فصهره وأستبدله بالشّبه وغيره قطع به المرحلة الثانية من طريق تمدّنه

ولقد كلن الرّقي الذي أحدثه استعمال المعادن في الصّناعات مقروناً بالتقدم في كثير من شؤون الإنسان الحيويّة ، وأغراضه الاجتماعيّة ، وعاداته القروميّة ، وعقائده الدينيّة . وليت في هذه المرحلة أوفاً من السنين ؛ حتى كشف أمرار البحار والكهرباء والمنطّطين والآثير ، قطع المرحلة الثالثة ؛ ثم طار في السماء ، وغاص في الماء ، وخطب السفن الماخرة في لُجج البحار . ولا يدري إلا الله كم بقي له من المراحل في طريق حياته الدنيا

وفاء السّموّء

من أقوالهم : الوفاء صالّة^(٢) كثير نلشدّها^(٣) ، قليل واجدّها ، وقلوا : الوفاء من شيم الكرام ، والتعذر من خلائق اللّثام . وقلوا : إذا ترك الوفاء نزل البلاء

(١) جمع أتّون وهو الموقد العظيم للحمام والجير ونحوهما

(٢) أصل الصلة لثقة التي تفعل عن صاحبها (٣) طلبها

ومن الأمثال في ذلك « أوفى من السمّوعيل » وهو السمّوعيل بن حاديه اليهودي صاحب قصر تيماء^(١) المسمّى بالأبلق الفرد .

ومن خبره أن امرأ القيس الشاعر المشهور كان قاصدا الشام ليخرج منها الى قصر يستنجد به على أعدائه . فأودع السمّوعيل أذراعه^(٢) وكرّاهه . فأت امرؤ القيس بأهرة^(٣) . فقصد السمّوعيل الحارث بن أبي شمر الغساني يطلب منه ما كان أودعه امرؤ القيس عنده ، فأبى أن يُسلمها له ، وتحصن في قصره وكان حصنا متيناً لا يُنال . فقال : إني لم تُسلمها ذبحتُ ولذلك (وكان قد أسرّه عند نزوله على القصر) فقال : أجلتني الليلة . ثم جمع أهله ، واستشارهم ؛ فكل أشار بأن يدفع اليه ما طلبه منه . فلما أصبح قتل له : ليس إلى دفعها سبيل . فافضل ما بدك لك ا فذبح الملك ولده ، ورحل عنه . ثم إن السمّوعيل وافى المويم^(٤) بالأذراع فدفعها لوزنة امرئ القيس

وفيه يقول الأعشى يُخطب شريح بن السمّوعيل بن حاديه من آيات :
كن كالسمّوعيل إذ طاف الهمام به^(٥) في جفلي^(٦) كسواد الليل جرّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وبار غير غدار

(١) بلدة أثرية على الطريق بين المدينة وفلسطين ؛ كان بها قصر السمّوعيل المسمى بالأبلق الفرد . وقد خربت الآن وبها أطلال أبنية قديمة (٢) جمع ذراع وهي ثوب من الحديد كالشبكة ضيق السج صفيقه تلبس كالقميص فتكون وقاية من سلاح العدو . والكرّاع اسم يقع على الخيل ونحوها من البغال والحمير (٣) مدينة مشهورة بآسيا الصغرى (٤) أى موسم الحج بمكّظ ونحوها من أسواق العرب (٥) أى الملك الهمام يريد به الحارث بن أبي شمر (٦) الجحفل الجيش العظيم

فَقَالَ: تُكَلِّمُ^(١) وَغَدَرْتُ: أَنْتَ^(٢) يَنْهَمَا
فَشَكَ^(٣) غَيْرَ طَوِيلٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:
فَقَالَ تَقْدِمَةٌ إِذْ رَأَى يَقْتُلُهُ:
أَأَقْلُ أَبْنِكَ صَبْرًا أَوْ نَجَى بِهَا
فَشَكَ أَوْ دَاجَةً، وَالصَّبْرُ فِي مَضَضٍ
وَأَخْتَارَ أَدْرَاعَهُ مِنْ أَنْ يُسَبَّ بِهَا
وَقَالَ: لَا أَشْتَرِي طَارًا بِمَكْرُمَةٍ
وَالصَّبْرُ مِنْهُ قَدِيمًا شَيْئًا خَلُقَ
فَأَخْتَرَهُ، وَمَا فِيهَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ
أَقْلُ أَسِيرِكَ؛ إِنِّي مَانِعٌ جَارِي
أَشْرَفَ سَمَوَاتٍ فَأَنْظُرُ فِي الدِّمِ الْجَارِي
طَوْعًا؟ فَأَنْكَرَ هَذَا أَيْ انْكَارِ
عَلَيْهِ مُنْطَوِيًا كَاللَّذَعِ بِالنَّارِ
وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ فِيهَا بِمُخْتَارِ^(٤)
فَأَخْتَارَ مَكْرُمَةَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَارِ
وَزَنَدَهُ^(٥) فِي الْوَهْلِ الثَّقَابِ الْوَارِي

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ السَّمُوعِلُ مُفْتَخَرًا:

وَقِيْتُ بِأَدْرُعِ الْكَئِنْدِيِّ^(٦)؛ إِنِّي إِذَا مَا خَانَ أَهْوَامَ وَقِيْتُ
وَأَوْصَى طَلِيحًا يَوْمًا بِأَنْ لَا تُخَرِّبَ يَا سَمُوعِلُ مَا بَقِيْتُ
بَنَى لِي عَادِيًا حِصْنًا حَصِينًا وَمَلَأَ^(٧) كَلِمًا شَتَّى اسْتَقِيْتُ
وَقَفْتُ هَذِهِ الْحَالَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِحَوْزِ ٦٠ سَنَةً

-
- (١) أَيْ قَدْ لَوْلِكَ أَوْ غَدَرْتُ بِمَهْلِكِ (٢) أَيْ أَنْتَ غَيْرِ يَنْهَمَا (٣) أَيْ تَرَدَّدَ
(٤) جَمْعُ وَدَجٍ وَهُوَ أَحَدُ الْمَرْقِينَ الَّذِينَ يَطْلَعُهَا الْقَالِحُ (٥) الْمَضَضُ وَجَعٌ لِلصَّيَةِ
(٦) غَدَارُ (٧) مَا يَجِدُ النَّارَ مِنْ عَوْدٍ يُقْتَلُ عَلَى ظَهْرِ عَوْدٍ فَيَتَوَلَّى مِنْ كَثَرَةِ الْمَلِكِ
نَارٍ. وَوَرَى الزُّنْدُ: أَحَدٌ بِالنَّارِ (٨) أَيْ أَمْرِي الْقَيْسُ الْمُنْسُوبُ إِلَى قَبِيلَةِ كَنْدَةَ أَحْطَى
قَبَائِلَ الْعَرَبِ الْمُحْطَانَةِ (٩) أَيْ بَرَأَ ذَاتَ مَاءٍ

الأقزام^(١)

اِذَا ذَكَرَ الْاَوْتُونَ فِي اَسَاطِيرِهِمْ اَنْ مِنْ الْبَشَرِ قَوْمًا طَوَالَ الْاَجْسَامِ
كَالْمَاقَلَقَةِ، لَمْ يَهْمَلُوا فِيمَا دَوَّنُوهُ فِي اَسْفَارِهِمْ اَنْ مِنَ النَّاسِ جِيلًا قِصَارَ الْقَامَاتِ
كَاقْزَامِ الزُّنُوجِ؛ فَقَدْ عُبِّرَ فِي آثَارِ الْمَصْرِينَ عَلَى قِصَصِ وَصُورٍ تَدُلُّ عَلَى
اَنْ فِرَاعَتِهِمْ كَانُوا يَلْتَهُونَ بِاقْزَامِ لَهُمْ، جَلَبَتِهِمْ اَعْوَانُهُمْ مِنَ السَّوَادَنِ. وَذَكَرَ



بعضُ مؤرِخي اليونانِ
وحكائِهِمْ وشُعْرَانِهِمْ مِنْ
القِصَصِ وَالْاَخْبَارِ وَالْاَشْغَارِ
مَا يُؤَيِّدُ وُجُودَ اقْزَامٍ فِي
عَصُورِهِمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ اَوْرِبَةَ
وَافْرِيقِيَةَ

وما زال المتأخرون من
الأوربيين يشكّون في صِحَّةِ
هذا القول؛ ويؤوّلونه بأنَّهم
إنَّمَا رَأَوْا الْقِرْدَةَ الشَّيْبَةَ
بِالْأَنَابِيِّ، فَظَنُّوْهَا إِنِّيَاهَا؛ حَتَّى
رَغِبُوا فِي الْأَسْتِمَارِ، وَجَاوُوا

زُوجِ اقْزَامٍ وَدَوَاعِمِ زُوجِ طَوَالَ لَاظْهَارِ اَهْرَقِ

(١) جمع قَزَم وهو الصغير الجثة

الْفِقَارَ وَالْبَحَارَ، فَأَوَّأَ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ وَقَبَائِلِهَا مَا جَعَلَ أَخْبَارَ
 الْمُتَقَدِّمِينَ صَحِيحَةً فِي جُلَّتِهَا إِنْ لَمْ تُكُنْ فِي تَفْصِيلِهَا
 وَلَيْسَ الْأَقْزَامُ مُخَصَّصِينَ بِصِفَعٍ يَنْزِلُونَهُ مِنَ الْمَعْمُورِ أَوْ يَلَوْنِ لَا يَكُونُ
 إِلَّا لِبَنِي جِلْدَتِهِمْ؛ فَإِنْ مِنْهُمْ مَنْ يَسْكُنُ الْأَقَالِيمَ الْأَسْتَوَاثِيَّةَ مِنْ أَوَاسِطِ
 إِفْرِيقِيَّةٍ غَرْبِيٍّ أَوْ غَنَلَةَ، وَمِنْ أَقْصَرِ الْأَقْزَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْكُنُ غَرْبِيَّ إِفْرِيقِيَّةِ
 الْجَنُوبِيَّةِ كَقَبَائِلِ الْبَشَّشِ وَالْهُوْتَنْتُوتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْكُنُ شِبَةَ جَزِيرَةِ مَلَكَا
 وَفِيلِينَ وَبَاوَةَ وَفَانَةَ الْجَدِيدَةِ وَجَزَائِرَ أَنْتَمَلَنَ مِنْ آسِيَا. وَكُلُّ أَقْزَامٍ هَذِهِ
 الشُّعُوبِ الشَّرْقِيَّةِ مِمَّنْ الْوُجُوهُ فَطُسُ الْأَنْوَفِ جِمَادُ الشُّعُورِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
 يَتَنَبَّهُمْ وَبَيْنَ الزُّرُوجِ نَسَبًا وَصِهْرًا، وَلِذَا لَمْ يُمَايَلُوا مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 وَلَوْلَا سِبَاطَةُ الشَّعْرِ فِي أَسَمَةِ اللَّابُونِ وَالْإِسْكِيمُوسِ مَسْكَنِ الْأَصْفَاعِ
 الْقَطِيعِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ لَكَانَتْ نَسَبَتُهُمْ إِلَى هَؤُلَاءِ أَقْرَبَ مِنْ نَسَبَتِهِمْ إِلَى الْجَنَسِ
 الْأَصْفَرِ السُّوُلِيِّ؛ لِأَنَّهُمْ يَكَادُونَ يَمَايَلُونَهُمْ فِي قِصَرِ الْقَاءَةِ، وَإِنْ كَانَتْ بَدَأَةُ^(١)
 أَجْسَادِهِمْ وَوَنَاقَةُ خُلُقِهِمْ^(٢) تَجَمُّعُنَا نَحْضُهُمْ بِاسْمِ الْبَحَارِ^(٣)

وَلِسِيَّاجِ الْأَوْدِيِّينَ وَرُؤَادِمِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي أَقْاصِيْعُ عَنْ الْأَقْزَامِ.
 وَكَثُرَ مَنْ أَفْضَلَ الْقَوْلَ فِي أَقْزَامِ أَوَاسِطِ إِفْرِيقِيَّةِ هُوَ الرَّحَالَةُ اسْتَنْبَلِي.
 وَيُؤْخَذُ مِنْ أَقْوَالِهِ أَنَّهُمْ أَسْتَوْطَنُوا تِلْكَ الْبِلَادَةَ مُنْذُ خَمْسِينَ قَرْنًا، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ
 الْفَقْرِ وَأَهْلَةُ مَهَارَةٍ فِي صِنَاعَةِ الْأَدْوَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا، وَلَا مِثْلًا الْحَرَابِ
 الْمُسَمُومَةِ، وَأَنْ لَهُمْ نِظَامًا يُوجِدُ قَوْمِيَّتَهُمْ، وَأَنَّهُ تَعَرَّفَ بِمَلِكِيَّتِهِمْ فَأَرَاهَا
 عَلَى جَانِبٍ مِنَ الطُّفْلِ وَالْأَدَبِ

(١) سِنَّ (٢) مَاتَةَ عَضْلِهِمْ (٣) جَمْعُ بُحَيْرٍ وَهُوَ الْقَصِيرُ الْجَمْعُ الْخَلْقُ

. وقد مرَّ بالقاهرة الضابطُ هريسُن سنة ١٩٠٥ م ، ومعه ستة أقرامٍ من الكُثْمُ ، متوسطُ أطوالِهِم ذراعٌ قَرَنَسِيَّةٌ وثلاثُونَ عَشِيْرًا^(١) ، رَأَمَ النَّاسُ وَدَرَسَ أَطْبِلَهُ قَصْرَ الْعِيْنِي طِبَائِعَ أَجْسَامِهِم

أما أقرامُ جزائرِ أُنْدَمَانَ فَأَوَّلُ كِتَابٍ عَلِيٍّ كُتِبَ فِي أَحْوَالِهِمْ وَصَحَّ فِيهِ مَا قَالَهُ الْعَرَبُ وَالْإِفْرَنْجُ كَانَ سَنَةَ ١٨٦٠ م ، فَذَكَرَ أَوْصَافًا لَهُمْ تُقَارِبُ أَوْصَافَ أَقْرَامِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَعَرِفَ مِنْهُ أَنَّ أَقْرَامَ أُنْدَمَانَ أَطْوَلُ قَلِيلًا وَأَقْلُ ذِكَاةً مِنَ الْإِفْرِيقِيْنَ . وَأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ مِنْ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ وَأَوْرَاقِهَا خِصَاصًا . وَلَمْ يَكُونُوا يَتَّخِذُونَ يَرْفُونَ الْفِلَاحَةَ وَلَا أَسْتِمَالَ جُلُودِ الْحَيَوَانِ وَلَا الْمَلَدَنَ ، وَيَسْتَمْلُونَ مَكَلَّتِهَا الْأَصْدَافَ وَالظُّرَّانَ . وَرُبَّمَا صَنَعُوا بَعْضَ الْآيَةِ مِنَ الطِّينِ الْمُجَفَّفِ فِي الشَّمْسِ أَوْ التَّشْوِيِّ قَلِيلًا ، وَبَعْضَ الْقَوَارِبِ مِنْ سَوَاقِ الْأَشْجَارِ الْمَنْقُورَةِ . وَيَسْتَمْلُونَ النَّارَ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرْفُونَ طَرِيقَةَ إِيرَانِهَا ؛ فَيَحَافِظُونَ عَلَيْهَا كِي لَا تَنْطَفِئَ . وَمَعِيشَتُهُمْ مِنْ صَيْدِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمِمَّا تُخْرِجُهُ جَزَائِرُهُمْ بِطَبِيعَتِهَا مِنَ الْبُقُولِ وَالْمُتَارِ

وَيَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ بَقَايَا أَهْلِ الْهِنْدِ الْجَنُوبِيَّةِ ، أَجْلَامُ عَنْهَا الْأَجْنَامُ الْقَوِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ

(١) الْعَشِيرُ فِي قَوْلِهِ لِلصَّبَاحِ أَنَّهُ : عَشْرُ الْعَشْرِ : أَيُ جُزْءٍ مِنْ مِائَةٍ ، وَأَنَّ الْمِشَارَ عَشْرُ الْعَشْرِ أَيُ جُزْءٍ مِنَ أَلْفٍ . وَعَلَيْهِ سَمَّيْنَا (الَّذِي يَدِينُ) عَشْرًا ، وَ(السُّنِّي) عَشِيرًا ، وَ(الْمَلِّي) مِشَارًا

نُبَذُ مَنْ أَخْبَرَ الْأَذْكِيَاءَ

فراسته ابهم طولونه

رُويَ في كتاب الأذكياء لأَبْنِ الْجَوْزِيِّ^(١) أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ^(٢) جَلَسَ يَوْمًا فِي مَتَرَزٍ لَهُ يَأْكُلُ، فَرَأَى سَائِلًا فِي تَوْبٍ خَلَقِ^(٣). فَوَضَعَ يَدَهُ فِي رَغِيفٍ وَدَجَاجَةٍ وَفَرَخٍ وَقَطَعَ لَحْمٍ وَقِطْمَةً فَنَوذَجَ^(٤)، وَأَمَرَ بَعْضَ الْعِلْمَانِ بِنَاوِلَتِهِ إِيَّاهُ. فَرَجَعَ الْعِلَامُ وَذَكَرَ أَنَّهُ مَا هَشَّ لَهُ. فَقَالَ ابْنُ طُولُونَ لِلْعِلَامِ: جِئْنِي بِهِ. فَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَسْتَنْطَقَهُ، فَأَحْسَنَ الْجَوَابَ، وَلَمْ يَضْطَرْبْ مِنْ هَيْئَتِهِ. فَقَالَ لَهُ: أَحْضِرْتَنِي الْكَتَبَ الَّتِي تَمَكَّ، وَأَصْدَقْتَنِي عَمَّنْ بَثَّ بِكَ؛ فَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّكَ صَاحِبُ خَيْرٍ (وَأَسْتَحْضِرَ السَّيِّئَاتِ) فَأَعْتَرَفَ لَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: هَذَا وَاقِعُ السِّحْرِ. فَقَالَ أَحْمَدُ: مَا هُوَ بِسِحْرٍ؛ وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ صَحِيحٌ؛ رَأَيْتُ سُوءَ حَالِ هَذَا، فَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ بِطَعَامٍ يَهْشُ إِلَى أَكْلِهِ الشَّبَّانُ؛ فَا هَشَّ لَهُ، وَلَا مَدَّ يَدَهُ، فَأَحْضَرْتُهُ، فَتَلَقَّانِي بِقُوَّةٍ جَائِشٍ. فَلَمَّا رَأَيْتُ رِثَاءَةَ حَالِهِ وَقُوَّةَ جَنَانِهِ^(٥) عَلِمْتُ أَنَّهُ صَاحِبُ خَيْرٍ

صدق التخرى

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ مَلِيكًَا كَانَتْ أَسْرَارُهُ تَظْهَرُ كَثِيرًا لِدَوْدِهِ، فَيُطْلَقُ تَدِيرُهُ عَلَى الدَّوْدِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنْهُ^(٦)، فَشَكَا إِلَى أَحَدِ نَصَحَائِهِ وَقَالَ لَهُ: إِنْ

(١) قَدِمْتُ تَرْجَمَتَهُ (٢) هُوَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَبَدَّ بِمُلْكِ مِصْرَ مِنْ
وَلَاةِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ سَنَةَ ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) (٣) بَالُ (٤) تَوَجُّعٌ مِنَ الْحَلَاوَةِ تَقْسِي
الْآنَ بِالْمَايَةِ (الْبُلْبُلَةِ) (٥) قَلْبُهُ (٦) أَثَرُهُ فِيهِ

جَمَاعَةٌ يَطْلُبُونَ عَلَى أَسْرَارٍ لِي لَا بُدَّ مِنْ إِظْهَارِهَا لَهُمْ ، وَلَسْتُ أُحْدِثُ أَثِمَهُمْ
يُظْهِرُهَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَفْلَحَ الْبَرِيءُ مِنْهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّ الْخَائِنُ . فَكَتَبَ النَّصِيحُ
أَخْبَارًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَلِكِ ، وَجَعَلَهَا كَذِبًا كَاثِرًا . وَقَالَ لِلْمَلِكِ : أَخْبِرْ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ بِخَبْرٍ عَلَى حِلٍّ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ سَائِرُ أَصْحَابِهِ . وَأَمَرَ كُلَّ وَاحِدٍ يَسْتُرُ
مَا أَمَرْتُ إِلَيْهِ ، وَكَتَبْتُ عَلَى كُلِّ خَبْرٍ اسْمَ صَاحِبِهِ . فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ أَظْهَرَ
لِلْخَوْنَةِ مَا أَفْنَى إِلَيْهِمْ ، وَأُنْكَمَتِ أَخْبَارُ النَّاصِحِينَ . فَزَفَرَ الْمَلِكُ مَنْ
يُفْسِدُ مَرَّةً خَفِيرَةً

فردا الوطني

وَرَوَى أَيْضًا أَنَّهُ خَرَجَ عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ صَاحِبُ السِّندِ وَأَصْحَابُهُ يَسِيرُونَ فِي
بِلَادِ الْقُدُوسِ ، فَأَرَاوُ شَيْخًا وَمَعَهُ غُلَامٌ . وَقَدْ كَانَ الْقُدُوسُ نَزِيرَهُمْ ^(١) ، وَهَرَبَ .
فَقَالَ عُمَرُ لِلشَّيْخِ : يَا شَيْخُ ! ذُلْنَا عَلَى قَوْمِكَ وَأَنْتَ آمِنٌ . قَالَ : أَخَافُ إِنْ
كَفَلْتُكَ أَنْ يَسْعَى بِي هَذَا الْغُلَامُ إِلَى الْمَلِكِ ، فَيَقْتُلَنِي ؛ وَلَكِنْ هَذَا الْغُلَامُ
حَتَّى أَذْلِكَ . فَضَرَبَ عُنُقَ الْغُلَامِ . فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّمَا كَرِهْتُ إِنْ لَمْ أَخْبِرْكَ
أَنَا أَنِّي يَخْبِرُكَ الْغُلَامُ . فَالآنَ قَدْ أَمِنْتُ ، وَاللَّهِ لَوْ كَانُوا تَحْتَ قَدَمِي مَا رَفَعْتُمَا !
فَضَرَبَ عُنُقَهُ

عجوز قديم فاضل

وَرَوَى فِيهِ أَيْضًا أَنَّ أَبَا حَامِدٍ الْخُرَاسَانِي الْقَاضِي قَالَ : بَنَى ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ
الْمَهِاشِمِيُّ بِالْبَصْرَةِ دَارًا كَبِيرَةً ، وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ تَرْبِيعُهَا إِلَّا بِمَسْكَنٍ لَطِيفٍ كَانَ لِحُجُوزِ

(١) عليم بهم

فِي جِوَارِهِ أُمْتُتَ مِنْ يَتَمِّهِ . فَبَدَّلَ لَهَا أَضْغَافَ تَمَنِّهِ ، فَأَقْلَمْتُ عَلَى الْأُمْتَنَاعِ .
فَشَكَا إِلَيَّ ذَلِكَ . قُلْتُ هَذَا مِنْ أَيْسَرِ الْأَمْرِ ! أَنَا أُوجِبُ عَلَيْهَا يَتَمِّهِ ،
فَأُضْطَرُّهَا إِلَى أَنْ تَسْأَلَكَ وَزْنَ التَّمَنِّ . ثُمَّ لَسْتُ سَتِيحُهَا قُلْتُ : يَا هَذِهِ ! إِنْ قِيَمَةُ
دَارِكُ دُونَ مَا دَفَعَ لَكَ ، وَقَدْ ضَاعَفَهَا أَضْغَافًا . فَإِنْ لَمْ تَقْبَلِهِ حَبَرْتُ عَلَيْكَ ؛
لَأَنْ هَذَا تَضْيِيعٌ مِنْكَ . فَقَالَتْ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! فَهَلَّا كَانَ هَذَا الْحَبْرُ مِنْكَ
عَلَى مَنْ يَزْنُ فِيهَا يَسَاوِي دِرْهَمًا عَشْرَةً وَتَرَكْتَ مَنْزِلِي ! مَا أَخْتَارُ يَتَمِّهِ .
فَأَقْلَمْتُ^(١) فِي يَدِهَا .

مُعَاوِيَةُ وَأَتَمُّوهُ مَعَهُ أَدَمَ

وَقَالَ بَلَقْنَا أَنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى حَاجِبِ مُعَاوِيَةَ . فَقَالَ لَهُ : قُلْ لِي عَلَى الْبَابِ
أَخُوكَ لِأَيِّكَ وَأَمْلِكْ . فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : مَا أَعْرِفُ هَذَا ! ثُمَّ قَالَ : أَتُنْذِرُنِي لَهُ .
فَبَسَطْتُ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّ الْأَخَوَاتِ أَنْتِ ؟ فَقَالَ : ابْنُ آدَمَ وَحَوَاءَ . فَقَالَ : يَا غُلَامُ !
أَعْطِيهِ دِرْهَمًا ، فَقَالَ : تَعْطِي أَخَاكَ لِأَيِّكَ وَأَمْلِكْ دِرْهَمًا ؟ فَقَالَ : لَوْ أُعْطِيتُ
كُلَّ أَخٍ لِي مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ مَا بَلَغَ إِلَيْكَ هَذَا ؟

أَمْثَلَةٌ عَلَى أَلْسِنَةِ الْحَيَوَانِ

مَنْ يَرَى الرُّأْيَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ

(الْحَمَامَةُ وَالْعُطْبُ وَمَا لِكَ الْحَزِينِ)

زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُقْرِخُ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي الْعِمَاءِ ؛
فَكَانَتِ الْحَمَامَةُ تُشْرِعُ فِي قَلْبِ النَّخْلِ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ

(١). أَيَّ أَقْلَمْتُ مَجْتَمِعِي وَلَمْ اسْتَطِعْ مَجَادَلَتَهَا قُوَّةَ مَجْتَمِعِهَا

تَنْقُلُ مَا تَنْقُلُ مِنَ النَّشْرِ، وَجَمَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ الْآبِدِ شِدْقٌ وَتَبَّ وَشَقَقَ
لَطُولِ النَّظَلِ وَسُخْطِهَا. فَلَا فَرَعْتَ مِنَ النَّقْلِ بَاضَتْ، ثُمَّ حَضَنْتَ يَضُهَا
فَلَا فَعَسَتْ، وَأَدْرَكَ فِرَاحُهَا جَاءَهَا تَلْبُ قَدْ تَمَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهَا لَوْ قَدْ عَلِمَهُ
بَقَرُ مَا تَهَضُّ فِرَاحُهَا، فَيَقِفُ بِأَصْلِ النَّظَلِ، فَيَصْبِحُ بِهَا، وَتَوَعَّلَهَا أَنْ
يَرْتَقِيَ إِلَيْهَا، فَتَلْقَى إِلَيْهِ فِرَاحُهَا

فِينَاهِى ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ أَدْرَكَ لَهَا فَرَّخَانٌ إِذَا أَقْبَلَ مَالِكٌ^(١) الْحَزِينُ، فَوَقَعَ
عَلَى النَّظَلِ. فَلَمَّا رَأَى الْحَمَامَةَ كَثِيَّةَ حَزْنَةٍ شَدِيدَةِ الْهَمِّ، قَالَ لَهَا مَالِكُ
الْحَزِينُ: يَا حَمَامَةُ أُمِّى أَرَأَيْكَ كَلَسَفَةَ الْقَوْنِ سَبِيَّةَ الْحَالِ؟ فَقَالَتْ لَهُ: يَا مَالِكُ
الْحَزِينُ! إِنْ تَمَلَّكْتُ دُهِيتُ بِهِ: كُلَّمَا كَانَ لِي فَرَّخَانٌ جَانِبِي يُهْدِئُنِي، وَيَصْبِيحُ
فِي أَصْلِ النَّظَلِ، فَأَفْرُقُ^(٢) مِنْهُ فَأَطْرَحُهُ إِلَيْهِ فَرَّخِي. قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ:
إِذَا أَتَاكَ لِيَقْعَلَ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ: لَا أَتَى إِلَيْكَ فَرَّخِي! فَأَرْقُ إِلَى
وَعَرَّ بِنَفْسِكَ! فَإِذَا فَضَلَتْ ذَلِكَ، وَأَكَلْتَ فَرَّخِي طَرْتُ عَنْكَ،
وَيَمُوتُ بِنَفْسِي

فَلَمَّا عَلِمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ هَذِهِ الْحِيلَةَ، طَارَ فَوَقَعَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ. فَأَقْبَلَ
التَّلْبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ، فَوَقَفَ تَحْتَهَا، ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ.
فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلَّمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ. فَقَالَ لَهَا التَّلْبُ: أَخْبِرْنِي مَنْ عَلَّمَكَ

(١) مَالِكُ الْحَزِينِ مِنْ طَيْرِ الْمَاءِ طَوِيلِ الرَّجْلَيْنِ وَالْعُنُقِ وَالْمَقَارِ مَحْرُوطَةٍ. قِيلَ إِنَّهُ
«الْبَلَّشُون» قَالَ الْجَاهِظُ: مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا أَمْرُ مَالِكِ الْحَزِينِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ يَصْدُ
بِقُرْبِ الْمَاءِ وَمَوَاضِعَ نَبْعِهَا مِنَ الْأَنْهَارِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا نَشَفَتْ يَجُوزُ عَلَى ذَهَابِهَا وَيَبْقَى حَزْنَتُهَا
كَثِيكًا وَرَبَّمَا تَرَكَ الشَّرْبَ حَتَّى يَمُوتَ عَطَشًا خَوْفًا مِنْ زِيَادَةِ قَهْمِهَا بِشَرِّهِ لَهَا (٢) أَخْلَفَ
تَوَمَّةَ الْهَرَوِيِّ (١٥)

هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين. فوجه الثعلب حتى أتى مالكاً الحزين على شاطئ النهر، فوجده واقفاً. فقال له الثعلب: يا مالك الحزين! إذا أتتك الرياح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال عن شمالي. قال: فلذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن يميني أو خلفي، قال: فلذا أتتك الرياح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟ قال: أجعله تحت جناحي قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهدأ لك! قال: بلى! قال: فأرني كيف تصنع! فلم يرَ يا معشر الطير أقد فضلكم الله علينا: إن كنن تدبرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة، وتبلن ما لا تبلغ، وتلدغن ره وسكن تحت أجنيحتكن من البرد والريح، فهينتا لكن! فأرني كيف تصنع! فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه، فوثب عليه الثعلب مكانه، فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه. ثم قال يا عدو نفسي ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها وتسج عن ذلك لنفسك حتى يستمكن منك عدوك؟ ثم أجهز عليه وأكله.

من أنه العاقل يبلغ بالحيلة ما لا يبلغ بالقوة.

يحكى أن قبرة اتخذت أدحية^(١)، وباضت فيها على طريق الفيل. وكان للفيل مشرب يرتد إليه. فر ذات يوم على خلته ليرد موره، فوطى عن القبرة، وهشم يعضها، وقتل فرلحها. فلما نظرت ما ساءها علمت أن النبي نالها من الفيل لا من غيره. فطارت فوقت على رأسه باكية، ثم قالت: أيها الملك أليم هشم يعضي، وقتلت فرلحي، وأنا في جوارك؟

(١) الأدحية بيض الطائر في الرمل ونحوه

أَفَلَيْتَ هَذَا أَمْتَصْنَاراً مِنْكَ لَأَمْرِي وَأَحْتِقَاراً لِمَا نِي؟ قَالَ: هُوَ الَّذِي حَمَلْتَنِي عَلَى ذَلِكَ! فَزَكَّيْتُهُ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ، فَشَكَّتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ. فَقُلْنَ لَهَا: وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ؟ فَقَالَتْ لِلْمَعَايِقِ^(١) وَالزَّيْرَانِ: أُحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَعْرِضَ لِي إِلَيْهِ فَتَقْضَى عَيْنِي؛ فَإِنِّي أَحْتَاطُ لَهُ بِسَدِّ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى. فَأُجِبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَذَهَبَ إِلَى الْفِيلِ. وَلَمْ يَزَلْ يَنْقُرُنْ عَيْنَهُ حَتَّى ذَهَبَ بِهِمَا، وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إِلَّا مَا يَمُنُّ^(٢) مِنْ مَوْضِعِهِ. فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ صَفَادِعُ كَثِيرَةٌ، فَشَكَّتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ؛ قَالَتْ الصَّفَادِعُ: مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ؟ وَأَيْنَ يَبْلُغُ مِنْهُ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَعْرِضَ لِي إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَقْفُزَ فِيهَا وَتَضْحِكُنَّ؛ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ يَشْكُ فِي الْمَاءِ فِيهِوِي فِيهَا. فَأُجِبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَاجْتَمَعْنَ فِي الْوَاهِدَةِ. فَسَمِعَ الْفِيلُ تَقَبُّقَ الصَّفَادِعِ، وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ. فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي الْوَاهِدَةِ فَأَرْتَطَمَ^(٣) فِيهَا. وَجَاءَتْ الْقُبْرَةُ تُرْفَرُ عَلَى رَأْسِهِ. وَقَالَتْ: أَيُّهَا الطَّاغِي الْمَفْتَرُ بِقُوَّتِهِ! الْحَقُّ لَأَمْرِي! كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ حُجَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُشْتِكَ وَصِغَرِ هَيْئَتِكَ!

مثل منه يشعل بالمعقوبة قبل التأمل في الرتب

زَعَمُوا أَنَّ حَامَتَيْنِ ذَكَرَا وَأَتْنِ مَلَأَ عَشُّهُمَا مِنَ الْخِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ. قَالَ الذَّكَرُ لِلْأُنْثَى: إِنَّا إِذَا وَجَدَ فِي الصَّحَارَى مَا نَمِيشُ بِهِ فَلَسْنَا نَأْكُلُ بِنِهَا هَاهُنَا

(١) جمع عَمَقٍ وهو طير أبيض بسواد وياض (٢) يأكله قماً كأنه يَكْنُسُهُ

كُنَسًا (٣) وقع ولم يمكنه الخروج

شيئاً ، فلما جاء الشتاء ولم يكن في الصحارى شيء رجعنا الى ما في
فأكلناه . فرضيت الأثني بذلك ، وقالت له : نعمَ ما رأيت . وكان ذلك
ندياً حين وضعاه في عشيهما . فأطلق الذكرُ فغاب . فلما جاء الصيف
الصَّبُّ وأنضَمَ . فلما رجع الذكرُ رأى الصَّبَّ ناقصاً . فقال لها : أليس
أجمعنا رأيتا على ألا نأكلَ منه شيئاً فلم أكلته ؟ فجلت تخلف أنها ما
منه شيئاً ، وجلت تمتدُّ إليه ؛ فلم يُصدِّقها ، وجعل يتقرُّها حتى ماتت
جاءت الأمطارُ ودخل الشتاءُ تندى الصَّبُّ وأمتلأ الشُّ كما كان . فإِ
الذكرُ ذلك ندم . ثم اضطجع الى جانبِ رحمتِهِ وقال : ما ينفعني
والعيشُ بملكٍ اذا طلبتكَ فلم أجِدْ ولم أقدرُ عليك ، واذا فكرتُ في
وعليتُ أني قد ظلمتُك ، ولا أقدرُ على تداركِ ما قلت . ثم أستمَرَ على
فلم يَظعنْ طعاماً ولا شرباً حتى مات الى جانبها

حياة النبات

النبات مخلوقٌ حيٌّ يتنفسُ ويتغذى ويُرزق وتكثرُ وفئته ؛ فهو
كالحيوان ، وإن خالفه في الحسِّ الكامل وإرادة الحركة والانتقال
ممكن الى مكان

ولنبات كسائر الأحياء أعضاء يؤدِّي بها هذه الوظائف الضرورية
ذاته وقوة ؛ غير أن أعضاء النبات ثابِتٌ من وجوه عدَّة أمثالها في

(١) لحضرة الأستاذ محمد شوقي بكبير . بك مدرس علم حياة النبات

الزراعة العليا

كما يختلف بعضها عن بعض في النبات نفسه . وهذا الاختلاف نتيجة الحاجة والضرورة الى توزيع العمل ووظائف الحياة . فبعد أن كان الجسم النبتي كله خلية واحدة يمش في الماء تؤدي كل هذه الوظائف بذاتها ؛ كما هي الحال في بعض أنواع الطحلب ، اتضحت سنة الله في خلقه للعالم أطواراً أن تراكم طوائف من هذه الخلايا ، فتكون أجساماً مركبة تكثر حاجات الحياة فيها ، ونشأت اختلافات في أمثلها في الخلية الفردية ؛ فكان من الحكمة الإلهية أن توزع الأعمال على فرق الخلايا التي يتألف منها الجسم المركب ؛ بحيث تقوم كل فرقة منها بوظيفة خاصة من العمل : فاختص بعضها بوظيفة امتصاص مادة الغذاء الذاتية في الماء الذي يمش فيه النبات ، وبعضها بوظيفة التنفس ، وأخرى بوظيفة التكاثر . فكان هذا التوزيع والاختلاف في أوجه الاختصاص يتداول الأطوار وعلى تطاول الأعصار منحة إلى تبائن الأعضاء وتميز شكوها وهيئاتها في النبات الرقيق ، ليلائم كل منها حال العمل الذي أعد له . فصار يركب من جذر يختص بامتصاص الغذاء ، وأوراق تختص بالتنفس ، وأزهار تختص بالتكاثر ، وساق تحمل ما فوق الجنر فالجذر هو أرومة النبات وأصله الغائر في الأرض ، لتثديته فيها ولامتصاص الغذاء من أغوارها . وتنتهي الجنور بأطراف دقيقة صلبة تنضج سائلاً حامضاً يذيب دقائق للماين والأحجار ، فتتمزج برطوبة النبات ، وتصور غذاء صالحاً له . وهذه الخاصة الصحية تنقب أسته الجنور الدقيقة ما يترصها من كديد^(١) الأرض ، وتصور فيها باحثه عن غذائها ؛ ولذلك كانت رءوس الجنور في حالة تجدد وفناء دائمين

ولم يقف الإبداع في الجذور الى هذا الحد، بل تنوعت أنواعا شتى : فكانت ليفية متشعبة كما في القمح والذرة الشامية، وخشبية وتدية كما في القطن، ودرنية محورية وغير محورية كما في الجزر والفجل، وكان منها ما يمتص الغذاء من العناصر الأرضية التي يذوبها الماء كما كثر النبات الرائق، ومنها ما يستمد غذاءه من الماء وحده كالندس الملقى، وما يطول حتى يصير أطول من شجرته، وبخاصة جذور أعشاب الصحارى

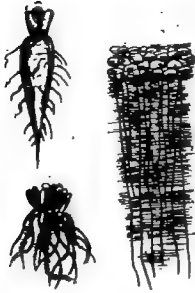
ولما كان بعض الأعضاء كالأوراق والأزهار والثمار في النبات الرائق كثير المد لم يكن في طاقة الجذر أن يقوم وحده بوظيفة حملها وتوزيع الغذاء عليها وتوجيهها الى جهات الضوء وهاب الرياح الضرورىين لحياة النبات جعل الله الساق كفيلا بكل ذلك، ونوعها على حسب الفطرة التي فطرها عليها: فكان منها السوق الخشبية العظيمة كسوق الأشجار المعمرة، ومنها السوق الفضة اللينة أو الرخوة كسوق العشب والبقول؛ ومنها الشماعية التي لا تستعمل بنفسها وتستند على أجسام أخرى كالكرم، ومنها ما تضطجع على الأرض كالبطيخ والقرع، وما تكون مدفونة في الأرض: إما على شكل درن نشوى كتفاح الأرض (البطاطس) والقلقاس، وأما على غير ذلك

وإذا تأملنا في سوق بعض الاشجار وأغصانها وجدنا عليها نواقي مغلفة بعضها في أباط الورق، وبعضها عند عقد القصبة، نسي البراعم، ويسمى الحرف بالأزرار والعيون. وما هي إلا جنين الفرع من الشجرة يخرج بساق ورق وشعر

ومتى قطعنا ساقا خشبية قطعاً مستعرضاً، رأيناها مكوّنة من عدة

طبقات : هي النحاء الظاهر ، فالخشب الكايب ، فالخشب الصادق ،
فالتشاع في الوسط : وتدُلُّ لغائف الخشب على عُنْوِ الشجرة .

وساق النخيل وفصيلته تُسمى بالساق .
وما نُسِمَ به بالأغصان هو فروع من الساق ،
ومن النبات ما لا ساق له ظاهرة ،
ويُسمى « نَجَمًا » ، وما له ساق ظاهرة
ويُسمى « شجرة » .



والأوراق هي أطراف مسطحة يتم
بها بعض وظائف النبات الضرورية لحياته
كالتمذية والتنفس ؛ فتكون بمثابة الرئتين
والمعدة في الحيوان ، ويتم وظيفة الجذور

جنود المس لائق جنود النخل والشمع

بثنية جرم النبات ؛ وذلك أن لها غشاء رقيقاً كالأدمة في جلد الإنسان ،
ذا مسام يمتص رطوبة الجو ليلاً ونهاراً ، ويمتدب من الهواء الحامض
الفحشي نهاراً ، وينفث فضوله ليلاً ، ويستنشق الدركي (الأكسجين)
ليلاً ، وينفثه نهاراً . ولذلك لا يحمّد التبيت في وسط البساتين والغابات ،
ويحمّد الترويح بينها في النهار

وللشمس في ذلك أثر بالغ ؛ فهي التي تمدُّ الأوراق بالمادة الملوّنة الخضراء
التي بدونها يذبل النبات ويموت

ولم يقل تنوع الورق عن غيره من أعضاء النبات ؛ فورقة التوز عريضة

طويلة كاملة، وورقة نخيل النثر (السفة) متشعبة خوصاً، وورقة الأثل
جولة سلوك وأهداب، وورقة القطن ذات فصوص خمسة، وغير ذلك من
الأشكال التي لا تحصى

والأزهار من أدق أعضاء النبات تركباً. ووظيفتها توليد البذر والنثر
والزهرة في الغالب مؤلفة من أربع طباق بمضها فوق بمض : الكيم
والنور والمثبر والمثبر

فلكيم — هو النلاف الأخضر الظاهر الذي يكون وقاية للزهرة
قبل فتحها

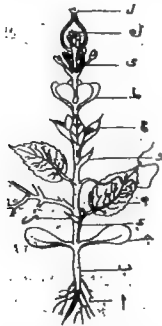
والتنور — هو الأوراق البدئية اللون التي تلي الكيم وتتبع منها غالباً
روائح خاصة، ووظيفتها إغراء الحشرات من النحل والذباب والفراس بالحط عليها
لتهب ألوانها وذكر رائحتها، وما يكون أسفلها أحياناً من الرطوبات المسيلة
والمثبر — هو خيوط دقيقة تنتهي برؤوس تسمى « المتك » ينشر
منها غبار القاح

والمثبر — هو عود يقوم على قاعدة هي « التبيغ »، ويحمل هذا العود
رأساً لزجاً يلتصق به ما يتناثر من غبار القاح. ومن المبيض تنشا الثمرة والبذرة
والتالي أن يكون المثبر والمثبر في زهرة واحدة، وقد يكون كل
منهما في زهرة مستقلة من أزهار الشجرة الواحدة، وقد يكون المثبر في
شجرة والمثبر في أخرى، فتسمى الأولى مذكرة والأخرى مؤنثة كما في
أشجار النخيل. وللرياح والحشرات عمل عظيم في نشر القاح، وخاصة لقاح
الأشجار التي تجمع المثبر والمثبر. أما النخيل فإذا كثرت المذكرة منها بين

الموتنة كانت الرياح والحشرات كفيلاً بنقل اللقاح، وإلا وجب التلقيح الصناعي. ينقل طلع المئبر إلى المتأثر. وإذا تم التلقيح تذبُّل الزهرة، ويخرج كثير من غذاء النبات إلى المبيض فينمو، وتتكون منه الثمرة والبذرة.

والثمار هي في الحقيقة البذور التي يتوَلَّد بها النبات ويتكاثر. وهذه البذور منها ما يكتسى بثلاف ليجني غليظ كالشفايح والكُمثرى والنارنج الطو (البرقالى) والموز، أو متوسط كالبلح والنب، أو ليفى رقيق كما فى القمح والذرة.

ويشارك الإنسان وغيره من الحيوان فى الاتِّفَاع بهذه الثمار؛ فبأكل لبها، كالبنْدُق والأوز والجوز وسائر الجيوب، أو غشائها اللحمي الحلو كما كثر



الفواكه؛ وتتكون البذرة مجتمعة أو ذات فلقين

وتحتوى على الجنين الباقي الذى ينبت فى

الأرض بعد أن تتم مدة حضانته، فيخرج

نباتاً من نوعه الأول

والضوء والماء والحرارة اللائمة والهواء المطلق

من أهم أركان حياة النبات؛ وقد يصبح السَّما

ركناً هاماً إذا قَدَّمت الأرض بعض العناصر

التي تكون جرم النبات

شجيرة خيالة لاجتماع الأجزاء النباتية
(أ) شعبة جذرية (ب) جنو
(ج) ثمار بذرة (د) ساق (هـ) ورقة
(و) صلوغ (ز) جذم (ح) كرم
(ط) نور (ق) شجر (ك) متأثر
(ل) نعيم المتأثر

وبعض أنواع النبات شئ من الحس

والإرادة لا يصلان به إلى حد الحيوان؛ فلا

تُرَالُ نَشَاهِدُ فَصَائِلَ مِنَ النَّبَاتِ قُوَّتِي وَجَهَهَا شَطْرُ الضُّوْءِ وَالشَّمْعِ حَيْثُ
كَانَا ! كَأَنَّ لَهَا عِيُونًا لَا تُحِبُّ الظُّلْمَةَ ، كَالنُّبَارِزِيِّ وَعِبَادِ الشَّمْسِ ؛ وَفَصَائِلُ
أُخْرَى تُنْحَضُ جَفُونَهَا إِذَا خَيَّمَ اللَّيْلُ ، أَوْ أَشَدَّ الْبَرْدُ كَأَنَّمَا تَنْتَعِمُ بِلَذَّةِ
الْكُرَى ؛ فَإِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ تَنْبَهَتْ مِنْ غَفْلَتِهَا ، وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ رَقَدَتِهَا ،
لِتُبْهِجَ بِرُوحِهَا ، وَتَدْفَأَ بِأَشْمَتِهَا ، كَالنَّيْلُوفَرِ ؛ وَزَى بَعْضَ الْفَصَائِلِ يَنْكَبِشُ
مِنَ الْمَسِّ ، فَيَطْوِي أَوْرَاقَهُ بِأَسْرَعٍ مِمَّا تَدْخُلُ الصَّلَازِينَ قُرُونَهَا فِي مَحَارِهَا .
وَيُشَاهَدُ فِي النَّبَاتِ الْمُنْسَلِقِ أَنَّهُ يُحَرِّكُ عَصَاجِيهَ تَحْرِيكًا غَرِيبًا ؛ حَتَّى لَتَحْصِبُهُ
يُرْتَادُّ ، وَنَصِيمًا يُحِطُّ عَلَيْهِ . وَمِنَ النَّبَاتِ مَا إِذَا وَقَعَتْ عَلَى أَوْرَاقِهِ حَبْرَةٌ أُطْبِقَهَا
عَلَيْهَا ؛ فَلَا تَنْفَتَحُ حَتَّى يَمْتَصَّ رَطوبَتَهَا غَنَاءً لَهُ ، فَهُوَ يُشَبَّهُ فِي ذَلِكَ الْحَيَوَانَ
الْقَوِيَّ ، يُظْفَرُ بِالضَّعِيفِ ، فَيَمْدُو عَلَيْهِ وَيَهْتَرِمُهُ

الجُنْدِيُّ الْأَمِينُ

حكى أبو بكر الطَّوْشِيُّ^(١) فِي كِتَابِهِ « سِرَاجُ الْمُلُوكِ » قَالَ : أَخْبَرَنِي
أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي^(٢) عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْهَرَوِيِّ قَالَ : كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي

(١) هُوَ الْحَقِيْقَةُ الْوَرَعُ الْمُحَدِّثُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَهْلِ طَرُوشَةِ
وَكُنْتُ مَدِينَةَ عَظِيمَةً بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ رَحَلَ
إِلَى الْمَشْرِقِ وَدَخَلَ الْعِرَاقَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ ثُمَّ أَقَامَ بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ وَنَشَرَ الْعِلْمَ بَيْنَ أَهْلِهَا
وَمَاتَ بِهَا سَنَةَ ٥٢٠ هـ وَقُبِرَ بِهَا مَشْهُورٌ يَزَارُ

(٢) الْحَقِيْقَةُ الْمُحَدِّثُ أَبُو الْوَلِيدِ سَلْبَانُ بْنُ خُفَّيْنٍ مِنْ أَهْلِ بَاجَةَ مِنْ مَدِينَةِ الْأَنْدَلُسِ دَخَلَ
الْمَشْرِقَ وَتَقَرَّرَ أَبَادَرُ بْنُ أَحْمَدَ الْهَرَوِيُّ الْمُحَدِّثُ بِمَكَّةَ وَأَقَامَ مَعَهُ بِهَا نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ
وَمَاتَ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ٤٧٤ هـ

حَفْصِ عَمْرِ بْنِ شَاهِينَ يَتَذَكَّرُ جُزْءًا مِنَ الْحَدِيثِ فِي حُلُوتِ رَجُلٍ عَطَّارٍ .
 فِينَمَا أَنَا جَالِسٌ مَعَهُ فِي الْحَاوِثِ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الطَّوَّافِينَ وَمَنْ يَبِيعُ الْعِطْرَ
 فِي طَبَقٍ يَحْمِلُهُ عَلَى يَدِهِ . فَنَفَعَ إِلَيْهِ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ ، وَقَالَ لَهُ : أَعْطِنِي بِهَا أَشْيَاءَ
 مِمَّا هَا هِيَ مِنَ الْعِطْرِ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا . فَأَخَذَهَا فِي طَبَقِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَمِصَّ ،
 فَسَقَطَ الطَّبَقُ مِنْ يَدِهِ فَكَبَّ جَمِيعُ مَا فِيهِ . فَكَى الطَّوَّافُ وَجَزِعَ ؛ حَتَّى
 رَحِمَاهُ . فَقَالَ أَبُو حَفْصٍ لِمَا سَبَّاحِ الْحَاوِثِ : لَمْ تَكُنْ تُسَبِّحُهُ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءِ . فَقَالَ : مِمَّا وَطَاعَةٌ ! فَزَلَّ وَجَعَ لَهُ مَا قَدَّرَ عَلَى جَمْعِهَا مِنْهَا ، وَدَفَعَ لَهُ
 مَا عَدِمَ مِنْهَا . وَأَقْبَلَ الشَّيْخُ عَلَى الطَّوَّافِ بِصَبْرِهِ ، وَقَوْلِهِ لَهُ : لَا تَجْزَعْ ؛
 فَأَمَرُ الدُّنْيَا أَيْمَرُ مِنْ ذَلِكَ . فَقَالَ الطَّوَّافُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ لِمَنْ جَزَعِي لِضَيْاعِ
 مَا صَاعٍ ؛ لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنِّي كُنْتُ فِي التَّافَةِ الْفُلَانِيَّةِ ، فَضَاعَ لِي هَيْئَانِ
 فِيهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ دِينَارٍ ، وَمِمَّا فُصِّصَ قِيمَتُهَا كَذَلِكَ ، فَاجْزَعْتُ لِضَيْاعِهَا
 إِذْ كَانَ لِي غَيْرُهَا مِنَ الْمَالِ ، وَلَكِنْ وَلَدَلِي وَلَدٌ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَاحْتَاجْتُ
 أُمَّهُ إِلَى مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّفْسَاءُ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي غَيْرُ هَذِهِ الْعَشْرَةِ الدَّرَاهِمِ
 نَفْسِيَّتُ أَنْ أَشْتَرِيَ بِهَا حَاجَةَ النَّفْسَاءِ ، فَأَبَقِيَ بِلَا رَأْسِ مَالٍ ، وَأَنَا قَدْ صِرْتُ
 شَيْخًا كَبِيرًا لَا أَقْدِرُ عَلَى التَّكْسِبِ . فَهَلْتُ فِي نَفْسِي أَشْتَرِيَ بِهَا شَيْئًا مِنْ
 الْعِطْرِ ، فَأَطْلُوفُ بِهِ صَدْرُ التَّهَارِ ؛ فَمَسَى أَنْ أُسْتَفْضَلَ شَيْئًا أَسُدُّ بِهِ رَمَقَ
 أَهْلِي ، وَيَبْقَى رَأْسُ الْمَالِ أَنْ تَكْسَبُ بِهِ ، وَأَشْتَرَيْتُ هَذَا الْعِطْرَ ، فَخِنَ كُبُّ الطَّبَقِ
 عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا الْفِرَارُ مِنْهُمْ . فَهَذَا الَّذِي أَوْجِبَ جَزَعِي
 قَالَ أَبُو حَفْصٍ : وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْجُنْدِ جَالِمًا إِلَى جَانِبِي يَسْتَوْعِبُ الْحَدِيثَ .
 فَقَالَ لِلشَّيْخِ أَبِي حَفْصٍ : يَا سَيِّدِي ! أَرِيدُ أَنْ تَأْتِيَ بِهِذَا الرَّجُلَ إِلَى مَنْزِلِي .

فظننا أنه يريد أن يُعطيه شيئاً. قال فدخلنا إلى منزله ، فأقبل على الطواف وقال له : عجبتُ من جَزَعِكَ ! فأخاطبُ عليه القصة . فقال له الجُنْدِيُّ : وكنتُ في تلك التافلة ؟ قال : نعم ! وكان فيها فلانٌ وفلان . فعلمَ الجُنْدِيُّ صِحَّةَ قَوْلِهِ فقال : وما علامةُ الهَيَّيَانِ ؟ وفي أيِّ وَضْعٍ سَقَطَ مِنْكَ ؟ فوصفَ له المكانَ والعلامةَ . قال الجُنْدِيُّ : إذا رأيتهُ تمرِّفه ؟ قال : نعم ! فأخرجَ الجُنْدِيُّ له هَيَّيَانًا ، ووضعهُ بين يديه . فحينَ رآه صاحَ ، وقال : هذا هَيَّيَانِي واقعُ ! وعلامةُ صحبةِ قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت . ففتحَ الجُنْدِيُّ الهَيَّيَانَ ، فوجدَهُ كما ذكرَ . فقال : خذْ ما لك بَارِكُ اللهُ لك فيه ! فقال الطوافُ : إن هذه الفصوصَ قيمتها مثلُ الدنانيرِ وأكثرُ . فحُفَّها ، وأتتْ في جِلِّ منها ، ونَسَى طَيِّبَةً بِنُفْكَ . فقال الجُنْدِيُّ : ما كنتُ لأخذَ على أمانتي مَالًا . وأبَى أن يأخذَ شيئاً . ثمَّ دفعها للطوافِ جميعها ، فأخذها ومضى . ودخلَ الطوافُ وهو من الفقراء ، وخرجَ وهو من الأغنياء .

القِرْكَة

الْقِرْكُ وَهُوَ كُنَى أَبُو خَالِدٍ حَيَوَانٌ قَبِيحٌ مَلِيحٌ ذَكَى مُحَاكٍ قَابِلٌ لِلتَّأْدِيبِ وهو أشبهُ بِالْإِنْسَانِ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ ؛ فَيُضْحَكُ ، وَيُطْرَبُ ، وَيَتَنَاوَلُ يَدَيْهِ ، وَلَهُ خَمْسُ أَصَابِعٍ ذَاتُ أَظْفَافٍ عَرِضَةٌ مُشَابِلٌ إِبَاهِمَاهَا أَرْتَمَاهَا ؛ وَيَقْبَلُ التَّقْيِينَ وَالتَّعْلِيمَ ؛ وَيَأْتِسُ بِالنَّاسِ ؛ وَنَسَى عَلَى أَرْبَعِ

مَشِيَّهَ المَعَادِ، وَيَسْعَى عَلَى رِجْلَيْهِ حِينًا بَسِيرًا، وَلَيَحْنُ عَيْنُهُ الْأَسْفَلَ أَهْدَابًا،
وَيَفْرَقُ فِي الْمَاءِ كَالْأَدْنَى الَّذِي لَا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ
وَمَوْطِنُ الْقِرْدَةِ الْأَعْلَى الْحَارَّةُ مِنْ كُلِّ الْقَارَاتِ إِلَّا أَسْتَرَالِيَا. وَيَقَالُ إِنْ
فِي جَبَلٍ طَارِقٍ بِأَوْرَبَةِ قَطِيعٍ مِنْهُ

وَلِلْقِرْدَةِ نِظَامٌ فِي مَمِيشَتِهَا: فَيَخْضَعُ ضَعِيفُهَا لِقُوَّتِهَا، وَبَسُودُ الْجَمِيعِ
أَشَدُّهَا قُوَّةً، وَأَوْتَمُّهَا خَلْقًا، وَأَحَدُهَا ظُفْرًا وَنَابًا، وَلَيْسَتْ سِيَادَتُهُ فِيهَا مَقْصُورَةً
عَلَى قَهْرِهَا إِلَيْهَا، بَلْ يَدْفَعُهَا أَيْضًا عَنْهَا وَأَسْمَاتُهَا فِي مَنَعِ حَامِهَا وَحُسْنِ قِيَادَتِهَا
لَهَا؛ وَلِذَلِكَ يُخْضَعُ لَهُ ذِكْرَانُ الْقَطِيعِ، وَتَخْدُمُهُ إِنَانُهُ بِتَغْلِيَةِ شَعْرِهِ وَحَكِّ ظَهْرِهِ
وَأَنْتَى الْقُرُودِ تَحْمِلُ مِنْ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ إِلَى تِسْعَةٍ. وَلِذَا وَاحِدًا يُسَمَّى
«قَيْشَةً». وَقَلَمًا تَلِدُ اثْنَيْنِ. وَلِذَا أَمْلَطُ قَيْشِ الْمَنْظَرِ جَدًّا، وَلَكِنَّ الْقِرْدَ فِي عَيْنِ
أُمِّهِ غَزَالٌ، فَخَضَعَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَتَدَاعَبَهُ، وَتَهَمُّ جَدَّ الْأَهْتَامِ بِتَنْظِيفِ بَدَنِهِ مِنْ
الْأَذَى. وَهِيَ أَحْرَصُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْبَاتِ النَّسْلِ. وَيَكُونُ الْوَلَدُ
فِي صَفَرِهِ حَاجِزًا قَلِيلَ الْحَرَكَةِ وَالشُّمُورِ. ثُمَّ تَشْتَدُّ أَعْصَابُهُ وَيَصِيرُ يُحِبُّ
اللَّعِبَ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ صِغَارِ الْقُرُودِ؛ فَتَطْلُسُ أُمُّهُ حِيَالَهُ تَحْرُسُهُ لِيَلَّا يُصِيبَهُ
أَذَى. وَإِذَا مَرِضَ سَهَرَتْ عَلَيْهِ أَكْثَرًا مِمَّا تَسْهَرُ الْأُمُّ الرُّومُ مِنَ النَّسْلِ عَلَى
طِفْلِهَا، وَإِذَا مَاتَ قَوْمٌ يُحَاطَبُ جَسَدُهُ، وَتَنْقَطِعُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَرَبَّمَا
مَاتَ حُرْنَا عَلَيْهِ وَكَمَدَا

وَتَنَامُ الْقُرُودُ قَبْلَ ظِلَامِ اللَّيْلِ، وَتَسْتَقِظُ بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، فَخَصَمَدُ
إِلَى رُؤُوسِ الصُّخُورِ وَالْأَشْجَارِ تَتَمَرَّقُ^(١) حَتَّى يَجِفَّ النَّدى عَنْهَا. ثُمَّ قُلَى

جلودها وتُنظَفُ أبدانها، ثم تَقْدُو في طلب غِذائِها، فلا تَفِثُ عن شيء
يُؤْكَلُ من أنواع الثمار والجذور والحبوب والأوراق والطيور والحشرات.
وأموال الناس مُباحة في مذهبها؛ فَنَسْتَحِلُّ سُرَّةَ الحُقُولِ والكُروم والبساتين
ولا يَصْنَعُها عنها سُورٌ ولا سِيَّاجٌ. وإذا بَنَتْها^(١) أَحَدٌ، وهي تَهْبُ أُمُوالُ
الناس نَكَمَتِ^(٢) على أعقابها، ولاذَتْ بالفرار. فلذا رَأَتْ أبوابَ النِجَاقِ
مفتوحةً فذاك؛ والأثارتُ في وجه طالبها مُتَعَمِّدَةٌ الدَّفْعَ عن نفسها، ولو
كَلَنَ الطالبُ إنساناً أو فيلاً. ودفاعها مَرَكِبُها الجَبَانُ إذا شَارَفَ الخطَرَ
وقلما تَوَثَّرَ القِرْدَةُ المَثَى على الأرض ما أَمَكْنَهَا الوُثْبُ عَلَى الأشجار.
ولقد تَكَاثَرَتْ الأشجارُ في الغابات التي تُقِيمُ فيها نَكَامَةً تستطيعُ منه أن تَقَطَعَ
عليها المراحلَ الكثيرة، إلا أن يَمْرَضَها جَدُولٌ أو سَيْبِلٌ ماء، فلذا تَعْدِلُ إذا،
وليس لها حِفْظٌ من السباحة؛ إنها تَجْتَمِعُ كأنها تَشَاوَرُ، ودلو بينها الضَّرَاحُ،
ثم تَحْتَرِ مَوْضِعاً مِنَ المَسِيلِ بِشَلْطِيهِ شَجَرَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ؛ فَيَمْسُكُ أَحَدُهَا
بشجرةٍ منها، وَيَمْسِكُ آخَرُهَا، وَيَمْسِكُ ثَالِثُ هَذَا، وَهَكَذَا؛ حَتَّى تَكُونَ
منها سِلْسِلَةٌ تَهْتَزُّ وَتَرْجَحُ كَأَرْجُوحةِ الوَالِي؛ حَتَّى يَصِلَ طَرَفُهَا فِي عُلُوِّهِ إِلَى
الشجرةِ الأُخْرَى، فَيَمْسِكُ الأَخِيرُهَا، فَتَكُونُ مِنْ ذَلِكَ قَنْطَرَةٌ عَجِيَّةٌ
تَجُوزُهَا البَقِيَّةُ. وإذا كَانَتِ القِرْدَةُ مَرُوفَةً بِشِدَّةٍ مِلَّهَا إِلَى البَيْتِ والمُدَاعِبَةِ
فَقَلَّمَا يَمِيدُ أَهْلُ القَنْطَرَةِ إِلَى السُّكُونِ وَقَدْ جَوَّازَ غَيْرَهَا مِنْ قَرَفِهَا؛ فَلَا
هَتَأَ تَحْمِشُهَا بِأَظْافِيرِهَا، وَتَمَضُّهَا بِأَسْنَانِهَا وَتَجْنِبُ أَذْنَابَهَا رَغْمَ مَا هِيَ فِيهِ
مِنَ الخطَرِ المُحْدِقِ، غَيْرَ أَنَّ القِرْدَةَ كُلَّهَا تَجْتَازُ النَهْرَ سَالِمَةً. ثُمَّ تَتَنَاقَشُ
القَنْطَرَةُ إِلَى الصُّفَّةِ الأُخْرَى

وطوائف القروء كثيرة؛ ولكنها تُقسَّمُ صِنْفَيْنِ كَبِيرَيْنِ : هما قروءُ العالمِ القديم، أى قروءُ آسيا وإفريقية وأوربة؛ وقروءُ العالم الجديد، أى أمريكا الشمالية والجنوبية . والقسم الثاني منهما يُقسَّمُ طائفتين : وهما القروءُ أشباهُ



قطرة القردة

السنجاب والشمالب ، والقروءُ للمتعاوية . وكلُّ هذه وطنها أواسطُ أمريكا من بلاد المكسيك الى بلاد البرازيل . والسِّنْجَابِيَّةُ منها حقيرةٌ فى شكلها وحركاتها ؛ فلا تكادُ تماثلُ السِّنْجَابَ خِفَّةً ولا تمشى إلا على الأربع . والمتعاويةُ أرقى منها كثيراً ، وذنبها طويل قوى جداً يلتصقُ بالأغصان ؛ فعلى

تتمدُّ عليه أكثر مما تتمدُّ على أيِّ شيء. وتتنازُّ بأنها لأسباب مختلفة تتماوى
فصلاً الوادى صراخاً



بعض أنواع القرد

وقرود العالم القديم قسمٌ طائفتين أيضاً: أشباه الكلاب، وأشباه الإنسان
فالأولى لها خُطْمٌ ^(١) طويلٌ وأسنانٌ كأَسنان ذوات الأربع وأذنانٌ كأذنان
الكلاب أو هي أطول. وهي أكثرُ القرود وجوداً. ويسكنُ السودانَ للمصرى
منها كثيرٌ. وهي مستكلمةٌ مزايا القرد؛ فإن لكلَّ قطيعٍ منها قائداً ذكراً

(١) الخُطْمُ في العوَابِ مقدمُ الأنفِ والعِظَمِ

يَدْرُ أُمُورَهَا، وَيُعَيِّنُ أَعْمَالَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَهِيَ تَنْظُرُ فِي أَنْفُسِهَا التَّرَفُّعَ
عَنْ كُلِّ أَنْوَاعِ السَّجَّاءِ حَتَّى عَلَى الْكَلَابِ، مَعَ أَنَّ الْكَلَابَ لَيْسَتْ دُونَهَا
فَهْمًا وَذِكَاةً. وَلِشَبَاهَةِ يَدَيْهَا لِيَدَيِ الْإِنْسَانِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْكُلَ بِالسَّكِينِ
وَالشُّوْكَ، وَتَصُبَّ الْمَاءَ فِي الْكُؤُبِ، وَتَشْرَبَ مِنْهُ؛ وَتَلْبَسَ الثِّيَابَ وَتَرْكَبَ
الْخَيْلَ، وَتَسْلُمَ الْحَرَكَاتِ الْمَسْكُورَةَ، وَتَحْدُمَ أَسْيَادَهَا كَمَا يَحْدُمُهُمُ الْإِنْسَانُ
وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقَدَمَاءَ عَرَفُوا ذَلِكَ وَأَسْتَخْدَمُوا الْقُرُودَ لِنَافِعَاتٍ كَثِيرَةٍ.
قَالَ الدِّمِيرِيُّ فِي كِتَابِهِ «حَيَاةَ الْهَيَوَانِ»: إِنَّ مَلِكَ الثَّوْنَةِ أَهْدَى إِلَى الْخَلِيفَةِ
الْمُتَوَكِّلِ قُرْدًا أَخِيَّاطًا وَآخَرَ صَائِنًا. وَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ يُعْلِمُونَ الْقُرْدَ
الْقِيَامَ بِمَوَاقِفِهِمْ؛ حَتَّى إِنَّ الْقَصَّابَ وَالْبَدَّالَ يُعْلِمُ الْقُرْدَ حِفْظَ الدُّكَّانِ حَتَّى
يَعُودَ. وَذَكَرَ أَنَّ قُرْدًا لِيَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ دُرْبَ عَلَى زُكُوبِ الْحَمِيرِ، فَكَرِبَ
أَتَانَا وَسَابَقَ بِهَا الْخَيْلُ؛ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ:

فَمَنْ مَبْلُغُ الْقُرْدِ الْقِي سَمِعَتْ بِهِ جَوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَانُ
تَمَلَّقُ أَبَا قَيْسٍ بِهَا إِنْ رَكِبَتْهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا إِنْ هَلَكْتَ صَمَانُ
وَالثَّانِيَةُ تُشَبِّهُ الْإِنْسَانَ فِي عِظَمِ الْجِسْمِ وَمَوَاضِعِ غَزَاةِ الشَّعْرِ وَجُمْلَةِ
أَعْضَاءِ الرَّأْسِ

وَمِمَّا زَادَتْ نَبَاهَةُ الْقُرُودِ الشَّيْبَةِ بِالْكَلابِ لَا تَبْلُغُ نَبَاهَةَ الْقُرُودِ الشَّيْبَةِ
بِالنَّاسِ الَّتِي مِنْهَا: الْإِنْسَانُ الْوَحْشُ (الشَّيْبَتِيُّ)، وَالْعَرِيسُ^(١) (الْفُورَلَا)،

(١) الْعَرِيسُ الْجَبَّارُ الْعَظِيمُ الْجِسْمِ الْفَضْبَانِ وَالْعَوْلُ الَّذِي كَرَّ بِهِ سَمِيْنَا هَذَا
الْوَحْشَ لَا تَطْبِاقُ أَكْثَرَ الْوَصْفِ عَلَيْهِ وَلَئِنْ الْعَرَبُ تَصَفَّ الْعَوْلَ فِي أَشْوَارِهَا بِمَا
يُقَارِبُ وَصْفَهُ

وإنسان الثناب (الأورانغ أو تانغ) وغيرها؛ فلهذه القردة إذا رآها الإنسان اضطرب أن ياملها لا كما يامل الحيوان الأعجم بل كما يامل الإنسان الناطق فأما القردان الأولان فلهما أسود أو أغير، ويعيشان في السودان الغربي من إفريقية، وهما من فصيلة واحدة، غير أن العريس أصغر آذاناً وأضخم جثة وأشر من خلقاً وأمد من التأديب غاية.

ولإنسان الوحش أصوات مقطعية يدل بها على أغراضه؛ حتى إن الأولاد الذين يربون معه يستطيعون أن يفهموا مراده حالاً. وهو يخضع



إنسان الوحش (الشمبزي)



العريس (الغورلا)

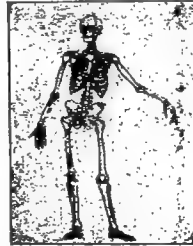
للإنسان، ويظهر منه أنه يشر بسلادته عليه وأرتقائه عنه. ولا يجره بهذه السيادة لأحد غير الإنسان،

بل يعد نفسه أرفع من كل الحيوان ولا سيما بقية طوائف القردة. ويحب اللعب مع الأطفال وتمشيط الآلات والأدوات. وإذا فهم طريقة تحريكها وطرق استعمالها طرب طرباً عظيماً كأنه كشف سرّاً خفياً. وهو ظريف لطيف، لكن الريغة تراه تارة جذلاً طرباً وتارة حزناً كثيراً، وقلماً يتقلب

الْأَعْلَى هَاتَيْنِ الْحَاتَيْنِ وَيَنْدُرُ أَنْ يُشَاهَدَ عَلَى تَوْسِطِ يَنْهَمَا
وَأَمَّا صِنْفُ إِنْسَانٍ الْغَابِ فَإِنَّهُ أَكَلَفُ الْقَوْنِ وَأَكْثَرُ بُعْدًا مِنْ إِنْسَانِ
الْوَحْشِ فِي مِثَابَهَةِ الْجَنْسِ الْبَشَرِيِّ مِنْ حَيْثُ الْهَيْكَلُ الْعَظْمِيُّ وَالنَّطْقُ،
وَيَعْبِشُ عَلَى أَشْجَارٍ غَابَاتٍ سَوْمَطْرَةٍ وَبُرْنِيوِ
وَكَلَا الصَّنَفَيْنِ شَيْهَانِ بِالْإِنْسَانِ فِي الْوُقُوفِ أحيانًا عَلَى الْقَدَمَيْنِ وَالِاسْتِمَانَةِ
بِالْهَرَاوِي وَالْحِجَارَةِ، وَأَعْضَاءُ الْمَضْمِ، وَمَوْضِعُ غَزَاةِ الشَّعْرِ
وَيَعْمَدَانِ عَنْهُ بِكَثَافَةِ شَعْرِ الْجِلْدِ حَتَّى يَصِيرَ فَرْقَةٌ، وَقَصِيرَ قَبَارِ الْعُنُقِ،
وَقَلَّةِ عَدِيدِهَا، وَضَخَامَتِهَا، وَضِيقِ زَاوِيَةِ الْوُجْهِ الْآتِي مِنْ صِغَرِ الدِّمَاغِ وَجُمُوعَتِهِ،
وَطُولِ السَّاعِدَيْنِ، وَرَبَالَةِ ^(١) الْبَطْنِ، وَقَصَصِ ^(٢) الصَّدْرِ، وَأَنْدِغَامِ الْخَالَصِرَتَيْنِ



هَيْكَلُ عَرِيضِ



هَيْكَلُ إِنْسَانٍ

وَعَرَضِ الْأَعْغَازِ، وَدِقَّةِ عَظْمِهَا وَعَظْمِهَا، وَدِقَّةِ عَظْمِ الرُّكْبَةِ، وَمِثَابَهَةِ
تَكْوِينِ الرَّجْلِ لِتَكْوِينِ الْيَدِ، وَأَنَّ إِيهَاتِمَا تَطَوَّلُوا وَتَحَابَلُوا الْأَصَابِعُ كُلُّهَا،
وَأَنَّ سُلَامِيَّاتَهَا ^(٣) تَطَوَّلَتْ وَتَنَحْنَى إِلَى أَسْفَلٍ: مِمَّا يُعِيدُهَا لِنَسَلِقِ الْأَشْجَارَ
(١) كِبَرُهُ (٢) خُرُوجُهُ إِلَى الْأَتَامِ وَتَحَدُّهُ (٣) جَمْعُ سُلَامِيٍّ وَهِيَ عُنْدُ الْأَصَابِعِ

مدينة القسطنطين

(بصر النينة)

هي إحدى الحواضر العظيمة التي بنتها العرب عند فتحها ممالك الفرس والروم لتكون ممكلاً لجنودها، ووطناً جديداً للمهاجرين من قبائلها يجمع كلهم ويؤخر أئديهم في الامم المغلوبة لهم . وهي ثالث الحواضر التي أنشئوها لهذا القصد ، أولاها البصرة ، وثانيها الكوفة

وقد وثق العرب في أوليات المكن التي أنشئوها لن تكون على أهراق من الرزق وأتصال بالصحراء ، وإن قلها بمض مزاي الحصانة الحربية والمرافق التجارية ؛ وذلك لجملة أسباب :

الأول . - أنهم كانوا قد بنوها في أوائل الفتح أيام لم ترسخ أقدانهم بعد في البلاد رُسوخاً يؤمنهم لقلّة عددهم أن يحاط بهم ، حفظوا طرق الرّجعة إلى بلادهم ووصول للند منها اليهم . وبذلك أوصاهم خليفتهم العظيم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حينما استشاره أمره الجنود بمصر والعراق في اختيار للنازل التي ينزلونها ، فكتب اليهم أن « لا تنزلوا للمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم محرراً أو نهر ، متى أردت أن أركب راحتي حتى أقدم عليهم قدّمت »

الثاني - أن العرب في أول أمرهم كانوا بدوا أصحاب إيل ، وهي لا يصلحها الأتراعي الصحراء ومناخها ، ولا يسلم تاجها زمن الشتاء إلا فيها

الثالث — أَنَّ نَشَأَتَهُمُ الْبَلَدِيَّةَ بَيْنَ أَجْوَاءِ الصَّحَارَى الْجَافَةِ جَعَلَتْهُمْ يَسْتَوِيلُونَ^(١) أَرْضَ الْمُنَى، وَيَسْتَوْخُونُ الْعَيْشَ بَيْنَ مَنَاقِعِ الْبَيَاوِ وَأَمْعَدَةِ الْمَزَارِعِ وَفُضُولِ الْمَصَانِعِ؛ فَأَبْتَدُوا عَنْهَا ثَلَاثَ تَنَقُّصٍ^(٢) صِيحَّتْهُمْ، وَتَضَيَّ أَبْدَانُهُمْ عَلَى هَذَا الْأَمَاسِ بَنَى عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مَدِينَةَ الْفُسْطَاطِ فِي مَكَانِهَا بَدَأَ اسْتِشَارَةَ عَمْرٍو، كَمَا بَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرُ جِيوشِ الْعِرَاقِ مَدِينَةَ الْكَوْفَةِ بَدَأَ لَنْ كَانَ نَازِلًا بِمَدَائِنِ كِسْرَى، وَبَنَى عُقْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ الْبَصْرَةَ وَلَكِنْ الْفُسْطَاطُ لَمْ تَتَوَافَرَ فِيهَا كُلُّ هَذِهِ الشُّرُوطِ. وَكَانَ خَيْرًا لِلْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ الصَّحَّةُ وَجُودَةُ الْمَوَاءِ أَنْ لَوْ اتَّخَذُوا عَيْنَ شَمْسٍ مِثْلًا حَاضِرَةً لَهُمْ، كَمَا رَأَى ابْنُ بَرْصَانَ الطَّيِّبُ الْمِصْرِيَّ وَعَبْدُ الْوَلِيدِ الرَّحَالَةُ الْفِيلَسُوفُ الْبَغْدَادِيُّ وَأَبْنُ سَعِيدٍ لِلْمُورَخِ لِلدَّهْلَوِيِّ، مُتَّعِبِينَ مِنْ بِنَاءِ الْفُسْطَاطِ فِي وَهْدِهِ مِنَ الْأَرْضِ بَيْنَ ثَلَاثَةِ جِبَالٍ: الْمَقْعَطِ وَيَشْكُرَ وَرَاشِدَةَ فَجَبَّ عَنْهَا رِيَّاحُ الصَّبَا، وَبَيْنَ النَّيْلِ الَّذِي يَحْمِلُ أَرْضَهَا فِي زَمَنِ الْفَيْضَانِ سَبْعَةَ نَزَوَاتٍ وَكَانَ فِي مَوْضِعِ الْفُسْطَاطِ حِينَ نَزَلَهَا عَمْرُو يُحْيِيهِ الْحِصْنُ، وَشَرْقِيَّةً جُمْلَةً أُدِيرِيَّةً، وَشِمَالِيَّةً أَرْضُ قُضَايَا يَتَخَلَّلُهَا بَعْضُ مَزَارِعَ وَبساتينَ وَكُرُومٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ بَقَايَا مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ كَانَتْ تُسَمَّى قَدِيمًا بَابِلْيُونَ، وَتُسَمَّى الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِصْرًا، وَأُطْلِقُوا أَسْمَاءَ عَلَى الْإَقْلِيمِ كُلِّهِ، ثُمَّ خَرِبَتْ. وَقَالَ ابْنُ الْفَرَسِ بَنُوهُمْ، وَسَخَّرُوا فِي بِنَائِهَا أَسْرَى بَابِلَ حِينَ فَخَّصَهَا فَسَيِّمَتْ بِأَسْمِهِمْ. وَالرُّجُوعُ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بَنَوْا الْحِصْنَ، إِلَّا أَنَّ الشَّارَاتِ الرُّومَانِيَّةَ الَّتِي عَلَى الْحِصَنِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّومَانَ أَتَوْهُ أَوْ جَدُّوهُ

(١) أَي لَمْ تَوَاقَهُمْ فِي صِحَّةِ اجْتِمَاعِهِمْ (٢) تَعَلَّ

ولما فَتَحَ العربُ الحصنَ سنة ٥٧٠ هـ، وأَجْمَعُوا على المسيرِ إلى الإسكندرية أمرَ عمروُ فسطاطَه أنْ يَقْوَضَ؛ فإذا يَمَامَةٌ قد باضتْ في أعلاه. فقال: لقد تَحَرَّمتْ بِحِوَارِنا، أَقْرُوا الفُسطاطَ حتى تُنْقِفَ، وتطيرَ فِرَاحُها. ووَكَّلَ به من يَحْفَظُه أن لا تَهاج. ومضى إلى الإسكندرية، فَفَتَحَها. وَكَتَبَ إليه عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ألا يَخْلُفَها مَنزِلاً. فَاسْتَشَارَ أَصْحَابَه فقالوا: نَرْجِعُ أَيْهَا الأميرُ إلى فُسطاطِكَ؛ فَتَكُونُ على مِلَّةِ وَصَّراء. فَرَجَعُوا، وَجَمَعُوا يَقُولُونَ: نَزَلْتُ عَنْ بَيْنِ الْفُسطاطِ أَوْ عَنْ شِمالِه. فَسُمِّيَتْ الْبُقْعَةُ بِالْفُسطاطِ لذلك

وَأَمَرَهُمْ عَمْرُو بِتَقْسِيمِ الْأَرْضِ، فَتَنَافَسُوا فِي الْمَوَاضِعِ. فَوَلَّى عَمْرُو عَلَى تَنْظِيمِ الْخَطِّ مِائِيَّةَ بَنٍ حَدَّيْجِ السُّكُونِي، وَشَرِيكَ بَنٍ سُمَيِّ الطُّيَيْفِي، وَعَمْرُو ابْنُ قَحْزَمِ الْخَوْلَاطِي، وَحَيَّوِيلُ بْنُ نَاشِرَةِ التِّمَافَرِي. فَسُمِّيَتْ كُلُّ مَنزِلَةٍ لِقَبِيلَةٍ خِطَّةٌ كَمَا تُسَمَّى نَظِيرُهَا فِي الْقَاهِرَةِ حَارَّةٌ

ومَوْضِعُ مَدِينَةِ عَمْرُو الْقَدِيمَةِ هَذِهِ التَّلُوكُ وَالْأَقْصَاُ الَّتِي شَرَقَ النِّيلُ وَتَبْتَدِئُ مِنَ الْجَبَلِ الصَّغِيرِ الْمُطَايِ لِلْسَّاحِلِ الْقِبْلِيِّ جَنُوبًا (الَّذِي كَانَ يُسَمَّى جَبَلٍ رَاشِدَةً) إِلَى نِهَايَةِ تَلِّ أَبِي السَّعُودِ الْجَارِحِيِّ بِالْقَرَبِ مِنْ قَنَاطِرِ قَنَاةِ الْمِيَاءِ الْمُعْلَقَةِ شِمَالًا. وَلَمْ يَكُنِ النِّيلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ضَيِّقًا بَيْنَ الْفُسطاطِ وَالرَّوَضَةِ كَمَا هُوَ الْآنَ؛ بَلْ كَانَتْ أُمُوجُهُ تَضْرِبُ فِي سَفْحِ جَبَلٍ رَاشِدَةٍ وَجِدَارِ حِصْنٍ بِالْبُيُوتِ الْغَرَبِيِّ، وَكَانَ لَهُ مِقْيَاسُ مِجَانِهِ. وَيَجْرِي مِنْ تَحْتِ جَمَاعِ عَمْرُو وَخَارِهِ سَالِكًا طَرِيقَ شَارِعِ أَبِي سَيْفَتَيْنِ وَسِكَّةِ حَدِيدِ حُلُوانَ. وَبَعْدَ الْفَتْحِ بِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ انْحَرَفَ مُعْظَمُ النِّيلِ إِلَى بَرِّ الْجِيزَةِ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُ غَرِيُّ الْفُسطاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا أَرْضُونَ يَطُولُ جَزْرُهُ الْفُسطاطِ (الَّتِي سُمِّيَتْ بَعْدَ جَزْرَةِ

الرؤفة) بنى فيها الناس بالتدريج بيوتا وقصورا، وأنشئوا فيها حدائق وبساتين وكانت أبنية العرب في أول الأمر بالطين والطين طبقة واحدة على الأرض، ولم يتخذوا العلى والتurf إلا بعد إذن من عمر بن الخطاب بشرط أن تكون طائفتها رقيقة حتى لا يطلع أمرؤ على جاره؛ ولكنهم بعد عمر أتحنوا القصور والرابع، وجعلوها طباقا خمسًا وستًا، قد يسكن الربع المائة والمائتان، وبالعوا في صنع أبوابها وشاربها وحماماتها، وأستبحر العمران بها وملجت يسكنائها، وضافت بهم ذرعا؛ ورست على ساحلها مراكب مصر العليا والسفلى وسفن البحر الأحمر بعد أن حفر عمرو خليج أمير المؤمنين إلى القلزم، ومراكب البحر الأبيض الآتية من دمياط؛ فأصبحت أضخم مدينة إسلامية حاشا بندا. وأشتهرت بمدة صناعات ظهر فيها براعة العرب والقبط: كصناعة الورق والشكر والصابون والخزف والشمع والتجارة والنقش والبناء. ولم يعد فيها موضع يتسع لجنود كثيفة تنزل. فلما سقطت دولة بني أمية وجاءت جيوش الدولة العباسية بقيادة صالح بن علي^(١) لمطاردة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين نزل عسكره شمالا القسطنطين؛ فسمى منزله العسكر وهو للموضع الذى يتدنى الآن من أبي السعود إلى شارع الحوض المرصود. وبنوا فيه المنازل، والقصور، وأقام فيه أمراء الدولة قصر الإمارة ودواوين الدولة. وكان مقرًا لولاية بنى العباس والدولة الإخشيدية. ويشتمل الآن على حتى زين العابدين ومقبرته والمذبح والبقالة والمآذرى والكبش. وصار مع القسطنطين مدينة واحدة مكتظة بالسكان

(١) هو صالح بن علي بن عبدالله بن عباس، عم الخليفة السفاح

فلما أراد ابن طولون الاستبداد بملك مصر اشترى كثيراً من العبيد السود والماليك من الترك والأرمن وغيرهم، وضاحت بهم الفسطاط والعسكر؛ فأتخذ مدينة لهم شرق العسكر الى الشمال قليلاً. فسفل جبل يشكر (الكبش وطولون) فيها الى الرميثة وقبة الهواء (القلمة) أى قسم الخليفة الآن قرياً؛ وجعل لكل طائفة من السودان والترك والأرمن والخدم وأرباب الصناعة قطعة، فسُميت المدينة بالقطائع. وجعل قصره تحت قبة الهواء (القلمة) وبجانبه ميدانه. وبني جامعاً العظيم ودار إمارته وبياراته على جبل الكبش. حتى أتقضى أمر أولاده وأحفاده؛ جاء محمد بن سليمان الكاتب من قبل الدولة العباسية بحش كفيف فاستولى على مصر، وقبض عليهم، وأستحوذ على أموالهم وكنائزهم، وأبلا خضراءهم^(١) وهدم قصورهم، وخرب بساتينهم، ولولا المعرة لهدم مسجدهم. وبقي بعد ذلك فى القطائع جملة منازل مبعثرة على الكبش وحول الجامع الى زمن الجاعة العظيمة والوباء الجارف أيام المستنصر الفاطمى، فخربت القطائع

أما الفسطاط فبقيت زاهرة عامرة حتى استولت الدولة الفاطمية على الديار المصرية سنة ٥٣٥٩هـ، وقلت معها من المغرب جيوشاً جرارة. وكان لهم فى الدين والسياسة مذهب خاص وقليدات دقيقة؛ فأضطروا إلى إنشاء معسكر عظيم لهم يتوسطه قصر خليفهم؛ فأنشئوا القاهرة المرمية فكانت مكاناً للجنود، وداراً للخلافة، ودواوين للدولة. فأنتقل الأعيان

(١) الخضراء سواد القوم وسطهم. وقال الزمخشري فى الأساس «أباد الله

خضراءهم: شجرتهم التى منها قرعوا»

والأغنياء والوجهاء إليها . وأخذ شأن الفسطاط في الضمور ، حتى أخنت^(١) عليها المجاعة والطاعون زمن المستنصر . وما زالت في تهقر إلى أن دخل الصليبيون الديار المصرية ، فزلوا بحجة البساتين ، وخاف وزير الدولة المستبد بأمرها شاور بن مجير السعدي أن يتصموا بالفسطاط ، ويتلبوا بذلك على القاهرة ، فأمر بإحراقها سنة ٥٦٤ هـ ، فخرج أهلها سراعاً ، وقيت النار تصل فيها بضعة وخمسين يوماً ، حتى صارت تلالاً من الرماد تشاهد إلى الآن . ثم لما انتهت الحروب الصليبية عمر ثلثها الغربي على ساحل النيل ، وخاصة أواخر الدولة الأيوبية عندما اتخذ الملك الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة متراً له ، وشيد فيها قلعة وقصرًا ، وحمل الناس على كرى مجرى النيل أمام الفسطاط ، وحضره بنفسه . فعاد للفسطاط بعض الروق ؛ حتى قالت الأوبئة والمجاعات على مصر زمن المماليك البحرية ، فخرت مع ما خرب من البلاد أواخر القرن الثامن إلى سلسلة من المنازل مبعدة على ساحلها . ثم عرغريها قليلاً في أواخر القرن الماضي بشمول الأمن واعتدال الأحوال شيئاً ما . ولما ألقت الحكومة لجنة حفظ الآثار العربية كانت الفسطاط ميداناً عظيماً لبحثها وتنقيتها ، فكشفت النطاء عما خبأته أيدي الحداد تحت رماد الحريق وأقاضيل البناء . وظهر أكثر المدينة القديمة بشوارعها ومبانيها وحماماتها ومساجدها وفنادقها كأنها مدينة ببيئتها التي طمرها وزوف . ولم تبق لجنة الآثار عليها بئد . وبدار الآثار العربية كثير من دقائن هذه المدينة مروضة للأنظار

(٢) أهلكها

صدق الإيمان

(الدرّة اليّمة)

قال صاحب عجائب الهند^(١):

حدثني غير واحد من البحريّين بأمر الدرّة المعروفة باليّمة (وإعنا سمّيت اليّمة لأنّه لم يوجد لها أخت في الدنيا) . وأجودهم شرحاً لقصة حدث أنّه كان بمكان رجل يقال له مسلم بن بشر . وكان رجلاً مستوراً جميل الطريفة ، وكان ممن يجهز النواصة في طلب اللؤلؤ . فلم ير أن يجهز الرجال للنوص ، ولا يرجع إليه فائدة ، حتى ذهب جميع ما كان يملكه . ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شيء . يحوز يعه الا خلخال بمائة دينار زوجته . فقال لها : أقرضيني هذا الخلخال لاجهز به ؛ فلمّا آله تعالى يسهل شيئاً . فقالت له : يا هذا لم تبق لنا ذخيرة ولا شيء نعول عليه ، وقد هلكنا وأفقرنا ؛ فلان نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن نثلف في البحر . فخلّفت بها وأخذ الخلخال وصرّقه وجهز يجميعه الرجال الى النوص ، وخرج معهم . ومن شرط الناص أن يقيم النواصة فيه شهرين لا غير ؛ وعلى هذا ينشارطون . فأقاموا يثوصون تسعة وخمسين يوماً ، ومخرجون الصدف وفتحونه ، فلم يحصل لهم شيء . فلما كان اليوم الثمسون فاصوا على اسم إبليس (لمت الله) ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفة استخرجوا منها حبة

(١) قلت ترجمته (٢) كورة بالشرق الجنوبي لجزيرة العرب على مدخل الخليج

الفارسي من المحيط الهندي وهي كثيرة الحر ، وحاضرتها الآن مدينة مسقط وكانت قديماً مدينة صحار

لها مقدار كبير، لعل ثمنها يوفي ما كان يملكه مسلم منذ كان إلى وقته .
 فقالوا : هذا وجدناه على اسم إبليس (لنه الله) فأخذنا وسحقها ورعى بها
 في البحر . فقالوا له : يا رجل ! لم فعلت هذا ؟ أنت قد أفتقرت وهلكت ،
 ولم يبق لك شيء ! يقع يدك مثل هذه الحبة التي لها تساوي آلاف دنانير
 فتسحقها ؟ فقال سبحانه الله كيف أستحل أن أتفع بمال أستخرج على اسم
 إبليس . وإنى أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يباركك ؟ وإنما وقعت هذه الحبة
 بأيدينا ليختبرني الله تعالى بها ، ولطم من يعرف خبرها أعتقادي . وليس
 أتفتع بها ليقترن كل أحدي ؛ فلا يوصون إلا على اسم إبليس .
 (لنه الله) ؛ فإنتم ذلك يعظم على كل قائم وإن عظمت ؛ والله لو كان
 مكاتبها كل لؤلؤ في البحر ما تلبست به ! امضوا فمضوا وقولوا : باسم الله
 وبركة الله ! قال فمضوا على ما رسم لهم ، فاصلى صلاة المغرب من ذلك
 اليوم ، (وهو آخر يوم من الستين) حتى حصل يده دومان : إحداهما
 اليتيمة ، والأخرى دونها بكثير . فعملهما إلى الرشيد ، وباع اليتيمة بسبعين
 ألف درهم ، والصنرى بثلاثين ألف درهم ، وأنصرف إلى عمان بمائة ألف
 فبنى بها داراً عظيمة ، وأشترى ضياعاً ، وأعتق^(١) عقاراً . وداره معروفة بهما .
 فهذا ما كان من خبر القرة اليتيمة

(١) اتقى وملك جميع . والعقار كل ملك ثابت كالدار والنخل

القمر

القمر أجمل الكواكب صورةً وأينها منظرًا وأسهلها رصدًا، وأكبرها في رأي العين بعد الشمس جرماً

وهو سيارٌ كَرِيٌّ أصفرٌ من الأرض ينحو سبع وأربعين مرةً. انفصل منها زمن التشكُّب، وصار تابعاً لها، طاقفاً حولها، مستفيداً نوره من الشمس مثلها، دائراً حول الشمس معها؛ غير أن طواف الأرض بقمرها حولها يتم في سنة شمسية وطواف القمر حول الأرض يتم في شهر قمرى: أى مدة تسع وعشرين يوماً ونصف يوم تقريباً. ومع أنه خاضع لنظام الأرض لا يقل بُعْثُهُ عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتى ألف ميل

والذى يسترعى أنظارنا كما أسترعى أنظار مَنْ قبلنا اختلاف أشكاله وتعدد مطالبه بما جملة مبعث تخيل القدماء ومثار تفكير الحكماء ومقصداء لمبادئة الجلاء! قراءه يلوح ليلة أول الشهر إثر غروب الشمس ضئيلاً مقوَّساً لا يلبث أن يفرُبَ وينيب في شفق الشمس؛ ثم يهلُ في الليلة الثالثة أبين صورةً وأجنى زمناً لأزيد تأخره في الغروب عن الشمس؛ ولا يزال نوره في تزايد ومطالمة في تقدم نحو المشرق؛ حتى يطلع من المشرق في الليلة الرابعة عشرة عند غروب الشمس بداراً كاملاً بهيئة الطلعة باهر الأنوار، فتبارك الله أجسن الخالقين

ولكن الكمال فيه وحده؛ فإن انتهى الزيادة بُدأ النقص؛ ففي الليلة الخامسة عشرة يتأخر طلوعه من المشرق، وينقص من حافة نوره التي كانت

موضع هلاله الأول زيق لا يُشعرُ به إلا في الليالي التالية، ولا تزال مطالعته في
مَهْقَرٍ وَنُورٍ في تناقص حتى قُرْبَ آخر الشهر؛ فيُشرقُ قَبِيلَ الفجرِ هلالاً
ضئيلاً يكاد يكون مقلوبَ الهلال الأول، وفي الليلة الأخيرة يكون عتد
الصباح في الأفقَ الشرقَ مظلياً لا يَرى منه شيء، وهي ليلة المِحاقِ أو



صورة شمسية للقمر

السَّرار. ويظلُّ بعضُ النهارِ كذلك، ثم يتولدُّ هلاله الجديد؛ ولكنه لا يظهرُ
إلا بعد أن يغيبَ قرصُ الشمس، فيلوحُ هلاله ثم يمتلئ كما قلنا
وعلة ذلك أن نورَ القمرِ كنورُ الأرضِ مُستفادٌ من الشمس. وهو
لا يُقابلُ الأرضَ إلا بوجه واحد لا يتغير. وهنا الوجه بالنسبة إلى حركته مع
الأرض حول الشمس لا يُقابلُ الشمسَ مُقابلةً تامة إلا في وضع واحد ومرة

واحدة هي الليلة الرابعة عشرة، فينشله نورها، ويصيرُ بدرًا. أما بقية الجبال التي قبلها والتي بعدها فينحرفُ قليلًا أو كثيرًا عنها؛ حتى يصيرَ كلُّه ظلامًا ليلةَ الحَقاقِ، فيطوى خبرُه، ويكونُ الوجهُ الآخرُ الذي لا يرى لنا بدرًا كلاً: ثم يتولدُ هلالُه خلقًا جديدًا

وكلُّه شأنُ الأرض في استمدادِ نورها أو ما تُسمِّيهِ نهارًا؛ فلو كان في القمرِ مكانٌ لكانت في رأيِ أعينهم أكبرُ كوكبٍ في السماء، ولشاهدوها أكبرَ من الجرمِ الذي نشاهدُ القمرَ عليه أضماقًا مضاعفةً، ولكانت عندهم أروعُ جمالًا وأبدعُ من قمرٍ في نظرنا تشكُّلاً؛ فبدورِها على نفسها يرونها كلها جزاءَ جزاء، وتظهرُ قاراتُها ومُحيطاتها واضحةً عليها في وقت الصبحِ ومُظللًا بعضها بالنعامِ في وقت الدجْن، وتبدو أهلُها وبدورها ضئيلةً باهرةً ولكن لا يراها إلا السُكَّانُ النصفِ المُقابلِ لنا أو الذين يريدون التفرُّجَ برؤيتها من أهلِ النصفِ الثاني

ولقربِ القمرِ منا وخلوِ جِوِّه من الهواءِ سهَّلَ رصدهُ علينا؛ فرى في صفحته عند الشروقِ ليلةَ التمامِ كثيرًا من المَحَوِّ^(١) يحملُ صورته أشبه بوجهِ إنسانٍ ذي أنفٍ وفيهِ وحاجبينِ وعينينِ إحداهما مغمضيةٌ. ولا يزالُ كذلك؛ حتى يمتدِّي خطُ زوالِ مكانِ الناظرِ. فإذا مالَ إلى المغربِ انحرفتْ هذه الصورةُ حتى يصيرَ حالُها ساظرًا. وليس هذا المَحَوُّ إلا ظلامٌ يملأُ الأوديةَ والشهولَ البعيدةَ النورَ وظلالَ الجبالِ والمُضابِ الشاهقةَ الطولِ شوقًا يكاد يمنعُ استدارته. أما قَمَمُ الجبالِ وسُطُوحُها المُقابِلَةُ للشمسِ

فَرَأَى لَامَةً سَاطِعَةً فَبَيْنَ سِلَاسِلِ الْجِبَالِ طَرِيقَ مُضِبَّةٍ وَقَمَّهَا فَهَطًا
لَامَةً وَفُرَّهَاتُ جِبَالِ نَارِهِ الشَّدِيدَةُ السَّيِّئَةُ الْبَعِيدَةُ النَّوْرُ الَّتِي تَعْدُ بِشَرَاتِ
الْأُوفِ كَأَنَّهَا حَلَقَاتُ وَسَطِهَا هُطَّ سَوْدَ

وقد ظن القملة في عِلَّةِ المَحْرُوظُونَا بَعْضُهَا صَادَفَ الْحَقِيقَةَ وَبَعْضُهَا
جَانِبَهَا حَتَّى ظَهَرَ غَالِبِيُو، وَأَخْتَرَعَ سَنَةَ ١٦٠٦ م. وَرَقَبًا يَقْرُبُ الْأَشْبَاحَ
ثَلَاثِينَ مَسَافَةً فَأَبْثَتْ وَجُودَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ فِيهِ. وَزَادَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي تَحْدِثِ
الْمَرَاكِيبِ الْمَكْبَرَةِ حَتَّى أَصْبَحَ الْقَمَرُ يُرَى كَأَنَّهُ عَلَى بُعْدِ أَرْبَعِينَ مِيلًا مِنَّا.
عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَرَبَ لَا يَحْمِلُنَا نَرَى الْأَشْبَاحَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي مِنْ فَوْعِ الْحَيَوَانَ
لَنَتَحَقَّقَ أَلَيْقَمَرٍ مُكَانًا كَمَا لِلْأَرْضِ أَوْ لَا، وَلَكِنْ قَدْ أَصْبَحَ مِنَ الْمُرْجِعِ
لِئَن لَمْ يَكُن مِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّهُ خَالٍ مِنَ الْمَاءِ وَمِنَ السَّعَابِ وَالضَّبَابِ النَّاشِئِينَ
مِنْهُ وَمِنَ النَّبَاتِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ بِهِ شَيْءٌ مِنْهَا لَتَغَيَّرَ شَكْلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.
وَيُشَكُّ أَنَّ لَهُ هَوَاءً؛ وَإِنْ كَانَ لَهُ هَوَاءٌ فَلَمَلَهُ لَا يَزِيدُ عَلَى قِيَمِهِ جِبَالَهُ. وَلَا
شَكَّ أَنَّ الْمَاءَ وَالْهَوَاءَ هُمَا يَنْبُوعَا الْحَيَاةِ. وَتَجَرَّدُهُ مِنْهُمَا، وَخَمُودُ جِبَالِ نَارِهِ وَيُسْ
جَرَمُهُ يَجْعَلُ بَرْدَهُ شَدِيدًا جَدًّا فِي اللَّيْلِ وَحَرَّهُ عَظِيمًا جَدًّا فِي النَّهَارِ؛ عَلَى
قَرُوطِ طَوْلِهَا الْبَالِغِ فِيهِ خَمْسَةُ عَشَرَ يَوْمًا: مِمَّا يَجْمَلُ الْحَيَاةَ فِيهِ مُتَمَرَّةً بَلْ
مُسْتَحِيلَةً، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حِيلَةً غَيْرَ حَيَاتِنَا

وَيُرْجَحُونَ أَنَّ الْقَمَرَ كَانَ فِي أَزْمَانٍ سَحِيقَةٍ عَلَى طَبِيعَةِ تَهْرُبٍ مِنْ طَبِيعَةِ
أُمِّهِ الْأَرْضِ؛ فَكَانَ أَهْلًا بِالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ، إِلَّا أَنَّ صِفَرَ جَسَمِهِ جَعَلَهُ يَسْبِقُ
الْأَرْضَ فِي الْيَتْسِ وَالْبَرُودَةِ، فَتَقَبَّضَ وَبَرَدَ وَأَنْتَهَتْ دُنْيَاهُ، وَأَصْبَحَ كَمَا سَفَنُجَةُ

مُسْتَعْتِقَاتِ شَعْبٍ وَنَحَارِبٍ^(١) تَكُونُهَا مِنْ جَنْسِ تَكْوِينِ الْأَرْضِ
وَلَقَدْ خَلَقَ آفَةُ الْقَمَرِ مُسَخَّرًا لِأَهْلِ الْأَرْضِ خَاصَّةً، فَهُوَ بِمَكْمَلِهِ نُورُ الشَّمْسِ
عَلَيْهِمْ هِدَايَةٌ لَهُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَلَقَدْ قَضَى الْإِنْسَانُ عُصُورًا وَذُهُورًا
وَلَبِسَ لَهُ مِصْبَاحٌ فِي جَنْحِ الظَّلَامِ غَيْرُهُ . وَلَا يَزَالُ كُنْكَ لَأَهْلِ الْبَدْنِ
وَقِبَالِ الْهَمِيجِ . وَهُوَ بِأَخْتِلَافِ أَشْكَالِهِ قَوِيمٌ فُطِرِي لَهُمْ ؛ فَبِأَهْلَالِهِ يُعْرَفُ
أَوَّلُ الشَّهْرِ ، وَبِالتَّرْيِيعِ الْأَوَّلِ يُعْرَفُ رُبُعُهُ ، وَبِالْبَدْرِ^(٢) يُعْرَفُ نِصْفُهُ ،
وَبِالتَّرْيِيعِ الْآخِرِ يُعْرَفُ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهِ ، وَبِخِطَائِهِ يُعْرَفُ نِهَائِهِ

وَإِذَا مَرَنَ الْإِنْسَانُ عَلَى النَّظَرِ فِي تَقْدِيرِ صَوْنِهِ وَأَوْقَاتِ مَطَالِبِهِ عَرَفَ
الشَّهْرَ يَوْمًا وَيَوْمًا وَاللَّيْلَ سَاعَةً وَسَاعَةً . قَالَ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ
مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَجِ .

وَبِأَحَادِ جَذْبِهِ مَعَ جَنْبِ الشَّمْسِ لِلْأَرْضِ يَنْشَأُ الْمَبْدُ وَالْحَزَرُ ، وَقَالَتُهُمَا
فِي تَسْهِيلِ الْمَلَاخَةِ لَا تُنْكَرُ ؛ فَكَمْ مِنْ مَوَاقِيٍّ وَمَرَاقِيٍّ لَوْلَاهُمَا لَسُدَّتْ
بِرِوَسِبِ الْإِنْهَارِ وَالسَّيُولِ

وَلِضَوْءِ الْقَمَرِ فِي إِنْضَاجِ الْقِمَارِ وَالْبَقُولِ أَثَرٌ أَيْضًا أَثَرٌ ؛ حَتَّى إِنْ بَعْضُهَا
لَا يَنْمُو وَزَهْوُ لَوْنِهِ إِلَّا فِي لَيَالِيهِ الْبَيْضِ

(١) جمع غُرُوبٍ وَهُوَ التَّغَبُّبُ الَّتِي تَكُونُ فِي مِثْلِ يَوْتِ الزَّيَاهِرِ وَالنَّحْلِ

(٢) بِمَصْدَرٍ بَدْرُ الْبَدْرِ يَنْدُرُ بَدْرًا . وَبِالْمَصْدَرِ سَمِيَ هَذَا الْكَوْكَبُ عِنْدَ تَمَامِ نُورِهِ
كَأَنَّهُ يُبَادِرُ الشَّمْسَ بِالشَّرُوقِ فِي لَيْلَةِ التَّمَامِ عِنْدَ غُرُوبِهَا

مُقطَّعاتٌ شعريَّة

حِكْمٌ وآدابٌ لمصالحِ بن عبد القدوس^(١) قال :

ما يُلُغُ الأعداءُ منُ جاهِلٍ^(٢) ما يُلُغُ الجاهِلُ منُ قَسِه
والشَّيخُ لا يتركُ أخلاقَه حتى يُورَى في ثَرَى رَمْسِه^(٣)
إذا أَرعَى^(٤) مادَّ إلى جهلِه كذِي الصَّنَا^(٥) مادَّ إلى نُكسِه
وابَّ^(٦) منْ أدبَتِه في الصِّبا كالعودِ يُسقى الماءَ في غرسِه^(٧)
حتى تراه مُورِقًا نَضراً بعدَ القى أبصرتَ من يَسِه
وقال أيضًا :

المِرءُ يجمعُ ، والزَّمانُ يُفَرِّقُ وظلُّ يَرْفَعُ ، والشُّطوبُ^(٨) تُنَزِّقُ
ولأنَّ بُعادي ماقلاً خيرٌ له من أن يكونَ له صديقٌ أحقُّ
فأربأ^(٩) بنفسِكَ أن تُصادقَ أحقًّا إنَّ الصديقَ على الصديقِ مُصَدِّقُ
وزنَ الكلامِ إذا نطَقْتَ ، فإنما يُبدى^(١٠) عقولَ خوى المقولِ للمنطقِ
ومن الرِّجالِ إذا أَسْتوتَ أخلاقُهم من يُسَنِّشِرُ إذا سَتَمَّيرَ فيطُرِقُ^(١١)

(١) شاعر مجيد من شعراء صدر الدولة العباسية ينسب على شعره الحكم والمواعظ
اتهم في زمن المهدي بالزندقة قَتِلَ (٢) (ما) التي في صدر الشَّطْرِ الأولى ثانية
و (ما) التي في أول الشطر الثاني اسم موصول (٣) قبره (٤) اتكف عن الجبل
ورجع عنه (٥) الضنا : المرض ، والتكس : عود المرض بعد زواله (٦) أى عند غرسه
(٧) الأمور الشديدة (٨) أى ارفع قسك ونزها (٩) يظهر
(١٠) أى يرى يصير الى الأرض يتأمل

عَئِي يُطْلُ بِكُلِّي وَادِ قَلْبِي
وَإِذَا امْرُؤٌ لَسَمَتْهُ أَفْتَى^(١) مَرَّةً
فَإِذَا امْرُؤٌ لَسَمَتْهُ أَفْتَى^(٢) مَرَّةً
وَقَالَ :

وَإِنْ عَنَاءُ أَنْ تُفْهَمَ جَاهِلًا
مَتَى يَلْتَمِ الْبَيَانُ يَوْمًا تَعْلَمُهُ
فَيَحْصِبَ جَهْلًا أَنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ
مَتَى يَلْتَمِ الْبَيَانُ يَوْمًا تَعْلَمُهُ
إِذَا كُنْتَ تَنْتَبِهَ وَغَيْرُكَ يَهْلُمُ
مَتَى يَلْتَمِ الْبَيَانُ يَوْمًا تَعْلَمُهُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَلَيْهِ تَنْدُمُ

النَّارَجِيلُ أَوْ (جَوْزُ الْهِنْدِ)

النَّارَجِيلُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَشْجَارِ قَعْمًا، وَأَطْوَلُهَا عُمُرًا، وَأَجْمَلُهَا شَكْلًا، وَأَقْلَبُهَا
كُلْفَةً. وَشُبْهَةُ النَّخْلِ فِي جَذْعِهِ وَسَفْهِهِ، وَأَسْتَنْبَاهِهِ، إِلَّا أَنَّ عَمْرَهُ جَوْزٌ عَظِيمٌ
وَمِنْ النَّخْلِ تَمَرٌ، وَإِنَّهُ لَا يَحْمُودُ إِلَّا فِي أَصْقَاعِ الْمُنْطَقَةِ الْحَارَّةِ، وَخَاصَّةً
الْأَرْضِينَ الرَّمْلِيَّةِ الرُّطْبَةِ كَشَوَاطِي الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحِيرَاتِ وَالْمُذَرَّانِ
وَتَبْلُغُ أَنْوَاعُ النَّارَجِيلِ نَحْوَ ثَلَاثِينَ نَوْعًا، مِنْهَا مَا تَعْمَلُ جَوْزَتُهُ حَتَّى
تَصِيرَ قِسُورَهَا وَأَغْلَفَتَهَا فِي حَجْمِ الْبَيْطِخَةِ الْتَوَسُطَةِ

وَرُبَّجَّ أَنْ وَطَنَ النَّارَجِيلِ الْقَدِيمَ شَوَاطِي الْهِنْدِ وَجَزَائِرُ الْهَيْطِينَ
الْهِنْدِيِّ وَالْهَادِي الْجَنُوبِيِّ. ثُمَّ اتَّشَرَّتْ زِرَاعَتُهُ فِي الْبِلَادِ الرُّطْبَةِ الَّتِي يَنْبَغِي
الْتِمَادَ فِيهَا^(٣). فَمِنْ الْمُسْكَنِ الْهَبِّي زَرْعُهُ عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ فِي صَمِيدِ مِصْرَ
وَسُودَانَهَا فِي مَنَاقِبِ بَحْرِ النَّزَالِ وَبَحْرِ الْجَبَلِ

(١) الْأَفْئِي حَيَّةٌ دَقِيقَةُ الْعُنُقِ عَرِيضَةُ الرَّأْسِ (٢) يَخَافُ (٣) مَدَارُ السَّرَطَانِ
وَمَدَارُ الْجَدْيِ أَيْ الْمُنْطَقَةُ الْحَارَّةُ

وتطول نخلة النارجيل إلى بضعة وثلاثين ذراعاً فرنسية، ويغلظ جذعها إلى نصف ذراع وأكثر. وجذعها لذو متين تثنيه الرياح، وتدنيه ثمرتها الثخيلة من الأرض أحياناً، فلا ينقص ليناً

ورأس نخلة النارجيل كرأس نخلة التمر، ذو سف طويل وخوص كثير متراس رقيق. وفي أدنى السف يطلع طلعها، وتنشق عنه كغري^(١) ككغري النخل، ثم يكامل منه القنو^(٢). وتبلغ قنوان النارجيل بضعة عشر قنواً، يحمل كل قنو من الجوز جملة من خمس إلى خمس عشرة؛ فيكون مملئاً ما تحمله النخلة نحو عشرين ومائة جوز. وربما أخضبت النخلة الكريمة منه، فأثمرت نحو مائتي جوز.

وتتكون الثمرة من قشرة ظلمة رقيقة صلبة ملساء، داخلها طبقة كثيفة من اللب الخشن المتين، وداخل طبقة اللب طبقة من الخشب الصلب ليس بها إلا منفذ واحد ضيق يثبت منه جنين الجوزة حين زرع، ومحانه تقطان كأنهما شبان مسدودان، وداخل هذا الغلاف الخشب لب الثمرة. وهو يمر في طريق نضجه بأطوار عدة؛ فيكون أولاً لبناً خالصاً، ثم جازاً^(٣)، ثم يكاثف غليظه على جوانب الخشب، ويتمد فيصير طبقة من اللب لوزية في سمك الأصبع، وما بقي يصير شرباً صافياً حلواً، وربما أغشى، وأستخرج منه سكر

ويستفح باللب في كل هذه الأطوار مشروباً ومأكولاً. وهو غذاء

(١) الكغري والكافور كم النخل ونحوه (٢) المذق والكباة وهو ما يعلق به التمر

(٣) غليظاً ثخيناً

أمانى لكثير من الأمم التى تقطن جُزُرَ البحار الجنوبية ولقد رَدَّتها التى
تراحها فيه أشدَّ المراحة

وإذا بُضِعَ أصلُ الوَلِيعِ^(١) قبل أن تنشقَّ كُفْرَاهُ، والْقِمَ كُوزاً أمثلاً فى
نهارٍ واحدٍ شرباً لذيداً فى قِوامِ اللبنِ وطعمه

ومن الثمرة الناضجة يُستخرجُ كثيرٌ من اللّهنِ المُسْنَى بزيْتِ جُوزِ
الهند، وهو إذا كان جديداً ملائمٌ للصحة مُسَمَّنٌ للبِلَنِ، ويؤتدَمُ به ساذجاً
ومطبوخاً مع الأرز وغيره، ويُستصَبَحُ به فى التَّسْرَاجِ والشمع، وتُتخذُ منه
نوعٌ من الصابون يُرغى بالماء المِلْحِ فيُسمى لذلك صابونَ المَلَّاحِينَ

وللنارجيل فوقَ هذا منافعٌ كثيرةٌ : فَمِنَ السَّعْفِ والجُلُوعِ تُسَقَّفُ

الْيَبُوتُ، ومن الجَرِيدِ تُصنعُ المجادِفُ
والنُشَابُ والزَّوْفِدُ^(٢) والأَسْوِجَةُ^(٣)
والأَمْشَاطُ، ومن النُّوصِ تُصنعُ
القِفَافُ واليَجُونُ^(٤) والزَّنايِلُ، ومن
رَقِيقِهِ تُصنعُ القَبَّعاتُ، وتُضَفَرُ المِراوِخُ
والْحَصُرُ وغيرُ ذلك، ومن غَضِيهِ
الحديثِ وغَضُ الثَّمَرِ يَطْبَخُ لَوْنٌ من
الطَّعامِ يَسمى الكَرْنَبُ النَّظْلُ. ومن



نخلة نارجيل وبجانها طحمة وجوزة مكبرة

(١) الوليع الطلع فى كُفْرَاهُ، وأصل الوليع يد عرجونه (٢) خشب السقف

(٣) جمع سياج (٤) الجوزة شبه القفلة وقد تكسى جلداً

الليف تُصْنَعُ الحِبَالُ وَالْجَوَالِقُ^(١) وَالْبُسُطُ وَمَمْلَسُ الْأَحْذِيَةِ الَّتِي تُطْرَحُ
أَمَامَ الْأَبْوَابِ وَالْمِحْصَاتِ^(٢) وَحِشَايَا الْفِرَاشِ، وَصُنْعُ مِنْهُ تَوَعُّمٌ مِنَ الْوَرَقِ
وَالْمَكَائِسِ. وَمِنْ خَشَبِ الثَّمَرَةِ تُصْنَعُ الْمَنَارِفُ وَالْأَقْدَاحُ. وَمِنْ الْجُنُودِ
الْحَدِيثَةِ تُصْنَعُ السِّلَالُ وَغَيْرُهَا

وَخَشَبُ الْجُنُودِ الْقَدِيمَةِ مِنْ أَجُودِ الْأَخْشَابِ وَأَجْمَلِهَا وَأَقْبَلِهَا لِلْمَصْقَلِ
وَتُخَذُ مِنْهُ الْكَرَامِيُّ الْجَمِيلَةُ وَمَنَاصِدُ الْكِتَابَةِ وَمَوَائِدُ الْعِلْمِ وَخَزَائِنُ الْكُتُبِ
وَيُعرفُ فِي إِنْجِلْتَرَةَ بِاسْمِ خَشَبِ الْقَنْفَذِ

وَقَصَارَى الْقَوْلِ أَنَّ نَخْلَةَ النَّارَجِيلِ قَلَّمَا تَعْدِلُهَا شَجَرَةٌ فِي مَنَافِعِهَا؛ حَتَّى
قِيلَ إِنَّ مَنَافِعَهَا بَعْدَ أَيَّامِ السَّنَةِ عَدَا، وَقَوْلُ أَهْلِ جَزَائِرِ الْجَنُوبِ إِنْ مِنْ
يَزْرَعُ نَارَجِيلَةً يَسْتَغْنِي لَحْمًا وَلَبَنًا وَمَسْكَنًا وَفُوقًا وَإِنَّهُ وَوَقُودًا وَفَرْشًا وَقَعَا
دَائِمًا لَهُ وَلِأَوْلَادِهِ وَأَخْفَادِهِ

وَزِرَاعَةُ النَّارَجِيلِ كَالنَّخْلِ؛ بَأَنَّ تُزْرَعُ فَسَائِلُهُ^(٣) مِنْ أَيْمَانِهِ وَتُنْقَلُ إِلَى الْمَكَانِ
الَّذِي يَسُدُّ لَهَا، إِلَّا أَنَّ النَّارَجِيلَ يَنْجِعُ أَسْتِنَابَتَهُ مِنْ جَوَرَتِهِ؛ فَتُدْفَنُ الْجُوزَةُ
فِي أَرْضٍ خَفِيفَةٍ رَطْبَةٍ، فَيُخْرِجُ قَرْنُهَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ. ثُمَّ تُنْقَلُ بَعْدَ شَهْرٍ
أَوْ شَهْرَيْنِ مِنْ مَوْضِعِهَا إِلَى حَيْثُ تُفْرَمُ. وَلَا يَكُونُ لَهَا حِذْعٌ خَشَبِيٌّ.
قَبْلَ ثَلَاثِ سِنِينَ. وَقَلَّمَا تُثْمِرُ قَبْلَ ثَمَانٍ. وَتَبْقَى مُحْصِيَةً أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ
سَنَةً. وَيُجَنَّى الثَّمَرُ النَّاصِجُ مِنْهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسًا فِي السَّنَةِ

(١) جَعِ جَوَالِقٌ وَهُوَ الْقِي يَسَى بِالْعَامِيَةِ (الشَّوَال) (٢) جَعِ مَحْبَتَةٌ وَهِيَ

الْفَرْجُونُ لِلْخَيْلِ وَالْيَابِ وَهِيَ الَّتِي تَسَى بِالْعَامِيَةِ (الْفَرْشَةُ) (٣) جَعِ قَسِيَّةٌ وَهِيَ

التسامحُ وعلوُّ الهمة

روى صاحبُ ثمرات الأوراق^(١) قال : -

لما أفضت^(٢) الخلافةُ إلى بني العباسِ اختفت رجالُ بني أمية . ومنهم إبراهيم ابنُ سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان إبراهيمُ رجلاً عالماً طاملاً ، أديباً كمالاً ، وهو في سنِّ الشَّيبة . فأخذوا له أماناً من السَّفاح . فقال له يوماً : حدثني عما مرَّ بك في اختفائك . قال : كنتُ يا أمير المؤمنين عتيفاً بالخيرة^(٣) في منزلٍ شارعٍ على الصحراء . فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرتُ إلى أعلامِ سُودٍ^(٤) قد خرجت من الكوفة تريدُ الخيرة ، فتخيلتُ أنها تريدُنِي . فخرجتُ من الدار مُتكرراً حتى أتيتُ الكوفة . ولا أعرفُ أحداً أخفى عنده . فقيتُ في خيرة ، فإذا أنا بإب كبيرٍ رجتهُ واسعةٌ فنزلتُ فيها ، فإذا رجلٌ وسيمٌ حسنُ الهيئة على فرسٍ قد دخلَ الرحبة ، ومعه جماعة من غلمانهِ وأتباعهِ . فقال : من أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقلت : رجلٌ خائف على دمي ، وقد استجار بمنزلك ! فأدخلني منزله ، ثم صيرني في حجرٍ تلي حرمة . وكنتُ عنده في ذلك على ما أُحبُّه من مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ

(١) هو لقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي الشاعر الكاتب خدام دواوين
الانشاء بالشام ومصر وحظي في دولة الملك للؤيد شيخ صاحب جامع المؤيد بالقاهرة
وله عدة تصانيف أفضلها شرحه لبديته وتوفي سنة ٨٣٧ هـ (٢) انتهت

(٣) مدينة على الفرات كانت حاضرة لقوة المناذرة خلفاء كسرى في الجاهلية على
العرب ، وفيها الكوفة في صدر الاسلام ثم خربت الخيرة بعد زمن

(٤) هي من شاربات الدولة العباسية

لا يسألني عن شيء من؛ حالي إلا أنه يركب في كل يوم ركبة، قلت له يوماً: أراك تُدمن^(١) الركوب، فقيم ذلك؟ قال: إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبراً^(٢)، وقد بلغني أنه غتف، فأنا أطلبه لأحرك منه ثأري. فكأنه واقفه تعجبي. وقلت: التقدر سافني الى حثني^(٣) في منزل من يطلب دمي! وكرهت الحياة. فسألت الرجل عن اسمه وأسم آية فأخبرني. فقلت أن الخبر صحيح، وأنا الذي قتل أبيه. قلت له: يا هذا قد وجب على حقتك ومن حقتك أن أدلك على خصمك وأقرب إليك الخطوة! قل: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك، غفد بئارك! فقال: إني أحسبك رجلاً قد مضى^(٤) الاختفاء فأحب الموت. قلت: لا والله! ولكن أقول لك الحق: يوم كنا وكذا بسبب كنا وكنا. فلما علم صنفى تغير لونه، وأمرت عيناه، وأطرق ملياً^(٥). ثم قال: أما أنت فستلقني أبي عند حكيم عدل، فيأخذ بئاره. وأما أنا فنيز مخفياً^(٦) ذمتي! فأخرجني عنى! فلست آمن عليك من نفسي! وأعطاني ألف دينار، فلم آخذها منه، وأنصرفت عنه. فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين

-
- (١) تواظب (٢) أى قتله وهو محبوس مكتوف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه
(٣) الحنف: الموت (٤) أوجه وأحزن قلبه (٥) الملى الزن الطويل: أى
أطرق رأسه وفكر طويلاً (٦) أى غير ناقص عهدى وتأمينى لك

إسْلَنْدَة أَوْ (أَرْضُ الْجَلِيدِ)

إِنَّا شَخَّصْتُ بِبَصَرِكَ إِلَى مُصَوِّرِ الْقَارَةِ الْأُورِيَةِ فَلَمَّا نَظَرْتُ فِي زَاوِيَتِهَا
الشَّامِلَةِ الْغُرْبِيَّةِ جَزِيرَةً كَبِيرَةً مُعَيَّنَةً^(١) فِي الْحَيْطِ الْأَطْلَاقِيِّ، بِحَيْثُ تُقَرَّبُ مِنْ
الْأَرْضِ الْخَضِرَاءِ بِأَمْرِيكََا بِخَوْسَمَةٍ وَتَسْعِينَ مِيلًا

وَكُنَّا بِكَ بَعْدَ قِرَاءَتِكَ أَسْمَاءِ (أَرْضِ الْجَلِيدِ) وَقَدْ صَدَقَتْ^(٢) عَنْهَا،
وَلَمْ تَحْفَلْ بِأَمْرِهَا مُحَدَّثًا قَسْكَ مَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ شَأْنُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ
لِلْمُنْزَلَةِ عَنِ الْمَالَتَيْنِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ الْمُنْدَرِجَةِ فِي الْأَقَالِمِ التَّلْحِيَةِ . لَكِنَّكَ
تَسَجُّدُ الْهَجَبِ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ عَلَى هَوَانِ أَسْمَاءِ وَلَمْ تُدْ صَقْعُهَا
تَضُمَّ بَيْنَ جَوَانِحِهَا^(٣) الْقَصْدَيْنِ : الْحَرَارَةَ وَالْبُرُودَةَ ، وَتَتَفَجَّرُ أَرْضُهَا الصَّخْرِيَّةُ
عَنِ حِمَاتِ^(٤) فَوَارِقِ الْمَلْأَةِ الْخَارِ الْقَتْلِ تَرْفَعُ حَرَارَتُهُ كَثِيرًا فَوْقَ دَرَجَةِ التَّلْيَانِ ،
وَصَعَدَتْ فِي الْجَوِّ إِلَى نَحْوِ مِائَةِ قَدَمٍ

وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ بِصُخْرَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَكَوِّنَةٌ مِنْ قِسْمِ جِبَالِ نِيرَانٍ كَانَتْ
ثَمَرَةً فِي الْأَزْمَانِ الْقَابِرَةِ ، وَخَدَّتْ كُلَّهَا إِلَّا وَاحِدًا يَتَوَرُّ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ .
فَارْمَرَّةٌ قَوْرَةٌ تَبَاعَدَ مَدَى حِمِّهِ فِيهَا حَتَّى سَقَطَ بَعْضُهُ عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ التَّيْمِسِ ،
وَبَيْنَ الْمَكَانَيْنِ مَا يَبْرُو عَلَى خَمْسِمِائَةِ مِيلٍ

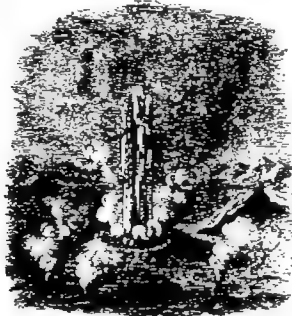
وَفِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِمَحَوَّاتٍ مِنَ الصَّخَّاتِ ، مِنْهَا بِمَجْمُوعٍ فِي شِمَالِ الْجَزِيرَةِ

(١) أَمِنْ فِي الْأَمْرِ : أَبَدَ فِيهِ وَدَخَلَ فِي أَفْصَاءِ (٢) أَعْرَضَتْ عَنْهَا

(٣) أَسْلُ الْجَوَانِحِ الْأَضْلَاعِ وَالْمَرَادُ بِهَا جَوَانِحُهَا

(٤) الْحَمَّةُ كُلُّ عَيْنٍ فِيهَا مَاءٌ حَارٌّ يَنْبِغُ . وَالْفَوَارَةُ الَّتِي يَصُورُ مَآوُهَا

مِنْ يَنْهَا فَوَارَةٌ عَظِيمَةٌ وَسَطَ بَرْكَةٍ تَقْذِفُ الْمَاءَ وَالشَّخَانَ وَحِجَارَةَ الصَّوْانِ ،
وَيَجْبِشُ^(١) هَذِهِ الْفَوَارَاتُ جَبْشَانًا خَفِيفًا كُلُّ سَاعَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ .
أَمَّا نَوْبَةُ هَيْجَانِهَا الشَّدِيدِ فَتَكُونُ مَرَّةً كُلَّ ثَلَاثِينَ سَاعَةً قَرِيبًا . وَلَا
تَسْتَفْرِقُ النَّوْبَةُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دَقَائِقَ ، تَسْبِقُهَا هَمْهَمَةٌ وَأَصْوَاتٌ تَنْبِثُ^(٢)
مِنْ جَوْفِ الْأَرْضِ ، أَشَدُّ مِنْ هَزِيمِ الرَّعْدِ^(٣) وَرَجْفَةُ^(٤) زُلْزِلِ الْأَرْضِ



حَمَّةٌ فَوَارَةٌ فِي أَيْسلَنْدَةِ

حَوَاهَا زَلْزَلَا شَدِيدًا ، ثُمَّ يَنْجَبِشُ^(٥) مِنْهَا بَقِيَّةُ جِسْمٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَاءِ يَفْشَاهُ
بُخَارٌ كَثِيفٌ ، وَيَنْفُخُ مَتَفَرِّعًا ، وَقَدْ يَصْعَدُ إِلَى أَجْلٍ أَكْثَرَ مِنْ تَسْعِينَ
قَدَمًا ، وَيَتَجَزَّأُ رَشَاشًا ، وَبَعْضُهَا يَهْتِكُ^(٦) حِجَابَ الْبَحَارِ ، وَيَعِيلُ إِلَى الْأَرْضِ
فَيَنْصَبُّ عَلَيْهَا عَلَى شَكْلِ قَنْطَرَةٍ عَجِيَّةٍ . وَيُبَارَى^(٧) الْمَشَاهِدُونَ فِي قَلْفِ

(١) تَقُورُ وَتَرْفَعُ (٢) هَزِيمُ الرَّعْدِ وَصَوْتُهُ (٣) هَزَّةٌ (٤) يَنْفَجِرُ

(٥) يَشَقُّ وَيَخْتَرِقُ (٦) يَنْسَابُ

نَزْمَةُ الطَّرِيقِ (٢٠)

كثير من الأحجار في قوتها قبل قوتها؛ فإذا جاء وعدّها^(١) دفنتها جملة، فكانت بهجة للنظارة^(٢) والرحالة الذين يؤمنونها^(٣) في فصل الصيف من أحلام العالم يشاهدون عجائب الخليفة

ومن هذه الفوارات ما ثور فوراً ناهداً؛ فتوضع في مائها قدور الطعام، فتضج حرارتها

ويفضل أهل هذه الجزيرة في بعضها عيائهم وأبنيتهم، غير أن ميله كثير من هذه الفوارات كبريتي لا يصلح للاستعمال

ولا تزرع الجوب في أرضها، لبرودة الجو وأستار أكثرها بالجليد أكثر السنة، وإنما ينبت فيها الخضر وبض الأعشاب

ومبشرة أهلها من صيد السمك ورعى الضم والخيل، وسائرهم يشتغلون بنزل الصوف ونسجه، ومنه يتخذون أكثر ملابسهم لتدفئة أجسامهم.

ومنة طائر ينزع زغب ريشه من صدره، ويوطن به وكره لتدفئة فراخه، فيأخذه الأهلون وينزلونه وينسجونه ثياباً مريحة. ومن يمتنون أشد المنايا بهذا الطائر، وقوته الأذى؛ وربما بنوا له الأوكار بأيديهم بمقربة من ديارهم يتألقونه بها ليستلوه

ويعرف أهل هذه البلاد بالذكاء واللباقة^(٤). ومن على قلة مدارسهم شديداً

المنية يرية أبنائهم وتأديهم؛ حتى قل الأثني فيهم، ولو كان ناشئاً في آخر الأكوخ. ولهم كتب قليلة إلا أنها، فعمدة بحوادث أسلافهم الغربية وأسباب هجرتهم المحيية إلى هذه الجزيرة

(١) مبادها (٢) المشاهدين (٣) يقصدونها (٤) الطرف ولين الأبطال

ويرجع تلرخ عثران الجزيرة إلى نحو ألف سنة من الميلاد كانت قبلها
خلوًا من البشر، مجهولة لأهل هذا العالم؛ فحدث أن جماعة من أهل الترونج
أرهمهم^(١) ملوكهم ظلمًا فهاجروا إلى إيفوسيا وإرلندة، ولكن يد العصف
والجور ما زالت مُتَدَّة إليهم، فَأَيْفَ أَبَا الضمير منهم هذا العيش النكد،
وزكوا سفنهم إلى حيث تُطَوِّح بهم يد المقادير، فأرستهم على هذه الجزيرة.
فأروا فيها مع شطف^(٢) عيشها وشدة بردها ما يكفل لهم الضربة؛ فطلبوا
بجبة أهلهم، وأسسوا فيها حكومة جلالة. وقد ثبت أن من أولئك الأقوام
من جاوزوا الجزيرة في رحلتهم حتى بلغوا سواحل أمريكا الشمالية؛ فسبقوا
كولمب إلى كشفها بنهور طويلة

وينسط الدائم قيون الآن حمايتهم على هذه الجزيرة

وصايا الآباء للأبناء^(٣)

كتاب السير هنري سري^(٤) لابنه فليب سنة ١٥٦٩ م

تلقيت منك رسالتين إحداهما باللاتينية والأخرى بالفرنسية. فطربت
لقراءتهما وسررت من جودة أسلوبهما وإني لأرجو أن تنص على هذا النحو
في كتابيك، وتضرب بهذا السهم في إنشائك، حتى يتم ما أعتناه لك من
التوفيق في حياتك، والفلاح في مستقبلك. ولما كانت هذه أولى رسائلي

(١) حلوم ما لا يطيعون (٢) شطف العيش ضيقه وخشوته وشدة

(٣) ترجمه المرحوم عبد القادر حسن افندي القى كان مدرسا بدار العلوم

(٤) أحد كبراء سواس الانجليز (١٥٢٩ - ١٥٨٦ م) تولى حكم ايرلندة فأبدى

إليك لم أشأ أن تكون خالية من نُصيح أمَحَضُكَه، أو إرشاد أسوقه إليك. وإنما يَجْمَلُنِي على ذلك حَتَّى لَكَ، وَحُتُوِي عَلَيْكَ، وَحِرْصِي عَلَى فَعْمِكَ. وَأَنْتَ مَا زِلْتَ حَدِيثَ السَّن، فَيَنْبَغُ لَكَ اتِّبَاعُ مَا أَهْدِيكَ إِلَيْهِ، وَتَقَبُّهُمُ مَا أَتَقَفُّكَ بِهِ لِيَكُنْ أَوَّلَ هَيْكٍ أَنْ تَتَّهَدَ نَفْسَكَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرًا يَصْدُرُ عَنْ سُوَيْدَاهُ^(١) قَلْبِكَ، وَيَخْرُجُ مِنْ أَعْمَاقِ صَدْرِكَ. وَلِتَحَقِّقَهُ تَمَامَ التَّفَقُّهِ مَا تَقْرُوهُ فِي صَلَاتِكَ بِأَعْمَالِ الْفِكْرَةِ وَإِجْهَادِ الْبَصِيرَةِ وَالتَّوْحِيهِ بِهَا إِلَى مَنْ يَخْشَعُ لَهُ فَرَادُكَ، وَيَسْتَوْ^(٢) لَهُ وَجْهَكَ. وَلَا تَسْهَوَنَّ فِي ذَلِكَ عَنِ الْفَرْضِ الَّتِي قَصَصْتَ وَالطَّلَبِ الَّتِي أَرَدْتَ؛ وَلِيَكُنْ اتِّبَاعُكَ لِهَذَا الْأَمْرِ اتِّبَاعَ مَنْ يَرْجُو تَمَوُّدَهُ، وَرُومُ الْإِلَهِ؛ فَتَأْتِيهِ كُلُّ يَوْمٍ فِي سَاعَاتٍ مَحْدُودَةٍ، حَتَّى يَكُونَ الْوَقْتُ عَوْنًا لَكَ عَلَى تَذَكُّرِ مَا تَمَوَّدْتَ، وَأَسْتَحْضَارِ مَا أَفْقَتْ

هَذَا وَلِيَكُنْ إِقْبَالُكَ عَلَى الدَّرْسِ وَقَصْدُكَ إِلَى التَّحْصِيلِ فِي الزَّمَنِ الَّتِي يَخْصِمُهُ بِدِرْسِكَ أَسَاتُذُكَ الْإِلَيقُ وَمُرْشِدُكَ الْحَكِيمُ. وَأَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَنَّهُ يَغْدُرُ لَكَ الْوَقْتُ الَّتِي يَكُونُ كَافِيًا لِأَسْتِفَادَتِكَ وَتَطْلِيكَ، ضَامِنًا لِسَلَامَةِ بَدَنِكَ وَدَوَامِ صِحَّتِكَ. وَإِذَا قَرَأْتَ شَيْئًا فَتَتَمِّمِ النَّظَرَ فِيهَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى. وَلِتُبَحِّثْ عَمَّا كُتِبَ لِأَجْلِهِ كَمَا تَبْحَثُ فِيهَا أَلْبَسَهُ مِنْ حُلَّةِ الْفِطْرِ. فَتَمْدُدُوا لِسَانَكُمْ يَمُزُّ الْكَلَامَ، كَمَا تَمْدُدُوا عَقْلَكُمْ بِجَيْدِ الْمَعَانِي؛ وَتَكْفُلُوا اكْتِمَالَ حِذْقِكَ وَوَفُورَ حِلْمِكَ كَلِمًا كَبَرْتَ سِنُّكَ وَمَدُّ فِي أَجْلِكَ

وَلِيَكُنْ يَا بَنِيَّ مُتَوَاضِعًا لِأَسَاتُذِكَ مُطِيعًا لِأَمْرِهِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَدَرَّبْ نَفْسَكَ عَلَى طَاعَةِ غَيْرِكَ أَخْفَقْتَ فِي حَمْلِ غَيْرِكَ عَلَى طَاعَتِكَ. وَلِتَجْمَلْ بِحُسْنِ الْأَدَبِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ، وَلِتَتَنَكَّبْ^(٣) عَمَّا يُوجِدُكُمْ^(٤) عَلَيْكَ مِنَ الْمَسَاءَةِ

(١) سويداء القلب حبه وبه (٢) يخضع وينزل (٣) مل وانحرف (٤) يفضيهم

والفَظَاظَة . ولا تساوِ بينهم في الأقدار؛ بل أَجَلَ كُلِّهِمْ عَلَى قَدَرِ مَنْزِلَتِهِ،
ونسبَةِ موضِعِهِ : فإنه لا شيء أَدْعَى لِي رَفِيقِي فِي عِيُونِهِمْ ، وَإِنْ ذَلِكَ مَنْزِلَةٌ
التَّجَلَّى مِنْ قُلُوبِهِمْ كَالْعَنَاءِ بِإِحْسَانِ مُعَامَلَتِهِمْ ، كما أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ
تَكْلِيفًا لِلْمَرْءِ فِي بَذْلِ قَبِيصٍ

وعليك بالقصدِ في مَا كَلِّكَ ، والأعتدالِ في مَشْرَبِكَ ؛ حتى لا يَكُونَ
سَلْكُ عَوَزَ بَدَنِكَ هَادِمًا لِصَرْحِ عَقْلِكَ مُضْمِدًا جَذْوَةً ذَكَايِكَ . وتحرَّكْ
أَعْضَاءَكَ بِمَا يَبِيتُ فِيهَا النِّشَاطُ مَعَ مُحَاطَرَةٍ مَا يُوْزِي مَفَاصِلَكَ ، وَيُضِرُّ
بِمِظَامِكَ : فَإِنْ رِيَاضَةُ الْبَدَنِ مَدْحَاةٌ إِلَى زِيَادَةِ مَضَائِهِ وَتَجْوِيدِ صِحَّتِهِ . وَلِيَكُنْ
لَكَ فِي تَنْظِيفِ جَسَدِكَ وَتَطْهِيرِ ثِيَابِكَ سُرُورٌ تَسْمَى وَرَاءَهُ وَتَسْتَقِيلُ بِإِدْرَاكِهِ
وَلَا تُسَلِّمَنَّ نَفْسَكَ إِلَى الْحُزَنِ وَالْكَآبَةِ بَلْ أَبْمِهَا عَلَى مَا تَطْفُرُ فِيهِ بِالْجَدَلِ
وَالنِّبْطَةِ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَجِدْ نَفْسَكَ فِي حَالِ سُرُورِكَ وَأَوَانِ جُورِكَ أَقْدَرَ عَلَى
إِحْسَانِ عَمَلِكَ ، وَأَسْتِخْدَامِ عَقْلِكَ وَبَدَنِكَ ، كُنْتَ خَالِفًا فِي ذَلِكَ لَطِيعَةِ
أَيِّكَ ، وَأَقْلَ تَوْفَاقًا مِنْهُ إِلَى مَا يَسْمُدُ بِهِ الطَّالِعُ وَتَحْسُنُ بِهِ الْمَغِيبَةُ . وَلِتَرْفَعْ فِي
لَهْوِكَ عَمَّا يُسَمَّى النَّاسَ مِنَ الْقَمَرِ وَتَهَرَّجَ بِهِ أَعْمَالُهُمْ مِنْ قَوَارِصِ الْكَلِمِ ؛
فَلَمْ تَكَلِّ تَحْيِيتُ جُرْحًا تَكُونُ مُدَاوَاتُهُ أَعَزَّ مِنْ جِرَاحَاتِ الْأَسِنَّةِ

وَلِتُؤَثِّرْ يَا بَنِي الْأَسْتِمَاعِ إِلَى مَا يَقُولُهُ غَيْرُكَ وَالْأَعْتِبَارِ بِمَا يُلْقَوْنَهُ مِنْ
لِلْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَبُورْدُونِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ عَلَى أَنْ تَكُونَ بَادئًا بِالْحَدِيثِ
خَائِضًا فِيهِ دُونَهُمْ ، وَإِلَّا كُنْتَ مَوْضِعًا لِسُوءِ الْمُنْظِنَةِ مَتَّهِمًا بِشَيْءٍ الْغُرُورِ بِنَفْسِكَ
مَغْمُومًا لِثَرْتَرَتِكَ وَهَذَرِكَ ، وَإِذَا صَمِمْتَ قَوْلًا حَكِيمًا فَلْيَكُنْ هُتَاكَ أَنْ
تَسْتَوْدِعَهُ ذَاكَرَتَكَ لِمِرَاجَعَتِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَرَوَاتِهِ فِي الْمَقَامِ الْمُنَاسِبِ لَهُ

ولا تَمَكِّرْ صَفْوَ حَدِيثِكَ بِسَاطِطِ الْفِظِ وَبَذَى الْكَلَامِ، وَلْتَمَقِّمْ مِنْ غَيْرِكَ حَتَّى
تَجْعَلَ مِنْ قَسِيكَ عَدُوًّا لَهُ يَدْرَأُ عَنْكَ شَرَّهُ، وَيُرْذُ غَارَتَهُ. وَأَجْعَلْ رَائِدَكَ الْحَيَاءَ
إِذَا صَنَمْتَ الْجَمَاعَ وَتَفَتَّ عَلَيْكَ الْحَافِلُ، وَلَكِنْ لَا تَقْرِطْ فِي الْحَيَاءِ فَإِنَّ أَتَهَامَ
السُّفَهَاءِ إِيَّاكَ بِمَا يَشَاكُلُ خَفَرَ التَّمَارِى أَنْكَى فِي قَلْبِكَ مِنْ رَمَى الْفَضْلَاءِ
إِيَّاكَ بِمَا يُشَابَهُ الطَّبِيشَ وَالْفَرْقَ. وَلْتَرَنْ كُلَّ مَا يَفُوهَ بِهِ لِسَانُكَ قَبْلَ أَنْ يَقْرَعَ
الْأَسْمَاعَ. وَأَذْكُرْ كَيْفَ خَلَقَ اللِّسَانَ، وَقَدْ جُمِلَتْ مِنْ دُونِهِ الْأَسْنَانُ
وَالشُّفَتَانِ، كَأَنَّمَا هِيَ تَحْبِسُهُ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى مَا عَصَاهُ أَنْ يُلْحِقَ بِصَاحِبِهِ الْأَذَى
مِنْ سَقَطَاتِ الْقَوْلِ كَمَا يَكْبَحُ الزُّمَامُ أَوَالِ الْعَالِ جَمَاحَ الدَّابَّةِ. وَإِيَّاكَ وَالْكَذِبَ
مَهْمَا حَقَرْتَ التَّرَضَ الَّذِي تَمْتَدَّتْ الْكَذِبُ مِنْ أَجَلِهِ : فَإِنَّكَ لِمَنْ فَعَلْتَ
طَاجِلَكَ تَمُودُهُ، وَإِنْ تَمُودَتْهُ خَبِثَتْ قَسَمُكَ وَسَاءَ طَبْعُكَ ؛ وَلَا تَنْتَبِطْ بِقُدْرَتِكَ
عَلَى سَوَاقِ الْبَاطِلِ فِي هَيْئَةِ الْحَقِّ وَتَمَكِّنْكَ مِنْ حَمَلِ النَّاسِ عَلَى تَصْدِيقِكَ
فَإِنَّهُ إِذَا انْكَشَفَ أَمْرُكَ، وَأَقْتَضَتْ مَرِيرَتُكَ لَزِمَكَ الْخِزْيُ وَلَصِقَ بِكَ
الشُّنْفُ، إِذْ لَا شَيْءَ أَجْلَبُ لِلْعَارِ، وَأَذْيَ إِلَى الْقَوْمِ، مِنْ أَنْ يَشْتَهَرَ لِلرَّءِ
بِالْكَذِبِ وَإِذَا ثَارَ الْبَاطِلُ عَلَى الْحَقِّ

وَلْتَحِيلْ قَسَمَكَ يَا بُنَيَّ عَلَى التَّحَلِّيِ بِالْفَضِيلَةِ وَالتَّجَمُّلِ بِشَرَفِ الْقَصْدِ
وَصِدْقِ الطَّوْفَةِ، حَتَّى تَأْلَفَ الْأَسْتَقْلَمَةَ فِي فِعَالِكَ، وَتَنْزِسَ حُبَّ الْخِيَرِ فِي
نَفْسِكَ، وَتَأْتَفَ التَّسْفَلَ إِلَى عَمَلِ الشَّرِّ مَهْمَا غَالَبَكَ الدَّافِعُ إِلَيْهِ، وَنَاصَتَكَ الرِّغْبَةُ
فِيهِ. وَأَذْكُرْ يَا بُنَيَّ شَرَفَ عُنْصُرِكَ وَكِرَمَ تَحْيِيْلِكَ فِي بَيْتِ أَيْكَ وَأَمِّكَ، وَأَعْلَمْ
أَنَّكَ لَنْ تَمُوزَ بِالْمُصَافَاةِ عَلَى مَقَامِ أَسْرَتِكَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ
وَيَا ثَارَ الْفَعَالِ الْقَرِيعَةِ

والآن يا بُنَيَّ أَتَيْتُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ النُّصْحِ ، إِذْ أَخَشَى أَنْ أَنَا أَمْنْتُ
فِيهِ أَنْ يَتَّقَلَ عَلَيْكَ عِوْثُهُ . وَإِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْذَوْعَكَ بِلَبَّانِ الْحَيِّ
وَالْفَضِيلَةِ فَإِنِّي مُتَّبِعُهُ بِأَكْثَرِ مِنْهُ تَبَعًا لَشَبَابِكَ وَتَخِيرِ أَعْلَوَارِكَ

أَبُوكَ الَّذِي يَحْيِي عَلَى حَبْلِكَ مَا أَقْتَى عَلَى خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ

السَّيْرُ هُنَا سِرِّي

الضفادع

الضَّفَادِعُ دَابَّةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ الزَّوَاحِفِ تُسَكِنُ بِأَمْرٍ هَبِيرَةً
وَأَنْوَاعُهَا كَثِيرَةٌ : مِنْهَا الضَّفَادِعُ الْمَادِيَّةُ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ الْإِنْتِشَارِ ، وَالْمُنْسَلِقَةُ
وَالسَّامَةُ

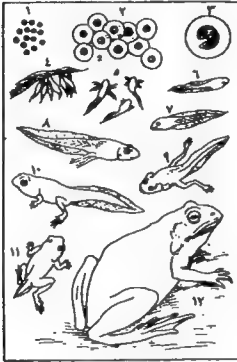
وَالضَّفَادِعُ مِنْ أَغْرَبِ الزَّوَاحِفِ فِي تَكْوِينِ خَلْقِهَا وَتَرْكِيبِ جِسْمِهَا وَحَالِ
مَعِيشَتِهَا . فَرَأْسُهَا مُتَّصِلٌ بِجِسْمِهَا ، وَقُلٌّ مِنْ أَنْوَاعِهَا مَا يَتَمَيَّزُ عَنْقُهُ .
وَفُوهَا وَسِعٌ يَحْتَوِي فَكَّهُ الْأَعْلَى فِي بَعْضِ أَنْوَاعِهَا عَلَى أَسْنَانٍ دَقِيقَةٍ حَادَّةٍ
مُتَلَاصِقَةٍ صَفًّا وَاحِدًا أَوْ صَفَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ ، وَفِي بَعْضِ آخَرٍ تَجَرُّدُ الْفَسْكَانِ مِنْ
الْأَسْنَانِ جُمْلَةً . وَحَنْجَرَةُ الصَّوْتِ فِيهَا فِي نَهَائِهِ الْقَمْعُ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ فِيهَا الْوَاسِعُ
أَشْبَهُ يَبُوقٍ يَرْقُعُ بِهِ صَوْتُهَا وَيَجْهَرُ ، فَيَكُونُ مِنْهُ التَّقِيْقُ الْمَرْوُفُ . وَهِيَ
تَنْقُ هَقِيقًا يَخْتَلِفُ فِي الْقُوَّةِ وَالْجَهَارَةِ ؛ فَيَتَذَكَّرُ عَلَى سَامِعِهَا أَنْ يَسْتَدِلَّ بِصَوْتِهَا
عَلَى مَا يَنْتَهَى وَيَنْتَهَى مِنَ الْمُسَافَةِ . وَيزدادُ هَقِيقًا فِي لَيَالِي الرِّبْعِ وَالصَّبْفِ ،
حَتَّى تَحْرِمَ مِنْ جَاوِرِهَا لَذَّةَ الرَّقَادِ . وَلِذَلِكَ كَرِهَ مِنْهَا صَوْتُ رَبَّانٍ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ

وتفاوت أرجلها في الطول ؛ فتكون يداها أقصر من رجليها كثيراً ؛ فهي
 تلك لا تُصنُّ للشيء بل تقفُّ قزات شديدة يكون أعمادها فيها على
 أرجلها ؛ وكذلك فعلُ في سياحتها اذ يطلُّ عملُ يديها ، فتتصقلان بحسماها ،
 وتنفخ الماء برجليها . وليديها أربع أصابع وأثر للإبهام . وفي أرجلها خمس
 يوصل بعضها ببعض غشاء جلدي يُهينها على السباحة . وظهرها مُسطح
 أملس . وظهرها خشن ذو غدد وحرشف بارز . وقفاؤها قليلة
 متمسكة كأنها عظم واحد . وليس لها أضلاع إلا هات ^(١) نشئة من
 الفقار . وليس للكبير منها ذب . وعضلات الفخذ والساق قريّة الشبيه من
 عضلات الإنسان . وقد استعان الأطباء قديماً وحديثاً بنشرج جسمها على
 درس أهم وظائف الأعضاء في الجسم الإنساني ، وأجروا عليها تجارب
 طيبة وعلمية في تحقيق دور الدم والخواص الكهربائية ؛ إذ كانت تقوى
 على احتمال أشد النوازل ؛ فلا تموت إذا جرحت ، وتبقى فيها الحياة بعد
 استئصال قلبها وأحشائها . وإذا فارقتها الحياة بقي منها ذمالة ^(٢) يحرك دورة
 الدم وقوة التقلص ، ويبقى به الحيش متنبهاً في بعض أعضائها عدة دقائق
 بل ساعات . ولها كبد وطحال وقلب يخالف نبضه نبض القلوب ، بل
 يخالف نبض الجانب منه نبض الآخر . وتتفصض الضفادع من الأنف ؛ إلا
 أن في تنفسها بعض غرابة ؛ فهي تزدد ^(٣) الهواء أزدرداً على دقات
 كأزدرد الطعام ، فيدخل الهواء من حنجرتها ثم تسدها ، فتدفع عضلات

(١) جمع هنة وهي كناية عن الشيء اليسير الصغير (٢) الذمالة : بقية الروح

في الجسد (٣) تبتلع

للعنق الهواء إلى الرئتين . فإذا أَخْفَتَ صِفْدَعًا ، وَخَسَتْ فَلَهَا مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ
أَخْتَنَتْ وَمَاتَتْ عَلَى مِثَالِ مَا يَخْتَنُقُ الْإِنْسَانُ إِذَا سُدَّ قُوَّةُ وَأَنْفُهُ . وَمِنْ غَرَابَةِ
تَنْفُسِهَا أَيْضًا أَنَّهُ إِذَا تَزَعَّتْ رِثْمُهَا عَاشَتْ بِدُونِهَا مَدَّةً خَمْسَةَ أَصَابِعِ أَوْ سِتَّةَ
تَنْفُسٍ فِيهَا مِنْ جَلْدِهَا



أَطْوَارُ خِطَّةِ الصَّفْدَعِ

- (١) بيض في مبيض الصفدعة
- (٢) بيض بعد الوضع
- (٣) بيض قبل الفقس
- (٤) دموص بعد الفقس
- (٥) دموص نشأ له رأس وذوات
- (٦ و ٧) دموص زالت ذواته
- (٨ و ٩) دموص نشأت له أرجل
- (١٠) دموص نشأت له يدين وذوات
- (١١) صفدعة لما ينقسم ذبها الصغير
- (١٢) صفدعة تامة الخطة

وَوَلَدُ الصَّفْدَعِ بِمَقَابُ عَلَى
أَطْوَارٍ مُخَيَّرَ الْعُقُولِ : مَنْ أَتَقَالَهَا
مِنْ طَوْرِ السَّمَكِ إِلَى حَيَوَانٍ ذِي
رِثْمَيْنِ يَعْشَى عَلَى الْيَابَسَةِ . فَهِيَ
تَبْضُ يَضْبًا عَلَى هَيْئَةِ قَطْرِ سَوْدٍ ،
فَيَطْلُقُ بَعْضُ أَعْشَابِ الْمَاءِ ، ثُمَّ
يُخَفِّسُ عَنْ شِبْهِ دَوْدَةٍ ذَاتِ أَطْرَافٍ
كَثِيرَةٍ كَالْأَهْدَابِ ، وَيُظْهِرُ فِيهَا
فِي الْيَوْمِ الثَّانِي الرَّأْسَ مُتَصِلًا
بِذَنْبٍ ذِي غُضُونٍ ^(١) جَلْدِيَّةٍ ، ثُمَّ
فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ يَتَكَوَّنُ فِي الرَّأْسِ
خِيَاشِيمٌ نَحْيَاشِيمِ السَّمَكِ ، ثُمَّ تَظْهَرُ
لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعُ زَعَافٍ ^(٢) ذَاتُ
أَصَابِعٍ كَثِيرَةٍ ، فَلَا تَزَالُ تَصْغُرُ
حَتَّى تَزُولَ ، ثُمَّ تَنْشَأُ لَهَا رِجْلَانِ ثُمَّ

(١) جمع غَضَنٍ وهو الثَّنِيَّةُ فِي الشَّيْءِ . (٢) جمع زِعْفَةٍ وَهِيَ الْغُرْفُ وَالْجَنَاحُ مِنَ السَّمَكِ

نَزْمَةُ الْهَارِيَّةِ (٢١)

يدان، وقصر الذنب بالتدريج حينما تصبح الأرجل صالحة للسباحة، فتستفيض بها عن الازدباب، وتزول الأذنب والياشيم، وتتم تكوّن الرئتين فتصلحان للتنفس في الهواء. وتتم هذه الأطوار في الجو المعتدل الحرارة في مدة شهر تقريباً. ويسمى هذا الطور طوراً الحضانة، ويسمى الحيوان حينئذ دُعوصاً

ويمش الحيوان طول هذه المدة في الماء والمستنقعات والرطوبات. فإذا قوى على المشي والطفرة^(١) خرج الى اليابسة يلتمس رزقه من الحشرات والديدان

وفي الجهات المجاورة للمستنقعات يخرج منه في الليالي الرطبة عدد عظيم حتى يوهم الناس أن السماء تمطر ضفادع ولو سلم ما يُتَقَف من يَبَض الضفادع فبلغ أشده لغطت الضفادع سطح الأرض في بعض البلاد، غير أن السمك يأكل من صغارها معظمها. ويسطو على كبيرها أكثر ذوات الفقار: من السمك إلى الإنسان. وللأفاعي والطيور عليها تسلط عظيم. وقد قُتِلُوا ما يسلم من يَبَضها واحد من ألف. ويمش الضفادع على شطوط الأنهار والبحر والفياض^(٢) فتندفن بين الأعشاب وأوراق الأشجار أو تحفر على صيفاف المستنقعات أجاجاً في الأرض تحفنها نهاراً وتخرج منها ليلاً، وعند ما يكون الجو رطباً أو دجناً^(٣) وتأكل الضفادع الحشرات والديدان بشراسة. فإذا جاء الشتاء أقطعت

(١) الوَب (٢) جمع غيصة، وهي الأجمة ويجمع الشجر في مَيْص ماء

(٣) إبّاس الغيم الأرض وأقطار السماء

عن الأكل؛ حتى إذا اشتد البرد أنطمرت في الطين وأستولى عليها السبات^(١) حتى الربيع

وبعض الناس يأكلون لحومها وخاصة أوراكتها وظهورها. وهي في فرنسا لونٌ لذيذ من الطعام يُتبلهى بأكله، ويُتبرأ الذ من ألوان السباح ومن الضفادع نوعٌ عظيمٌ ربما بلغ طوله واحداً وعشرين قيراطاً، وهي شرهةٌ تأكلُ صغار البطِّ وصغار الأفاعي والفأر، وقد تأكلُ صغارها. ولا تلهيهم الحيوَانُ إلّا حياءً. وهي منتشرةٌ في الولاياتِ المتحدة. وقد يلقونها في الآبارِ لأعتقادهم أنها تُطهرها

ومن الضفادع نوعٌ ينسلقُ الأشجار، ولها أظافرٌ وغددٌ مصاصةٌ. وهي صغيرةٌ الحجم، خفيفةُ الحركة، خشنةُ البطن، كثيرةٌ حراشفِ الجلد. ويتلون جسمها قوْنُ الحِرْيَاءِ؛ فتتشبهُ بكونِ ما يحاورها من الأجسامِ أختفاه من أعدائها وهي كثيرةُ النقيق وخاصةً عند دُورِ المطر

وفي بُرْنِيُو جنسٌ من الضفادع المتسلقةِ يَمرِفُ بالطيار. ويتأزُّ بطولِ أصابعه وأتصالِ بعضها ببعضٍ بشعائرٍ جلديّةٍ. فإذا لمَسَتِ الضفدعُ غِشَاءَ أصابعها، ونفختْ جسمها تمكنتْ من الوثْبَانِ أو الطيران من الأشجار المرتفعةِ إلى الأرضِ. ولونُ هذا الجنس أخضرٌ مُنْهَامٌ^(٢) وبطنه أصفرٌ، وطوله نحو أربعة قرايط، ومساحةُ غِشَاءِ أرجله نحو اثني عشر قيراطاً مُربّعاً. وفي أطرافِ أصابعه غُدَدٌ مصاصةٌ ينسلقُ بها

ومن الضفادع نوعٌ لحنه سامٌ. وتُعرفُ بقوةِ لسانها وخلوِّ فكها من الأسنان

جَلَّةً وَقَلَّ بَلَنُهَا، وَإِنْ الْغَالِبَ فِي سِيرِهَا الرِّحْفُ، وَهِيَ تَقْوَى عَلَى أَحْتِمَالِ
الْجُوعِ وَقَلَّةِ الْهَوَاءِ مَدَّةً طَوِيلَةً. وَقَدْ وَجَدُوا بَعْضَهَا بَيْنَ الصُّخُورِ الصُّلْبَةِ
أَوْ فِي جَوَافِ شَجَرَةٍ لَا صِلَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهَوَاءِ. وَمِنْ أَنْوَاعِ هَذَا الضَّفَدَعِ
السَّامُ ضَفْدَعٌ أَخْضَرُ طَوْلُهُ نَحْوُ ثَلَاثَةِ قَرَارِيطَ، قَلَمُ اللَّوْنِ إِلَى الصُّفْرِ، وَفِي
وَسَطِ ظَهْرِهِ جُدَّةٌ ^(١) صَفْرَاءُ لَامِعَةٌ، وَلَوْنُ أَسْفَلِ جِسْمِهِ ضَارِبٌ إِلَى الصُّفْرِ
مُتَرَقِّطٌ رَطَطًا سَوْدَاً، وَعَلَى نَفْذِيهِ أَطْوَاقٌ سَوْدَاءُ قُرْحِيَّةٌ ^(٢). وَيَمْرُقُ أَكَلُهُ
لَحْمَ الضَّفَادِعِ

صِيَانَةُ مَالِ الْأُمَّةِ

رَوَى صَاحِبُ الْكَشْكُولِ ^(٣) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي رَافِعٍ ^(٤) أَنَّهُ قَالَ:

قَالَ كُنْتُ عَلَى يَمِينِ مَالِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وَكَاتِبِهِ .
فَكُنْتُ فِي يَمِينِ مَالِهِ عَقْدٌ فَأُرْسِلْتُ إِلَى بَنْتِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَتْ لِي:

(١) الجِلْدَةُ: الْخِلَّةُ فِي ظَهْرِ الْحِمَارِ وَغَيْرِهِ يَكُونُ لَوْنُهَا غَيْرَ لَوْنِ سَائِرِ جَسَدِهِ

(٢) الْقُرْحَةُ الطَّرَاقُ مِنَ الْأَتْوَانِ: أَيْ أَنَّ سَوَادَهَا مُتَدَرِّجٌ طَرِاقٌ

(٣) هُوَ الْعَالِمُ الْمُصَنِّفُ الْكَاتِبُ الشَّاعِرُ الرَّحَاقَةُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ
الْعَامِلِي، وَلَهُ يَبْلُغُ سَنَةُ ٨٩٥٣ هـ وَنَشَأَ فِي بِلَادِ الْفَرَسِ وَصَاحَ نَحْوُ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي كَثِيرٍ مِنْ
الْمَمَالِكِ، وَدَخَلَ مِصْرَ وَأَلْفَ بِهَا كِتَابَهُ الْكَشْكُولَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَادِ الْفَرَسِ وَأَلْفَ كَثِيرًا
مِنْ الْكُتُبِ وَطَبَعَ لَهُ فِي مِصْرَ غَيْرُ الْكَشْكُولِ كِتَابُ الْخِلَّةِ وَتُوفِيَ سَنَةَ ١٠٣١ هـ بِأَصْبَهَانَ
وَدُفِنَ بِطَبُوسَ

(٤) كَانَ خَازِنًا بَعْدَ أَبِيهِ، لَعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو رَافِعٍ مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَى الْأَصْلِ مَاتَ فِي زَمَنِ عَلِيٍّ وَتُرْوَى هَذِهِ الْقِصَّةُ عَنْ رَافِعٍ نَفْسِهِ لِأَنَّ ابْنَ

إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحب أن تُعيرَني، أجمَلُ به في يوم الأضحى. فأرسلت إليها: «ألمقدارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام إلى؟» بنت أمير المؤمنين. «نعم! عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام. فدفعتُ إليها. ولين أمير المؤمنين عليه السلام رآه عليها فمرقه. فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟ فقالت: أستمعته من ابن أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين لأتزين به في العيد. ثم أزدته. (قال) فبعث إلى أمير المؤمنين فجثته. فقال لي: اتخون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخون للمسلمين! فقال: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذن ورضام؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنها بنتك، وسألني أن أعيرها العقد تزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن تردّه سالمًا إلى موضعه. فقال: ردّه من يومك وإليك أن تعود إلى مثله فتنا لك عقوبتي. ثم قال: ويل لأبنتي لو كانت أخفت العقد على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذاً أول هاشمية قطعت يدها في سرقه. فبلغت مقاتله (كرم الله وجهه) ابنته. فقالت له: يا أمير المؤمنين أنا أبنتك وبضعة منك! فمن أحقّ بلبسها مني؟ فقال لها: يا بنت ابن أبي طالب لا تنهبن بك فمهلك عن الحق! أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في مثل هذا العيد بمثل هذا؟ (قال): قبضته ورددته إلى موضعه

الشمس^(١)

الشمس كوكبٌ مضيءٌ بذاته. وهي أعظم الكواكب المرئية لنا منظرًا، وأسطعها ضوءًا، وأغزرها حرارةً، وأجزلها هماً للأرض التي نسكنها ولكثير من أخوانها سيارات الشمس وبناتها

والشمس كرةٌ متلججةٌ نارًا، حرارتها أشدُّ من حرارة أيِّ ماعور^(٢) أرضي. ويبلغ قوتها ثلثمائة وزن من قوت الأرض، وهي أكبر منها حجمًا بثلاثة ألاف وألف ألف مرة

وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة في نحو خمسة وعشرين يومًا. وتبعد عنا نحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل. وهي مع كل هذا العظم الهائل لا تُعدُّ في النجوم الكبرى، بل إن أكثر ما نشاهده من النجوم الثابتة شموس أكبر من الشمس بألوف الألوف، والشمس بسيارتها تابع من توابع أحدها

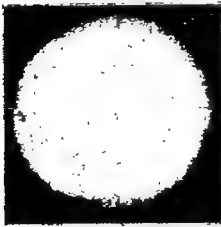
وسطح الشمس مهبٌ عواصف وزوابع نيرانية شديدة تُثير في جوها أشوطة^(٣) هائلة، تندلع^(٤) ألسنتها المتأججة عن محيط كرتها أميالًا. وقد وصف بعض العلماء لها أرفع من سطحها لأوّل وهلة نحو أربعين ألف ميل في الفضاء، ثم ازداد بريقًا وتألقًا^(٥)، ثم أرفع بعد نصف ساعة إلى خمسين وثلاثمائة ألف ميل، ثم جلت يضوّل وضمف، فلم تفض ساعتان حتى

(١) ملخص من كتاب عحاسن الطبيعة للورد «أفيري» وغيره من الكتب للمتبرة

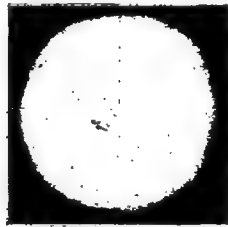
(٢) الساعور النار فضها أو موقلها (٣) الشواظ الهب (٤) اندلع الانسان

خرج من القم (٥) تلالوا

أَضْمَحَلَّ أَضْمَحَلَّ لَا. غَيْرَ أَنْ مَا وَصَفَهُ هَذَا الْعَالَمَ لَيْسَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ النُّوَادِرِ، وَلَكِنْ أَرْتَقَاعَ الْإِلَهَبِ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفِ مِيلٍ لَيْسَ بِغَيْرِ الْعَادِيِّ. وَكَثِيرًا مَا تَبْلُغُ سُرْعَةُ الْإِلَهَبِ مِائَةَ مِيلٍ فِي الثَّانِيَةِ. وَأَكْثَرُ مَادَّةِ الشَّمْسِ مِنْ عُنْصُرِ الْمُحْدِثِ (الْإِيدْرِجِين) الْمُتَقَدِّ



صورة شمسية للشمس
صورت في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٥



صورة شمسية للشمس
صورت في ٨ فبراير سنة ١٩٠٥

وَيَرُصَدُ الشَّمْسُ مَرَارًا بِالْمِرْقَابِ الْمُتَقَنِّ بِالسَّوَادِ شُوهِدَ فِي صَفْحَةٍ قُرْصِهَا نُكْتٌ سُودٌ وَكَثُفٌ يُشَوِّهُ مُحْيَاها، كَأَنَّمَا هِيَ كُرَّةٌ سَوْدَاءُ الْبَاطِنِ غُلِغِلَتْ بِسَطِيعِ سَاطِعٍ مِنَ الصَّمَادَاتِ يَخْطُلُهُ قُبٌّ يَظْهَرُ تَحْتَهَا السَّوَادُ. وَلَا تَزَالُ حَقِيقَةُ هَذِهِ الْبُقْعِ مَوْضِعَ الْبَحْثِ وَالْتِهَالِ عِنْدَ الْفَلَاحِيِّينَ. وَمِنْ تَنْقَلٍ هَذِهِ النُّكْتِ عُرِفَتْ حَوَرُهَا عَلَى مَحْوَرِهَا

وَالشَّمْسُ سَيَارَتٌ أَوْ أَبْنَاءُ أَفْصَلَتْ مِنْهَا مِنْذُ أَزْمَانٍ سَحِيقَةٍ، عَلِمَ مِنْهَا إِلَى الْآنَ نَحْوُ ثَمَانِيَةِ، هِيَ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَقْرَبِ مِنْهَا فَلِأَقْرَبِ: عَطَارِدُ فَالْزُهْرَةِ فَلِأَرْضٍ فَالْمَرْيَخِ فَالْمَشْرِيقِ فَزُحَلُ فَارَانُوسُ فَنَيْتُونُ. وَلَمْ تَلْمُ كُلَّ شَيْءٍ

غذاه السيارات حتى العلم وإنما أَلَمَّ العلم بعمره موادها وكثافتها وأبعادها،
ولكن أمر الحياة فيها لم يزل مِنْهَا مُستغلقاً اللهمَّ أَلَا في الأرض وقرها
أما مقدار النِّعم التي سخرها الله لنا بوجود الشمس فيما لا يحصىه المد؛
فهي مبعثُ حياتنا وحياة الحيوان الذي يمشي معنا، ومصدرُ نورنا ونارنا
وحرِّنا وبرِّدنا. وهي التي تُجِلُّ مياه البحار بخاراً، وتُهلِّها في الجَوِّ غيوماً،
وتُنزلُها على الأرض أمطاراً، حيث تجري جداولُ وأنهاراً، قد روى زرعنا،
وتُشقي غراسنا، وتُثير الرياح، وتُطليح الأنواء، وتُرْجِي^(١) السفنَ والبواخرَ
في عُباب الماء، وتدفع القطرات الحديدية، وتدبرُ الآلاتِ البخارية، وتُثيرُ
المصاييحَ الشخانية والزينة، إذ ليس الفحمُ الحَجَرِيُّ والثرى الأرضي
إلا حرارة ناراها المنخرة منذ قديم الدهور لينفع بها أحياء هذه المصور،
وما التهارُ المبصر، والليلُ المظلم، إلا آيتان من آياتِ الله المُسَخِّرة لنا
بفسخِ هذا المخلوق المحيب: ففي النهار نسعى في مناكب الأرض لأبتغله
رزقنا، وتدبير معاشنا، وتنظيم شؤون حياتنا، ونُسَبِّحُ بحمْدِ ربِّنا، ونعتبرُ
بآثار من سبقنا، وفي الليل نسكن لإراحة أبداننا، وأستجمام^(٢) قُوَّانا، وأستيفلة
حِظِّنا من النوم الذي به نستديم صِحَّتنا، ونستفيض ما قَدَّناه بأعمالنا،
وننظرُ في ملكوتِ السموات وما خلقَ الله من شيء في حركات الكواكب
وأثقالها، وبديع صورها وألوانها، فنعَتو وجوهنا، وتتضاءلُ كبريلونا، أمامَ
قُدرة خالقنا العظيم؛ فسبحانه من إله حكيم

وما الألوان التي تراها في نور الأزهار وريش الأطيَّار وفئات المصنوعات

إِلَّا أَثَرُهُ وَقَوْعُ أَصْنَائِهَا عَلَى هَذِهِ الرَّمَيَّاتِ وَأَتَمَّ كَمَا^(١) عَلَى أَبْصَارِنَا؛ فَإِنْ نُورُ
الشمس الأبيض، وَوُلِّفَ مِنْ سَبْعَةِ أَلْوَانٍ أُصْلِيَّةٍ^(٢) تَنْشَأُ مِنْهَا كُلُّ الْأَلْوَانِ
الفرعية، وهى الأحمر، والبُرْتَقَالِي، والأصفر، والأزرق، والأخضر،
والنَّيْلَجِي، والبَنَفْسَجِي. فَمِنْ الْأَجْسَامِ مَا لَا يَتَّصُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ،
بَلْ يَمُكِّسُهَا كُلَّهَا عَلَى الْمِيزَانِ، فَيَدُو أَيْضًا نَاصِعًا كَزَهْرَةِ الْيَاسْمِينِ، وَمِنْهَا
مَا يَتَّصُ بِبَعْضِهَا وَيَمُكِّسُ بَاقِيَهَا، فَيَتَلَوَّنُ بِلَوْنٍ مَا يَمُكِّسُ مِنْهَا؛ فَإِذَا أَبْصَرْتَ
وَرَقَةً الشَّجَرِ خَضِرَاءَ عَرَفْتَ أَنَّهَا اخْتَزِنَتْ مِنْ صَوْنِ الشَّمْسِ سِتَّةَ أَلْوَانٍ،
وَرَدَّتْ إِلَى عَيْنِكَ سَابِعًا، وَهُوَ الْأَخْضَرُ لِأَنَّهُ فِيهَا أَذْخَرَتْهُ قَمَاعُهَا، وَلَيْسَ
بِهَا إِلَّا مَا لَفَظَتْهُ أَفْتَقَارُ، وَمِنْهَا مَا يَرُدُّ لَوْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، فَيَدُو لَوْنُهُ مِنْ مَجْمُوعِ
هَذِهِ الْأَلْوَانِ السَّبْعَةِ. وَهَذِهِ الْأَلْوَانُ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ لَتَمِيزَ
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ؛ فَقَدْ يَتِمُّ الشَّيْءُ شَكْلًا، وَحَجْمًا، وَصَلَابَةً، وَلِينًا، وَثِقَلًا
ثِمًّا لَا يَتَّبَانِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ اللَّوْنُ؛ فَيَكُونُ اللَّوْنُ آيَةً تَبَايُنُهَا، وَأَكْثَرُ مَا
يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَزْهَارِ

وَتَنَوُّعُ الْأَلْوَانِ هُوَ الْمِرْثُ فِي جَمَالِ الرَّمَيَّاتِ مِنْ مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ وَبَدَائِعِ
الصَّنَاعَةِ، وَإِنْ أَعْظَمَ الْمُصَوِّرِينَ وَأَمَرَ النُّقَّاشِينَ لَمْ يُبَيِّرْ زُورًا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَيَدُلُّوْا
عَلَى ذِكَائِهِمْ وَتُبُوغِهِمْ إِلَّا بِإِرَاعَتِهِمْ فِي مُحَاكَمَةِ الْأَوَانِ الطَّبِيعَةِ الْمُؤَلَّفَةِ
وَأَشْكَالِهَا الْمُتَجَانِسَةِ. وَإِنَّمَا يَتِمُّ لَهُمْ ذَلِكَ إِذَا عَرَفُوا كَيْفَ يَمِزُّ جُودُنَ مِنَ الْأَصْبَاغِ
مَا يَسْتَخْدِمُونَ بِهِ الْأَوَانِ الثَّوَرِ خَيْرَ اسْتِخْدَامٍ، وَيَتَفَعَّلُونَ بِهِ أَحْسَنَ انْتِفَاعٍ.

(١) انمكس مطاوع عكس، كما في الأساس (٢) امكن ارجاع هذه الألوان في

الصناعة إلى ثلاثة

وقد سخر علماء الطب بآيُن الألوان في كشف النقاب عن حقائق الجراثيم؛
فإن منها ما لا يتضح للعين في المجهر إلا إذا ألقي عليه صبغ خاص يؤثر
فيه لونه فيصغ به

ولأمواج الشمس الضوئية سرعة معلومة تسير بها، فلذا انخفضت هذه
للسرعة عما هي عليه لم تمد العين قدرة على رؤيتها، لأنها تستحيل إلى مظهر
آخر غير مظهر الضوء والحرارة. وليس يُنكر ما للضوء والحرارة معاً من
الأثر الحسن في تنقية المساكن مما يقطنها من الجراثيم القتالة والعفن المضني،
ولذلك قيل: إن النار التي تدخلها أشعة الشمس لا يدخلها الطيب

وما الشمس وما تركيبتها؟

سؤال ظنه السلف مشكلة لا قبل للإنسان بحلها، كما صرح به العلامة
«كنت»^(١)، إذ يقول عن الأجرام السماوية: «أما نعين أشكالها وأقياس
أبعادها وزنة أجزائها ومعرفه حركاتها فيما ينسب لنا تصور إمكانه. وأما أن
نصل إلى درس تركيبها الكيميائية والمعدنية بوسيلة من الوسائل فنلك من
قيل قليل النفس بالمتحيل». وقد ساء حال هذا العلامة المتشائم، وقدر للبشر
أن يجرؤوا شوطاً بعيداً في سبيل إدراك ما كان يعجز إدراكه ويُعد مستحيلاً.
وظهر بتحليل أضوائها أنها مركبة من عناصر لا تخص بلع للمروف منها إلى
الآن نحو ستة وثلاثين عنصراً من العناصر التي نعرفها في أرضنا وأكثرها
انتشاراً في الشمس هو عنصر الهيدروجين (الأيديروجين). ولم تخط يد العلم
النقاب بعد عن كل ما كنا نجهله من أمر أم الأرض (الشمس)، ولكن
ما بدا لنا من حقها يد لنا على قرب الشبه بين الأم وبنتها

جابر عَثَرَاتُ الْكِرَامِ

روى صاحبُ ثمرات الأوراق^(١) أَنَّهُ كَانَ فِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ خَزِيمَةُ بْنُ يَشِيرٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ مَشْهُورٌ بِالرُّوَّةِ وَالْكَرَمِ وَالْمُوَاسَاةِ، وَكَانَتْ نِعْمَتُهُ وَافِرَةً. فَلَمْ يَزَلْ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ حَتَّى أَحْتَاجَ إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانَ يُوَاسِيهِمْ وَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ، فَوَاسَوْهُ جِينًا، ثُمَّ مَلَّوهُ. فَلَمَّا لَاحَ لَهُ تَغْيِيرُهُمْ جَاءَ أَمْرَاتُهُ، وَكَانَتْ أُنْتَبَهَ عَمَهُ فَقَالَ لَهَا: يَا بِنْتَ الْعَمِّ! قَدْ رَأَيْتُ مِنْ إِخْوَانِي تَغْيِيرًا، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى لُزُومِ بَيْتِي إِلَى أَنْ يَأْتِيَنِي الْمَوْتُ. ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ، وَأَقَامَ يَتَقَوَّى بِمَا عِنْدَهُ حَتَّى قَدِدَ، وَبَقِيَ حَاتِرًا فِي حَالِهِ. وَكَانَ عِكْرِمَةُ الْفَيَاضُ وَالْيَا عَلَى الْجَزِيرَةِ. فَبَيْنَمَا هُوَ فِي مَجْلِسِهِ، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ إِذْ جَرَى ذِكْرُ خَزِيمَةَ بْنِ يَشِيرٍ؛ فَقَالَ عِكْرِمَةُ: مَا حَالُهُ؟ فَقَالُوا: صَارَ فِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ، وَقَدْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَلَزِمَ بَيْتَهُ. فَقَالَ عِكْرِمَةُ الْفَيَاضُ (وَمَا سُمِّيَ الْفَيَاضُ إِلَّا لِلْإِفْرَاطِ فِي الْكَرَمِ): فَمَا وَجَدَ خَزِيمَةُ بْنُ يَشِيرٍ مُوَاسِيًا وَلَا مَكَافِيًا؟ وَأَمْسَكَ عَنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ عَمَدَ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ، فَجَمَلَهَا فِي كَبَسٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِسْرَاجِ دَابَّتِهِ، وَخَرَجَ سَرًّا مِنْ أَهْلِهِ، فَكَبَسَ وَمَعَهُ غُلَامٌ وَاحِدٌ يَحْمِلُ الْمَالَ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَفَّ يَابَ خَزِيمَةَ. فَأَخَذَ الْكَبَسَ مِنَ الْغُلَامِ ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْهُ، وَهَدَّمَهُ إِلَى الْبَابِ فَطَرَفَهُ بِنَفْسِهِ، فَخَرَجَ خَزِيمَةُ، فَقَالَ لَهُ: أَصْلَحَ بِهَذَا شَأْنُكَ. فَتَنَاولَهُ فَرَأَهُ تَهِيلًا، فَوَضَعَهُ وَقَبَضَ عَلَى لِحَامِ الدَّابَّةِ،

وقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ جَلُتُ فِدَايَكَ ! قَالَ له : مَا جِئْتُ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، وَأَنَا
أُرِيدُ أَنْ تَمَرِّقَنِي ! قَالَ خَزِيمَةُ : فَمَا أَقْبَلُهُ أَوْ تُخْبِرَنِي مَنْ أَنْتَ . قَالَ : أَنَا جَابِرُ
عَبْرَاتِ الْكِرَامِ . قَالَ : زِدْنِي . قَالَ : لَا ! ثُمَّ مَضَى . وَدَخَلَ خَزِيمَةُ بِالْكَيسِ
إِلَى أَمْرَأَتِهِ ، فَقَالَ لَهَا : أَبْشِرِي ! قَدْ آتَى اللَّهُ بِالْفَرَجِ ! فَلَوْكَانَ فِي هَذَا ظُلُوسٌ ^(١)
كَانَتْ كَثِيرَةً ، قُوِي فَأَسْرَجِي ! قَالَتْ : لَا مَسِيلَ إِلَى الْمِرَاجِ . فَبَلَّتْ
يَتَلَبَّسُ الْكَيسُ ، فَيَجِدُ تَحْتَ يَدِهِ خَشُونَةَ الدَّنَائِيرِ . وَرَجَعَ عِكْرَمَةُ إِلَى مَنْزِلِهِ
فَوَجَدَ أَمْرَأَتَهُ قَدْ أَفْتَقَدَتْهُ وَسَلَّاتِ عَنْهُ ، فَأُخْبِرَتْ بِرُكُوبِهِ مُنْفَرِدًا ،
فَأَرْتَابَتْ وَلَطَمَتْ خَدَّهَا . فَلَمَّا رَأَتْهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ قَالَ لَهَا : مَا دَهَلُكِ يَا بِنْتَ
الْعَمِّ ؟ قَالَتْ : سَوَاءُ فِيلِكَ بِابْنَةِ عِمِكَ أَمْ أَمِيرُ الْجَزِيرَةِ يَخْرُجُ بَعْدَ هَذِهِ مِنْ
الْجِيلِ مُنْفَرِدًا عَنْ غِلْمَانِهِ فِي مِيرٍ مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا إِلَى زَوْجِيَةِ أَوْ سَرِيَّةٍ ^(٢) ؟
قَالَ : لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا خَرَجْتَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ! قَالَتْ : لَا بُدَّ أَنْ تَعْلِمَنِي . قَالَ :
فَأَكْتُمِيهِ إِذَا أَقَالَت : أَفْعَلُ . فَأَخْبَرَهَا بِالْقِصَةِ عَلَى وَجْهِهَا . ثُمَّ قَالَ : أَتُحِبِّينِ
أَنْ أَخْلِفَ لَكَ ؟ قَالَتْ : لَا ، قَدْ سَكَنَ قَلْبِي ! ثُمَّ لَمَّا أَصْبَحَ خَزِيمَةُ صَالِحَ
غُرْمَاهِ ، وَأَصْلَحَ مِنْ حَالِهِ ، ثُمَّ تَجَهَّزَ يَرِيدُ الْخُلَيْفَةَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
بِفِلَسْطِينَ . فَلَمَّا وَقَفَ بِبَابِهِ ، دَخَلَ الْحَاجِبُ فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِهِ ، وَكَانَ مَشْهُورًا
بِمُرُوءَتِهِ ، وَكَانَ الْخُلَيْفَةُ بِهِ عَارِفًا ، فَأَذِنَ لَهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخُلَافَةِ قَالَ :
يَا خَزِيمَةُ مَا أَبْطَأَكَ عَنَّا ؟ فَقَالَ : سَوَاءُ الْحَالِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ فَمَا مَنَعَكَ
مِنَ التَّهْنِئَةِ إِلَيْنَا ؟ قَالَ : ضَعْفِي ! قَالَ : فَرُبَّ أَنْهَضِكَ ؟ قَالَ : لَمْ أَشْمُرْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ هَذِهِ مِنَ اللَّيْلِ الْآ وَرِحْلُ طَرُقٍ بَابِي ، وَكَانَ مِنْهُ كَيْتٌ
(١) هِيَ مَا يَتَعَامَلُ بِهِ مِنَ التَّمَحُّسِ وَالشَّبْهِ (٢) السَّرِيَّةُ الْجَارِيَةُ تَشْتَرَى بِالْمَالِ فَتَكُونُ كَالزَّوْجَةِ

وَكَيْتَ (وَأَخْبَرَهُ بِقَصَّتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا). قَال: هَلْ عَرَفْتَهُ؟ قَالَ: لَا وَاقِهِ! لِأَنَّهُ كَانَ مُتَكْرراً، وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ إِلَّا «جَابِرُ عَثْرَاتِ الْكِرَامِ». قَالَ: فَتَلَفْتُ سَلِيلَانِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ. وَقَالَ: لَوْ عَرَفْنَاهُ لَأَعْتَاهُ عَلَى مَرُوءَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: عَلَى بَقَاةٍ فَأَتَى بِهَا. فَفَقَدَ لِحْزِيمَةَ^(١) الْوَلَايَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ وَعَلَى عَمَلِ عِكْرَمَةَ الْفَيَاضِ، وَأَجْزَلَ عَطَايَاهُ، وَأَمَرَهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْجَزِيرَةِ. فَخَرَجَ خَزِيمَةُ مُتَوَجِّحاً إِلَيْهَا. فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهَا خَرَجَ عِكْرَمَةُ، وَأَهْلُ الْبَلَدِ لِلْقَائِمَةِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ سَارَا جَمِيعاً إِلَى أَنْ دَخَلَ الْبَلَدَ. فَتَزَلَّ خَزِيمَةُ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ، وَأَمَرَ أَنْ يُؤْخَذَ عِكْرَمَةُ وَأَنْ يُجَاسَبَ. فُخْصِبَ فَفَضَّلَ عَلَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ، فَطَلَبَهُ خَزِيمَةُ بِلَالًا، فَقَالَ: مَالِي إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ سَبِيلٌ! فَأَمَرَ بِجَبْدِهِ، ثُمَّ بَعَثَ يُطَالِبُهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ إِنِّي لَسْتُ بِمَعْنٍ يَصُونُ مَالَهُ بِعَرْضِهِ، فَأَصْنَعُ مَا شِئْتُ! فَأَمَرَ بِهِ فَكَبِلَ بِالْحَدِيدِ، وَضَبَّقَ عَلَيْهِ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ ثَمَرًا، فَأَضْنَاهُ قَهْلَ الْحَدِيدِ وَأَضْرَبَهُ. وَبَلَغَ ذَلِكَ أَبْنَةَ عِمَةَ فَجَزَعَتْ عَلَيْهِ وَاعْتَمَتْ: ثُمَّ دَعَتْ مَوْلَاةً لَهَا ذَاتَ عَقْلٍ، وَقَالَتْ: امْضِي السَّاعَةَ إِلَى بَابِ هَذَا الْأَمِيرِ فَقُولِي: عِنْدِي نَصِيحَةٌ؛ فَإِذَا طُلِبْتُ مِنْكَ فَقُولِي: لَا أَقُولُهَا إِلَّا لِلْأَمِيرِ خَزِيمَةَ. فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَسَلِّهِ الْخُلُوعَ، فَإِذَا فَلَ قَوْلِي لَهُ: مَا كَانَ هَذَا جَزَاءَ جَابِرِ عَثْرَاتِ الْكِرَامِ مِنْكَ فِي مَكَافَأَتِكَ لَهُ بِالضَّبَقِ وَالْحَبْسِ وَالْحَدِيدِ أَفْعَلْتَ ذَلِكَ. فَلَمَّا مَعِمَ خَزِيمَةَ قَوْلُهَا قُل: وَاسْأَلْنَاهُ! جَابِرُ عَثْرَاتِ الْكِرَامِ غَرِبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ! فَأَمَرَ مِنْ وَقْتِهِ بِدَابَّتِهِ فَأَمْرَجَتْ، وَرَكِبَ إِلَى وَجْهِ أَهْلِ الْبَلَدِ فَجَمَعَهُمْ، وَسَارَ

(١) أَيُّ عَقْدٍ لَهُ لَوَاءُ الْوَلَايَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَلَّوْا وَلِيًّا تَحَدَّوْا لَهُ رَابِعَةً عَلَى قَنَاطَةِ أَوْ رَمَحٍ إِذَا كَانَ الْوَالِي مِنْ صِنْفِ يَوْمَنَدٍ إِدَارِيًّا حَرِيًّا

بهم الى بلب المجلس ففتح ودخل . فرأى عكرمة الفياض في المجلس متغيراً
قد أضناه الضرُّ ، فلما نظر عكرمة الى خزيمة وإلى الناس أحسنه ذلك .
فنكص رأسه ، فأقبل خزيمة حتى أنكب على رأسه فقبله ، ورفع رأسه إليه
وقال : ما أعقب هذا منك ؟ قال : كريمُ فيلك وسوء مكافأتي ا قال : يغيرُ
اللهُ لنا ولك . ثم أمر بفك قيوده وأن تُوضع في رجليه ، فقال عكرمة تريد
ملاذ ؟ قال : أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالكَ . قال : أقسم عليك بالله
ألا تفعل ! فخرجا جميعاً الى أن وصلا الى دار خزيمة ، فودعه عكرمة : وأرادَ
الأنصراف ، فلم يُمكنه من ذلك . قل وما تريد ؟ قال : أغيرُ من حالِكَ ،
وحياتي من أبنه عمك أشد من حياتي منك . ثم أمر بالحمام فأُخليت ، ودخلا
جميعاً ، ثم قام خزيمة فحوّل خنمته بنفسه ثم خرجا ، فظفح عليه ، وحمل اليه مالاَ
كثيراً ثم سار معه الى داره ، واستأذنه في الاعتذار من أبنه عمه ، فأذن له ،
فاعتذر إليهما ، وتلقم^(١) من ذلك . ثم سأله أن يسير معه الى أمير المؤمنين
وهو يومئذ مقيم بالرملة^(٢) فأنهم له بذلك . فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان
ابن عبد الملك . فسئل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر ، فراعه ذلك
وقال : وإلى الجزيرة يُقدّم علينا بنير أمرنا مع قرب العهد به ؟ ما هذا إلا
ليحدث عظيم ! فلما دخل عليه قال (قبل أن يسلم) : ما ورائك يا خزيمة ؟ قال :
خير يا أمير المؤمنين ا قال : فما أقدمك ؟ قال : ظفرتُ بجابر عترة الكرام
فأحببت أن أسرك لِمَا رأيتُ من شوقك الى رؤيته . قال : ومن هو ؟ قال :
عكرمة الفياض . فأذن له في الدخول . فسئل فسلم عليه بالخلافة ا فرحبَ

(١) اي استنكف من عمله إليها (٢) قرية من قرى فلسطين

به ، وأذناه من مجلسه أ وقال : يا عكرمة كان خير لك له وبالأعليك . ثم قال له :
اكتب حوائجك وما تختاره في رخصة . فكتبها وقصيت على الفور . ثم أمر
له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من الثخف ، ثم دعا بقناوة وعقد له
على الجزيرة وإزمينية وأذريجان . وقال له : أمر خزيمة اليك : إن شئت أقيته ،
وإن شئت عزلته : قال : بل أردته الى عمله يا أمير المؤمنين . ثم أنصرفا جميعاً ،
ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته

الزرافة

الزرافة (وتكنى أم عيسى) دابة من نوات الأربع . جملة المنظر
جمعت في خلقها أشباه جملة أنواع من الحيوان ؛ فهي برأسها وعنقها تشبه
البعير ، إلا أن عنق الزرافة يعظم مما يلي الصدر ، ويدق مما يلي الرأس ،
ولا ينحني ولا ينسط ، بل يظل منصبا ، ولأن رأسها أصغر قليلا وأدق
خطما من رأس البعير . وهي بأغلاف أرجلها للنشقة وقرنيها تشبه البقر
والوعول ، إلا أن أغلافها ليس لها زمتان ^(١) وإن قرنيها مستديران قصيران
مكسوان يجلد شعري ينتهي بحلقة من الشعر الكثيف . وبلون وبرجلها
الأرقط تشبه الثمورة والفهود . وبأرتفاع كاهلها كثيراً عن مؤخر كفلها
وأنحدار ممشيها وانتشار ممرقها تشبه الصبغ . ولذلك كان أممها
عند الفرس (أشتركاو بلك) ؛ لأن معنى (اشتر) الجمل و (كاو)

(١) الزمة هنا فاصلة قرنية فوق الاغلاف والحوافر ، وقد يكون بها شعر كشمر الخيل

البقر (بلنك) التمر ، وم يزعمون أنها تولد من هذه الدواب . وتشابه الحيوان المجتر في تركيب كروشه وأسمائه . ولستخري الزرافة جهاز عظمي تستطيع به فتحهما وإغلاقهما . أما عيناها فكبيرتان سوداوان جيلتا الشكل براقتان تتمكن بهما من النظر الى الأعلى والوراء في وقت واحد ، مما يحمل الذئب منها مستصمبا ؛ فإذا قاربها عدو بالرفق ، فلنفته عن قسمها بشدة قد تدأ عنها الأسد الضعيف

ولما كان أكثر رعيها أوراق الأشجار من السنط وغيره خلق الله عنقها طويلا مركبا في كاهل رقيق على صدر مستطيل عال ، فتناول ورق الشجر لسان طويلا رفيع يلتوي ويدق ؛ حتى تستطيع أن تلمسه في حلقه لا يزيد قطرها على نصف قيراط ليسهل عليها طي ورق الشجر وحزمه ، ولعينها على ذلك كثرة ما فيه من الطبقات الخشنة . وإذا أرادت رعي شيء من عشب الأرض فشحت يديها ، فيدنو صدرها من الأرض ، فيصل خطمها إليها والزرافة في عدوها أسرع من جياذ الخيل وأصبر على بند الشقة . وقوام الزرافة يختلف بين خمس عشرة وست عشرة قدما

وكان اعتقاد الناس فيها أن يتيها أطول من رجلها إلى أن أفسده الأمتحان وتحقق أن رجلها أطول من يديها بنحو قيراط أو ما يزيد عليه قليلا ، باعتبار أن الطول يتدنى من أسفل الإبلين في اليدين ومن قطعة أفضال الفخذين عن الأظلال^(١) ؛ ولكن أوقاع الكاهل وطول جانبي الصدر وأتصاب المتن كل ذلك يؤهم الناظر أن اليدين أكثر طولاً

(١) الأبطال الإفراج الذي بين فخذى الهامة وبعثها

وَيَخْتَلِفُ لَوْنُهَا بِاخْتِلَافِ أَعْضَائِهَا: فَالرَّاسُ أَشْفَرُ إِلَى الصُّنْزَةِ. وَحُلَى الْعُنُقِ وَالظَّهْرِ وَالْجَانِبِينَ رُفْطٌ مُرَبَّعٌ، كَمَا تَنْفَعِلُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ يَتَوَالِيْعُ^(١)



رأس الزرافة



الزرافة

يُضَاءُ إِلَى الصُّفْرِ. وَلَوْنُ الْبَطْنِ وَجَانِبِي الْفَخْذَيْنِ الْإِنْسِيْنِ^(٢) ضَارِبٌ إِلَى الْبَيَاضِ. وَلَوْنُ الزَّرَافَةِ فِي الذَّكَورِ أَجْمَلُ مِنْهُ فِي الْإِنَاثِ وَأَشَدُّ بَرِيقًا وَبَهَاءً، وَجِرْمُهَا أَعْظَمُ مِنْ جِرْمِ الْإِنَاثِ، وَهِيَ تَخَالِفُ الذَّكَورَ بِبُرُوزِ عَظْمِ الْجَبْهَةِ.

(١) جَمْعُ تَوَلَّيْعٍ وَهِيَ الْخَطُوطُ الَّتِي تَكُونُ فِي مِثْلِ حِمَارِ الْوَحْشِ وَقَصَصِلُ سَوَادِهِ عَنْ بَيَاضِهِ (٢) الْجَانِبِ الْإِنْسِي من القراع والفخذ في الحيوان هو الجانب الباطن منها. وَعَكْسُهُ يُسَمَّى الْجَانِبِ الْوَحْشِي

ومثله حل الزرافة خمسة عشر شهراً
وتعيش الزرافة في الحائل والفياض النضرة في أواسط إفريقيا شرقاً
وجنوباً : من بلاد الثوبة الى جوار رأس الزنباة الصالح . وهي كسلتر
الوحوش تنفق أمام التمدين وترجع عن كل مكان طرفة المتحضرين
ولا ترعى الزرافة إلا أسراباً
ولا ينتفع بالزرافة في شيء كيفما دجن وأنست . وفي حل أكل لحمها
خلاف بين علماء المسلمين

وكانت الزرافة تعد رؤسها في البلاد التمدين من الغرائب : فكانت
أغرى ما يهديه ملوك السودان الى ملوك البلاد الشمالية . وكان بولوس قيصر
أول من عرضها على الناس في معارض الحيوان ، ثم أفتى أثره كثيرون من
ملوك الرومان . وفي كتب العرب كثير من قصص التهادى بها : من ذلك
ما جاء في تاريخ ابن خلدون أن « أشروال من ملوك السودان تحف أباً سالم
أبن السلطان أبي الحسن المريني (ملك المغرب) بهدية سنية سنة اثنتين
وستين وسبعمائة » ، وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض
المغرب المعروف بالزرافة ، تحدث الناس بما اجتمع فيه من مفترق الحي والشيء
في جثمانه وتوثره دهرأ »

أما الآن فكثرت وجودها في معارض الحيوان بأكثر بلاد الدنيا . وفي
معرض حيوان الجزيرة عدة منها
والزرافة حيوان هلوع فقور . وإذا حُجِر عليه في حظيرة صار ودبماً في
الجملة ، ولكنه لا ينسى طبيعة النفار

سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

هو أمير المؤمنين، وثاني الخُلفاء الراشدين، أبو حفص عمرُ الفاروقُ ابنُ الخطاب بن نُفيل القرشي العدوي، وُلِدَ بعد مَوْلِدِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ثلاثَ عشرةَ سنةً؛ ونشأ (رضي الله عنه) بمكةَ فيما ينشأ فيه شُبَّانُ قُرَيْشٍ: من القيامِ بِرِغْيِ الماشيةِ في الصَّخْرِ ثم مزاولةِ التجارةِ ومُعالجةِ فنونِ القتالِ في الكِبَرِ. وكان الحدَّ الفارقَ بَيْنَ حِرْفَتَيْ الصَّغِيرِ والكَبِيرِ في قُرَيْشٍ مُناهزةُ الفتي الخامسةَ عشرةَ من عُمره. وزادَهُ اللهُ بَسْطَةً في الجِسْمِ والعقلِ فَاقَ بهما الكثيرَ من شُبَّانِ قَوْمِهِ. وكانت قُرَيْشٌ قَبْلَئِذٍ قد تَلَمَّتِ النُّطْقَ والكتابةَ من أهلِ الحيرةِ والأنبارِ، فكان عمرُ فَيَسَّرَ لعلَّها. فما شارَفَ العِقدَ الثالثَ من عُمرِهِ إلا وهو بصيرٌ بالتجارةِ شجاعٌ قَهِيفٌ^(١) فنونِ القتالِ؛ إذ كانت التَّصَافَةُ في القتالِ خِصْلَةً لازِمَةً وضرورةَ حَافِزَةٍ^(٢) لِلتَّاجِرِ القُرَشِيِّ الذي يَخْتَلِفُ بِضَاعَتِهِ في رِحْلَتَي الشتاءِ والصَّيفِ بَيْنَ اليَمَنِ والهِبَشَةِ جَنُوبًا والشَّامِ والعِراقِ شِمَالًا. فَعَظُمَ شأنُهُ في قُرَيْشٍ، وَعُدَّ في أَشْرَافِهِمْ وَرِجالاتِهِم المَدُودِينَ: بِبَلَاغَةِ لِسَانٍ وَقُوَّةِ جَنَانٍ وَأَصَالَةٍ رَأْيٍ وَمَضَاهِ عَزِيمَةٍ. وكانت إِلَيْهِ السِّقَاوَةُ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الدَّرَبِ في حَرْبِهَا وَسَلَامِهَا وَمُنَافَرَتِهَا^(٣) ومُفْلَحَتِهَا

(١) قَهِيفٌ شَاقَّةٌ صَارَ حَازِقًا خَفِيفًا فَطَنًا؛ فَهُوَ قَهِيفٌ (٢) دَافِعَةٌ، مِنْ حَزَنَةٍ يَحْزِنُهَا:

إِذَا دَفَعَهُ مِنْ خَلْفِهِ (٣) وَهِيَ الْحَاكِمَةُ فِي الْحِسْبِ وَعِزَّةُ الْفَرِّ وَالْقَبِيلِ

ولما جاء الإسلام كان من أشد الناس مناهضة^(١) له وإنكاراً على منعيه
وكان رسول الله يرى من صفاته الخلقية والنطقية ما يحب إليه إسلامه؛
حتى كان يدعو الله ويقول « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك :
بِعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام » . فاستجاب الله لئالي دعوته في
عصره ، فأعز الإسلام ودعا أهله الى الجهر به ، ولم يكونوا بعد أكثر من
خمس وأربعين رجلاً وثلاث عشرة امرأة يحتمون سراً في دار الأرقم
ابن أبي الأرقم المخزومي في أسفل جبل الصفا من مكة . فحدث عمر عن
نفسه في قصة إسلامه قال :

« خرجت بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام ، فإذا فلان المخزومي ، فقلت
له : أرغبت عن دين آباءك وأبنت دين محمد ؟ فقال : إن قلت قد فعله
من هو أعظم عليك حقاً مني ! قلت : ومن هو ؟ قال : أختك وختنك^(٢)
فأطلقت فوجدت ههنا ، فدخلت فقلت : ما هذا ؟ فما زال الكلام يبتنا
حتى أخذت برأس ختي فضربته فأدمنته . فقامت إلى أختي ، فأخذت
برأسي وقالت : قد كان ذلك على رعم أبليك ! فاستحييت حين رأيت الدماء
فجلست وقلت : أروني هذا الكتاب . فقالت : إنه لا يمسّه إلا المطهرون
فقمْتُ فأغتسلت ، فأخرجوا لي صحيفة فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم
(فقلت : أسماء طيبة طاهرة !) طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى
إلى قوله : الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » فتمظمت^(٣) في صدري ،

(١) مقاومة (٢) الخن : الصبر (٣) أي السورة ، أو الآيات ، أو أسماء

وقلتُ: مِنْ هَذَا قَرَّتْ قُرَيْشٌ؟ فَأَسْلَمْتُ. وَقُلْتُ أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم)؟ قَالَتْ: فَإِنَّهُ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ. فَأَتَيْتُ فُضْرِبَتِ الْبَابَ، فَأَسْتَجِبَ الْقَوْمُ، فَقَالَ لَهُمْ حَمْزَةُ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: عُمَرُ! قُلْ: وَعُمَرُ! أَفْتَحُوا لَهُ الْبَابَ؛ فَإِنْ أَقْبَلَ قَبِلْنَا مِنْهُ، وَإِنْ أَدْبَرَ كَلْنَاهُ. فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَخَرَجَ، فَتَشَهَّدْتُ، فَكَبَّرَ أَهْلُ الدَّارِ تَكْبِيرَ سَمِعَهَا أَهْلُ مَكَّةَ. قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى! قُلْتُ فَفِيمَ الْاِخْتِلَافِ؟ فَخَرَجْنَا صَفَيْنِ: أَنَا فِي أَحَدِهِمَا، وَحَمْزَةُ فِي الْآخَرِ؛ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ. فَنَظَرْتُ قُرَيْشٌ إِلَيَّ وَإِلَى حَمْزَةَ، فَأَصَابَتْهُمْ كَآبَةٌ شَدِيدَةٌ؛ فَسَمَعَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الْفَارُوقَ يَوْمئِذٍ^(١)،

وكان إسلامه (رضي الله عنه) في ذى الحِجَّة من السنة السادسة من النبوة وهو ابنُ ست وعشرين سنة. ولبثَ عُمَرُ والمسلمون معه يَمْجُرُونَ بِالْإِسْلَامِ إِلَى أَنْ بَايَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى رِجَالِهِ وَنَصَرَهُ الْإِسْلَامُ، خَافَتْ قُرَيْشُ الْمَاقِبَةَ، فَخَافَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَصْحَابَهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَلُوا يَنْسَلُّونَ مُسْتَخْفِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عُمَرُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا هَمَّ بِالْهَجْرَةِ ثَقُلَ سَيْفُهُ، وَتَكَبَّرَ قَوْمُهُ وَأَتَقَصَّى فِي يَدِهِ أَشْهُمًا، وَأَتَى الْكُعبَةَ، وَأَشْرَفَ قُرَيْشٌ بِغَنَائِمِهَا، فَطَافَ سَبْعًا ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَامِ، ثُمَّ أَتَى حَلَقَهُمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً؛ فَقَالَ: شَاهَتِ^(٢) الْوُجُوهُ! مَنْ أَرَادَ أَنْ تَشْكُلَهُ أُمُّهُ وَيَتَّيَّم وَلَدُهُ وَتُرْمَلَ زَوْجَتُهُ فَلْيَقْبَلْنِي قَرَاءَ هَذَا الْوَاقِ! فَا تَبِعَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) إِلَى الْمَدِينَةِ لَحَنَها مَعَهُ دَارَ

(١) لِأَنَّهُ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ (٢) قَبِحتْ

إِطَاعَةٍ، وَأَيَّدَهُ وَنَصَرَهُ، وَحَضَرَ مَعَهُ النِّزَوَاتِ كُلَّهَا، وَثَبَّتَ مَعَهُ فِي أَشَدِّ الْمَوَاقِعِ
الَّتِي لَمْ يَثْبُتْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَخْلَصَ لِلْإِسْلَامِ إِخْلَاصًا جَعَلَ قَسَمَهُ
تَمَتُّجُ بُرُوجِ الْإِسْلَامِ؛ فَجَاءَ الْقُرْءَانُ مُؤَيِّدًا لِرَأْيِهِ فِي بَعْضِ الْحَوَادِثِ
وَلَمْ يَزَلْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ الصَّاحِبِ الْأَمِينِ حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ
(صلى الله عليه وسلم)، وَأَخْتَلَفَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فِيمَنْ يَكُونُ خَلِيفَةُ
مِنْ بَعْدِهِ، فَأَيَّدَ أَبَا بَكْرٍ (رضي الله عنه) بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ حَتَّى تَمَّتْ لَهُ
الْيَسَمَةُ. وَبَقِيَ لَهُ مُدَّةٌ خِلَافَتِهِ مُسْتَشَارًا نَصِيحًا وَقَاضِيًا عَادِلًا حَتَّى إِذَا حَضَرَ
أَبَا بَكْرٍ الْمَوْتُ لَمْ يَمْدِلْ بِهِ بَدِيلًا يَخْلُفُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَكُلَّنْ هَذَا الْأَخْتِيَارُ
مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى حَقِّقِ أَبِي بَكْرٍ وَبُعْدِ فَظَرِهِ وَصَدْقِ فِرَاسَتِهِ وَشِدَّةِ
نُصْحِهِ لِلْمُسْلِمِينَ

فَلَمَّا تَوَلَّى عُرُ الْخِلَافَةِ لَمْ يَكُنْ أَوَّلَ هَمِّهِ إِلَّا إِيْمَامُ مَقَاصِدِ أَبِي بَكْرٍ فِي
فَتْحِ مَمَالِكِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَلَمْ يَتَأَخَّضْ فِي الْحَقِّ هَوَادَّةً^(١). وَلَمْ يَضْمَعْ قَوَاضِيَهُ
وَزُهْدَهُ عَنِ الثَّقَةِ بِنَفْسِهِ؛ فَكُلَّنْ مِنْ قَوْلِهِ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ فِي خُطْبَةٍ لَهُ
بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ بِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ :

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ لَا رِجَالُكُمْ أَوْ كُنْ خَيْرٌ لَكُمْ لَكُمْ
وَأَقْوَامُكُمْ عَلَيْكُمْ وَأَشَدُّكُمْ اضْطِرَاعًا^(٢) بِمَا يَنْوِبُ مِنْهُمْ أُمُورُكُمْ مَا تَوَلَّيْتُ
ذَلِكَ مِنْكُمْ، وَلَكِنِّي عَمَّرَ مِنْهُمْ مُخَرَّنًا أَنْتَظَارُ مَوَاقِفَةٍ^(٣) الْحِسَابِ بِأَخْذِ
حَقُوقِكُمْ كَيْفَ أَخَذُهَا وَوَضَعُهَا أَيْنَ أَضْمَهَا وَبِالسَّيْرِ فِيكُمْ كَيْفَ أَسِيرُ.

(١) أَيْ لَيْسَ (٢) قُوَّةٌ وَتَمَكُّنٌ وَأَحْمَالًا (٣) الْمَوَاقِفَةُ أَنْ تَقِفَ مَعَ غَيْرِكَ وَتَقِفَ
مَعَكَ فِي خُصُومَةٍ أَوْ حَرْبٍ وَالْمُرَادُ الْحَاسِبَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَرَبِّي الْمُسْتَعَانُ؛ فَإِنْ عَصَرْتُ أَصْبَحَ لَا يَتَّقِي بَقْوَةً وَلَا حِيلَةَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ وَعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

ولقد أخذَ بهذه الشدة في الله أكبرَ الصحابةَ وأشرافَ القبائلِ والعشائرِ من العرب. فأعترت المائةَ وساوئها الخاصةُ في الحقوقِ للشريعة. ولم يُقدِّم أحدٌ على أحدٍ إلا بحسْنِ بلائه في الإسلام وكثرةِ غنائه للمسلمين؛ فأطاعه الجميعُ إطاعةَ خضوعٍ للحقِّ لا إطاعةَ ذلِّ لجبار. وكان أشدَّ حاملٍ لهم على طاعته تنزيهه عن أموالهم ورضاه بالقليل من فيثوم: قُلْتُ إِلَيْهِ كُنُوزُ كَسْرَى وَخِزَانَةُ قَيْصَرَ، فَمَا زَادَ عَلَيَّ أَنْ مَشَى فِي ثَوْبٍ رُقِيعٍ وَأَتَدَمَّ بِالْغُلِّ وَالزَّيْتِ وَلَمْ يَأْكُلِ اللَّحْمَ إِلَّا بَعْضَ أَيَّامٍ فِي الْأُسْبُوعِ؛ فَلَمْ تَزِدْ قَفْقَتَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ عَلَى دَرَاهِمٍ فِي الْيَوْمِ. خُطِبَ يَوْمًا فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ فِي أَعْوَجَاجٍ فَلْيَقْوِمُهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ مِنَ الْمَسْجِدِ وَقَالَ: وَاقِهِ لَوْ رَأَيْنَا فِيكَ أَعْوَجَاجًا لَقَوَّيْنَاهُ بِسُيُوفِنَا! فَقَالَ عَمْرُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَقْوِمُ أَعْوَجَاجَ عَمْرَِ بِسَيْفِهِ

كَانَتْ كُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْبَاهِرَةِ كَفِيلَةً أَنْ يَلِيَّ هَذَا الْخَلِيفَةُ الْعَظِيمُ كُلُّ أَعْمَالِ الْخِلَافَةِ بِنَفْسِهِ؛ فَكُلٌّ يَنْصِبُ الْقَوَادِ، وَيُوَلِّي الْوَلَاةَ، وَيُحْرَكُ الْيُحْيُوشُ، وَيَرْسَمُ الْخَطَطَ الْحَرْيَّةَ، وَيَسْتُ الْأَمْدَادَ، وَيُقِيمُ الْفَنَاتِمَ، وَيُجِمُّ الْحُدُودَ، وَيُسَرِّ الْأَمْصَارَ، وَيَسُنُّ السُّنَنَ، وَهُوَ فَرْدٌ يُقِيمُ فِي مَدِينَةٍ مَخْفُوفَةٍ بِالْمَصْطَلَى لَا يُسَاوِيهِ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهَا إِلَّا بَضْعَةٌ قَرَرٍ: مِمَّا تَنَوَّهَ بِهِ الدُّوَلُ الثَّمْتُورِيَّةُ وَالْمَجَالِسُ النَّبَايَةُ. وَلَيْسَ لِهَذَا كُلِّهِ مِنْ سَبَبٍ سِوَى عَدْلِ الرَّئِيسِ وَإِخْلَاصِ الرَعَايَا وَاتِّحَادِ الْقُلُوبِ عَلَى طَاعَةِ الْحَقِّ وَقُوَّةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ

قوة عظيمة لم تلبث ممالك كسرى وقصر أن تدكدكت أماتها، وأصبح الإسلام في أيامه باسط اليدين على أغنى البلاد من أواسط آسيا إلى صحارى لوىة وبقيت خلافته كلها فتحاً ونصراً وعزاً ورحمة حتى دعى المسلمين فيه فلك العبد الأثيم للجورسي أبو لؤلؤة فيروز عبد المغيرة بن شعبة، وكان مولاه أستاذ عمر في إزاله المدينة لينفع الناس بصناعاته المتعددة؛ إذ كان نجاراً حَدَّاداً نَاشِئاً، فأذن له، وضرب عليه مولاه كل يوم درهمين يؤتيهما له، فأستظم ذلك فيروز، وشكا مولاه لعمرو، فقال له: أحسن إلى مولاك، ما خربك بكثير، (وفي بيته أن يكلم المغيرة في أمره)، ولكن الخليفة حقدّها عليه، وأعدّ له خنجرًا ذا نصلين نصابه في وسطه، وأختبأ وقت التلّس في زاوية من المسجد. فلما جاء عمرو للصلاة وقف وراءه في الصف، ولم يشرع فيها حتى طعنه غدو الله عنة طعنات إحداها تحت سُرته كانت سبب موته، ثم طعن ثلاثة عشر رجلاً ممن يليه عن يمينه ويساره مات منهم ستة، فألقى عليه أحد الناس رداؤه، فلما أغم فيه ألتجر بالخنجر؛ وحمل عمرو إلى داره، فأوصى بالخلافة إلى واحد من الستة الذين وُفّي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راضٍ، وم: عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطليحة والزبير. وأستاذن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في أن يدفن في حُجرتها مع صاحبيه: رسول الله وأبي بكر، فأذنت له، فحيد الله. ومات ليلة الأربعاء ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٣٣ هـ، ودُفن من القدر عن سين ثلاث وستين، ومدة خلافته عشرين وستة أشهر وثمانية أيام وكان عمر (رحمه الله) طويلاً جسيماً أيضاً شديد الحمرة أصلع أشيب

فِي حَارِصِيهِ خَفَةُ شَعْرٍ، وَسَبَلَةُ شَارِبِهِ كَبِيرَةٌ فِي طَرَفِهَا صُهْبَةٌ
وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ التَّارِيخَ الْمَجْرِيَّ
وَأَوَّلُ مَنْ دَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ وَسَنَّ قِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ

خطبتان

(رسول الله صلى الله عليه وسلم)

روى الجاحظ^(١) في البيان والتبيين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
خطب ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم أقبل على الناس فقال:
أيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ^(٢) فَأَتَتْهُوَ إِلَى مَعَالِمِكُمْ، وَإِنْ لَكُمْ نَهَايَةٌ
فَأَتَتْهُوَ إِلَى نَهَائِكُمْ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ حَاجِلٍ قَدْ مَضَى،
لَا يَلْدِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِهِ، وَبَيْنَ آجِلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَلْدِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ.
فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ^(٣)، وَمَنْ دُنِيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمَنْ الشَّيْبَةَ قَبْلَ
الْكِبَرَةِ^(٤)، وَمَنْ الْحَيَاةَ قَبْلَ الْمَوْتِ. فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ
مِنْ مُسْتَعْتَبٍ^(٥) وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التصانيف المشهورة توفي سنة ٢٥٥ هـ

(٢) معلم الشيء ما يستدل به عليه، أي إن الله وضع لكم معالم الخير فاحذروها

(٣) أي يحاسب نفسه لنفسه (٤) اسم من الكبر في السن (٥) استرضاه

ترجمة الخطيب (٢٤)

وروى صاحب^(١) صبيح الأعشى قال :

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم « أيها الناس كَانِ الموتَ فيها^(٢) على غيرنا قد كُتِبَ ، وَكَانَ الحقُّ فيها على غيرنا قد وَجِبَ ، وَكَانَ الذى نَشْتَعُ من الأمواتِ مَفْرُودًا^(٣) عما ظِلِلَ اليُنا راجعون ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَانَهُمْ^(٤) ، وَنَأْكُلُ من بُرَائِهِمْ ، كَأَنَّا مُطْلَدُونَ بِمَدَمٍ ، وَنَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِينَا كُلَّ جَالِحَةٍ^(٥) طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَمَهُ عن عيوبِ الناسِ ، طُوبَى لِمَنْ أَتَقَّقَ مَا لَا أَكْتَسِبُهُ من غيرِ بَعْصِيَةٍ ، وَجَالِسِ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ ، وَخَالِطِ أَهْلَ الدَّلِيلِ وَالْمَسْكَنَةِ ، طُوبَى لِمَنْ زَكَّتْ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَطَابَتْ مَرِيرَتُهُ ، وَعَزَلَ عن الناسِ شَرَّهُمْ طُوبَى لِمَنْ أَتَقَّقَ الْفَضْلَ من مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ من قَوْلِهِ ، وَوَسَمِعَتِ السُّنَّةُ ولم تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ !

الصحة^(٦)

الصِّحَّةُ بِحُجَّةِ الْحَيَاةِ ، وَالرَّضُ نَفْسُهَا ، وَالصِّحَّةُ مُتَّصِلَةٌ فِي الْإِنْسَانِ وَالرَّقْنَ طَارِيءٌ عَلَيْهِ ، وَمُجَانِبَةٌ أَسْبَابِ طَرَوْتِهِ أَهْوَنُ مِنْ مَجَالِجَةِ إِزَالَتِهِ بَعْدَ حَدُوثِهِ ؛ وَمِنَ الْأَقْوَالِ الْحَكِيمَةِ يَرَاهُمْ وَقَايَةُ أَفْضَلُ مِنْ قِنطَارٍ عِلَاجٍ .
غَيْرَ أَنَّنَا نَشَاهِدُ ، وَالْجِسْرَةَ مِلءُ قُلُوبِنَا ، أَنَّ كَثِيرًا مِنَّا لَا يَكْتَرِثُونَ بِأَمْرِ الصِّحَّةِ إِلَّا إِذَا أَرَعَجَهُمُ الْبَلَمُ الْمَرَضِ وَأَصْبَحُوا عَلَى شَفَا الْهَلَكَةِ

(١) هو شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي توفى سنة ٨٢٩ هـ

(٢) أى الدنيا (٣) جمع سافر وهو المسافر (٤) أى نسكنهم قبورهم (٥) آفة

(٦) اطلع على هذه المقالة حضرة النعاسى الفاضل محمد شفيع الطيب بوزارة المعارف

وأقر بصحة ما فيها من الحقائق الغنية

وإذا كانت الصحة تقوم على أسس ضرورية فإن بعضها يحمده الله
مستحق لنا بالفطرة، كالهواء والماء والحركة والنوم، وبعضها مقدور لنا ببعض
الكد والعمل، كالأكل والسكن والملبس. وإنما الذي ينقص الصحة على
الناس، ويكدر صفو الحياة هو سوء استعمال هذه النعم بالإفراط والتفريط؛
فبعضها لا ينتفعون منه بقدر الحاجة، وبعضها يتناولونه بجرص وشراهة.
فأما الهواء الذي هو أول شروط الحياة والذي لا يصبر الإنسان على فقدّه
يضع دقائق فكثير من الناس، وخاصة سكان المدن الكبيرة، لا يصيبون
منه كفايتهم مع أنه أكبر الأجسام المحيطة بهم؛ لأنه لا يمد صالحاً
للصحة حفاظاً للصحة إلا إذا كان متجدداً خالصاً من الأجسام الغريبة
كالأبخرة السامة والجراثيم العفنة. ولا شك أن سعة منازل المدن وشوارعها
وتنظيفها وتسهيل ممر الهواء بها مما يقلل من شوائب ضرر الهواء فيها،
ولكنه لا يكون من النقاء على مثل هواء الفلوات والبروج والبحار والأنهار
الكبيرة. فلذا حرمت سكان المدن التنفس في هذا الهواء النقي فلا أهون
من أن يقضوا بعض أوقات فراغهم في التزهة والرياضة بين ضواحيها،
وأن يتروحوا ببعض الرحلات البرية والبحرية ما أمكنتهم الفرص، فإن
الوقت الذي تقضيه في التنفس في الهواء الصحيح لا يمد ضائعاً، كأن أعظم
مقدار نستشقّه منه لا يُعتبر زائداً على حاجتنا. ولذلك نرى أهل البدو
وسكان الجبال على قفرهم وشطّط عيشهم وجهلهم أصحّ أجساماً وأشدّ قوّة
من أهل الحضرة على عظمهم وغنام

وأما الماء المذبّ فهو وإن قلّ في الأرض عن الهواء وتفاوتت أنواعه

ومقلد بره عند الأمم والأفراد لم يقل عن حاجة طالبه ولم يصعب استعماله في كل ما ينبغي له . وكل امرئ قادر على تحصيل كفايته منه وجعله صالحاً للاستعمال ، فيقضى أن تنقيه من الكدر برشيحه من مرشح أو زير ، وأن تكثر من استعماله وتغذيه عدة نظافتها في وضوئنا وغسل أبداننا وثيابنا

وكثرة استعمال الماء من أعظم شروط الصحة وأظهر علامات الحضارة والرفق في أخلاق الأمم . ولذلك جعل الدين الإسلامي استعماله في الوضوء والغسل فرضاً أو سنة في كل أنواع العبادات

فلن نحن نعوزنا النظافة ، ورشحنا مياه شربنا أمناً شر كثير من الأمراض المعدية والمعمرة والجلدية والبولية والرمدية وأكثر الأمراض القفنة ، ونشيط أعصابنا . وتهتكت مسام جلودنا ، فاستكملت وظيفة التنفس ، وأفرزت العرق الجانب لكثير من الفضول السامة

وأما الحركة فكل جسم حتى مضطرب إليها في تحصيل قوته ، إلا أن اتساع دائرة الحضارة ، وتعدد الأشغال العقلية ، وكثرة الترف والنهي جعل حياة كثير من أهل المدن جلوسية ، هالت فيهم الحركة الضرورية لصحة الجسم ، ووجب عليهم الاستعاضة عن أعمال الصناعات الجسمية بالرياضة البدنية : من نحو المشي غير المتعب والمشي المنتظم والسباحة والتجديف وركوب الخيل والصيد والألعاب النظامية والتسلق في أوقات الفراغ يعض الصناعات اليدوية الجميلة كالنجارة وزراعة البساتين ونحوهما . ويحمل بصغار

الفتيان أن ينتظموا في سلكِ فرقِ الكشافَةِ المَهْدِيَةِ التي لا تُلهيها أعمالُها
عن الفرس وطلب العلم

ومن هنا نلّمُ حكمةَ خليفَتنا العظيمِ عَمْرِ بْنِ الخطّابِ إِذِ يقولُ: «عَلِمُوا
أولادكم الرِّمَايةَ والمَوَمَ، ومروهم فَلْيَتَّبِعُوا عَلَى الخيلِ وَثْباً» (١).

وتُعتبرُ الصلاةُ فوقَ أنها عبادةٌ للخالقِ وتهذيبٌ للنفسِ من أجمعِ أنواعِ
الرياضةِ، لتحريكِ كُلِّ أجزاءِ الجسمِ فيها، فيجب أن تُحافظَ عليها وتُؤدّيها
في أوقاتها لِتَسْتَظِلَّ أعمالُنا، وتنبّه من غفلةِ قلوبنا، فإذا عُيِنَا بحركِ أعضائنا
فأدبنا الصلاةَ على أَكْمَلِ وجوهها، وواظبنا على الأعمالِ التي نَسْتَدِرُّ منها
أَرْزاقنا، ونَمَهِّدُنا أجسامنا بأنواعِ الرياضةِ جادَ هضمنا، وسهّلَ تنفّسنا،
وأنفِرحَتِ صُدُورُنا، وتجددتِ دماؤُنا، ونَشِطَتِ أعصابُنا وعقولُنا، وأتَفَتِ
الفضولُ السامةَ عَنّا؛ لتأديةِ كلِّ عضوٍ في الجسمِ وظيفتهِ بنظامٍ، وأحتلَمَ لِمَشاقِّ
أعمالِ الحياةِ والدِّفاعِ عن النفسِ والمالِ والأهلِ والوطنِ والحقِّ

أما النومُ فهو الراحةُ الأضراريةُ العظمى للجسمِ الحيِّ، ولكن لا يَعرُبُ
عن عقولنا أن الراحةَ لا تُعْبِدُ أو هي تَنقَلِبُ ثَمْباً إذا لم تَبْلُغْ حدَّ الاعتدالِ
أو تَجاوِزَه. فينبغي أن تكونَ مَدَّةُ النومِ في ضَبْطَةٍ الليلِ مناسبةً للسنِّ؛
وإن ساعَةَ نومٍ لِبَليلٍ خَيْرٌ من مثْلِها بالهَوارِ؛ فَنَمِّ مُبَادِراً وَأَسْتَقِظْ مُبَكِّراً

وسَيَأْتِي يومٌ تَعْرِفُ فيه مَعْنَى الأَرَقِّ بِكَثْرَةِ الهُومِ والحوادثِ ومُعضلاتِ
الحياةِ، فلا تَنزِجْ لَدُنْكَ، وروِّضْ جِسْمَكَ وعَقْلَكَ بِمُشاهدةِ المناظرِ الجميلةِ

(١) بالآلِ يَسْتَمِينُوا عَلَى رُكُوبِها يَوْضِعُ الأَرَجَلِ فِي الرُّكْبِ. وكان هو رَضِيَ اللهُ

عنه يَجْمَعُ جِرامِيَه: أي أطرافه ثم يَثْبُتُ فَكأنه مخلوقٌ مع الفرس

وجواب السرور. وأحذر أن تتناول منوماً، وثق بعد ذلك أنك ستنام
نوماً طويلاً منمناً

وأما المأكَلُ فهو مادةُ الحياة التي منها يتكوّن الجسمُ ويستفيضُ بها عما
فقده بالعمل، إلا أن الجسمَ لا يحتاج منه إلا إلى قدرٍ معلوم. فلذا زادَ عليه
أستحالَ سُمّاً بطيئاً أو سريعاً. وتسعةُ أعشارِ الناسِ يَقعونُ في هذا الخطيئةِ؛
حتى صارَ عندَ المرضي بسوءِ الهضمِ يربو على أضعافِ بقيةِ المرضى. ومن
السَّهْلِ تموُّدُ كثرةِ الطعامِ، ولكن من الصعبِ جداً تموُّدُ الأَكْتَفَاءِ
بالقليلِ منه؛ فَتَخَذْ قولَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) لرسولِ المقوقِسِ:
«نحن قومٌ لا نأكلُ حتى نجوعَ، وإذا أكلنا لا نشبعُ» ميزانَ اعتدالنا
في المأكَلِ

وكثرةُ ألوانِ الطعامِ وتأثُّقُ الطَّهارةِ في صنِّهِ مما يُغري الأَكَلَةَ بالشَّرمِ
إليه والحِرْصِ عليه، فيختلُّ نظامُ الجسمِ والعقلُ؛ فلا تُكثَرُ من ألوانِهِ؛
فإنما نأكلُ لِنَمِشَ لا لِنَمِشُ لنأكلَ

وأما المسكنُ فهو حصنُ حياتنا وكنزُ أجسادنا ومهبطُ راحتنا، ومجمَعُ
شَمَلتنا وحرزُ قائلتنا، ومستودعُ أسرارنا، وبه تقضى نصفُ أعمارنا ما بينَ
نومٍ وراحةٍ وأنسٍ بالأهلِ والأقاربِ. وهو الوطنُ الصغيرُ الذي يجبُ على
رَبِّ البيتِ الحرصَ على إسماعِ سكَّانِهِ وتوثيقِ أسبابِ الألفةِ بينهم
فَتَخِذْ منازلنا في محلَّةٍ هادئةٍ، ولتكنْ حُرَّاتُها رحيّةً ووافدُها واسعةً
لتسهلَ مِرورُ أهولِها، وتغوذَ أشعةُ الشمسِ إليها، وإلى حجرةِ النومِ خاصّةً

ولا ننسى أَنَّ وَفَرَةَ مرافق للنزل وإحكام مسابيل مياهه وتنظيف مظهره
من أهم شرائط الصحة فيه وأجمع أسباب الراحة
وأما الملابس فهي مرآة أخلاقنا وعنوان بُللنا واعتدال دَوَقنا، فلا نلبسها
الأنظيفة مقبولة اللون؛ ولئن عدلنا بها عن أصل المقصود منها وهو الوقاية
من الحر والبرد الى المغالاة في ثمنها وبرقشة ألوانها والتأنيق في هتلمعة
تفصيلها حتى نجعلها كقوالب لأجسامنا لقد جصلناها إذا مشغلة لمقوانا
وخواطونا فوق تكاليف الحياة الكثيرة . فلندع ذلك لأهل الدعة والبطالة
الذين فاتهم زنة العلم والعمل وتهذيب النفس ، فأرادوا أن يتستروا عنها
بروق الثياب، وهيات أن تروق تمويهاتهم عقلاء الرجال وأبطال الأعمال
وإنما تلصقهم بالقواعد من ربات الحجال^(١)

خطبة

{ لأبي بكر (رضي الله عنه) }

روى السيوطي^(٢) في تاريخ الخلفاء أَنَّ أبا بكر (رضي الله عنه) خطب
الناس فقال : (بعد أن حيد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم)
أوصيكم بتقوى الله والأعتصام بأمر الله الذي شرع لكم وهذا كم
به ؛ فلن جوامع هدي الإسلام بعد كلمة الإخلاص السمع والطاعة لمن

(١) أي القسا. والحجال جمع حبة وهي موضع يزين بالثياب والأسرة والستور همروس

(٢) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المصنف المشهور توفي سنة ٩١١ هـ بالقاهرة

ولأَنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ؛ فَانَهُ مَنْ يَطْعُ اللَّهَ وَأُولَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَدْ أَطْلَحَ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ. وَإِيَّاكُمْ وَأَتَّبَاعَ الْهَوَى؛ فَقَدْ أَطْلَحَ مَنْ حَفِظَ مِنَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ وَالْمَنْصَبِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُضْرَةَ وَمَا فَخَرُ مِنْ خُلُقٍ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِلَى التُّرَابِ يَمُودُ، ثُمَّ يَا كُلَّهُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ الْيَوْمَ حَتَّى وَغَدًا مَيِّتٌ؟ فَأَعْمَلُوا يَوْمًا يَوْمٍ، وَسَاعَةً بِسَاعَةٍ، وَتَوَقَّروا دُمَاهُ الْمَظْلُومِ، وَعَثَلُوا أَتَقَسَّمُ فِي الْمَوْتِ. وَأَصْبِرُوا، فَلَنْ الْعَمَلَ كُلَّهُ بِالصَّبْرِ. وَأَحْذَرُوا، وَالْخَيْرُ يَنْفَعُ. وَأَعْمَلُوا، وَالْعَمَلُ يُقْبَلُ، وَأَحْذَرُوا مَا حَذَرَكُمْ اللَّهُ مِنْ عَذَابِهِ، وَسَارِعُوا فِيمَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَفْهَمُوا وَفَهَّمُوا، وَأَتَّقُوا، وَتَوَقَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ مَا أَهْلَكَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَمَا نَجَّى بِهِ مَنْ نَجَّى قَبْلَكُمْ؛ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ فِي كِتَابِهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ، وَمَا يُحِبُّ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَا يُكْرَهُ؛ فَإِنِّي لَا أَلُوكُمْ^(١) وَهَمِي. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَا أَخْلَصْتُمْ لَهُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَرَبِّكُمْ أَطْعَمَ، وَحَفِظَكُمْ حَفِظْتُمْ وَأَعْتَبْتُمْ^(٢)، وَمَا طَوَّعْتُمْ بِهِ لَدَيْنَكُمْ فَأَجَلَوْهُ نَافِلٌ^(٣) بَيْنَ أَيْدِيكُمْ تَسْتَوْفُوا سَلَفَكُمْ^(٤) وَتُطْلُوا جِرَائِبَكُمْ^(٥) حِينَ تَقْرِكُمْ^(٦) وَحَاجَتَكُمْ إِلَيْهَا. ثُمَّ تَتَكَبَّرُوا عِبَادَ اللَّهِ فِي إِخْوَانِكُمْ وَصَحَابَتِكُمْ الَّذِينَ مَضَوْا، قَدْ وَرَدُوا عَلَى مَا قَلَّمُوا فَأَقْلَمُوا عَلَيْهِ، وَحَلُّوا فِي الشَّقَاءِ أَوْ السَّعَادَةِ فِيمَا بَعْدَ اللَّوْتِ. إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ

(١) مضارع ألا وهو هنا بمعنى «ترك» أى لا أترككم من التذكيد بالخير ولا أترككم
فهمى أيضاً (٧) أى حسن حالكم (٢) جمع نافلة وهى السطية وما تقبله مما لم يجب
(٤) التلغ القرض وكل عمل صالح قدمته. أى تستوفوا من الله جميع ما قمتنوه
بين أيديكم (٥) الجراية الجارى من الوظيفة والرزق (٦) أى فى الآخرة :

له شريك، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يُعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره؛ فإنه لا خير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وصلوا على نبيكم (صلى الله عليه وسلم)، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

القاهرة المعزية.

لما أتتكم فتل الدولة المباسية بغلبة الولاة والثوار من الترك والذين لم
والرب على أطلما، بل على بغداد قسماً كان الطوئون المشهورون بالفواطم
من غلب على كثير من ممالكها؛ فاستولوا على شمالي إفريقية ثم على مصر
والشام والحجاز. وأول من دما منهم إلى نفسه بالخلافة خليفتهم الأول
عبد الله بن محمد، وتلقب بالمهدي، وأقام بإفريقية، ثم خلفه ابنه القائم
بأمر الله محمد ثم ابن القائم المنصور بنصر الله إسماعيل ثم ابن المنصور
المعزي لدين الله أبو تميم معز.

وكاوا يرسلون الصيوش للاستيلاء على مصر فيمضون^(١)، حتى ضعفت
شوك الدولة الإخشيدية، فأرسل المعز جيشاً عرماً بقيادة مولاة
وكاتبه جوهر الصقلي، ففتح مصر بعد مناوشة خفيفة، ونزل بجيوشه
شمالي العسكر، وحفر حيث نزل من ليلة الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ

(١) بطردون ويمدون

أساس القصر الكبير الذى أعده لمولاه وأساس أسوار المدينة ، وبجانبه
مسجده الجامع الأزهر ، وأنزل طوائف الجيش حولها فى نحو عشرين حارة ،
وخص كل طائفة بحارة زويلة^(١) وحارة الروم ، وحارة كُتامة ، وأحاط
الجميع بدور من اللبن ؛ فكان من ذلك مدينة سُميت القاهرة تهاولاً بأنها
تقهر أعداءها . وكان القصد من بنائها أن تكون تُكنى للجند وذراً للخلافة
ومعقلاً يدفع عن الفسطاط وما وراءها المغيرين من جهة الشام . وقد أتمد
فى اختيار موضعها من النيل ؛ لأنه كان يطنى بمض السنين على أراضى الساحل
الشرقى فيجعلها ترّة إن لم يلهمها جملة لذكاء كانت فى أول الفتح مجرى له

وكان موضع هذه المدينة شرق الخليج بقليل رملة لبس بها معمر
الإدبر كان يسمى دبر المطام دخل فى خطة القصر للملكى ، والإبستان
لمحمد بن طنج الإخشيد على الخليج (من جهة الموصلى) يُعرف بالبستان
الكافورى ؛ فكان الخليج حداً غربياً للمدينة يبعد عن سورها بنحو ثلاثين
ذراعاً فرنسية ، وتلوى مقبرة المجاورين الحالية وباب الوزير حداً شرقياً

أما الجنوبي فكان يبتدىء بالقرب من حيضان الموصلى إلى الخليج بجهة
باب الخرق (الخلق) ، والشمال من نهاية مقبرة المصطفى إلى الخليج . وكان
فى الجهة الجنوبية باباً زويلة وفى الشمالية بابان^(٢) باب النصر وباب الفتوح
وفى الغربية باب سعادة وباب الخرق ، وفى الشرقية الباب المحروق وباب

(١) اسم قبة بربرية جاءت منها فرقة مع جوهر من التبر واختلط خطها

جانب هذا الباب (٢) كان جوهر قد بنى فى هذه الجهة بابين فلما بنى الأفضل

الباب الحالى هدمهما واتخذ باباً واحداً

البرقية ؛ وهذه الأبواب خرجت عن مواضعها قليلاً عندما بناها الأفضل أمير الجيوش فأتست بذلك القاهرة ستين فداناً فأصبحت أربعاً فدان على شكل يكاد يكون مربعا

وأهم المباني التي أشتملت عليها القاهرة في القرن الخامس الهجري القصران الشرق والغرب وخزائنها ، ودار الوزارة ، ودار الصيافة ، والجامع الأزهر وجامع الحاكم ؛ وبلى ذلك ربيع وفنادق وخانات وأسواق ومساجد ودور خاصة الدولة وطلعتها ، ثم السور والأبواب المجددة العظيمة

فأما القصر الكبير فكان يمتد طويلاً من شارع خان الخليلي إلى مدرسة يبر من الجالشنكير بالجمالية ؛ ويمتد عرصاً من قطعة تلاقى شارع خان الخليلي بشارع الصاغة إلى ما وراء شارع أم الفلام ، ثم يتجه حده شمالاً إلى نهاية شارع قصر الشوك . وكان هذا القصر يشتمل على عددٍ قصيرٍ صغيرٍ كقصر الشوك وقصر الذهب أوقاعة الذهب وغيرهما ، وله عدة أبواب : أعظمها باب الذهب عند مدخل شارع خان الخليلي من الصاغة ، ثم باب البحر وموضعه الآن باب قديم نخلان بشتاك ، وباب الریح ، وباب اليد من جهة شارع الجمالية ، وباب الديلم ويدخل منه إلى مشهد رأس الحسين وباب الزعفران ويسلك منه إلى تربة القصر بمكان خان الخليلي

وأما القصر الصغير فكان موضعه الآن الصاغة وحمام النحاسين ومسندني قلاوون والقبّة والمدرسة وجامع برقوق والمدارس التي بسده إلى الخرقش وكانت دار الوزارة شمالاً مدرسة الجمالية الآن على شارع باب النصر ، وأما دار الصيافة

وكان جامع الحاكم أكبر من الجامع الأزهر، ويشغل الفضل القتي بين
باب الفتوح وباب النصر

وكان الجامع الأزهر جنوبي القصر، وقد بارك الله عليه فبقى عامراً
تتنافس الملوك والسلاطين في توسعته وتسهيل طلب العلم فيه
وأما سور القاهرة فقد بناه أولاً جوهر القائد بالدين، ثم تجاوزاه الأفضل
أمير الجيوش وبنى سوراً آخر بالدين عليه جملة أبواب: أعظمها باب زويلة
وباب النصر، وباب الفتوح: قام بإنشائها فيما يقال ثلاثة مهندسين من
مدينة الرها^(١)؛ فجاءت أعظم أبواب لمدينة إسلامية

وكانت دواوين الدولة أولاً في القصر الكبير، ثم نُقلت إلى دار
الملك على ساحل القسطنطين، ثم عادت إلى القصر

وكانت القاهرة في أول عهدائها كلها ملكاً للخليفة؛ فلم يكن يُسمع لأحد
من غير خاصة السلطان وجنوده أن يملك فيها أو يسكنها، وإنما كان السلطان
يُوجِبُ الأسواق والدكاكين والمصانع ونحوها لأهل القسطنطين بأجور
عظيمة. ثم أُذن للناس بالملك فيها، فأنتقل إليها كثير من تجار القسطنطين
وضانعها، وغصت بالرباع والفنادق والحمامات والأسواق وأزدحمت بالسكان
فقلوا في رفع طباق اللباني فبلغت مئة وسبعمائة، بل أنشئوا ظاهرها كثيراً
من العمار والدياراتين

وبلغت القاهرة القديمة في أواسط القرن الخامس غاية عمرانها، وتأنق
خلفاؤها ووزراؤها في تشييد المناظر والقصور وتخصيم الرباع والدور،

(١) هي مدينة أروقة الآن

وتفننَ بها الصُّنَّاعُ في النَّقشِ والزَّخرفةِ وتألَّفَ الألوانُ والأصباغُ والزُّجاجُ
المُلوَّنُ والإبداعُ في تلييطِ الرُّخامِ وتركيبِ المُسَيِّمِ^(١)، مما باهتَ به القاهِرَةُ
بضدادٍ وقرطبةً، وكانَ نموذجاً متقناً لارتقاء فنِّ المِمارَةِ والزَّخرفةِ أوِاخِرَ القرنِ
السَّابعِ وأوائلِ الثَّامنِ . وقلَّما سُمِعَ في تاريخِ دولةٍ إسلاميةٍ ما سُمِعَ عن
الخلفاءِ الفاطميينِ في تَرَفِّهِمِ وأمتلاءِ خزائِنِهِمِ بالنَّخائرِ والنَّفائسِ والجواهرِ
والأمْلحةِ والكُتُبِ



منظر الجنوب الغربي من القاهرة

ولم يَقمُ في مملكتِهِ من الاحتفالِ ما كانَ يقومُ به خلفاءُ القاهرةِ في المواسِمِ
والأعيادِ، وهي الأيامُ التي كانوا يظهرون فيها للرَّعيةِ، وقلَّما كانوا يظهرون
لهم في غيرها، وإنما كانَ لهم سَراديبٌ تحتَ الأرضِ ينتقلون فيها إلى قصورِهِمِ
ومنازلِهِمِ على الخَلِيجِ وغيرِهِ

(١) خرز وفصوص من زجاج وحجارة ومعادن تخطط فتكون مزيجاً بديع الألوان

وَقَبِيتَ الْقَاهِرَةُ تَحْتَ أَلْيَتِهَا وَزُخِرَ فِيهَا حَتَّى دَهَمَتْهَا فِتْنَةٌ قَلَمَتْ بَيْنَ طَائِفَتَيْ الْجُنُودِ السُّودَانِ وَالذُّرُكِ زَيْنَ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصِرِ ، فَتَعَطَّلَتْ فِيهَا لِلرَّافِقِ ، وَأَخْثَلَ الْأَمْنُ ، فَتُهِبَتِ الدُّوْرُ وَقُصُورُ الْخُلَفَاءِ . وَتِلَا ذَٰلِكَ الْكَارِثَةُ الَّتِي لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا فِي التَّارِيخِ ، وَهِيَ الْمَجَاعَةُ الْعُظْمَى الَّتِي أَسْتَمَرَّتْ سَبْعَ سِنِينَ وَعَمَتِ الْقَطْرَ لِلْمِصْرِيِّ ، وَصَحْبَهَا طَاعُونَُ جَارِفُ أَهْلِكَ أَكْثَرَ مِنْ ثُلُثِ سُكَّانِ الْبِلَادِ ؛ فَكَانَ مِنْ أَقْوَى عَوَامِلِ ضَعْفِ الْخُلَفَاءِ وَطَاعِمَتِهِمْ . عَلَى أَنَّهَا قَدْ حَفِظَتْ كَثِيرًا مِنْ رَوْتِ حَضَارَتِهَا حَتَّى زَالَتْ دَوْلَةُ الْفَوَاطِمِ عَلَى يَدِ صُلَاحِ الدِّينِ ؛ فَأَخْرَجَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قُصُورِهِمْ ، وَأَسْكَنَ أَمْرَاءَهُ الْقَصْرَ الْكَبِيرَ ، وَأَسْكَنَ أَبَاهُ الْقَصْرَ الصَّغِيرَ ، وَنَزَلَ هُوَ وَبَنُو خَلْفِهِ دَارَ الْوِزَارَةِ . ثُمَّ أُنْشِئُوا قَلْعَةَ الْجَبَلِ ، فَاتَّخَذُوها مَوْءِنًا بِسَدَمِ دَارِ مُلْكِهِ ؛ وَلَمَّا أَتَقَرَضَتْ دَوْلَتُهُمْ وَخَلَفَتْهَا دَوْلَةُ الْمَمَالِكِ اسْتَدْعَى مِنْهُمْ السُّلْطَانُ ' لِلْمَلِكِ الظَّاهِرُ يُبْرِسُ الْبُنْدُ قَدْ أَرَى أَوْلَادَ الْعَاصِدِ الْفَاطِمِيِّ ، وَأَسْتَزَلَّهُمْ عَنْ مِلْكِ آبَائِهِمْ فِي الْقُصُورِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْأَدْوَارِ وَجَمِيعِ مَا خَلْفُوهُ بِأَعْمَارِ صُورَتِهِ ، وَأَسْتَحْلَ بِذَلِكَ بَيْعَ هَذِهِ الْأَمْلاِكِ ، فَبِيعَتْ وَقُسِمَتْ شَوَارِعُ وَحَارَاتِ ، وَفَنَاقِقُ وَحَامِلَتِ ، وَتَمَيَّزَتْ مَعَالِمُهَا جُمْلَةً

هَذَا شَأْنُ الْقَاهِرَةِ زَمَنِ الْفَوَاطِمِ وَبَعْدَهُ بِقَلِيلٍ .

وَلَمَّا أَصَابَتِ الْمَمَالِكَ الشَّرْقِيَّةَ إِحْنُ التَّارِكِ وَكَوَارِثُهُمْ ، هَاجَرَ مِثَالُ الْأَوْفِ مِنْهَا إِلَى مِصْرَ وَالشَّامِ ؛ فَكَانَ نَصِيبُ الْقَاهِرَةِ مِنْهُمْ عَظِيمًا ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ التَّارِكِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَصَافَتْ بِهِمْ ، فَزَلُّوا ظَاهِرَهَا غَرْبِي الْمَدِينَةِ وَبَنَوْا الْمَهَارَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالْأَسْوَارَ وَالْفَنَاقِقَ وَالْخَانَتِ ، وَسُجِّيَ جَمِيعُ ذَلِكَ ظَاهِرَ

القاهرة؛ حتى إذا آذن الله بتشتت شمل التار وإسلام من بقي منهم صفا الزمان للملوك الترك البحرية بمصر، وأستفحل أمرهم، وأمتد سلطانهم إلى الجزيرة القرائية والحجاز وبرقة ودقهلة، وأصبحت القاهرة في ذلك الحين أفخم حاضرة إسلامية تجبي إليها ثمرات كل شيء من مشارق الأرض ومناربها؛ تحفقت بشداد وقرطبة؛ وأمتدت عماراتها حتى أصبحت حدودها من منية الشبرج إلى دبر الطين، ومن سليل النيل الحللي إلى قبور الخلفاء؛ أي كانت محارب ما هي عليه الآن، وتنافس المالك في عمارة المساجد والأربطة والسبل والمدارس والرباع والفنادق والحمامات حتى خرجوا بذلك عن حدة المعقول؛ فلا يكاد الإنسان يرى بالشارع القى يتد من السيدة قيسة إلى باب النصر وباب الفتوح حتى يُفعله عدو ما يراه على جانبي الشارع من للمساجد والمدارس والأربطة التي تتجلى فيها بدائع الصناعة المرية من البناء والنحت والنقش والتطعيم والنجارة الدقيقة، مما هو مائل إلى الآن يشهد بضخامة السلطان وأبهة الملك وعظم الثروة التي كانت تتمتع بها القاهرة. وأصدق شاهد بذلك ما قاله المؤرخ الثقة الحكيم عبد الرحمن بن خلدون في رحلته إلى المشرق عند ما دخل الاسكندرية وأنتقل منها إلى القاهرة سنة ٧٨٤هـ

« فانتقلت إلى القاهرة أول في القعدة، فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومخسر الأمم، ومبرج الدر من البشر، وإوان الإسلام، وكروسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهو الخواقي^(١) والمدارس

(١) جمع خاتاه: كلمة تركية عربت وأطلقت على الأربطة (التكايا)

بآفاقه، ونُصي البُدُور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء النيل يسقيه
العلل والنهل سيحه، وحبى إليه الثمرات والخيرات سبحة^(١). ومررت في
سِكَكِ المدينة فنصت بزحام المازة وأسواقها تزخر بالنعم الخ.

ولكن مآل كل حال الى الأضمحل، فلم تنعم القاهرة بذلك أكثر
من قرنين؛ حتى تناوبتها الفتن وفورات الممالك الداخلية، والطواعين الجارفة
التي أعظمها طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فأبتدأ خراب العمر في
ظاهر القاهرة؛ حتى فتح السلطان سليم مصر، فأصبحت بذلك ولاية خالية
من أئمة الملك والسلطان والنبي، وزاد الخطب تفاقمًا قل السلطان سليم
كثيراً من مهرة الصنّاع الى القسطنطينية. وتضاعف الخراب في القاهرة
حتى كانت أزمان الاحتلال الفرنسي تكاد تحصر بين حدود القاهرة القديمة.
ولما أخذ الله لحضارة القاهرة أن تبت من رقديها أتاح لها حكومة المصلح
العظيم محمد علي باشا الذي جدّد في مصر كل شيء، وقتل إليها حضارة
أوربة، وشيّد فيها المصانع والمدارس والشكّانات وجلّد بنية القلعة وأقام فيها
ذلك المسجد الفخم الذي أصبح علم القلعة للفرد. وأنشأ بها حفيده العظيم
الخديو إسماعيل عشرات القصور، وشق بها كثيراً من الشوارع؛ وغرس بها
الأشجار والحدائق، ومنها حديقة الأزبكية وأفسح الميادين وبني قصر حابدين،
فأخفت القاهرة تنتش بالتدريج حتى صارت تماثل أو تفوق ما كانت عليه
في القرن السابع. وأصبح عدد سكّنتها أكثر من ثمانية آلاف. ودلائل
الأحوال تشير الى أنها ستكون أكبر مدينة إسلامية على وجه البسيطة.

(١) أى السبح فيه. والسبح أيضاً التغلب في المعاش والعلب والحبى فيه وهو
مناسب هنا أيضاً

خطبة

(لمرين الخطاب (رضى الله عنه))

روى صاحب صبح الأعشى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال من خطبة :

أيها الناس ! إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده ؛ ألا وإنه قد خيل إلي أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون ما عند الناس ^(١) ؛ ألا فأريدوا الله بقرائتكم ، وأريدوه بأعمالكم ؛ فإنما كنّا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبي (صلى الله عليه وسلم) بين أظهرنا ^(٢) ، فقد رُفِعَ الوحي ، وذهب النبي (عليه السلام) ؛ فإنما أعرّفكم بما أقول لكم : ألا فمن أظهر لنا خيراً ، ظننا به خيراً وأثنيّا به عليه ؛ ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً ، وأبغضناؤه عليه

اقتدعوا ^(٣) هذه النفوس عن شهواتها ؛ فإنها طليقة ^(٤) ، وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شرّ غاية . إن هذا الحقّ ثقيل مريض ^(٥) ، وإن الباطل خفيف وقوي ^(٦) وترك الخطيئة خيراً من معالجة التوبة .

(١) أي يريدون أن يشتهروا بالمروة والعبادة لينالوا من أولياء الأمور خيراً

(٢) أي حتى مقبم وسطنا . (٣) أي كفوا . وقَدَعَ الفرس كَفَّهُ

(٤) الطلق الفرس السريع الجري . أي كفوا النفوس عن شهواتها كما تمنع الفرس

عن جاحها (٥) للرئى الحقى . النافع الجسم (٦) ضد هنى . أي وخيم ضار للجسم

نزهة القارئ (٢٦)

العنكبوت^(١)

(حَقِيقَةُ فِي فَكَاة)

كَانَ مِنْ مَادَّتِي فِي رِيَاضَتِي أَنْ أَخْرُجَ لِيَخْرَ كُلَّ أُسْبُوعٍ إِلَى الْيَلَدَاءِ لِأَتَوْحَّ
النَّفْسَ مِنَ الْتَعْنَاءِ، فِدَخَلْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ غَابَةً بِسَقَةِ الْأَشْجَارِ مُتَغَنِّةَ الْأَعْشَابِ
يَجْرِي بِخِلَالِهَا نَهْرٌ مُتَمَجِّجٌ^(٢)، شَاهَدْتُ عَلَى إِحْدَى صَفَّتِيهِ عَنكَبُوتًا سَمَرَاءَ
الْلَوْنِ مَكْبَسَةً عَلَى حَجَرٍ تَطْفُفُ بِزُرَاعِيهَا وَجْهَهَا كَمَا يَفْعَلُ الذُّبَابُ، وَهِيَ
مَهْزُولَةُ الْجَسَمِ خَائِرَةُ الْقُوَى. فَرَأَيْتُ أَنْ أَفْضَلَ مَا اسْتَفْتَحُ بِهِ حَدِيثَهَا سَوَالُهَا
عَنْ صِحَّتِهَا. فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْكَ مُتَحَرِّفَةُ الزَّيَاجِ فَإِذَا يُؤْمَلُكَ؟ فَقَالَتْ: إِنِّي
مَرِيضَةٌ وَجِلَّةٌ قَلِقَةٌ. فَقُلْتُ: فَعَيْمٌ ذَلِكَ؟ وَلَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي قَطُّ أَنْ عَنكَبُوتًا
مِثْلَكَ تَمْرَضُ وَتَخَافُ، وَقَدْ مُنِحَتْ قُوَّةٌ لَمْ يُنَمَّضْهَا مِوَالِكٌ. فَقَالَتْ: وَهَذِهِ
إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ! فَإِنَّ النَّاسَ يَطْنُونُ الظُّنُونُ وَيَسْتَخْرِجُونَ النَّاتِجَ مِنْ أَقْبَسَةِ
لَا تُنْتَجِ، وَلَا غَرَوَ أَنْ قِصَّتِي تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ قَرَى الْأُمُورَ عَلَى حَقِيقَتِهَا
حَدَّثْتُ مِنْذُ سَنَتَيْنِ أَنْ أُجِى كَانَتْ قَابِلَةً^(٣) فِي عَقْرِ يَتِيمَا^(٤) لَجَامِهَا التَّخَاضُ،
وَجَمَلْتُ تَبِيضُ يَبِضُهَا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، إِلَى أَنْ بَلَغَ عِلْدًا مَا بَلَغَتْهُ ذَلِكَ
الْيَوْمَ قَلْبَانِيَّةٌ يَبِضَةٌ. وَخَافْتُ أَنْ يَتَبَعَثَ الْبَيْضُ فَجَمَلْتُ، نَزَلْتُ الْخِيُوطَ مِنْ
مَنَازِلِهَا، وَهِيَ سِتُّ أَتَائِبَ فِي ذَنْبِهَا تُهْرِزُ الْخِيُوطَ الْحَرِيرِيَّةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي

(١) قلت بتصرف عن المتكلم، وهو ترجمها عن مقالة لسيدة الفيلجيزية

(٢) تمجج السيل والحية والرمح وغيرها وتثنيها كما في «الأساس» وغيره

(٣) قبع الرجل حتى رأسه وطأطأه إلى صدره أو أدخله في جيب قميصه

(٤) عقر البيت ومطه

تُسَوِّمُهَا نَسَجَ الصُّكُوتِ وَتَضْرِبُونَ بِهَا التَّمَلُّكَ فِي الْوَهَنِ لِذِقَّتِهَا، وَهِيَ وَاهِنَةٌ حَقًّا إِلَّا أَنَّهُا لَوْ جُمِعَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لَصَارَتْ أَمْتَنَ مِنْ أَسْلَاسِ الْحَدِيدِ . فَأَفْرَزْتُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْخِيُوطِ، وَلَقَّتْ يَبِئْضَهَا بِهَا خِيَّ صَارَ الْبَيْضُ كُلُّهُ كُرَّةً كَبِيرَةً تُحِيطُ بِهَا خِيُوطٌ صَفْرَاءُ كَالزَّعْبِ الْوَاهِي أَوْ كَرِيشِ النَّعَامِ . وَلا تَمَّ لَهَا ذَلِكَ حَمَلَتْ هَذِهِ الْكُرَّةَ بَيْنَ فَكِّهَا، وَخَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا تَصْعَدُ بِهَا مَكَانًا عَلِيًّا لَا يَلْفَهُ مَاءُ النَّهْرِ إِذَا فَاضَ . وَبِمَدِّ عُنُقِهَا وَجْهًا وَضَعَتْ يَبِئْضَهَا فِي ثَقْبِ فَائِرٍ بَيْنَ صَخُورٍ عَالِيَةٍ ثُمَّ صَلَتْ إِلَى يَبِئْضِهَا عَلَى صَفَةِ النَّهْرِ . وَلَوْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَنَا وَأَخَوَاتِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَالْأَيَّامِ التَّالِيَةِ أَطَشْنَا بُرُورًا دَقِيقَةً تَجْمَعُ عَلَيْهَا زَعْبٌ مِنَ الْحَرِيرِ . عَلَى أَنَّ وَضَعْنَا فِي ذَلِكَ الْغَارِ الْحَرِيرَ لَمْ يُؤْمِنَا دَقِيقَةً مِنَ الْخَطَرِ . فِي ذَاتِ يَوْمٍ زَارَنَا طَائِرٌ قَبِيحُ الْمَخْبَرِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ مُبْرِقُشٌ بِالزَّرْقَةِ وَالصُّفْرِ لِيُخْبِرَ شَرِاسَةَ أَخْلَاقِهِ، وَجَمَلَ يَفَاشٍ بَيْنَ الصَّدُوعِ وَالنَّخَارِبِ وَيَسْتَخْرِجُ الدِّيدَانَ وَالْحُمُرَاتِ مِنْهَا وَيَأْكُلُهَا . وَلِحُسْنِ التَّوْفِيقِ كَانَتْ أَمْتًا أَخْفَتْنَا فِي مُثْرَةٍ عَمِيقَةٍ جَعَلَتْهُ لَا يَهْتَدِي الْبِنَاءُ، وَمَرَّ بِنَا فَصَلُّ الشَّاهِ وَنَحْنُ يَبِئْضٌ ثُمَّ قُصِّسْنَا مِنَ الْبَيْضِ فِي الرَّيْعِ . وَلَمْ نَخْرُجْ مِنْهَا دِيدَانًا بَلْ خَرَجْنَا عَنْكَابَ خَلْقًا كَامِلًا . وَهَذَا أَمْرٌ يَسْتَحِقُّ النَّظَرَ؛ فَلَنْ الْقَرَّاشَ وَالتَّمَلُّكَ وَالنَّخَارِبَ وَالتَّخَارِيفَ نَخْرُجُ كُلُّهَا دِيدَانًا صَغِيرَةً ثُمَّ تَصِيرُ فَيَأْلَجُ^(١) قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ دَرَجَةَ الْكَمَالِ؛ أَمَّا نَحْنُ فَمَتَازَاتٌ عَلَيْهَا كِلَيْهَا لِأَنَّا نَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضِ عَنْكَابَ كَامِلَةً كَمَا يَخْرُجُ أَصْلَاقُهَا الْجِنَادِبُ^(٢) . خَرَجْنَا مِنْ يَبِئْضِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا صِفْرًا كَبَّ الْخَرْدَلِ وَلَمْ

(١) جَمْعُ فِيلَجَةٍ . وَهِيَ الْفِيلَجَةُ الَّتِي تَبْنِيهِ دُودَةُ الْقَزِ عَلَى قَشَرِهَا كَمَا فِي الْمَصْبَاحِ .

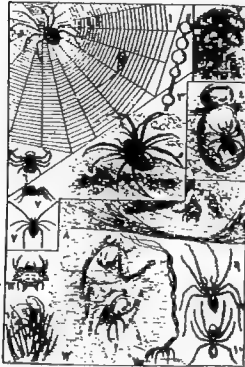
وَقَدْ أَطْلَقْنَاهُ عَلَى تَطْيِيرِهِ هَذَا (٢) نَوْعٌ مِنَ الْجِرَادِ

نستطيع أن نرى الأشياء جلية إذ كنا منشآت باغشية رقيقة تصوننا كما تصلح
الجواهر في أصوتها^(١). ولقد كنت أول من مرّق غطاءه. فلما انكشف
الغطاء عن عيني ذهلت عن فمى بما رأيته حولي من أنساع الوادى الذى
كنا فيه وأستعظمت ما حوله بالإضافة إلى؛ فكنت أرى التنبئة الصغيرة
فأحسبها شجرة كبيرة. لكننى شغلت عن ذلك تَوَّبا بما رأيته حولي من
كثرة أخواني القواقي خرجن من يفيضين مثل. وبينما أنا أنظر إليهن سمعت
صوتا مخاطبنا بلهجة الأمر الناهى فالتفت، فلذا المتكلم عكبت كبيرة
جالسة في باب بيتها، وهى أمنا؛ فأصغيتا إليها، فقصبت علينا خبر ما أصابها
من العلة من جرائنا؛ أما أنا فلم يذهلنى خبرها بقدر ما أذهلنى شئ؛ رأيته
تحتمها وهو كأنه عكبت ميتة؛ فلما أتمت حديثها قلت لها: ما هذا الذى
أراه تحت أقدامك يا أمنا. فقالت: هذا أبوك يا ولدى، قتلت: ولكننى
أراه ميتا لا حراك به. فتبسّمت وقلت: نعم هو ميت. فقد أهدمت أيام
الأفراح ولم يكد لنا به أرب، هتكته وصصت منه ولم يبق منه إلا جلده،
وسأجعله فراشا لى، وهو فراش وثير^(٢) مدق فى ليلة نديق مثل هذه
الليلة. قلت لها: هل أتزوج متى كبرت وأكل زوجي؟ فقالت: لا لأنك
أنت ذكر يا ولدى، وستأكلك زوجك كما أكلت أنا أبلك. ولا تدن
منى الآن؛ لأنى أحيانا أكل أولادى أيضا. فكان هذا أول نيا سمعته فى
حياتى! فما أتمس هذه الحياة وهل تصور حياة أتمس منها؟

قلت له بعد أن عرفت أنه ذكر: الآن عرفت لماذا أنت خائف

(١) جمع صوان. وهو الوطاء الذى يحفظ فيه الشئ. النفيس (٢) مهد لين

كلسفُ الببال، ولكن لك اسوة بنا؛ فكم رجلٍ منا أكلته زوجته. فقال :
 ألا تريدُ أن تسمعَ بقيةَ قصتي .
 قلتُ : بلى اهاتِ ما عندك . فقال :
 ما أبانتنا أمنا أنها تأكلُ أولادها
 حتى أطلقتُ أرجلي للرياح وهربتُ
 من وجهها منحديراً إلى النهر حتى
 بلغتُ شاطئه . فوجدتُ أني
 أستطيعُ أن أمشي على الماء كما أمشي
 على اليابسة . فمررتُ ذلك مروراً
 عظيماً .



العناكب وأنواعها

- (١) عنكبوت بستانية ونسجها
 - (٢) جاز غرز السبع من العنكبوت
 - (٣) منظر مكبر لحيط حلزوني من خيوط العنكبوت وفيه تقاعد القعد الزرقة
 - (٤) العنكبوت ذات المصيدة
 - (٥) و (٦) و (٧) بساتين أنواع العنكبوت الوتابة من طائفة البيت
 - (٨) بيت عنكبوت للتلزل على شكل رفق في (لوحة عنكبوت
 - (٩) و (١٠) فوطان من عنكبوت للتلزل
 - (١١) عنكبوت تنسج في الهواء طائفة بجيوبها
 - (١٢) عنكبوت مائية ويصنع
 - (١٣) عنكبوت سرطانية
 - (١٤) قسم مكبرة لعنكبوت بستانية
- قلتُ له : هذا أمر لم أكن أعرفه . فقال : إنك لا تعرف مقدار ما نستطيعه إذا اضطررنا إليه . وحقاً ليس كلُّ العناكب يستطعن ذلك ، وأنا منهم . على أن من أبناينا ما ينوصُ في الماء ، ويسكنُ في بقاعة من الهولاء ، وما يثبُ على الأرض ، وهو الليثُ . ولا غرابة في مشينا على الماء ؛ فإن يبتنا وبين السراطين نسباً ، وإن كلن بميداً . فقلتُ له : أصبتَ ؛ فإنك

تشبهها في شكلها . فقال : نعم ! ولكن السرطان لا يكتفى بشاقى أرجل
مثلنا ، بل له عشر أرجل . ولماذا قطع على الحديث ؟ دعني أتم قصتي
لما رأيتني أهني على وجه الله بادرْتُ إلى أقرب قِصْباء^(١) ، فرأيتُ
حشرات صغيرة خضراء اللون خالية من الأجنحة ، فقبضت على واحدة منها .
والتبهنْتُها فاستطبتها ، فجعلت ألتهم الواحدة بعد الأخرى حتى أتفخ
بطني ، وشعرتُ أنه كاد ينشق

فقلت له : كيف كنت قتمها ؟ أكنت تبلها بلها ؟ فقال كلا ! بل
كنت أشق ظهرها من : بين كتفها ، وأمتص دنها ، فلا أبقى في
جسمها شيئا غير جلدها . ولما شبعْتُ عدتُ إلى بناء بيتي فأتمتته وجلسْتُ
فيه أترقب سقوط الذباب . فخلق بجيوطه ذباب كثير ، فأكلته ، وسمنتُ
جدا ، حتى كنت أضطر أن أنسلخ من جلدي مرارا ؛ إذ لم يعد يسعي ؛
وكثيرا ما كانت تنقطع مني إذ ذاك يد أو رجل

فقلت : كيف ذلك ؟ أو لم يكن قطعها مؤلما حتى تتحلَّت عنه بطيب
خاطر ؟ فقال : بلى ! كنت أتاألم شيئا ما ، ولكننا معشر المناكب لا نألم
مثلكم ، ولا مثل الديدان . فإذا أقطعت رجل أو أرجل من الدودة
ماتت حتما . أما نحن فإذا أقطعت رجل من أرجلنا نبت لنا أخرى .
وقد قطعت مني أثنان فنبت لي غيرهما . ولا داعي للإطالة في تاريخ حياتي
عند ذلك التهر ، فأدعُ وأقص عليك قصة غيبت مجرى أمري :

كنت ذات يوم جالسا في بيتي أتردد على بابي لملي ألفت إلى ذبابة

(١) القِصْباء جماعة القَصَب وهو كل نبات ذى أنابيب

كبيرة واقفة على قصبية أملى . وبينما أنا أنظر إليها وأتأمل جناحيها إذا بالجنحين سقطا عن بطنها بشفة ، وإذا هي تملأ كبيرة كأقبح ما يكون من النمل

فقلت له : ألم تعلم أن ملكات النمل يرمين أجنيحتن بعد زواجهن ؟ فقال : كلا ! لم أكن أعلم ذلك ، قال فوقفت ملهوشا ، وقبل أن أفيق من دهشتي جعلت التملأ تنأجى نفسها وتقول : « لقد كان الواجب على أن أعرف أن جناحي يستقلان اليوم ، فلا أبقي هنا فوق الماء . ولولا هذا القصب ، وإن كان المثلث عليه عسيرا ، لقضى على . ما هذا الذى أملى ؟ هذه عنكبوت ؟ إذن آخذها معي الى قريتي ، وآكلها على مهل . » وأنت تعلم مقدار ما حاق بي حينئذ . فرميت بنفسى من يدي الى الماء ، فالتفت فلذا أنا بمنفستة كبيرة من خنافس الماء قد رفعت رؤسها^(١) ، وجدت في أثرى سباحة . ونظرت أملى لملى أجدهمربا ، فإذا دودة كبيرة عيناها كصباحين متقديين سدت في وجهي مسالك الماء والياسة . ولم يبق أملى إلا الهواه . فوثقت الى ورقة من ورق زنبق الماء ، ولجأت الى سليقة أسلافى ، وأفرزت من مغازلى الستة التى في ذنبى ستة خيوط حريرية دقيقة ، فالتحلت معا وطارت فى الهواه خيطا واحدا براقا كالبلور ، فتشبثت به وطررت بمجاوى الرياح ، فكانت تمدده حراثة الشمس ، وترسل به صعدا . ثم عثت فى النسيم ، فحملت الى حرجة^(٢) من الصنوبر وأصارنى فوقها وفوق السهول المجاورة لها . ورأيت فى طريقى كثيرا من أخواتى راكبات . فطلداتها

(١) زباني القرب ونحوها من المناكب قرنها (٢) مجتمع الشجر الكثير

وسائرَاتِ بين الأرض والسَّاءِ ، ولكنى رأيتُ طيوراً صغيرة تنقضُّ عليها وتحظفُها ، قُلتُ : ويلاه ! الى متى لا نسلَمُ من الأعداء ؟ ألا إن من أراد السلامة لم يجدْها ، ولو اتَّخَذَ لها قَفاً في الأرض أو سلماً في السَّاءِ . فأطَلْتُ خيطى ، وجعلتُ أَهْبِطُ رُوَيْدًا إلى أن وقفتُ على بعض المشيم . ولم أَكْذُ أُصِلْ إليه ، حتى رأيتُ زَبَارًا كَلْبَيْنَيْنِ واقفاً في أُنْطَارَى . ونحن المناكبُ لَا نَحْشَاهُ إِذَا كُنَّا فِي يَوْتِنَا ؛ بَلْ نَحْتَالُ عَلَيْهِ ، وَنَنْسِجُ حَوْلَهُ خِيوطَنَا حَتَّى نَعْنَمَ مِنَ الْحَرَكَةِ ، ثُمَّ نَمُصُّ دَمَهُ ، وَهُوَ كَبِيرٌ كَثِيرُ النِّدَاءِ ، فَتَقَاتُ بِهِ أَيْلَمًا . أَمَا إِذَا رَأَيْنَا ظَاهَرَ يَوْتِنَا فَانْهَ يَنْتَقِمُ مِنَّا ؛ فَيَهْجُمُ عَلَى الْمَنْكِبِوتِ ، وَهَيَّضُ طَهِهَا بِفَكْنِهِ ، وَيَجْعَلُهَا إِلَى بَيْتِهِ ، وَيَأْكُلُهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً . وَلَا مَارَبَ لِي بِذَلِكَ ، وَلَمْ تَهَيِّأْ لِي هَذِهِ الْحِيلَةَ فَقَطَّمْتُ خَيْطِي وَأَرْتَمَيْتُ فِي الْمَشِيمِ كَقِطْمَةِ مِنَ الْحَبْرِ ، فَوَصَلْتُ إِلَى أَسْفَلِهِ ، وَقَدْ أَشَلَّ الْخَوْفُ أَعْصَابِي

وَبَرَقَتِ السَّمَاءُ وَرَعَدَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَسَقَطَ بَرْدٌ كَبِيرٌ ، وَقَتُّ فِي الصَّبَاحِ وَإِذَا الرِّيحُ تَهْبُ بِأَرْدَةٍ ، وَالسَّمَاءُ مُحَجَّجَةٌ بِالسُّحُبِ . فَصَعُرْتُ قَعْمِي فِي عَيْنِي ، وَشَرَرْتُ بِوَحْدَةٍ وَوَحْشَةٍ ، فَصَعِدْتُ إِلَى رَأْسِ الشَّجَرَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا ، وَأَفْرَزْتُ الْخِيوطَ مِنْ مَنَازِلِي ، وَصَعِدْتُ بِهَا فِي الْجَوِّ ، فَسَاقَنِي الرِّيحُ ، وَرَمَتْنِي عَلَى صَفَةِ التَّهْرِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي قَضَيْتُ فِيهِ زَهْرَةَ صِبْيَانِي . وَأَعْتَدْتُ الْمَوَادَّ جَيْنَذِي . وَكُنْتُ قَدْ بَلَنْتُ أَشْعِيَّتِي ، فَتَاقَتْ قَعْمِي إِلَى زَوْجَةٍ تَكُونُ مِنِّي

قَلتُ : مَا لَكَ وَالزَّوْجَةَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ طَاقِبَةَ أَمْرِكَ مَعَهَا ؟
فَقَالَ : هَكَذَا كَانَ قَدْ زَوَّجْتُ وَتَوَرَّعْتُ . وَالْآنَ خُفِّ التَّضَلُّ . (قَالَ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَنْظُرُ بِنْتَهُ وَيَسْرُهُ كَالْمُسْتَحِيرِ) . وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ وَأَعْصَاؤُهُ تَرْتَجِفُ وَبِجَلَاءِ

وَأَنَا أَنْظَرُ إِلَيْهِ مَدْهُوشًا، خَرَجْتُ عَنْكَ بَوْتُ كَبِيرَةً مِنَ النَّارِ وَوُثِّتَ عَلَيْهِ،
خَافُولَ دَفْعِهَا عَنْهُ، وَلَكِنَّمَا أَسْكَنْتُ بِهِ، وَخَنَقْتُ أَقْلَاسَهُ. وَفِي أَقْلٍ مِنْ
خَمْسِ دَقَاقٍ تَرَكَتُهُ جَلْدًا خَاوِيًا

خطبة

﴿ لُثْمَانُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ﴾

رَوَى الطَّبْرِيُّ^(١) فِي تَلْوِيحِهِ أَنَّ آخِرَ خُطْبَةِ خُطْبَتِهَا عُثْمَانُ فِي جَمَاعَةٍ هِيَ :
إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ، وَلَمْ يُعْطِكُمْوهَا
لِتَرْكُونَهَا إِلَيْهَا. إِنَّ الدُّنْيَا هِيَ وَالْآخِرَةُ تَبْقَى؛ فَلَا تُبْطِرَنَّكُمْ^(٢) الْفَانِيَةُ، وَلَا
تَشْغَلَنَّكُمْ مِنَ الْبَاقِيَةِ، فَأَتَرُوا^(٣) مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَنْقُطَةٌ؛
وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ. اتَّقُوا اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) فَإِنَّ هَوَاءَ جُنَّةٍ^(٤) مِنْ بَاسِهِ
وَوَسِيلَةً عِنْدَهُ، وَأَحْذَرُوا مِنْ اللَّهِ الْغَيْرِ^(٥)، وَالْزُمُوا جَمَاعَتَكُمْ لَا تَصِيرُوا أَحْزَابًا
« وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا »

- (١) هُوَ الْإِمَامُ الْمُجْتَهِدُ الْفَرَسِيُّ لِلزُّرَّاحِ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ التَّوْفَى سَنَةَ ٣٩٠ هـ
(٢) الْبَطَرُ : قَلَّةُ أَحْتِمَالِ النِّعْمَةِ وَكَرَاهَةِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِقَّ الْكَرَاهَةَ أَوْ
لَا تَجْلِسُكُمْ الدُّنْيَا تَكْرَهُونَ الْعَافِيَةَ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا (٣) اخْتِرَاقًا (٤) وَقَايَةً وَحِصْنًا
(٥) حَوَادِثُ الزَّمَانِ

خطبة

(لعلَّ (كرم الله وجهه))

روى صاحبُ المقدِّمِ القَرْدِي^(١) أَنَّ عَلِيًّا (كرم الله وجهه) خطبَ أَهْلَ الكوفةِ يُؤرِّبُهُمْ عَلَى التَّراخِي فِي الْقِتَالِ فَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْلَاهُمْ السُّخْلَفَةُ أَهْوَأُكُمْ أَكَلَامُكُمْ يُوهِنُ الصِّمَّ الصِّلَابَ^(٢) ، وَفُضِّلَكُمْ بِطُغْيِ فَيْكُم عَدُوَّكُمْ ، يَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حَيْلًا^(٣) . مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَمَاكُمْ ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَلَسَاكُمْ أَضَالِيلَ^(٤) بِأَبْطِيلَ

وَسَأَلْتُمُونِي التَّأْخِيرَ : دِفَاعَ ذِي الدِّينِ الْمَسْطُورِ^(٥) ، أَلَا لَا يُلْفِضُ الصِّمَّ الذَّلِيلُ ، وَلَا يُمِرُّكَ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجَلْدَةِ . أَيُّ جَارٍ بَعْدَ دَارِكِمَ تَنْتَمُونَ ؟ أَمْ مَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي هَاتِلُونَ ؟ الْمَمْرُورُ وَاقِفُهُ مِنْ غَرَرْتُمُوهُ . وَمَنْ قَارَ نَكَمَ قَارَ بِالسَّهْمِ الْأَخِيبِ . أَصَبَحْتُ وَاقِفُهُ لَا أُصِدِّقُ قَوْلَكُمْ وَلَا أَطْمَعُ فِي نُصْرَتِكُمْ . فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَغْفَبَنِي بِكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرُ لِي مِنْكُمْ . وَدِدْتُ وَاقِفُهُ لَوْ أَنَّ لِي بِكُلِّ عَشْرَةِ مِنْكُمْ رَجُلًا مِنْ بَنِي فِرَاسٍ^(٦) بَنِ غَنَمٍ صَرَفَ الدِّينَارَ بِالْإِذْنِ

(١) هو الأديب الشاعر المصنف أحمد بن محمد بن عبد ربه توفي سنة ٣٣٨ هـ

(٢) أي الصخور الصلبة (٣) اسم فعل أمر من حاد عنه أي جانبنا

(٤) جمع أضلوة . والأبطليل جمع باطل على غير قياس أو هي جمع أبطلوة

(٥) مطلة بدينه : طارقه فيه وسوقه بوعده الوفاء مرة بعد أخرى (٦) هم بطن من

بنى كنانة يعدون أشجع العرب

الاخلاق الفاضلة

نبذة مقبسة بتصرف من كتاب الاخلاق لمحبي الدين بن العربي^(١)

الْأَخْلَاقُ الَّتِي نَعُدُّ قِصَاصًا مِنْهَا :

الْعِفَّةُ — وَهِيَ صَبْطُ النَّفْسِ عَنِ الْأَهْوَاءِ ، وَقَصْرُهَا عَلَى الْأَكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ أَوَدَ الْجَسَدِ وَمَحْفَظُ صِحَّتِهِ ، وَاجْتِنَابُ الْمَرْفِ والتَّقْيِيرِ فِي جَمِيعِ اللَّذَاتِ ، وَقَصْدُ الْأَعْدَالِ ، وَأَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنْهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمُسْتَحَبِّ الْمُتَّفَقِ عَلَى أَرْضَائِهِ ، وَفِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا غِنَى عَنْهَا ، وَعَلَى الْقَدْرِ الَّذِي لَا يُحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ وَلَا يَجِبُ النَّفْسَ وَالْقُوَّةَ عَلَى أَقَلِّ مِنْهُ . وَهَذِهِ الْحَالُ هِيَ غَايَةُ الْعِفَّةِ

وَمِنْهَا التَّصَوُّنُ — وَهُوَ التَّحْفُظُ مِنَ التَّبَدُّلِ . فَمِنْ التَّصَوُّنِ التَّحْفُظُ مِنَ الْهَزَلِ الْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ ، وَصَبْطُ اللِّسَانِ مِنَ الْفُحْشِ وَذِكْرِ الْخَنَا وَالْقَبِيحِ وَالْمُزَاجِ السَّخِيفِ ، وَخَاصَّةً فِي الْمَخَافِلِ وَمَجَالِسِ الْمُحْتَشِمِينَ . وَلَا أَهْأَنَّهُ لَمَنْ يُسْرِفُ فِي الْمَزَاجِ وَيُفْحِشُ فِيهِ . وَمِنْ التَّصَوُّنِ أَيْضًا الْأَقْبَاضُ عَنْ أَدْنَاءِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِمْ وَمُضَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ ، وَالتَّحَرُّزُ مِنَ الْمَعَاشِ الرَّدِيئَةِ وَكَتْسَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْوُجُوهِ الْخَسِيسَةِ ، وَالتَّرَفُّعُ عَنْ مَسْأَلَةِ الْحَاجَاتِ لِئَامِ النَّاسِ وَمِيقَلَّتِهِمْ وَالتَّوَاضُّعُ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ ، وَالْإِقْلَالُ مِنَ الْبُرُوزِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَالتَّبَدُّلُ بِالْجُلُوسِ فِي الْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ الطَّرِيقِ مِنْ غَيْرِ

(١) هو العارف المتصرف محبي الدين محمد بن علي بن العربي دخل المشرق

أضطرابه؛ فإن الإكثار من ذلك مُجِلٌّ، وأعظمُ الناسِ قدرًا عند الخلق من ظهر اسمه وخبى شخصه

ومنها الحلم — وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك. وهذه صفة محمودة ما لم تؤد إلى تلذذ جسد أو فساد سيرة. وهي بالزواجر والمالوك أحسن؛ لأنهم أقدر على الانتقام من مُغضبيهم؛ ولا يُعدُّ فضيلة حلم الصغير عن الكبير، وإن كان قديرًا على مقاومته في الحال؛ فإنه إن أمسك فإثمًا يُعدُّ ذلك خوفًا لا حلمًا

ومنها الوقار — وهو الإمساك عن فضول الكلام والسب وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه، وقلة الغضب، والإصغاء عند الاستغناء، والتوقف عند الجواب، والحفظ عن التصرع في جميع الأمور. ومن قيل الوقار أيضًا الحليم — وهو غش الطرف والاعتباط عن الكلام حشمة للمستحي منه. وهذه المادة محمودة ما لم تكن عن عي ولا عجز

ومنها الرحمة — وهي لا تكون إلا لمن تظهر منه لإياديه خلة مكرهية؛ إما قبيصة، وإما ميئة عارضة. فالرحمة هي محبة للرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رُجم. وهذه الحال مستبعدة ما لم تخرج بصاحبها عن المدق، ولم تنته به إلى الجور وإلى فساد السياسة؛ فليس بمحمود رحمة القتال عند القود والجاني عند التقصاص

ومنها اللوطة — وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه والخروج مما يضمنه وإن كان متجففًا به؛ فليس يُعدُّ وفاء من لم يلحقه بوفائه أذية وإن قلت. وهذا الخلق محمود ينتفع به جميع الناس. فإن من

عُرِفَ بالوفاء كل من مقبول القول عظيم الجاه، إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخلق أكثرُ وحاجتهم إليه أشدُّ. وإنه متى عُرِفَ منهم قلة الوفاء لم يؤثِقْ بمواعيدهم ولم تَتِمَّ أغراضهم، ولم يَسْكُنْ إليهم جنودهم وأعدائهم.

ومنها أداء الأمانة — وهو التعفُّفُ عما يتصرف الإنسان فيه من مال غيره وما يؤثِقُ به وعليه من الإعراض والحُرْمِ مع التمسرة عليه، وردُّ ما يُستودَعُ إلى مُودِعِهِ.

ومنها كتمان السرِّ — وهذا الخلق مُرَكَّبٌ من الوفا وأداء الأمانة. فإن إخراج السرِّ من فضول الكلام. وليس يوقور من تكلم بالفضول. وأيضاً فكما أن من استودع مالا فأخرجه إلى غير مُودِعِهِ قد خُفِرَ الأمانة كذلك من استودع سرا فأخرجه إلى غير صاحبه قد خُفِرَ الأمانة. وكتمان السرِّ محمود من جميع الناس، وخاصة من يصحب السلطان؛ فإن إخراجَه أسراؤه مع أنه قبيح، يُوَدِّي إلى ضررٍ عظيم ينعزلُ عليه من سلطانه ومنها التواضع — وهو تركُّ التروُّس وإظهارُ الخولِ وكراهيةُ التماظم والريادة في الإكرام، وأن يتجنَّبَ الإنسانُ المبالغة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالجلو والمال، وأن يَتَصَرَّزَ من الإعجاب والكِبَرِ. وليس يكونُ حسنُ التواضع ظاهراً إلا في تكابرِ الناسِ ورؤسائِهِم وأهلِ الفضل والعلو.

ومنها البُشْرُ — وهو إظهارُ التَّسَرُّوْرِ بمن يلقاه الإنسانُ من إخوانِهِ وأُوْدَانِهِ وأصحابِهِ وأولِيائِهِ ومعارِفِهِ، والتَّبَسُّمُ عندَ اللِّقَاءِ. وهذا الخلقُ مستحسنٌ من جميع الناس، وهو من الملوك والمُعْظَماءِ أَحْسَنُ. فإنَّ البُشْرَ في المَلِكِ يَثَقِّفُ به قُلُوبَ الرِّعَاةِ والأَعْوَانِ والحاشِيَةِ ويزداد به حُبِّياً إليهم. وليس سَمِيحاً،

مِنَ الْمُلُوكِ مَنْ كَانَ مُتَّبِعًا إِلَى رَعِيَّتِهِ؛ وَرَبَّمَا أَكْبَى ذَلِكَ إِلَى فُسَادِ أَمْرِهِ
وَزَوَالِ مَلِكِهِ

ومنها صِدْقُ اللَّهْجَةِ — وهو الإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ. وهذا
الطُّلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُجْجِفٍ مُهْلِكٍ عُدُونًا وَظُلْمًا. والصدقُ
مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْمُطَهَّاءِ أَحْسَنُ

ومنها سَلَامَةُ النِّيَّةِ — وَهِيَ أَتَقَادُ الْخَيْرِ لَجَمِيعِ النَّاسِ، وَتُجَنَّبُ الشُّبْثِ
وَالْفِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَيْعَةِ. وهذا الطُّلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ
يُصْلِحُ لِلْمُلُوكِ التَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا، وَلَا يَتِمُّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِأَسْتِمَالِ الْمَكْرِ مَعَ
الْأَعْدَاءِ، وَلَكِنْ لَا يُحْسِنُ بِهِمْ أَسْتِمَالُهُمْ مَعَ أَوْلِيَائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ
ومنها السَّخَاةُ — وَهُوَ بِنْدُ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ. وهذا

الْفِعْلُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهَ إِلَى السَّرْفِ وَالتَّبْذِيرِ، فَإِنْ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُ
لَعَنَ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يُنَمَّ سَخِيًّا، بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا مُضْطَعًا. والسَّخَاةُ فِي سَائِرِ
النَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ؛ فَأَمَّا فِي الْمُلُوكِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ؛ لِأَنَّ الْبَحْلَ يُؤَدِّي إِلَى
الضَّرَرِ الْعَظِيمِ فِي مُلْكِهِمْ، وَالسَّخَاةُ وَالْبَذْلُ يَرْتَنِبُ بِهِ قُلُوبُ الرِّعَاةِ وَالْجُنْدِ
وَالْأَعْوَانِ فَيَمُتُّمُ الْإِتِّفَاعُ بِهِ

ومنها الشَّجَاعَةُ — وَهِيَ الْإِقْدَامُ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْمَهَالِكِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى
ذَلِكَ، وَثِبَاتُ الْجَأَشِ عِنْدَ الْمَخَافِ، وَالْأَسْهَانَةُ بِالْمَوْتِ. وهذا الطُّلُقُ مُسْتَحْسَنٌ
مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ، بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحَقٍّ
لِلْمَلِكِ مَنْ عَدِمَ هَذِهِ الصَّلَةَ. وَأَكْثَرُ النَّاسِ أخطَارًا وَأَحْرَجُهُمْ إِلَى أَتْقَامِ
الْفِتَرَاتِ هُمُ الْمُلُوكُ؛ فَالشَّجَاعَةُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ الْخَاصَّةِ بِهِمْ

ومنها المنزعة — وهي منازعة المرء في التشبُّه بغيره فيما يُرغَبُ فيه والأجتهادُ في الترقُّى إلى درجة أعلى من درجته . وهذا الطُّقُّ محمودٌ إذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية وما يكسبُ مجداً وسُوداً . فأما في غير ذلك من أتباع الأهواء والمباهاة بالذات والزينة واليزَّة فكروهُ جُداً ومنها الصبرُ عند الشدَّة — وهذا الطُّقُّ مُرَكَّبٌ من الوَقارِ والشَّجاعةِ ومستحسنٌ جداً ما لم يكن الجزعُ نافعاً ولا الحزنُ والقلقُ مُجدياً ولا الحيلةُ والأجتهادُ دافعةً ضررَ تلك الحالة . وما أقبحُ الجزعُ إذا لم يكن مفيداً ومنها عظمة الهمة — وهي استصغارُ ما دُونَ النِّهايةِ من مَعَالِي الأمور ، وطلبُ المراتب السامية ، واستحقاقُ ما يجودُ به الإنسانُ عند الطَّيِّبةِ ، والاستخفافُ بأوساطِ الأمور ، وطلبُ النِّياتِ ، والتهاوُّنُ بما يملكه الإنسانُ وبذلُ ما يمكنه أن يساله من غيرِ أمتنانٍ ولا اعتدالٍ به . وهذا الطُّقُّ من أخلاقِ الملوكِ خاصةً . وقد يحسنُ بالرُّؤساءِ والمُظَاهِرِ ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم ومن عظمِ الهمةِ الأَقَّةُ والحَيَّةُ والغَيَّةُ : والأَقَّةُ هو بُؤسُ النفسِ عن الأمورِ الدنيئةِ ، والحَيَّةُ والنيرةُ جميعاً هما الغضبُ عند الإحساسِ بالنقصِ . وانما يلحقُ الإنسانَ النيرةُ على الحَرَمِ لأنَّ في التعرُّضِ لَهَنَ عاراً ومنقصةً ، فإنَّ التعرُّضَ لِلحَرَمِ مُتَضَمٌّ لصاحبِه ومُتَصَرِّفٌ في حقِّ له ، والأهتِزامُ قبيصةٌ . ومن عظمِ الهمةِ الأَقَّةُ من الأهتِزامِ ودُخُولِ النقصِ . وهذا الطُّقُّ مستحسنٌ من جميعِ الناسِ

ومنها المدلُّ — وهو التوسطُ اللازمُ للاستواء ، وهو استئمالُ الأمورِ في مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غيرِ مَرَفٍ ولا تقصيرٍ ولا تقديمٍ ولا تأخيرٍ

عَبْرَةٌ فِي فُكَاهَتِ

(رِثَاءُ هِرٍّ)

كان لأَبْنِ الصَّلَافِ ^(١) هِرٌّ يَأْتِسُ بِهِ . وكان يدخلُ أبراجَ الحكماء التي لجبرائيل
وَيَأْكُلُ فِرَاحَهَا . وَكَثُرَ ذلكَ منه ، فَأَحْتَالَ لَهُ أَرَابُهَا بِجَبَالَةِ الثَّفَتِ عَلَى عَنَقِهِ
فَقَتَلُوهُ . فَرثَاهُ بِقصيدة مشهورة . وقيل إن القصة تمثيل للاحقية وهي
قصيدة بدعية

قال فيها أَبْنُ خَلِكان ^(٢) : هي من أحسن الشعر . وعدلها خمسة وستون
بيتاً ، فَأَتَصَرَّنَا مِنْهَا عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ :

يَا هِرُّ قَرَقُتْنَا ، وَلَمْ تَمُدِّ وَكُنْتَ فِينَا بِتَزَلِ الْوَلَدِ
فَكَيْفَ نَنفُكُ عَنْ هَوَاكَ ، وَقَدْ كُنْتَ لَنَا عُدَّةً مِنَ الْمَدِّ ؟

(١) هو أبو بكر الحسن بن علي بن أحمد الضرير الهرواني . كان من الشعراء
المجيدين ، وكان ينادم الامام المتضد بألقابهم . وقيل انه بات ليلة في دار للمتضد مع
جماعة من قدمائه فاتاهم خادم ليلاً فقال أمير المؤمنين يقول أرققت الليلة بعد انصرفكم قلت :

ولما اتتبننا هخيال القى سري إذا الهارقر وللمزار بعيد

وقد أرنج عليّ تلمه فن أجلزه بما يوافق غرضي أمرت له بجائزة . فلما سمع التلمه
ذلك أرنج عليهم ، وكلهم شاعر فاضل ، فابتدر أبْن الصلاف فقال :

قلت : لمبني علودي التوم واهجبي لعل خيالاً طارفاً سيجود

فرجع الخادم . ثم عاد فقال له : أمير المؤمنين يقول : قد أحسنت . وقد أمرك بالجائزة .
وتوفي سنة ٣١٨ هـ

(٢) هو قاضي القضاة للوزير الأديب احمد بن ابراهيم بن أبي بكر خلكان الإرعلي
صاحب « وفيات الأعيان » توفي سنة ٦٨١ هـ

فُتْخِرْجُ الْغَارَ مِنْ مَكَلَمِهَا مَا بَيْنَ مَقْصُوحِهَا إِلَى السُّدِّ^(١) يَلْقَاكَ فِي الْيَمِّ مِنْهُمْ^(٢) مَدَدٌ لَا عَدَدَ كَانَ مِنْكَ مُنْفَكًا لَا تَرْهَبُ^(٣) الصَّيْفَ عِنْدَ حَاجِرِهِ^(٤) وَكَانَ يَجْرِي (وَلَا سَدَادَ لَهُمْ) حَتَّى أَعْتَقَدْتَ الْأَذَى لِحَيْرَتِنَا وَحُمْتَ حَوْلَ الرِّثَى بِظُلْمِهِمْ وَكَانَ قَلْبِي عَلَيْكَ مُرْتَعِدًا تَلْخُلُ بُرُجُ الْخَامِ مُشِيدًا وَتَطْرَحُ الرِّثَى فِي الطَّرِيقِ لَهُمْ أَطْعَمَكَ النَّعْيُ لَحْمَهَا . فَرَأَى حَتَّى إِذَا دَاوَمُوكَ^(٥) ، وَأَجْتَهَدُوا كَلْدُوكَ دَهْرًا ، قَا وَقَمْتَ ، وَكَمْ أَقَلَّتْ مِنْ كَيْدِمٍ ، وَلَمْ تَكْدِ^(٦) مَا بَيْنَ مَقْصُوحِهَا إِلَى السُّدِّ^(١) وَأَنْتَ تَلْقَاهُمْ بِلا مَدَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا وَاحِدٌ مِنَ الْعَدَدِ وَلَا تَنْهَابُ الشَّاءَ فِي الْجَدِّ^(٥) أَمْرُكَ فِي يَتْنَا عَلَى سَدِّ^(٦) وَلَمْ تَكُنْ لِلْأَذَى بِمَعْتَدٍ^(٧) وَمِنْ يَحْمٍ حَوْلَ حَوْضِهِ يَرِدُ وَأَنْتَ تَنْسَابُ غَيْرَ مُرْتَعِدٍ وَتَبْلَعُ الْفَرَحَ غَيْرَ مُشِيدٍ^(٨) وَتَبْلَعُ اللَّحْمَ بَلْعَ مُزْقَرِدٍ^(٩) قَلَّكَ أَرْبَابُهَا مِنَ الرَّشَدِ وَسَاعَدَ النَّصْرُ كَيْدَ مُجْتَهِدٍ أَقَلَّتْ مِنْ كَيْدِمٍ ، وَلَمْ تَكْدِ^(١١)

- (١) جمع سُدَّة ، وهي الباب أى سواء أكانت المكامن مفتوحة أم لها سد ، أى أبواب تسد (٢) أُلْد على الفيران ضمير الغلاء لأنه أنزلها منزلة الغلاء ونسب إليها أعمالاً كأنهم كقولهم تعالى « كُلٌّ فِي ظَلِكِ يَسْبَحُونَ » (٣) تخاف (٤) المهاجرة نصف التهار عند اشتداد الحر (٥) الجدد الثلج . أى لاهاب الشتاء عند نزول الثلج (٦) السدد والسداد الصواب والاستقامة (٧) اعتقد كذا عقد عليه القبط والضمير (٨) اتَّأَدَّ : تَأَيَّ وتامل فهو متد (٩) أى بلا مضغ (١٠) تَأَنَوَّى طلبك (١١) أى أَقَلَّتْ ولم تكذب قلت

فَإِنْ أَخْفَرْتَ^(١)، وَأَنْهَكْتَ، وَكَأ
صَادُوكَ غِيظًا^(٢) عَلَيْكَ، وَأَنْتَقِمُوا
ثُمَّ شَفَعُوا بِالْحَدِيدِ أَنْفُسَهُمْ
فَلَمْ تَزَلْ لِلْحَمَامِ مَرْتَصِدًا^(٣)
لَمْ يَرْحَمُوا صَوْتَكَ الضَّعِيفَ كَمَا
أَذَقَكَ الْمَوْتَ رُشْنَ كَمَا
كَأَنَّ حَبِلًا حَوَى بِمُؤَدَّتِهِ
كَأَنَّ عَيْنِي تَرَاكَ مُضْطَرِبًا
وَقَدْ طَلَبْتَ الْخُلَاصَ مِنْهُ، فَلَمْ
يَجِدْ بِالنَّفْسِ، وَبِالْخَيْلِ بِهَا
فَا مِمَّنَّا بِمَثَلِ مَوْتِكَ إِذْ
مَشَتْ حَرِيصًا بِقُوْدِهِ طَمَعٌ
بِأَنَّ لَدَيْكَ الْفِرَاحَ أَوْقَعَهُ
أَلَمْ تَخَفْ وَثْبَةَ الزَّمَانِ كَمَا

شَفَّتْ^(٤) وَأَسْرَفْتَ غَيْرَ مُقْتَصِدٍ^(٥)
مَنْكَ وَزَادُوا. وَمَنْ يَصِيدُ يُصَدِّ
مَنْكَ، وَلَمْ يَرْعَوْا^(٦) عَلَى أَحَدٍ
حَتَّى سَقَيْتَ الْحِمَامَ بِالرَّصَدِ^(٧)
لَمْ تَرِثْ مِنْهَا لُصُوتَهَا الْفَرْدِ^(٨)
أَذَقْتَ أَفْرَاحَهُ : يَدًا يَدٍ
جِيدَكَ لِلضَّخْخِ كَأَنَّ مِنْ مَسَدٍ^(٩)
فِيهِ، وَفِي فَيْكَ رَغْوَةُ الزُّبْدِ
تَقْدِيرٌ عَلَى حَبْلَةٍ، وَلَمْ تَجِدِ
أَنْتَ ؛ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ بِهَا يَجِدِ
مِثْلٌ وَلَا مِثْلَ عَيْشِكَ التَّكْدِ
وَمِثْلٌ ذَا قَاتِلٍ بِلَا قُوْدٍ^(١٠)
وَيَحْكُ هَلَّا قَنِتَ بِالنُّلْدِ^(١١)
وَبَيَّتَ فِي الْبُرْجِ وَثْبَةَ الْأَسَدِ

- (١) غدرت وخنث (٢) كاشفه بالعداوة : باداه بها وأظهرها من غير مبالاة
(٣) مبتدل (٤) أى حقدا عليك (٥) أصل معنى «ارعى» أنكف، وضمينه
هنا معنى «ارعى» بمعنى أتى عليه . أى ولم يقولوا على حرمة أحد من أصحابك
(٦) مترقبًا كما فى (الأساس) (٧) مصدر رصده بمعنى ترقبه (٨) المطرب
(٩) من ليف (١٠) القود القصاص . أى مت مقتول قاتل لم يقتص منه
(١١) جمع غلة : وهى المقدمة التى تكون فى اللحم يرمى بها للهرة

مَاقِبَةُ الظُّلَمِ لَا تَنَامُ ، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ مُدَّةٌ مِنْ الْمُدَّةِ
 أَرَدْتُ أَنْ تَأْكَلَ الْفِرَاقَ ، وَلَا يَا كُلُّكَ الدَّهْرُ أَكَلْ مُضْطَبِدِ
 هَذَا بَمِيزٍ مِنَ الْقِيَاسِ ، وَمَا أَعَزَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْبَعْدِ
 لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي الطَّعَامِ ، إِذَا كَانَ هَلَاكُ النُّفُوسِ فِي الْمَعْدِ
 كَمْ دَخَلَتْ لُقْمَةٌ حَشَا شَرِّهِ فَأَخْرَجَتْ رُوحَهُ مِنَ الْجَسَدِ
 مَا كَانَ أَغْنَاكَ عَنْ تَسْوِيرِكَ الْبَرْجِ ، وَلَوْ كَانَ جَنَّةَ الْخُلْدِ
 قَدْ كُنْتَ فِي نَمَقٍ وَفِي دَعَا مِنَ الْعَزِيزِ الْمُهَيَّمِ الصِّدِّ
 تَأْكُلُ مِنْ قَارِ يَتَنَا رَغَدًا وَأَيْنَ^(١) بِالشَّاكِرِينَ لِلرَّغَدِ
 وَكُنْتَ بَدَدْتَ شَمْلَهُمْ زَمَنًا فَاجْتَمَعُوا بِمَدِّ ذَلِكَ الْبَدَدِ^(٢)
 ظَمُّ يَنْقُوهَا لَنَا عَلَى سَبَدٍ فِي جَوْفِ آيَاتِنَا وَلَا لَبَدٍ^(٣)
 وَفَرَّغُوا أَرْضَهَا ، وَمَا تَرَكُوا مَا عُلِقَتْهُ يَدٌ عَلَى وَتَدٍ
 وَقَتُّوا الْخَبَرَ فِي السِّلَالِ ، وَكَمْ تَقَتَّتْ الْعِيَالُ مِنْ كَبَدٍ
 وَمَزَّقُوا مِنْ ثِيَابِنَا جُدُدًا فَكُلْنَا فِي الْمَصَابِ الْجُدُدِ

مَوْقِعَةُ الْيَرْمُوكِ الْحَاسِمَةُ

نُرِيدُ بِالْمَوْقِعَةِ الْحَاسِمَةِ كُلَّ مَوْقِعَةٍ كَانَ النَّصْرُ فِيهَا لِقَبِيلٍ فَشَلًّا لِقَبِيلٍ
 آخَرَ فَلَا تَقُومُ لَهُ بِمَدِّهَا قَائِمَةٌ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ خَائِمَةً الْمَوَاقِعِ : كَمَوْقِعَةِ الْيَرْمُوكِ
 الَّتِي أَتَنَصَّرَ فِيهَا الْعَرَبُ عَلَى الرُّومِ ، وَكَانَتْ سَبَبًا فِي فَتْحِ الشَّامِ حَتَّى شَوَاطِئِ

(١) الْبَلَاءُ زَائِلَةٌ (٢) مَصْدَرٌ بِمَعْنَى التَّفَرُّقِ كَأَنَّ (الْحَاسِمَةَ) (٣) مَا لَهُ سَبَدٌ
 وَلَا لَبَدٌ أَيْ لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ . وَالسَّبَدُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْبَدُّ مِنَ الصُّوفِ

الفرات الأعلى ، وكموفة القادسية التي لم تُفْلِحَ بعدها الفُرسُ في موقعة
إلى أن زالت دولتهم

وإليك بُدَّة من أخبار الأولى ، وسنُتبعها أخبار الأخرى
لما فرغت جيوش أبي بكرٍ من محاربة المرتدين ساقهم جيشاً بعد
جيشٍ إلى نشر الإسلام في فارس والشام وحماية دعوتهم إليه بالسيف من
تمدى المتعدين . فبَعَثَ مُفْتَتِحَ سنة ١٣ هـ خالد بن سميد بن العاص وعمر
ابن العاص وشُرَحْبِيلَ بن حَسَنَةَ وأبا عُبَيْدَةَ عامر بن الجراح ويزيد بن
أبي سُفْيَانَ يقود كل منهم جيشاً ، وسَمَّى لِكُلِّ منهم نَاحِيَةً من شَرْقِ
الشام يتوَلَّى فتحها . وكان جمهورُ الناس في جيشِ يزيد بن أبي سُفْيَانَ ؛ فخرج
أبو بكرٍ من المدينة يُشِيعُه مَلَئِكَةٌ ، وأوصاه وغيره من الأمراء ؛ فكان مما
قال له :

« وإذا قَدِمْتَ عَلَى جُنْدِكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ وَأَبْدَأْهُمْ بِالْخَيْرِ وَعِذِّمْ إِيَّاهُ ،
وإذا عَظَّمْتَهُمْ فَأَوْجِزْ ؛ فَإِنَّ كَثِيرَ الْكَلَامِ يُنَمِّي بَعْضُهُ بَعْضًا . وَأَصْلِحْ
نَفْسَكَ يَصْلَحْ لَكَ النَّاسُ . وَصَلِّ الصَّلَاةَ لِأَقْلَابِهَا بِإِتْمَامٍ رُكُوعًا وَسُجُودًا
والتَّخَشُّعَ فِيهَا

وإذا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلُ عَدُوِّكَ فَأَكْرِمْهُمْ ، وَأَقْلِلْ لِبَنِيهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا
من عَسْكَرِكَ وَمِنْ جَاهِلُونَ بِهِ . وَلَا تُرِيهِمْ ^(١) ؛ فَيَرَوْا خَطَاكَ ، وَيَمْلِكُوا
عَلَيْكَ ، وَأَنْزِلْهُمْ فِي تَرَوْه ^(٢) عَسْكَرِكَ . وَأَمْنَعْ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ مُحَادَثَتِهِمْ ،
وَكُنْ أَتَى لِلتَّوَلَّى لِكَلَامِهِمْ

(١) تَعْلِيْمُهُمْ (٢) أَى فِي وَفَرَةٍ عَدَدِكَ وَعَدَّتِكَ

ولا تجمل مِرْكَ لِمَلَانِيَّتِكَ، فيخطِطَ أَمْرُكَ . وإذا أَسْتَشِرْتَ فَاصْدُقِ
الحديثَ تُصَدِّقِ الْمَشُورَةَ . ولا تخزُنْ عن المُشِيرِ خبرَكَ فَتَوُتِي مِنْ قِبَلِ
نَفْسِكَ . وَأَسْمُرْ بِاللَّيْلِ فِي أَصْحَابِكَ تَأْتِيكَ الْأَخْبَارُ، وَتَنكَشِفُ عِنْدَكَ
الْأَسْتَارُ . وَأَكْثِرْ حِرْصَكَ ، وَبَدِّعْ فِي عَسْكَرِكَ ، وَأَكْثِرْ مَفْلَحَهُمْ فِي
مَحَارِمِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بِكَ ؛ فَمَنْ وَجَدْتَهُ غَفَلَ عَنْ مَحْرَسِهِ . فَأَحْمِمْ أَدَبَهُ
وَعَاقِبَهُ فِي غَيْرِ إِفْرَاطٍ ، وَأَعِيقْ^(١) يَنْتَهُم بِاللَّيْلِ ، وَأَجْعَلِ التَّوْبَةَ الْأُولَى أَطْوَلَ
مِنَ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهَا أَيْسَرُهَا لِقَرَبِهَا مِنَ النَّهَارِ . وَلَا تَخَفْ مِنْ عَقُوبَةِ الْمُسْتَحِقِّ ،
وَلَا تَلَجِّنْ^(٢) فِيهَا ، وَلَا تُسْرِعْ إِلَيْهَا ، وَلَا تَتَّخِذْ لَهَا مَدْفَعًا^(٣) . وَلَا تَفْغَلْ عَنْ
أَهْلِ عَسْكَرِكَ فَتُفْسِدَهُ ، وَلَا تَجَسَّسْ عَلَيْهِمْ فَتَفْضَحَهُمْ ، وَلَا تَكْشِفِ النَّاسَ عَنْ
أَسْرَارِهِمْ ، وَأَكْتَفِ بِمَلَانِيَّتِهِمْ . وَلَا تَجَالِسِ الْعَبَّائِينَ ، وَجَالِسِ أَهْلَ الصِّدْقِ
وَالْوَقْدِ . وَأَصْدُقِ الْإِقْدَاءَ ، وَلَا تَجِبْ فَيَجِبَنَّ النَّاسُ ، وَاجْتَنِبِ الْفُلُولَ^(٤) فَإِنَّهُ
يَقْرِبُ الْفَقْرَ وَيُدْفَعُ النِّصْرَ . وَتَسْجُدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِ^(٥)
فَذَنْهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ .

فسار كل أمير يحبشه إلى الجهة التي مماها له، ووقفت بينهم وبين العدو عثة
وقال أنتصر الروم في بعضها وأنتصر العرب في أكثرها، إلى أن تكاملت،
نمته الروم مائة ألف على أقل تقدير فسيروا على كل جيش من جيوش العرب
ما يفوقه مرارا، فأضطربت الأمراء، وكتب بعضهم بعضا، ثم استشاروا
(١) أى أجل بعضهم عتيا لبعض (٢) تبالغن (٣) أى عذرا تدفع به
اللعاب (٤) مصدر غل يقل إذا خان في المضم وغيره (٥) ادبرة مرقمة ينقطع فيها
الرهان للعبادة

عمرو بن العاص فاشار عليهم بأن يتجمعوا في مكان واحد هو اليرموك . ثم
 بعثوا إلى أبي بكر يستشيرونه فأشار عليهم برأى عمرو . فتجمعوا على صفّة
 اليرموك من شرق فلسطين ، فتبشّروهم جيوش الروم بقيادة تدارق أخى
 هرقل ونزلوا يحاربهم على النهر في مكان فسيح بين النهر وبين هوة عميقة
 سميت «الواقصة» بحيث لم يكن لهم إلا منفّة واحد ضيق حفرأ فيه خندقا
 وأراحوا بذلك أنهم يتحرّزون بالنهر والواقصة والخندق من مفاجأة العرب
 وتبييتهم^(١) ، وأن يطاولوهم ليتأنّس الروم بهم فيزول الرعب عن نفوسهم
 وليملّ العرب المقام فيختلّ أمرهم . ولبثوا كذلك شهر صفر وشهر ربيع
 ولكن العرب أتهزت الفرصتين في المكان والزمان

فأما في المكان فإنهم تقصّصوا ونزلوا أمامهم فسدوا عليهم المنفّة وقطعوا
 عليهم طريق الرجعة إلى بلادهم . ونال عمرو بن العاص «أيها الناس أبشروا
 حصرت واقية الروم ، وقلما جاء محصور بخير» . فوقت بينهم مفاوضات
 كانت تنتهى بفوز العرب

وأما في الزمان فإن تلبّث الروم هذه المدة كان كافيا لأن يستمدّ العرب
 أبا بكر ، فكتب إلى خالد بن الوليد (وكان قد سيّره على جيش ظاهر
 المعنى بن حارثة على فتح العراق) أن ينهض إلى الشام بنصف جيش العراق
 وأن يكون أمير الجيوش كلها . فسار مسرعا نحو تسعة آلاف سالكا
 طريق بادية الشام ، فوصل إلى شرق الشام بعد أيام قليلة ففتح بصرى
 وكانت مدينة تجارية على حدود الصحراء ، ثم طلع على المسلمين في اليرموك ،

ووافق طلوعه قُدمَ عَدَدٍ عظيمٍ للرومِ يقوده باهان؛ فأشتبك مع خالدٍ في
مناوشةٍ اضطرت باهان أن يدخل الخندق مع جيش الروم، وتكامل جيشُ
العربِ بخالدٍ أربعين ألفَ مقاتلٍ

وكان الأمرُ متساندين: كلُّ أميرٍ يتولى تذييرَ جيشه ولا يرتبط بتدبير
الآخر. فخطب فيهم خالدٌ يحثهم على الاتحاد، وأن يقاتلوا بقيادة أميرٍ واحدٍ،
وأن يتأمرَ كلُّ أميرٍ على الجيشِ يوماً، وأُقرَّحَ أن يكونَ هو الأميرُ في اليومِ
الأولِ، فأمرُّوه وهم يرون أنها كثرَ جاتهم الماديةِ وأنَّ الأمرَ أطولُ مما صارُوا
إليه. فخرج الرومُ في تفتيةٍ لم يُرَ مثُلُها، وخرج خالدٌ في تعبئةٍ لم تُسبقها العربُ
قبلَ ذلك؛ فخرج في نحوِ أربعين كُرْدُوساً، وقال إنَّ عدوكم قد كثرَ وطني،
وليس من التَّعبئةِ أكثرُ في رأى العينِ من الكراديس. وجعلَ على القلبِ
أبا عبيدة، وعلى البيعةِ عمرو بن الماص، وعلى المنصرةِ يزيد بن أبي سفيان.
ونشب القتالُ، وألحمَ الناسُ، وتطاردَ الفرسان. فإنهم على ذلك إذ قُدمَ
البريدُ^(١) من المدينة، فأخذته الخيولُ، وسأله الخبرَ، فلم يخبرهم إلا بسلامةِ
وإمدادِ (وإنما جاء بموت أبي بكرٍ وتولية عمر بن الخطاب وعزل خالدٍ عن
قيادةِ جند الشامِ وتأشيرِ أبي عبيدة بدلَه) فأبلغوه خالداً، فأبلغه خبرَ أبي بكرٍ
أمره إليه، وأخبره باللقى أخبر به الجند. فقال: أحسنت، وجعله بجانيه
وأخذ خالدٌ الكتابَ وجعله في كنانةٍ سيهامةٍ. ثم حملَ الرومُ حملةً أزالوا
بها العربَ من مواقعهم، فقتلوا الناسَ، فتابوا إلى أمَّاكنهم، وتراجعوا.

فَرَخَّ خَالِدٌ بَقْلَ الْجَيْشِ، وَبِعَمَةُ بَقِيَّتِهِ؛ وَأَشَدَّ الْقِتَالُ مِنْ أَرْهَاجِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ. وَصَلَّى الْجَيْشُ الظَّهْرَ وَالْمَصْرَ بِإِيمَانِهِ^(١). ثُمَّ نَهَدَ خَالِدٌ بِالْقَلْبِ، وَأَخْتَرَقَ صُفُوفَ الرُّومِ، فَفَصَلَ بَيْنَ فُرْسَانِهِمْ وَرِجَالِهِمْ، فَانْحَصَرَ الْفُرْسَانُ بَيْنَ جُيُوشِ الْعَرَبِ، فَلَمْ يَسْتَعْمِ إِلَّا أَنْ يَشُقُّوا لَهُمْ طَرِيقًا وَسَطَ الْعَرَبِ لِيَخْرُجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ، فَأَفْسَحَ لَهُمُ الْعَرَبُ الطَّرِيقَ، فَخَرَجُوا هَارِينَ لَا يَلُؤُونَ عَلَى شَيْءٍ وَتَبَدَّدَ شَمْلُهُمْ. وَجَاءَ اللَّيْلُ فَوَاصَلَ الْعَرَبُ الْقِتَالَ، وَهَجَبُوا بِكَرَادِيْسِهِمْ عَلَى الرُّومِ، فَأَتَقَحُّمُوا خَنْدَقَهُمْ، فَأَتَقَحُّمُوهُ وَرَاءَهُمْ، وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِيهِمْ؛ وَكَانَ أَكْثَرُ رِجَالِ الرُّومِ مُسْلِمِينَ: كُلُّ مَرْبُوطٍ بِالْآخِرِ خَشْيَةَ الْهَرَبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَنْكَى عَلَيْهِمْ مِنْ سِوْفِ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا تَهَقَّرُوا فِي جُنُحِ الظَّلَامِ نَسَاطَطُوا فِي هَوَاةِ الْوَاقُوسَةِ مِنْ جَانِبٍ وَفِي التَّهَرِّ مِنْ آخَرَ، وَكَانَ إِذَا سَقَطَ وَاحِدٌ جَرَّ وَرَاءَهُ آخَرَ؛ فَلَمْ يُصْبِحِ الصَّبَاحُ إِلَّا وَقَدْ فَنِيَ أَكْثَرُ الرُّومِ، وَكَانَ مَنْ تَرَدَّى فِي الْوَاقُوسَةِ أَوْ غَرِقَ فِي النَّهْرِ أَكْثَرُ مِمَّنْ قُتِلَ بِسِوْفِ الْعَرَبِ. وَأَصْبَحَ خَالِدٌ فِي قُسْطَلٍ تَذَارِقُ

وَأَسْتَشْهَدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ. وَلَمَّا أَتَاهُ الْمَوْقِعُ أَخْبَرَ خَالِدٌ أَبَا عُبَيْدَةَ بِمَوْتِ أَبِي بَكْرٍ وَتَوَلَّيْهِ، وَسَلَّمَهُ قِيَادَةَ الْجَيْشِ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَضَى عَلَى أَبِي بَكْرٍ الْمَوْتَ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عَمْرِ». وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَتَلَ عَمْرًا، وَكَانَ أَبْنَضَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ أَلْزَمَنِي حُبَّهُ، وَبَقِيَ خَالِدٌ يَسْمَلُ تَحْتَ إِمْرَةٍ أَبِي عُبَيْدَةَ مُطْطَبًا لَهُ بَادِلًا نَصَحَهُ إِلَيْهِ حَتَّى تَمَّ فَتْحُ بِلَادِ الشَّامِ كُلِّهَا

(١) أى بتحريك رءوسهم فقط

دِمَشْقُ الْفَيْحَاءِ

دِمَشْقُ وَلَسَقَى «جِطَق» هِيَ إِحْدَى حَوَاضِرِ الدُّنْيَا الْمُظِيْمَةِ الشَّانِ،
الْقَدِيمَةِ الْمُرَانِ، الْآهَلَةِ بِالسَّكَّانِ، الْكَثِيرَةِ الْخِدَانِ
قَامَتْ عَلَى الصَّفَةِ الْجَنُوبِيَّةِ لِنَهْرِ بَرْدَى وَسَطَ سَهْلٍ فَسِيحٍ شَرْقِ
جَبَلِ لُبْنَانَ، مِنْ أَخْصَبِ سُهُولِ الْمَالِمِ تَرْبَةٍ، وَأَطْيَبِهَا بَقْلًا وَفَاكَةً وَجَبًا.
وَبَعْدَ عَنْ مَرَقَّتِهَا «بَيْرُوتَ» بِخَوْ ١١٢ أَلْفِ ذِرَاعٍ فَرَنْسِيَّةٍ (مِتر). وَتَعْلُو
سَطْحَ الْبَحْرِ بِخَوْ ٦٠٠ ذِرَاعٍ فَرَنْسِيَّةٍ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ هَوَاؤُهَا مُعْتَدِلًا إِلَّا فِي
الْخَرِيفِ إِذَا كَانَ تَكَثُرُ الْمُسْتَنْقِعَاتِ وَتَكَثُّفِ الرُّطُوبَاتِ؛ فَيَوْخُمُ الْهَوَاءُ
وَتَنْتَشِرُ الْحُمَّى الْأَجْيَمَةُ الَّتِي تَسْتَحِيلُ فِي بَعْضِ السِّنِينَ وَبَلَاءَ فَتَاكََا؛ غَيْرَ أَنَّهُ
لَوْ بَدَّلَتِ الْعَنَاءُ بِتَنْظِيفِ شَوَارِعِهَا وَجَارِي مِيَاهِهَا وَمَصَارِفِهَا لِأَصْبَحَ الْبَيْشُ
فِيهَا رَعْدًا وَالصَّحَّةُ مُسْتَنْبَتَةً أَبَدًا

وَيَبْلُغُ أَهْلُهَا بِخَوْ ٣٠ أَلْفَ نَسَمَةٍ أَكْثَرُهُمْ مُسْلِمُونَ، وَبَقِيَّتُهُمْ نَصَارَى وَيَهُودَ
وَقَدْ بُنِيَتْ دِمَشْقُ عَلَى شَبَكَةٍ مِنَ الْأَنْهَارِ وَالطُّلُجِ وَالْأَقْنِيَةِ وَالْمِيُونِ؛
فَلَا يَكْدُ يَنْتُ أَوْخَانُ أَوْ مَسْجِدُ أَوْ مَعْبَدُ أَوْ رَحَى أَوْ حَمَامٍ أَوْ مَصْنَعُ إِلَّا
وَالْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ وَلَسَقَى أَهْلُهُ وَحَدِيقَتُهُ. وَطَامَّتْهَا مُسْتَمْدَنَةٌ مِنْ نَهْرِ
بَرْدَى بِأَقْنِيَةِ مُصَوَّرَةٍ^(١) وَأَنْأَيْبَ حُكْمَةِ الْوَضْعِ مُتَقَنَةِ الصَّنْعِ

وَيُحِيطُ بِدِمَشْقِ الْقَدِيمَةِ سُورٌ فِي شِمَالِيَةِ قَلَمَتِهَا الْمُظِيْمَةِ؛ وَسَائِرُ الْمَدِينَةِ
الْحَدِيثَةِ خَارِجَ السُّورِ. وَتُشْرِفُ عَلَيْهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ أَشْمَرُهَا جَبَلُ قَلْسِيُونَ

(١) أَى مَبْنِيَةٍ بِالْمَصَارُوجِ وَهِيَ أَخْلَاطُ مِنَ الْكَلَسِ وَغَيْرِهِ تَتَّقَى عَلَى فَضْلِ اللَّهِ

نَزْعَةُ الطَّرِيقِ (٢٩)

ومنظر دِمَشْقِ الظاهري ظِلُّ الجبال، لضيقِ شوارعها وتمرُّجها وندرة تبليطها
وتحصيها ولِسَقْفِ أكثر أسواقها، إلا أنَّ دواخل قصورها ومساجدها تسترعى
الأنظار، وتبهج الخواطر: لما احتوت عليه من بدائع الصنعة وجمل الهندام
ومع أنَّ دِمَشْقَ من أقدم مَنَزلِ العالمِ المأثرة قلما تجدُ بها بناءً أثرياً
ماتلاً، اللهمَّ إلا ما كان خارجاً عنها أو على سفوح جبالها، لكثرة التكتبات
التي مَنِيَتْ بها من تحريق الفاتحين وتدمير المحاصرين وكَيْدِ القرقي من
المتصين؛ حتى لم يبقَ من أحسن أثرٍ فيها وأجل نَيَّة شيدتها العرب بها،
وهو جامع بني أمية، إلا بعض حيطانٍ وسُقْفٍ، ومآثره جديده مستحدثة^(١)
والمشرق دِمَشْقُ غوطتها^(٢) العظيمة التي تنبسط على مُنْظَم السهل في
تربة حمراء خصبية. وتحوى من بساتين الفاكهة والرياحين وحقول
الحبوب والخضر والبقول ما لا تكادُ تجتمع جلته في بقعة من بقاع الأرض،
على جودٍ صَنِيفٍ ولَذَّة طعمٍ وطيب رائحة، وخاصة ثمر المِشْلُوزِ المِشِيشِ القَوْزِي
الحلو النواء الذي تمتاز دِمَشْقُ بطيبه على أكثر البلاد

وتشتمل النُوطَةُ على ٢٨ ضيعةً أكثر أهلها نواطير^(٣) وزراغ. وقد أكثر
السُّبْحُ والمورخون في وصف هذه النُوطَةِ بما أفضى بأكثرهم إلى اعتبارها
أحد متزهات الدنيا وجناتها الأربع (وهي صُغْد سَرَ قَنْد^(٤)، وشِغْبُ

(١) ربما خصصناه بمقالة في غير هذا الجزء (٢) اسم لجنان دِمَشْقِ وقد تطلق
على دِمَشْقِ نفسها (٣) جمع فاطور وهو حافظ الكرم، قارسي معرب. (٤) الصُغْد
مهمل يشتمل على أخصب جنات الدنيا بين بخارى وسمرقند وبلاد التركستان

بَوَّانٌ^(١)، ونهر الأبلّة^(٢)، وغُرْطَة دِمَشق

وقد عَرَفَ أَهْلُ دِمَشقَ قِيَمَةَ التَّمشُّعِ بِتَعِيمِ هَذِهِ الْجَنَانِ؛ فَخَصَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ
حَامَةَ أَيَّامِ الرَّيْعِ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهَا وَالتَّرَوُّجِ بِهَا، وَمَيَّزُوا مِنْهَا سَبْعَةَ مَلَأَنَاتٍ
وَسَبْعَةَ مَبْنُوتٍ وَسِتَّةَ أَحْمَسَاءَ أَوَّلَهَا مَارِسَ



دِمَشق

وَدِمَشقُ مِنْ أَقْدَمِ مَدُنِ الدُّنْيَا، حَتَّى لَيُقَالُ إِنَّهَا أَقْدَمُ مَدِينَةٍ بَاقِيَةٍ عَلَى
عَظَمَتِهَا إِلَى الْآنَ. وَهِيَ مِنْ بَنَاءِ قُدَمَاءِ الْأَرَامِيِّينَ مِنْ بَنِي سَامٍ، وَكَانَتْ
قَاعَةً لِلشُّرَيَّاينِ مِنْهُمْ. وَوَرَّهَا الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ) عِنْدَ
هِجْرَتِهِ مِنْ أَرْضِ حَارَانَ إِلَى أَرْضِ فَلسْطِينَ، وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً. وَدَخَلَتْ فِي
حَوْزَةِ الْمِصْرِيِّينَ عِنْدَ مَا اكْتَسَحُوا سُورِيَةَ إِلَى الْفُرَاتِ، ثُمَّ انْتَمَجَتْ فِي

(١) سهل خصب جداً ببلاد فارس (٢) نهر في الجنوب الغربي من البصرة
يرى سهل الأبلّة. والأبلّة مرفأ البصرة على خليج فارس

مَمْلَكَةِ دَاوُدَ (عليه السلام)، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْأَشُورِيُّونَ مَرَارًا دُورَتَ
 فِي إِحْدَاهَا جَلَّةٌ ثُمَّ اسْتَعَادَتْ نَصْرَتَهَا؛ فَفَتَحَهَا الْبَابِيُّونَ، ثُمَّ الْفَرَسُ ثُمَّ
 الْإِسْكَندَرُ الْمَقْدُونِيُّ؛ فَكَانَتْ مِنْ مَدَنٍ لِلْمَلِكَةِ السِّلَوَقِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ خَلْقَانِ
 فِي سُورِيَّةَ، إِلَى أَنْ غَلَبَهُمْ عَلَيْهَا الرُّومَانُ سَنَةَ ٦٤ ق. م، ثُمَّ اسْتَضَفُوا،
 وَزَاخَمَهُمْ فِي مَمْلَكَةِ الْعَرَبِ مِنَ التَّدْرُجِيَّةِ وَالْعَسَانِيَّةِ وَاسْتَقَلُّوا بِهَا مَرَارًا.
 وَحِينَئِذٍ نَصَرَ الرُّومَانُ دَخْلَهَا الدِّيَانَةَ لِلْمَسِيحِيَّةِ

ثُمَّ أَفْتَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ ١٤ هـ بِمَدْحِصَارٍ وَمَنَازِلَةٍ. وَكَانَ
 قَدْ نَزَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا أَمِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِرُبُوعِ الْجَبَلِ؛ فَفَتَحَهَا
 خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ عَتَوَةً، فَتَسَارَعَ أَهْلُ الْبَلَدِ إِلَى أَبِي عُيَيْدَةَ
 حَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ وَزَيْدِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ، فَسَأَلُوهُمْ الْأَمَانَ
 فَأَمْنُوهُمْ، وَفَتَحُوا لَهُمُ الْأَبْوَابَ الثَّلَاثَةَ، فَدَخَلُوا مِنْهَا بِالصُّلُحِ، وَدَخَلَ خَالِدٌ
 بِالْقَهْرِ، وَتَلَاقَتِ الْجِيُوشُ فِي مُتْتَصِفِ الْمَدِينَةِ. وَكَتَبُوا إِلَى الْخَلِيفَةِ عُمَرَ بْنِ
 الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بِالْخَبَرِ، وَكَيْفَ كَانَ الْفَتْحُ، فَأَجْرَاهَا كُلَّهَا صُلْحًا
 ثُمَّ وَلَّيَهَا مُعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ قِبَلِ عُمَرَ وَبَقِيَ وَالِيًا عَلَيْهَا حَتَّى آتَتْ
 إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ؛ فَأَصْبَحَتْ دَارَ خِلَافَةٍ لِأَعْظَمِ مَمْلَكَةٍ عَرَبِيَّةٍ مَلَكَتِ الْأَرْضَ
 مِنْ حُدُودِ الصِّينِ إِلَى جِبَالِ الْبَرَانِصِ مِنْ أَوْرُبَةِ إِلَى سَنَةِ ١٣٣ هـ، وَهِيَ دَوْلَةُ
 بَنِي أُمَيَّةَ. وَبَلَغَتْ فِي هَذِهِ الْعَوْلَةِ نَهَاةَ حَضَارَتِهَا وَغَايَةَ عِزِّهَا وَتَرَفِّهَا وَغَنَاهَا
 ثُمَّ لَمَّا زَالَتِ الدَّوْلَةُ الْأُمَوِيَّةُ أَصْبَحَتْ مَقَرُّ وِلَايَةِ عَبَّاسِيَّةِ، الْهَانَ اضْطَرَبَ
 جَبَلُ الْمُبَاسِيَّةِينَ، وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مَوَالِيَهُمْ مِنَ التُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، فَاسْتَوْلَتْ
 عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ الطُّوْلُونِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ، ثُمَّ الْإِخْشِيدِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ، ثُمَّ الْفَاطِمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ،

ثم دخلها القرامطة^(١) وشعثوا منها، ثم دخلت في ملك فروع الدولة السلجوقية إلى أن تملكها صلاح الدين وأولاده من الدولة الأيوبية، ثم صارت إلى دولتي المماليك المصرية البحرية ثم البرجية مئة دمرها في خلالها تيمورلنك، ثم أكتسحتها الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ، وما زالت في ملكهم حتى قامت الحرب الأوربية العامة، واشتركت فيها الدولة العثمانية، فغيرت بلادها الحربية. وظن العرب من أهلها وأهل سورية أنهم سيستقلون بكل شؤنهم فأخفقوا، ودخلوا في حماية فرنسا ووصايتها

وأهل دمشق أهل غارف ورقية جانب وميل إلى الأدب والعلم . ولهم شجرة قديمة في الصناعة وحسن بصير بالتجارة . ومن صناعاتهم العجيبة التي أهرضت صناعة السيوف الدمشقية التي يضرب بها المثل في المصنعة والمرونة ، وقد أهرضت هذه الصناعة منذ فتحها تيمورلنك وقل صناعتها إلى سمرقند ؛ وصناعة الوشي ، وصناعة القاشاني^(٢) الجميل . وبقيت فيهم صناعات أهمها النسيج وهو مخور أعمال المدينة ومصدر تجارتها ، ثم الدباغة والصباغة والنجارة وتطعيم الخشب بالماج والصف ونحو ذلك ، وكلها في حالة تدهور وأضمحل لغلبة المصنوعات الأوربية عليها

(١) أهل مذهب يزعمون أنهم من شيعة علي (رضي الله عنه) ولكنهم غلاة إباحيون . وقد عاثوا في مملكة الدولة العباسية وخاصة بلاد العرب والعراق والشام أكثر من قرنين وينسبون إلى رئيس مذهبهم « قرامطة » (٢) نوع من الحزب الصيني جيل القش تزين به الحوائط كأنه منسوب إلى مدينة قاشان من مدن الفرس

رسائل

في أغراض مختلفة

كتب الحسن بن وهب^(١) في الشكر:

من شكركَ على درجة رفعتَه إليها، أو تروية أفدتَه إياها فإنَّ شكرِي
لك على مُهجة^(٢) أحييتَها، وحُشاشة^(٣) أبقيتَها، وروقي^(٤) أمسكتَ به،
وقتَ بين التلغفِ وبينه . فليكلِ نعمة من نِعَم الدنيا حدَّ يُنتهي إليه ، ومدى
يوقف عنده ، وفاية من الشكر يسوُّ إليها الطرف^(٥) ، خلا هذه النعمة
التي قد فاقت الوصف ، وأطالتِ الشكر ، وتجاوزت قدره ، وأتت من وراء
كل غاية ، وردت عنا كَيْدَ المدوِّ ، وأرغمت^(٦) أنفَ الحسودِ ؛ فنحن نلجأ
منها إلى ظِلِّ ظليلٍ وكَنَفِ كريمٍ ؛ فكيف يشكر الشاكرُ وأين يبلغ
جهدُ المجتهد ؟

وكتبَ ابنُ مُكرم^(٧) إلى أحمد بنِ المذَّبر^(٨) يُثني عليه ويتقرب إليه :

إنَّ جميعَ أَكفائِكَ ونظرائِكَ يتنازعون الفضلَ فإذا أُنْهوا إليك
أقرُّوا لك ، ويتنافسون المنازلَ فإذا بلغوك وقفوا دونك . فزادك اللهُ وزادنا
بك وفيك^(٩) ، وجعلنا مِن يَحِبُّهُ رأيك ، ويُقدِّمه اختيارك ، ويقعُ من
الأُمورِ بموقعٍ وواقعتك ، ويمجِّرى فيها على سبيلِ طاعتك

(١) كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً وكان رئيساً لـ « ديوان الرسائل زمن المعتصم والواثق والموكل (٢) المهجة القلب والروح (٣) الحشاشة بقية الروح (٤) القوة وبقية الروح (٥) البصر (٦) ألصقته بالرغام وهو التراب أى أذلك (٧) كاتب من رؤساء الكتاب في الدولة العباسية أواسط القرن الثالث (٨) كان من رؤساء الكتاب والولاة أواسط القرن الثالث (٩) أى في خدمتك

وله في حسن الاعتذار الى بعض الرؤساء
 نَبَتْ بِي غِرَّةٌ ^(١) الْخِدَاةُ فَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ التَّجَرِبَةُ ، تَعَةً بِإِسْرَاعِكَ ^(٢) ،
 وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ ، وَقَبُولِكَ لِمُعْذِرِي ، وَإِنْ قَصُرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ . وَلَنْ
 كَانَتْ ذُنُوبِي سَدَّتْ عَلَى مَسَالِكَ الصَّفْحِ عَنِّي فَرَأَجَعْتُ ^(٣) بِحَبْلِكَ وَسُودَتِكَ .
 وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ مَوْقِعًا أَذِلُّ مِنْ مَوْقِعِي لَوْلَا أَنَّ الْمُخَاطَبَةَ فِيهِ لَكَ ، وَلَا خُطَّةً
 أَذْنِي مِنْ خُطْئِي لَوْلَا أَنَّهَا فِي طَلَبِ رِضَاكَ

الشجرة المباركة

يتفاضل النبات كما يتفاضل الحيوان بتفاوت قوته للإنسان ؛ فافضل
 النبات أو الحيوان أدومهما وأبركه ثمره . ولعلك إذا سمعت في فضل بعض
 الحيوان قول رسول الله صلى عليه وسلم « الخليل » مَقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ^(١) الخيل إلى
 يوم القيامة » إذ كانت عُدَّةً لِمَعْرِزَةِ الْإِنْسَانِ فِي حَرْبِهِ وَسَلَامِهِ ، تَقْهَمُ مَعْنَى نَسْتِ
 بعض النبات بالبركة في قوله تعالى « أَفَهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
 كَمِشْكَاةٍ ^(٢) فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجْجَةٍ الزُّجْجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ كُرِّيٌّ
 يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ^(٣) وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكْلُذُ زَيْتُهَا يَضِيءُ

(١) أي أبدتني غلة الصنم عن الاجتهاد في خدمتك (٢) أي تعة بإسراعك
 إلى الرضا عني (٣) أي في أمري والعضو عني (٤) جمع ناصية ، وهي شعر مقدم الرأس
 أي لا يشارك الخير وجوها (٥) المشكلة كل كوة غير نافذة والمراد بها هنا عمود
 القنديل الأجوف الذي توضع فيه القنبلة لأنه غير نافذ (٦) أي أنها ليست ممرضة
 دائماً لحر الشمس من الشرق أو الغرب بل أنها في وسط أشجار تصيدها الشمس وتكا
 وتحجب عنها آخر فيكون ذلك خيراً للضجها

وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، كما فهم معنى عده من أعظم التعم
في قوله تعالى « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالضَّهْنِ وَصَيِّغٌ ^(١)
لِّلْكَافِرِينَ » إذ كان له من شجرة الزيتون المنوة بها في الآيتين غذاء
وضياء وشفاة

وشجرة الزيتون ليست من الأشجار العظيمة ، قلما يتجاوز علوها ثلاثين
قدماً ، وهي دائمة الخضرة في وطنها ، فلذا نقلت الى الأقاليم الباردة سقطاً
قدركها في الشتاء

ولون حب الزيتون قبل نضجه أصفر ضارب إلى الخضرة ، ثم يسود مع النضج ،
وشجرة الزيتون من أغزر الأشجار نفعاً وأطولها عمراً وأقلها فقرة .
ومن أمثال الإيطاليين المشهورة ، وم أحفل الناس بزراعة الزيتون ،
« إذا أردت أن تخلف ميراثاً خالداً لأولادك وأحفادك فأغرس زيتونة » . ولا
غرو فإن غلة الزيتون في كثرتها وطول دوايحها تعدل غلة أعظم الأشجار
نفعاً لمن لم تقفها جميعاً لمدّة وجوه :

الأول — أن شجرة الزيتون تُثمرُ بعد زمن يسير ؛ فلا يكاد يمضي على
غرسها سنتان حتى تُبكر بالثمرة ، ومتى بلغت ست سنوات أدت ما عليها
لصاحبها من ثقات غرسها وتربيتها ، ولو لم يزرع بحوارها عسباً ولا قلاً
الثاني — أن شجرة الزيتون تُثمرُ طويلاً ، ولا يهرمها كره الفداء ومره

التصبي؛ فلا تزال تَطْمُ وتُثْمِرُ عشرات بل مئات من السنين، كأنها حَالَقَت
الدهر على الصبا، وأخفت عليه ضيائنا من الشَّيْخُوخة: فمن ذلك أن شجرة



فصل زيتون مشر وعلى يمينه
بجسمة واحدة مكبرة وعلى يساره
جبة مكبرة ونصف جبة بنواتها

طال عليها الأمد حتى بَلَى خَشْبُ ساقها، وبقَى
حلواها قائماً حياً يمدُّ الشجرة بالفناء، ويُحَوِّلها
أن تُنَلَّ في صَيْفٍ واحدٍ ما لا يَقلُّ عن خمسة
قناطير من الزيت. ومن بين أشجار الزيتون
فلسطين ما ينبت في صفر على التلّ عام. وقد
إن في إيطاليا أشجاراً ماديّة^(١) من الزيتون
صارت الجمهورية الرومانية

الثالث — أن شجرة الزيتون يُرَقَّقُ

بمخشبها ونمراها:

فأما خشبها فهو لين كان سهل الانكسار معدوداً من أخشاب الزينة؛
فليصيق بماء، ودقة تكوّن به سهلٌ صقله، فيصير سطحه براقاً مُرْجَاجاً
بطرائق: ما بين صفر إلى خضرق إلى كُمْتة، ولذلك يُرْعَبُ أَسْتِمَالُهُ في
صنْع الأدوات الجميلة كالأدراج المزخرفة وأنصبة السكاكين ومقاطع الورق
ونحو ذلك

وأما ثمر الزيتون فألغى قهما وأجدى مائدة^(٢) من الخشب؛ فهو بأكله
مملوفاً غصّاً أو ناضجاً أذمٌ لذيدٌ إذا أُفْرِدَ بنفسه، مُشْتَرِ رَغِيبٌ

(١) أي قديمة جداً كأنها منسوبة إلى قوم مل

(٢) قنما

إذا شُفِعَ بغيره - وهو بصره ينبوع زفت غزير ثابت لا يصمد ولا يترشح
زناً طويلاً ، ولا يكاد يفصله في ذلك زفت من الزيت التي يلتصق بها
الإنسان أو يداوى بها

وأكثر ما يُرْسُ الزتون لأستخراج زيته ؛ فإذا أريد أستخراجه أُغِي
الزيتون على الشجرة حتى ينضج ، ولكن ينبغي ألا يؤخر عن ميعاد جنيته
لتبقى الشجرة مخصبة في المام القابل

وبعد جمع الزتون يُسَطُّ على الأرض في سَمَكٍ لا يزيد على ثلاثة
قرايط أو أربعة مدة يومين أو ثلاثة ليصمد بخار رطوبته ، ثم يهرس
ويجمل في أكياس من القليل^(١) صفيقة النسيج ، وتوضع تحت مِرَاسٍ ثقيل
يسور عليها ، فيرشع الزيت من خلالها أول رشفة ، وهي أفضل الزيت
وأطيبه رائحة وطعماً وأقواه لوناً . وقد تُستخرج منه رشفة ثانية وثالثة
برطيه ثم عصره . ويُنقل الزيت بعد ذلك إلى أحواضٍ عظيمة يمكث فيها
مدة حيث يروق ويرسب ما علق به من لب الثمرة ، فيتحول من عصير
غليظ مسود إلى سائل رائق أصفر اللون إلى الخضرق

وتبلغ أنواع الزيتون ثلاثين نوعاً : ما بين صغير وكبير ومستطيل ومستدير
وقليل الزيت وكثيره وطيب الرائحة وكرهها وقليل المرارة وكثيرها على
أختلاف ألوانها وتفاوت غلتها ، إلا أن المعنى به منها بضعة أنواع
والزيتون من أقدم الأشجار المعروفة في الدنيا وأكثرها حرمة في

(١) هو النبات الذي يتخذ منه الثياب ويسمى بالمامية (القليل)

أكثر الأديان، ولا تخلو الكتب القديمة سماوية أو غير سماوية من ذكره
وتعظيم شأنه والتمسك به

وطنه الأصلي طور سيناء وفلسطين والشام، ثم أُنقل منها الى آسيا
الصغرى وبلاد الإغريق وجنوبي أوروبا وشمال إفريقيا، ولا يُظن أن زراعته
نُجحت في مصر في أزمانها الخالية، لأنها إنما تنجح في المنحدرات والشفوح
الطينية الرملية المُرصنة لهواء البحار، ومصر كانت في تلك الزمان تستحيل
الى ركعة طيلة مدة الفيضان. ولذلك أفلحت زراعته نوعاً ما في الفيوم وأواخر
القرن الماضي لكثرة منحدراتها

وأول من جلبه إليها أميراً مصر للرحومان محمد علي باشا وإبراهيم باشا ابنه
وكل ما في مصر من أشجار الزيتون منقول من الفيوم، وبلغ تعداد أشجار
الزيتون في عهدهما الأول نحو ألفي ألف شجرة، إلا أن أكثرها هلك
بِقِلْو الضلابة بدو نزولها أرضه. ويمكن غرسه في مصر على حدود الصحارى
وفي الأرض المرتفعة قليلاً من شمال الشرقية والدقهلية والبحيرة

ويزرع الزيتون بفرس قضبان، أو قطع فسائله من أصل أمها وقلمها، أو زقيد
أغصانه في جوف الأرض حتى تثبت ثم تقص من أمها وتنقل في الأرض
وينتشر الزيتون الآن في الممالك التي على شواطئ بحر الروم وأواسط
أمريكا وآسيا وفي أستراليا وزيلندة الجديدة

ولا تزال إيطاليا حافظة لمقايها الأول في غرس الزيتون، وإن كانت
جارتها فرنسا قد سبقها في نتج الزيتون الفاخرة، غير أن في إيطاليا الآن
نهضة لاستجلاك أنواع الزيتون مما يجعلها باقية على أشتهارها بصناعتها

تَنبِّهَ النَّاسَ فِي أَرْيَافِنَا إِلَى وَشَكِّ أَقْرَابِنِهِ ، فَخَرِمَ صَيْدُهُ فِي بَعْضِ الْبَقَاعِ
لثَلَاثِ بَيْدٍ فِيهَا

وَيَسْتَحِقُّ الْأَسَدُ تَسْمِيَتَهُ «مَلِكُ السَّبَاعِ» ، لِرَوْعَةِ مَنَظَرِهِ وَعَظَمِ قُوَّتِهِ
وَشِدَّةِ صَوْتِهِ وَدِفَاعِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَهَيْئَةِ جَمِيعِ السَّبَاعِ إِيَّاهُ ، وَلِلَّذَلِكَ ضَرْبٌ بِهِ
الْمَثَلُ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْهَيْئَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَمَا يَزِيدُ مَنَظَرَهُ هَوْلًا عَظِيمًا مُقَدِّمَهُ
وَتَكَافُفِ اللَّبَدِ عَلَى أَعْنَاقِ الدُّكُورِ مِنْهُ



الأسد والقوة

وَلَا يَكْلَأُ يَمَادِلُ الْأَسَدَ حَيَوَانٌ فِي أَيْدِهِ ^(١) يُفْقَدُ يَنْهَضُ بِجَمَلِ الثَّوَرِ
الْمُعْظِمِ ، وَيَصْرَعُ الْإِنْسَانَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً مِنْ ذَنْبِهِ . وَلَيْسَ فِي السَّبَاعِ جَيْمًا
مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ ضَرْبَةً كَفَّةً ؛ فَإِنْ ضَرْبَةً مِنْهُ تَقْضِي عَلَى فَرَسِهِ
وَيَبْلُغُ مَعْرُوسُ عُلُوِّ الْأَسَدِ أَرْبَعَ أَقْدَامٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى أَعْلَى مَنْشِكِهِ

(١) قُوَّتُهُ وَشِدَّةُ عَضْلِهِ

وتراوح طولُه بين ستِّ أقدامٍ وسبعِ خلا ذنبه القى لا يقلُّ عن ثلاثٍ؛ غيرَ
أنَّ أنثاه دونه في كلِّ شيءٍ إلَّا في شراسة الخلق فإنها أشدُّ

والأسدُّ من الحيوان الذي ينهش اللحمَ : يمزقه بأنابيه للذَّربة ويبتلعُه
ولا يمضغه؛ ولهذا كان فكُّه لا يتحرك إلَّا إلى أعلى أو أسفل

وهو ذو ألوانٍ : فنه الأصفرُ والوردُ^(١) والأكلفُ^(٢) والأزبدُ^(٣)
والأخضرُ^(٤)، ويكون لونُ ليدته أقممَ غالبًا دون سائر بدنه.

والأسدُ كالنمرِ والفهد من فصيلة الميرورة لا يمتاز في خلقه منها إلَّا باللبَدِ
في الذكور وعظمِ الجثة : فأظافره على حشيتها وعظمها تحنق في مقام كفة
البيته؛ فبطأ الأرض ولا يُشعرُ به. وعيناه تتسعُ نواظرهما وتضيّق تبعاً لقلّة
النضوء وكثرتِه ولسانه خشن يمينه على تمرّق العظام

وقطُنُ الأسدِ المشهور الرملية والوعور الصخرية التي تكتنفها أو تنخلها
النباض والآجام ومناقع المياه والغدران حيث يكثر عليها ورود الوحش الكبير
من أكلة النبات فيفترسها، كالجواميس وبقر الوحش والظباء وحمر الوحش
والزرافة. وقد يفترسُ الفيلَ والبكرَ كدَن، وقلما تسلمُ منه دوابُّ المزارع التي
تجاورُ عرته ولا أهلها. وبما عُرِفَ من طباعه أنه لا يفترسُ صغارَ الحيوان
إلَّا في الأقلِّ النادر وأنه لا يسبى إلى الأقراس إلَّا إذا أمضه الجوع؛ وإذا
عرض له حيوانٌ وهو شبَّانٌ أغضى عنه، وإن كانت مُشاهداتُ بعضِ المحدثين

(١) الأسد الورد بين الأصفر والأخضر الذي تشوب حرته سواد خفيف

(٢) الأكلف الأسود الى حرة وصفرة قليتين (قرغلي)

(٣) الرمادى (الأساس) (٤) الأخضر الأبيض الى حرة وصفرة قليتين (بنقى)

من الشياح الأوريين (مثل لفنجستون^(١)) تنكر على الأسد هذا الفضل المعروف به من قديم الزمان

ويندر أن يخرج الأسد لطلب رزقه نهاراً، بل يظل سحابة نهاره رايضاً في خبسه؛ فإذا جن الليل عسّ يطلبه؛ فسرعان ما تهديه حدة نظره وقوة شمة الى مكان الصيد، فيتجه صوبه بتسلل وترقق، حتى اذا سامته وصار على يضيح خطوات منه وثب عليه وثبة سريعة يشغمها زئير هائل، فطمعه لطمعة دق بها عنقه أو أنشب برائه في جسمه. ويبدأ بالولوج في دمه ثم ينمسن ما يكفيه من لحمه ويترك بقية شلوه^(٢) ويعود الى عرينه. وتطحق به خلال ذلك طوائف من الضباع وبنات آوى ترقب من كشب فراغه من فريسته فتنقض عليها ولا تبقى لها أثر

والأسد شديد الخوف من النار وهذه النطة يتقى الصيادون والشياح ~~همه فيضرمون حول حياهم ودوابهم النيران الكثيرة، يد أن الأسد يغليهم~~ أحياناً على أمرهم؛ وذلك بأن يدن رأسه من الأرض، ويزار زئيراً عظيماً متوالياً، فيدوى للكلان بصوته، فيستولي الذعر على الدواب فلا تعرف المكان الذي أتى منه الصوت، فتقطع الجبال وقتحم النار فينقض عليها. وتتخذ الأسد الزئير حيلة لصيده؛ فإذا اشتد به الجوع ولم يوص قريسة طفق يزأر، فتخرج الوحوش نافرة من مكانها

(١) صبي الإنجليزي سائح عاش مدة في أواسط أفريقيا لنشر المسيحية بين الزوج وعرف بأصقاع كريمة منها (٢) الشلوجة المقتول أو بعضها

رسائل

في أغراض مختلفة

رسالة لأبي الفرج البيهاق^(١) تهته بولاية :

سَيِّدِي — أَيْدَهُ اللهُ — أَرْفَعُ قَدْرًا، وَأَنْبِيءُ ذِكْرًا، وَأَعْظُمُ نَبْلًا، وَأَشْهَرُ
فَضْلًا مِنْ أَنْ نَهْتَهُ بِلَايَةِ وَإِنْ جَلَّ خَطَرُهَا^(٢) وَعَظُمَ قَدْرُهَا، لِأَنَّ الْوَاجِبَ
تَهْنِئَةُ الْأَعْمَالِ بِفَائِضِ عَدْلِهِ، وَالرَّعِيَّةِ بِمَحْمُودِ فَضْلِهِ، وَالْأَقْلَامِ بِأَمَارِ رَيْلِسْتِهِ،
وَالْوِلَايَاتِ بِبِحَابِ سَيْلِسْتِهِ^(٣). فَزَعَمْتُ أَنَّهُ يُنَمِّتُ مَا تَوَلَّاهُ، وَرِعَاهُ فِي سَائِرِ مَا
أَسْتَرْعَاهُ^(٤)، وَلَا أَخْلَاهُ مِنَ التَّوْفِيقِ فَيَا بُعَايَاهُ، وَالتَّسْهِيدِ^(٥) فَيَا بُرْمَهُ^(٦) وَمُصْصِيَهُ^(٧)

رسالة في الغوم والصاب للمؤلف :

صديق الميز

سلامًا على مَنْ لَا سَلامَ لِي مِنْهُ، وَحَيَّةٌ لِيَنَّ لَا حَيَّةٌ لِيَهْدِي عَنْهُ

وَرَعِيًّا لِمَنْ لَمْ يَرَعْ فِي حُسْنِ رَعِيَّةٍ

وَبَعْدُ فَمَا كُنْتُ لِأُظَنُّ أَنْ عَوَادِي الْأَيَّامِ تُصَالِيكَ عَلَى كَيْدِي،
وَتُصَارِحُكَ بِإِفْشَاءِ سِرِّي، وَتُؤَامِرُكَ فِي نَسْوَةِ أَمْرِي، لِأَوْلَاخِي^(٨) عَقْدَتُهَا
يَتَنَازَعُ الصَّبَا، وَأَعْتَقَلْتُ الْأَيُّطُهَا إِلَّا حُلُوكَ الْأَجَلِ؛ وَلَكِنْ وَتَحَا
لِلْإِنْسَانِ : مَا زَالَ جَنِيبَ^(٩) الزَّمَانِ، يَنْتَرُ بَعِيرَهُ^(٩) وَتَمَثَّلُ بِصُورِهِ؛ فَيَلْسِي

(١) هو أبو الفرج عبد الواحد البيهاق بن نصر الخزرجي من شعراء الشام توفي

سنة ٨٣٩هـ (٢) شرفها وعظمها (٣) أمارت (٤) أي ما يملك ترعه وهو الرعية

(٥) التوفيق والإصابة (٦) يحكمه ويقضيه وينفذه (٧) جمع آخية : وهي ما

تربط به النهاية والمراد بها هنا رابطة المودة (٨) الفرس الجنيب : الجنوب إلى آخر

يسير بغيره (٩) حوادة

التَّحَلُّ (١)، وَتُخَفَّرُ (٢) النِّعْمَةُ وَتَمَلُّ الْمَافِيَّةُ، وَيَطْرُقُ الْكِرَامَةُ
عَلَى أَنْ تَوْنِي قَمِي لَيْسَ بِأَهْوَنَ مِنْ تَوْنِي لَكَ، وَعَنْتِي عَلَى ضَمِيرِي يَرْبُو
عَلَى الْمَتَّبِعِ عَلَيْكَ؛ إِذَا كَانَ لِي نُدْحَةٌ (٣) عَنِ الْإِفْرَاطِ فِي التَّعَقُّ بِكَ،
وَالْتِهَالِكِ (٤) فِي الْإِقْلَافِ قِيَادِي إِلَيْكَ. وَلَعَلَّ الْقَصْدَ فِي ذَلِكَ يَكُونُ أَقْصَدَ سَبِيلَ
لِحَيَاتِنَا الْمُسْتَقْبَلَةِ مَا لَمْ تَدْخُلْ فِي أُخْرَى لَا تُحْتَمَلُ، أَوْ تَخْرُجَ مِنَ الْأَوَّلَى بِسُدُورٍ
قَبْلَ، وَالسَّلَامُ

رِسَالَةُ الْوَلَدِ عَلَى لِسَانِ مُبِلٍ (٥) مِنْ مَوْضِعٍ بِشُكْرِ طَبِيبِهِ الَّذِي عَالَجَهُ عَنَائَتِهِ بِهِ :
سَيِّدِي الطِّبَّاسِي (٦) الْفَاضِلُ

لَقَدْ حَقَّ السَّلَامُ عَلَى مُوَلِيِّ السَّلَامَةِ، وَوَجِبَتِ التَّجَنُّدُ لِمُنْقِذِ الْحَيَلَةِ لَقَدْ
صَارَ حَقًّا عَلَى بَعْدِ أَدَانِي لَكَ هَذَيْنِ الْفَرَضَيْنِ، وَأَعْتَبِلْ بِنَيْلِ تَيْنِكَ
الْحُسْنَيْنَيْنِ، أَوْ أَقْوَمَ لَكَ بِشُكْرِ يَسْتَنْفِذُ جَهْدَ قَمِي، وَتُحْبِطُ بِكُلِّ مَا فِي بَوْسُنِي؛
وَكَيْفَ لَا وَقَدْ أَعْدَتَ لِي الْمَافِيَّةَ وَكَانَ أَيْتَسْنَى الْمَرَضُ مِنْهَا، وَأَمْتَعْتَنِي بِنَعِيمِ
الْحَيَلَةِ بَعْدَ أَنْ جَفَانِي طَبِيبٌ عَيْشَتَهَا، وَبَعْدَ أَنْ أَعْيَا مَقَامِي نَطَقَ الْأَطِبَاءُ، وَمَلَّ
عِيَادَتِي أَوْفَى الْأَخْلَاءِ. فَإِنْ كَانَتْ لِي بَعْدُ مَنَّةٌ (٧) فَهِيَ مِنْ مَحَضِّ مَنَّاتِكَ (٨)،
أَوْ كُنْ لِي يَدٌ فِي عَمَلِي فَهِيَ بِمَنْزِلِ أَيْلَادِكَ

بِحِرَاكِ اللَّهِ خَيْرَ مَا يُجْزَى طَبِيبٌ عَنْ مُبِلٍ، وَمُكْتَفٍ مِنَ الْفَضْلِ مِنْ -
مُقَلِّ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ

(١) الصَّبْحَةُ (٢) يَخُونُ وَيَضُرُّ (٣) سَمَةٌ وَفَسْحَةٌ (٤) مَصْدَرُهَا تَهَالُكٌ
فِي الْأَمْرِ؛ حَدَّثَنِي (٥) أَبْلَى الْمَرِيضَ مِنْ مَرَضِهِ: بَرَأْتُهُ فَهُوَ مُبِلٌ (٦) الطِّبَّاسِي
الْعَالِمُ وَالطَّبِيبُ الْمَاهِرُ (٧) قُوَّةُ (٨) جَمْعُ مَنَّةٍ وَهِيَ النِّعْمَةُ وَالْعَطِيَّةُ

مَوْقِعَةُ الْقَلَاسِيَةِ الْحَاسِمَةِ

لَمَّا أُخْلِلَ أَمْرُ الْفُرْسِ ، وَعَظُمَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَهُمْ أَذِنَ أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لِلْمُنْتَنِي بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ وَسُوَيْدِ بْنِ قُطَيْبَةَ الْحِجَلِيِّ بِغَزْوِ فَارَسَ . ثُمَّ أَمَدَّهُمْ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، فَفَتَحَ الْحِيرَةَ وَبَعْضَ رِيفِ السَّوَادِ . ثُمَّ سَيَّرَهُ بِنِصْفِ جَيْشِ الْعِرَاقِ مَدَدًا لْجُنُودِ الشَّامِ . وَلَمَّا وَلَّى عَمْرُو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الْخِلَافَةَ أَمَدَّهُ الْمُنْتَنِي بِجَيْشٍ عَلَيْهِ أَبُو عُبَيْدٍ بْنُ مَسْعُودٍ التَّحَفِيُّ ، فَتَمَرَّعَ وَعَبَّرَ الْفُرَاتَ إِلَى الْمَدَنِيِّ ، فَفَرَّتْ خِيَلُهُ مِنْ فَيْلَتِهِ ، فَأُضْطَرِبَ جَيْشُهُ ثُمَّ هُزِمَ ، وَقُتِلَ أَبُو عُبَيْدٍ ، وَهَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ قَتْلًا وَغَرَقًا . فَاثْمَدَّ عَمْرُو بِجَيْشٍ آخَرَ عَلَيْهِ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَحْلِيُّ ، فَأُتْصِرَّ عَلَى الْفُرْسِ فِي عِدَّةٍ وَقَائِعَ ، وَأَسْتَبَاحَ الْعَرَبُ سِقَى الْفُرَاتِ ، حَتَّى اسْتَقَامَ أَمْرُ الْفُرْسِ ، وَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ يَزْدَجِرْدَ آخِرَ مَلُوكِهِمْ . فَأَسْتَنْفَرَ النَّاسُ الدِّفَاعَ عَنْ بِلَادِهِمْ ، فَأَجَابُوا ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رُسُتَمُ الْأَعْظَمُ قُوَادَ الْفُرْسِ وَمُتَذَيِّ . فَفَصَلَ رُسُتَمُ عَنْ الْمَدَائِنِ بِجَيْشٍ جَرَارٍ كَثِيرٍ الْمَكْدِ وَالنَّخَاثِرِ وَالْفِيلَةِ يَرْبُوعُهُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ . فَلَمَّا عَلِمَ الْعَرَبُ بِذَلِكَ بَشَّ عَمْرُو بْنُ الْخَطَلَبِ رُسُلًا إِلَى جَمِيعِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَتَدَبَّرَ قُرَاسَتَهَا وَخُطْبَاهَا وَشَرَاهَا وَأَهْلَ الرَّأْيِ بِالتَّجِدَةِ مِنْهَا ، فَأَتَلَبَّطَ نَحْوَ عَشْرِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ أَمَرَ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ الْقُرَشِيُّ . فَتَزَلَّ عَلَى الْقَادِسِيَّةِ . وَمَاتَ لِلْمُنْتَنِي قَبْلَ مُقَدِّمِ سَعْدٍ بِقَلِيلٍ . وَتَكَمَّلَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِضَمَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا . وَاخْتَلَفَتِ الرُّسُلُ مِثَّةَ بَيْنَ الْعَرَبِ وَكَيْسَرِي يَزْدَجِرْدَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُسُتَمٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنَ الْفُرْسِ ، وَأَتَتْهُ الْأُمَرَاءُ بِتَحْكِيمِ السَّيْفِ بَيْنَهُمْ ؛ فَعَبَّرَ الْفُرْسُ الْفُرَاتَ وَنَهَرَ الْقَادِسِيَّةَ ، وَاسْتَدَّ الْمُسْلِمُونَ

الصَّحِيحُ

في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها

تصنيف :

أحمد بن فارس

من أئمة اللغة في القرن الرابع

« شيخنا أبو الحسن - يعني ابن فارس - من رزق »

« حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف » .

العاصم بن حماد

عنيت بتصحيحه ونشره

المكتبة السلفية
لمؤسسيها

مجاهدين المطيب وعبدالقادر القادر

القاهرة : السكة الجديدة

(حقوق الطبع محفوظة)

القاهرة

١٩١٠ - ١٣٢٨

مطبعة المؤيد

مقدمة النشر

الأمة العربية اليوم في دور نهضة حديثة تلد لها الحاجة وتكيفها العوامل. والناظر إلى شعوب هذا المصير بين أقطار عادة — يرى أن هذه النهضة الحديثة ستؤول بالشعب العربي المجيد إلى انقلاب عظيم ، من حيث الشؤون الاجتماعية .

ولما كان الاحتفاظ بالثمين من تراث السلف ، والأخذ بالنافع من نظام الخلف خير ما تنتهجه الأمم من مناهج التقدم — عزمت (المكتبة السلفية) على أن تكون عاملاً صغيراً في عالم العمل ، فتخدم النهضة العربية الشريفة بنشر النافع من الفنون المصرية ، وإحياء ما كلن صفه رجال هذه الأمة على عهد حضارتها الماضية — خصوصاً ما كلن منها في أصول لغتنا وفروعها ، لانه لا حياة للأمم في تيار السياسة وعمان المجتمع إلا بحياة لغاتها. ونحن نقدم اليوم إلى أمتنا العزيرة بالكتاب (الصاحي) في صفه اللغة وسنن العرب في كلامها ، للأمام القوي أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ، استاذ (بديع الزمان الهمداني) وشيخ (صاحب بن عباد) ومصنف الكتب الجليلة .



ولقد اعتمدنا في احياء (الصاحي) ونشره على نسخة صحيحة بخط الأستاذ القوي الجليل المرحوم (الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركي لشقيطي) ، من مكتبته المحفوظة في المكتبة المصرية الخديوية في القاهرة ،

وقد قلها عن نسخة في إحدى مكنتات القسطنطينية، قرأت على المصنف عام ٣٨٢ هـ وعلى ظهرها بخطه ما نصه :

« قرأ عليّ (أبو محمد نوح بن أحمد الأديب) أعزّه الله هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، وصححه وسمعه بقرائته (أبو العباس أحمد بن محمد المروفي بالنضبان) و (أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة القاري) . وكتبه (أحمد بن فارس بن زكرياء) بخطه : (الحمدية) في شعبان من سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة . »

وفي آخرها يقول ناسخها المجاز له :

« وكتب (نوح بن أحمد اللوباساني) في شعبان سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة . »

وقال المرحوم (الشطيبي) بعد ذلك :

« انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه يوم الثلاثاء لشرخ ط من شهر ربيع النبوي ، وكان ابتدئي فيه لشرخ ط من المحرم ، فيكون ظرف اكتابه شهرين . »

« واكتبته من نسخة جليّة ، جميلة الخط ، صحيحة جداً - إلا ما كلف خطأ للمؤلف ، فلا يؤاخذ به الكاتب - وعلى النسخة خط المؤلف يمينه ، وإجازته لتلاميذه : نوح بن أحمد ومن حضر معه . »

« وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة ، لا أبتدي صفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبتها قبلها ، فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد . »

« نجأت بحمد الله نسختي هذه أجل من أصلها وأصح ، لاحتوائها عليه وعلى ما ليس فيه (يعني تليقاته على بعض مواضع الكتاب ، وقد

« اتبناها في الطبع ».

« وكتبها لنفسه (محمد محمود بن التلاميذ التركي) ثم وقعه على
« عصيته بلمه وقها مؤبداً ، فمن بدله فأقعه عليه .

« وذلك بقسطنطينية المحمية ، لعشر خلت من ربيع النبري ، سنة أربع
« وثلاثمائة وألف ، ردني الله تعالى منها سرلياً إلى المدينة مردياً جيلاً ، عليه
« توكلت وكفى بالله تعالى وكيلًا . »

ولقد فهذا مبلغ النسخة الأصلية من الصحة ، ونحن قد بذلنا الجهد في
أن لانجيه بعد الطبع دونها قبله — حتى بلغنا هذه الأمانة فيما نحسب .
وعلى الله الأتمكل .

القاهرة : غرة جادى الثانية ، ١٣٢٨



أحمد بن فارس

معجم الأديباء لقوت وربة الشعر الثمالي وطبقات اللغويين والتأليف البيهقي وعين غلكان

نسبه وبلده :

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب القزويني - أحد أئمة اللغة العربية في القرن الرابع للهجرة .

ولد في جبة (كوسف) و (جياناباذ) ، وهما قرىتان من (رستاق الزهراء) ، ولم تقف على تاريخ مولده . وما يؤيد أنه ولد في كوسف ما رواه جميع عن أبيه محمد ابن أحمد - وكان من جبة جاضري بجالس أحمد بن فارس - قال : « أتاه آت ، فأنه عن موته ، قال (الرجل) : كوسف . فنزل الشيخ :

بلاد بها شدت عليّ نعمائي ،

وأول أرض مسّ جسي ترأها . »

ولم يذكر قوت قريني كوسف وجياناباذ في معجم البلدان ، وإنما قال في معجم الأديباء أنه وجد بخط جميع بن محمد بن أحمد على نسخة قديمة من (كتاب المجمل) تصنيف ابن فارس ما صورته :

« تأليف الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الزهراوي الامتداد -

خرزي . اختلفوا في وطنه ، قيل كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة (كوسف) و (جياناباذ) وقد حضرت القرينتين مرارا ، ولا خلاف أنه قروي . »

هذا ما علمنا من خبر موطنه الاول . أما (الحمدية) التي قرئ (الصاحبي)

فيا على ابن فارس بالاصل الذي قل عنه الشنيطي ، وفيها كتب كتابه (مقام التصحيح) قد قل ياقوت في معجم البلدان عن كتاب لمحمد بن أحمد الفقيه أن (المهدي) - لما قدم (الري) في خلافة (المنصور) - بنى مدينة الري التي بها الناس اليوم ، وجعل لها خندقاً وبنى فيها مسجداً ، وجرى ذلك على يد (عمار بن

الحصيب) وكتب اسمه على حائلها، وتم حملها سنة ١٥٨١، وجعل لها فصيلا لطيف به قارقين آخر. وسماها (المهدية). فأهل الزبي يدعون المدينة الفاحشة (المدينة) ويسمون الفصيل (المدينة الخارجة) والحصن المعروف بالزبيدية في داخل المدينة (المهدية). وفي تاريخ (أبي سعيد الآتي) أنها سميت كذلك باسم المهدي.

أما هذه وتظهر في طلب العلم:

جاء في طبقات القنوين والشمسة السيوطي أن ابن قنوس كان نحويًا على (طريقة الكوفيين). وقد تعلم العلم عن أبيه ومن (أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القناني) - وهو كثير ما حدث ابن قنوس في (الصاحبي) عنه - . وفي معجم الأدباء أنه أخذ أيضا على (أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب) رواية شطب وعلى (أبي عبد الله أحمد بن طاهر النجم) و(علي بن عبد العزيز المكي) و(أبي عبيد) و(أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني) غير ذلك من العلوم.

وكن ابن قنوس يقول عن شيعته ابن طاهر النجم: «مارأيت مثل أبي جده الله أحمد بن طاهر، ولا رأى هو مثل نفسه».

وقال يحيى بن مئدة الأصماني: «سمعت عمي عبد الرحمن بن العباسي يقول، سمعت أبا الحسين أحمد بن زكريا بن قنوس النحوي يقول: دخلت بغداد طالبا للحديث، فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث وليست معي قارورة، فوأتيت شابا عليه صفة الجلال فاستأذنته في كتب الحديث من قارورته فقال: «من انبسط إلى الإخوان بالاستئذان قد استحق الحرمان».

ويؤخذ من رواية (علي بن القاسم المقرئ) رسالة (أوجز السير لخير البشر) من مصنفها أحمد بن قنوس أن المترجم به أقام مدة في مدينة الموصل وقرأ ابن القاسم تلك الرسالة فيما عليه.

أما أبو مصنف الصاحبي فكانت له يد في الأدب، كما يستدل من رواية ابن قنوس عنه قل: «سمعت أبي يقول: حجبت فقيت بمكة ناسا من (هذيل)، فجاريتهم في ذكر شعرائهم، فاعرفوا واحدا منهم. ولكنني رأيت أشمل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدني:

إنما لم تحطَ في أرض فدعها ،
وَحُتَّ البَعْلَات على وَجَّها (١)
ولا يَتَرُكْ حَظُّ أَخِيكَ فِيهَا
إنَّا صَفَرْتُ يَمِينَكَ مِنْ جِلْدَاهَا .
وَهَسَكَ فَرْجُهَا - إِنْ خَفْتُ خَيْبًا -
وَحَلَّ النَّارَ تَحْزَنُ مِنْ بَكَاةَا :
فَأَنْتَ وَاجِدُ أَرْضًا بِأَرْض ،
ولست بواجِدٍ قَسًا سَوَاهَا .

عليه وتلامذته :

على من ذكرنا من الأئمة والاساتذة تلقى المترجم به العلم ، حتى كلن - كما قال عنه أبو منصور السالمي في بنية الدهر - من أعيان العلم همذين ومن أفراد الدهر ، يجمع امتان العلماء وطرف الكتاب والشراء . وهو بالجيل (٢) (ابن لنسك) بالعراق و (ابن خلويه) بالشام و (ابن العلاف) بفارس و (أبي بكر الخوارزمي) بخراسان . وفي ههنا قرأ (بديع الزمان الهمداني) على ابن فارس ، وله تلامذة كثيرون غيره . ثم حل منها الى الري بأجرة ليقرأ عليه (عبد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة أبي الحسين بن بويه الديلمي صاحب الري) فأقام بها قاطئا ، وتحول عن مذهب (ابن ادريس الشافعي) الى مذهب (مالك بن انس) وقال : « أخذتني الحجة لهذا الامام لأن يخلو مثل هذا البلد عن مذهبه » .

وفي الري تعرف ابن فارس بـ (الصاحب بن عباد) وزير (فخر الدولة بن بويه) فكان الصاحب يكرمه ويتلذذ به ويقول :

« شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصنيف » ،

(١) ناقة عملة وعماله وسعة ، ج سلات : فارمة (أي نفقة وتنفية ومبيحة) .

وحى اللحي : حل ، وهو أن يترك التمس أو التمس أو المافرة ، ونسج .

وكان من ثمرات هذه الروابط أن وضع ابن قلس كتابه (الصاحبي) نسبة للوزير ودلالة على أنه صنفه ليودع في خزانته .

جمت جامعة الأدب بين الصاحب وابن قلس حيناً من الدهر ، ثم تنازعت شؤون السياسة قلبيهما - بدليل ما رواه الثعالبي عن ابن عبد الوارث قال : (وكان الصاحب منصرفاً عن أبي الحسين بن قلس لانتدائه إلى خلعة (آل العميد) - أو ابن العميد - ونصبه لهم . فأخذ إليه من ههنا كتاب المجر من تأليفه ، فقال الصاحب : « رد المجر من حيث جاءك » . ثم لم تطلب نفسه بتركه ، فنظر فيه وأمر له بصلته .)

أمايه :

أما أخلاقه وأمايه وعواطفه - فلم يتصل بنا منها إلا أنه كان كريماً جواداً لا يبقى شيئاً . وربما سئل فوهب ثياب جسمه ، وفرش يده ...
ويمكن لمن يجول بين أقواله وأشعاره جولة أن يفتش من الحب ما لم يفتش من النصوص التاريخية ، وأن كان هذا في الغالب يترجم عن شعور ساعة محدودة ، أو مذهب يلزم صاحبه زماناً ثم يذهب بذهاب ذلك الزمن .

مثال ذلك أنك تجد ابن قلس في أبواب ، نشأ الفنة والخط من كتاب الصاحبي محافظاً ، ثم تراه في رسالته إلى (أبي عمرو محمد بن سعيد الكاتب) حراً منفرداً في الحرية ، يناقش أبا عمرو في أنكره على (أبي الحسن محمد بن علي المجلي) تأليف في الحاسة . ويسترف لتأخرين من صواغ الشعر تبريرهم في بعض مقطوعاتهم على شعراء الجاهلية وغيرهم - من حيث تأليف جيد القول وقيمه ، ومختاره ورضيه . ويتنصر لقاعة الحرية ، وهي أن العلوم خطرات الأفهام وتنتج القول ، والدنيا أزمان ، ولكل زمان منها رجال . ومن الخطأ أن تقصر الآداب على أزمان دون أزمان ، وأن ننزع الاستعداد لرجال دون آخرين .

المفاضلة بين شعرة الجاهلية والمولدين

رسالة ابن فارس — إلى ابن سيد الكاتب

أما رسالة أحمد بن قلس إلى أبي عمرو ومحمد بن سعيد الكاتب فهي — كما قل
عنها التعالي — في نهاية الملاحاة ، وقد تضمنت أمودجا من ملح شعراء الجبل وغيرهم
من المعاصرين ، وفيها ظرف أخبارهم . وهذا نصها :
« أهلك الله الرقاد ، وأصعبك السداد . وجنك الخلاف ، وحبيب اليك
الانصاف .

وسبب دعائي بهذا — انكرك على (أبي الحسن محمد بن علي الصجلي)
تأليفه كتابا في الحماة ، واعظامك ذلك . ولعله لفضل — حتى يصيب النرض القدي
يريد ، ويرد النبل القدي يؤمه — لاستدرك من جيد الشعر وقبه ، ومختاره ورضيه
كثيرا بما كتبت المؤلف الأول .

فإذا أنكر بوله هذا الاعتراض ، ومن ذا خطر على المتأخر مضادة المتقدم ؟
وله تأخذ بقول من قال : « مارك الأول للأخر شيئا » وتدع قول الآخر : « كم
ترك الأول للأخر » ؟ وهل الدنيا الا أزمان ، ولكل زمن منها رجال ؟ وهل
العلوم بعد الأصول المحفوظة الا خيرات الأفيام وتنازع العقول ؟ ومن قصر الآداب
على زمن معلوم ، ووقفها على وقت محدود ؟ وله لا ينظر للأخر مثل ما نظر الأول —
حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وماقول لفتها زمانا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام فارة لم تخطر على بالهم
كلن قبلهم ؟ أو ماقلت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ وله جاز أن يقال
بعد (أي تمام) مثل شعرة ولم يميز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ وله حبر وتواضع وحظرت
مباحا . وحرمت حللا . وسددت طرقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين
له ملهم وعليه ما عليهم ؟ ولما جاز أن يعارض الفتها في مؤلفاتهم وأهل التحوفي
مصنفاتهم والنظار في موضوعاتهم وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ولم يميز
معارضة أي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا
يدري قدره ...

ولو اقتصر الناس على كتب القسما لضاع علم كثير . ولذهب أدب عزيز
ولضلت أهام ثاقبة . ولكلت السن لسة . ولا توشى أحد لحطابة . ولا سلك شعبا
من شباب البلاغة . ولجت الاسماع كل مردود مكر ، ولهظت القلوب كل مرجع
منمض . وحام لايسام :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي .

والى مى :

صفحنا عن بني ذهل

وله أنكرت على الصلي مروفا ، واعترفت لحزة بن الحسين ما أنكره على أبي
تمام في زعمه أن في كتابه تكريرا وتصحيفا وإبطاء واقواء وقلا لايات عن أبوابها إلى
أبواب لا تليق بها ولا تصلح لها ، إلى ماسوى ذلك من روايات مدخوة وأمور غلية ؟
وله وضيت لنا بغير الرضي ؟ وهلا حثت على ائادة ماغيته الدهور وتجديد
ما أخفته الأيام وتدوين مانتجة خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر ؟

على أن ذلك لورامه رائم لا نعبه . ولوضه قرأت ما لم ينسط عن درجة من قبله
من جد بروك وهزل يروقك واستنباط يمجيك ومزاح يليك .

وكن بقزوين رجل معروف بأبي محمد الضرير القزويني حضر طعاما ، وإلى
جنبه رجل أكل فأحس أبو حامد (١) بحودة أكله ، فقال :

وصاحبلي بطنه كالمهاوية ،

كأن في أممائه معاوية .

فانظر إلى وجازة هذا المفظ ، وجودة وقوع الامماء إلى جنب معاوية . وهل
ضر ذلك أن لم يقه حماد عجرد وأبو السعتمق ؟ وهل في إثبات ذلك عار على مثبه ،
أو في تدوينه وصمة على ملونه ؟

وبقزوين رجل يعرف بأبن الرياشي القزويني ، نظر إلى حاكم من حكامها -
من أهل طبرستان - مقبلا ، عليه عمامة سوداء وطيلسان أزرق وقمص شديد البياض

(١) له : أبو محمد . أول (أحمد) الأولى أبو حامد .

وخفه أحر . وهو مع ذلك كله قصير ، على برزون أبقى هزيل الخلق طويل الخلق ،
قال حين نظره :

وحاكم جاء على أبقى ،

كحقيق جاء على تعلق .

فلو شاهدت هذا الحاكم على فرسه لشهدت لشاعر بصحة التشبيه وجودة التمثيل
ولست أنه لم يقصر عن قول بشار :

كأن مثار النقع^(١) فوق رؤسهم

وأسيافنا ليل لهاوى كواكب .

فما قول لهذا ، وهل يحسن ظله في انكار احسانه وجود تيميده ؟

وأنشدني الأستاذ أبو علي محمد بن أحمد بن الفضل لرجل بشراز يعرف بالمعناقي ،
وهو اليوم حي يرزق ، وقد عاب بعض كتابها على حضوره طاماً مرض منه :

وُقيت الردى وصروف الملل

ولا عرفت قلعك الزلل ،

شكى المرض المجد لما مرضت —

فلما نهضت سلماً أبل .

لك الذنب ، لأعجب إلا عليك —

لماذا أكلت طعام السفلى ؟

طعام بسوى يبيع التبيذ —

ويصلح من خدر ذاك العمل .

وأنشدني في شاعر ، هو اليوم هناك ، يعرف بـ ابن عمرو الأسدي ، وقد رأيته
فرايت صفةً واهت الموصوف :

وأصفر اللون ، أزرق الخلقه ،
 في كل ما يدعيه غير مته ،
 كأنه مالك الحزين إذا
 تم بريق وقد لوى عقه .
 إن قت في مجوه بقافية
 فكل شعر أقوله صدقه .

وأشدني عبد الله بن شاذان القاري ليوسف بن حمويه ، من أهل قزوين ،
 ويعرف بابن المتادي :

إذا ما جئت أحمد مستميحاً
 فلا يترك منظره الأنيق :
 له لطف وليس لديه عرف ،
 كبارقة تروق ولا تريق .
 فما يخشى الموت له وعيداً ،
 كما بالوعد لا يثق الصديق .

وليوسف محاسن كثيرة ، وهو قتال ، ولعلك سمعت به :

حج مثلي زيارة الخمار ،
 واقتنائي المقار شرب المقار ،
 ووقاري إذا توقر ذو الشيب -
 به وسط الندي ترك الوار ،
 ما أبالي إذا المدامة دامت
 عنل ناه ولا شناعة جار .

ربّ ليل كأنه فرع ليلي
ما به كوكب يلوح لساري ،
قد طوّناه فوق خشف خيل
أحور الطرف فأتى سحر ،
وعكفنا على المدامة فيه
فرأينا النهار في الظهر جلوي .

وفي مليحة كما ترى ، وفي ذكرها كلها تطويل والايجاز أمل . وما أحسبك ترى
بتدوين هذا وما أشبهه بأسا .

ومدح رجل بعض أمراء البصرة ، ثم قال بعد ذلك - وقد رأى توائفا في
أمره - قصيدة يقول فيها كأنه يجيب سائلا :

جوت شريك في الأمير -
فكيف أمرك ؟ قلت فار .

فكيف قول لهذا ومن أي وجه تأتي فتظلمه . وبأي شيء تمانده فتدسه عن
الايجاز والعلاقة على المراد بأقصر لفظ وأوجز كلام ، وأنت التي أنشدتني :

سدّ الطريق على الزمان -
وقام في وجه القطوب .

كأنشدتني لبعض رجال الموصل :

فديتك ، ما شئت عن كبرة
وهذي سني وهذا الحساب ،
ولكن هجرت فخلّ المشيب -
ولو قد وصلت لعاد الشباب .

فلم تخاصم هذين الرجلين في مزاحمتها غوة الشعراء وشياطين الأنس ومردة

السالم في الشعر؟

وأنشدني أبو عبد الله المظلي المرافي لنفسه :
غداة تولت عليهم فترحلوا ،
بكيت على ترحالهم فعميت :
فلا مقلتي أدت حقوق ودادهم ،
ولا أنا عن عيني بذاك رضيت .

وأنشدني أحمد بن بتار لمنا القمي قدمت ذكره ، وهو اليوم حي يرزق :
زارني في الدجى فمَّ عليه
طيب أردافه لدى الرقباء ،
والثريا كأنها كف خود
أبرزت من غلالترقاه .

وسمعت أبا الحسين السروجي يقول : « كلن عندنا طيب يسمى النعمان ويكنى
أبا للنذر ، قال فيه صديق لي :

أقولُ لنعمان ، وقد ساق طبةً .
فموساً فميساتٍ إلى باطن الأرض :
أبا مُنذر أفنيت ، فاستبقِ بمضنا
حنانيك : بمضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ .

مصنفاته :

المجمل : هو مع اختصاره جمع شيتا كثيرا .

العرق

خضارة : هو كتاب نمت الشعر .

الحجر

المصاحبي : صنفه لخزاة المصاحب بن عباد .

الشيآت والحلي

الليل والنهار : له كتاب الألبم واليالي .

العم والحال

الأتباع والمزاوجة

القصيح : وجد ياقوت نسخة منه ، وعليها خط المصنف ، كتبه سنة ٣٩١ .

تمام القصيح : وقعت لياقوت نسخة بخط المصنف ، كتبها في رمضان سنة ٣٩٠ .

متخير الألفاظ

حلية التقية

ذخائر الكلمات

الحصاة المحدثة

مقاييس الفنة : كتاب جليل لم يصنف منه .

خلق الانسان

الاتصار للعلب

أصول الحق

مقدمة الفرائض .

مقدمة كتاب دارات العرب

مقدمة في النحو

تفسير أسماء النبي عليه السلام

صيرة النبي صلى الله عليه وسلم : { صير الحم . اسمه (أوجز السير لخير البشر)
طبع في بومباي في ٨ صفحات .

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

شرح رسالة الزهري الى عبد الملك بن مروان

غريب إعراب القرآن

جامع التأويل في تفسير القرآن : أربع مجلدات .

خدم الحظ في الشعر

قاري فيه العرب

كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين

وله رسائل أنيقة ومساائل في اللغة تنال بها العقلاء . ومنه أقبس الحريري (صاحب المقامات) ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبة وهي مائة مسألة .

شعره :

ليس ابن قارض بين شعراء العربية من المكثرين الذين قصدوا القصائد ودونوا
الدواوين وأرقصوا أنصار جيد القول ببائغ البيان - ولكنه استطاع مع ذلك أن
يسمنا نبيئاً محزوناً بسد كل دمة تدف من عينيه ، وأن يرينا أكاماً زاهية تتفتح
أهدابها سروراً لابتسامة تراوح بين فوائده وشفته .
وقد أثبتنا في هذه الترجمة ماوصلت إليه يدنا من شعر هذا الامام . ومن ذلك
قوله وهو في همدان شاكياً :

سقى (همذان) النيثُ ، لست بقائل

سوى ذاء ، وفي الأحشاء نار تضرمُ ،

ومالي لأصني الحياء لبلية

أفدت بها نسيانَ ما كنت أعلمُ ؛

نسيتُ الذي أحسسته ، غير أنني

مدّينٌ وما في جوف يتيّ درمٌ ...

وقوله في الشكوى أيضاً :

وقالوا : كيف سالك هفت : خير ،

هضي حاجة وهوت حاجُ .

إذا ازدحت هموم الصدر فتنا :

عسى يوماً يكون لها اقتراجُ .

نديري هرتي . وأنيس نفسي

دقارُ لي . وممشوقي المَرَّاجُ ...

وقوله في هذا المعنى :

بليت لي ألف دينار موجهة
وأن حظي منها فلس فلاس .
قالوا : فإلك منها بعت : تخدمني
لها ومن أبطها الحق من الناس .

وقوله في القدر :

تبس لباس الرضا بالقضا
وخل الأمور لمن يملك :
هدر أنت ، وجاري القضا -
مما هدره يصحك .

وقوله في الأصدقاء :

عجب عليه حين ساء صديعه
وآليت لا أمسيت طوع يديه .
فلما خبرت الناس خبر مجرب
ولم أر خيراً منه علت إليه . (١)

وقوله في النفي والافتقار :

قد قال فيما مضى حكيم :
ما المرء إلا بأصغره .
فقلت قول امرء لبيب :
ما المرء إلا بدهيه .

(١) قال السامي في البيتية : أخذ من قول القائل : عجب على سلم لها هجرة . وطاشت أتموا ما دبت إلى سلم .

من لم يكن مئة درهماً
لم يلفت عرسه إليه
وكان من ذلّه حقيراً
قبول سنوره (١) عليه ...

وقوله في المعنى نفسه :

إذا كنت في حاجة مرسلًا ،
وأنت بها كلف منرم ،
فأرسل حكماً ولا توصه ،
وذاك الحكيم هو الدرهم .
وقوله في الخاصة :

إسمع مقالة فاصح
جمع النصيحة والمقّة :
إملك واحذر أن تبذ —
يت من الثقات على ثقّه .

وقوله في التذمر من مهنة الأدب :

وصاحب لي أنا في يستشير ، وقد
أراد في جنات الأرض مضطرباً ،
قلت : اطلب أي شيء شئت واسمع ورد
منه الموارد — إلا العلم والأدب ...

وقوله في عكس ذلك :

(١) في الآتية الباقية : سنورهم . والسنور : الخمر .

إذا كان يؤذيك حرّ الصيف —
وكرب الخريف وبرد الشتاء
ومليك حسن زمان الريح —
فأخذك للعلم قل لي متى ؟

قل يا قوت الحموي في سجم الأدياء : قرأت بخط الشيخ أبي الحسن علي بن
عبد الرحيم السلمي : وجدت بخط ابن فارس على وجه (الجبل) والآيات له ، ثم
قرأتها على سعد الخير الانصاري ، وأخبرني أنه سمعها من ابن شيبه أبي زكريا ، عن
سليمان بن أيوب ، عن ابن فارس :

يا دارسُ متى ابذات الضال من إضم ،
سفال صوب حياكم واكف العين (١)
إني لأذكر أياماً بها ، ولنا
في كل إصباح يوم قرّة العين (٢)
تلذني مشمشة منا معتقة
تشجها عذبة من فابع العين (٣)
إذا تمرّزها شيخ به طرّق
سرت بقوتها في الساق والعين (٤)
والزق ملآن من ماء السرور ، فلا
تخشى تولّه مافيه من العين (٥)

(١) الدين : سحاب يفتأ من قبل القبلة .

(٢) عين الإنسان ونحوه .

(٣) ما يبيع من اللاء .

(٤) الطرّق : ضف الركبتين . والعين هنا : عين الركبة .

(٥) تولّه اللاء : تمرّبه . والعين هنا : قلب يكون في المراءاة .

وغاب عذائنا، فلا كدر
 في عيشنا من رقيب السوء والعين^(١)
 يقسم الود فيما بيننا قسماً
 ميزان صلت، بلا بخش ولا عين^(٢)
 وفائض المال يشيننا محاضره
 فنكتفي من تميل الدين بالعين^(٣)
 (والمجمل)^(٤) المجتبى تنفي فوائده
 حافظه عن كتاب (الجيم)^(٥) و(العين)^(٦)



ومن قول ابن فارس في الغزل :

كل يوم لي من ساء حى عتاب وسباب
 وبأذى ما ألاقى منها يؤذى الشباب
 وقوله في ذلك :

مررت بنا هيفاء مقلودة
 تركية تبى لتركى
 ترنو بطرف فارغان
 أضغف من حجة نحوي

-
- (١) الرقيب والجاسوس .
 (٢) العين في الميزان .
 (٣) العين : المال الناض . قال أبو صيد أنها يسوءه ناضاً لذا تحول عيناً بعد أن كان متاعاً .
 (٤) كتاب المجمل (في الفقه) : لأحمد بن فارس مصنف الصلحي .
 (٥) كتاب الجيم (في الفقه) : لأبي عمرو اسحق بن مراد الشيباني الكوفي المتوفى سنة ٢٠٦ .
 (٦) كتاب العين (في الفقه) : لسهيل بن أحمد المتوفى سنة ١٢٥ .

ابن قارس وابن بابك :

ما وقع لابن قارس وهو في الري ما حدث به لعل من المظفر الزيماني قال : قسم
(عبدالصمد بن بابك) الشاعر الى الري ، في أيام الصاحب ، فتوقع أبو الحسين أحمد
ابن قارس أن يزوره ابن بابك ويقضي حق عليه وفضله . وتوقع ابن بابك أن يزوره
ابن قارس ويقضي حق مقدمه . فلم يفعل أحدهما ما ظن صاحبه . فكتب ابن قارس
الى أبي القاسم بن حسوة :

تعديت في وصلي ، فعدي عتابك .
وأخني بدلاً من نواكم ^(١) إياك .
تيقنت أن لم أحظ — والشمل جلع
بأسر مطلوب — فهل كتابك ؟
ذهبت بقلب عيل بسلك صبره ،
غداة أرتا المرقات ^(٢) ذهابك
وما استعطرت عني سحابة رية .
لديك . ولا نلت عيني سحابك . —
ولا قبت — والصب يصبو لثلبها —
عن الوجئات الغائيات هابك .
ولا قلت يوماً ، عن قل وسامة ،
لنفسك : « سلمي عن ثيابي ثيابك »
وأنت التي شيت — قبل أو أنه —
شبابي ، سقى النور الغواني بشبابك :
تجبت ما أوفى . وعاقبت ما كفى .

(١) الله : نوك . من جليوث

(٢) المرقات : لنوق للسرمة يضرب من السر .

ألم يأن سَعْدِي أَنْ تَكْفِي عَنَّا بَكَ ؟

وقد نَحْتِي مِنْ كَلَابِكَ عَصِيَّةً

فَهَلَّا — وقد حَانُوا — زَجَرْتَ كَلَابِكَ ؟

تَجَافَيْتَ عَنْ مُسْتَحْسِنِ الْعَرِ جَلَّةً

وَجُرْتُ عَلَى بَحْتِي جَفَاءً ابْنَ بَابِكَ ...

فلما وقف أبو القاسم الحسولي على الآيات أرسلها إلى ابن بابك ، وكان مريضاً ، فكتب جوابها :

وصلت الرقعة ، أطال الله بقاء الأستاذ ، وفهنتها . وأنا أشكو إليه الشيخ أبا الحسين ، فإنه صبرني فضلاً ولا وصلاً . وزجاً (١) لا فضلاً . ووضعني موضع الحلال من الموائد . و (تمت) من أواخر القصائد . وسحب اسمي سحب القليل . وأوقفه موقع الذنب المذخوف من الخيل . وجعل مكاني مكان القفل من الباب . و (فذلك) من الحساب .

وقد أجبت عن آياته بآيات أعلم أن فيها ضمناً لعلين علي وعطفا . وهي :

أَيَا أَثْلَاتِ الشَّعْبِ (٢) مِنْ مَرَجٍ يَابِسٍ ؛

سلام على أماركن النوارمن .

لقد شافني — والليل في شَمَلَةٍ (٣) الحيا —

إِلَيْكَ تَوَلَّيْتُ (٤) النَّسِيمَ الْخَالِسَ (٥) .

ولحمةُ برقي مستميتٌ كأنه

(١) الترح : المدينة التي في أسفل الرمح .

(٢) الأثلة (بكسر الهمزة) : شجرة عظيمة لا يمر لها . والشمب (بكسر الشين) : المنفرج بين الجبلين أو الطريق في الجبل .

(٣) الشملة : السقوة والرداء .

(٤) التولييع : الأفرقاء ، من ولع الشيء إذا تلقى به .

(٥) غلست الشيء : احتطته بصرعة على غفلة .

تردُّد لحظ بين أجفان ناعس ،
فبت كَأَنِّي صِلَّةُ (١) مَنِيَّةُ
تَزَعَزَعُ فِي قَع (٢) من الليل دامس .

الأجذا صَبِيحٌ إِذَا أَيُّضُ أَفْمُهُ
يَصْدَعُ عَنْ قَرْنٍ مِنَ الشَّمْسِ وَارِس (٣)
وَكُنْتُ (٤) مِنَ النَّاصِيَةِ تَرْكَبُ سَيْكُمَا
وَرَوْدُ (٥) الْمَطِيِّ الْحَامِثَاتِ الْكَوَانِس (٦)
فِي طَارِقِ الزُّورَاءِ (٧) قُلْ لِنِيَوْمَا : دَامَ
تَهْلِي عَلَى مَتْنٍ مِنَ الْكَرْخِ (٨) آتَسُ .
وَقُلْ لِرِيَاضِ الْقَفْصِ (٩) أَهْلِي نَسِيمَا ،
فَلَسْتُ - عَلَى بَدِ الزَّر - بِأَيْس .

- (١) الصِّلَّةُ : اللِّقَّةُ الْمُتَوَلِّدَةُ حَيْثُ كُنْتَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَتْفِيفٍ .
(٢) مَنِيَّةُ : تَحْرُكُ الْيَدِ . وَالْقَعُ : الْغِيَارُ ، لِسِتَارَةِ الْعِظَامِ .
(٣) وَارِس : أَصْنَرُ ، أَشْتَقُّ مِنَ الْوَرَسِ وَهُوَ بَعْدُ أَصْنَرُ يَكُونُ فِي الْيَمِينِ .
(٤) لَهُ : رَكِبْتُ ، مَرَجَلِيوْتُ .
(٥) مَا كَلَّا ، يَلُونُ الْوَرْدَ مِنْ أَيْدٍ وَارِسٍ وَغَيْرِهَا . وَهُوَ بَيْنَ الْكَيْسِ وَالْأَفْقَرِ .
(٦) كُنْتُ الظَّنِّي كُنْتُهَا : دَخَلَ كُنْهَهُ ، وَاسْتَعْنَيْتُ هُنَا الْمَطِيَّ .
(٧) مَدِينَةُ الزُّورَاءِ : فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَنْدَادَ ، سَمِيتُ كَلْمَكَ لِأَزْوَارٍ (انحراف) فِي قَبْلِهَا
أَوْ لِأَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ جَلَّ أَيْوَالُهَا فَهَاجَتْ مَرْوُودَةٌ عَنِ الْأَبْوَابِ الْخَارِجَةِ هُنَا بَنَاهَا .
(٨) الْكَرْخُ : أَمَا كُنْ فِي الرِّاقِ تَضَافُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ وَتَمُتُّ بِهَا . يُقَالُ : « كَرَخَ
الْبَهْرَةَ » وَ « كَرَخَ بَنْدَادَ » وَغَيْرَ ذَلِكَ .
(٩) الْقَفْصُ : قَرْيَةٌ مَشْهُورَةٌ بَيْنَ بَنْدَادَ وَهَكْمِيَا قَرْيَةٌ مِنْ بَنْدَادَ . وَكَانَتْ مِنْ مَوَاطِنِ الْهَجَرِ
وَمَعَادِ الْبَرَّةِ وَيَأْتِي الْفَرَحُ . تَكْتَبُ عَلَيْهَا الْخُرُوجَ الْحَيَّةُ وَالْحَامِثَاتُ الْكَثِيرَةُ . وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ
مِنْ ذِكْرِهَا .

ألا ليت شعري : هل أيتن ليلة
لَقِيَّ بين أقرط المهي والمحابس ؟
وهل أرين الري دهلز بابك ،
وبابك دهلز الى أرض فارس ،
ويصبح ردم السد قفلاً عليهما ،
كما صرت قفلاً في قوافي ابن فارس ؟

فرض أبو القاسم الحسولي المقطوعين على صاحب وعرفه الحال ، قال : « البادي
أظلم . واقادم يزار . وحنن العهد من الأيمان . »

وقته :

هنا ما انتهى اليها من ترجمة ابن فارس ، وكانت وقاته في الري في شهر صفر
عام ٣٩٥ ، ودفن فيها مقابل مشهد (قلعي القضاة أبي الحسن علي بن عبد العزيز
البرجاني) .

وقل قبل وقاته يومين يستغفر الله :

يارب : إن ذنوبي قد أحطت بها
علما ، وبى وبأعلاني واسراري :
أنا الموحّد ، لكنني المقرّب بها ،
فهب ذنوبي لتوحيدى وإقرارى .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

امام محمد بن عيسى

بمطبعة المطبعة

الصلحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجدقة وبه نستعين ، وصلى الله تعالى على محمد وآله

قال الشيخ أبو الحسين أحمد بن فارس أدام الله تأييده :

هذا (الكتابُ الصَّاحِبُ) في هذه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها . وإنما عَنَوْتُهُ بهذا الاسم لَأَنِّي لما أَلَفْتُهُ أودعته خزانة (الصَّاحِبِ) ^(١) الجليل كافي الكفاة ، عَمَرَ اللهُ عِراصَ العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره ، تَجَمُّلاً بِنُفُوسِنا ، إِذْ كَانَ ما يَقبَلُهُ كافي الكفاة من علم وأدب مَرْضِيّاً مقبولاً ، وما يَرُدُّهُ أو يَفِيضُهُ مِنْفِياً مَرْدُوداً ، ولأنَّ أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذٌ عنه ومُفادٌ منه . فأقول :

إِذْ لَعَلَّ العرب أصلاً وفروعاً : أمَّا الفروعُ فمعرفةُ الأسماء والصفات كقولنا «رجل» و «فارس» و «طويل» و «قصير» . وهذا هو الذي يُبدأ به عند التعلُّم .

وأمَّا الأصلُ فأقولُ على موضوع اللغة وأوليئها ومنشأها ، ثم على

(١) الوزير أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الثاني — نسبة إلى مالك بن قزوين — للذهبي بالصاحب ، وهو أول من كتب بهذا القالب من الوزراء ، لأنه كان يصحبها بالفضل بن السيد قتيل (صاحب ابن العميد) ، ثم أطلق عليه لقب (الصاحب) لأتولى الوزارة وفي علها عليه لقباً لكل وزير بعده . وهو من أئمة الأدب والعلم وله في ١٤ ذي الحجة عام ٣٢٦ وتوفي ليلة الجمعة ٢٤ صفر عام ٣٨٥ .

رسوم العرب في مخاطباتها ، وملها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً .
والنكت في ذلك رجلان : رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره ،
وآخر جمع الأمرين معاً ، وهذه هي الرتبة العليا ، لأن بها يعلم خطابُ
القرآن والسنة ، وعليها يُعول أهل النظر والفن ، وذلك أن طالب العلم
المعالي يكتفي من أسماء الطويل « بسم الطويل » ، ولا يصيرُهُ أن لا يعرف
« الاشق » و « الامق » ^(١) وإن كان في علم ذلك زيادة فضل .

وإنما لم يصِرْ خفاء ذلك عليه لأنه لا يكاد يجد منه في كتاب الله
جل ثناؤه شيئاً فيُخَوِّج إلى علمه ، وهمل مثله أيضاً في ألفاظ رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ كانت الفاضلة صلى الله عليه وسلم هي السهلة
العذبة .

ولو أنه لم يعلم توسع العرب في مخاطباتها لعمي بكثير من علم محكم
الكتاب والسنة ، ألا تسمع قول الله جل ثناؤه « ولا تطرد الذين يقتنون
ربهم بالهدايا والعشي يريون وجهه » إلى آخر الآية ؛ فسر هذه الآية في
نطقها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشي من الكلام ، وإنما معرفته
بغير ذلك مما لعل كتابنا هذا يأتي على أكثره بمون الله تعالى .

والفرق بين معرفة الفروع ومعرفة الأصول أن مؤسباً بالأدب
لوسئل عن « الجزم » و « التسييد » ^(٢) في علاج النوق ، فتوقف أوعى

(١) كلاماً يسمى « الطويل » راجع (تهذيب الالفاظ) لابن السكيت و (لغة العرب)
الرنية) لابي منصور التتالي .

(٢) قال ابن صيدتي في (الفحص) : سوت الابل وهو - أن يبق لها المسح البالي من
الشعر فتداوي به أدبرها .

به أو لم يعرفه ، لم يتقصه ذلك عند أهل المعرفة قصصاً ثانياً ، لأن كلام العرب أكثر من أن يُحصى . ولو قيل له : هل تتكلم العرب في النبي بما لا تتكلم به في الآيات ، ثم لم يطله لتقصه ذلك في شريعة الأدب عند أهل الأدب ، لا أن ذلك يُرَدِّد دينه أو يجره لما ثم .

كما أن مؤسباً بالنحو لو سُئِلَ عن قول القائل :

لَمَنِكَ ^(١) من عبسية لو سبيته

على هتوات كاذب من يقولها

فوقف أو فكر أو استعمل لكان أمره في ذلك عند أهل الفضل هيناً ، لكن لو قيل له مكن « لَمَنِكَ » : ما أصل القسم ، وكم حروفه ، وما الحروف الخمسة المشبهة بالأفعال التي يكون الاسم بعدها منصوباً وخبره مرفوعاً ، فلم يجب لحكم عليه بأنه لم يُشَامَ صناعة النحو قط .
فهذا الفصل بين الأمرين .

والذي جمناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف ^(٢) العلماء المتعلمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء . وإنما لنا فيه اختصارٌ مبسوط أو بسيط مختصر أو شرحٌ مشكل أو جمعٌ متفرق .

(١) لك : كلمة تتصل باسمها . أصلها : لا لك .

(٢) يعني : تصنيف .

باب القول على لغة العرب

أتوقيف ، أم اصطلاح ؟

أقول : ان لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله جل ثناؤه « وعلم آدم الاسماء كلها » فكان ابن عباس يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه التي يمارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأسم وغيرها .

وروى حُصَيْف عن مُجَاهِد قال : علمه اسم كل شيء .

وقال غيرهما : إنما علمه أسماء الملائكة .

وقال آخرون : علمه أسماء ذريته أجمعين .

والذي نذهب اليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس . فان قال قائل : لو كان ذلك كما نذهب اليه لقال « ثم عرضهن أو عرضها » فها قال « عرضهم » علم أن ذلك لا عيان بني آدم أو الملائكة ، لأن موضوع الكناية في كلام العرب يُقال لما يُقبل « عرضهم » ولما لا يُقبل « عرضها أو عرضهن » - قيل له : إنما قال ذلك والله أعلم لأنه جمع بما يُقبل وما لا يُقبل فنقلب ما يُقبل ، وهي ستة من سنن الرب ، أعني (باب التغليب) . وذلك كقوله جل ثناؤه « والله خلق كل دابة من ماء : فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع » فقال « منهم » تنظيماً لمن يمشي على رجلين ومنهم بنو آدم .

فإن قال : أقولون في قولنا سيف وحسام وعصّب إلى غير ذلك من أوصافه أنه توقيف حتى لا يكون شيء منه مُصطلحاً عليه ؛ قيل له : كذلك قول . والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يفتقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم ، ولو كانت للغة مُواضمةً واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج لو اصطالحنا على لغة اليوم ولا فرق .

ولعلّ ظاناً بظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد . وليس الأمر كذلك ، بل وقف الله جلّ وعزّ آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيّاً نبياً ما شاء أن يعلمه ، حتى انتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فأتم الله جلّ وعزّ من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله ، تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قرّر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت .

فإن تعمل اليوم لتلك متممٌ وجد من قُاد العلم من يقضيه ويرُده . ولقد بلغنا عن (أبي الأسود) أن امرأ كلّه يعرض ما نكره أو الأسود ، فسأله أبو الأسود عنه فقال : « هذه لغة لم تبلغك » فقال له « يا ابن أخي ، لا خير لك فيما لم يبلغني » فعرّفه بلطف أن الذي تكلم به مختلق . وخطة أخرى أنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم .

وقد كلن في الصحابة رضي الله تعالى عنهم - وهم البُلغاء والنُصحاء - من

النظر في العلوم الشرفية ما لا يخفاء به . وما علمناهم اصطلاحوا على اختراع لغةٍ أو احدثت لفظةٍ لم تقدمهم .
ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي إلا باهضاته ولا تزول إلا بزواله،
وفي ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه من هذا الباب .

باب القول على الخط العربي

وأول من كتب به

يُروى أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها
(آدم) عليه السلام، قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين وطبخه . فلما
أصاب الأرض النرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه، فأصاب (إسماعيل)
عليه السلام الكتاب العربي .

وكان (ابن عباس) يقول : أول من وضع الكتاب العربي (إسماعيل)
عليه السلام، وضعه على لفظه ومنطقه .
والروايات في هذا الباب تكثر وتختلف .

والذي قوله فيه : ان الخط توقيف ، وذلك لظاهر قوله عز وجل
« إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » وقال جل ثناؤه « والقلم
وما يسطرون » وإذا كان كذا فلا يسجد أن يوقف آدم عليه السلام أو
غيره من الانبياء عليهم السلام على الكتاب .

فأما أن يكون مخترع اختراعه من تلقاء نفسه فشيء لا نعلم صحة

إلا من خبر صحيح .

وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسئلتها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رصاً ولا نصباً ولا همزاً . قالوا والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أنهمز إسرائيل ؟ فقال « إني إذن لرجل سوء » . قالوا وإعما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضنط والمصر . وقيل لآخر آجبر فلسطين ؟ فقال « إني إذن لقوي » . قالوا : وسمع بعض فصحاء العرب يُشد :

نحن بني عَقْمَةَ الأَخيارا

ف قيل له : لم نصبت « بني » ؟ فقال : مانصبته ، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا إسناد الشيء ^(١) . قالوا : وحكي (الاختص) عن أعرابي فصيح أنه سئل أن يُشد قصيدة على الدال فقال : وما الدال ؟ وحكي أن (أبا حية التميمي) سئل أن يُشد قصيدة على الكف فقال :

كنى بالنأي من أسماء كف ،

وليس لسمها إذ طال شاف .

فتنا : والأمر في هذا بخلاف ما ذهب إليه هؤلاء . ومذهبنا فيه التوقيف فنقول : إن أسماء هذه الحروف داخلة في الأسماء التي أعلم الله جل ثناؤه أنه علمها آدم عليه السلام ، وقد قال جل وعز « علمه البيان » ، فهل يكون أول البيان الألف الحروف التي قع بها البيان ؟ ولم لا يكون الذي علم آدم عليه السلام الأسماء كلها هو الذي علمه الألف والباء والجيم والدال ؟ فأما من حكي عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجيم والكسرة والدال فأنما لم نزعهم أن العرب

(١) يعني أنه لم يعرف أن نصبه على الاختصاص . الشنيطي

كلها مدرراً ووبراً قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها ، وما
الربُّ في قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كلُّ يعرفُ الكتابة والخطَّ
والقراءة ، و(أبو حية) كان أُمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف
الكتابة ويخطُّ وقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
كاتبون منهم (أمير المؤمنين علي) صلوات الله تعالى عليه و(عثمان)
و(زيد) وغيرهم .

فحدثني أبو الحسن علي بن إبراهيم القطان قال أخبرنا علي بن عبد
العزيز عن أبي عبيد قال حدثنا ابن مهدي عن ابن المبارك قال حدثني أبو وائل
شيخ من أهل اليمن عن (هاني) قال : كنت عند (هبلان) رضي الله تعالى
عنه ، وم يرضون المصاحف ، فأرسلني بكثف شاة إلى (أبي بن كعب) فيها
« لم يتسنَّ » و « فأهل الكافرين » و « لا تبديل للخلق » قال فدعا باللواة
فصاح إحدى اللامين وكتب « خلق الله » ومحا فأهل وكتب « فهل » وكتب
« لم يتسنَّ » ألحقَ فيها هاء . أفيكون جهلُ (أبي حية) بالكتابة حجةً على
هؤلاء الأئمة ؟

والذي قوله في الحروف هو قولنا في الاعراب والعروض . والدليل
على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الاعراب أنا نستعريه (١) قصيدة
(الحطّينة) التي أولها :

شافتك أظمانٌ ليلي -

دون فاطرة بواكر .

فَنَجِدُ قَوافِيهَا كُلَّهَا عِنْدَ التَّرْنَمِ وَالْأَعْرَابِ تَجِيءُ مَرْفُوعَةً ، وَلَوْلَا عِلْمُ

(١) الاستعارة : التتبع والاحياء .

(الخطية) بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد - لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : قد توارث الرويات بأن (أبا الأسود) أول من وضع العربية، وأن (الخليل) أول من تكلم في العروض . قيل له : نحن لا تنكر ذلك ، بل هول إن هذين اللذين قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيام وقتاً في أيدي الناس ، ثم جدهما هذان الامعان ، وقد هدم دليلاً في معنى الاعراب . وأما العروض فن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاقاً أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أو من قال منهم «إنه شعر» فقال (الوليد بن المغيرة) منكرآ عليهم «لقد عرضت ما قرؤ محمد على أقرأه^(١) الشعر ، هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك » أيقول (الوليد) هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟

وقد زعم ناس أن علوماً كانت في القرون الأولى والزمن المتقدم ، وأنها درست وجلت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة إلى لغة . وليس ما قالوا بعيد ، وإن كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا .

فإن قال : قد سمعناكم تقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا ، من أنها لا تجمع بين ما كنين ، ولا تجليه بساكن ، ولا تهف على متحرك ، وأنها تسمي الشخص الواحد بالامياء الكثيرة ، وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد . قلنا : نحن هول إن العرب فعل كذا بعد ما وطأناه أن ذلك توقيف حتى ينتهي الأمر إلى الموقف الأول .

(١) أقرأ الشعر : جمع قرأ بالفتح وضم ، بمعنى الخاية .

ومن الليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يملأه النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً في مثل « النصب » و « النصف » و « الملاء » فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره .

فحدثني عبد الرحمن بن حمدان عن محمد بن الجهم السمرقي عن (الفراء) قال « أتباع المصحف - إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب - وقراءة القراء أحب إلي من خلافه » قال وقد كان (أبو عمرو بن العلاء) يقرأ « إن هذين لساحران » ولست أجريء على ذلك . وقرأ « فأصدق وأكون » فزاد واواً في الكتاب ولست استحب ذلك .

والذي قاله (الفراء) حسن ، وما يحسن قول (ابن قتيبة) في أحرف ذكرها ، وقد خالف الكتاب المصحف في هذا .



باب القول في أن لغتنا العرب

أفضل اللغات وأوسعها

قال جل ثناؤه « وانه لتنزِيلُ ربِّ العالمين ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » فوصفه جل ثناؤه بأبلغ ما يوصف به الكلام ، وهو البيان .

وقال جل ثناؤه « خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » فقدم جل ثناؤه ذكر البيان على جميع ما توحد بحلقه وقرده بإنشائه ، من شمس وقر ونجم وشجر وغير ذلك من الخلائق المحككة والنشاي المتقنة . فلما خص جل ثناؤه اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه .

فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لفته قد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان ، لأن الأباكم قد يدلُّ بأشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسقى متكلمها ، فضلاً عن أن يسقى بيناً أو بليغاً . وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط ، لأننا لو احتجنا أن نبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فابن هذا من ذلك ، وأبى لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ، وهذا ما لا يخفى به على ذي نية .

وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستمارة والتمثيل

والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال: ولنتلك لا يقدّر أحد من التراجع على أن ينقله إلى شيء من الالسنه كما نقل الانجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قول بل تئاؤه «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها فتقول «ان كان لينك وبين قوم هذنة وعهد نفخت منهم خيانة وقصصاً فأعلمهم أنك قد قصصت ماشرطه لهم وأذنهم بالحرب لتكون أنت وعم في العلم بالنقض على استواء» وكذلك قوله جل تئاؤه «فصربنا على آذانهم في الكهف».

فان قال القائل: فهل يوجد في سنن العرب ونظومها ما يجري هذا المجرى؟ قيل له: ان كلام الله جل تئاؤه أعلى وأرفع من أن يضاهى أو يقابل أو يعارض به كلام، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام السلي الأعلى خالق كل لغة ولسان، لكن الشعراء قد يومثون بإعلاء وأتون بالكلام الذي لو أراد مرئيد قلله لأعناص وما أمكن إلا بمسوط من القول وكثير من اللفظ. ولو أراد أن يعبر عن قول امرئ القيس:

فدع عنك هباً صيح في حجراته (١)

بالعربية فضلاً عن غيرها لطلال عليه. وكذا قول القائل:

(١) صدرت له من قصيدة يرم فيها (خالد بن مدوس)، قال (الشعبي) وتناه:

ولكن حديثاً ما حديث الرواحل.

وما هو مدون مدون في مثله.

- « والظن على الكذب » (١)
 و« نجارها نارها » (٢)
 و« عي بالأسنان » (٣)
 و« أنشأ يرم لك »
 و« هو باهية » (٤)
 و« قلب لو رفع »
 و« على يدي فاختصم »
 و« وشأنك إلا تركه متفاقم »

وهو كثير مثله طالت لغة العرب اللغات . ولو أراد معبر بالأممية أن يعبر عن النعمة والاختراق واليقين والشك والظاهر والباطن والحق والباطل والمبين والمشكل والاعتزاز والاستسلام لبي به . والله جل ثناؤه أعلم حيث يحفل الفضل .

(١) من قطة في (حلة أبي تمام) طرقت بين هجاء الشيلاني ، ولبيت الذي فيه هذه الجملة هو قوله :

أنا ابن زبابة ، لأن تدعي
 آخ ، والظن على الكذب .

(٢) نجار الذي : أصله . والشار : السمة . يقال « ماأر هذه الناقة ؟ » أي ما سمتها . و« نجارها نارها » مثل يشرب في شولعد الأمور التي تمل على علم بلطنها ، كما تملسمة اللابل على أصلها .

(٣) السنان والاسنان : كتاب الفرس . قال (الزنجشري) في (أساس البلاغة) : عي قال بالاسنان إذا دعيت من الفزع كن لا يمدى أين يشد السنان قال :

إذا ملعي بالاسنان قوم
 من لغول للشبه أن يكونا .

(٤) قال (الزنجشري) في أساس البلاغة : « هو باهية من البوائع » فكيس الجماعي من الرمال . شبه بالطار الذي يرد البقم — وهي للمتفقت — دون المارح غوف القاص .

ومما اختصت به لغة العرب - بعد الذي تقدم ذكرناه - قلبهم الحروف عن جهاها ، ليكون الثاني أخف من الاول ، نحو قولهم «مبعاد» ولم يقولوا «مبعاد» وهما من الوعد ، إلا أن اللفظ الثاني أخف .

ومن ذلك تركهم الجمع بين الساتين ، وقد تجتمع في لغة العجم ثلاث سواكن . ومنه قولهم «يا حار» ميلاً الى التخفيف .

ومنه اختلاسهم الحركات في مثل :

قَالِيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْبِبٍ (١)

ومنه الادغام ، وتخفيف الكلمة بالحذف ، نحو «لَمْ يَكْ» و«لَمْ أَتَلْ» ، ومن ذلك اضلالهم الافعال ، نحو «امراً أتقى الله» و«أمر مبكياتك» ، لا أمر مضحكاتك .

ومما لا يمكن هله البتة أو صاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الاسماء المترادفة . ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد غير اسم واحد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم .

وحدثني أحمد بن محمد بن بشار قال سمعت (أبا عبد الله بن خالويه الهذلي) يقول : جمعت للأسد خمس مائة اسم ولحية مائتين .

وأخبرني علي بن أحمد بن الصباح قال حدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنا (ابن أخي الأصمعي) عن غمه أن (الرشيد) سأله عن شعر (ابن حزم المصلي) قصره ، فقال «يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغير غريب» فقال «يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً»

(١) قال التنجيني : غله :

أما من لغة ولا واغل .

وهذا كما قاله الأصمعي . ولكفي الكفاة ^(١) أدام الله أيامه وأبقى للمسلمين فضله - في ذلك كتاب مجرد .

- قَائِن لِسَاثِرِ الْأُمَمِ مَا لِلْعَرَبِ ؛ وَمَنْ ذَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُبْعِرَ عَنْ قَوْلِهِمْ : ذَاتِ
الْزُمَيْنِ ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ الْيَدِ ، وَبِدَاةِ الدَّهْرِ ، وَتَخَاوُصَاتِ النُّجُومِ ، وَمَجَّتِ
الشَّمْسُ رَهْقَهَا ، وَدَرَأَ النَّيْ ، وَمَفَاصِلِ الْقَوْلِ ، وَأَتَى بِالْأَمْرِ مِنْ فَصِّهِ ، وَهُوَ
رَحْبُ الْمَطْنِ ، وَغَمْرُ الرِّدَاءِ ، وَيَخْلُقُ وَقَرِي ، وَهُوَ ضَيْقُ الْمَجْمِ ، قَلَقِ
الْوَضِيِّ ، رَابِطُ الْجَأَشِ ، وَهُوَ الْوَلَى ، بِبَدِ الْمُسْتَمَرِّ ، وَهُوَ شَرَابُ الْيَقَعِ ،
وَهُوَ جَذْبُهَا الْمُحَكِّكَ وَعُذْقُهَا الْمُرْجَبُ ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا مِنْ بَارِعِ كَلَامِهِمْ
وَمِنْ الْأَيَّامِ اللَّطِيفِ وَالْإِشَارَةِ اللَّذَالَةِ .

وما في كتاب الله جل ثناؤه من الخطاب العالي أكثر وأكثَر ، قَالَ
الله جل وعز « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » و « يُحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ » ،
« وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا » و « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
الظَّنُّ لَا يَكُنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » و « إِنَّمَا بَنَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » ، « وَلَا يُحِيقُ
لِلْمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ » وهو أكثر من أن تأتي عليه .

وللعرب بعد ذلك كَلِمٌ تُلَوِّحُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِمْ كُلِّصَابِيحٍ فِي الدُّشَى ،
- كَقَوْلِهِمْ لِلْجَمُوعِ لِلْخَيْرِ : قَتُومٌ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَاتِمٌ الْأَعْمَاقِ ، أَسْوَدُ النُّوَاجِحِ ،
وَاقْتِحَافُ الشَّرَابِ كُلِّهِ ، وَفِي هَذَا الْأَمْرِ مَصَاعِبُ وَقَحَمٌ ، وَامْرَأَةٌ حَيَّةٌ
قَدِيحَةٌ ^(٢) ، وَمَقَادَعُوا تَمَادُّعُ ^(٣) الْفَرَاشِ فِي النَّارِ ، وَلَهُ قَدَمٌ صَدِيقٌ ، وَذَا

(١) يريد به الصواب بن عباد .

(٢) اللعنة : الكلمة الكلام ، الحية .

(٣) أي تاهبوا تابع .

أمر أنت أدرته ودبرته، وهاذفت بنا النوى، واشتفت الشراب، ولك قرعة
 هذا الأمر (خياره)، وما دخلت لفلان قرمة^(١) بيت، وهو يهر القرنة
 إذا جذبته، وهم على قرو واحد (أي طريقة)، وهؤلاء قرأين لك، وهو
 قشع (إذا لم يثبت على أمر)، وقشبه ببيع (لطنه) وصبي قيصع (لا يكاد
 يشب)، وأقبلت مقاصير الظلام، وقطع الفرس الخيل قطعاً (إذا خلعها)،
 وليل أقمس (لا يكاد يبرح)، وهو منزل قهر.

وهذه كلمات من قرعة واحدة، فكيف إذا جال الطرف في سائر
 الجروف بحالته؟ ولو قصصنا ذلك لجاوزنا النرض ولما حوته أجلاذ وأجلاذ.

(١) القرمة: خف البيت.



باب القول على لغة العرب

وهل يجوز أن يحاط بها ؟

قال بعض الفقهاء « كلام العرب لا يحيط به إلا نبي » .
وهذا كلام حري أن يكون صحيحاً . وما بلغنا أن أحداً ممن مضى
ادّعى حفظ اللغة كلها . فأما الكتاب المنسوب إلى (الخليل) وما في خاتمه
من قوله « هذا آخر كلام العرب » فقد كان الخليل أورع وأتقى لله جل ثناؤه
من أن يقول ذلك .

ولقد سمعت علي بن مهزيب يقول سمعت هرون بن هزاري يقول
سمعت (سفيان بن عيينة) يقول « من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من
الذهب والمسك فينظر إلى الخليل بن أحمد » . وأخبرني أبو داود سليمان بن
يزيد عن ذلك المصاحفي عن (النضر بن شميل) قال « كنا نُميل بين (ابن
عون) و (الخليل بن أحمد) أيهما قدم في الزهد والعبادة فلا ندري أيهما
قلم » قال : وسمعت النضر بن شميل يقول « ما رأيت أعلم بالسنة بعد
ابن عون من الخليل بن أحمد » قال : وسمعت النضر يقول « أكلت الدنيا
بأدب الخليل وكتبه وهو في خُص لا يُشعر به » .

قلنا فهذا مكان الخليل من الدين ، أفترأه قلم على أن يقول « هذا آخر
كلام العرب » ؟

ثم إن في الكتاب الموسوم به من الاخلال ما لا يخاف به على علماء
اللغة ، ومن نظر في سائر الأصناف الصحيحة علم صحة ما قلناه .

باب القول في اختلاف لغات العرب

اختلاف لغات العرب من وجوه :

أحدها - الاختلاف في الحركات كقولنا « نَسْتَمِين » و « نِسْتَمِين »
بفتح النون وكسرها . قال (الفراء) هي مفتوحة في لغة قريش ، وأشدُّ وغيرهم
يقولونها بكسر النون .

والوجه الآخر - الاختلاف في الحركة والسكون مثل قولهم « معبكم »
و « معكم » . أنشد الفراء :

وَمَنْ يَتَّقْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعُهُ

وزرق الله مؤثابٌ وغاد .

ووجه آخر - وهو الاختلاف في إبدال الحروف نحو « أولئك »
و « الألك » . أنشد الفراء :

أَلَا لِكَ قَوْمِي لَمْ يَكُونُوا أَشَابَةً ،

وَهَلْ يَمِطُّ الضَّلِيلَ أَلَا لِكَ ؟

ومنها - قولهم « أَنْ زَيْلًا » و « عَنْ زَيْلًا » .

ومن ذلك - الاختلاف في الهمز والتلين نحو « مستهزؤون »
و « مستهزؤن » .

ومنه - الاختلاف في التقديم والتأخير نحو « صابغة » و « صاقمة » .

ومنها - الاختلاف في الحذف والإثبات نحو « استحييت » و « استحييت »

و « صدَدْتُ » و « أَصَدَدْتُ » .

ومنها - الاختلاف في الحذف الصحيح يسدُّ حرفاً مبتلاً نحو « أما

زيد» و«أما زيد» .

ومنها - الاختلاف في الامة والتضخيم في مثل «قضى» و«رمى»
فبعضهم يفتح وبعضهم يُمِيل .

ومنها - الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله ، فمنهم من يكسر
الأول ومنهم من يضم ، فيقولون «اشترَوْ الضلالة» و«اشترَوِ الضلالة» .
ومنها - الاختلاف في التذكير والتأنيث فان من العرب من يقول
«هذه البقر» ومنهم من يقول «هذا البقر» و«هذه النخيل» و«هنا
النخيل» .

ومنها - الاختلاف في الادغام نحو «يهتلون» و«مهْدُون» .

ومنها - الاختلاف في الاعراب نحو «ما زيدٌ قَلْبًا» و«ما زيدٌ قَلْبَم»
و«إِنَّ هَذَيْنِ» و«إِنَّ هَٰذَانِ» وهي بالألف لثة (بني الحارث بن كعب)
يقولون لكلّ ياء ساكنة افتتح ما قبلها ذلك . وينشدون :

تَرَوْدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ ضَرْبَةً

دَعَتْهُ إِلَى هَابِي التَّرَابِ عَقِيمٍ .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الاعراب يقتضي أن يقال «إِنَّ هَٰذَانِ»
قال : وذلك أن «هَٰذَا» اسم منهوك ، ونَهْكَهُ أنه على حرفين أحدهما
حرف علة وهي (الألف) و(ها) كلمة تنبيه ليست من الاسم في شيء ، فلما
تُحْتِج إلى ألف التنبيه ، فلم يوصل إليها لسكون الألف الأصلية ، واحتجج
إلى حذف أحدهما فقالوا : إن حذفنا الألف الأصلية بقي الاسم على حرف
واحد ، وإن أسقطنا أَلِفَ التنبيه كان في النون منها عوض ودلالة على معنى

التنية ، فحذفوا ألف التنية .

فما كانت الألف الباقية هي ألف الاسم ، واحتاجوا الى إعراب التنية - لم يميزوا الألف عن صورتها لأن الأعراب واختلفوا في التنية والجمع انما يقع على الحرف الذي هو علامة التنية والجمع ، فتركوها على حالها في النصب والنقص .

قال : ومما يدل على هذا المنهج قوله جل ثناؤه « فذالك برهانان من ربك » لم تحذف النون - وقد أضيف - لأنه لو حذفت النون لذهب معنى التنية أصلاً ، لأنه لم تكن للتنية هاهنا علامة الألف النون وحدها ، فلذا حذفت أشبهت الواحد لذهاب علامة التنية .

ومنها - الاختلاف في صورة الجمع نحو « أسرى » و « أسارى » .

ومنها - الاختلاف في التصديق والاختلاس نحو « يأمركم » و « يأمركم » و « عني له » و « عني له » .

ومنها - الاختلاف في الوقف على هاء التانيث مثل « هذه أمة » و « هذه امت » .

ومنها - الاختلاف في الزيادة نحو « أنظر » و « أنظرو » . أنشد

لفراء :

الله يعلم أنا في تلقنا

يوم القراق - الى جيراننا - صور ،

وأنتي حيث ما يقني الهوى بعصري

- من حيث عسلكوا - أدتوا أنظرو .

وكل هذه اللغات ممتدة منسوبة الى اصحابها، لكن هذا موضع اختصار، وهي وان كانت لقوم دون قوم فانها لما انتشرت تآوَرها كلٌّ. ومن الاختلاف - اختلاف التضادِّ، وذلك قول (حميد) للقائم «ثب» أي اقم.

فحدثنا علي بن ابراهيم القطان عن المفسر عن القتيبي عن ابراهيم بن مسلم عن الزبير عن ظمياء بنت عبد العزيز بن مَوَّالَة قالت حدثني ابي عن جدي (مَوَّالَة) أن (عامر بن الطفيل) قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فَوَبَّهُ وسادة، يريد فرشه إياها وأجلسه عليها. والوثاب: الفراش بلغة حمير. قال: وهم يسمون الملك إذا كان لا ينزو «مَوثان» يريدون أنه يطيل الجلوس ولا ينزو، ويقولون للرجل «ثب» أي اجلس.

وروي أن (زيد بن عبد الله بن حارم) وفد على بعض ملوك حمير فأنقاه في مَتَصِيدِهِ على جبل مشرف، فسلم عليه واتسبب له، فقال له الملك «ثب» أي اجلس، ووطن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال «لتجذني أيها الملك مطواعاً» ثم وثب من الجبل فهلك. فقال الملك: ما شأنه؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة، فقال «أما أنه ليست عندنا عريقت: من دخل (ظفاري) حمر» وظفار المدينة التي كان بها، واليها ينسب الجزع الظفاري. أراد: من دخل ظفار فليتلحم الحيرة.

باب القول في أفصح العرب

أخبرني أبو الحسين أحمد بن محمد مولى بني هاشم بَقَرَوَيْنَ ، قال حدثنا أبو الحسين محمد بن عباس الخشكي ، قال حدثنا (اسماعيل بن أبي عبيد الله) قال : أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرؤاة لأشعارهم ، واللسان بلغاتهم وأبليسهم ومخاطبتهم أن (قُرَيْشًا) أفصحُ العرب ألسنةً وأصفاهم لغةً . وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم . فجعل قُرَيْشًا قُطَّانَ حَرَمِهِ ، وجيران بيته الحرام ، وولائته . فكانت وفود العرب من حُجَّابها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش في أمورهم . وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكمهم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها (أهل الله) لأنهم الصريح من ولد (اسماعيل) عليه السلام ، لم تشبههم شائبة ، ولم تنقلهم عن مناسبتهم لقلته ، فضيلة من الله — جل ثناؤه — لهم وتشرفًا . إذ جعلهم رَهْطَ نَبِيَّةِ الْأَدْنَيْنِ ، وعِترَةِ الصالحين .

وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخبروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم . فاجتمع ما تخبروا من تلك اللغات إلى شحازم وسلاهم التي طبعوا عليها . فصاروا بذلك أفصح العرب .

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم (عَنْتَ تَمِيم) ولا (عَجْرَفَةُ قَيْس) ولا (كَشْكَشَةُ أَسَد) ولا (كَنْبَكْسَةُ رَيْمَةَ) ولا (الكَسْرُ لَهْفِي تَسْمَعُهُ مِنْ أَسَد) و (قَيْس) مثل : « دِلْمُون » و « نَلَم » ومثل « شَعِير » و « بَيْر » ؟

باب اللغات المذمومة

أما (المنته) التي تُذكرُ عن (تميم) - فظلمهم الممزة في بعض كلامهم
 عينا . يقولون « سمعتُ عن فلانا قال كذا » يرمون « أن » .
 ورؤي في حديث (قيلة) : « تحسب عني نائمة » قال (أبو عبيد)
 أرادت تحسب أني ، وهذه لغة تميم . قال (ذو الرمة) :
 أعن ترست من خرقاء منزلة
 ماء الصباية من عينيك مسجوم ؟
 أراد « أن » فجعل مكان الممزة عينا .
 وأما (الكشكشة) التي في (أسد) - فقال قوم : إنهم يملكون
 الكف شيئا فيقولون « علكش » بمعنى « عليك » . وينشدون :
 فميناش عيناها ، وجيدش جيدها ،
 ولونش - إلا أنها غيرُ عاطل .
 وقال آخرون : يصلون بالكف شيئا ، فيقولون « علكش » .
 وكذلك (الكسكسة) التي في (زينة) - إنما هي أن يصلوا بالكف
 شيئا ، فيقولون « علكس » .
 وحدثنني علي بن أحمد الصبأحي ، قال سمعت (ابن دُرَيْد) يقول :
 حروف لا تكلم بها العرب إلا ضرورة ، فلذا اضطروا إليها حوّلوها عند
 التكلم بها إلى أقرب الحروف من خارجها .
 فمن تلك الحروف الحرف الفني بين الباء والقاء . مثل « بور » إذا

اضطروا . فقالوا « فور » .

ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم — وهي لنة سائرة في
اليمين — مثل « جَل » اذا اضطروا قالوا « كَل » .

قال : والحرف الذي بين الشين والجيم والياء : في المذكر « غَلَج »
وفي المؤنث « غَلَمَش » .

فأما (بثو عيم) فأنهم يلحقون القاف بالهاء حتى تنظف جداً فيقولون
« القوم » فيكون بين الكاف والقاف ، وهذه لنة فيهم . قال الشاعر :
ولا أْكُولُ لِكُلِّ كَوْمٍ : قد نضجت (١) ،
ولا أْكُولُ لبَابِ الدَّارِ : مَكْفُولُ .

وكذلك الياء تجمل جيا في النسب . يقولون « غَلَج » أي « غلامي » .
وكذلك الياء المشددة تحوّل جيا في النسب . يقولون « بَصْرَج »
و « كُوفَج » قال الرّاجز :

خَالِي عُوَيْفٌ ، وَأَبُو عَلِيجَ ،
الْمُطْعِمَانِ اللَّحْمَ بِالْمَشِيجِ ،
وَالْمُنْدَادَةُ فَلَقَى الْبَرْمِيجَ .

وكذلك ما أشبهه من الحروف المرغوب عنها . كالكاف التي تحوّل
شيئاً .

قلنا : أما الذي ذكره (ابن ثريد) في « بور » و « فور » فصحيح .
وذلك أن بور ليس من كلام العرب ، فلذلك يحتاج العربي عند تعريبه إياه
أن يُصَيِّرَهُ فاءً . وأما سائر ما ذكره فليس من باب الضرورة في شيء . وأيُّ

ضرورة بالقتال إلى أن يقلب الكلف شيئاً، وهي ليست في سجع ولا فاصلة ؟
ولكن هذه لغات لقوم على ما ذكرناه في باب اختلاف اللغات .

وأما من زعم أن (ولد اسماعيل) عليه السلام يُمَيَّرُونَ (ولد قحطان)
أنهم ليسوا عرباً ، ويحتجّون عليهم بأنّ لسانهم (الحِمْيَرِيَّة) وأنهم يُسمُّون
للحِجَّة بنير اسمها — مع قول الله جلّ ثناؤه في قصة من قال : لا تأخذ
بِطَيْحَتِي وَلَا بِرَأْسِي — وأنهم يُسمُّون اللذيب « القلوب » — مع قوله
« وأخف أن يأكله اللذيب » — ويسمون الأصابع « الشنائر » — وقد
قال الله جلّ ثناؤه « يجمّلون أصابعهم في آذانهم » — وأنهم يسمون
الصديق « الخليم » — والله جلّ ثناؤه يقول « أَوْصِيَهُمْ — وما أشبه
هذا . فليس اختلاف اللغات قادحاً في الأنساب .

ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات ، فلما تكرر أن
تكون لكلّ قوم لغة . مع أن (قحطان) تذكر أنهم (العرب العاربة) ،
وأن من سواهم (العرب المتعربة) ، وأن (اسماعيل) عليه السلام بلسانهم
نطق ، ومن لغتهم أخذ ، وإنما كانت لغة أبيه صلى الله عليه وسلم (العبرية)
وليس ذا موضع مفارقة فنستعصي .

ومما يُفسد الكلام وليسه (الخزم) ولا يريد به الخزم المستعمل في
الشعر ، وإنما يريد قول القائل :

ولئن قومٌ أصابوا غرّةً ،

وأصبتنا من زمان رَهّا ،

لَمَعَدْ كُنَّا لهُنَّ أزمانا

لِشَرِّ مَجِينٍ لِبَاسٍ وَتُقَى .
 فزاد لاماً على « لقد » وهو قبيح جداً .
 ويزعمُ ناسٌ أن هذا تأكيد كقول الآخر :
 فلا واقه لا يقى لابي ،
 ولا لابيهم - أبناً - ذوالاً .
 فزاد لاماً على « لا » وهذا أقبح من الأول . فأما التأكيد فأن هذا
 لا يزيد الكلام قوة ، بل يقبحه . ومثله قول الآخر :
 وصالياتٍ ككما يوشعين .
 وكل ذا من أغليطٍ من ينلط ، والعرب لا ترفقه .



باب القول في اللغة التي بها نزل القرآن

وأنه ليس في كتاب الله جل ثناؤه شيء بغير لغة العرب

حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم القطان قال حدثنا علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد عن شيخ له ^(١) أنه سمع الكاكي يحدث عن أبي صالح عن (ابن عباس) قال: نزل القرآن على سبعة أحرف أو قال بسبع لغات، منها خمس بلغة العَجَز من هوازن وهم الذين قال لهم (عليها هوازن) وهي خمس قبائل أو أربع، منها (سمد بن بكر) و(جشم بن بكر) و(نصر بن معاوية) و(قيف).

قال (أبو عبيد): وأحسب أفصح هؤلاء (بني سمد بن بكر) لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أما أفصح العرب مِدْ أُنِي من قرش وأُنِي نشأت في بني سمد بن بكر» وكان مُستَرَضًّا فيهم، وهم الذين قال فيهم (أبو عمرو بن الملاء): أفصح العرب (عليها هوازن) و(مُغَلِّي عِمْ). وعن (عبد الله بن مسعود) أنه كان يَسْتَحِبُّ أن يكون للذين يكتبون للمصاحف من (مضر).

وقال (عمر): لا يُغَلِّيَنَّ في مصاحفنا إلا غُلمان (قرش) و(قيف). وقال (عثمان): اجعلوا لللي من (هذيل) والكتاب من (قيف). قال (أبو عبيد): فهذا ما جاء في لغات مضر. وقد جلت لغات لاهل (اليمن) في القرآن معروفة. منها قول لجل ثناؤه «مُكِين فيها على الأرائك» فحدثنا أبو الحسن علي بن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال حدثنا

(١) قال الشيخ: أعلن الشيخ مثل بن محمد — (الأصل)

هشيم أخبرنا منصور عن (الحسن) قال : « كُنا » قال إنها بالحسبية .
 وقوله « هيت لك » قال إنها بالحوزانية . قال : فهذا قول أهل العلم من الفقهاء .
 قال : وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام الحميم شيء ، وأنه
 كله بلسان عربي ، يأوكون قوله جل ثناؤه « إنا جعلناه قرآنا عربيا »
 وقوله « بلسان عربي مبين » .

قال (أبو عبيد) : والصواب من ذلك عندي — والله أعلم — مذهب
 فيه تصديق القولين جميعاً . وذلك أن هذه الحروف وأصولها عجيبة — كما قال
 الفقهاء — إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربت بها بالسنتها ، وحوكتها عن
 ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية . ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه
 الحروف بكلام العرب : فن قال إنها عربية فهو صادق ، ومن قال عجيبة
 فهو صادق .

قال : وإنما فسرنا هذا ثلاثاً يقيم أحد على الفقهاء فينسبهم إلى الجهل ،
 ويروم عليهم أنهم أقدموا على كتاب الله جل ثناؤه بنسب ما أراد الله جل
 وعز ، وهم كانوا أعلم بالتأويل وأشد تعظيماً للقرآن .

قال أحمد بن فارس : ليس كل من خالف قائلاً في مقالته فقد نسبته
 إلى الجهل . وذلك أن الصدر الأول اختفوا في تأويل أي من القرآن يخالف
 بعضهم بعضاً . ثم خلف من بعدهم من خلف ، فأخذ بعضهم يقول وأخذ
 بعض يقول ، حسب اجتهادهم وما دللتهم الدلالة عليه . فالقول إذ ذاك ما قاله أبو
 عبيد ، وإن كان قوم من الأوائل قد ذهبوا إلى غيره .

فإن قال قائل : فما تأويل قول أبي عبيد ، فقد أعظم وأكبر ؟
 قيل له : تأويله أنه أتى بأمر عظيم وكبير . وذلك أن القرآن لو كان فيه

من غير لغة العرب شيء ، لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الايمان
بشئله لأنه أتى بلسان لا يعرفونها ، وفي ذلك ما فيه .
وإذا كان كذا فلا وجه لقول من يميز قراءة القرآن في صلواته بالفارسية
لأن الفارسية ترجمة غير معجزة . وإنما أمر الله جل ثناؤه بقراءة القرآن
العربي المعجز . ولو جازت القراءة بالترجمة الفارسية لكانت كتب التفسير
والمصنفات في معاني القرآن باللفظ العربي أولى بمجاوز الصلاة بها ، وهذا
لا يقوله أحد .

باب القول في مأخذ اللغة

تؤخذ اللغة اعتبارا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ
اللغة عنهم على مرّ الأوقات .
وتؤخذ تلقّنا من ملقّن .
وتؤخذ سماعا من الرؤاة الثقات ذوي الصلوة والأمانة ، ويؤتقى المظنون .
فحدثنا علي بن ابراهيم عن المدايني عن أبيه عن معروف بن حسان (١)
عن الألبيث عن (الخليل) قال : إن النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس
من كلام العرب لراحة اللبس والتسكين .
فلما فليتحجر أخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والتهمة والصلوة
والعدالة . فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا . والله جل ثناؤه
نستهدي التوفيق ، وإليه نرغب في إرشادنا لسبيل الصلوة ، انه خير
موفق ومعين .

(١) أبو ساذ معروف بن حسان . — (الامل)

باب القول في الاحتجاج باللغة العربية

لأن العرب يحتج بها فيما اختلف فيه ، اذا كان أئلم أقرأئك . قال (أبو بكر) : ومن العظيم أن علياً وعمر رضي الله عنهما قد قالا «الفرؤ الحيف»
فعل يُجْزَأ على تجهيلهما باللغة ؛

ومنها قوله في قوله جل ثناؤه «حرّض المومنين على القتال» أنه أراد
الذكور دون الاناث . قال : وهذا من تحريم ما يَنْلَط فيه مثله . يقول الله
جل ثناؤه «يا بني آدم» أفترأه أراد الرجل دون النساء ؛

قال ابن داود : وإن قيساً مفرط القبحه عن يسب (ملك بن أنس)
بأنه سخن في مخاطبة الملمة بأن قال «مطرنا الباردة مطراً أي مطراً» أن
يرضى هو لنفسه أن يتكلم بثل هذا . لأن الناس لم يزالوا يلحون ويتلاحنون
فيما يخاطب بعضهم بعضاً أيقاه للخروج عن عادة العامة فلا يمسب ذلك من
يُصنهم من الخاصة، وإنما الميب على من غلط من جهة اللغة فيما ينير به حكم
الشرعة والله المستعان .

فلذلك قلنا : أن علم اللغة كالواجب على أهل العلم ، لئلا يجهلوا في
تأليفهم أو خياهم عن سنن الاستوله .

وكذلك الحاجة الى علم العربية ، فان الاعراب هو القارق بين المعاني .
الآرى أن القائل اذا قال «مأحسن زيد» لم يفرق بين التعجب والاستفهام
والتمنن الا بالاعراب . وكذلك اذا قال «ضرب أخوك أخانا» و «وجهك
وجه حر» و «وجهك وجه حر» وما أشبه ذلك من الكلام المشبهة .
هذا وقد روي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال

« أعرّبوا القرآن » .

وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرؤنه اجتنابهم
بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى أن المحدث يحبب فيلحن .
والفقيه يؤلف فيلحن . فأذا بُها قالا : ما ندري ما الأعراب وإنما نحن محدثون
وقهلاء . فهما يسيران بما يساء به الثيب .

ولقد كُتبت بعض من ينهب بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة
العليا في القيلس ، قُلت له : ما حقيقة القيلس وممناء ، ومن أي شيء هو ؟
فقال : ليس علي هذا وإنما علي إقامة الدليل على صحته .
قبل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ،
ولا يدري ما هو . ونموذ بالله من سوء الاختيار .



باب القول على لغة العرب

هل لها قياس، وهل يُشتقُّ بعض الكلام من بعض؟

أجمع أهل اللغة - الأئمة من شدّة عنهم - أن لغة العرب قياساً، وأن العرب تشتقُّ بعض الكلام من بعض.

وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان. وأن الجيم والنون تدلان أن ابتداء على الستر. تقول العرب للدرع: جُنّة. وأجنّه الليل. وهذا جنين، أي هو في بطن أمه أو مقبور.

وأن الإنس من الظهور. يقولون: آتت الشيء: أبصرته.

وعلى هذا سائر كلام العرب، علم ذلك من علم وجملته من جهل. قلنا: وهذا أيضاً مبني على ما تقدم من قولنا في التوقيف. فإن الذي وقفنا على أن الاجتنان التستر هو الذي وقفنا على أن الجن مشتق منه. وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه، لأن في ذلك فساد اللغة وإطلاق حقائقها. ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً قبيحاً الآن ونحن.



باب القول على أن لغة العرب لم تنته اليها بكليتها

وأن الذي جأنا عن العرب قليل من كثير .

وأن كثيرا من الكلام ذهب بنحلب أهله .

ذهب علوانا أو أكثرهم إلى أن الذي انتهى اليها من كلام العرب هو الأقل . قال : ولو جأنا جميع ما قالوه لجأنا بشعر كثير وكلام كثير .

وأحر هذا القول أن يكون صحيحا . لأننا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قاله العرب ، فلا يكاد واحد منهم يُخبر عن حقيقة ما خولف فيه ، بل يسلك طريق الاحتمال والامكان .

ألا ترى أننا نسألهم عن حقيقة قول العرب في الإغراء « كَذَبَكَ كَذَا » وعما جاء في الحديث من قوله « كَذَبَ عَلَيْكَ الْحَجُّ » و « كَذَبَكَ السَّلُّ » وعن قول القائل :

كَذَبْتُ عَلَيْكُمْ أَوْ عُدُونِي وَعَلَّوْا
بِي الْأَرْضَ وَالْأَقْلَمَ قِرْدَانِ مَوْظِلًا .
وعن قول الآخر :

كَذَبَ السَّيْقُ وَمَاءَ شَنْ بِلَرْدُ
إِنْ كُنْتَ سَائِلِي غَبُوقًا فَاهْزَبِ .
ونحن نعلم أن قوله « كَذَبَ » يمتد ظاهره عن باب الإغراء .
وكذلك قولهم « عَنَكَ فِي الْأَرْضِ » و « عَنَكَ شَيْئًا » وقول الأَفْوَى :
عَنَكُمْ فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا مَذْجُ
وَرُودِنَا يَفْضَحُ اللَّيْلَ النَّهَارَ .

ومن ذلك قولهم «أعمد من سيد قتلته قومه؟» أي «هل زاد؟»
فهذا من مشكل الكلام الذي لم يفسر بعد. قال ابن ميادة:

وأعمد من قوم كفاهم أخوهم
صدلم الأخطي حين قلت نيوبها؟

قال الخليل وغيره «معناه هل زدنا على أن كفينا؟» وقال أبو ذؤيب:

صحب الشوارب لا يزال كانه
عبد لآل أبي ربيعة مسبح.

فقوله «مسبح» ما فسر حتى الآن تفسيراً شافياً.
ومنه قول الأعشى:

خات غرب ربي القلم بالرد.

ف، إذا ما تابع الأرواق.

وقوله في هذه القصيدة:

المهين ما لهم في زمان الـ

جلب، حتى إذا أفاق أفاقوا.

ومن هذا الباب قولهم «يا عيد مالك» و«يا هيء مالك» و«يا شئ

مالك».

ولم يفسروا قولهم «صه» و«ويهاك» و«إنيه» ولا قول القائل:

يخائبك الحق يهتفون وحي هل.

ويقولون «خائبكم» و«خائبكم».

فأما (الزجر والدعاء) الذي لا يفهم موضوعه فكثير. كقولهم:

«حيي» و«حيي» هَلَا» و«يَبِينُ مَا أَرَدْتُكَ» - في موضع أُعْجِلَ . و«هَجَّ» و«هَجَا» و«دَعَّ» و«دَعَا» و«لَمَّ» - للمَّا يَلْعَنُونَ له . و«نَشَلُونَ» :

وَمَطِيَّةٌ حَمَلَتْ ظَهَرَ مَطِيَّةٍ

حَرَجَ تَنَقَّى مِلَّ عِثَارٍ يَدْعُدُ .

و«رَوَى» عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال «لا تقولوا: دَعَدَغَ ولا لَمَغَ، ولكن قولوا: اللهم ارفع واقمع .» فلولاً أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كررهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . و«كقولهم في الزجر» آخر» و«أخري» و«ها» و«هلا» و«هاب» و«ارحبي» و«عدت» و«عاج» و«ياعاطي» و«ياطير» و«ينشدون» :

وما كان على الجيء ولا الهيء امتداحيكما .

و«كنلك» «أجد» و«أجنم» و«حَدَجَ» لا نعلم أحداً فسّر هذا . وهو باب يكثر ويصح ما قلناه .

ومن المشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغير اللفظ لكن الوقوف على كنهه متناص - قولنا «الحين» و«الزمان» و«الدهر» و«الآن» - إذا قال القائل أو حلف الخالف «والله لا كلمتيماً ولا كلمتيماً» أو «دهراً» .

و«كنلك قولنا» بضع سنين» مشتبه . وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم .

ومن الباب قولهم في العسنى والفقر وفي الشرف والكرام والقيم ، إذا قال «هنا لأغنياء أهلي» أو «هؤلاءهم» أو «أشرفهم» أو «كرامهم»

أو «لثامهم». وكذلك ان قال «امنوه سفهاء قومي» لم يمكن تحديد السفه.
ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضياً يريد حَجراً على رجل مكتهل.
فلت «ما السبب في حجره عليه؟» فقال «يزعم أنه يتصيد بالكلاب
وأنه سفيه» فصرى على القاضي قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح
مكيلين تطموتن مما علمكم الله، فكلوا مما أمكن عليكم» فأمسك
القاضي عن الحجر على الكتهل.

وكذلك اذا قال «مالي قدوي الحسب» أو «امنوه السفلة» وما أشبه
هذا مما يطول الباب بذكره فلا وجه في شيء من هذا غير التعريب والاحتمال،
وعلى اجتهد الموصى اليه أو الحاكم فيه. والا فان تحديدَه حتى لا يجوز
غيره بيمد.

وقد كان فلانك كله ناس يعرفوه. وكذلك يعلمون معنى ما نستعربه
اليوم نحن من قولنا «عبسور» في الناقة و«عيسجور» و«امرأة ضناني»
و«فرس أشق أمق خبق» ذهب هذا كله بنهاب أهله ولم يبق عندها
الا الرسم اللذي نراه.

وعلماء هذه الشريعة، وان كانوا اقتصروا من علم هذا على معرفة رسمه
دون علم حقائقه، فقد احتاضوا عنه دقيق الكلام في أصول الدين وفروعه
من الفقه والفرائض. ومن دقيق النحو وجليله. ومن علم العروض الذي
يربي بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يوجب به النلسيون أهسهم الى التي
خالها الفلسفة، ولكا زمان علم، وأشرف العلوم علم زماننا هذا والحمد لله.

باب انتهاء الخلاف في اللغات

تجمع في الكلمة الواحدة لثتان . كقولهم « الصِّرام » و « الصَّرَم » .
 و « الحِصاد » و « الحَصَاد » .
 وتجمع في الكلمة ثلاث لغات . نحو « الزَّجاج » و « الزَّجْج » و « الزَّجْلَج » .
 و « وُشْكَنْ ذَا » و « وُشْكَنْ ذَا » و « وُشْكَنْ ذَا » .
 وتجمع في الكلمة أربع لغات . نحو « الصِّدْق » و « الصَّدَق » و « الصَّدِقة » و « الصَّدِقة » .
 وتكون منها خمس لغات . نحو « الثَّال » و « الثَّال » و « الثَّال » و « الثَّال » و « الثَّال » .
 وتكون فيها ست لغات : « قُطَّاس » و « قُطَّاس » و « قُطَّاس » و « قُطَّاس » و « قُطَّاس » و « قُطَّاس » .
 ولا يكون أكثر من هذا .



والكلام بعد ذلك أربعة أبواب :
 الباب الأول - المجمع عليه اللغتي لاعة فيه ، وهو الأكثر والأعم .
 مثل : الحمد والشكر ، لا اختلاف فيه في بناء ولا حركة .
 والباب الثاني - ما فيه لثتان وأكثر إلا أن إحدى اللغتين أفصح .
 نحو « بَشَدَاد » و « بَشَدَاد » و « بَشَدَان » ، هي كلها صحيحة ، إلا أن « بَشَدَاد »
 في كلام العرب أصح وأفصح .
 والثالث ما فيه لثتان أو ثلاث أو أكثر ، وهي متساوية ، كـ « الحِصاد »

و« الحِصَاد » . و« الصَّدَاق » و« الصِّدَاق » ، قَائِمًا مَا قَالَ الْقَائِلُ فَصَحِّحْ
فَصِيح .

والباب الرابع - ما فيه لثة واحدة ، إِلَّا أَنَّ الْمُؤَلِّدِينَ غَيَّرُوا فَصَارَتْ
أَلْسِنَتُهُمْ بِالْخَطِ جَلْدِيَّةً . نَحْوُ قَوْلِهِمْ « أَصْرَفَ اللَّهُ عَنْكَ كَذَا » و« إِنْجَاصَ »
و« إِمْرَأَةً مُطَاعَةً » و« عَرِقَ النِّسَاءَ » بِكسر النون ، وما أشبه ذَا .
وَعَلَى هَذِهِ الْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ بَيِّنِي (أَبُو الْعَبَّاسِ ثَلْبِثُ) كِتَابَهُ الْمُسَمَّى
(فَصِيحُ الْكَلَامِ) أَخْبَرَنَا بِهِ (أَبُو الْحَسَنِ الْقَطَّانُ) عَنْهُ .



باب مراتب الكلام

في وضوحه وإشكاله .

أما واضح الكلام - فالذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب .
كقول القائل : شربت ماء ، ولقيت زيدا .

وكما جاء في كتاب الله جل ثناؤه من قوله « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْمَةُ وَالْأُيْمَةُ وَالْأَخْزِيرُ » وكقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا استيقظ أحدكم من نومه ، فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً » .
وكقول الشاعر :

إن يجلسوني فاني غير لائيمهم :

قلبي - من الناس - أهل الفضل قد حسدوا .

وهذا أكثر الكلام وأعمه .

وأما المشكل - فالذي يأتيه الإشكال من غرابة لفظه ، أو أن تكون فيه إشارة الى خبر لم يذكره قائله على جهته ، أو أن يكون الكلام في شيء غير محدد ، أو يكون وجيزاً في نفسه غير مبسوط ، أو تكون ألفاظه مشتركة .

فأما المشكل لغرابة لفظه - فقول القائل « يَبْلُغُ في الباطل ملخاً يُغَضُّ مَذْرُوبُهُ » ، وكما أنه قيل « أَيْدُكَ الرَّجُلِ الْمَرْأَةُ ؟ » قال « نعم ، إذا كلن ملتجأً » ومنه في كتاب الله جل ثناؤه « فلا تَمْلُوهن » ، « ومن الناس من يبدأ الله على حرف » ، « وسيداً وحسوراً » ، « ويؤري الأكمة »

وغيره مما صنف علماؤنا فيه كتب غريب القرآن . ومنه في حديث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « على التَّيَّةِ شاة . والتَّيَّةُ لصاحبها . وفي السُّيُوبِ الخُمُسُ لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ولا شَتَاقَ ولا شُغَارَ . من أجبي هَدَأُرْنِي » وهذا كتابه الى الأقبال العباهلة . ومنه في شعر العرب :

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ شَاظِ يَمَنِّ عَوِّهِ
مَضْبُورَةٌ قَرَوَاءُ هِرْجَلِبِ قُنُقِ .

وفي أمثال العرب « باقعة » و « شراب بأقع » و « مخرنبي لينباع » .
والذي أشكل لا ياء قائله الى خبر لم يُفصح به - قول القائل « لم أفرَّ يوم عَيْنِي » و « رويداً سوفك بالقوارير » وقول امرئ القيس :
دع عنك نهياً صبح في حَجَرَاتِهِ .
وقول الآخر :

ان المصا قُرِعَتْ لِيَنِي الحِلْمِ .

وفي كتاب الله جل ثناؤه مالا يعلم منناه الأبحر فقه قصته ، قوله جل ثناؤه « قل من كان عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ » وفي أمثال العرب « عَمِي التَّوَيُّرُ أَبْؤُوسًا » .

والذي يشكل لأنه لا يُحَدِّثُ في نفس الخطاب - فكقوله جل ثناؤه « أقيموا الصلاة » فهذا يحمل غير مفصل حتى قسره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

والذي أشكل لوجازة لفظه - قولهم :

الْمَرْأَتِ ثُمَّ يَجْلِينَا

والذي يأتيه الاشكال لاشتراك اللفظ - قول القائل :
 وضمو اللج على قتي .
 وعلى هذا الترتيب يكون الكلام كله في الكتاب والسنة وأشعار
 العرب وسائر الكلام .

باب ذكر ما اختلفت به العرب

من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب - الاعراب الذي هو الفارق
 بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ،
 ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من مضاف ، ولا تمجيب من
 استنهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد .
 وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالأخبار ، وقد يكون
 الاعراب في غير الخبر أيضاً . لأننا نقول « أزيد عندك ؟ » و « أزيداً
 ضربت ؟ » فقد عمل الاعراب وليس هو من باب الخبر .
 وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد
 كان لهم إعراب ومؤلفات نحو . قال أحمد بن فارس : وهذا كلام لا يرجع
 على مثله . وإنما تشبه القوم آفاً بأهل الاسلام ، فأخذوا من كتب علمائنا ،
 وغيروا بعض ألفاظها ، ونسبوا ذلك الى قوم ذوي أسلمة منكرين بترجم
 يشع لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها .
 وادعوا مع ذلك أن للقوم شعراً ، وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء ، نزر
 الحلاوة ، غير مستقيم الوزن .

بلى ، الشَّعرِ شعرِ العرب ، ديوانهم وحفظ ما يُرثَم ، ومُقَيَّدُ أحسابهم ،
ثم للعرب العروض التي هي ميزان الشَّعر ، وبها يُعرف صحيحه من سقيمه .
ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يُرَبِّي على جميع ما يَجِبُ
به هؤلاء الذين يَتَحَلَّون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط
والنقط التي لا أعرف لها فائدة غير أنها مع قلة فائدتها تُرِقُّ للعين ، وتنتج
كل مانعٍ بالله منه .

والعرب حفظ الأنساب وما يُلمُّ أحدٌ من الأئمة عني بحفظ النسب
عناية العرب . قال الله جلَّ ثناؤه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى . وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » ، فهي آية ما عَمِلَ بمضمونها غيرهم .
وبما خَصَّ الله جلَّ ثناؤه به العرب طهارتهم ونزاهتهم عن الأدناس
التي استباحها غيرهم من غَالِطَةِ ذَوَاتِ الْحَارِمِ . وهي متعبة تَمْلُو بِحِجَالِهَا
كلَّ مَأْثُورَةٍ وَالْحَمْدُ لَهُ .



باب الاسباب الاسلامية

كانت العرب في جاهليتها على لوث من لوث آبلتهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرايئهم . فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام حالت أحوالهم ، ونبتت دياناتهم ، وأبطلت أمورهم ، ونقلت من الله ألقاظهم من مواضع إلى مواضع أخرى ، بزيادات زينت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت . ففني الآخر الأول ، وسئل القوم بعد المناورات والتجارات وتطلب الأرباح والكدح للمعاش في رحل الشتاء والصيف ، وبعد الاغرام بالصيد والمأقوة والمأسرة - بجلالة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بتزليل من حكيم حديد ، وبالتفقه في دين الله عز وجل ، وحفظ سنن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الاسلام .

فصار الذي نشأ عليه آبائهم ونشأوا عليه كأن لم يكن وحتى تكلبوا في دقائق الفقه وغولمض أبواب اللوارث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دؤن وحفظ حتى الآن .

فصاروا - بعد ما ذكرناه - الى أن يسئل إمام من الأئمة وهو يخطب على منبره عن فريضة فيفتي ويحسب بلاث كلمات . وذلك قول أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه حين سئل عن ابنتين وأبوين وامرأة وصار ثلثها تسعاً قسميت (المتبرية) .

والى أن يقول هو صلوات الله عليه على منبره والمهاجرون والأنصار متوافرون « سلوني ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبيلل زلت أم بنهار ،

أم في سهل أم في جبل» وحتى قال صلوات الله عليه وأشار الى ابنه «يقوم، استنبطوا مني ومن هذين علم ما مضى وما يكون» والى أن يحكم هو وغيره في دقائق العلوم بالمشهور من مسائلهم في الفرض وحده، كالشركة، ومسئلة المياهل والقراء، وأم القروخ، وأم الأرامل، ومسئلة الامتحان، ومسئلة ابن مسعود، والأكدرية، ومختصرة زيد، والخرقاء، وغيرها مما هو أغصن وأدق.

فسيبان من قل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عما ألفوه ونشأوا عليه وغفوا به، الى مثل هذا الذي ذكرناه. وكل ذلك دليل على حق الايمان وصحة نبوة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

فكلن مما جاء في الاسلام — ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأن الرب انما عرفت المؤمن من الأمان والايمان. وهو التصديق. ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمناً. وكذلك الاسلام والمسلم، انما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لا تعرف عن الكفر إلا النطاء والستر. فأما للناق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكلن الأصل من نلقاء اليزبوع. ولم يعرفوا في التمسق إلا قولهم «فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ» إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن التمسق الاخفاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه.

ومما جاء في الشرع — الصلاة وأصله في لغتهم الدعاء. وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة، فقالوا:

أَوْ ذَرَوْا صَدْفِيَّةً، غَوَّاصُهَا

بِهَجْ، متى يَرَهَا يُبَلِّغُ وَيَسْجُدُ. (١)

وقال الاعشى :

يُرَاحُ مِنْ صَلَواتِ المَلِكِ -

طَوَّراً مَسْجُوداً، وَطَوَّراً جَوَّاراً.

والفني عرفوه منه أيضاً ما أخبرنا به علي بن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد

قال، قال (أبو عمرو) « اسجد الرجل : طأطأ وانحنى » قال حميد بن ثور :

فَضُولُ أَزْمَتِها أَسْجَدَتْ

سَجُودَ النصارى لِأَرْبابِها .

وأنشد :

فَعَلَنَ لَهُ : أَسْجُدُ لِلَّيْلِ ، فَاسْجُدَا .

يعني البعير اذا طأطأ رأسه لتركبته .

وهذا وإن كان كذا فان العرب لم تعرفه بمثل ما أتت به الشريعة من

الأعداد والمواقيت والتحریم للصلاة ، والتحليل منها .

وكذلك الصيام أصله عندكم الامساك وقول شاعرهم :

خَيْلٌ صِيَامٌ ، وَأُخْرَى غَيْرُ صَائِمَةٍ

تَحْتَ السَّجَّاجِ ، وَخَيْلٌ تَمْلُكُ اللُّجَا .

ثم زادت الشريعة النية ، وحظرت الأكل والمباشرة وغير ذلك من

شرائع الصوم .

(١) البيت لزياد بن ماجة ثابت بن ذبيان من قصيدته في وصف التجارة والبيت الذي قبله :

قَامَتْ رَأَى بَيْنَ سَجِي سَكَّةَ .

كالشمس يوم طلوعها بالأسد .

وكنفك الحجّ، لم يكن ضدّ فيه غير القصد، وسبّر الجراح. من ذلك قولهم:

وأشهد من عوفي حُلُولاً كثيرةً،

يُحجُّون سبب الزبير فان الزعفران.

ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره.

وكنفك الزكاة، لم تكن العرب تصرفها إلا من ناحية النماء، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لاطالة الباب بذكره.

وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من الممرّة والجهاد وسائر أبواب الفقه.

فالوجه في هذا اذا سُئل الانسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان تُنوي شرعي، وبذلك ما كانت العرب تعرفه، ثم ما جاء الاسلام به. وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم، كالنحو والعروض والشعر: كل ذلك له اسمان تُنوي وصناعي.



باب القول في حقيقة الكلام

زعم قوم أن « الكلام ما سُمع وفُهم » وذلك قولنا « قام زيد »
و « ذهب عمرو » .

وقال قوم « الكلام حروف مؤلفة دالة على معنى » .
والقولان عندنا متقاربان ، لأن المسموع المفهوم لا يكاد يكون إلا
بحروف مؤلفة تدل على معنى .

وقال لي بعض قهاء بغداد : إن الكلام على ضربين مهمل ومستعمل .
قال : فالمهمل « هو الذي لم يوضع للفائدة » والمستعمل « ما وضع ليفيد »
فأعطته أن هذا كلام غير صحيح ، وذلك أن المهمل على ضربين : ضرب لا
يجوز اختلاف حروفه في كلام العرب بثةً ، وذلك كجيم تؤلف مع كاف أو
كاف قدّم على جيم ، وكعين مع غين ، أو حاء مع هاء أو فحين ، فهذا وما
أشبهه لا يأتلف .

والضرب الآخر ما يجوز تألف حروفه لكن العرب لم تمل عليه ،
وذلك كراة مرید أن يقول « عضخ » فهذا يجوز تألفه وليس بالنافر ، ألا
ترام قد قالوا في الأحرف الثلاثة « خضع » لكن العرب لم تمل عضخ .
فهذان ضربا المهمل .

وله ضرب ثالث وهو أن يريد مرید أن يحكم بكلمة على خمسة أحرف
ليس فيها من حروف الذّوق أو الاطباق حرف .

وأي هذه الثلاثة كان فانه لا يجوز أن يسمى « كلاماً » لما ذكرناه .

من أنه وإن كان مسموعاً مؤلفاً فهو غير مفيد. وأهل اللغة لم يذكرُوا المهمل في أقسام الكلام وإنما ذكروه في الأبنية المهمة التي لم تهمل عليها العرب . فقد صح ما قلناه من خطأ من زعم أن المهمل كلام .

باب أقسام الكلام

أجمع أهل العلم أن الكلام ثلاثة : اسم وفعل وحرف .
فأما الاسم - فقال سيويه « الاسم نحو رجل و فرس » وهذا عندنا تمثيل ، وما أراد سيويه به التحديد ، إلا أن ناساً حكوا عنه أن « الاسم هو المحدث عنه » وهذا شبيه بالقول الأول لأن « كيف » اسم ولا يجوز أن يحدث عنه .

وسمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن داود الفقيه يقول سمعت (أبا العباس محمد بن يزيد البربردي) يقول : من ذهب سيويه أن « الاسم ما صلح أن يكون فاعلاً » قال : وذلك أن سيويه قال « ألا ترى أنك لو قلت إن يضرب يأتينا وأشياء ذلك لم يكن كلاماً ، كما تقول إن ضاربك يأتينا » قال : فدل هذا على أن الاسم عنده ما صلح له الفعل .

قال : وعارضه بعض أصحابه في هذا بأن « كيف » و « عند » و « حيث » و « أين » أسماء وهي لا تصلح أن تكون فاعلة . والليل على أن أين وكيف أسماء قول سيويه . الفصح في الاسم قولهم كيف وأين . فهذا قول سيويه والبحث عنه .

وقال الكسائي « الاسم ما وُصِفَ » وهذا أيضاً معارض بما قلناه من

كيف وأين أنهما اسمان ولا يُحْتان .

وكان القراء يقول « الاسم ما احتمل التنوين أو الإضافة أو الألف واللام » وهذا القول أيضاً مُعارضٌ بلنّبي ذكرناه أو نذكره من الأسماء التي لا تنوّن ولا تصاف ولا يُضاف إليها ولا يدخلها الألف واللام .

وكان الأخفش يقول « إذا وجدت شيئاً يحسنُ له الفعل والصفة نحو زيد قام وزيد قائم ثم وجدته يثنى ويجمع نحو قولك الزيدان والزيدون ثم وجدته يمتنع من التصرف فاعلم أنه اسم » . وقال أيضاً : ما حسن فيه « ينفني » و « يضرني » .

وقال قوم : ما دخل عليه حرف من حروف الخفض . وهذا قول هشام وغيره . وله قول آخر : إن الاسم ما نوّدي . وكلّ ذلك مُعارض بما ذكرناه من كيف وأين ومن قولنا « إذا » وإذا اسم لحين . فحدثني علي بن إبراهيم القطان قال سمعت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد يقول حدثني أبو عثمان السازني قال : سألت الأخفش عن « إذا » ما للليل على أنها اسم لحين ؟ فلم يأت بشيء . قال : وسئل الجري فَنَسَبَ . وسئل الرّيشي فَبَوَدَ وقال : للليل على أنها اسم للحين أنه يكون ضميراً ، ألا ترى أنك تقول « القتال إذا يقوم زيد » كما تقول « القتال يوم يقوم زيد » ؟ وقد أوما القراء في معنى « إذا » إلى هذا المعنى .

وعاد القول بنا إلى تحديد الاسم . فقال المبرد في كتاب (المُتَضَب) : كل ما دخل عليه حرف من حروف الجر فهو اسم فإن امتنع من ذلك فليس بـ اسم . وهذا معارض أيضاً بكيف وإذا وهما اسمان لا يدخل عليهما شيء من حروف الجر .

وسمعت أبا بكر محمد بن أحمد البصير وأبا محمد سلم بن الحسن يقولان
 سُئِلَ الزَّجَّاجُ عَنْ حَدِّ الْأَسْمِ فَقَالَ : صَوْتُ مُقَطَّعٍ مَفْهُومٌ دَالٌّ عَلَى مَعْنَى غَيْرِ
 دَالٍ عَلَى زَمَانٍ وَلَا مَكْنٍ . وَهَذَا الْقَوْلُ مُعَارِضٌ بِالْحَرْفِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَوْلُ
 « هَلْ » وَ « بَلْ » وَهُوَ صَوْتُ مُقَطَّعٍ مَفْهُومٌ دَالٌّ عَلَى مَعْنَى غَيْرِ دَالٍ عَلَى
 زَمَانٍ وَلَا مَكْنٍ .

وقول من قال « الْأَسْمُ مَا صَلَحَ أَنْ يُلْحَى » خطأً أَيْضاً لِأَنَّهُ كَيْفَ
 اسْمٌ وَأَيْنَ وَإِذَا ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا نِدَاءٌ .
 قَالَ أَحْمَدُ بْنُ فَارَسٍ : هُنَا مَقَالَاتُ الْقَوْمِ فِي حَدِّ الْأَسْمِ يُعَارِضُهَا مَا قَدْ
 ذَكَرْتَهُ . وَمَا أَعْلَمُ شَيْئاً مِمَّا ذَكَرْتَهُ سَلِمَ مِنْ مُعَارِضَةٍ . وَاقْعُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ
 أَصَحُّ . وَذَكَرَ لِي عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ « الْأَسْمَ » مَا كَانَ مُسْتَعِيراً أَعْلَى الْمُسَمَّى
 وَقَدْ ذَكَرْتُ لِيَأْمَهُ وَلَا زَمَانَهُ ، وَهَذَا قَرِيبٌ .

باب الفعل

.. قال الكِسابيُّ « الفعل ملحد على زمان » .

وقال سيوري « أما الفعل فأمثله أَخَلَّتْ من لفظ أَعْدَاتِ الأسماء وبُنيت لما مضى ، وما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم يقطع » فيقال لسيوري : ذَكَرْتَ هذا في أول كتابك وزَعَمْتَ بَمَدْ أَنَّ « لَيْسَ » و « عَسَى » و « نَمَ » « يَنْسَ » أفعال ، ومعلوم أنها لم تُؤْخَذْ من مصادر . فان قلت : إني حَدَثْتُ أَكْثَرَ الفعل وتركت أَقلَّهُ قيل لك : إن الحد عند التظاُّر ما لم يَزِدْ المحدود ولم يَقْصُصْ ما هو له .

وقال قوم « الفعل ما لمتنع من التثنية والجمع » . والرَّدُّ على أصحاب هذه المقالة أن يقال : إن الحروف كلها ممتعة من التثنية والجمع وليست أفعالاً .
وقال قوم « الفعل ما حَصَلَتْ فيه التاء نحو قَتُ وذهبتُ » وهذا عندما غلط لأننا قد نسميه فعلاً قبل دخول التاء عليه .

وقال قوم « الفعل ملحَّصَنٌ فيه أَمْسٍ وغَدَاءٌ » وهذا على مذهب البصريين غير مستقيم ، لأنهم يقولون أَنَا قَتَمُ غَدَاءً ، كما يقولون أَنَا قَتَمُ أَمْسٍ .
والذي نذهب إليه ما حكيناه عن الكِسابيِّ من أن « الفعل ملحد على زمان نخرج ونخرج » دلَّنا بهما على ماضٍ ومستقبل .

باب الحرف

قال (سيبويه) : وأما ما جاء لمعنى ، وليس بلسم ولا فعل ، فنحو «ثم»
و «سوف» و «واو القسم» و «لام الإضافة» .
وكلان (الأخفش) يقول : ما لم يحسن له الفعل ولا الصفة ولا التثنية
ولا الجمع ولم يحز أن يتصرف - فهو (حرف) .
وقد أكثر أهل العربية في هذا ، وأقرب ما فيه ما قاله سيبويه ، أنه
للذي يفيد معنى ليس في اسم ولا فعل . نحو قولنا «زيد منطلق» ثم قول
«هل زيد منطلق؟» فأفدنا : «هل» ما لم يكن في «زيد» ولا «منطلق» .



باب أجناس الأسماء

قال بعض أهل العلم :

الأسماء خمسة - (اسم فارق) و (اسم مُفَارِق) و (اسم مُشْتَق) و (اسم مُضَاف) و (اسم مُقْتَضٍ) .

فالفارق - قولنا « رجل » و « فرس » فرقنا بالاسمين بين شخصين .

والمفارق - قولنا « طفل » يفارقه انا كبر .

وللمشتق - قولنا « كاتب » وهو مشتق من « الكتابة » ويكون هذا

على وجهين : أحدهما مَبْنِيًّا على فَعْلٍ وذلك قولنا « كتب فهو كاتب » ،

والآخر يكون مشتقًا من الفعل غير مبني عليه كقولنا « الرحمن » فهذا

مشتق من « الرحمة » وغير مبني من « رحم » .

وكل ما كلز من الأوصاف أبد من بنية الفعل فهو أبلغ ، لأن « الرحمن »

أبلغ من « الرحيم » لأننا نقول « رَحِمَ فهو راحم ورحيم » ونقول « قَدَّرَ فهو

قادِرٌ وقدير » . وإذا قلنا « الرحمن » فليس هو من « رَحِمَ » وإنما هو من

« الرَّحْمَةِ » . وعلى هذا تجري النعت كلها في قولنا « كاتب » و « كَتَبَ »

و « ضارب » و « ضَرَبَ » .

والمضاف - قولنا « كلٌّ » و « بعض » لا بد أن يكونا مضافين .

والمقتضى - قولنا « أخ » و « شريك » و « ابن » و « خصم » كلُّ

واحد منها إذا ذكر اقتضى غيره ، لأن الشريك مقتضى شريكه والأخ

مقتضى آخر .

وقال بعضُ الفقهاء :

أسماءُ الايمان خمسة - (اسم لازم) و (اسم مُفارق) و (اسم مُشتق) و (اسم مُضاف) و (اسم مُشبه).

فاللزام - « انسان » و « ميماء » و « أرض » لأن هذه الأسماء لا تنقلُ من مسمياتها .

قال : والمُفارق - اللقب الذي يُسمى نحو « زيد » و « عمرو » وقد يقع أيضاً بأن يقال : المُفارق « الطفل » لانه اسم يزول عنه يكبره .
والمشتق - كـ « دابة » و « كاتب » .

والمضاف - قولنا « ثوبُ عمرو » و « جزء الشيء » .
والمشبه - قولنا « رجلٌ حديدٌ وأسدٌ » على وجه التشبيه .
قال : وجماعُها أنها وُضعت للدلالة بها .
قلنا : وهذه قسمة ليست بالبيعة .

باب النعت

النَّعتُ - هو الوصف كقولنا «هو عاقل» و«جاهل» .
 وذُكر عن (الخليل) أن النعت لا يكون إلا في محمود، وأن الوصف
 قد يكون فيه وفي غيره .
 والنَّعتُ - يجري مجرىين : أحدهما تخلص اسم من اسم كقولنا «زيد
 المطَّار» و«زيد التَّيمي» خُصَّناه بنسبه من للنبي شاركه في اسمه .
 والآخر على معنى المدح والتمجُّد «العاقل» و«الجاهل» .
 وعلى هذا الوجه مجري أسماء الله جلَّ وعزَّ ، لأنَّه المحمود للمشكور الثني
 عليه بكلِّ لسان ، ولا تسمي له - جلَّ اسمه - فيخلص اسمه من غيره .



باب القول على الاسم من أي شيء أخذ؟

قال قوم: الأسماء سميت دالة على المسميات، ليُعرف بها خطاب المخاطب.
وهذا الكلام محتمل وجهين: أحدهما أن يكون الاسم سمة ككلمة
والسنياء. والآخر أن يقال: إنه مشتق من «السمة». فان أراد القائل
أنها سميت على الوجه الأول - فصحيح. وإن كان أراد الوجه الثاني - فحدثني
أبو محمد سلم بن الحسن البندادي قال سمعت (أبا إسحاق إبراهيم بن السري
الزجاج) يقول: معنى قولنا «اسم» مشتق من «السمة» والسمة الرفعة.
فالأصل فيه «سمو» على وزن حمل وجمه «أسماء» مثل قولك قنوا قناء.
وإنما جعل الاسم تنويعاً ودلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم. ومن قال:
إن اسماً مأخوذ من «وسمت» فهو غلط، لأنه لو كان كذلك لكان
تصغيره «وسيم»^(١) كما أن تصغير عدة وصلة: ومجدة وموصلة.
قال أبو إسحاق: وما قلناه في اشتقاق «اسم» ومعه - قول لا نعلم
أحداً فسره قبلنا.

قلت: وأبو إسحاق مته. غير أنني سمعت أبا الحسين أحمد بن علي
الأحول يقول سمعت أبا الحسين عبد الله بن سفيان النحوي الخزاعي يقول
سمعت (أبا العباس محمد بن يزيد المبرد) يقول: الاسم مشتق من «سما»
إذا علا.

قال: وكان أبو العباس ربما اختصني بكثير من علمه فلا يشركني فيه غيري.

(١) قال الشنيطي: سواء «وسياً».

باب آخر في الأسماء

قد قلنا فيما مضى ما جاء في الاسلام من ذكر المسلم والمؤمن وغيرهما . وقد كانت حدثت في صدر الاسلام أسماء ، وذلك قولهم لمن أدرك الاسلام من أهل الجاهلية « مُحْضَرَم » . فأخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد مولى بني هاشم قال حدثنا محمد بن عباس الخشكي عن (إسماعيل بن أبي عبيد الله) قال : المحضرمون من الشعراء : من قال الشعر في الجاهلية ثم أدرك الاسلام .

فمنهم (حسان بن ثابت) و (ليبد بن ربيعة) و (نافعة بنت جهملة) و (أبو زيد) و (عمرو بن شاس) و (الزبرقان بن بدر) و (عمرو بن مدي كرب) و (كعب بن زهير) و (ممن بن أوس) .

وتأويل المحضرم : من خَضَرَمَت الشيء أي قطعه ، وخَضَرَمَ فلان عطية أي قطعها ، فسحق هو لاء « محضرمين » كأنهم قطعوا من الكفر إلى الاسلام . ويمكن أن يكون ذلك لأن رتبته في الشعر قصص لان حل الشعر تكلمت في الاسلام كما أنزل الله جل ثناؤه من الكتاب العربي العزيز . وهذا عندنا هو الوجه ، لأنه لو كان من القطع لكان كل من قطع إلى الاسلام من الجاهلية محضرمًا ، والأمر بخلاف هذا .

ومن الأسماء التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم : المرباع ، والنشيط ، والفضول ، ولم نذكر الصفي لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اصطفي في بعض غزواته وخُصَّ بذلك ، وزال اسم الصفي لما توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومما ترك أيضاً: الآثاوة، والمكس، والخلوان. وكنكك قولهم: إنعم صباحاً، وإنعم ظلاماً. وقولهم لذلك: أتيت اللعن. وترك أيضاً قول المملوك للمالك: ربّي، وقد كانوا يخاطبون ملوكهم بالأرلب. قال الشاعر:

وَأَسْلَمَنْ فِيهَا رَبَّ كِنْتَهُ وَابْنَهُ

وَرَبَّ مَعْتَبٍ بَيْنَ خَبْتٍ وَعَرَّعَرٍ

وترك أيضاً تسمية من لم يُحجَّ «صُرورة». فحدثنا علي بن ابراهيم عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد - في حديث الأعمش - عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن (أبي موسى) قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لا صُرورة في الاسلام» ومعنى ذلك فيما يقال: هو الذي يدعُ النكاح تبثلاً. حدثني علي بن أحمد بن الصباح قال سمعت (ابن دريد) يقول: أصل الصُرورة أن الرجل في الجاهلية كان إذا أحدث حدثاً فليجأ إلى الحرم لم يُحجَّ وكان إذا تقيّه وليّ الفم في الحرم قيل: هو صُرورة فلا تهنجه. ثم كثر ذلك في كلامهم حتى جعلوا المنعبد الذي يجتنب النساء وطيب الطعام: صُرورة وصرورياً، وذلك عنّي النابغة يقوله:

صُرُورَةٌ مُتَعَبِدٌ (١)

أي متقبض عن النساء. فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام وأوجب إقامة الحدود بمكة وغيرها سمي الذي لم يُحجَّ «صُرورة» خلافاً لأمر الجاهلية. كأنهم جعلوا أن تركه الحج في الاسلام كترك المتأله إيمان النساء والتتم في الجاهلية.

(١) من تعبدته في وصف (للتجردة) ونعم البيت قوله:

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لَأَسْطَرَّ رَأْسِي

عبد الآله ضرورة متعبد.

ومما ترك أيضاً قولهم : الابل تساق في الصّدق التّواضع . على أن من
العرب من كان يكره ذلك . قال شاعرهم :

وليس تلادي من وراثته والذي ،

ولا شأن مالي مُستغادُ التّواضع .

وكانوا يقولون « تَهْلِكُ النَّافِئَةُ » ^(١) مع اللّتي ذكرنا من كراهة ذوي
أقدارهم لها وللعقول . قال (جندل الطّهوي) :

وَمَافَكَ رَقِي ذَاتُ خُلُقٍ خَيْرَ نَجَرٍ

ولا شأن مالي صُدَقَتْهُ وَعَقُولُ .

ولكن نمانني كلُّ أَيْضَ صَارِمٍ ،

فَأَصْبَحْتُ أَحْرَى الْيَوْمَ كَيْفَ أَقُولُ ،

ومما كرهه في الاسلام من الألفاظ قول القائل « خَبِثْتُ نَفْسِي » قال
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبِثْتُ نَفْسِي » .
وكرهه أيضاً أن يقال : استأثر الله بفلان .

ومما كرهه العلماء قول من قال : سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ ، إنما يقال : فَرَضُ
الله جلَّ وعزَّ وسُنَّتُهُ ، وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

ومما كافت العرب تستعمله ثم ترك قولهم : حَجَرًا مَحْجُورًا . ولكن هذا
عندهم لمعينين : أحدهما عند الحرثان إذا سئل الإنسان قال حَجَرًا مَحْجُورًا ،
فيعلم السائل أنه يريد أن يجرمه . ومنه قوله :

حَنَّتْ إِلَى النَّخْلَةِ الْقُضَى قُضِلَتْ لَهَا :

حَجَرٌ حَرَامٌ أَلَا تَلْكُ الدَّهَارِيسُ ؟

وَالْوَجْهَ الْآخَرَ : الْإِسْتَعَاذَةُ . كُلُّ الْإِنْسَانِ إِذَا سَافَرَ فَرَأَى مِنْ مَخَافَةِ
قَالَ : حَجَرًا مَحْجُورًا . أَيِ حَرَامٍ عَلَيْكَ التَّعَرُّضُ لِي . وَعَلَى هَذَا فُتِرَ قَوْلُهُ عَزَّ
وَجَلَّ « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَقَوْلُونَ : حَجَرًا
مَحْجُورًا » يَقُولُ الْمُجْرِمُونَ ذَلِكَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ فِي الدُّنْيَا .

بَابُ مَا جَرَى مَجْرَى الْأَسْمَاءِ

وَأَنَّهُ هِيَ أَلْقَابُ

وَمَا جَرَى مَجْرَى الْأَسْمَاءِ وَهُوَ لَقَبٌ قَوْلُهُمْ : مُتْرَكَةٌ وَطَابِخَةٌ . وَذَلِكَ فِي
الرَّعْبِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرَبٍ : ضَرْبٌ مُدَحٍّ ، وَضَرْبٌ ذَمٌّ ، وَضَرْبٌ تَقْصُبٌ
الْإِنْسَانُ لِفِعْلٍ يُفْعَلُ .

فَالْمُدَحُّ — تَقْصِيمُهُمُ الْبَحْرُ وَالْخَبَرُ وَالْبَاقِرُ وَالصَّادِقُ وَالذَّيَّاجُ وَغَيْرُهُمْ

وَالذَّمُّ — فَكَتَقْصِيمُهُمُ بِالْوَزْعِ وَرَبَشَعِ الْحَجَرِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

وَأَمَّا اللَّقَبُ الْمَأْخُوذُ مِنْ فِعْلٍ يُفْعَلُ — فَكَطَابِخَةٌ وَمُتْرَكَةٌ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » قَالُ (قَهَادَةُ) : هُوَ أَنْ

قَوْلُ الرَّجُلِ : يَا فُلَانُ قَاتِلْهُ .

وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ (أَبِي جَبْرِ بْنِ الضُّحَّاكِ) — وَأَبُو جَبْرِ رَجُلٌ مِنْ

مِنِ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ — قَالَ : فِينَا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ عَلَيْنَا ، وَلَيْسَ مِنْ أَرْجُلٍ إِلَّا لَهُ لِقَابَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ

فجعل بعضنا يدعو بعضاً بلقبه، فسمع ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل هو أحياناً يدعو الرجل ببعض تلك الألقاب، فقيل له: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزل الله جل ثناؤه «ولا تتأزأ بالألقاب».

وأما تسمية العرب أولادها بكلمة وقرود وتمر وأسد... فذهب علماؤنا إلى أن العرب كانت إذا ولد لأحد من ابن ذكر سمها بما يراه أو يسمعه مما يتقأل به، فإن رأى حَجَباً أو سمعه تأوّل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر. وإن رأى ذئباً تأوّل فيه الفطنة والنكر والكسب. وإن رأى حماراً تأوّل فيه طول العمر والوقاحة. وإن رأى كلباً تأوّل فيه الحراسة وبُعد الصوت والإلّاف. وعلى هذا يكون جميع ما لم نذكره من هذه الأسماء.



باب الأسماء التي تسمى بها الأشخاص على المجاوزة والسبب .

قال علاؤنا : العرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوزاً له أو كان منه بسبب . وذلك قولهم «التبعم» يسح الوجه من الصعيد، وإنما التيمم الطلب والقصد . يقال : تيممتك وتأممتك أي تممتك .

ومن ذلك تسميتهم السحاب «سحابة» والمطر «سيلة» وتجاوزوا ذلك إلى أن سموا النبات «سيلة» . قال شاعرهم :

إذا نزل السيل بأرض قوم

وربما سموا الشحم «ندى» لأن الشحم عن النبات والنبت عن الندى قال (ابن أحمر) :

كثور المنيب الفرد يضربه الندى

تملى الندى في مته وتحدرا .

ومن هذا الباب قول القائل :

قد جمعت نفسي في أديم -

أراد بالنفس الماء وذلك أن قولم النفس بالماء .

وذكر ناس أن من هذا الباب قولهم «تناؤه» وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يعني خلق . وإنما جاز أن يقول أنزل لأن الأنعام لا تقوم إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء ، والله جل ثناؤه ينزل الماء من السماء . قال : ومثله «قد أنزلنا عليكم لباساً» وهو جل ثناؤه إنما أنزل الماء ، لكن

اللباس من القطن ، والقطن لا يكون إلا بالماء . قال : ومنه قوله جل ثناؤه
 « وَلَيَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا » إنما أراد والله أعلم - الشيء ينسحق
 به من مهر وحققة ، ولا بد للمتزوج به منه .

باب القول في أصول أسماء

قيس عليها وألحق بها غيرها

كان (الأصمعي) يقول : أصل « الورد » إتيان الماء ، ثم صار إتيان كل
 شيء ورذاً . و « القرب » طلب الماء . ثم صار يقال ذلك لكل طلب ،
 فيقال « هو يقرب كذا » أي يطلبه و « لا تقرب كذا » .

ويقولون « رقع عقيمة » أي صوته . وأصل ذلك أن رجلاً صغرت
 رجله فرفعها وجعل يصيح بأعلى صوته ، فعيل بعد ذلك لكل من رفع
 صوته : رفع عقيته .

ويقولون « بينهما مسافة » وأصله من « السوف » وهو الشم . ومثل
 هذا كثير .

قلنا : وهذا الذي ذكرنا عن (الأصمعي) وسائر ما تركنا ذكره
 لشهرته فهو راجع إلى الأبواب الأول ، وكل ذلك عندنا توقيف على
 ما احتجنا له .

وقول هؤلاء : إنه كثر حتى صار كذا ، فلي مفسرناه من أن الفرع
 موقوف عليه ، كما أن الأصل موقوف عليه .

باب الأسماء كيف تقع على المسميات

يُسمى الشئان المختلفان بالاسمين المختلفين ، وذلك أكثر الكلام كرجل وقوس .

ويُسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد ، نحو « عين الماء » و « عين المال » و « عين السحاب » (١) .

ويُسمى الشئ الواحد بالأسماء المختلفة . نحو « السيف والمهند والحسام » .
والذي قوله في هذا : ان الاسم واحد وهو « السيف » وما يملئه من الألقاب صفات ، ومذهبنا أن كل صفة منها فعناها غير معنى الاخرى .
وقد خالف في ذلك قوم فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها فإنها ترجع الى معنى واحد . وذلك قولنا « سيف وعضب وحسام » .

وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة الا ومعناه غير معنى الآخر .
قالوا : وكذلك الأفعال . نحو : مضى وذهب وانطلق . وقعد وجلس . ووقد ونام وجمع . قالوا : ففي « قعد » معنى ليس في « جلس » وكذلك القول فيما سواه .

وبهذا قول ، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب .
واحتج أصحاب المقالة الاولى بأنه : لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى لما أمكن أن يبر عن شئ بغير عبارته . وذلك أنا قول في « لارب فيه » : « لاشك فيه » ، فلو كان « الرّيب » غير « الشك » لكانت العبارة عن معنى الرّيب بالشك خطأ . فلما عبر عن هذا بهذا علم أن المعنى واحد .

(١) للمصنف قصيدة استعمل فيها البين بأكثر معانيها وقد أمتناها في ترجمة التي صدرت بها هذا الكتاب . راجع صفحة [١٤] .

قالوا : وإنما يأتي الشر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد فيمكن
واحد تأكيذاً ومبالغة . كقولهم :

وهند أتى من دونها النأي والبُعد^(١) .

فقالوا : فالنأي هو البعد قالوا : وكذلك قول الآخر إن الحبس
هو الأصر .

ونحن نقول : إن في قد معني ليس في جلس . ألا ترى أنا قول « قام
ثم قد » و « أخذته المقيم والمقيم » و « قمت المرأة عن الحيض » . وقول
لناس من الخوارج « قد » ثم قول « كان مضطجماً فجلس » فيكونا القعود
عن قيام والجلوس عن حالة هي دون الجلوس لأن « المجلس : الرقع »
فالجلوس ارتقاع عما هو دونه . وعلى هذا يجري الباب كله .

وأما قولهم : إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يمتز عن الشيء بالشيء . فاما
قول : إنما عبر عنهم من طريق المشاكلة ، ولنا قول إن اللفظتين مختلفتان ،
فيلزمنا ما قلناه . وإنما قول إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى .
ومن سنن العرب في الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد . نحو
« الجنون » للأسود و « الجنون » للأيض . وأنكر ناس هذا المذهب وأن
العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده .

وهذا ليس بشيء . وذلك أن الذين رَوَوْا أن العرب تسمى السيف
مهنداً والفرس طرفاً هم الذين رَوَوْا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد .
وقد جردنا في هذا كتاباً ذكرنا فيه ما احتجوا به ، وذكرنا رد ذلك

(١) البيت لطيفة ومصدره :

الاجنل هند وأرض يا هند .

وقضه ، فلذلك لم نكرره .

من ذلك « المائدة » لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام لأن المائدة من « ما ذني يبيدني » اذا أعطاك ، وإلا قلسمها « خوان » .

وكذلك « الكأس » لا تكون كأساً حتى يكون فيها شراب . وإلا فهو « قلع » أو « كوب » .

وكذلك « الحلة » لا تكون إلا ثوبين : لإزله ورداء من جنس واحد فلن اختلما لم تَدْعَ حلة .

ومن ذلك « الظئينة » لا تكون ظئينة حتى تكون امرأة في هودج على راحلة .

ومن ذلك « السجل » لا يكون سجلاً إلا أن يكون دلوأ فيه ماء . -
و « اللحية » لا تكون لحية إلا شراً على ذقن ولحيتين ^(١) .

ومن ذلك « الأريكة » وهي الحجة على السرير لا تكون إلا كذا .
فسمعت علي بن ابراهيم يقول سمعت ثعلباً يقول : الأريكة لا تكون إلا سريراً متخذاً في قبة عليه شواره ونجده ^(٢) .

وكذلك « الذنوب » لا تكون ذنوباً إلا وهي مليء ، ولا تسمى خالية ذنوباً .

ومن ذلك « القلم » لا يكون قلماً إلا وقد بُرِيَ وأصلح ، والأ

(١) الصبي ، ففتح اللام : عظم الحنك الذي عليه الانسان ويكون من الانسان حيث يلبث الشعر وهو أعلى وأسفل ، وجهه الخ ولحي مثل هلس وألس ولاوس .
(٢) الثوار : البرية . والتجد : ما زين به البيت من الأسس والبروش والتور التي تشد على الميظان والجمل نجومذ .

فمواثوبة.

وسمعت أبي يقول: قيل لأعرابي « ما القلم ؟ » قال « لا أدرى ،
فقل له « تَوَهَّمْ » قال « هو عود قلم من جانيه كتليم الأظفور^(١)
فسُيَّ قَلَمًا . »

ومن ذلك « الكوب » لا يكون إلا بلامهروة .
و « الكوز » لا يكون إلا بمرؤة .

(١) الأظفور : يوزن أسيرع وجهه أظفير بمعنى العفر .



باب الاسمين المصطلحين

أخبرنا علي بن إبراهيم عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال ، قال الأصمعي : إذا كان أخوان أو صاحبان وكلن أحدهما أشهر من الآخر مُنمياً جميعاً بلسم الأشهر ، قال الشاعر :

أَلَا مَنْ مَبْلُغُ « الْحُرَيْنِ » عَنِي
مُتَلَقَّةٌ وَخُصَّ بِهَا أُنْيَا

وأحدهما هو (الحُر) . وكذلك الزَّهْدَانِ والتَّسْلِيَتَانِ . (١)
ويكون ذلك في الألقاب كقولهم لَيْقِيْسٍ وَمَعَاوِيَةُ ابْنِي مَلِكِ بْنِ خَنْقَلَةَ
« الْكَرْدُوسَانِ » وَلَيْقِيْسٍ وَذُنْيَانِ « الْأَجْرِيَانِ » .
وَذَكَرَ الْأَبْوَابَ بِطَوْلِهَا . وَأَنَا نَذَكِرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ رِسَالاً لَشُهْرَتِهِ .

(١) الزَّهْدَانِ أخوان اسم أحدهما (زهد) والآخر (كرم) قال تقيس بن عبيد :
جزائي الزَّهْدَانِ جزاءً سَوِيًّا وَكَذَلِكَ لَزَامَ أَجْرِي بِالْكَرَمِ
ومن ذلك (الْحَزْرَتَانِ) وهما أن اسم أحدهما (حمرض) والآخر (وشيم) . قال عنقرة :
شربت بماء الْحَمْرَضَيْنِ فَأَصْبَحْتُ زَوَّاءً تَفَرُّ عَنْ حَيَاةِ الْعَالَمِ



باب في زيادات الأسماء

ومن سنن العرب الزيادة في حروف الاسم ، ويكون ذلك إما للمبالغة ولما للتشويه والتقبيح .

سمعت من أثق به قال : قمل العرب ذلك للتشويه ، يقولون للبئس ما بين الطرفين للفرط الطول « طرماح » وإنما أصله من « الطرح » وهو البئس ، لكنه لما أفرط طوله سمي طرمأحاً ، فشوه الاسم لما شوهت الصورة . وهذا كلام غير بعيد .

ويجيء في قياسه قولهم « رعثن » للذي يرتمش و « خلبن » و « زرقم » للشديد الزرق و « صلدم » للناقة الصلبة ، والأصل صلد و « شلقم » للواسع .

ويكون من الباب قولهم للكثرة التسع والتتار « سمعة » ، فطرته . ومن الباب : كبير وكبار وكبار . وطوال وطوال .



باب الحروف

قال أحمد بن فارس : هذا باب يصاح في أبواب العربية ، لكنني رأيت قهاتنا يذكرون بعض الحروف في كتب الاصول ، فذكرنا منها ما ذكرناه على اختصار .

فأصل الحروف - الثمانية والعشرون التي منها تأليف الكلام كله . وتولد بعد ذلك حروف كقولنا « اصنّبر » و « ادّكر » تولدت الطاء لمة ، وكذلك الدال .

فأول الحروف (الهمة) ، والعرب تنفرد بها في عرض الكلام مثل « قرأ » ولا يكون في شيء من اللغات إلا ابتداء .

ومما اختلفت به لغة العرب (الحاء) و (الظاء) . وزعم ناس أن (الضاد) مقصورة على العرب دون سائر الأمم .

قال أبو عبيدة : وقد انفردت العرب بالألف واللام اللتين للتعريف كقولنا « الرجل » و « الفرس » فليسا في شيء من لغات الأمم غير العرب .

باب ذكر دخول (ألف التعريف ولامه) في الاسماء

تدخل ألف التعريف ولامه على اسمين : متمكن وغير متمكن . فالقني هو غير متمكن « القني » و « القني » . والمتمكن قولنا « رجل » ثم يكون ذلك للجنس والتعريف . فالأول قولنا « رجل » لتفكير ، فإذا أُعيد مرة قيل « الرجل » . والجنس قولنا « كثر الدينار والدرهم » و « اللذيب أخشاه إن مرهت به » لا يريد به ذيباً بعينه ، إنما يريد أنه يخشى هذا

الجنس من الحيوان.

ويكون الألف واللام بمعنى (الذي) كقولنا «جاءني الضارب»
«عمرًا» بمعنى الذي ضرب عمرًا.

وربما دخل على الاسم وضماً، لا لجنس ولا لشيء من المعاني كقولنا
«الكوفة» و«البصرة» و«البشر» و«الثَّغَارُ»^(١).

وربما دخل للتفخيم نحو «الباس» و«الفضل». وهذان هما اللذان
يدخلان في أسماء الله — جل وعز — وصفاته.

باب (الألف المبتدأ بها)

يقولون: أَلِفٌ أَصْلٌ، وألف وصل، وألف قطع، وألف استظهار،
وألف المخير عن نفسه.

فالألف التي للأصل قولنا «أني يائي». وألف القطع مثل
«أكرم». وألف الاستظهار نحو «أخرج زيد». وألف المخير عن
نفسه نحو «أنا أخرج».

وألف الوصل — تدخل على الأسماء والأفعال والأدوات. ففي
الأسماء قولنا «اسم» و«ابن» وفي الأفعال قولنا «اضرب». والتي تدخل على
الأدوات مختلف فيها: قال قوم هي الألف في قولك «أيم الله». والألف التي
تدخل على لام التعريف مثل «الرجل»، وهذا في مذهب أهل البصرة. وكثيراً ما
سمعت (أبا سعيد السبزي) يقول في ألف (الرجل) (ألف لام التعريف).
والكوفيون يقولون (ألف التعريف ولامه) وهما مثل «هل» و«بل».

(١) البحر والثرثار: اسمان لولدين.

بابٌ وُجوهٌ دُخولُ (الألف) في الأفعال

دخول الألف في الأفعال لوجوهٍ :

أحدها — أن يكون الفعل بالألف وغير الألف بمعنى واحد نحو قولهم
« رَمَيْتُ عَلَى الْحَمْسِينَ » و « أَزَمَيْتُ » أي زِدْتُ و « عَنَدَ الْعِرْقُ » إذا سال
و « أَعْنَدَ » .

والوجه الآخر — أن يتغير المعنيان ، وإن كان الفعلان في القياس راجعين
إلى أصل واحد نحو « وَعَيْتُ الْحَدِيثَ » و « أَوْعَيْتُ الْمَتَاعَ فِي الْوَعَاءِ » .
ومن هذا الباب « أَسْقَيْتُهُ » إذا جمعت له سُقْيَا و « سَقَيْتُهُ » إذا أنت سقَيْتَهُ .
والوجه الثالث — أن يضادَّ المعنيان بزيادة الألف نحو « تَرَبَّ »
إذا افْتَرَّ و « أَتَرَبَّ » إذا اسْتَفْتَى .

والوجه الرابع — أن يكون الفعلان لشئين مختلفين ، فيكون بغير ألف
لشيءٍ وبالألف لشيءٍ آخر . من ذلك « حَيَّ الْقَوْمُ بَعْدَ هُزَالِ » إذا حسنت -
أحوالهم و « أَحْيَوْا » إذا حَيَّتْ دَوَابَّهُمْ .

والوجه الخامس — أن يكون بالألف بمعنى العَرْض وبغير ألف لا تَهَاذُ
الفعل نحو « يَمْتُ الْفَرَسَ » إذا أَمْضَيْتَ يَمَهُ و « أَبْتَهُ » إذا عَرَضْتَهُ لِبَيْعٍ .
والوجه السادس — أن يكون بالألف إخباراً عن مجيء وقت نحو
« أَحْصَدَ الزَّرْعُ » حان له أن يُحْصَدَ .

والوجه السابع — أن يكون دالاً على وجود شيءٍ بصفة نحو « أَحْمَدْتُ
الرَّجُلَ » إذا وجدته محموداً .

والوجه الثامن — أن يدل على إتيان فعل نحو « أَحْسَنَ الرَّجُلُ » أني بِحَسَنِيسٍ :

وتكون الألف للتعمية نحو «أذهب زيداً».

وربما كانت هذه الألف للشيء نفسه^(١)، ويكون الفاعل ذلك^(٢) بلا ألف نحو «أقشع النيم» و«قشعته الريح» و«أنزفت البئر» ذهب ماؤها و«ترفأها نحن» و«أنسل ريش الطائر» سقط و«نسلته أنا» و«أكب على وجهه» قال الله جل ثناؤه «أفني ينمي مكباً على وجهه» و«كبة الله» قال الله جل ثناؤه «فكبت وجوههم في النار».

باب شرح جملة هدمت^(٣) في (ألفات الوصل)

ألفات الوصل — تكون في صدور الأسماء والأفعال والأدوات يذكر أهل العربية أنها زفت وأردون ألفاً — على تكرير وقع في بعضها — لأن الذي يذكر منها في المصادر مكرراً في الأفعال .

فأما التي في الأسماء فتسبع عشرة ألفاً . وهي على ضربين : ألف في اسم لم يصدر عن فعل ، فالألفات في الأسماء التي لم تصدر عن الأفعال ثمان : ألف «ابن» و«ابنة» و«أثنين» و«أثنتين» و«أمرئ» و«أمرأة» و«اسم» وألف ثمانية . والألفات في الأسماء الصادرة عن الأفعال هي التي في «أقطع» و«أقطع» و«استعطاف» و«ارتداد» و«أحيرار» و«أسحكنك» و«أقشمرار» و«أخروا ط» و«أغريراء» و«أطواف» و«أثقال» . وهذه تكون في الأجزاء ساكنة وإذا ابتدئ بها كانت مكسورة .

وأما التي في الأفعال — فثلاث : منها في الأمر بالفعل الثلاثي . مثل

(١) أي عدمه ليكون لازماً . (٢) عند التعمية . (٣) تنضم ذكر ألف الوصل في (باب الألف المبتدئ) .

« اضْرِبْ ، اعْلَمْ ، اقْتُلْ » . ومنها في الأفعال الماضية التي صدرت عنها الأسماء المتعدي ذكرها إحدى عشرة ألفاً وهي : أَفْعَلْ ، وَانْفَعَلْ ، وَاسْتَفْعَلْ ، وَافْعَلْ ، وَافْعَالٌ ، وَافْعَلْتُ ، وَافْعَلْتُ ، وَافْعَلْتُ ، وَافْعَلْتُ ، وَافْعَلْتُ ، وَافْعَلْتُ ، وَافْعَلْتُ . وقد ذكرنا ترجمة هذه الأمثلة .

ثم تقع هذه الألفات بعينها في الأفعال المستقبلية المأمور بها وهي : افْعَلْ ، واقْعِلْ ، واستَفْعِلْ ، واقْعِلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ ، واقْعَلْ .

وقد أعطتُ أن فيها تكريراً ليكون الباب أبلغ شرحاً .
وأما التي تقع في الأدوات — هائلة على اختلاف فيها ، وإنما هي في قولهم « إيمُ الله » ، والألف التي مع اللام في قولنا « الرجل » . وموضع الاختلاف أن الألف في « إيمُ » مقطوعة صحيحة . وهي بالهمزة أشبه منها بألفات الوصل ، إلا أن تقول « إيمُ الله » بالكسر فيكون حينئذ أشبه بألف الوصل .

والألف التي مع اللام قد تقدم ذكرها .

باب (الباء)

الباء من حروف الشَّغْه . ولذلك لا تألف مع الفاء والميم : أما الفاء فلا تهاجرها باء متقدمة ولا متأخرة . وأما الميم فلا تنضم على الباء ملاصقة لها بوجه . ومتأخرة كذلك إلا في قولنا « شَيْمٌ » . وقد يخلل بينهما دخيل في مثل « علكم » وهي على الأحوال يَلْ قَائِفٌ معها .
وهي من الحروف الأصلية ، وما أعطهم زادوها في شيء من ابنية

كلامهم ، إلا في حرف قاله الأغلب :
فَكَ تَدْيَاهَا مع التَّوْب .
أراد « التَّوْب » فزاد الباء .

والباء تكون للالصاق ، وللاعتمال ، وفي موضع « عن » ، وفي موضع « من » ، وتكون للمصاحبة ، وتقع موقع « مع » ، وتقع موقع « في » و « على » ، وتكون للبدل ، ولتمدية الفعل ، وللسبب ، وتكون دالة على نفس المُخْبِر عنه وظاهرها يُرْمى أن الإخبار عن غيره ، ومنها الملتصقة بالاسم والمعنى الطَّرْح ، ومنها بلم الاجتماع ، ومنها بلم القسم .

فالالصاق — قولك « مسحت يدي بالأرض » . ومن أهل العربية من يقول « مررت بزيد » أنها للإصاق ، كأنه ألصق المروء به . وكذا إذا قال « هزأت به » .

والاعتمال — قولنا « كتبت بالقلم » و « ضربت بالسيف » . وذكر فاس أن هذه والتي قبلها سواء .

والباء الواقة موقع « عن » قولهم — « سألت به » إنما أردت عنه . ومنه « سأل سائلٌ بعذابٍ واقع » . ومنه :

وسائلةٌ بشلابةٍ من سير

والباء الواقة موقع « من » — في قوله جل ثناؤه « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » أراد منها . و :

شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّحْرِ ضَيْنٌ (١)

(١) من معلقة (عترة بن شداد) وتام البيت قوله :

شربت بماء الدحرجين فأصبحت ذروله تفر من جياض الحبل

وباء المصاحبة - « دخل فلان بنيابه وسيفه » وقوله عز وجل « وقد دخلوا بالكفر » ومنه « ذهبت به » لأنك تكون مصاحباً له .

والباء التي في موضع « في » قوله :

ما بكاء الكبير بالأطلال . -

والتي في موضع « على » قوله :

أرب^١ يول الثعلبان برأسه (١) ؛

أراد « على » .

وباء البذل - قولهم « هذا بذلك » أي عوض منه . ومنه :

قالت بما قد أراه بصيرا .

وباء تمديده الفعل - « ذهبت به » بمعنى « أذهبت » . وقوله جل ثناؤه -

« أسرى بعبده » ليس من ذا ، لأن سرى وأسرى واحد .

وبلاء السبب - قوله جل ثناؤه « والذين هم به مشركون » أي من أجله .

فأما قوله جل وعز « وكانوا بشركتهم كفرون » فاحتمل أن يكونوا كفروا بها وتبرأوا منها . ويجوز أن تكون باء السبب ، كأنه قال « وكانوا من أجل شركتهم كفرون » .

وباء الدالة عن نفس المخبر عنه والظاهر أنها لغيره - قولك « لقيت

فلان كريماً » إنما أردته هو نفسه . ومنه قوله :

ولم يشهد البيجا بألوث ممصم^١ . -

يقول : لأنناقة شربت من ماء (حرض) وماء (وشيح) - ويدمان ما (الهرضون) على التثنية - وتمررت عن حياض أديلم خوفاً وفرحاً ، لأنها حياض أرض الأعداء .

(١) تكلمته :

لقد نزل من بآلت عليه التمثال .

أَرَادَ قَسَّةً .

وَالزَّائِنَةُ - قَوْلُكَ « هَزَنْتَ بِرَأْسِي » وَ « لَا يَقْرَأَنَّ بِالشُّورِ »

وَبَاءُ الْإِبْدَاءِ - قَوْلُكَ « بِاسْمِ اللَّهِ » الْمَعْنَى أَبَدًا بِاسْمِ اللَّهِ .

وَبَاءُ الْقَسَمِ - « أَقْسِمُ بِاللَّهِ » ثُمَّ يَحْصِفُ « أَقْسَمَ » فَيَقَالُ « بِاللَّهِ » .

فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يُقْسِمُوا بِمَضْمَرٍ لَمْ يَقُولُوهُ إِلَّا بِالْبَاءِ ، يَقُولُونَ « وَاللَّهِ » ، فَذَا أَضْمَرُوا قَالُوا « بِهِ لَا فَطَلْتُ » قَالَ :

أَلَا نَادَتْ أُمَلَّةٌ بِأَرْحَامِ

لِيُتَخَزَّرَ نَتِي ، فَلَا يَكُ مَا بَالِي ^(١) .

فَمَا قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاهُ « لَمْ يَكُنِي بِمُتْلِقِينَ » ، « بِقَادِرٍ » ، فَهَذَا قَوْمُ الْبَاءِ فِي مَوْضِعِهَا وَأَنَّ الْعَرَبَ تَعْرِفُ ذَلِكَ وَقَطْعَهُ . قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ :

فَإِنْ تَأْتَى عَنْهَا حَقْبَةٌ لَمْ تُلَاقِهَا

فَأَنْتَ كَمَا أَحْدَقْتَ بِالْمَجْرَبِ ^(٢) .

وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّمَا هُوَ « بِالْمَجْرَبِ » ، بِكسر الراءِ ، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ « كَالْمَجْرَبِ »

كَمَا قَالَ عَدِيٌّ :

إِنِّي وَاللَّهِ - فَطَقِلَ حَقْمَتِي -

بِأَيْلٍ كُلَّمَا صَلَّى جَاؤُ .

قَالُوا : . مَعْنَاهُ « كَأَيْلٍ » ، وَهُوَ الرَّاهِبُ وَبِهِزْلَتُهُ فِي الدِّينِ وَالتَّقْوَى .

(١) مِنْ آيَاتِ لُغَوِيَّةٍ بَيْنَ سَلَمَى بْنِ رَبِيعَةَ احْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِلَّتِهِ فِي رِوَايَةِ « بِأَيْلٍ » ، بِدَلْ بِرُحْمَالٍ ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ .

(٢) مِنْ قَبِيدَةِ الْفَنَى وَصَفَ بِهَا فَرْسَهُ وَالصَّيْدَ عِنْدَ مَانِزِلِهِ (عَلَانَةُ بَيْنَ عِيدَةٍ) فَتَذَاكَرَا الْقَسْرَ وَادِّعَاهُ كُلَّ وَاحِدٍ مَعْنَاهَا تَقَاكُمُ أَمْرُو الْقَيْسِ بِهَذِهِ التَّصْيِيفَةِ وَعَلَقَةُ بَقِيدَةٍ مِثْلَهَا لِلزُّوْبَةِ اسْرِي . الْقَيْسِ فَحَكَتُ لُحْمَةً ، فَطَقِلْتُ الْأَوَّلَ وَتَزَوَّجْتُ الْثَانِي .

ومن روى ييت امرئ القيس بالفتح فالمنى « بموضع التجريب » كما قال جل ثناؤه « فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازِعٍ مِنَ الْمَذَابِ » أي بحيث يفوزون. وكذلك « بالمجرب » أي بحيث جُرِبَتْ وبحيث التجريب ، والمجرب والتجريب واحد. كقولهم « مُزَقَّ » بموضع غزيق في قوله جل ثناؤه « وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقٍ » .

بابُ (التاء)

التاء — تزداد في الكلام أولى وثانية وثالثة ورابعة وخمسة وسادسة: فزيادتها في الأسماء أولى في نحو « تَنْضُبُ ^(١) » و« تَنْفُلُ ^(٢) » . وفي الفعل « قَمَلَ » وما أشبهه . والثانية نحو « اقْتَلِرْ » . والثالثة « اسْتَقْمِلْ » . والرابعة « سَنَبْتُهُ مِنَ الْفُحْرِ » لأن الأصل « سَنَبَةٌ » . والخامسة مثل « غَرِيت » . والسادسة مثل « عَكَبُوت » .

ومن التاء — تاء القسم نحو « نَأْفَهُ » . قالوا : هي عوض من الواو كقولهم « نَجَاهُ » و« تُكَلَّانِ » .
وتقع في جمع المؤنث نحو « قَامَات » .
وتكون بدلاً من الهاء في لغة من يقول « ليست عندنا عربيت » .
وتاء — تدخل على « ثَمَّ » و« رُبَّ » و« لَا » ، كقولهم تُتْهِمُورُبَّتْ ولات حِين . وتاء يقولون : هي داخلة على « حِين » .
وتاء المؤنث — نحو « هي قَمَل » .

وتاء النفس — نحو « فَعَلْتُ » و« فَعَلْتَ » في المخاطبة . و« فَعَلْتُ »

(١) نزع من الشجر . (٢) اسم دوية .

و « قَلَّتْ » في الاخبار عن المؤنث .

وتاء — تكون بدلاً من سين في بعض اللغات . أنشد ابن السكيت :

يَاقِبِّجْ أَفَّةُ بَيْنَ السَّمَلَاتِ

عَمْرُو بْنُ مَسْعُودٍ شَرَارِ النَّاتِ (١)

وأما (التاء)

فلا أعرف لها علةً ، ولا نفع زائفةً .

وكنك (الجم)

إلا في الذي ذكرناه من اللغات المستكرهة .

و (الحاء) و (الخاء)

لا أعرف لها علةً .

و (الدال)

لا علة لها إلا في لغة من قلب التاء دالاً . فحدثنا علي عن محمد بن فرح

عن سلمة عن الفراء قال : قوم من العرب يقولون « أَجْدِيكَ » في موضع

« أَجْتَبِيكَ » يحملون تاء الافعال بعد الجيم دالاً . ويقولون « أَجْدَمُوا » .

وأنشد :

قَلَّتْ لَصَاحِي : لَا تَجْبِسَانَا

بَنَزِعْ أَصُولَهُ وَاجْتَزِ شَيْخًا .

و (الراء)

لا أعرف لها علةً .

وكنلك (الزاي)

إلا في قولهم « رَازِيٌّ » و « مَرَوَزِيٌّ » (١).

وأما (السين)

فإنها تراد في « استعمل » . ويختصرون « سَوَّفَ أَفْلُ » فيقولون « سَافِلُ » .

ولا أعرف (للشين) علة غير التي ذكرناه في الحروف المستكرهة . وكنلك في الحروف التي بعدها حتى (العين) .

وعلة (العين) أنها تقوم مقام الهمزة في لغة (بني تميم) يقولون « علت عَنْ ذاك » كأنما أراد « أَنْ » .

وكنلك الحروف التي بعدها حتى (الفاء) .

باب (الفاء)

قال البصريون « مرهت يزيد فعمرو : الفاء أشركت بينهما في المرور وجعلت الأول مبدؤاً به » .

وكان الأخفش يقول « الفاء تأتي بمعنى الواو » وأنشد :

بَسِطَ اللَّوِي بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوَّلَ . (٢)

وخالفه بعضهم في هذا فقال : ليس في جمل الشعراء الفاء في معنى الواو فائدة ، ولا حاجة به إلى أن يجعل الفاء في موضع الواو ووزن الواو كوزن الفاء . قال : وأصل الفاء أن يكون الذي قبلها علة لما بعدها . يقال

(١) دلوي : نسبة إلى (الري) مدينتي فارس . ومروزي : نسبة إلى (مرود) مدينة أيضا .

(٢) مطلع معلقة (اسرى القيس) ومصدره :

فما نيك من ذكرى حبيب ومنزل

«قام زيد فقام الناس» .

وزعم الأَخفش أن الفاء تُزاد ، يقولون «أخوك فَجَهْد» يريد أخوك
جَهْد ، واحتج بقوله جل ثناؤه «فَأَن لَّهٗ نَارَ جَهَنَّمَ» .

وكان قُطْرُب يقول يَقُولُ الأَخفش ، يقول : إن الفاء مثل الواو في
« بين الدخول فَحَوَمَلِ » قال : ولولا أن الفاء بمعنى الواو لفسد المعنى ، لأنه
لا يريد أن يُصَيِّرَ بين (الدخول) أولاً ثم بين (حَوَمَل) وهذا كثير في
الشعر .

وتكون الفاء جواباً للشرط . تقول «إِن قَاتَنِي فَحَسَنٌ مُّجِيل» ومنه
قوله جل ثناؤه «والَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ» دخلتِ الفاء لأنه جمل الكفر
شرطة كأنه قال : ومن كفر فتعسا له .

وَأَمَّا (القاف)

فلا أعلم لها علة إلا في جعلهم إياها عند الترميم مكنى الماء نحو «يَلْتَقِ» .

باب (الكاف)

فتح الكاف مخاطبة : لفظ ذكر مفتوحة ، وللمؤنث مكسورة . نحو
«لَكَ» و«لَاكَ» .

وتدخل في أول الاسم للتشبيه فتنقص الاسم . نحو «زيد كالأسد»
وأهل العربية يقيمونها مقام الاسم ويحملون لها عملاً من الاعراب ، ولنفك
يقولون «مردت بكالأسد» أرادوا بمثل الأسد . وأنشدوا :

على كلّ خفيف السحق يلعو به انصدي ،

له قلبٌ عاديةٌ وصُحُونٌ

فأما الكاف في قوله جل ثناؤه «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ؟» قال البصريون: هذه الكاف زائدة، زيدت لمعنى المخاطبة. قال محمد بن يزيد: وكذلك رُوِيَ نِكَ زَيْدًا. قال: والدليل على ذلك أنك إذا قلت أَرَأَيْتَكَ زَيْدًا؟ فانما هي أَرَأَيْتَ زَيْدًا؟ لأن الكاف لو كانت اسمًا لاستحال أن تُعَدَّى «أَرَأَيْتَ» إلى مفعولين إلا والثاني هو الأول. يريد قولهم «أَرَأَيْتَ زَيْدًا قَاتِمًا؟» لا يعمد «رَأَيْتَ» إلى مفعولين إلا إلى مفعول هو «زيد» ومفعول آخر هو «قَاتِمٌ» فالأول هو الثاني. قال: و«أَرَأَيْتَكَ زَيْدًا؟» الثاني غير الكاف، قال: وإن أردت رؤية المعلن لم يعمد إلا إلى مفعول واحد. قال: ومع ذلك إن فعل الرجل لا يعمد إلى نفسه فيتصل ضميرًا إلا في باب «ظَنَنْتَ» و«عَلِمْتَ». فأما ضربتني وضربتكَ فلا يكون. وكذلك إذا قلت «رُوَيْدَكَ زَيْدًا؟» انما يُرَادُ «أَرُوْذَ زَيْدًا» قال الزجاج: الكاف في هذا المكان لا موضع لها لأنها ذكرت في المخاطبة نو كيدًا. وموضع هذا نصب بـ «أَرَأَيْتَكَ؟». وقال الكوفيون: إن عمل هذه الكاف الرفع إذا قلنا «لولاك» فهي في موضع رفع. ثم قول «لولا أنت» وإنما صلح هذا لأن الصورة في مثل هذا صورة واحدة في الرفع والنصب والخفض.

وتكون الكاف دالة على البعد. تقول «ذا» فإذا بُدِ قُلْتَ «ذاك». وبكون الكاف زائدة كقوله «ليس كمثل شيء». وتكون للمجب نحو «ما رأيت كالיום ولا جلدًا مُمْبَأً».

باب (اللام)

اللام - تقع زائدة في موضعين: في قولهم «عبدل» وفي قولهم «ذلك».

واللام تكون مفتوحة ومكسورة : ففي المفتوحات (لام التوكيد) وربما قيل (لام الابداء) نحو قوله جل ثناؤه «لَا تَنْمُ أَشَدَّ رَهْبَةً» . وقال :

لَلْبُسُ عِبَادَةٌ وَتَهَرَّ عَنِّي
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشُّفُوفِ (١).

وتكون خبراً لـ «ان» : «إِنْ زَيْلًا لَقَامُ» .

ولام التوكيد : «إِنْ هَذَا لَا فِتْ» .

وتكون في خبر الابداء نحو «أُمُّ الْحَلِيسِ لَمَجُوزٌ» .

وزعم ناس أنها تفتح صلة لا اعتبار بها . ويزعم أنه اعتبر ذلك من قراءة بعض القراء «إِلَّا أَنَّهُمْ لَيًّا كَلُونُ» ففتح «أَنْ» ، وألغى اللام . وأنشد بعض أهل العربية :

وَأَعْلَمُ حَقًّا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ
مَتَى ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ ،
وَأَنْ لِسَانَ الْمَرْءِ - مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
حَصَلَةٌ عَلَى غُورِ الْإِثْلِيلِ (٢) .

ولام تكون جوابَ قَسَمٍ «وَاللَّهِ لَا أَقُومَنَّ» وتلزمها النونُ فإن كانت للماضي لم يَحْتَجْ إِلَى النونِ «وَاللَّهِ أَتَمَّامٌ» .

ولام الاستثانة نحو قولهم «يَا لَلنَّكْسِ» فإن عَطَفْتَ عَلَيْهَا أُخْرَى

(١) البيت من قصيدة لبيدور بنت مجمل في تحذيل البعاة وبساطتها على المضارة وزخرفها ، أنشأتها عند ما حجبها من البداية إلى قصر ساورة بن أبي سفيان في دمشق .

(٢) البيت لطرفة بن العبد البكري من قصيدته التي أنشدتها في عيد عمرو بن جرمين عمرو ابن مرثد ومثلها قوله :

لَهْدٌ بِحُزْنِ الشَّرَفِ طَلُولٌ طُوحٌ وَأَذْنُ صَدْحٍ مَجِيلٌ .

ولن رواية «لَا ذَلَّ» مكان «مَتَى ذَلَّ» و«الصلة» التي في البيت الثاني بمعنى القتل والرأي .

كَسَرَتْ . يُنْشِدُونَ :

يُنْكِيكُ نَاءَ بَيْدِ الدَّلْوِ مُتَرَبِّ

بِالْكَهُولِ وَلِلشَّبَانِ وَالشَّيْبِ (١)

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّ لَامَ الْإِضَافَةِ تُجَيِّدُ لِمَا نَ مَخْتَلَفَةً :

مِنْهَا أَنْ تُصَيِّرَ الْمُضَافَ لِلْمُضَافِ إِلَيْهِ . نَحْوُ « وَقَدْ مَاتِي الْمَلَوَاتِ » .

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لشيءٍ وَعِلَّةٌ لَهُ . مِثْلُ « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ

لِوَجْهِ اللَّهِ » .

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ لِإِرَادَةٍ . نَحْوُ « قُمْتُ لِأَضْرِبَ زَيْدًا » بِمَعْنَى قَمْتُ أُرِيدُ

ضَرْبَهُ .

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى « عِنْدَ » مِثْلُ قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « أَقِمِ الصَّلَاةَ

لِذِكْرِي » وَ « لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » أَيِ عِنْدِهِ .

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ بِمَنْزِلَةِ « فِي » . مِثْلُ قَوْلِهِ جَلِ وَعِزُّ « لِأَوَّلِ الْخَشْرِ »

أَيِ فِي أَوَّلِ الْخَشْرِ .

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ لِمُرُورِ وَقْتٍ . نَحْوُ قَوْلِ النَّابِغَةِ :

تَوَهَّمتُ آيَاتِهَا فَمَرَقَهَا

لِسَيِّئَةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِغٍ (٢)

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ « غَلَامٌ لَهُ سَنَةٌ » أَيِ أَتَتْ عَلَيْهِ سَنَةٌ .

وَتَكُونُ بِمَعْنَى « بَعْدَ » مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

(١) يرويه النحويون في الشواهد : بِالْكَهُولِ وَلِلشَّبَانِ لَدَجِبَ .

(٢) مِنْ قَصِيدَةٍ ، الَّتِي يَدْحِ بِهَا (النَّمْلَانُ مِنَ الْمَنَافِرِ) وَيَمْتَلِئُ إِلَيْهِ وَيَهْجُو (مَرَّةً مِنْ رِيَّةٍ) لَا تَقْلُبُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْبَيْتِ . وَمِثْلُهَا :

عَفَا (نَوْحًا) بَنَى (فَرْتَا) « قَوْلُهُمْ . فَبَيْتَا أُرَيْكَ قَتْلَاخَ الْمَوَاحِ »

« صوموا لرؤيته » أي لبد رؤيته .

وتكون للتخصيص . نحو « الحمد لله » وفي الكلام « الفصاحة لقريش والصباحة لبني هاشم » .

وتكون للتعجب . نحو « لله درّه ! » وينشئون :

لله يبق على الأيّم فوجيّد

بمُشغِرٍ به الظبّانُ والآسُ (١)

ويقولون « يا للعجب ! » معناه : يا قوم تعالوا إلى العجب والعجب يدعو . وقد تجتمع التي للنداء والتي للعجب فيقولون :

ألا يال قوم لطيف الخيال

يؤرّق من نازح فني دلال .

وتكون للأمر . نحو « ليَقضُوا ههنا » وربما حُنف هذه فيقولون :

محمد قد قسك كل قضي (٢)

وقالوا في لام الأمر : كان الأصل « اذمب » فلما سقطت الألف لم يوصل إلى الفعل إلا بلام ، لأن الساكن لا يبدأ به .

وقوله جل ثناؤه « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُفْرِكَ لَكَ اللَّهُ » فقال

قائل : لم جل أن تكون المفترضة جزاء لما آمن به عليه وهو قوله « إِنَّا فَتَحْنَا

لَكَ فَتْحًا » ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أن الفتح وإن كان من الله جل

ثناؤه فكل فعل يفعله المبدئ من خير فإله الموفق له والميسر ، ثم يجازي عليه ،

فيكون الحسنه من العبد منة من الله جل وعز عليه ، وكذلك جزاؤه له عنها

(١) من شرح سيويه .

(٢) تكلمت : إذا ملفت من شيء .

مِنَهُ . والوجه الآخر أن يكون قوله جل ثناؤه « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » ورَأَيْتَ النَّاسَ يَسَخُّونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ » فَأَمَرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ إِذَا جَاءَ الْفَتْحُ ، فكأنه أعلمه أنه إذا جاء الفتح واستغفر غفر له ما هم من ذنبه وما تأخر ، فكأن المعنى على هذا الوجه : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، فإذا جاء الفتح فاستغفر ربك ليفرك لك الله ما هم من ذنبك وما تأخر . وقال قوم : فتحنا لك في الدين فتحاً مبيناً لتهتدي به أنت والمسلمون فيكون ذلك سبباً للغفران .

ومن اللامات لام العاقبة . قوله جل ثناؤه « فَالْقِطْعَةُ آكُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . » وفي أشعار العرب ذلك كثير :

جاءت لتطعمه لحماً وفَجَّحَهَا

بَابِن ، فقد أطعمت لحماً وقد فجَّحاً .

وهي لم تجيء لذلك ، كما أنهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن صارت العاقبة ذلك .

ومن الباب قوله جل ثناؤه « رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أي : آتيتهم زينة الحياة فأصارهم ذلك إلى أن ضلُّوا . وكذلك قوله جل ثناؤه « فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا ... » هي لام العاقبة .

وتكون زائدة . نحو « مَ لَرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » و « لَارُؤُيَا تَعْبُرُونَ » .

بَابُ زِيَادَةِ (الْوَيْمِ)

والويم تزداد أولى في مثل : مَقْلٌ وَمَقْلٌ وَمَقْلٌ وَمَقْلٌ وغير ذلك .

وتزداد في أواخر الأسماء . نحو : زُرْزَمٌ وَشَنْقَمٌ .

و (النون)

تُزَادُ أَوَّلَى وَثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً وَخَامِسَةً وَسَادِسَةً .

فَالْأَوَّلَى - «نَحَلٌ» . وَقَالُوا «نَرَجِسُ» وَلَيْسَ نَرَجِسُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ،
وَالنُّونُ لَا تَكُونُ بَدَءَ هَارِءٍ .

وَالثَّانِيَةَ - نَحْوُ «نَاقَةُ عَقْلٍ» .

وَالثَّالِثَةَ - فِي «قَلَسُوءَةٍ» .

وَالرَّابِعَةَ - فِي «رَعَشَنٍ» .

وَالْخَامِسَةَ - فِي «صَلَكَنٍ» .

وَالسَّادِسَةَ - فِي مِثْلِ «زَعَرَّانٍ» .

وَتَكُونُ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ لِلْجَمْعِ . نَحْوُ «نَخْرَجُ» .

وَعَلَامَةُ لَرُضٍ فِي «يَخْرُجَانِ» فَإِذَا قُلْنَا الرِّجَالُ نَحْمِلُ هِيَ عَوِضٌ مِنَ الْحَرَكَةِ
وَالْتَّوِينِ . وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ فَرْقٌ بَيْنَ الْوَاحِدِ الْمُتَّصِيبِ بِالْأَمْنَيْنِ الْمَرْفُوعَيْنِ .
وَقَعَّ فِي الْجَمْعِ نَحْوُ «مَسْلُونٍ» وَرَبَّمَا سَقَطَتْ ضَالُوا «الْحَافِظُو عَوْرَةَ
الشَّيْءِ» (١) .

وَتَكُونُ ثَانِيَةً فَعْلَ الْمَطَاوَعَةِ نَحْوُ «انْكَسَرَ» وَ«بَنِيَتْ قَانِبِي» .

وَتَكُونُ ثَلَاثَةً مُضَمَّةً وَمُتَعَلَّةً . نَحْوُ «اضْرِبْ» وَ«اضْرِبِينَ» إِلَّا
أَنَّهَا تَجَلِبُّ عِنْدَ التَّخْفِيفِ فِي الْكُتَابِ أَلْفًا . نَحْوُ «لَنْسَلَمَا» .

وَتَكُونُ لَثَوِيَّةً . نَحْوُ «قَطَلِينَ» وَالْجَمَاعَةُ «قَطَلْنَ» .

وَتُلْحَقُ آخِرُ الْأَسْمِ فِي «زَيْدٌ خَرَجَ» فَرَّقَ بَيْنَ الْمَفْرُودِ وَالْمُضَافِ .

(١) مِنْ رِوَايَةِ لَرُضٍ بَيْنَ زَيْدٍ الْأَضْرَافِيِّ وَهُوَ ؟

وَالْحَافِظُو عَوْرَةَ الشَّيْءِ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دِرْأَتِهِ وَكَذَلِكَ

ويقولون : فرقا بين ما يجري ومالا يجري . وقالت الجماعة إنما اختبرت النون لأنها أشبه بحروف الاعراب من جهة الفنة .
ومما تختص به النون من بين سائر الحروف انقلابها في اللفظ إلى غير صورتها ضرورة ، وذلك إذا كانت ساكنة وجاءت بعدها به تنقلب ميماً .
نحو « غنبر » و « شنباء » .

(الهاء)

تُزَادُ فِي « يَازَيْدَاه » وَفِي « سُلْطَانِيَّة » وَمِمَّ يَسْمُونَهَا (استراحة)
(وَيَانْ حَرَكَةً) . وَلِلْوَقْفِ عَلَى الْكَلِمَةِ نَحْوُ « عَه » وَ « شَيْء » وَ « اقْتِيَّة » .

باب (الواو)

لَا تَكُونُ الْوَاوُ زَلْزَلَةً أَوَّلَى . وَقَدْ تَزَادُ ثَانِيَةً وَثَلَاثَةً وَرَابِعَةً وَخَمْسَةً .
فَالثَّانِيَةُ نَحْوُ « كَوْر » . وَالثَّلَاثَةُ نَحْوُ « جُلُول » . وَالرَّابِعَةُ نَحْوُ « قَرْوَةُ » .
وَالْخَامِسَةُ نَحْوُ « قَمَطَوَةُ » .

وَتَكُونُ اللَّسَنَى ، وَهُوَ الْعَطْفُ ، نَحْوُ « زَيْدٌ وَعَمْرُو » .

وَتَكُونُ عَلَامَةً رَفْعٍ نَحْوُ « أَخُوكَ وَالْمَسْلُون » .

فَإِذَا قَالُوا « يُجَنِّبِي ضَرْبُ زَيْدٍ وَتَنْصِبَ » فَقَالَ قَوْمٌ : نُصِيبَ « تَنْصِبَ »
عَلَى إِضْمَالِ « أَنْ » مَعْنَاهُ وَأَنْ تَنْصِبَ قَيْصِرٌ فِي مَعْنَى الْمَصْنَعِ . كَأَنَّكَ قُلْتَ
« يُجَنِّبِي ضَرْبُ زَيْدٍ وَغَضَبُكَ » فَخَرَجَ بِذَلِكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَاسِقَةً فَمَلَأَ عَلَى
اسْمٍ . وَيَقُولُونَ :

لَلْبُئْسِ عِبَادَةٌ وَقَرَّ عَيْنِي

بِمَعْنَى وَأَنْ قَرَّ عَيْنِي . فَإِنْ نَسَقْتَ فَمِلّاً عَلَى فِعْلِ يَجْمَعِينَ فَاعْرِضْهُمَا

واحد نحو « يقوم ويضرب زيداً » فإن لم تُردِّ الجمعَ بينهما نصبتَ الثاني
فيقال نَصَبَ باضطر « أن » يقولون « لَأَأكُلَ السمكَ وتشربَ اللبنَ » و:
لَأَتَنَّةَ عَنِ خَلْقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ ^(١)

وتكون بمعنى الباء في القسم نحو « والله » .

وتكون الواو مُضْمَرَةٌ في مثل قوله جل ثناؤه « ولا على الذين إذا
ماتواك لتَحْمِلَهُمْ قلت : لا أَجدُ ما أَحْكَمُ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا » التأويل : ولا على
الذين - إذا ماتواك لتَحْمِلَهُمْ وقلت : لا أَجدُ ما أَحْكَمُ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا . فجواب
الكلام الأول تَوَلَّوْا .

وتكون بمعنى « رَبِّ » . نحو « وَقَاتِمِ الْأَعْيَاقِ » .

وتكون بمعنى « مَعَ » كقولهم « اسْتَوَى الْمَاءُ وَالخَشَبَةُ » أي مع الخشبة
وأهل البصرة يقولون في قوله جل ثناؤه « فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ »
معناها مع شركائكم . كما يقال « لَوْ تَرَكْتُ النَاقَةَ وَفَصِيلَهَا » أي مع فصيلها .
وقال آخرون : أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ، اعتباراً بقوله جل وعز
« وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ » .

وتكون صلة زائدة كقوله جل وعز « إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ » المنى
إِلَّا هَذَا .

وتكون بمعنى « إِذ » كقوله جل وعز « وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ » يريد إذ
طائفة . وهول « جِئْتُ وَزَيْدٌ رَاكِبٌ » أي إذ زيد .

وقال قوم : للواو معنيان : معنى اجتماع ومعنى تفرق نحو « قام زيد »

(١) تمامه : طار عليك إذا قلت عظيم .

ومثلايت يصبلاي الأسود الحزلي وتيل نيره .

وعمره . وان كانت الواو في معنى اجتماع لم يُبَلَّ بِأَيِّهِمَا بَدَأَتْ . وان كانت في معنى تَفَرُّقٍ فمعمرو قائم بعد زيد .

وذهب آخرون الى أن الواو لا تكون إلا للجمع . قالوا : اذا قلت « قائم زيد وعمره » جاز أن يكون الأمر وقع منهما جميعاً معاً في وقت واحد وجبز أن يكون الأول قلم الثاني ، ونكتة بابها أنها للجمع .

وتكون الواو عطفةً بالبناء على كلام يُتَوَهَّمُ وذلك قولك — اذا قال القائل « رأيتُ زيداً ضد عمرو » — قلت أنت « أو ممن يجالسه ؟ » قال البصريون : معناه كأن قائله قال « هو ممن يجالسه » فقلت أنت « أو هو كذلك ؟ » . وفي القرآن « أو آمن أهل القرى ؟ » وكذلك قوله جل ثناؤه « إِنَّا لَمَعْبُوثُونَ ، أَوْ آبَاؤُنَا ؟ » فليس بأو إنما هي واو عطف دخل عليها ألف الاستفهام كأنه لما قيل لهم « إنكم مبموتون وآباؤكم » استفهموا عنهم . وتكون الواو مَعْجَمَةً كقوله جل ثناؤه « فاضرب به ولا تحنث » أراد — والله أعلم — فاضرب به لا تحنث ، جزماً على جواب الأمر ، وقد تكون نيةً والأول أجود . وكذلك « مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ » أراد « لنعلمه » وقد قيل « ولنعلمه فمكنا ذلك » . وكذلك « وحفظاً من كل شيطان » أي « وحفظاً فمكنا ذلك » . وقوله :

قَلَمًا أَجْزَأَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَاتَّحَى (١)

قيل : هي مُقْعَمَةٌ . وقيل : معناه أَجْزَأَنَا وَاتَّحَى .

(١) من مَقْعَةٍ (اسمى القيس) وقامه :

بأبطن خبت ذي حنق عقتل .

باب (الياء)

الياء - تزداد أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة .

فالأولى « يَرْمَعُ »^(١) ، و « يَرْبُوعٌ » ، والثانية « حَيْثَرُ »^(٢) ، والثالثة « خَفِيتُ » ، والرابعة « إَصْلَيْتُ »^(٣) ، والخامسة « ذَهَرِي »^(٤) .

وتكون أولى في الافعال نحو « يضرب » .

وللاضافة نحو « جَلَدِي » .

وللتثنية والجمع نحو « الزَّيْدَيْنِ » ، ولزَيْدَيْنِ .

وتكون علامة للنخض نحو « أخبك » .

وللتأنيث نحو « استَغْفِرِي » .

وللتصغير نحو « بَيْتٌ » .

وللنسب نحو « كُوْفِي » .

(١) البرمغ : الحمى الابيض الذي يلح ، أخذ من رمانة الحمى وهي مايرمغ (يتحرك) من يافوخه في أول الرضاع .

(٢) الحيدر : الحمير .

(٣) سيف اصليت : ماض في الضربة مشتق من « سلت » وهو الامس البراق .

(٤) هذه الكلمة مشتقة في رسما بين « ذهري » و « ذهري » لتأخرها في القاعده للفرية التي كان للرحوم الشيعي يكتب بها .



باب القول على الحروف المفردة

الدالة على المعنى

والعرب الحروف المفردة التي تنبئ على المعنى . نحو التام في « خَرَجْتُ »
و « خَرَجْتُ » . و « تَوْبِي » و « قَرَسِي » . (١)

ومنهن حروف تنبئ على الأفعال نحو « إِزِيدَا » أي عِدْهُ . و « دَح »
من وَحَيْتُ . و « دَر » من وَدَيْتُ و « دَش » من وَشَيْتُ و « دَع » من وَعَيْتُ
و « دَفَع » من وَفَيْتُ و « دَن » من وَفَيْتُ و « دَل » من وَلَيْتُ و « دَن »
من وَنَيْتُ و « دَم » من وَهَيْتُ ، إلا أن حدائق النحويين يقولون في الوقف
عليها « شَيْء » و « دَر » ، فيقفون على الماء .

ومن الحروف ما يكون كناية وله مواضع من الأعراب نحو قولك
« تَوْبِهِ » فالحاء كناية لها محل من الأعراب .

ومنه ما يكون دلالة ولا محل له مثل « رَأَيْتُهَا » فالحاء اسم له محل
والميم والألف علامتان لا محل لهما ، فلي هذا مجيء الباب .

فأما الحروف التي في كتاب الله جل ثناؤه فوائج سور فقال قوم : كل
حرف منها مأخوذ من اسم من أسماء الله ، فالألف من اسمه « الله » واللام
من « لطيف » والميم من « مجيد » . فالألف من آلائه واللام من لطفه والميم
من مجده . يروى فاعن (ابن عباس) وهو وجه جيد ، وله في كلام الترمذية

(١) كلما بالألف ولا يستقيم . ومثواه : ونحو آيا . في « تَوْبِي » و « قَرَسِي » .

(٢) من « وَآيَ وَآيَا » بمعنى وعد . وتقول العرب « لا تخبرني بأي أنجازته بعد لأي » أي
بعد بقاء .

شاهد، وهو :

قلنا لها : قني . فضالت : قاف .

وقال آخرون : ان الله جل ثناؤه أقسم بهذه الحروف أن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الكتاب الذي أنزله الله جل ثناؤه لاشك فيه . وهذا وجه جيد ، لأن الله جل وعز دل على جلالة قدر هذه الجروف ، اذ كانت ملأءة اليان ومباني كتب الله عز وجل المنزلة باللفات المختلفة ، وهي أصول كلام الأمم ، بها يتعارفون ، وبها يذكرون الله جل ثناؤه . وقد أقسم الله جل ثناؤه في كتابه بالفجر والطور وغير ذلك ، فكذلك شأن هذه الحروف في القسم بها .

وقال قوم : هذه الأحرف من التسعة وعشرين حرفاً دللت بها الأئسنة ، فليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه جل وعز ، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه ، وليس منها حرف الا وهو في سنة أقوام وآجالهم : فالألف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون . رواه (عبد الله بن أبي جعفر الرازي) عن أبيه عن (الزبيح بن أنس) وهو قول حسن لطيف ، لأن الله جل ثناؤه أنزل على نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الفرقان فلم يدع نظماً عجباً ولا علماً نافضاً الاودعه إياه ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله . فليس منكراً أن ينزل الله جل ثناؤه هذه الحروف مشتملة مع إيجازها - على ما قاله هؤلاء .

وقول روي عن (ابن عباس) في «الم» : أنا الله أعلم . وفي «الض» : أنا الله أعلم وأفضل . وهذا وجه يقرب مما مضى ذكره من دلالة الحرف الواحد على الاسم التام والصفة التامة .

وقال قوم : هي أسماء للسور في « ألم » اسم لهذه و « حم » اسم لتيرها . وهذا يؤخر عن جماعة من أهل العلم ، وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز ، فكذلك هذه الحروف في أوائل السور موضوعة لتمييز تلك السور من غيرها . فان قال قائل : قد رأينا « ألم » اختص بها غير سورة ، فأين التمييز ؟ قلنا : قد يقع الوقاف بين اسمين لشخصين ، ثم يميز ما يجيء بعد ذلك من صفة ونعت كما قيل « زيد وزيد » ثم يميزان بأن يقال « زيد الفقيه » و « زيد العربي » ، فكذلك إذا قرأ القاري « ألم ذلك الكتاب » قد ميزها عن التي أولها « ألم الله لا إله الا هو » .

وقال آخرون : لكل كتاب سر وسر القرآن فوئح السور . وأظن قائل هذا أراد أن ذلك من السر الذي لا يلمسه إلا الخالص من أهل العلم والراسخون فيه .

وقال قوم : إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لتوا فيه وقال بعضهم لبعض « لا تسمعوا لهذا القرآن وآخوه » فأزل الله تبارك وتعالى هذا النظم ليتعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم ، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده ، تنشق حيثئذ القلوب وتلين الأكتلة .

وقول آخر : إن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي هي أب ت ث جاء بعضها مقطوعاً وجاء تماماً مؤلفاً ليدل القوم الذين نزل القرآن فيما بين ظهرهم أنه بالحروف التي يقولونها فيكون ذلك قربة لهم ودلالة على عجزهم عن أن يأتيوا بمثله بعد أن أعطوا أنه منزل بالحروف التي يعرفونها ويننون كلامهم منها .

قال (أحمد بن ظرس) : وأقرب القول في ذلك وأجمع قول بعض طائفتنا : إن أولى الأمور أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً فيقال : إن الله جل وعز افتتح السور بهذه الحروف اراحة منه الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لأعلى معنى واحد . فتكون الحروف جملة لأن تكون افتتاحاً للسور ، وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله جل ثناؤه ، وأن يكون الله جل ثناؤه قد وضعها هذا الموضع قسماً بها ، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين ، وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله جل وعز في انعامه واخصاله ومجده ، وأن الافتتاح بها سبب لأن يستمع إلى القرآن من لم يكن يستمع ، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدال على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو بهذه الحروف ، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالة بينهم دليل على كذبهم وعنادهم وجحودهم ، وأن كل جلد منها إذا وقع في أول سورة فهو اسم لتلك السورة .

وهذا هو القول الجامع لتأويلات كلها من غير أطراح لواحد منها :
وانما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلاً من حيث يزول به العذر ، لأن المرجح إلى أقاويل العلماء ، ولن يجوز لأحد أن يترض عليهم بالظن وهم من العلم بالمكن الذي هم به ، ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق . والله أعلم بما أراد من ذلك .



باب الكلام في حروف المعنى

رأيت أصحابنا الفقهاء يضمنون كتبهم - في أصول الفقه - حروفهم حروف المعاني، وما أدري ما الوجه في اختصاصهم إياها دون غيرها. فذكرت عامة حروف المعاني رسماً واختصاراً، فأول ذلك ما كان أوله ألف :

باب (أمر)

أم - حرف عطف نائب عن تكرار الاسم أو الفعل نحو «أزيد عندك أم عمرو؟».

ويقولون : ربما جاءت لقطع الكلام الأول واستئناف غيره ، ولا يكون حيثئذ من باب الاستفهام . يقولون «إنها لا بل أم شاء» . ويكون هنا - في قول بعضهم - بمعنى «بل» كقوله جل ثناؤه «أم يقولون شاعر» وينشئون :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط

غلس الظلام من الرقاب خيالاً^(١)

وقال أهل العربية : أمردت برجل أم امرأة «أم» تُشرك بينهما كما أشركت بينهما «أو» .

وقال آخرون : في «أم» معنى العطف ، وهي استفهام كالألف ، إلا أنها لا تكون في أول الكلام لأن فيها معنى العطف .

وقال قوم : هي «أو» أبدلت الميم من الواو لتحول إلى معنى ، يريد إلى معنى «أو» وهو قولك في الاستفهام «أزيد قام أم عمر؟» فالسؤال

(١) من قصيدة للاختل في هجو جرير .

عن أحدهما بعينه . ولو جيئت بـ « أو » لسألت عن الفعل . وجواب أو
« لا » أو « نعم » وجواب أم « فلان » أم « فلان » .

وقال (أبو زيد) : العرب تريد « أم » . وقال في قوله جل ثناؤه « أم
أنا خير من هذا اللذي هو ميين » : معناه « أنا خير » .

وكن (سيويح) يقول : « أفلا تبصرون » : أم أنتم بصراء .

وكن (أبو عبيدة) يقول : « أم » يأتي بمعنى ألف الاستفهام كقوله
جل ثناؤه « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » : بمعنى « أريدون » .

وقال (أبو زكريا الفراء) : العرب تجعل « بل » مكان « أم » وأم مكان
بل . إذا كان في أول الكلمة استفهام . فقال :

فوالله ما أحري أسلى تنولت ،

أم التوم ، أم كل إلي حبيب .

مناها « بل » .

فأما قوله جل ثناؤه « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا
من آياتنا عجبا » : فقول : أظننت يا محمد هذا ، ومن عجائب ربك جل وعز
ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف .

وقال آخرون : « أم » بمعنى ألف الاستفهام كأنه قال « أ حسبت » ،

و « حسبت » بمعنى « علمت » ويكون الاستفهام في « حسبت » بمعنى
الامر كما قول لمن تخاطبه « أعلمت أن زيدا خرج » : بمعنى أمر أي أعلم أن
زيدا خرج . قال : فلي هذا التدرج يكون تأويل الآية : أعلم يا محمد أن
أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا .

باب (أو)

أو — حرف عطف يأتي بعد الاستفهام للشك: «أزيد عندك أو بكر؟» تريد «أحدهما عندك؟» فالجواب «لا» أو «نعم». وإذا جمعت مكانها «أم» فأنت مثبت أحدهما غير أنك شاك فيه بينه وتقول «أزيد عندك أم عمرو؟» فالجواب «زيد» أم «عمرو».

وتكون «أو» للتخير كقوله جل ثناؤه «فاطعموا عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، أو كنسواهم، أو تخيروا رقية».

وتكون للإباحة تقول «خذ ثوباً أو فرساً».

وأما قوله جل ثناؤه «ولا تطعم منهم أيتماً أو كفوراً» فقال قوم: هذا بعارض ويقابل بضده فيصح المعنى وبين المراد، وذلك أنا قول «أطعم زيدا أو عمراً» فأما تريد أطعم واحداً منهما، فكذا إذا هتيتاه وقتنا «لا تطعم زيدا أو عمراً» فقد قلنا لا تطعم واحداً منهما.

وقوله جل ثناؤه «إلى مائة ألف أو يزيدون» قال قوم: هي بمعنى الواو «ويزيدون». وقال آخرون: بمعنى «بل». وقال قوم: هي بمعنى الإباحة كأنه قال: إذا قال قائل «م مائة ألف» فقد صدق وإن قال غيره «بل يزيدون على مائة ألف» فقد صدق. وقول القائل «مررت برجل أو امرأة» فقد أشركت «أو» بينهما في الخفض واثبتت المرور بأحدهما دون الآخر. وتكون «أو» بمعنى «إلا أن» تقول «لا تزمنك أو تطعني حتي» بمعنى «إلا أن تطعني». قال امرؤ القيس (١):

(١) من قصيدته التي أنشدتها وهو فاضل من الجزيرة العربية إلى قيعر الرومي القسطنطينية

فَلْتَلْ لَهُ لَا تَبِكَ عَيْنُكَ، إِنَّمَا
نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَعُوتَ فَعْمَدًا.

وزعم قوم أن «أو» تكون بمعنى الولو وهولون : كل حق لها داخل فيها
أو خرج منها ، وكل حق سميته في هذا الكتاب أو لم نسمه وإن شئت
قلت بالواو وأنشئوا :

فذلكما شهرين أو نصف ثالث

إلى ذا كما ماغييتي هيايا .

وكان الفراء يقول : في «مائة ألف أوزيلون» : بل يزيلون . وقال بعض
البصريين منكر ألها : لو وقعت «أو» في هذا الموضع موقع «بل» لجاز أن
تقع في غير هذا الموضع وكنا قول «ضربت زيدا أو عمرا» على غير الشك
لكن بمعنى «بل» ، وهذا غير جائز قالوا : ووجه آخر أن «بل» تأتي للضراب بعد
غلط أو نسيان ، وهذا منفي عن الله جل ثناؤه ، فإن آتي بها بعد كلام قد سبق
من غير القائل فالخطأ إنما لحق كلام الأول نحو قوله جل ثناؤه «وقالوا :
اتخذ الرحمن ولدا» فهم أخطوا في هذا وكفروا به فقال جل وعز «بل
عباد مكرمون» . وزعم قوم أن معناها «أو يزيلون على ذلك» .

قلنا : والذي قاله (الفراء) قول قد تقدم فيه ناس . وقول من قال :
ان «بل» لا يكون إلا أضرابا بعد غلط أو نسيان خطأ ، لأن العرب تنشد :

يَسْتَحِبُّ عِلٌّ (لِلذَلِيلِينَ مَا لِلْعَالِيَةِ) وَعِلٌّ (بَنِي إِسْد) الْقَتِيلِينَ تَقْتُلُوا لَهُ إِسْرِيَّ الْهَيْبَسِ وَكُلَّ أَمِيرٍ
عَلِيمٍ . ومطلع القصيدة قوله :

سَمَاءٌ شَوْقِي بِدَا مَا كَانَ أَضْرًا وَحَلَّتْ سُلَيْمِي بِلَنْ لَوْ لَمَرَّمَا
وَالَيْتَ الْفَدَى قَبْلَ الْفَدَى ذَكَرَهُ ابْنُ فَرَسٍ قَوْلَهُ عَنْ صَاحِبِهِ (عَمْرُو بْنُ قُصَيْبَةَ) :
بَنِي سُلَيْمِي لَمْ يَرَى الْقَرْبَ دُونَهُ وَأَيُّنَ أَنَا لِأَحْسَنَ جَبْرًا

بل ما هاج أخزاناً وشجواً قد شجا^(١)

وهذا ليس من المئينين في شيء.

فأما قوله «أو أشد قسوة» وما أشبهه من قوله عز وجل «كلح البعير أو هو أقرب» أن المخاطب يطمه، لكنه أبهمه على المخاطب وطواه عنه. وقال آخرون: بعضها كالجارة وبعضها أشد قسوة. أي هي ضربان: ضرب كذا أو ضرب كذا.

باب إي وإي

إي - في زعم أهل اللغة يكون بمعنى «نعم» هـول «إي وربّي» أي «نعم وربّي» قال الله جل ثناؤه «وَيَسْتَنبِئُكَ أَهَقُّ هُوَ قُلْ: إِي وَرَبِّي» وأي - معناها «يقول» ومثال ذلك أن تقول في تفسير «لارب فيه»: «أي لاشك فيه»، المعنى: يقول لاشك فيه.

وسمعت أبا بكر أحمد بن علي بن اسماعيل الناقد يقول سمعت أبا اسحاق الحربي يقول سمعت عمر بن أبي عمرو الشيباني يقول: سألت أبي عن قولهم «أي»، فقال: كلمة للعرب تشير بها إلى المعنى.

باب إن وأن وإن وأنت

قال (الفرّاء): «إن» مقدره لقسم متروك استغنى بها عند التقدير: «والله أن زيدا عالم». وكان (ثعلب) يقول: أن زيدا لقائم هو جواب «ما زيد قائم» ف«أن» جواب «ما» و«للام» جواب «الباء». وكان

(١) مطلع أرجوزته مشهورة من نظم (البيجا) ونظمه «بل» رائد على الامل. وبقيّة البيت قوله: من ظل كلامي أنبها

بعض النحويين يقول : « إنَّ » مضارعة للفعل لفظاً ومعنى : أما اللفظ فلفظة (١) فيها كما تقول « قَامَ » . والمعنى (٢) في « إنَّ » زيدا قائم : ثبت عندى هذا الحديث . وقال (سيبويه) : سألت (الخليل) عن رجل سمعناه : « إنَّ » كيف إعرابه ؟ قال : ففتح الألف لأنه يكون كالاسم ، وإذا كان بكسر الألف لكان كالفعل والأداة ، ولذلك نصب في ذاته لأنه كالفعل ومعناه التثبوت للخبر الذي بعده ، ولذلك نصب به الاسم الذي يليه . وما يدل على أنَّ « إنَّ » للتثبوت قول القائل :

إِنَّ مَجَلًّا وَإِنَّ مَرْتَحَلًا

وإنَّ في السفر مامضوا مهلاً (٣)

وتكون « إنَّ » — بمعنى « لعلَّ » في قوله عز وجل « وما يشرككم أنها إذا جاءت » بمعنى « لعلها إذا جاءت » . وحكى (الخليل) : « إئت السوق أُنَّكَ تشتري لنا شيئاً » بمعنى « لعلَّكَ » .

و « إنَّ » إذا كانت اسماً كانت في قولك « ظننت أن زيدا قائم » فيكون « أن » والذي بعدها قصة وشأننا نحو « ظننت ذلك » فيكون عمله نصباً ، وإذا قلت « بلغني أن زيدا عالم » فهذا في موضع رفع . وإذا قلنا « عجبت من أن زيدا كذبتك » فحله خفض على ما رتبناه من أنه اسم .

وأما « إنَّ » — فإنها تكون شرطاً ، تقول « إنَّ خرجت خرجت » . وتكون تقياً كقوله جل وعز « إنَّ الكافرون إلا في غرور » .

(١) يعني لَد مشابهة « لَ » فعل لفظاً بفتح لهما .

(٢) يعني أن مشابهة فعل من حيث اللفظ يكونها تضر به .

(٣) مطلع قصيدة من شعر (الأخضر) ومنها قوله :

استأثر الله بموقاة وبالد ل دولي اللامة الرجل

وكقول الشاعر :

وما إِنْ طَبْنَا جَبْنَاً ^(١)

وتكون بمعنى « إذ » قال الله جل وعز « وأنتم الآن أعلن أن كنتم
مؤمنين » بمعنى « إذ » لأنه جل وعز لم يخبرهم بملوئهم إلا بعد ما كانوا
مؤمنين .

وزعم ناس أنها تكون بمعنى « لقد » في قوله جل ثناؤه « أني كنتعن
عبادكم لثاقلين » بمعنى « لقد كنا » .

و « أن » — تجمل الفعل بمعنى المصدر ، كقوله جل ثناؤه « وأن
نصوموا خير لكم » بمعنى « والصوم خير لكم » .

وتكون بمعنى « إذ » تقول « أعجيني أن خرجت » و « فرحت أن
دخلت الدار » .

(١) ورد في كتب الأدب بالرفع « وما إن طبنا جبن » وهو من قصيدة أنشدتها (قروية بن
مسيك بن الحارث بن سلة للرازي الصناني) وتزوي لمروى بن قاس . وقيل في سبب انشادها
أن (ممدان) جنت (سراد) في أيام الجعلية جماعة كثيرا وساروا اليهم فالتقوا في (الاحرين)
فقتلوا جماد وأصابوا منهم ، فقال في ذلك قروية :

ان نهزم نهزامون قدما وان نهزم قصير مهزمتنا
والان طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرتنا
لينه يمر به ويرضى ولو مكنت ضارته ملينا
اذا اقبلت به كرات حمر فاني بعد نهيمه متونا
ومن يهبط (يهز) يربطه يربطه
فاني ذلكم سروات قوي كما افنى القرون الاولى
فوق غلغ للوك اذن غلغنا ولو في الكرم اذن جيتنا

ويروي منها :

اذا ما الفجر جمر على اقلس كلاكه اناخ باخرشا
قل لشهيدك ي : ايقرا سيق القادنون كما لقينا
كذلك الدهر دونه سجال تنكر سرورنا جيتنا

وقد تُضَرَّ في قوله :

أَلَا أَهَذَا الَّذِي أَجْرِي أَحْضَرُ الْوُفَا^(١)

وتكون بمعنى « أي » قال الله جل ثناؤه « وَاَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
امشُوا » بمعنى : أي امشوا .

باب (الى)

تكون « الى » بمعنى الانتهاء ، قول « خرجت من بغداد الى الكوفة » .
وتكون بمعنى « مع » . قالوا في قوله جل ثناؤه « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ » :
بمعنى « مع الله » وقال قوم : معناها مَنْ يُضِيفُ نُصْرَتَهُ إِلَى نُصْرَةِ اللَّهِ جَلَّ
وعزَّيْ . فيكون بمعنى الانتهاء ، وكذلك قوله جل ثناؤه « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ
إِلَى أَمْوَالِكُمْ » .

وربما ظلمت « الى » مقام « اللام » قال (الشَّخْخ) :

فَالْحَقُّ يَجْعَلُهُ ، فَاسْبِغْهُمْ وَكُنْ مَعَهُمْ

حَتَّى يُعِيرُوكَ عِجْدًا غَيْرَ مَوْطُودٍ .

وَأَتْرَكَ ثَرَاتَ خُفْلَفٍ لَهُمْ هَلَكُوا

وَأَنْتَ حَيٌّ إِلَى رَجُلٍ وَمَطْرُودٍ^(٢)

(١) من سلفه (طرفة بن العبد) وفي رواية « أَلَا أَهَذَا الْأَمْسِيُّ » وفي رواية أخرى :

أَلَا أَهَذَا الْأَمْسِيُّ أَنْ أَهْبَدَ الْوُغَى وَأَنْ أَحْضَرَ الْهَذَنَ هَلْ أَنْتَ عَقْدُ ؟

والشاهد هنا نصب « أحضر » مع اضمار « أن » على رواية الكوفي ، والبصريون يرفعونها .

(٢) البيت من قصيدة (الشَّخْخ) بن ضرار السطافي التي يحبوها (ربيع بن عباد السلمي) ومطلبها :

طَلَّ النَّوَاءُ عَلَى رَسْمِ يَحْيَى أَوْدَى وَكُلَّ خَلِيلٍ سَرَّةَ مَوْدِ

و (بحجة) التي هي البيت الاول اسم تسمية . و (خُفْلَفٌ) التي هي البيت الثاني اسم رجل تنسب

إليه طائفة . و (رَعْلٌ) تسمية منسوبة الى (رعل بن ملك بن عوف) وهي لى (اليمن) . و

(مطرود) تسمية منسوبة الى (مطرود بن كعب) . قيل ان الثلاثة يروى أحدهم . وقيل ان

(خُفْلَفًا) غير (رعل) و (مطرود) . والشاهد بجي . « الى » بمعنى « اللام » .

يقول : اترك تراث (خفاف) لرعل ومطروود ، وخفاف تورعل ومطرود
 جواب واحد . وأخبرنا علي بن ابراهيم القطان عن ثعلب عن (ابن
 الأعرابي) قال : ألقى علي أعرابي هذا البيت فقال لي : ما مضاه ؟ فأجبت
 بجواب ، فقال لي : ليس هو كذا . وأجابني بهذا الجواب . وكان الذي أجابه
 به ابن الأعرابي أن خفافاً من غير رعل ومطروود .

باب (الأ)

الأ — افتتاح كلام . وقد قيل : إن «الهمزة» للتنبيه و«لا» نفي
 لدعوى في قوله جل ثناؤه «أنا نحن المصلحون ، ألا إنهم مفسلون»
 فالهمزة تنبيه لمخاطب و«لا» نفي للإصلاح عنهم .
 وفي كلام العرب كلمة أخرى تشبهها لم تجب في القرآن وهي «أما»
 وهي كلمة تحقيق إذا قلت «أما إنه قائم» فمناه «حقاً إنه قائم» .

باب (إنما)

سمعت علي بن ابراهيم القطان يقول سمعت ثعلباً يقول سمعت صلة
 يقول سمعت الفرءاء يقول : إذا قلت «إنما قلت» فقد نفيت عن نفسك
 كل فعل إلا القيام ، وإذا قلت «إنما قام أنا» فأنك نفيت القيام عن كل
 أحد وأثبتته لنفسك .

قال الفرءاء : يقولون «بأنت إلا أخي» فيدخل في هذا الكلام الأفراد ،
 كأنه ادعى أنه أخ ومولى وغير الأخوة ، فنفى بذلك ما سواها . قال :
 وكذلك إذا قلت «إنما أنت أخي» . قال الفرءاء : لا يكونان أبداً إلا ردّاً ،

يعني أن قولك «ما أنت إلا أخي» و«إنما قام أنا» لا يكون هذا ابتداءً أبداً وإنما يكون ردّاً على آخر، كأنه ادعى أنه أخٌ ومولىٌ وأشياء أخرى، فنفاه وأقر له بالأخوة، أو زعم زاعم أنه كانت منك أشياء سوى القيام فنفيتها كلها ما خلا القيام.

وقال قوم: «إنما» معناه التحقير. تقول «إنما أنا بشر» محقراً لنفسك. وهذا ليس بشيء: قال الله جل ثناؤه «إنما الله إلهٌ واحد» فأين التحقير هاهنا؟

والذي قاله الفراء صحيح، وحجته قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «إنما الولاء لمن أحق».

باب (إلا)

أصل (الاستثناء) - أن تستثنى شيئاً من جملة اشتملت عليه في أول ما لفظ به، وهو قولهم «ما أخرج الناس إلا زيداً» فقد كان «زيد» في جملة الناس ثم أخرج منهم، ولذلك سمي (استثناء) لأنه تبيّن ذكره مرة في الجملة ومرة في التفصيل. ولذلك قال بعض النحويين: المستثنى خرج مما دخل فيه، وهذا مأخوذ من «الثنا» والثنا الأمر يثنى مرتين: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لا ثنا في الصدقة» يعني لا تؤخذ في السنة مرتين. قال (أوس):

أفي جنب بكرٍ قطعتي ملامة؟

لسري لقد كانت ملامتها ثناً.

يقول: ليس هذا بأول لومها، فقد فعلته قبل هذا، وهذا ثناً بعده.

في شعر العرب قول (أبي خراش) :

نجا سالم ، والنفس منه بشلقه ،

ولم ينجُ إلا جفن سيفٍ ومِزْراً .

فاستخى الجفن وألْزَرَ وليساً من سالمٍ إنما هذا على الاختصار . وأنشد :

وبلدة ليس بها أنيسُ

إلا اليمافير والاليمسُ

معناه « لكن فيها » ومثله قوله جلّ ثناؤه « فاتهم عدوّ لي ، إلا رب العالمين » وأما قوله « لئلا يكون للناس عليكم حجة » إلا الذين ظلموا « فقال قوم أراد « إلا على الذين ظلموا » فإن عليهم الحجة » ويكون حيثئذ « الذين » في موضع خفض ويكون أيضاً على « لكن الذين ظلموا فلا تحشوم » بتثنية . وقال « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » إلا الذين ظلموا » فهذا قد اقطع من الأول ويجوز أن يكون على الاستثناء من أوله كأنه قال « إلا الذين ظلموا فجادلهم بالتي هي أسوأ من لسان أو يد » أي أغلظ ، يريد مشركي العرب . وقوله جلّ ثناؤه « لا يحب الله الجهر بالسؤن » القول ، إلا من ظلم » قال قوم إنما يريد المكره لأنه مظلوم فذلك عنه موضوع وإن نطق بالكفر . والاستثناء باب يطول .

وقد يستثنى من الشيء الموحّد لفظاً وهو في المعنى جمع ، نحو « أن الأفسان لني خسر ، إلا الذين آمنوا » .

واستثناه الشيء من غير جنسه لا معنى له مع الذي ذكرناه من حقيقة الاستثناء .

وإذا جتمع الكلام ضرورياً من المذكورات وفي آخره استثناء فلا أمر
إلى الدليل فإن جاز رجمه على جميع الكلام كان على جميعه كقوله جل ثناؤه
« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - ثم قال - إلا الذين تابوا »
والاستثناء جائز في كل ذلك والذي يمنع منه الدليل قوله جل ثناؤه « فليجزيهم
ثمانيين بجلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » فالاستثناء هاهنا على ما كان من
حق الله جل ثناؤه دون الجلد .

باب من (الاستثناء) آخر

قال قوم : لا يُستثنى من الشيء إلا ما كان دون نصفه : لا يجوز أن يقال
عشرة إلا خمسة . وقال قوم : يُستثنى القليل من الكثير ويستثنى الكثير مما
هو أكثر منه . وهذه العبارة هي الصحيحة . فلما من يقول : يُستثنى
الكثير من القليل فليست بالعبارة الجيدة ، قالوا : فيقال « عشرة إلا خمسة »
حتى يبلغ التسعة قالوا : ومن الدليل على أن نصف الشيء قد يستثنى من الشيء
قوله جل ثناؤه « يَأْتِيهَا الزَّيْلُ قُلُومٍ لَّيْلٍ أَلْقِيلًا - ثم قال - نصفه » أفلا
تراه سمي النصف قليلاً واستثناءه من الأصل ؟

قال أحمد بن حنبل : واعترض قوم بهذا الذي ذكرناه على (أبي عبد
الله مالك بن أنس) في قوله في (الجاثية) « لَأَن مَّالِكًا يَنْهَبُ إِلَى أَنِ الْجَاثِمَةُ
إِذَا كَانَتْ دُونَ الثَّلَاثِ لَمْ يَوْضِعْ لَأَنهَا قَلِيلٌ بِمَنْزِلَةِ مَا تَأَلَّاهُ (الوافي) من الطير
وغيرها وما تقيده الرمي ، فإذا بلغت الجاثمة الثلث وما زاد فهي كثيرة ولزم
وضعها للحديث الروي فيها . قال المعتز على أبي عبد الله مالك رضي الله
تعالى عنه : فقد دفع هذا الفصل المعنى الذي ذهب إليه مالك ، لأن قوله جل

ثناؤه **لأنهم** الليل إلا قليلاً ، قد جعل النصف قليلاً ، فإذا كان نصف الشيء قليلاً منه وجب أن يكون كثيره ما فوق النصف .

فالجواب عن هذا أن مالكا إنما ذهب في جملة الثلث كثيراً إلى حديث حدثاه (علي بن ابراهيم) عن محمد بن يزيد عن هشام بن عمار عن ابن عينة عن الزهري عن (حاضر بن سعد) عن أبيه قال « مرضت طام الفتح حتى أشرفت ، فمادني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت : أي رسول الله إن لي مالاً وليس يرثني إلا ابنتي أفأصدق بثلي مالي ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك إن تركت وراثتك أخياه خير من أن تتركهم عائلة يكفون الناس » فيقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ مالك ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعلم بتأويل كتاب الله جل ثناؤه .

باب (إيا)

إيا - كلمة تخصيص : إذا قلت «إليك أردت» وكان الأصل «أردتك» فلما قدمت الكاف كما تقدم المفعول به في «ضربت زيداً» لم تستقم كاف وحدها مقدمة على فعل فوصل بها «إيا» .
وقد تكون «إيا» لتحذير كقوله :

فإيّاكم وحيّة بطن واد

هموز التاب ليس لكم بمسيء

باب (إذا)

تكون «إذا» شرطاً في وقت موقت . تقول «إذا خرجت جرحيت»

وزعم قوم أن « إذا » تكون لنواً وفضلاً وذكروا قوله جل ثناؤه
« إذا السماء انشقت » قالوا: تأويله « انشقت السماء » كما قال « اقتربت
البيعة » و « أنى أمر الله » . قالوا: وفي شعر العرب قوله :

حتى إذا أسلكوكم في قتلتكم

شلاً كما تطرد الجملة الشرذا

المعنى : حتى أسلكوكم .

وأنكر نلس هذا وقالوا : « إذا السماء انشقت » لما جواب مضمحل .
وقول القائل « حتى إذا أسلكوكم » جوابه قوله « شلاً » ، يقول
« أسلكوكم شلاً » ، وأصح أصحاب القول الأول بقول الشاعر :

فاذا وذلك لامتة لذكركه

والعمر يُعقب صالحاً بفساد

قالوا: المعنى « وذلك » .

وقال أصحاب القول الثاني : الواو مضمة ، المعنى « فلذا ذلك » . وقولهم
« إذا فعلت كذا » يكون على ثلاثة أضرب : ضرب يكون المأمور به قبل
الفعل فهو « إذا أتيت الباب فلبس أحسن لباس » ومنه قوله جل ثناؤه
« إذا قمم إلى الصلاة فاعسلوا » . وضرب يكون مع الفعل كقولك « إذا
قرأت فترسل » . وضرب يكون بعد الفعل نحو « إذا جلتهم فاصطادوا »
و « إذا نودي للصلاة فاسمعوا » .

باب (إذ)

إذ - تكون للصاخي فهو « أتذكر إذ فعلت كذا » ، فأما قوله جل

ثناؤه «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: ياليتنا «ذ» ترى «مستقبل
و «اذ» للماضي، وإنما كان كذا لأن الشيء كائن وإن لم يكن بعد، وذلك
عند الله جل ثناؤه قد كان، لأن عليه به سابق وقضاه به نافذ فهو كائن
لا محالة، والعرب قول مثل ذا وإن لم تعرف المواقب. قال:

ستنسم اذ يأتي عليك رحيلنا

بأرعن جرار كثير صولاه

وفعله جل ثناؤه «وإذ قال الله: يا عيسى «قال قوم: قال له ذلك لما
رفعه إليه. وقال آخرون: «إذ» و «إذا» بمعنى. كقوله جل ثناؤه «ولو
ترى إذ فزعوا» بمعنى «إذا». قال (أبو النجم):

ثم جزاه الله عنا إذ جرى

جنات عدن في العلا لي العلي

المنى «إذا جرى» لأنه لم يقع. ومثله قول (الأسود) (١):

الحافظ الناس في تمحيط إذا

لم يرسلوا تحت طائر ربما

وهبت الشمال الليل وإذا

بات كعب الفتاة ملصقا

قالوا: «إذا» و «إذ» بمعنى. قال:

ونلمان يزيد السكاس طيا

سقيت اذا تفورت النجوم

(١) قلت: الصواب أنه قول (أوس بن حجر) يرى (فتاة أبا دليلة) . وليس هو قول
(الأسود) .
الشعبي

و «إِذَا» - تكون بمعنى «حين» كقوله جل ثناؤه «وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» أي «حين تفيضون».

باب (إِذَا)

إِذَا - مجازاة على فعل يقول «أَنَا أَقُومُ» فتقول «إِذَا أَقُومُ مَعَكَ». هذا
هو الأصل. ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «فَإِنِّي إِذَا صَائِمٌ» أي
إِذَا لَمْ يَحْضُرِ الطَّعَامُ فَإِنِّي صَائِمٌ وقال الشاعر:

أَزْجُرُ حَارِي لَا يَرْتَعُ بَرُوضَتِي
إِذَا يَرِدُ وَقِيدَ الْمِيرِ مَكْرُوبُ.

باب (أَيُّ)

أَيُّ - تكون استفهاماً. تقول «أَيُّ الرَّجُلَيْنِ هَذَا؟».
وتكون للترجيح بين أمرين تقول «أَيُّمَا فَطِتْ فلي كذا» أي إن
فطت هذا وإن فطت هذا.

وتكون للتعجب نحو «أَيُّ رَجُلٍ زَيْدٌ؟».

باب (أَنَّى)

أَنَّى - بمعنى «كيف» كقوله جل ثناؤه «أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا أَفْه؟».
وتكون بمعنى «من أين» كقوله «أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟» أي من
أين. والأجود أن يقال في هذا أيضاً كيف. قال (الكُميت):

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبُكَ الطَّرْبُ
مِنْ حَيْثُ لَأَصْبَوَةٌ وَلَا رَيْبُ؟

فجاء بالمعنيين جميعاً.

باب (أَيْنَ) و (أَيْنَمَا)

أَيْنَ - تكون استفهاماً عن مكان . نحو « أين زيد؟ » .
وتكون شرطاً لمكان . نحو « أين لقيت زيدا فكلّمته » بمعنى في أي مكان .
فأما « أينما » - فأما يكون شرطاً لمكان . نحو « أينما تجلسن أجلسن »
ولا يكون استفهاماً .

باب (أَيَّانَ)

أَيَّانَ - بمعنى « متى » و « أيّ حين » . قال بعض العلماء : نرى أصلها
« أيّ أو ان » فحذفت الهمزة وحطت الـ كـامتان واحدة . قال الله جلّ ثناؤه
« أَيَّانَ يَأْتُونَ ؟ » أي متى و « أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ » أي متى .

باب (الآنَ)

يقولون : « الآن » حدّ الزمانين ، حدّ الماضي من آخره وحدّ المستقبل
من أوله . وكان (الفراء) يقول : بُني على الألف واللام لم يُخطأ منه وتُرى
على منذهب الصيغة لأنه صفة في المعنى واللفظ ، كما فعلوا في « الذي » و
« الذين » فتركوهما على منذهب الأداة ، والألف واللام غير مفارقين .
ومثله قوله :

فَإِنَّ الْإِلَّاهَ يَلْمِزُكَ مِنْهُمْ

كَلْبِي مَطْنُوكَ مَا دُمْتَ أَشْعَرَا

فأدخل الألف واللام على « أولاء » ثم تركها مخفوضة في موضع نصب
كما كانت قبل أن يخطأ الألف واللام . ومثله :

وإني حُيِّسْتُ اليومَ والامسِ قبله
 يابك حتى كادت الشمسُ تُقربُ
 فأدخل الألف واللام على «أمس» ثم تركه مخفوضاً على جهته الأولى.
 ومثله :

هَقًّا فوقه القلْعُ السَّوَارِي
 وجُنُّ النِّجَازِ بازٍ به جُنُونًا

وأصل «الآن» إنما كان «أوان» حذفت منها الألف وغيّرت واوها
 إلى الألف، كما قالوا في الراح «الرياح» أنشد الفرّاء أنشدني (أبو القمقام
 الأسدي) :

كَأَنَّ مَكَارِي الْحِوَاءِ عُذَّةٌ

نَشَاوَى تَسَاقَوْا بِالرِّيَاحِ الْمُثْقَلِ

فجعل «الرياح» و«الأوان» مرةً على جهة «فعل» ومرة على جهة
 «فعل» كما قالوا «زمن» و«زمان» وإن شئت جئت «الآن» من
 قولك «آن لك أن تفعل» أدخلت عليها الألف واللام ثم تركتها على منهب
 ففعل فأتى النصب من نصب «فعل» وهو وجه جيد. كما قالوا «نبي رسول
 الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قيل وقال» و«الآن» في كتاب الله
 جل ثناؤه «الآن وقد عصيت قبل» ، «الآن وقد كنتم به تستعجلون»
 أي في هذا الوقت وهذا الأوان توب وقد عصيت قبل.

قال (الزجاج) : «الآن» عند (الحليل) و(سيديويه) مبنية على الفتح
 تقول «نحن من الآن نصير إليك» ففتح. لأن الألف واللام إنما تسقط

لمهد، و«الآن» تمهد قبل هذا الوقت، فدخلت الألف واللام للإشارة إلى الوقت. والمعنى «نحن من هذا الوقت فعمل» فلما تَصَمَّنتُ معنى هذا وجب أن تكون موقوفة فتصحت للاتقاء الساكنين.

باب (إِمْأَلَا)

هما كلمتان «إِمْأَ» و«لَا» تقول «أخرج» فإذا امتنع قلت «إِمْأَ لَا فَهَكَكُم» أي «إن لم يكن منك خروج فليكن منك تكلم».
ف«إِمْأَ» شرط و«لَا» حجة. كأنك قلت «إن لَا».

باب (أَمَّا) و (إِمْأَا)

أَمَّا - كلمة اخبار لا بد في جوابها من «فأَمْ» . تقول «أَمَّا زَيْدٌ فَكَرِيمٌ» .
وإِمْأَا - تكون تحذيراً أو إباحة . نحو اشرب إِمَامِلَهُ وَإِمَامِلِنَا .
وقد تكون بمعنى الشرط ، والأكثر في جوابها نون التوكيد . نحو
«إِمْأَا تَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» و«قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ» وقد يكون بلا «نون» نحو قوله :

إِمَّا تُرِيدُنِي رَاسِي عَلَانِي أَشْمُهُ

ومما أولها (بَاء)

(بَلَى)

بَلَى - تكون إيجاباً لمنفي قبلها . يقال «أما خرج زيد؟» . فتقول «بَلَى» والمعنى آتيا «بل» و«صَلَّتْ بِهَا أَلْفٌ تَمْكُونُ دَلِيلًا عَلَى كَلَامٍ» . يقول القائل «أما خرج زيد؟» فتقول «بَلَى» ف«بل» رُجُوعٌ عَنْ جَحْدٍ و«الألف» دلالةٌ على كَلَامٍ ، كأنك قلت «بل خرج زيد» . وكذلك قوله جل

ثناؤه « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ » المعنى والله أعلم « بَلْ أَنتَ رَبُّنَا » .

(بَلَىٰ)

بَلَىٰ - إضرابٌ عن الأول وثابتٌ للثاني . واختطف فيه أهل العريّة .
فقال قوم : جائزٌ « مررت برجل بل حمارٍ » وقد يكون فيه الرفع أي « بل هو حمارٌ » .

والكوفيون لا ينسَوْنَ : « بَلَىٰ » إلا بمد نفي . قال (هشام) :
عَالٌ « ضَرَبْتُ أَخَاكَ بَلَىٰ أَبْلَاكَ » لأن الأول قد ثبت له الضرب .

والبصريون يقولون : لما كانت « بَلَىٰ » تقع للإضراب ، وكنا
نُضْرِبُ عن النفي وقت بمد الإيجاب كوقوعها بمد النفي . و « لا بَلَىٰ » مثلاً .

وقال قوم : يكون « بَلَىٰ » بمعنى « إِنَّ » في قوله جلّ ثناؤه « مَسْ .
والتَّوْرَانِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا - مَنَاهِ الَّذِينَ كَفَرُوا - فِي عِزَّةٍ » .
قَالُوا : وَذَلِكَ أَنَّ الْقَسَمَ لَا يَدُلُّهُ مِنْ جَوَابِ .

ويزعمُ ناسٌ أنها إذا جلت في الإثبات كانت استدراكاً . قول
« لَقِيتُ زَيْدًا بَلْ عَمْرًا » وهذا عند النلط .

(بَلَىٰ)

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يقول الله جلّ ثناؤه :
أَعَدَدْتُ لِبَاحِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ
عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، بَلَىٰ مَا أَطْلَعْتُهُمْ عَلَيْهِ » قالوا : معناه « سَوَى » و « دَعَا »
كأنه قال « سَوَى مَا أَطْلَعْتُهُمْ عَلَيْهِ » و « دَعَا مَا أَطْلَعْتُهُمْ » قال (أبو
زَيْد) :

تَمَثَّيَ الْقُطُوفُ إِذَا غَنَّى الْحَدَاةُ لَهَا
مَشَى النَّجِيَّةَ ، بَلَّةَ الْجِلَّةِ النَّجِيَّةَ

(يَد)

قالوا : « يد » بمعنى « غير » . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، يَدُ أَهْمُ أَوْتُوا الْكِتَابِ
مِنْ قَبْلُنَا وَآوَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَي « غير أَهْم » قال الشاعر :

عَمْدًا قَمَلْتُ ذَاكَ يَدُ أَتَيْ
إِخَالُ لَوْ هَلَكْتُ لَمْ تُرْنِي

(يَدْنَا) و (يَدِنَا)

هما لزمان غير مخلود . واشتقاقهما من قولنا « يَدِنِي وَيَدِنُهُ قِدُّ كَذَا »
فلذا قلنا « يَدِنَا نَحْنُ عِنْدَ زَيْدٍ أَمَّا فُلَانٌ » فالمنى « يَدِنُ أَنْ حَصَلْنَا عِنْدَ زَيْدٍ
وَيَدِنُ زَمَانٌ آخِرُ أَمَّا فُلَانٌ » قال :

قَدِينَا نَحْنُ زَرْقَةُ أَتَلْنَا
مُتَلَّقٍ شَكْوَةٍ وَزَنَادٍ رَاعٍ
(بَعْدُ)

يَتَلَّ عَلَى أَنْ يَغُفَّ ثَمِيًّا شَيْئًا . هَوَل : « جَاءَ زَيْدٌ بَعْدَ عَمْرٍو » ويقولون :
أَنَّهُ تَكُونُ بِمَعْنَى « مَعَ » قَالَ « هُوَ كَرِيمٌ وَهُوَ بَعْدَ هَذَا قَبِيهِ » أَي « مَعَ
هَذَا » وَيَأْتِي لَوْ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » عَلَى هَذَا ،
بِمَعْنَى « مَعَ ذَلِكَ » .

ومما أوله (تاء)

(تَمَالَ)

يقال: إنها أمرٌ أي «تَعَاَل» من «عَلَوْتُ. تَعَالَى. تَعَالَى» فإذا أمرت قلت «تَمَالَ» كما تقول «تَعَالَصَ» .
 قالوا: وكثرت في الكلام حتى صارت بمنزلة «هَلَمْ» حتى قال لمن هو في طَوْءِ تَمَالَ «وَأَمْتَ تَزِيدُ» «اهبط» .
 ولا يجوز أن تنتهي بها . وقد نُصِرَفَ فيقال «تَمَالَيْتُ» و «إلى أي شيء تَمَالَى؟» .

ومما أوله (ثاء)

(ثُمُ)

ثُمُ - يكون إثر أخيه الثاني عن الأول: «جاء زيد ثم عمرو» .
 وتكون «ثُم» بمعنى «واو المطف» قال الله جلّ ذكره «فَالَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ» أي وهو شهيد .
 وتكون بمعنى التعجب كقوله جل ثناؤه «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ» و«ثُمَّ» للذي كفروا بربههم يملكون ، وأنشد (قطرب) أن «ثُمَّ» بمعنى «الواو»:
 سألت ربيعة: مَنْ خَيْرُهَا
 أَبَا ثَمٍّ أَمْ أُمَّ؟ هَالَتْ: لَمَّةٌ؟

ومنه قوله جلّ ثناؤه «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» فأما قوله جلّ وعزّ «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» فقال قوم معناها «وصورناكم» وقال آخرون: المعنى «اجلدنا ما خلقكم» لأنه جلّ ثناؤه اجدا خلق آدم عليه السلام من

تُرَابٌ ، ثُمَّ صَوَّرَهُ . وَابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ لُطْفَةٍ ثُمَّ صَوَّرَهُ . قَالُوا :
 « ثُمَّ » عَلَى بَابِهَا . قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « يُوَلِّوْكُمْ الْأَبْطَارَ ثُمَّ لَا تُبْصَرُونَ » .
 وَزَعَمَ نَاسٌ أَنَّ « ثُمَّ » تَكُونُ زَائِلَةً . قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ
 الَّذِينَ خُلِقُوا ، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ - إِلَى قَوْلِهِ جَلَّ
 ثَنَاؤُهُ - ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » مَعْنَاهُ « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ تَابَ عَلَيْهِمْ »
 وَقَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا » وَقَدْ كُنَّ قَضَى الْأَجَلِ ،
 فَضَاءٌ « أَخْبِرْكُمْ أَنِّي خَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ » ثُمَّ أَخْبِرْكُمْ أَنِّي قَضَيْتُ الْأَجَلَ ،
 كَمَا يَقُولُ « كَلِمَتِكَ الْيَوْمَ ثُمَّ قَدْ كَلِمَتِكَ أَمْسٍ » أَيِ إِنِّي أَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ ثُمَّ
 أَخْبَرْتُكَ بِهَذَا .

وَهَذَا يَكُونُ فِي الْعَجَلِ ، فَأَمَّا فِي عَطْفِ الْأَسْمِ عَلَى الْأَسْمِ ، وَالْفِعْلِ
 عَلَى الْفِعْلِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَرْتَبًا أَحَدُهُمَا بَعْدَ الْآخَرِ .

(ثُمَّ)

و :

بِمَعْنَى « هُنَا لَكَ » قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعْمًا »
 وَقُرَأَتْ « إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ » أَيِ : هُنَا لَكَ اللَّهُ شَهِيدٌ .

وَمِمَّا أَوْلَاهُ (جِيم)

(جَبَر)

يَقُولُونَ : « جَبَر » بِمَعْنَى « حَقًّا » قَالَ (الْمُفَضَّلُ) : هِيَ خَفَضٌ أَبَدًا ،
 وَرَبِّمَا تَوَلَّوْهَا . وَأَنشَدَ الْمُفَضَّلُ :

أَلَا يَاطُلُ بِالْغَرَابِ لَيْلِي

وَمَا تَلْقَى بَنُو أَسَدٍ يَهْتَبُهُ

وَقَالَتْ: أَسَيْتَ. قُلْتَ: جَيْرٍ
 أَسِيٌّ إِنَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّهُ
 أَصَابَهُمُ الْحَمَاءُ وَهُمْ عَوَافٍ
 وَكُنْ عَلَيْهِمْ نَجَسًا لَعْنَةً
 فَجِئْتُ قُبُورَهُمْ بِنَا وَلَمَّا
 فَتَادَتْ الْقُبُورَ فَلَمْ يُجِبْنِي
 وَكَيْفَ تَحْيِيْبُ أَصْدَاءَهُمْ وَهَلُمَّ
 وَأَجْسَادُهُمْ يُبْرِنَ وَمَا تُحَرِّقُهُ
 الْحَمَاءُ: أَرَادَ الْحِمَامَ. وَيُزْنَ: طِينٌ فِي الْبُؤَادِرِ.

(لَا جَرَمَ)

قَالَ: «جَرَمَ» بِمَعْنَى «حَقَّ» قَالَ:
 وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عَيْنَةَ طَمَعَةً
 جَرَمَتْ قَرَارَةً بَعْدَهَا أَنْ يَقْضِبُوا
 وَذَكَرَ نَاسٌ أَنَّهَا بِمَعْنَى «لَا بَدَّ» وَ«لَا مَحَالَةَ».

وَأَصَحُّ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ أَنَّ «لَا» نَفِيٌّ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ يَنْفَعُهُمْ فِي قَوْلِهِ جَلَّ
 نَاوَهُ «لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِمَّنْ الْأَخْسَرُونَ» وَالْمَعْنَى «لَا» أَيْ «لَا
 يَنْفَعُهُمْ ظَنُّهُمْ» ثُمَّ يَقُولُ مُبْتَدَأًا «جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِمَّنْ الْأَخْسَرُونَ»
 أَيْ «كَسَبَهُمْ ذَلِكَ» وَ«حَقَّ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِمَّنْ الْأَخْسَرُونَ».
 قَالَ (ابْنُ قَتِيْبَةَ): وَلَيْسَ قَوْلُ مَنْ قَالَ «حَقَّ لِفَزَارَةِ النُّضْبِ» بِشَيْءٍ،
 وَالْأَمْرُ بِخِلَافِ مَا قَالَهُ، لِأَنَّ النَّبِيَّ يَحْصُلُ مِنَ السَّكْمَةِ مَا يُقْتَنَاهُ أَنَّهُ بِمَعْنَى

« حَقٌّ » فيكون على هذا « جَرَمَتْ فِزَارَةٌ بِمَدَّهَا أَنْ يَنْضَبُوا » المعنى « أَحَقَّتْ الطَّمَنَةُ لِفِزَارَةِ الْفَضْبِ ». ومنه قوله جل ثناؤه « وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكِتَابَ أَنْ لَهِمُ الْحَسَنَى - ثُمَّ قَالَ - لَا » وهو رَدُّ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ بِمَدَّهَا « جَرَمَ أَنْ لَهِمُ النَّارَ » أَي حَقٌّ وَكَسْبٌ .

ومما أوله (حاء)

(حَتَّى)

تكون للنفاية . قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ « هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » بِمَعْنَى « إِلَى » وَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ « حَتَّى يُلَاحِظَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ » .

وَتَكُونُ بِمَعْنَى « كَرِيٍّ » قَوْلُ « أَا كُلُّهُ حَتَّى يَرْضَى » أَي « كِي يَرْضَى » .
وَيَقُولُونَ : إِنَّمَا تَكُونُ بِمَعْنَى الْمَطْفِ ، قَوْلُ « قَلِيمَ الْجَيْشِ حَتَّى الْإِتْبَاعِ » .
وَمِنْهُبُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْفَ بِهَا حَتَّى يَكُونَ الثَّانِي مِنْ الْأَوَّلِ . قَالُوا : لَوْ قُلْتَ « كَلِمَتِ الْعَرَبِ حَتَّى الْعَجَمِ » لَمْ يَجُزْ . وَقَالَ (الْفَرَّاءُ) لَا يَجُوزُ « كَلِمَتِ أَخِيكَ حَتَّى أَبَاكَ » وَهُوَ مِثْلُ الْإِسْتِنَاءِ ، كَمَا لَا يَجُوزُ « كَلِمَتِ أَخِيكَ إِلَّا أَبَاكَ » .

وَأَجَازُ (الْفَرَّاءُ) « إِنَّهُ لَيُقَاتِلُ الرَّجُلَ حَتَّى الْفَرَسَانَ » وَ « أَنْ كُلِّي لِيَصِيدَ الْأَرَابَ حَتَّى الطَّيَّاءِ » خَفَضًا وَنَصْبًا ، قَالَ الْفَرَّاءُ : لِأَنَّ الطَّلَاءَ وَإِنْ كَانَتْ عَنَاقِلَةً لِلْأَرَابِ فَانْهَاهَا مِنَ الصَّيْدِ وَهِيَ أَرْضُ مِنْهَا .

وَقَالَ الْبَصْرِيُّونَ : هَذَا خَطَأٌ وَفِيهِ بَطْلَانُ الْبَابِ . قَالُوا : لِأَنَّ « حَتَّى » إِنَّمَا جُعِلَتْ لِمَا تَنْتَاهِي إِلَيْهِ الْأَشْيَاءُ مِنْ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا عَمَّا يَكُونُ مَتْنَاهَا فِي النَّايَةِ ، فَذَا قُلْتَ « ضَرَبْتُ الْقَوْمَ » جَزَأَ أَنْ يَوْمَ السَّمْعِ أَنْ زِيدَ لَمْ يَدْخُلْ

في الضرب ، إما لأنه أعلام أو لأنه أذنهم ، فعني «إلى» فيها قائم إذا كانت «إلى» منتهى القاية .

والكوفيون لا يجملون «حتى» حرف عطف ، إنما يربون ما بعدها بضمير.

(حلشا)

معناها الاستثناء ، واشتقاقها من «الحشا» وهي «الناحية» تقول «خرجوا حلشا زيدا» أي : إني أجعله في ناحية من لم يخرج ولا أجعله في جملة من خرج . قال الشاعر :

بأي الحشا أُنسى الخليلُ المبينُ ؟

ومن ذلك قولهم «لا أحشي بك أحدا» أي : لا أبصرك ولأنا في حشا واحد ، أي في ناحية واحدة بل أميزك عنه .

ومما أول (خاء)

(خلا) و (ما خلا)

أصلهما من قولنا «خلا البيت» و «خلا الاناء» إذا لم يكن فيه شيء . كذلك إذا قلنا «خرج الناس خلا زيدا» فأنما نريد : أنه خلا من الخروج ، أو خلا الخروج منه . وعلى هذا التأويل فالنصب فيه أحسن . ومنه قول العرب «اهمل كذا واخلاك خم» يريدون «عدك للذم» و «خلوت من الغم» .

ومما أول (راء)

(رُب)

يقولون : للتضليل ، وهي مبالغة في «كَمْ» التي للتكثير ، تقول «رُب

رجلٍ لَقِيْتُهُ .

وقال قوم : وَضَعْتُ لِنَذْرٍ شَيْءٍ مَاضٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ . قَالَ :

رُبَّ رَكَبٍ قَدْ آمَاخُوا حَوَانَا

يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ بِأَمَاءِ الزُّلَّالِ .

قَالُوا : وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاؤُهُ « رَبُّنَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ

كَانُوا مُسْلِمِينَ » .

(رُؤَيْدٌ)

قَالُوا : هُوَ تَصْنِيرُ « رُؤْدٍ » وَهُوَ الْمَهْلُ . قَالَ :

كَأَنَّهُمَا مِثْلٌ مِنْ عَشِيٍّ عَلَى رُؤْدٍ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فِي قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « أَمَلَهُمْ رُؤَيْدًا » أَيُّ قَلِيلًا .

(ذُو) وَ (ذَاتُ) ^(١)

ذو - يَدُلُّ عَلَى الْمَلِكِ . هَوَل « هُوَ ذُو الثَّوْبِ » .

وَقَدْ يَكُونُ فِي غَيْرِ الْمَلِكِ أَيْضًا ، بَلْ يَكُونُ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ نَحْوُ قَوْلِكَ

« هُوَ ذُو كَلَامٍ » وَ « ذُو عَارِضَةٍ » . فَمِنْ الْمَلِكِ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاؤُهُ « ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ » .

وَأَمَّا « ذَاتُ » - فَيَكُونُ فِي الْمُؤَنَّثِ كـ « ذَا » . وَتَكُونُ لَهَا مَعَانٍ أُخْرَى :

تَكُونُ كِنَايَةً عَنْ سَاعَةِ مِنْ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، كَقَوْلِكَ « ذَاتُ

يَوْمٍ » وَ « ذَاتُ عَشِيَّةٍ » .

وَتَكُونُ كِنَايَةً عَنِ الْحَالِ كَقَوْلِهِ :

وَأَهْلُ حَبَاءٍ صَالِحٍ ذَاتُ يَنْبَغٍ

قَدْ احْتَرَبُوا فِي عَاجِلٍ أَنَا آجِلُهُ

(١) يَكُونُ فِي الْأَصْلِ مَوْجِزًا مَأْوَلَةً « تَمَثَّلُ » عَلَى مَا أَوَّلَهُ هَوَلُهُ .

ومن هذا قوله جل ثناؤه « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » أي الحال يتكلم وأزملوا المشاجرة .

ومن الزمان قوله :

لَمَّا رَأَتْ أُرْقِي وَطُولَ تَقْلِي

ذَاتَ الْمَشَاءِ وَلَيْلِي الْمَوْصُولَا

وتكون للبنية قول « هو في ذاته صالح » أي : في بيته وخلفته .

وتكون للارادة والنية كقوله جل ثناؤه « وَاقْهَ عِلْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أراد السرائر . ومنه فيما ذكروا قوله :

مَطَّحْتُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدَيْمُهُمْ

قَوْمِي ، فَأَيَّرَجُونَ غَيْرَ الْمَوَاقِبِ (١)

قوله « ذَاتُ الْإِلَهِ » أي لإرادتهم الله بذكر اسمه .

(سَوْفَ)

تكون للتأخير والتنفيس والأناة .

(سَوَى)

تكون بمعنى « غير » وهما جيباً في معنى « بئس » وهي مقصورة مكسورة فإذا مُنْتُ فَتَحَ أَوَّلُهَا . قال :

تَبَاكَفُ عَنْ جَوِّ الْيَمَامَةِ مَا قَتِي

وَمَا عَدَلْتُ عَنْ أَهْلِهَا إِسْوَانِكَا .

أي : لعيرك . و « سَوَاءُ الْجَحِيمِ » وسطها ، في غير معنى الأول .

وقد جاء « سَوَى » أيضاً . قال الله جل ثناؤه « مَكَانًا سَوَى » .

(سِيَمَا)

أصلها « السِّي » وهو « المثل » . تقول « ولا سِيَمَا كذا » أي « ولا سواء » قال (امرؤ القيس) :

أَلَا رَبِّ يَوْمَ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ
وَلَا سِيَمَا يَوْمًا بِدَارَةِ جَلْجَلٍ

وأصله راجع إلى « السِّي » وهو المثل . يقولون « هما سيان » قال (الحطيئة) :

فَايَاكُمْ وَحِيَّةَ بَطْنٍ وَادٍ
هَمْزُ النَّابِ لَيْسَ لَكُمْ يَمِيَّ

وسمعت أبا الحسن المعروف بابن التريكة يقول ، سمعت (ثعلباً) يقول : « من قاله بغير اللفظ الذي قاله (امرؤ القيس) صدأ خطأ » .

(شَتَان)

أصلها من « شت » ومن « التَّشْت » وهو التفرق والتباعد ، تقول « شَتَان ما هما » أي : بئس ما بينهما ، وقال : هذا هو الأفصح ، وينشدون :

شَتَان ما بومي على كورِها
ويوم حِيَانٍ أَخِي جَائِرٍ .

وربما قالوا « شتان ما بينهما » وليس بالفصح .

(عَن)

يبدل على الانحطاط والنزول ، تقول « نَزَلَ عن الجبل » و « عن ظهر الدابة » و « أخذ العلم عن زيد » لأن المأخوذ عنه أعلا رتبة من الآخذ .

وتكون بمعنى «بمد» في قوله «لم تنتطق عن فضل» . ولها وجوه .
والأصل ما ذكرناه .

(عَلَى)

تكون للملأ ، تقول «هو على السطح» .
وتكون للزينة ، كما تقول «أنا على الحج العالم» .
وتكون للثبات على الأمر ، تقول «أنا على ما عرفتني به» .
وتكون للجلال ، مثل «زيد على عمرو» أي : مخالفة .
وهي - وإن ائتمنت - راجعة إلى أصل واحد .

(عَوْض)

عوض - زمان غير محدود ولا معلوم كنهه ، كما قلناه في «الحين»
و«الدهر» . قال (الأعشى) :

رضيحي لباني ثلثي أمه قاسما
بأسحيم داج عَوْض لا تفرق
ويقولون «لآتيك عوض المائتين» .

(عَاشَى)

للقرب والدنو ، قال الله جل ثناؤه «قل عَاشَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ» .
والأفصح أن يكون بعدا «أَنْ» ورُبَّما لم يكن . قال :

عسى فرج يأتي به الله إنه
له كل يوم في خلقته أمر

قال (الكسائي) : كل ما في القرآن من «عسى» على وجه الخبر فهو

مَوْحَدَ : « عسى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ » و « عسى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ »
و « عسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا » وَوَحَدَ عَلَى « عسى الْأَمْرُ أَنْ يَكُونَ كَذَا » .
وما كُنْ عَلَى الاستفهام فَانْه يُجْمَعُ كَقَوْلِهِ جَل وَعَز « فَهَلْ عَسَيْتُمْ » قَالَ
(أَبُو عَيْلَةَ) فِي قَوْلِهِ جَل ثَنَاؤُهُ « هَلْ عَسَيْتُمْ » : هَلْ عَدَوْتُمْ ذَلِكَ ، هَلْ
جُرُؤْتُمْ .

(غَيْرَ)

غَيْرَ — تَكُونُ اسْتِثْنَاءً ، وَهَوْمُ مَقَامِهَا « إِلَّا » ، قَوْلُ « خَرَجَ النَّاسُ
غَيْرَ زَيْدٍ » تَرِيدُ « إِلَّا زَيْدًا » .
أَوْ تَكُونُ حَالًا ، وَهَوْمُ مَقَامِهَا « لَا » قَوْلُ « فَمَلْتَ ذَلِكَ غَيْرَ خَافٍ
مِنْكَ » أَيْ « لَا خَافًا مِنْكَ » .

(فِي)

زَعَمُوا أَنَّ « فِي » لِلتَّضَمُّنِ ، قَوْلُ « الْمَالُ فِي الْكَيْسِ » و « الْمَاءُ فِي
الْجَرَّةِ » . وَيَقُولُونَ : إِنَّمَا تَكُونُ بِمَعْنَى « عَلَى » فِي قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ
« وَلَا صَلَبْتُكُمْ فِي جَدُّوعِ النَّخْلِ » .

وَلَهَا تَكُونُ بِمَعْنَى « مَعَ » فِي قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « فِي تِسْعِ آيَاتٍ » .
وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : إِنَّمَا قَالَ « وَلَا صَلَبْتُكُمْ فِي جَنُوعِ النَّخْلِ » لِأَنَّ
الْجَذْعَ لِلصَّلَابِ بِمِثَالَةِ الْقَبْرِ لِلْقَبُورِ فَلِذَلِكَ جَلَّزَ أَنْ يُقَالَ فِيهِ هَذَا . وَأَنْفَلُوا :

هُمْ صَلَبُوا النَّبِيَّ فِي جَذْعِ نَخْلَةٍ
فَلَا عَطَسَتْ شَيْئَانُ إِلَّا بِأَجْنَحَا

(قَدْ)

قَدْ - جواب لتوقع ، وهي قَيْضٌ « ما » التي ثَنِي ، وليس من الوجه الابتداء بها إلا أن تَكُون جواباً لتوقع ، وقوله جل وعزَّ « قد أظفح المؤمنون » على هذا للمعنى ، لأن القوم توقعوا علمَ حالهم عند الله تبارك اسمه قَبيلَ لهم « قد أظفح المؤمنون » والحقيقة ما ذكرناه .

(كَمْ)

موضوعه لكثير في مقابلة « رَبِّ » قول « كم رجل لقيت » .
وتكون استغناءً ، قول « كم مالك ؟ » .

وقال (القرَّاء) : نَرَى أن قول العرب « كم مالك ؟ » أنها « ما » ووصلت من أولها بكاف ، ثم ان الكلام كثير : « كم » حتى حُدِّثَت الألف من آخرها وسكنت ميمها ، كما قالوا « لِمَ قلتَ ذلك ؟ » ومعناه « لِمَ » و « لِمَا قلت » قال :

فَأَنَا الْأَسْوَدُ لِمَ اسْلَمْتِي

لِمُؤْمٍ طَارَ قَلْبٌ وَذَكَرَ ؟

وقيل لبعض العرب « مذكم هذا فلان ؟ » قال « كَمْذُ أَخْنَتَ فِي حديثك » فزيادة الكلف في « مَذْ » دليل على أن الكلف في « كم » زائدة .
وصاب (الزُّجَّاجُ) على (القرَّاء) قوله في « كم » ، وقال : لو كانت في الأصل « كما » وأسقطت الالف الاستغناء لتركت على فصحا ، كما تقول « بيم » و « عَم » و « قِيمَ أَنْت » .

والجواب عما قاله ما ذكره (أبو زكرياء) وهو كثرة الاستعمال .

وحجته ما ذكره في «لِمَ».

(كَيْفَ)

سؤال عن حال، قول «كَيْفَ أَنتَ؟» أي: بأي حال أَنتَ؟ وقال بعض أهل اللغة: لها ثلاثة أوجه:

أحدها - سؤال محض عن حال، قول «كَيْفَ زَيْدٌ؟»
والوجه الآخر - حال لا سؤال معه، كقولك «لَا كَرِمَاتَكَ كَيْفَ كُنْتَ؟» أي: على أي حال كنت.

والوجه الثالث - «كَيْفَ» بمعنى التعجب. وعلى هذين الوجهين يُفسَّر قوله «فَتُحِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ» قالوا: معناها «على أي حال قَدَّرَ» وتعجب أيضاً. ومن التعجب قوله جل ثناؤه «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ؟»

وقد يكون «كَيْفَ» بمعنى التثني. قال:

كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَمَا

لَا حَ فِي الرَّأْسِ مَشِيبٌ وَصَلَحٌ^(١)

ومنه قوله جل ثناؤه «كَيْفَ يَكُونُ لِلشَّارِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ؟» و«كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ؟»

وتكون توبيخاً، كقوله جل ثناؤه «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَبْلَى عَلَيْكُمْ إِلَٰهَاتُكُمْ؟»

(١) من نصيحة أئدها (سود بن أبي كامل البكري) واستلزمها (الفضل بن عيسى) وأولها:

بسطت راية الخيل لنا فوملت الخيل منها نالتم
تمرق تجلجول نلتنا وأنتما، كنهتم النسيم في أنفهم فطعم
مقلت بفضيب ناضر من أركاب طيب حتى نلتم

فأما قوله « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد » فهو تأكيد لما قلتم من خبر وتحقيق لما بعده ، على تأويل : ان الله لا يظلم محال خلة في الدنيا فكيف في الآخرة .

(كاذب)

قال (أبو عبيدة) : « كاذب » المقاربة في قوله جل ثناؤه « لم يكذب رايها » أي : لم ير . ولم يُقارب . ومن المقاربة قول (جرير) :

حيوا المقام وحيوا ساكن الدار
ما كنت تعرف إلا بعد إنكسر

ويقولون « كذا التمام يطير » .

فهذه المقاربة للشبه ولا يكون ، وبيت (جرير) يكون .

(كان)

يدل على المضي ، قول « كان له مال » .

وتكون بمعنى القنطرة ، كقوله جل ثناؤه « ما كان لكم أن تُنبئوا شجرها » أي : ما قدرتم .

وتكون بمعنى « صار » ، كقولك « إن كنت أبي فصلي » أي : إذا صرت أبي . وأنشد :

أجرت إليه حنة أرحمة
وقد كلز لون الليل مثل الأرنج

أي : صار .

وتكون بمعنى الهمزة كقوله جل ثناؤه « قل سبحان ربي هل كنت

إلا بشرًا؟ أي: هل أنا إلا بشر.
وتكون بمعنى: «يَنْبَغِي» قال الله جل ثناؤه: «قُلْ مَا يَكُونُ لَنَا» أي:
ما ينبغي لنا.

و«كَانَ» تكون زائدة، كقوله:
وَجِيرَانُ لَنَا - كَانُوا - كَرَامٌ^(١)
وفي كتاب الله جل ثناؤه: «قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا - كَانُوا - يَعْمَلُونَ» أي:
بما يعملون، لأنه قد كان عالمًا بما عملوه وهو إيمانهم به.

(كَأَيْنَ)
كَأَيْنَ - يكون بمعنى «كَمْ» قال الله جل ثناؤه: «وَكَأَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَمَتْ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا».
وفيها لفتان: «كَأَيْنَ» بالهمز والتشديد. و«كَأَيْنَ». وقد قرئ
بهما، قال الشاعر:

وَكَأَيْنَ أُرِيَا الْمَوْتَ مِنْ ذِي نَجْمَةٍ
إِذَا مَا لَزَدْنَا أَوْ أَصْرًا لَأَقَمَّ
وسمعت بعض أهل الرمية يقول: ما أعلم كلمة يشبُّ فيها التَّوَيْنُ خطأ
غير هذه.

(كَانَ)
كلمة تشبيه، قال قوم: هي «إِنْ» دخلت عليها كاف التشبيه ففتحت،
وقد تخفف قال الله جل ذكره: «كَانَ لِمَنْ دَخَلْنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ» إلا أنها إذا مُلِتْ

(١) عجز بيت من قصيدة أنشدتها (الفرزدق) - ومصدره:
لَكَيْفَ لَنَا مَوْتَ يَهْلُو قَوْمَ

في مثل هذا الموضع قُرِنَتْ بِهَا الْهَاءُ خَفِيفٌ «كَأَنَّهُ لَمْ يَنْعُثْ». وقالت (الخنساء) في التخصيف :

كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا جَمِي يَتَّقِي
إِذَا النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مِنْ عَزٍّ بَرٍّ^(١)
أَرَادَتْ : كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا .

(كَلَّا)

تَكُونُ رَدًّا وَرَدْعًا وَتَقْبَالُ لَدَعْوَى مُدْعٍ إِذَا قَالَ «لَقِيتُ زَيْدًا» قُلْتُ
«كَلَّا» .

وَبَعْدَ كَانَتْ صَلَّةَ لَيْمِينَ ، كَقَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ «كَلَّا وَالْقَمَرُ» . وَهِيَ -
وَإِنْ كَانَتْ صَلَّةَ لَيْمِينَ - رَاجِعَةٌ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ . قَالَ اللَّهُ جَلِ ثَنَاؤُهُ «كَلَّا
لَا تُطْعِمُهُ» فَهِيَ رَدْعٌ عَنْ طَلْعَةٍ مِنْ نَهَاءٍ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ . وَنُكْتَةٌ
بِأُجْمَلِ النَّفْيِ وَالنَّهْيِ .

وَزَعَمَ نَاسٌ أَنَّ أَوَّلَ «كَلَّا» : «كَلَّا» وَ«لَا» . قَالَ :

أَصَابَ خَصَاصَةً قَبْدًا كَلِيلًا

كَلَّا وَانْقَلَبَ سَائِرُهُ انْقِلَابًا^(٢)

(٢) مِنْ مَرَاتِبِهَا لِلْمَشْهُورَةِ . وَمَطْلَبُهَا :

مَرَّتْ بِهَا الْهَرَمُ نَهْشًا وَوَعَزًا وَأَوْجَهِي الْهَرَمَ قَرَعًا وَهَزًا

(٢) مِنْ خَصِيصَةِ انْقِلَابِهَا (فَوَالِغَةُ) فِي مَدْحِ (بِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ) فِي رِوَايَةٍ «وَانْقَلَبَ جَانِبُهُ»

وَمِنْهَا قَبْلُ :

أُمِّيَّةُ أَحْسَنَ التَّلَظُّفِ حَيْفَلُ وَمِثْلُهَا وَأَحْسَنُ قَدَالَا

تَرَكْتُ يَلْفُ لَيْبَا وَوَجَا كَقَرْنِ الْقَمْسِ أَفْقَ حِينَزَالَا

ثُمَّ يَأْتِي الْبَيْتُ الَّذِي ذَكَرَهُ (ابْنُ فَارِسٍ) وَمِنْهَا الْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِيهِ ذِكْرُ الْمُهْرَجِ :

حَسَّ النَّاسُ بِتَجَمُّونَ عَيْثَا فَكَلَّتْ تَصِيدُكَ اتَّجِبِي بِلَالَا

وهذا ليس بشيء. و «كَلَّا» كلمة موضوعة لما ذكرناه على صورتها في:
التثنية، وقد ذكرنا وجوه «كَلَّا» في كتاب أفرزناه.

فأما قبيض «كَلَّا» فقال بمض أعل العلم: إن «ذلك» و «هنا»
قيضان لا «لا». و «أن» كذلك قبيض «كَلَّا». قال: وقوله جل ثناؤه
«ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم» على معنى: ذلك كما قلنا وكما قبلنا. ومثله
«هذا وإن للطاغين لشر مآب» بمعنى: هذا كقلنا وإن للطاغين لشر مآب.
قال: ويدل على هذا المعنى دخول «الواو» بعد قوله «ذلك» و «هنا»
لأن ما بعد الواو يكون مذكراً وقام على ما قبله بها وإن كان مضمراً. وقال جل:
ثناؤه. وقال الذين كفروا لولا نزول عليه القرآن لجهنم واحدة. ثم قال -
كذلك، أي كذلك قبلناه وقمناه من التنزيل. ومثله في القرآن كثير.

(لَو) و (لَوْلَا)

لَو - تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، قول «لو حضر زيد لمحضرت»؛
فامتنع هذا لامتناع هذا.

وكان (الفراء) يقول: «لو» يقوم مقام «إن»، قال جل ذكره
«ولو كره الكافرون» بمعنى: وإن كره، ولولا أنها بمعنى «أن» لاقتضت
جواباً لأن «لو» لا بد لها من جواب ظاهر أو مضمر كقوله جل ثناؤه
«ولو زكنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلدسوهُ بأيديهم لقَالَ -» وإنما وُضِعَتْ
مقام «أن» لأن في كل واحد منهما معنى الشرط، كما يقال في الكلام
«لا كرتنك وإن جفوتني» و «لو جفوتني» و «لأعطينك وإن منعتني»
و «لو منعتني».

وأما «لولا» - فإنها تدل على امتناع الشيء لوجود غيره . يقول «لولا
زيد لضربتك ، فأنما امتنع من ضربه لأجل زيد .
وقد يكون «لولا» بمعنى «هلاً» كقوله جل ثناؤه «فلولا إذ
جاءهم بأسنا تضرعوا» أي «هلاً» . قال الشاعر :

تَمْنُونُ عَرَّ النَّيْبِ أَفْضَلُ مَجْدِكُمْ
بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلَا السَّكِيَّ الْمُقْتَمَا^(١)

أي «هلاً» .

وكذلك «لوما» ، كقوله جل ثناؤه «لوما تَأْتِينَا بِالْمَلَأْنِكِرِ» أي
«هلاً تَأْتِينَا» .

وأما «لولا» الاولى فكقوله جل ثناؤه «فلولا أنه كان من المسبحين
لَأَبَيْتُ فِي بَطْنِهِ» وقوله جل وعز «فلولا كانت قرية آمّنت» فلها وجهان :
أحدهما أن يكون بمعنى «هلاً» والوجه الآخر أن يكون بمعنى «لم» يقول :
«لم تكن قرية آمّنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس» ومثله «فلولا كن من
القرون من قبلكم أو لو بقيت يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ» بمعنى لم يكن .

(لم) و (لما)

لم - تنفي الفعل للمستقبل وتنقلُ منه إلى الماضي . نحو «لم يَهْمُ زيد»
تريد : ما قام زيد . فإن دخل عليها حرفُ جزاء لم تنقل معنى الاستقبال ،
يقول «إِنْ لَمْ تَهَمَّ» ولا يحسن السكوت عليها إلا إذا كانت جواباً لثبوت
كانَ قَاتِلًا قَالَ «قد خرج زيد» فقوله «لما» :

(١) البيت من شعر (جرم) .

و«لَمَّا» - لا تدخل إلا على مستقبل، تقول «جئت ولما يجيء زيد»
 بدلاً «فيكون بمعنى «لم» كقوله جل ثناؤه «بل لما ينقضوا عذاب»
 فأما «لَمَّا» التي للزمان فتكون للماضي، تقول «قصدتُك لَمَّا وَرَدَ
 فلان» :

(لَنْ)

لَنْ - تكون جواباً للمثبت أسراً في الاستقبال، يقول «سيقوم
 زيد» فتقول أنت «لَنْ يقوم»
 وحكي عن (الخليل) أن معناها «لا أن» بمعنى «ما هذا وت أن
 يكون كذا» .

(لَا)

لَا - حرف نَسَبِي يَنْفِي الفعلَ المُسْتَقْبَل، نحو «لا يخرج زيد»
 ونهى به نحو «لا تفعل» . ويكون بمعنى «لم» إذا دخلت على ماض كقوله
 جل ثناؤه «فلا صدق ولا صلى» أي : لم يصدق ولم يصل . وقال الشاعر :

وأي خميس لألفاً فأيها به
 وأسيفنا يقطرن من كبشه دما

وأنشدني أبي :

ان تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَاءَ
 وَأَيُّ عِبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا (١)

(١) كل حرب الجمالية يقولون عند ما يطوفون بالبيت :

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّنَا أَنَّهُ لَمْ يَغْفِرْ لَنَا

لَا تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَاءَ وَأَيُّ عِبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

والبيتان من نظم (أبي خراش غوثيد بن مرة الحمداني) نسبة إلى (مردد) وهو (عمرو بن

أي: أي عبد لك لم يَلْمَ بالذنب.

وكان (قطرب) يقول: إن العرب تُدخل «لا» تؤكد في الكلام كما يدخلون «ما» في مثل قوله جل ثناؤه «هَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» و«فِيمَا قَضَيْتُمْ» وكذلك «مَا مِنْكُمْ أَلَّا تَسْجُدَ» أي: مَا مِنْكُمْ أَنْ تَسْجُدَ. وكذلك «لَا أَقْسِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» المعنى: أَقْسِمُ. وقد يجوز في «لَا أَقْسِمُ» أَنْ يَكُونَ نَفْيَ بِهَا كَلَامًا نَقَدْتُ مِنْهُمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَا؛ ثُمَّ قَالَ: أَقْسِمُ. وَقَالَ (زُهَيْر) فِي «لَا»:

مُؤَدَّتُ الْمَجْدُ لَا يَنْتَالُ هَيْتُهُ

عَنِ الرَّيَاسَةِ لَا عِزٌّ وَلَا سَامٌ ^(١)

أي: لَا يَنْتَالُهَا عِزٌّ. وَقَالَ:

يَوْمَ جَدُّوْنَا لَا قَضَيْتُمْ أَبَاكُمْ

وَسَالَتُمُ الْخَيْلُ تَدْتِي نَحُورَهَا

يريد: قَضَيْتُمْ أَبَاكُمْ. وَحَكَى (قطرب): «ضَرَبْتُ لَازِيْدًا». وَقَالَ آخَرُ:

وَقَدْ حَدَا هُنَّ بِلَاغِي خُرُقٌ

وَقَالَ (الْبُزْجِي):

أَفْنُكَ لَا بَرْقَ كَانَ وَمِصْنَهُ

ظَلَبَ تَسْنَمَهُ ضَرَامُ مُتَجَبِّ

سَابِغَةُ بِنْتُ سَعِيدِ بْنِ هَلِيلٍ - قَالَ (السَّكْرِيُّ) فِي (أَشْأَلِ هَلِيلٍ) قَالَ (الْأَمْسِيُّ) أُخْبِرْنَا (ابْنَ أَبِي طَرِيقَةَ الْبُزْجِي) أَنَّ (أَبَا خَرَّاشَ) أَتَتْهُ هَلِيلَةُ الْيَمِينِ وَهُوَ يُسَمَّى بَيْتَ (الضُّفَا) وَ (الْمُرَّة) وَثَمَّ شَجَرٌ يُؤْمَدُ.

(١) مِنْ تَعْبِيدِهِ الَّتِي يَمْدَحُ بِهَا (مَرْمٍ بِنَ سَتْلٍ) وَمِطْلَقُهَا:

تَقَبَّ بِالْأَيْدِي الَّتِي لَمْ يَمْنَحْهَا لِقَضَائِهِمْ بَلَى وَغَيْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالْهَيْمُ

ومن الباب قوله جل ثناؤه «ثلاث يعلم أهل الكتاب» .
قال (أبو عبيدة) في قوله جل ثناؤه «غير المنضوب عليهم ولا الضالين»
قال: «لا» من حروف الزوائد لتسمي الكلام ، والمعنى الثاؤها . قال (الجاج):
في بئر - لا - حور سرى وما شعر
أي : بئر حور ، أي هلكة . وقال (أبو النجم):
فألوم البيض أن لا تسخر
يقول : فألوم من أن يسخرن . وقال (الشمخ):
أعائش مالا هلك^(١) - لا - أرام
يضيمون المحيط مع المضيع ؟
يريد : أراهم يضيمن السوام ، و «لا» إنما هي لنو . وقال :
وطحيفني في الهوان - لا - أجه
وللمو داعر دائب غير غافل
المعنى : يطحيفني في الهوان أجه . وفي القرآن « ما منكم أن - لا -
تسجد » أي : أن تسجد .

قال (أحمد بن فارس) : أما قوله إن «لا» في «ولا الضالين» زائدة
قد قيل فيه : إن «لا» إنما دخلت هاهنا مزية لتوهم متوهم أن الضالين
هم المنضوب عليهم ، والعرب تنتم بالواو ، يقولون « مررت بالظريف
والعاقل » فدخلت «لا» مزية لئلا توهم مؤلمة أن الضالين هم غير المنضوب
عليهم . وأما قوله في شعر (الشمخ) : إن «لا» زائدة في قوله « مالا هلك

(١) ورد في جوهرة القتي : شرح العالم للقرني الأديب الشيخ أحمد بن الأمين الشنيتلي
« مالا هلك » .

لا أراهم ، فظنط من (أبي عبيدة) لأنه ظن أنه أنكر عليهم فساد المال ،
وليس الأمر كما ظن ، وذلك أن « الشماخ » احتج على امرأته بضيق أهلها
أنهم لا يضيعون المال . وذلك أن امرأة الشماخ وهي (عائشة) قالت للشماخ :
لم تشدد على نفسك في العيش حتى تلزم الابل وتغرب فيها ؟ فهوّن عليك .
فردّ على امرأته فقال : مالي أرى أهلك يمهّدون أموالهم ولا يضيعونها ، بل
يصلحونها ، وأنت تأمريني بإضاعة المال ؟ فقال :

أعائشَ مالا هلك لا أراهم
يُضيعون المِجانَّ مع المُضِيع ؟
وكيف يُضِيع صاحبُ مدقات
على أثابِاجهن من الصقيع ؟
كألُ المرءِ يصلحه فيني
مفارقةُ أعف من القُوع

و « لا » تنفي الاسم المنكور ، نحو « لا رجل عندك » .
(لات)

اختلف الناس فيها : فمنهم من زعم أن « التاء » متصلة بـ « لا » وأنها
بمنزلة « ليس » على تأويل « وليس حين مناص » نصب « حين » خبر
« ليس » وقال (الأفوه) ^(١) وجعل « لات » بمعنى « حين » :

(١) هو (صلاة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منه بن أود بن صعب
ابن سعد الشيرازي) وقب بالافوه لانه كان غليظ الشفتين نظير الاسفل . كان سيد قومه زمن
قد له شمراء الجاهلية وكانوا يصعدون عن رأيه والرب تده من حكمائها وهو الحاكم .
لا يصلح الناس فوضى لاسرلة لهم ولا سرلة اذا جاءهم مادوا
تهدا الامور بأهل رأى ما صلحت قال تركت فبالاشرار : فقاد

ولایت قدي يستشهد به ابن فارس من قصيدة لهذا الشاعر البرقي وهي من جيد شعر العرب وقد

وإذا جوزت فرضاً فاجزه :

إنما يحزى الفتى ليس الجمل :

والبصريون يقولون : لا يجوز المطف « ليس » ، وهي لا تشبه
من حروف المطف شيئاً . ألا ترى أنه يتدأ بها ويضم فيها ، وروى (سيبويه)
هذا البيت :

إنما يحزى الفتى غير الجمل

قالوا : وخطأ « رأيت زيدا ليس عمرا » لأنه لا يكون على تقدير
فعل بلا فاعل ، وكان (الكسائي) يقول : أجريت « ليس » في النسق
يجري « لا » .

(لَمَلٌ)

لَمَلٌ - تكون استفهاماً وشكاً . وتكون بمعنى « خَلِقَ » .
وحكي عن (الكسائي) أن « لَمَلُما » تأتي بمعنى « كأنما » وأثما . وأنكر
(الفراء) هذا ، قال : لأن « أئما » معبرة عن « أن » ، ولا يجوز أن تسقط
« ما » منها أبداً .

وأهل البصرة يقولون : « لَمَلٌ » ترج . وبعضهم يقول : توقع .
وتكون « لَمَلٌ » بمعنى « عسى » . وتكون بمعنى « كي » . قال الله
جل ثناؤه « وأنهارا وسبلاً لَمَلَكُم تَهْتَلُونَ » يريد : لكي تهتلوا .

(لَكِنَّ)

قال قوم : هي كلمة استلراك تتضمن ثلاثة معان : منها « لا » وهي
نفي و « الكاف » بعدها مخاطبة و « النون » بعد الكاف بمنزلة « إن »
الخفيفة أو الثقيلة ، إلا أن الهمزة حذفت منها استقلالاً لإجماع ثلاثة معانٍ

في كلمة واحدة ، فلا تنفي خبراً متديماً وإن ثبت خبراً متأخراً ، ولذلك لا تكاد تنجيء إلا بعد فني وجسد ، مثل قوله جل ثناؤه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ومما يدل على أن النون في « لكن » بمنزلة « إن » خفيفة أو هيلة أنك إذا حملت النون نصبت بها وإذا خففتها رفست بها .

(ملن) و (منل)

هما ابتداء غاية في زمان . نحو « مد اليوم » و « مد الساعة » .

(ما)

أصل « ما » أنها تكون لنير الناس تقول « ما مر بك من الأبل » . فأما قوله جل ثناؤه « وما خلق الذكّر والأنثى » فقال (أبو عبيدة) : معناها « ومن خلق الذكّر والأنثى » . وكذلك « والسماء وما بناها » أي « ومن بناها » وكذلك « ونفس وما سواها » . قال : وأهل مكة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد « سبحان ما سبحت له » وبعضهم يقرأ « وما خلق الذكّر والأنثى » أي : وخلق الذكّر والأنثى .

و « ما » تكون صلة ، كقوله جل ثناؤه « قليلاً ما تذكرون » المعنى : قليلاً تذكرون . ولو كانت اسماً لارتفع قلت « قليل ما تذكرون » أي : قليل تذكركم .

و « ما » تكون للتخميم ، كقوله جل ثناؤه « الحاقة ما الحاقة » . ومنه :

بأنت لتحرّتنا غارة

يا جراتاً ما أنت جرة

وذكر بعضهم أن « ما » هذه هي التي تذكر في التعجب إذا قلنا

« ما أحسن زيدا » .

وقد تكون « ما » مُضَمَّةً ، كقوله جل ثناؤه « وإِذَا رَأَيْتَ نَفْسًا رَأَتْ مَا يُنْفَخُ مِنْهَا مِنْ دَمٍ مَّيِّتٍ » . وكما قال « هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » أي : ما بيني . و « لقد قَطَعْتَ بَيْنَكُمْ » أي : ما بينكم . فإذا قلت « يَنْفُكُم » فمناه : وصلكم . وتكون للنفي ، نحو « ما فُعلت » .

وتكون للاستفهام ، نحو « ما عندك ؟ » . وزعم ناس في قولهم « قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى » أن « ما » للنفي . وأنشدوا قول (الشمّاخ) :

أَعْدَوْا الْقَمْعَى قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى

ولم تدرِ ما خُبِرِي ، ولم أدرِ مالها ^(١)

يقول : فخرت هذه المرأة مني مثل ما فخرت أتان من عير من قبل أن يلوها ويعود إليها . وما جرى ، أي : لم يجر إليها .

(مِنْ)

يُسَمِّيها أهل العربية « ابتداء غاية » . وتكون للجنس ، نحو « خاتم من حديد » .

وتكون للتمييز ، نحو « أكلت من الرغيف » .

وتكون رفعا للجنس نحو « ما جاءني من رجل » .

وتكون صلةً ، نحو قوله جل ثناؤه « مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » و « نَكَّرَ

(١) كان الشمّاخ قد خرج امرأة من (سليم) فدعت الله ضربها وكسر يدها . فشكاه قومها إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فأمر مائة عليه ، فأمر عثمان كثير من الصلوات أن يستمعوه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل . فقال الشمّاخ في ذلك القصيدة التي منها هذا البيت : ويروي « القيس » بالياء « القيسى » بها وبالفاء « مايلي » بدل « ماخبري » . ومطلها : ألا أصبحت عربي من البيت جاها على غير شيء ، أي أمر بدالها ؟

عنكم من سيئاتكم .

وتكون نجسًا ، نحو « ما أت من رجل » و « حبك من رجل » .
وتكون بمعنى « على » ، قال الله جل ذكره « ونصرناه من القوم » .
وكان (أبو عبيدة) يقول في قوله جل وعز « من يعمل من الصالحات :
ان « من » صلة . قال (أبو ذؤيب) :

جَزَيْتُكَ ضِفَ الْوُدِّ لَمَّا أَرَدْتَهُ

وما إن جزاك الضيف من أحد قبلي

وقال غيره : لا تزد من أمر واجب ، يقال « ما عندي من شيء » وما
عنده من خير ، و « هل عندك من طعام ؟ » . فإذا كان واجباً لم يحسن شيء
من هذا : لا تقول « عندك من خير » .

(من)

اسم لمن يعمل . قول « لَقِيتُ مَنْ لَقِيتَ » و « مَنْ مَرَّ بِكَ ؟ » في
الاستفهام . وهو يكون في الواحد والاثني والجميع . ويخرج الفعل منه
على لفظ الواحد والمعنى ثنية أو جمع . قال :

تَمَال ، فَإِنْ مَاهَدْتَنِي لَا تَخُونِي

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَلْزِمُ يَصْطَحِبَانِ (١)

وكذلك يكون في المؤنث . قال الله جل ذكره « وَمَنْ يَنْتُ مِنْكُمْ » .

(١) البيت من قصيدة خاطب (الفرزدق) بها ذبا وقد أجزه يهش شاة له مملوكة فقطع
الفرزدق رجل الشاة دوى بها ثيه فأخضا رتحي ، ثم عاد ، فقطع الفرزدق اليد دوى بها إليه .
فيروي الشعر الأول من هذا البيت « تش » ، فن واقتني لا تخونني ، أما أول القصيدة فنزله :
وأطلس عيال وما كلن صاحباً دعوت يباري موهماً فأنتلي
فما دأقت : أهن دوتك أتي وإليك في رادي لشركن
لبت أسوي فراديني ويهينه على شوه ثار مرة ودخان

و « من » تُضَمَّر . قال الله جل ثناؤه « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به » المعنى : إلا من . ومثله « وما مِنَّا إلا لمقام » أي : إلا من .

(مما) و (مهما)

مَّة - زجرٌ وإسكاتٌ وأمرٌ بالتوقف عما يريد المريد ، كأنَّ قائلًا يريد الكلام بشيءٍ أو فاعلاً يريد فعلاً فيقال لهما « مَّة » أي : قِف ولا تفعل . وهذا مشهور في كلام العرب . قال :

مَّة مَالِي اللَّيْلَة ، مَّة مَالِيَّة

يلراعي ذَوْدِي وَأَجَالِيَّة

ويكون هذا على أن أمرًا تَهْدَم ، فردَّ عليه القائل فقال « مَّة » ثم مرَّ في كلام نفسه . و « مَمَّهَا » - بمنزلة « ما » في الشرط . قال الله جل ثناؤه « وقالوا : مهما تأتنا به من آية » ويقال : لَمَّهَا « ما » أدخلت عليها « ما » قالوا : تكون أحدهما كالصلة كقوله جل ثناؤه « أياماً تدعو » فغير اللفظ .

(متى)

مَتَى - سؤالٌ عن وقت . تقول « متى يخرج زيد » .
و « متى » يكون شرطاً يقتضي التكرار . تقول « متى كلمتُ زيداً أُفعل كذا » سمعت علياً يقول : سمعت نبطاً يقول ذلك .
فأما « متى » التي في لُغَة (هُذَيْل) فليست من هذا ، لأنهم يقولون « وضعتُه متى كُتِبِي » يريدون : الوَسْطَ وينشدون :
شَرِينٌ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَصْمَنْتِ
مَتَى لَجُجٍ خَضِرٍ لَهْنٌ تَلِيحُ

قالوا : معناه من اِجج . وقالوا : بمعنى وَسَط .

(نَعَمْ) و (نَعَمْ)

« نَعَمْ » - عِدَّة تصديق . و « نَعَمْ » - كلمة تنبيء عن المحاسن كلها .

(هَلَمْ)

قالوا : معناها « نَمَالَ » . وكان (الفراء) يقول : أصلها « هل » ضمَّ إليها « ام » ، وتأويل ذلك أن يقال « هل لك في كذا ، أم » ، أي : اقتصروا نَمَالَ . وكان (الفراء) يقول : معنى « اللهم » يا الله أمتنا بخير . فكثرت في الكلام واختلطت وتركت الهمزة .

(ها)

قالوا : معناها « خذْ . تناولْ » ، قول « ها يا رجل » . ويؤمر بها ولا يُنهى بها . وفي كتاب الله جل ثناؤه « هاؤمُ اقرؤا كتابيه » .

(هَاتِ)

بمعنى « أعطِ » على لفظ « رَام » و « عَاطِ » . قال الله جل ثناؤه « قل هاؤوا يربها نكم » قال (الفراء) : ولم يُسمع في الاثنين ، إنما يقال للواحد والجمع . ويقولون : أنا هَاتِيك ، وليس من كلامهم هَاتَيْتُ ، ولا يُنهى بها . وبلغني أن رجلاً قال لآخر : هَاتِ . فقال : لا هَاتِيك ولا أُوَاتِيك .

(وَيَكُنَّ)

اختص أهل العلم فيها . فقال (أبو زيد) : معنى « وَيَكُنَّ » أَلَمْ تَرَ . وأنشد :

أَلَا وَيَكُ الْمَرْءُ لَا تَدُومُ

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْقَبْرِ النَّمِيمُ

وأنشد (أبو عبيدة) :

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَنِي قَلَّ مَالِي . قَدْ جِئْتَنِي بِشُكْرِ
وَيَكُنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُخْبِرُ بِسَبَبٍ وَمَنْ يَفْتَرِ عَيْشَ ضَرٍّ
وَحَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ فَرْجٍ عَنْ سُلَيْمَةَ عَنْ (الفراء) قَالَ :
هُوَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَقْرِيرٌ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : «أَمَّا تَرَى إِلَى صَنِيعِ اللَّهِ» .
وَحَكَى (الفراء) عَنْ شَيْخٍ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ قَالَ : سَمِعْتُ أَعْصَرِيَةَ تَقُولُ
لِزَوْجِهَا : أَيْنَ ابْنُكَ ؟ فَقَالَ زَوْجُهَا : وَيَكُنَّاهُ وَرَاءَ الْبَابِ . مَعْنَاهُ : أَمَّا تَرَى
وَرَاءَ الْبَابِ ؟

قَالَ (الفراء) وَيَذْهَبُ بِهَا بَعْضُ النُّحَوِيِّينَ إِلَى أَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ ، يُرِيدُ
«وَيْكَ» . إِنَّمَا أَرَادَ «وَيْلَكَ» حَذَفَ اللَّامَ وَجُعِلَ «أَنْ» مَفْتُوحَةٌ
بِفِعْلِ مُضْمَرٍ كَأَنَّهُ قَالَ : وَيْلَكَ اعْلَمْ أَنَّ . وَقَالَ : إِنَّمَا حَذَفُوا اللَّامَ مِنْ «وَيْلَكَ»
حَتَّى صَارَتْ «وَيْكَ» ، فَهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ ذَلِكَ لِكَثْرَتِهَا فِي الْكَلَامِ
وَاسْتِمْلَالِ الْعَرَبِ إِذَا هَا . قَالَ (عترة) :

وَلَقَدْ شَقِيَ قَسِي وَأَبْرَأَ سَقَمَهَا

قِيلَ الْفُؤُلُوسُ وَيْلَكَ عَنَّا أَقْلِيمَ

وَقَالَ آخَرُونَ : وَيْلَكَ «وَيْ» مُفَصَّلَةٌ مِنْ «كَأَنَّ» كَقَوْلِكَ
لِلرَّجُلِ : أَمَّا تَرَى بَيْنَ يَدَيْكَ . فَقَالَ «وَيْ» ثُمَّ اسْتَأْذَنَ «كَأَنَّ» اللَّهُ ،
و«كَأَنَّ» فِي مَعْنَى الظَّنِّ وَالْمَلَمَ . وَفِيهَا مَعْنَى تَعَجُّبٍ . قَالَ : وَهَذَا
وَجْهٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَمْ تَكْتُبِهَا الْعَرَبُ مُفَصَّلَةً . وَيجوزُ أَنْ يَكُونَ كَثْرَتُهَا
الْكَلَامَ فَوُصِّلَتْ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ ، كَمَا اجْتَمَعَتْ الْعَرَبُ عَلَى كِتَابِ «يَا بُنُومُ»
فَوُصِّلَتْ لِكَثْرَتِهَا .

(أُولَى)

سمعت (أبا القاسم علي بن أبي خالد) يقول سمعت (ثعلباً) يقول
« أُولَى لَهُ » أي : دَانَاهُ الْهَلَاكُ . وَأَصْحَابُنَا يَقُولُونَ « أُولَى » تَهْدُتُ وَوَعِيدُ .
وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ . وَأَنْشِدُوا :

أَلْقَيْنَا عَيْنَكَ عِنْدَ الْعَقَا

أُولَى فَأُولَى لَكَ ذَا وَقِيَّة

وَقَالَ قَوْمٌ — وَأَنَا أَبْرَأُ مِنْ عَهْدِهِ — : إِنْ « أُولَى » مَأْخُوذٌ مِنْ
« الْوَيْلِ » . وَكَانَ لِلْوَيْلِ فِعْلٌ وَتَصْرِيفٌ دَرَجٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا « الْوَيْلُ »
قَطُّ . قَالَ (جَرِيرٌ) :

يَتَمَنَّيَنَّ بِالْأَبَادِ وَيَلَا وَأَتَلَا

فَقَوْلُهُ « أُولَى » : « أَفْعَلُ » مِنَ الْوَيْلِ ، إِلَّا أَنْ فِيهِ التَّلَبُّ .

وَقَالَ قَوْمٌ « أُولَى » : دَانَاهُ الْهَلَاكُ فَلْيَحْتَرِ . قَالَ :

أُولَى لَكُمْ ثُمَّ أُولَى أَنْ تُصِيدَكُمْ

مِنْ نَوَاقِرُ لَا تَبْقَى وَلَا تَنْزُرُ

(يَا)

تَكُونُ لِلنَّدَاءِ ، نَحْوُ : « يَا زَيْدُ » . وَلِلدُّعَاءِ ، نَحْوُ « يَا قُدُّوسُ » . وَتَكُونُ
لِلتَّعَجُّبِ ، كَقَوْلِهِ « يَا لَهْ فَارَسًا » . وَفِي التَّعَجُّبِ مِنَ الذَّمِّ ، « يَا لَهْ جَاهِلًا »
قَالَ فِي الْمَدْحِ أَنْشَدَ فِيهِ (الْقَطَّانُ) عَنْ (ثَعْلَبٍ) :

يَا فَارَسًا مَا أَبُو أَوْفَى إِذَا سُئِلَتْ

كَلِمَاتُ الْبَدِينِ كَرُّوْا غَيْرَ قَارِي

وفي النعم قول الآخر :

أبو حازم جاز لها وابن برثن

فيا لك جاري ذلة وصغار

و « يا » للتلهف والتأسف نحو قوله جل ثناؤه « يا حسرة على العباد » .
ويكون تنبيها كقوله :

يلشاعر ألا شاعر اليوم مثله

جرير ولكن في كليب تواضع

وعلى هذا يتأول قوله جل ثناؤه « ألا يسجدوا » وقد ذكرناه .

و « يا » تكون للتلذذ نحو قوله :

يا بردها على الفؤاد لو يعف

باب معاني الكلام

وهي عند بعض أهل العلم عشرة : خبرٌ . واستخبر . وامر . ونهي .
ودُعاء . وتطلب . وعرض . ومخضض . وتَمَنَّى . وتَعَجَّبُ .

فهذا : (باب الخبر)

أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلَامٌ . تقول :
« أَخْبَرْتُهُ . أَخْبِرُهُ » والخبر هو العلم .

وأهل النظر يقولون : الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه . وهو .
إفادة المخاطب أمراً في ماضٍ من زمان أو مستقبل أو دائم . نحو « قام زيد »
و « يقوم زيد » و « قام زيد » . ثم يكون واجبا وجائزا وممتنا . فالواجب
قولنا « النار مُحَرَقَةٌ » . والجائز قولنا « لقي زيد عمراً » . والممتع قولنا
« حلت الليل » .

والمعاني التي يحتملها لفظ « الخبر » كثيرة : فمنها (التمجيد) نحو « ما
أحسن زيدا » . و (التمني) نحو « وددت أنك عندنا » . و (الإنكار) : « ما له
عليّ حق » . و (النفي) : « لا بأس عليك » . و (الأمر) نحو قوله جلّ
ثناؤه « والمطلقات يتربصن » . و (النهي) نحو قوله « لا يمسّه إلا الطهرون » .
و (التعظيم) نحو « سبحان الله » . و (اللدعاء) نحو « عفا الله عنه » .
و (الوعد) نحو قوله جلّ وعزّ « سنريهم آياتنا في الآفاق » . و (الوعيد)
نحو قوله « وسيعلم الذين ظلموا » . و (الإنكار والتبكي) نحو قوله جلّ
ثناؤه « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وربما كان اللفظ خبراً والمخي شرطاً وجزاء ، نحو قوله « إنا نكشفو

العذاب قليلاً إنكم عائدون » فظاهره خبر ، والمعنى : إنّا إنْ نكشفت عنكم العذاب تمودوا . ومثله « الطلاق » رتان « المعنى : مَنْ طلق امرأته مرتين فليُنكِحها بعدها بمعروف أو يسرّحها بإحسان .

واللهي ذكرناه في قوله جل ثناؤه « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » فهو تبيكيت وقد جاء في الشعر مثله . قال شاعر يهجو جريراً :

أُبلغْ جريراً وأبلغْ مَنْ يُبْلَغُ

أني الأغرُّ وأني زهرةُ اليمَنِ

فقال (جريرٌ) مبكّئاً له :

ألم تكن في دُؤْمُومٍ قد وَسَّتَ بها

من حَانَ موعظةُ يَازَهْرَةَ اليمَنِ ؟

ويكون اللفظ خبراً ، والمعنى دعاء وطلب وقد مرّ في الجملة . ونحوه

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » منناه : فَأَعْتَا عَلَى عِبَادَتِكَ . وقول القائل

« استغفر الله » والمعنى : اغثِرْ . قال الله جلّ ثناؤه « لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ

يُغْفِرُ اللهَ لَكُمْ » ويقول الشاعر :

استغفرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ

ربُّ العبادِ إليه الِوَجْهُ وَالْعَمَلُ

(باب الاستخبار)

الاستخبارُ - طلبُ خبرٍ ما ليس عند المستخبر ، وهو الاستفهام .

وذكرنا أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق . قالوا : وذلك

أن أولى الحالين الاستخبار لأنك تستخبر فتجابُ بشيء ، فربّما فهمته وربّما

لم فهمه ، فإذا سألت ثابته فأت مستخبرهم تقول : أفهمني ماقلت لي . قالوا :
والدليل على ذلك أن الباري جل ثناؤه يوصف بالخبر ولا يوصف بالثهم .
وجلة لب الاستخبار أن يكون ظاهره موافقاً لباطنه كسؤالك عما لا
تعلمه ، فتقول « ما عندك ؟ » و « من رأيت ؟ » .

ويكون استخباراً ، في اللفظ ، والمعنى تجب . نحو « ما أصحاب
اليمين » . وقد يسمى هذا تخبيراً . ومنه قوله « ماذا يستجبل منه المجرمون »
تخيم للعذاب الذي يستجبلونه .

ويكون استخباراً والمعنى تويخ . نحو « أذهبتم طياتكم » . ومنه قوله :
أغررتني وزعمت أنك لا ين بالصيف تأمر ؟
ويكون اللفظ استخباراً ، والمعنى تهيج . نحو « ما لهذا الكتاب
لا ينادر صغيرة ولا كبيرة » .

ويكون استخباراً ، والمعنى تبيكت نحو « آتت قلت للناس » تبيكت
للنصارى فيما ادعوه .

ويكون استخباراً ، والمعنى تقرير . نحو قوله جل ثناؤه « ألسن ربكم » .
ويكون استخباراً ، والمعنى تسوية . نحو « سواء عليهم أن نلتهم أم
لم نذرهم » .

ويكون استخباراً ، والمعنى استرشاد . نحو « أتجمل فيهم من رؤسديها » .
ويكون استخباراً ، والمعنى انكسار نحو « أقولون على الله مالا تعلمون » .
ومنه قول القائل :

وقول عزة قد ملكت . قل لها :
أعجل شي هه فأمليها ..

وَيَكُونُ اللَّفْظُ اسْتِخْبَارًا ، وَالْمَعْنَى عَرْضٌ . كَقَوْلِكَ « أَلَا تَنْزِلُ » .
 وَيَكُونُ اسْتِخْبَارًا ، وَالْمَعْنَى تَحْصِيصٌ . نَحْوُ قَوْلِكَ « هَلْ آخِرَ مَنْ ذَلِكَ » . وَ:
 نَبِيٌّ ضَوْطَرَى لَوْلَا الْكِبَى الْمُقْنَمَا
 وَيَكُونُ اسْتِخْبَارًا وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِفْهَامُ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَمَا تِلْكَ
 بِمِثْنِكَ » قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ لَهَا أَمْرًا قَدْ خَفِيَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَعْلَمَهُ مِنْ
 حَالِهَا مَا لَمْ يَعْلَمْهُ .

وَيَكُونُ اسْتِخْبَارًا ، وَالْمَعْنَى تَكْثِيرٌ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا » وَ « كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ » . وَمِثْلُهُ :

كَمْ مِنْ دَنِيٍّ لَهَا قَدْ صِرَتْ تَابِعَهُ
 وَلَوْ صَحَّ الْقَلْبُ عَنْهَا كَانَ لِي تَبَمَا

وَقَالَ آخَرُ :

وَكَمْ مِنْ غَالِطٍ مِنْ دُونِ سُلَيْمٍ
 قَلِيلِ الْأَنْسِ لَيْسَ بِهِ كَتِيعٌ

وَيَكُونُ اسْتِخْبَارًا ، وَالْمَعْنَى نَفْيٌ قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « فَن يَهْدِي مَنْ
 أَضَلَّ اللَّهُ » فَظَاهِرُهُ اسْتِخْبَارٌ وَالْمَعْنَى : لَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ اللَّهُ . وَالِدَلِيلِ عَلَى
 ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْمَطَفِ عَلَيْهِ « وَمَا لَهُمْ مِنْ مُصْرَبِينَ » . وَمِمَّا جَاءَ فِي الشَّعْرِ مِنْهُ
 قَوْلُ (الْفَرَزْدَقِ) :

أَيْنَ الَّذِينَ بِهِمْ تُسَابِي دَارِمًا
 أَمْ مَنْ إِلَى سَلَمِي طَبِيعَةٌ تَجُفَلُ ؟

وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « أَطَأْتَ تَعْدُ مَنْ فِي النَّارِ » أَيِ لَسْتَ مَتَقَدِّمٌ .
 وَقَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ اسْتِخْبَارًا ، وَالْمَعْنَى إِخْبَارٌ وَتَحْقِيقٌ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلَّ

ثناؤه « هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر » قالوا معناه : قد أتى .
ويكون بلفظ الاستفهام ، والمعنى تعجب . كقوله جل ثناؤه « عمَّ
يَسْأَلُونَ » و « لَأَيَّ يَوْمٍ أُبْلِتَ » ومن دقيق باب الاستفهام أن يوضع
في الشرط وهو في الحقيقة للجزاء . وذلك كقول القائل « إن أكرمك
تُكرمني » المعنى : أتكرمني إن أكرمك ؟ قال الله جل ثناؤه « أفأينمت
فهم الخاللون ؟ » تأويل الكلام : أفهم الخاللون إنمت ؟ ومثله « أفأينمات
أو قتل أهلبكم على أعقابكم ؟ » تأويله : أقتلبن على أعقابكم إن مات ؟
وربما حذفت العرب ألف الاستفهام . من ذلك قول الهذلي :

دَفَوْنِي وَقَالُوا : يَا خَوْلِدُ لَمْ تَرَ
فَقُلْتُ - وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهُ - مُمْ مُمْ ؟
أراد : أُم ؟ وقال آخر :

لَمْرُكَ مَا أُحْدِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا
شُعَيْثَ بْنِ سَهْمٍ ، أَمْ شُعَيْثَ بْنِ مَنقَرٍ ؟
وقال آخر :

لَمْرُكَ مَا أُحْدِي وَإِنْ كُنْتُ دَلِيَا
بِسَبْعِ رَمِينَ الْجَمْرِ ، أَمْ بِثَانٍ ؟
وعلى هذا حمل بعض المفسرين قوله جل ثناؤه في قصة إبراهيم عليه
السلام « هذا ربي » : أي : أهذا ربي ؟

(باب الأمر)

الأمر عند العرب - ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور به عاصياً . ويكون

بلفظ « أقمل » و « ليفعل » نحو « أقيموا الصلاة » ونحو قوله « وليحكم أهل الإنجيل ».

فأما المعاني التي يحتملها لفظ الأمر فإن يكون أمراً ، والمعنى مسئلة :
نحو قولك « اللهم اغفر لي » . قال :

مَا مَسَّهَا مِنْ تَعَبٍ وَلَا دَبَرٍ

اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فَجَرٌ (١)

ويكون أمراً ، والمعنى وعيد . نحو قوله جل ثناؤه « فتمسوا فسوف تطون » . ومثله قوله جل ثناؤه « اعملوا ما شئتم » . ومنه قول (عبيد) :

حَتَّى سَقَيْنَاكُمْ بِكَأْسٍ مَرَّةٍ

فِيهَا الْمُثْمَلُ نَاقِعًا فَلْيَشْرَبُوا

ومن الوعيد قوله :

ارْزُؤُوا (٢) عَلَيَّ وَأَرْضُوا بِي رِحَالَكُمْ

وَأَسْتَسْمِعُوا يَا بَنِي مَيْثَاءٍ إِنشَادِي

مَا ظَنَنْتُكُمْ يَدِينِي مَيْثَاءٌ إِنْ رَقَلُوا

لَيْلًا وَشَدَّ عَلَيْهِمْ حَبَّةُ الْوَادِي ؟

وقد جاء في الحديث « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » أي : إن الله جل ثناؤه مجازيك قال الشاعر :

(١) فخر : مثل من المصدق . وحكاية الشاعر أن أمرايا أتى عمر بن الخطاب لشكا إليه فحب إليه وديرها واستعده ، ثم يحمله عمر وأقسم له أنه ليس فيها ما يزعم الاعرابي ، وأول قول الرليزي : أقسم بفتح أبو حمزة عمر

(٢) من « الرواية » .

إِذَا لَمْ تَحْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي
وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
وَيَكُونُ اللَّفْظُ أَمْرًا ، وَالْمَعْنَى تَسْلِيمٌ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « فَاقْضِ مَا
أَنْتَ قَاضٍ » .

وَيَكُونُ أَمْرًا ، وَلِلْمَعْنَى تَكْوِينٌ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « كُونُوا قَرَدَةً
خَاسِيَيْنَ » . وَهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ .
وَيَكُونُ أَمْرًا ، وَهُوَ تَنْبِيْهُ . نَحْوُ قَوْلِهِ ثَنَاؤُهُ « فَانْثَرُوا فِي الْأَرْضِ » .
ومثله :

فَهَلْتُ لِرَأْيِهَا انْتَشَرُ وَتَبْعَلُ
وَيَكُونُ أَمْرًا ، وَهُوَ تَحْذِيرٌ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « فَانْثَرُوا ، لَا تَنْفُثُونَ
إِلَّا بِسُلْطَانٍ » . ومثله :

خَلَّ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَنْتَحِي الْمَكَارِهَا
وَابْرَزَ بَرَزَةً حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدَرُ
وَيَكُونُ أَمْرًا ، وَهُوَ تَحْجِيزٌ . نَحْوُ قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « أَسْمِعْ بِهِمْ » . قَالَ :
أَحْسِنَ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
مَوْعِدَهَا ، وَلَوْ أَنَّ النَّصِيحَ مَقْبُولٌ (١)

وَيَكُونُ أَمْرًا ، وَهُوَ تَعْنِي . قَوْلُ لِيَشْخَصَ تَرَاهُ « كُنْ فُلَانًا » .
وَيَكُونُ أَمْرًا ، وَهُوَ وَاجِبٌ . فِي أَمْرِ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » .
وَيَكُونُ اللَّفْظُ أَمْرًا ، وَالْمَعْنَى تَلْفِيفٌ وَتَحْسِيرٌ . كَقَوْلِ الْقَائِلِ « مَتِ

(١) أَلَيْتَ لِكَيْبِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . مِنْ تَعْدِيهِ لِمَهْبُورَةٍ قَالَتْ يَجِدُ مَا النِّمْرُ عَلَى
اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُرْوَى « أَكْرَمَ بِنَا » مَكْنً « أَحْسَنَ بِنَا » وَلَوْلَا تَقْصِيدَةُ قَوْلِهِ :
بِأَنْتَ سَادَ قَهْلِي الْيَوْمَ مَتَبَوَّلَ مَتَبَمَّ ائْتَرَاهَا لَمْ يَنْفَدِ مَكْجُولُ

بَنِيظُكَ ، و «مَتِ بِدَائِكَ» وفي كتاب الله جل ثناؤه «قل موتوا بَنِيظُكُمْ»
ثم قال (جرب):

موتوا من النَيْظِ نَحْمًا فِي جَزِيرَتِكُمْ
لَنْ تَهْطُوا بِطَنٍ وَادٍ دُونَهُ مُضَرٌّ

ويكون أمرا ، والمعنى خَبَر . كقوله جل ثناؤه «فليَضْحِكُوا قليلا ،
وليسكوا كثيرا» المعنى : أنهم سيضْحَكُونَ قليلا ويكون كثيرا .

فلن قال قائل : فما حال الامر في وجوبه وغير وجوبه ؟ قيل له : أما
العرب فليس يُحْفَظُ عنهم في ذلك شيء ، غير أن السادة جلوية بأذن من أمر
خادمه بسقيه ماء فلم يفعل ، أن خادمه عاص . وأن الأمر مَعْصِي . وكذلك
إذا نهى خادمه عن الكلام فتكلم ، لا فرق عندكم في ذلك بين الأمر والنهي .
فأما «النهي» — فتقولك «لا تفعل» . ومنه قوله :

لَا تَكْذِبي — إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَا —

أَغْمُ الْفَقَا وَالْوَجْهَ لَيْسَ بِأَنْزَعًا ^(١)

وأما «اللداء» ، والطلب — فيكون لمن فوق الداعي والطالب . نحو
«اللهم اغفر» . وقال للظيفة «انظر في أمري» . قال الشاعر :

إِلَيْكَ أَشْكُو ، فَتَقَبَّلْ مَلَمِي

وَاغْفِرْ خَطَايَايَ وَتَمِّرْ وَرَقِي

و «المرض» ، والتضيض — متقاربان . إلا أن المرض أَرْفَقُ .
والتضيض أَغْزَمُ . وذلك قولك في المرض «أَلَا تَنْزِلُ . أَلَا تَأْكُلُ» .

(١) من نصبة (هبة من خثرة) ومثلها :

أَنْزِلْ عَلَيَّ لَوْمْ يَأْمُ بِرُزْعَا وَلَا تَجْرِعِي مِمَّا أَسَابُ فَأُوجِعا

والاغراموا الحث قولك « أَلَمْ يَأْنْ لَكَ أَنْ تَطِيعَنِي ». وفي كتاب الله جل ثناؤه « أَلَمْ يَأْنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ». والحث والتحضيض كلاهما مر ومنه قوله عز وجل « أَنْ أَتَتْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ » فهذا من الحث والتحضيض ، معناه : اتَّهِمَهُمْ وَمُرَّهُمْ بِالْإِتِّقَاءِ .

و « لولا » يكون لهذا المعنى ، وقد مضى ذكرها . وربما كان تأويلها النفي ، كقوله جل ثناؤه « لولا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » المعنى : اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ .

و « التمني » - قولك « وَدِدْتُكَ عِنْدَنَا » وقوله :

وَدِدْتُ - وما تُفْنِي الْوَدَادَةَ سَأَتِي

بما في ضمير الحاجية عالم .

قال قوم : هو من الاخبار ، لأن معناه « ليس » ، اذا قال القائل « لَيْتَ لِي مَالاً » فمعناه : ليس لي مال . وآخرون يقولون : لو كان خيراً لجاز تصديق قائله أو تكذيبه ، وأهل الرية يختلفون فيه على هذين الوجهين .

أمّا « التعجب » - ففضيل شغص من الأشخاص أو غيره على أضرابه بوصف . كقولك « مَا أَحْسَنَ زَيْدًا » . وفي كتاب الله جل ثناؤه قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، وكذلك قوله جل ثناؤه « فَاصْبِرْ عَلَى النَّارِ » وقد قيل : ان معنى هذا « مَا الَّذِي صَبَرْتُمْ » . وآخرون يقولون « مَا أَصْبَرْتُمْ : مَا أَجْرَاهُمْ » . قال : وسعت أعرابياً يقول لآخر : مَا أَصْبَرْتُكَ عَلَى اللَّهِ ، أَيِ مَا أَجْرَأَكَ عَلَيْهِ .

باب الخطاب

يأتي بلفظ للذكر، أو لجماعة الذكور

إذا جاء الخطاب بلفظ مذكور ولم يُصِفْ فيه على ذكر الرجال فإن ذلك الخطاب شامل للذكور والإناث . كقوله جلّ ثناؤه « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . كذا تُعرف العرب هذا . فإذا قال القائل « هذا قوم من بني فلان » فقد ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن « القوم » للرجال دون النساء ، فسَمِعَ عليّ بن إبراهيم قول ، سمعت ثعلباً يقول : يقال « امرؤ . وأمرآن . وقوم » و « امرأة . وامرأتان . ونِسوة » . وسمعت عليّاً يقول : سمعت المفسر يقول ، سمعت عبد الله بن مسلم يقول : « القوم » للرجال دون النساء ، ثم يُخالطهم النساء فيقال « هؤلاء القوم قوم فلان » ولا يجوز للنساء ليس فيهن رجل : هؤلاء قوم فلان ، ولكن يقال : هؤلاء من قوم فلان ، لأن قومه رجال والنساء منهم . قال : وإنما سمي الرجال دون النساء قوماً لأنهم يقومون في الأمور وعند الشدائد يقال : قائم وقوم ، كما يقال : زائر وزور . وصائم وصوم . ونائم ونوم . ومثله « الثغر » لأنهم ينفرون مع الرجل إذا استنفرهم . قال (امرؤ القيس) :

فبو لا تَنمي رَمِيتهُ ماله لأعدّ من قهره ^(١)

وعما يدل على أن القوم للرجال قول (زهير) :

(١) يقول : إذا رمى هذا الرامي الرمية لم تجز موضعاً حتى تموت . ثم دعا عليه بالموت ، ولكن على سبيل التجب لأعلى سبيل الحقيقة . أما مظهر التصيد بقوله : وب ولم من بني ثعل . متطع كفيه في قتره .

وما أدري ، وسوف إخال أدري ،
أقوم آل حصن أم نساء (١)

باب أقل العدد الجمع

الرَّثْبُ فِي الْأَعْدَادِ ثَلَاثٌ : رتبة الواحد . ورتبة الاثنين . ورتبة الجماعة ، فهي للتوحيد والثنية والجمع ، لا يراحم في الحقيقة بعضها بعضاً .
فإن عير عن واحد بلفظ جماعة وعن اثنين بلفظ جماعة فذلك كله مجاز والتحقق ما ذكرناه . فإذا قال القائل « عندي دراهم » أو « فراس » أو رجال ، فذلك كله عبارة عن أكثر من اثنين . وإلى ذلك ذهب (عبد الله بن عباس) -
ومكانه من العلم بالثنية مكانه - في قوله جل ثناؤه « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّؤْسُ » إلى أن الحجب في هذا الموضع عن الثلث إلى السلس لا يكون إلا بأكثر من اثنين ، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « الاثنان فما فوقهما جماعة »
فإنما أراد أنهما إذا صلبا قد حازا فضل الجماعة ، لا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سمى الشخصين جماعة . وقول القائل : إن أقل ذلك أن يجمع واحد إلى واحد فهذا مجاز ، وإنما الحقيقة أن يقال : كان واحد فتى ثم جمع .
ولو كان الأمر على ما قالوه لما كان للثنية ولا للاثنين معنى بوجه ، ونحن نقول « خرجا » ويخرجان « فلو كان الاثنان جمعا لما كان لقولنا « يخرجان » معنى ، وهذا لا يقوله أحد .

(١) من تصديده التي مطلها :

عنا من آل ذطة الجواه فيمن فالتواجم فالهساء

باب الخطاب

الذي يقع به الإفهام من القائل ، والقهم من السامع
 يقع ذلك بين المتخاطبين من وجهين : أحدهما الإعراب ، والآخر
 التصريف . هذا فيمن يعرف الوجهين ، فأما من لا يعرفهما فقد يمكن القائل
 إفهام السامع بوجوه يطول ذكرها من إشارة وغير ذلك . وإنما المول على
 ما يقع في كتاب الله جل ثناؤه من الخطاب أو في سنة رسول الله صلى الله
 تعالى عليه وسلم أو غيرهما من الكلام المشترك في اللفظ .

فأما الإعراب - فيه تميز المعاني ويؤلف على أغراض المتكلمين - وذلك
 أن قائل لو قال « ما أحسن زيد » غير « مغرب » أو « ضرب عمر زيد »
 غير « مغرب » لم يوقف على مراده . فإذا قال « ما أحسن زيدا » أو « ما أحسن
 زيدا » أو « ما أحسن زيدا » أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراد .

وللمعرب في ذلك ما ليس لتغيرها : فهم يفرقون بالحركات وغيرها
 بين المعاني . يقولون « مفتح » للآلة التي يفتح بها . و « مفتح » لموضع
 الفتح و « مقص » للآلة القص . و « مقص » للموضع الذي يكون فيه القص
 و « محلب » للقدح يحلب فيه و « محلب » للكن يمحلب فيه خوات الأبن
 ويقولون « امرأة طاهرة » من الحيض لأن الرجل لا يشر كها في الحيض .
 و « طاهرة » من السيوب لأن الرجل يشر كها في هذه الطهارة . وكذلك
 « قاعد » من الحبل و « قاعلة » من القمود . ثم يقولون « هذا غلام أحسن
 منه رجلا » يريدون الحال في شخص واحد . ويقولون « هذا غلام أحسن
 منه رجلا » فهما إذا شخصان ويقول « كم رجلا رأيت ؟ » في الاستخبار .

و «كم رجل رأيت» في الخبر يراد به التكثير . و «هَنْ حَوَاجٌ يَيْتُ الله» اذا كُنَّ قَدْ حَجَّجْنَ . و «حَوَاجٌ يَيْتُ الله» اذا أُرْدَنَ الحج . ومن ذلك «جاء الشتاء والحطْبُ» لم يُرَدَّ أَنْ الحطْبُ جاء ، انما أراد الحاجة اليه ، فان أراد مجيئهما قال «والحطْبُ» . وهذا دليل يدل على ما وراءه .

وأما التصريف — فازن من فاته فاته للمُظَم ، لأننا قول «وَجَدَ» وهي كلمة مبهمة فاذا صرفنا أفصحنا قلنا في المال «وُجِبَا» وفي الضالة «وَجِدَانَا» وفي النضب «مَوْجِدَّة» وفي الحزن «وَجْدًا» . وقال الله جل ثنائه «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا» وقال «وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل الى الجور . ويكون ذلك في الاسماء والأفعال فيقولون للطريقة في الرمل «خِبَةٌ» وللأرض المنحسبة والمجدبة «خِبَةٌ» . وتقول في الأرض السهلة الخوارة «خَلَّتْ» ، تخورُ ، خورآ ، وخورآ «وفي الانسان اذا ضُفَّ «خَارَ ، خَوْرًا» وفي الثور «خَلَر ، خَوْرًا» . ويقولون للمرأة الضخمة «ضِنَاك» وللزئكة «ضِنَاك» ويقولون للابل التي ذهبت ألبانها «شَوَّل» وهي جمع «شائلة» . والتي شالت أذنابها للقمح «شَوَّل» وهي جمع «شائل» . ويقولون لبقية الماء في الخوض «شَوَّل» ويقولون للماشق «عميد» وللبيبر المتأكل السنام «عميد» الى غير ذلك من الكلام الذي لا يحصى .

باب معاني ألفاظ العبارات

التي يعبّر بها عن الاشياء

ومرجعها الى ثلاثة وهي : المعنى ، والتفسير ، والتأويل . وهي وان

اختلقت فان المقاصد بها متقاربة .

فاما المعنى — فهو القصد والمراد . يقال « عَيَّتُ بالكلام كذا » أي : قصَّدتُ وعَمَّنتُ . أنشدني القطان عن ثعلب عن (ابن الأعرابي) :

مثلُ البرامِ غدا في أصنَّه خَلَقَ
لم يَسْتَنْ وحوامي الموتِ نَفْسَاهُ
فَرَجَّتْ عَنْهُ بِصِرْعَيْنَا لأَوْمَلَةٍ
وبائس جاء معناه كَمَعْنَاهُ

يقول في رجل قَدِيمٌ لَيُقْتَلُ ، وأنه فرج عنه بِصِرْعَيْنِ ، أي فَرَقَيْنِ من غمٍّ : قد كنتُ أعدُّهُمَا لأَرْمَلَةٍ تَأْتِينِي تَسْأَلُنِي أو لبائس مثل هذا لَقَدْ تَمَّ لَيُقْتَلُ معناه كَمَعْنَاهُ ، أي إن مقصدهما في السؤال والبؤس مقصد واحد ويمجوز أن يكون المعنى « الحال » أي حالهما واحدة .

وقال قوم اشتقاق « المعنى » من « الاظهار » يقال « عَيَّتِ القِرْبَةَ » اذا لم تحفظ الماء بل أظهرته ، و « عَوَّانُ الكتاب » من هذا . وقال آخرون : « المعنى » مشتق من قول العرب « عَيَّتِ الأرض بنبات حسن » إذا أنبت نباتاً حسناً . قال الفراء « لم تَعْنُ بلادنا بشيء » إذا لم تُنْبِتْ وحكى (ابن السكيت) « لم تَعْنُ » من « عَيَّت » . تعني « فان كل هذا فان المراد بالمعنى الشيء القوي فيه لالفاظ كما يقال « لم تَعْنِ هذه الأرض » أي : لم تُهْدِ .

وأما « التفسير » — فانه « التفصيل » . كذا قال (ابن عباس) في قوله جل ثناؤه « وأحسن تفسيراً » أي : تفصيلاً .

وأما اشتقاقه فن « الفسر » . أخبرني القطان عن المَدَنِيِّ عن أبيه عن

معروف عن الليث عن (الخليل) قال : الفسر البيان ، واشتقاقه من قسر الطيب لواء إذا نظر إليه ، وقال لفك « التفسير » أيضاً .
 وأما « التأويل » - فآخر الأمر وعاقبته . يقال « إلى أي شيء مآل هذا الأمر » أي مصيره وآخره وعقباه . وكذا قالوا في قوله جل ثناؤه « وما يعلم تأويله إلا الله » أي : لا يعلم إلا الله جل ثناؤه ، لأن القوم قالوا في مدة هذه الملة ما قالوه ، فأعطوا أن مآل الأمر وعقباه لا يعلمه إلا الله جل ثناؤه .

واشتقاق الكلمة من « المآل » وهو الناقبة والمصير ، قال (عبد بن الطيب) :

وَاللَّحِجَّةُ أَيَّامٌ تَذَكَّرُهَا
 وَلِلنَّوَى قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ تَأْوِيلُ
 وَقَالَ (الأعشى) :

طَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَأْوِيلُ حَبِهَا
 تَأْوِيلَ رَبِّي السَّيَّابَ فَأَصْحَبَا

يقول : إن حبها كان صنيراً في قلبه فأل إلى العظم ولم يزل يثبت حتى أصحبت ، فصار كالسقب للنبي لم يزل يشب حتى أصحبت ، يعني أنه إذا استضحبت أمه صحبها .

بَابُ الْخَطَابِ الْمَطْلُوقِ وَالْمَقْيَدِ

أما الإطلاق - فإن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة ولا شرط ولا زمان ولا عید ولا شيء يشبه ذلك .

والنقيد - أن يذكّر قريبن من بعض ما ذكرناه ، فيكون ذلك القرن زائداً في المعنى . من ذلك أن يقول القائل « زيدٌ كثيرٌ » ، فهذا إما شبهه ببيت في شجرحه ، فلذا قال « هو كالبيت الحرب » فقد زاد « الحرب » وهو النضبان الذي حرب قريبته ، أي : شئبها . فلذا كان كذاً كان أذهي له . ومن المطلق قوله :

تراثيها مبعثولة كالسججل^(١)

فشبه صدرها بالمرأة ، لم يزد على هذا . وذكر (خو الزمة) أخرى فزاد في المعنى حتى قيد فقال :

ووجه كبرأة النرية أسجج

فذكر المرأة كما ذكر (امرؤ القيس) السججل ، وزاد الثاني ذكره . النرية فزاد في المعنى ، وذلك أن النرية ليس لها من يملأها عاصنها من مساويها فهي تحتاج أن تكون مرآتها أصغر وأقوى لئلا يحتاج إلى رؤيتها من مئين وجهها . ومنه قول (الأعشى) :

تروج على آل الخلق جفنة

بكاية الشيخ العراقي قهق

فشبه الجفنة بالجارية ، وهي الحوض ، وقيداً بذكر الشيخ العراقي لأن العراقي إذا كان بالبلد لم يعرف مواضع الماء ومواقع النيث ، فهو على جمع للماء الكبير أحرص من البلوي النارف بالنائم والأحساء . ومن هنا الباب قول (حميد بن ثور) يصف بعيراً :

(١) عجز بيت من معلقة (لمري القيس) ومصدره :

مهنته يضاء غير مفانة

مَحَلِّيَّ بِأَطَوَاقٍ عِثَاقُ يُنْهِنَا

عَلَى الضَّرِّ رَاعِي الثَّلَاةِ السَّعِيفُ

فقال «راعي ثلثة» ولم يطلق اسم الراعي ، وذلك أنهم يقولون : إنَّ راعي الغنم أَجْهَلُ الرُّعَاةِ ، فيقول : إنَّ هذا البعيرَ محَلِّيَّ بِأَطَوَاقٍ عِثَاقُ ، أي كريمة ، يُلْهِنُهَا رَاعِي الثَّلَاةِ عَلَى جَهْلِهِ فَكَيْفَ بَشِيرُهُ مِمَّنْ يَعْرِفُ .

باب الشيء يكون ذا وصفين

فَيُطْلَقُ بِحُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ عَلَى أَحَدٍ وَصْفِيَّةً

أَمَّا النِّقْمَاءُ فَخُتْنَقُونَ فِي هَذَا .

فإنما مذهب العرب فإنَّ العربيَّ قد يذكُرُ الشيءَ بِأَحَدِ صِفَتَيْهِ فَيُؤَثِّرُ ذَلِكَ ، وَقَدْ يَذْكُرُهُ فَلَا يُؤَثِّرُ بَلْ يَكُونُ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ سَوَاءً . أَلَا تَرَى الْقَائِلَ يَقُولُ :

مِنْ أُمَامٍ لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ

عَاجِلُ الْفَحْشِ وَلَا سَوُّ الطَّمَعِ

فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ مِنْ يُنَافِي مَذْهَبَ الْعَرَبِ لَاسْتَجِيزَ عَاجِلُ الْفَحْشِ إِذْ كَانَ الشَّاعِرُ إِنَّمَا ذَكَرَ الْعَاجِلَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاهُ « وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ » وَالْكَفَرُ لَا يَجُوزُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَجِيءَ نَاسٌ عَنْ (أَبِي هُرَيْرَةَ) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ بِالْمَذْهَبِ الْأَوَّلِ وَيَقُولُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « لَيْتَ الْوَاجِدُ يُحِلُّ عَقُوبَتَهُ وَعَرَضَهُ بِقَدْلٍ أَنْ غَيْرَ الْوَاجِدِ مَخَالَفَ الْوَاجِدِ » وَالَّذِي قَوْلُهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ (أَبَا عَيْدٍ) إِنَّمَا سَلَّكَ فِيمَا قَالَهُ مِنْ هَذَا مَسَلَّكَ التَّأْوِيلِ ذَاهِبًا إِلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَقُولُ بِهَيْئَةِ الْقَائِلَةِ .

ولم يحك ماقاله عن العرب ، ولو حكاه عنهم للزم القولُ به ، لأنَّ (أبوعبيد)
هَمَّةٌ أمينٌ فيما يحكيه عن العرب ، فأما في الذي تأوله فأتانا نحن نُخالقه فيه كما
نخالقه في مسألة مُتمة الحج وفي ذوي الأرحام وغير ذلك من المسائل المختلفة فيها .

باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز

قول في معنى الحقيقة والمجاز :

إنَّ « الحقيقة » — من قولنا « حقَّ الشيء » إذا وجب . واشتقاقه من
الشيء المحقَّق وهو المُحكَّم ، تقول « ثوبٌ محقَّق النَّسج » أي مُحكَّمه .
قال الشاعر :

نَسْرِبِلْ جِلْدَ وَجْهِ أَيْكَ إِنَّا
كَفَيْنَاكَ الْحَقِيقَةَ الرَّقَاقَا

وهذا جنس من الكلام يُصدقُ بضمه بعضاً من قولنا « حقٌّ » وحقيقة .
ونصُّ الحَقِيقِ « . فالحقيقة : الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستمارة
ولا تمثيل ، ولا قديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل « أحمَدُ الله على نعمه
وإحسانه » وهذا أكثر الكلام . قال الله جل ثناؤه « وللذين يؤمنونَ
بما أنزل إليكَ وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » وأكثر ما يأتي
من الآي على هذا . ومثله في شعر العرب :

لَمَّا لُ الرِّءُ يُصْلِحُهُ فَيَنْتِي
مَفَاقِرَهُ أَعْتَبَ مِنَ الْقَوَاعِ (١)

وقول الآخر :

(١) سبق منا أن البيت من شعر الشماخ .

وَلَا يَقُولُوا : إِنَّا عِزْنَا عَنْ الْإِيَّانِ بِمِثْلِهِ لَأنَّهُ بغير لفتنا وبغير الشَّنْ التي نَسْتَنُّهَا . لا ، بل أُنْزِلْ جَلْ ثَنَاؤُهُ بِالْحُرُوفِ التي يعرفونها وبالشَّنْ التي يسلكونها في أَسْمَائِهِمْ وخطاباتهم ليكون عِزُّهُمْ عَنِ الْإِيَّانِ بِمِثْلِهِ أَظْهَرَ وَأَشْهَر . ثُمَّ جَعَلَهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ أَحَدَ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . ثُمَّ أَطْعَمَهُمُ الْإِسْبِيلَ لَهُمْ إِلَى مَعَارَضَتِهِ ، وَقَطَعَ الْمَنْرَ بِقَوْلِهِ جَلْ ثَنَاؤُهُ « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

فَإِنَّ سَنَنَ الْعَرَبِ خَالِفَةٌ ظَاهِرٌ الْفَلْظُ مَعْنَاهُ ، كَقَوْلِهِمْ عِنْدَ الْمَدْحِ « قَاتَلَهُ اللَّهُ مَا أَشْمَرُهُ » فَهَمْ يَقُولُونَ هَذَا وَلَا يَرِيدُونَ وَقُوعَهُ . وَمِنْ قَوْلِ (أَمْرِيءُ الْقَلَمِ) يَصِفُ رَاسِيًا :

فَهُوَ لَا تَنِي رَمِيَّتُهُ مَالَةً لَا عُدَّ مِنْ قَرَرِهِ

يقول : إِذَا عُدَّ قَرَرُهُ لَمْ يَمُدَّ مَعَهُمْ ، كَأَنَّهُ قَالَ : قَاتَلَهُ اللَّهُ ، أُمَاتَهُ اللَّهُ ، حَتَّى لَا يَمُدَّ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ « هَوَتْ أُمُّهُ . وَهَبَلَتْ . وَشَكَلَتْ » قَالَ (كُتُبُ ابْنِ سَعْدٍ) يَرِثِي أَخَاهُ :

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَمِثُّ الصَّبْحُ غَادِيًا

وَمَاذَا يُوَدِّي اللَّيْلُ حِينَ يُوْبُّ

وَهَذَا يَكُونُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ مِنْ إصَابَةِ الرَّجُلِ فِي رَمِيهِ أَوْ فِي فِعْلِهِ يَفْعَلُهُ . وَكَانَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمَ بْنِ قَتِيْبَةٍ) يَقُولُ فِي هَذَا الْبَابِ : مِنْ ذَلِكَ الدَّعَاءُ عَلَى جِهَةِ النِّقَمِ لَا يَرَادُ بِهِ الْوُقُوعُ كَقَوْلِ اللَّهِ جَلْ ثَنَاؤُهُ « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ » . وَقُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . وَقَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يُؤْفِكُونَ » وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ : وَهَذَا وَإِنْ أَشْبَهَ مَا تَهْلِكُ مِنْهُ ذَكَرَهُ فَانَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ

أن يُطلق فيما ذكره الله جل ثناؤه أنه دعاء لا يراد به الوقوع ، بل هو دعاء عليهم أراد الله وقوعه بهم فكان كما أراد ، لأنهم قتلوا واهلكوا وقوتلوا ولعنوا ، وما كان لله جل ثناؤه ليدعوا على أحد فحيد الدعوة عنه : قال الله جل ثناؤه « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ فِدَعَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ - وَتَبَّ » أي وقد تب وحلق به التَّبَاب . و (ابن قتيبة) يطلق إطلاقاً منكراً و يروي أشياء شذمة ، كلني رواه عن (الشَّعْبِيِّ) « أَنَا أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ وَعَلِيٌّ تَوَفَّوْا وَلَمْ يَجْمَعُوا الْقُرْآنَ . قال : وروى شريك عن اسماعيل بن أبي خالد قال سمعت الشَّعْبِيَّ يقول ويحلف بالله : لقد دخل (عليٌّ) حنجرته وما حنِط القرآن . وهذا كلام شنيع جداً فيمن يقول « سَأُرِي قَبْلَ أَنْ تَقْدُونِي ، سَلُونِي فَأَمِنْ آيَةٍ إِلَّا أَعْلَمُ أَبْلِيلٍ تَزَلَّتْ أُمُّ بَنَارٍ ، أُمُّ فِي سَهْلٍ أُمُّ فِي جَبَلٍ » وروى السُّدِّيُّ عن عبد خير عن علي رضي الله تعالى عنه أنه رأى من الناس طيرةً عند وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فَأَقْسَمَ «لَا يَضَعُ عَلَى ظَهْرِهِ رِدَاءَهُ حَتَّى يَجْمَعَ الْقُرْآنَ قال : فجلس في بيته حتى جمع القرآن ، فهو أول مصحفُ جمع فيه القرآن ، جمعه من قلبه ، وكان عند (آل جعفر) . وحدثنا علي بن إبراهيم عن علي بن عبد العزيز قال قال أبو عبيد حدثني نصر بن باب عن الحجاج عن الحكم عن أبي عبد الرحمن السُّكِّيَّ أنه قال : ملأيتُ أحداً أقرأ من (عليٍّ) صلوات الله عليه ، صلياً خلفه فأَسْرَأَ بَرَزَ خَاتِمٌ رَجَعَ قَرَأَهُ ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَانِهِ قال (أبو عبيد) البرزخ : ما بينَ كلِّ شيئين ، ومنه قيل لليت : هو في البرزخ ، لأنه بين الدنيا والآخرة ، فاراد أبو عبد الرحمن بالبرزخ ما بين الموضع الذي أسقط علي صلوات الله عليه منه فذلك الحرف إلى الموضع الذي كان انتهى إليه .

باب اجناس الكلام

في الاتاق والافتراق

يكون ذلك على وجوه : فنه اختلاف اللفظ والمعنى ، وهو الاكثر الاشهر ، مثل « رجل . و فرس » و « سيف . و ربح » ومنه اختلاف اللفظ واتاق المعنى ، كقولنا « سيف . وعَضَب » و « لَيْث . و أَسَد » على منبهنا في أن كل واحد منها فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة .

ومنه اتاق اللفظ واختلاف المعنى ، كقولنا عين الماء وعين المال وعين الرّكبة وعين الميزان ^(١) ومنه في كتاب الله جل ثناؤه « قضى » بمعنى : حَتَمَ كقوله جل ثناؤه « قضى عليها الموت » وقضى بمعنى : أَمَرَ كقوله جل ثناؤه « وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ آياه » أي أمر . ويكون قضى بمعنى : أَعْلَمَ كقوله جل ثناؤه « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب » أي أعلمناهم . وقضى بمعنى : صَنَعَ كقوله جل ثناؤه « فاقض ما أنت قاض » وكقوله جل ثناؤه « ثمّ اقضوا اليّ » أي اعملوا ما أنتم عاملون . وقضى : فَرَّغَ . ويقال الميت : قَضَى أي فرغ . وهذه وإن اختلفت الفاظها فالاصل واحد .

ومنه اتاق اللفظ وتضاد المعنى كـ « الظن » وقد مضى الكلام عليه . ومنه تهاب اللفظين والمعنيين كـ « الحرّم » و « الحرّن » . فالحرّم من الارض أرفع من الحرّن . وكـ « الخضم » وهو بالغم كله . و « القضم » وهو بأطراف الاسنان .

(١) راجع فريدة (ابن فارس) في معاني السنين : صفحة (٦٤) من ترجمته التي صدرت
بها هذا الكتاب .

ومنه اختلاف اللفظين وتمازب المعنيين كقولهم «مدحه» إذا كان حياً و«أبته» إذا كان ميتاً.

ومنه تمازب اللفظين واختلاف المعنيين وذلك قولنا «حرج» إذا وقع في الحرج و«تخرج» إذا تباعد عن الحرج. وكذلك «أرثم» وتأثم». و«فرع» إذا أتاه الفرع و«فرع» عن قلبه، إذا نحى عنه الفرع قال الله جل ثناؤه «حتى إذا فرع عن قلوبهم» أرادوا أنه أعلم: أخرجه منها الفرع.

باب القلب

ومن سنن العرب القلب. وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القصة: فأما الكلمة - فقولهم «جذب وجذب» و«بكل. ولبك»، وهو كثير وقد صنفه علماء اللغة، وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جل ثناؤه شيء.

وأما الذي في غير الكلمات - فقولهم:

كما عصب العلباء بالعود

و: كما كان الزنا فريضة الرجم

و: كأن لون أرضه سماؤه

و: كأن الصفا أوراها

إنما أراد: كان أوراها الصفا، ويقولون «أدخلت الخاتم في إصبعي» و:

تشق الرماح بالضياء طرقة الحمر

و: كما بعثت بالقدن السباعا

و : حَصَرْتُ كَتَبِي عَنِ السَّرْبَالِ

وإنما حَصَرَ السَّرْبَالِ عَنْ كَفِّهِ . ومثله في كتاب الله جل ثناؤه « خَلِقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ » ومنه قوله جل ثناؤه « وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ
قَبْلُ » ومعلوم أن التحريم لا يقع إلا على مَنْ يُلْزَمُهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ، وإذا
كُنَّا كَذَا فَالْعَنَى : وَحَرَّمْنَا عَلَى الْمَرَاضِعِ أَنْ يَرْضِعْنَ . ووجه تحريم إرضاعه
عليهن أَنْ لَا يَقْبَلَ إَرْضَاعَهُنَّ حَتَّى يَرُدَّ إِلَى أُمِّهِ . قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : وَمِنْهُ قَوْلُهُ
جَل وَعَزْ « فَانْهَوْا عِبَادِي الْأَرْبَاءَ الْمَالِينَ » وَالْإِصْنَامَ لِاتِّمَادِي أَحَدًا ،
فَكَاتَهُ قَالَ : فَانْهَوْا عِبَادِي . وَعَلَاوَتُهُ لَهَا بِنَصْبِهَا وَبِرَأْيَتِهَا مِنْهَا .

باب الأبدال

ومن سنن العرب إبدالُ الحروف وإقامة بعضها مقامَ بعض ، ويقولون
« مَدَحَهُ . وَمَدَّاهُ » وَ « فَرَسٌ رَفْلٌ . وَرِفْنٌ » وَهُوَ كَثِيرٌ مَشْهُورٌ قَدْ أَلْفِدَ
فِيهِ الطَّمَاءُ . فَأَمَّا مَا جَلَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلْ ثَنَاؤُهُ فَقَوْلُهُ جَلْ ثَنَاؤُهُ « فَانْفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فَرْقٍ ، فَالْإِلَامُ وَالرَّاءُ جَمَاعَاتٍ كَمَا يَقُولُ الْعَرَبُ « فَانْفَلَقَ الصَّبْحُ .
وَفَرَّقَهُ » . وَذُكِرَ عَنْ (الْخَلِيلِ) وَلَمْ أَسْمَعْهُ سَمِعًا أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ جَلْ ثَنَاؤُهُ
« بَخَّسُوا » : إِنَّمَا أَرَادَ « بَخَّسُوا » فَكَانَتِ الْجِيمُ مَقَامَ الْهَاءِ ، وَمَا أَحْسَبُ
الْخَلِيلَ قَالَ هَذَا وَلَا أَحِثُّ عَنْهُ .

باب الاستعارة

ومن سنن العرب الاستعارة . وهو أَنْ يَضُمُوا الْكَلِمَةَ لِلشَّيْءِ مُسْتَعَارَةً
مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ فَيَقُولُونَ « انشَقَّتْ عَصَاهُمْ » إِذَا تَفَرَّقُوا . وَذَلِكَ يَكُونُ
لِلْعَصَا وَلَا يَكُونُ لِلْقَوْمِ . وَيَقُولُونَ « كَشَقَّتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ » .

وفي كتاب الله جل ثناؤه «كانهم حُرٌّ مُسْتَفْرَجٌ» يقولون للرجل المذموم:
إِنَّمَا هُوَ حِمَارٌ. وقال الشاعر:

دُفِعْتُ إِلَى شَيْخٍ يَجْتَنِبُ فَنَائِي

هُوَ الْيَهُودِيُّ إِلَّا أَنَّهُ يَحْكُمُ

ومنه قوله جل ثناؤه «أَتَفَتُ الْمَسَاقَ بِالْمَسَاقِ» و«أَنَا لِرُدْوَودٍ فِي
الْخَافَةِ» أي في الغلق الجديد. و«بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ» ويقول العرب
«رَأَى بِهِ النَّفَاسَ» أي غلب عليه. و«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» أي
ضيق وشدة. و«لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ». و«أَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» وقوله
جل ثناؤه «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» ويقول العرب «نَافَقَةٌ تَاجِرَةٌ»
يريدون أنها تَتَّقُ نَفْسَهَا بِحُسْنِهَا. وقوله جل ثناؤه «وَيَسْخَطُونَ النَّاسَ مِنْ
حَوْلِهِمْ» و«أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ» و«أَلَا إِنَّمَا طَارَتْ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ» ويراد حظهم وما يحصل لهم. والعرب تقول:

فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي

إِذَا مَا طَارَ مِنْ مَالِي الشَّعِيرُ

أي حصل. ومنه قوله جل ثناؤه «أَفْرِ الصَّلَاةَ» أي اثبت بها كما أمرت
به و«إِنِّي رَبُّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ» أي عَصَمَكَ مِنْهُمْ. رواه شعبة عن أبي رَجَاءٍ
عن (الْحَسَنِ). ومن الاستعارة قولهم «زَالَتْ رِحَالُهُ سَابِجٌ» كناية عن
للرَّأَةِ تَسْتَفْصِي عَلَى زَوْجِهَا. قال (الشَّامِيُّ):

وَكَيْفَتْ إِذَا زَالَتْ رِحَالُهُ سَابِجٌ

شِمْتُ بِهِ حَتَّى لَقِيتُ مِثْلَهَا

وكانت امرأته تَشْرَتُ عليه ، وذلك قوله :

أَلَا أَصْبَحْتَ عَرَسِي مِنَ الْبَيْتِ جَانِحًا

يَنْبِيرُ بِلَاءٍ سَمِيٍّ مَا بَدَأَ لَهَا

باب الحذف والاختصار

ومن سُنَنِ الْعَرَبِ الحذف والاختصار ، يقولون « والله أَفْضَلُ ذاك » يريد لأفْضَل . و « أَنَا مَا عِنْدَ مَتَيْبِ الشَّمْسِ . أَوْ حِينَ أَرَادَ . أَوْ حِينَ كَلَمْتُ نَعْرَبِ » قال (ذو الرِّمَّة) :

فَلَمَّا لَبَسْنَا اللَّيْلَ أَوْ حِينَ لَصَبْتُ

لَهُ مِنْ خَذَا آذَانَهَا وَهُوَ جَانِحٌ

ومنه في كتاب الله جل ثناؤه « واسئل القرية » أراد أهلها . و « الحج أشهرٌ معلومات » . و « بنو فلان يَطْلُوهُمْ الطريق » أي أهلها . و « ونحن نَطَأُ السَّمَاءَ » أي مطرناها . و « على خوف من فرعون وملائمهم » أي من آل فرعون . و « إِذَا لَا أَذَقْنَاكُمْ ضِعْفَ الْحَيَاةِ » أي ضِعْفَ عَذَابِهَا . و « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » . ومثله « أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاتَّقِلْ » أي فاضرب فاققل . ومنه « إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِي . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » أي : فلما قُلَّ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ . ومنه « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » أراد الثناء الحسن . ومنه « فَادْعُهُم الْأَمْرَ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ » معناه : فإذا عزم الأمر كذبوه .

باب الزيادة

قال بعض أهل العلم : إنَّ الْعَرَبَ تَزِيدُ فِي كَلَامِهَا أَسْمَاءً وَأَفْصَالًا .

أما الأسماء — فالاسم والوجه والمثل . قالوا : فالاسم في قولنا « بسم الله » ، إنما أردنا « بالله » ، لكنه لما أشبه القسم زيد فيه الاسم . وأما الوجه فقول القائل « وجَّيْ إليك » ، وفي كتاب الله جل ثناؤه « وبيق وجه ربك » ، ثم قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست مُحْصِيةُ
رب العباد إليه الوجه والعملُ

وأما المثل ففي قوله جل ثناؤه « فأتوا بسورة من مثله » ، وقول قائلهم « مثلي لا يَنْضَعُ لثلك » ، أي : أنا لا أخضعُ لك . قال الشاعر :

يا عاذلي دعني من عدلِكَ

مثلي لا يَهْلُ من مثلكا

وقوله جل ثناؤه « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » ، أي عليه . وأما الأفعال — فتقولهم « كاد » في قول الشاعر :

حتى تنأولَ كَلْباً في ديارِهِم

وكادَ يسمو إلى الجرفَيْنِ فارحاً

أراد « وسما » ، ألا ترى أنه قال « فارقع » . وما يُزاد أيضاً من الأفعال قول القائل « لا أعلم في ذلك اختلافاً » ، وفي كتاب الله جل ثناؤه « أم تُنبئونه بما لا يعلم في الأرض » ، أراد والله أعلم : بما ليس في الأرض .

وقد تزداد حروف من حروف الماني — كزيادة « لا » و « من » ، وغير ذلك . وقد مضى ذكره بشواهده .

باب التكرار

ومن سُنن العرب التكرير والاعادة لإرادة الإيلاج بحسب الناية بالامر كما قال (الحارث بن عباد) :

قَرَبَا مَرِيطَ النَّمَامَةِ مِنِّي

لَمَحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنِ حِيَالِ

فكرّر قوله « قَرَبَا مَرِيطَ النَّمَامَةِ مِنِّي » في رؤس أبيات كثيرة عناية بالامر وأراد الإيلاج في التنبيه والتحذير . وكذلك قول (الأشعر) :

وَكَتَيْبَةٌ لِبَسْنَاهَا بِكَتَيْبَةِ

حتى قول نساؤهم: هذا فتي (١)

فكرر هذه الكلمة في رؤس أبيات على ذلك المنهج . وتكرر من كرّر :

مَهْلًا نَبِيَّ عَمِنَا ، مَهْلًا مَوَالِينَا

وكقول الآخر

كَمْ نَمْعَةٍ كَانَتْ لَهْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

فكرر لفظ « كَمْ » لفرط العناية بقصد تكرير العدد . قال عليّونا : فلي هذه السنة جاء ما جاء في كتاب الله جل ثناؤه من قوله « قَبَايَ آلاءِ رَبِّكُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا » .

فأما تكرير الانباء والقصاص في كتاب الله جل ثناؤه — فقد قيلت فيه وجوه . وأصح ما يقال فيه أن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن وعجز

(١) وروى « هنا فتي » - الأصل

القوم عن الاتيان بمثله آية لصحة نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر التخصيص في مواضع إعلالها أنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأي نظم جاء وبأي عبارة عبر. فهذا أولى ما قيل في هذا الباب.

باب العموم والخصوص

العالم - الذي يأتي على الجملة لا يندر منها شيئاً. وذلك كقوله جل ثناؤه «خلق كل دابة من ماء» وقال «خالق كل شيء». والخاص - الذي يختل فيقع على شيء دون أشياء. وذلك كقوله جل ثناؤه «وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي» وكذلك قوله «وأتقون يا أولي الألباب» فخطب أهل العقل.

وقد يكون الكلامان متعينين، ويكون أحدهما خاصاً والآخر عاماً. وذلك قولك لمن أعطي زيدا درهماً أعط عمراً، فإن لم تعمل فأعطيت، تريد: إن لم تعط عمراً فأنت لم تعط زيدا أيضاً، وذلك غير محسوب لك. ومثله في كتاب المنجل ثناؤه «يأبها الرسول بلّغ ما أُرِلَ اليك من ربك» فهذا خاص، يريد: هذا الأمر المجدد بقلته، فإن لم تعمل ولم تبلغ هذا فما بلغت رسالته. يريد: جميع ما أرسلت به.

وأما العالم الذي يراد به الخاص - فكقوله جل ثناؤه حكاية عن موسى عليه السلام «وأنا أول المؤمنين» ولم يرد كل المؤمنين لأن الانبياء قبله قد كانوا مؤمنين. ومثله كثير. ومنه «قالت الأعراب آمناً» ولم تأمأ قلة فريق منهم. و«الذين قال لهم الناس» إجماعاً (نسيم بن محمود)

إِنَّ النَّاسَ (أَبُو سَفْيَانَ) وَ (عَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ) . وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاؤُهُ « وَمَا
مَعْنَاهُ أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولَى » أَرَادَ : الْآيَاتِ الَّتِي إِذَا
كَذَّبَ بِهَا نَزَلَ الْعَذَابُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » .

وَأَمَّا الْخَاصُّ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْعَامُّ — فَكَقَوْلُهُ جَلِ وَعِزُّهُ « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْعَمْ الْكَافِرِينَ وَالْمُفَاقِينَ » الْخُطَابُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ النَّاسُ جَمِيعًا .

باب إضافة الفعل الى ما ليس بفاعل في الحقيقة

وَمِنْ سُنَنِ الْعَرَبِ إِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَى مَا لَيْسَ فَاعِلًا فِي الْحَقِيقَةِ ، يَقُولُونَ
« أَرَادَ الْحَاطِطُ أَنْ يَقَعَ » وَفِي كِتَابِ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ « جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ
يَنْقُضَ » وَهُوَ فِي شَمْرِ الْعَرَبِ كَثِيرٌ . قَالَ (الشَّامُخُ) :

أَقَمْتُ عَلَى رَئِيسِهِمَا جُلُوسًا صَفَاً

كَيْتَا الْأُطَالِي جَوْثًا مُصْطَلَاهُمَا^(١)

فَجَعَلَ الْأَمَّا فِي مَقْعَةٍ . وَقَالَ :

وَأَشْمَتْ وَرَّادِ الْمِدَادِ كَانُهُ

إِذَا اشْتَقَّ فِي جَوْزِ الْفَلَاةِ فَلَيْقُ^(٢)

يُصِفُ طَرَفًا يَرْدُ مَاءَهُ وَهُوَ لَا وَرْدَ لَهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ :

(١) هُوَ الْبَيْتُ الثَّانِي مِنْ تَفْسِيهِهِ الَّتِي يَدَّخِرُهَا (يُرِيدُ مِنْ مَرْيَمَ الْإِسْرَافِي) وَمَعْنَاهَا :

أَمِنْ دَمْعَيْنِ عَرَجَ الرِّكْبَ فِيهَا بِمَجْلَى الرِّخَاءِ هَذَا آتَى الْإِلَهَامَا

(٢) وَرَوَاهُ الْأَسَافُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ الْأَمِينِ الشَّيْخِيُّ فِي شَرْحِ دِيْوَانِ الشَّامُخِ :

وَأَعْسَبَ وَرَاءَهُ الْكَلَامُ هَكَذَا إِذَا اشْتَقَّ فِي جَوْزِ الْفَلَاةِ فَلَيْقُ

وَرَوَى فِي لِسَانِ الْعَرَبِ مِثْلَ هَذَا وَلِي مَكَانٍ لَفْظُ « لَيْقُ » لَفْظُ « اجْتَازَ » .

كَأَنِّي كَذَّبْتُ الرَّحْلَ أَحَقَّ سَهْوًا

أَطَاعَ لَهُ مِنْ (١) رَامَتَيْنِ حَدِيقُ

فَجَلَّ الْحَدِيقَ مَطِيئًا لِهَذَا الْحِمَارِ لِمَا تَمَكَّنَ مِنْ رَعِيهِ ، وَالْحَدِيقُ لاطاعة
ولا معصية له .

باب الواحد يراد به الجمع

وَمِنْ سُنَنِ الْعَرَبِ ذِكْرُ الْوَاحِدِ وَالْمُرَادُ الْجَمِيعُ ، كَقَوْلِهِ لِلْجَمَاعَةِ
« صَبِئْتُ » وَ « عَدَوْتُ » . قَالَ اللَّهُ جَسَلُ ثَنَاؤُهُ « هَؤُلَاءِ ضَيْغِي » وَقَالَ « ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » وَقَالَ « لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » وَالضَّيْغُ لَا يَكُونُ إِلَّا
بَيْنَ اثْنَيْنِ . وَيَقُولُونَ « قَدْ كَثُرَ الدَّرَمُ وَلِلدَّيْنَرِ » وَيَقُولُونَ :

فَقُلْنَا أَسْلَمُوا إِنَّا أَخْرَجُكُمْ

وَيَقُولُونَ : كُلُّوا فِي نِصْفِ بَطْنِكُمْ تَعِشُوا

و « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنْتَ كَادِحٌ » وَ « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ
الْكَرِيمُ » .

باب الجمع يراد به واحد واثنان

وَمِنْ سُنَنِ الْعَرَبِ الْإِتْيَانُ بِقِطْعَةِ الْجَمِيعِ وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ وَاثْنَانِ كَقَوْلِهِ
جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَلَيْسَ شَهْدَ عَذَابِهِمَا طَائِقَةٌ » يُرَادُ بِهِ وَاحِدٌ وَاثْنَانِ وَمَا فَوْقَ . وَقَالَ
(قَتَادَةُ) فِي قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « إِنْ يُفْعَلْ عَنْ طَائِقَةٍ مِنْكُمْ مُتَدَبِّبٌ طَائِقَةٌ » :
كَلَنَ زَجَلًا مِنَ الْقَوْمِ لَا يَمْلَأُ لَهُمْ عَلَى أَقَاوِيلِهِمْ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ وَيَسِيرُ مُجَانِبًا لَهُمْ فَسَمِعَهُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ طَائِقَةٌ وَهُوَ وَاحِدٌ . وَمِنْهُ « إِنْ

(١) فِي مَرْحِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الشَّافِعِيُّ لِمَرْأَتَيْهِ « لِي وَامْتِنِ » مَكَانَ « مَنْ وَامْتِنِ » .

الذين يصادونك من وراء الحجرات، كان رجلاً نادى «يا محمد! إنني
مدحي زينٌ وإن شئتني شين» فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله
وسلم «وبك. ذاك الله جل ثناؤه». وقال «قد صفت قلوبكما، وهما قلبان
وقال «يَمَّ يَرْجِعُ للرسول، وهو واحد يدلّ عليه قوله جل ثناؤه
«إِرجِعْ إليهم».

باب آخر

العرب نصف الجميع بصفة الواحد كقوله جل ثناؤه «وإن كنتم
جنبا» فقال جنبا وهم جماعة. وكذلك قوله جل ثناؤه «والملائكة بعد ذلك
ظهير». ويقولون «قوم عدل ورضى» قال (زهير):

وإن يشتجر قوم يقل سراً بهم
هم يبتا، فهم رضى وهم عدل^(١)

وربما وصفوا الواحد بلفظ الجميع فيقولون «برمة أعشار» و«نوب
أهدام» و«حبل أحناق» قال:

جاء الشتاء وفيصي أخلاق
شرلخيم بضحك منه التواق

فأخبرني علي بن إبراهيم عن محمد بن فرح عن سُلَعة عن (الفراء) قال:
التواق ابنه. ومن الباب «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله» إنما
أراد المسجد الحرام. ويقولون «أرض سباسب» يسمون كل بقعة منها

(١) من صيدته التي يمدح بها (سلطان بن أبي حارة المري) ويرى البيت «مضى يشتجر قوم
تقل» ومطهرها:
سبحا القاب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقر من سلمى التنايق والتقل

«سَبَّأَ» لا تساعها .

ومن الجمع الذي يُراد به الاثنان قولهم « امرأة ذات أوزك وما يك » .

باب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع

ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع ، فيقال للرجل العظيم « انظروا في أمري » . وكان بعض أصحابنا يقول : إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول « نحن فعتنا » ، فلي هذا الابتداء خُطِبوا في الجواب . قال الله جل ثناؤه « قال رب ارجعون » .

باب آخر

العرب تذكّر جماعة وجماعة ، أو جماعة وواحدًا ، ثم تختار منهما بلفظ الاثنين . يقول (الأسود) :

لإن النية والخوف كلاهما

يوفي الخارم يرقبان سواي

وقال آخر :

ألم يعزُك أن حبال قيس

وثلب قد تباينتا اقطاعا

وقد جاء مثله في القرآن : قال الله تبارك اسمه « ان السجود والأرض كانتا رَمًا قَتَقْنَاهَا » .

باب مخاطبة الواحد خطاب الجميع

إذا أُريد بالخطاب هو ومن معه

قال الله جل ثناؤه « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعلهن »

نخطب صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بلفظ الجميع لأنه أريد هو وأمته .
وكان (ابن مسعود) يقرأ « ارجعوا إليهم » أريد رسول ومن معه . ومن
قال « ارجع إليهم » خاطب مدثرهم .

باب تحويل الخطاب من الشاهد الى الغائب

العرب تخاطب الشاهد ، ثم تحول الخطاب الى الغائب . وذلك
كقول (الثأبنة) :

يُدارَ مَيَّةً بِالْبَيَاءِ فَاصْنَدِ

أَقُوتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَيْدِ

نخطب ثم قال « أقوت » . وفي كتاب الله جل ثناؤه « حتى إذا
كنتم في الفلک وجريين بهم » وقال « وما آتيتكم من زكاة تريدون وجه
الله فأولئك هم المضمضون » . وقال « ولكن الله حبيب اليكم الايمان —
وقال في آخر الآية — فأولئك هم الراشدون » . ومنه قوله :

أَسْبِي بِنَاؤُ أَحْبَبِي لِمَلُومَةٍ

لَدَيْنَا وَلَا مَقْلَبَ إِن قُلْتُ

باب تحويل الخطاب من الغائب الى الشاهد

وقد يحملون خطاب الغائب للشاهد ، قال (المدلي) :

يَا وَجْحَ قَسِي كَانَ جِدَّةَ خُلْدِ

وَيَاضُ وَجْهِكَ لَلرَّابِ الْأَعْمَرِ

فخبر عن خالد ثم واجه فقال « وياض وجهك » . ومنه :

سَطَّتْ مِرَارَ الْمَاشِقِينَ فَاصْبَحَتْ
عَبْرًا عَلَى طَلَابِكَ أَنَّهُ مَخْرَمٌ

باب مخاطبة المخاطب ثم يجعل الخطاب لغيره

أَوْ يُخَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ يَجْعَلُ الْخَبْرَ الْمُتَصِلَ بِهِ لِغَيْرِهِ
قَالَ أَقْبَجُ ثَنَاؤُهُ «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ - الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْكَفَّارِ - فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ
قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « فَهَلْ أَنْتُمْ - لِمَنْ » . وَقَالَ « فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى » .
وَقَالَ « فَلَا يَخْرُجَنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ قَاشِقِي » وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ أَنْ يُتَبَدَأَ
الشَّيْءُ ثُمَّ يُخَبَّرُ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ (شَدَّادُ بْنُ مَعَاوِيَةَ) :

مَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَأَنِّي
وَجِرْوَةٌ لَا تَرُودُ وَلَا تَمَارُ

و « جِرْوَةٌ » فَرْسُهُ ، فَالْمَثَلَةُ عَنْهُ وَالْخَبْرُ عَنْ غَيْرِهِ . وَقَالَ (الْأَعَشَى) :

وَإِنْ أَمْرًا أَسْرَى إِلَيْكَ وَدَوَّةٌ
مِنَ الْأَرْضِ مَوْمَةٌ وَهَمَاءُ سَمَقٍ
لَمْ حَقَّقْهُ أَنْ تَسْتَجِيبِي لِعَوْنِهِ
وَأَنْ تُلْطِي أَنْ الْمُنَانِ مَوْفَقٍ

وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَا يَشِيءُ هَذَا وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ
« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ
أُشْرِكُوا - فَبَدَأَ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ - إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ، بَدَأَ بِهِمْ ثُمَّ حَوَّلَ
الْخُطَابَ . وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

لَمَلَىٰ إِبْنُ مَالَتٍ بِي الرِّيحِ مَيْلَةً

على (ابن أبي ذبان) أن يَتَكَلَّمَا

فذكر نفسه وترك وأقبل على غيره ، كأنه أراد : لعل (ابن أبي ذبان) أن يتكلم إني مالت بي الريح عليه . ومثله في كتاب الله جل ثناؤه « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربسن » فغبر عن الأزواج وترك للذين . ومثله :

بَنِي أُسْدٍ إِبْنُ ابْنِ قَيْسٍ وَقَتْلَهُ

بَقِيرِ دَمِ دَارِ الْمَذَلَّةِ حَلَّتْ

فترك (ابن قيس) وخبر عن القتل ، كأنه قال : قتل ابن قيس ذل .

باب الشيتين ينسب الفعل إليهما وهو لأحدهما

وينسبون الفعل إلى اثنين وهو لأحدهما . وفي كتاب الله جل ثناؤه « فلما بلغنا مجمع بينهما نسيا حوتهما وقد بلغنا » وكان النسيان من أحدهما لأنه قال « أتيت نسيئ الحوت » . وقال « مرج البحرين ينقيان » ثم قال - يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرجان من الملح لا العذب . وينسبون الفعل إلى الجماعة وهو لواحد منهم . قال الله جل ثناؤه « وإذا قتلتم نفساً » وإنما كان القاتل واحداً .

باب نسبة الفعل إلى أحد اثنين وهولهما

قال الله جل ثناؤه « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها » وإنما انفضوا إليهما . وقال الله جل ثناؤه « والله درسوله أحق أن يرضوه » . وقال « واستمعينا بالصبر والصلاة وإني » . ثم قال الشاعر :

أزّرخ الشباب والشّر الأسد ودّ مالم يُعاصَ كان جنونا
وقال آخر :

نحنُ بما عندنا وأنت بما عدا ذلك راضٍ والرأيُ مخيفُ

باب أمر الواحد بلفظ أمر الاثنين

قول العربُ « افلا ذلك » ويكون المخاطب واحداً . أنشد (الفراء) :

فقلتُ لصاحبي : لا تمسنا
بنزع أصوله واجدز شيعا

وقال :

فان تزعجاني يا ابن عَنانٍ أنزع
وان تدعاني أحمر عرساً منما

وقال الله جل ثناؤه « القيا في جهنم » وهو خطاب لفرة النار
والإبانية . قال : وثرى أن أصل ذلك أن الرثقة أدنى ما يكون ملامة نمر
بغري كلام الواحد على صاحبه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر الناس قولاً
« يا صاحبي » و « يا خليلي » .

باب الفعل يأتي بلفظ الماضي وهو رهن أو مستقبل

وبلفظ المستقبل وهو ماضٍ

قال الله جل ثناؤه « كنتم خير أمة » أي : أنتم . وقال جل ثناؤه
« آتى أمر الله » أي : يأتي . ويجيء بلفظ المستقبل وهو في المعنى ماضٍ .
قال الشاعر :

ولقد أمرُ على اللّيم بسبّي

فمضيتُ عنه وقلتُ لا يسبني

قال « أمر » ثم قال « مضيت » . وقال :

وما اضحني ولا أَسَيْتُ إِلَّا

رأوني منهم في كرفان

وفي كتاب الله جل ثناؤه « فلم تهتدون أنبياء الله من قبل » وقال

« وآتبعوا ما تتلو الشياطين » أي ما تلت . وقال آخر :

ونفمان يزيدُ الكأسَ طيًّا

سقيتُ إذا تَوَرَّتْ النجومُ

ومثله « وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل : فلم

يعذبكم ؟ » المعنى : فلم عذب آباءكم بالسخ والقتل ؛ لأن النبي صلى الله

تعالى عليه وآله وسلم لم يؤمر بأن يحتج عليهم شيء لم يكن ، لأن الجاحد

يقول : إني لا أعذب . لكن احتج عليهم بما قد كان .

باب المفعول يأتي بلفظ الفاعل

يقول « سرّ كاتم » أي مكتوم . وفي كتاب الله جل ثناؤه « لا عاصم

اليوم من أمر الله » أي لا معصوم و « من مك دافق » و « عيشة

راضية » أي مرضي بها . و « جعلنا حرماً آمناً » أي مأموئاً فيه . ويقول

الشاعر :

إِنَّ الْبَيْضَ لَمَنْ يُمَلُّ حَدِيثُهُ

فأقعّ فؤادك من حديث الوامق

أي المومق . ومنه :

أَنَا شِرٌّ لَا زَلَّتْ عَيْنُكَ آسِرَةً

أي : مأشورة .

وزعم ناس أن الفاعل يأتي بلفظ للمفعول به . ويذكرون قوله جل ثناؤه « أَنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا » أي : آتيا . قال (ابن السكيت) : ومنه « عَيْشٌ مَغْبُونٌ » يريد أنه غاب غير صاحبه .

باب آخر

من سنن العرب وصف الشيء بما يقع فيه أو يكون منه كقولهم « يومٌ عاصفٌ » المعنى : عاصفُ الريح . قال الله جل ثناؤه « فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ » قيل : عاصف لأنَّ عَصُوفَ ربحه يكون فيه . ومثله « لَيْلٌ نَائِمٌ » و « لَيْلٌ سَاهِرٌ » لأنه يُنَامُ فيه ويُسَهَرُ قال (أوس) :

خَذَلْتُ عَلَى لَيْلَةٍ سَاهِرَةً

بصحراء شَرَجَ إِلَى فَاظِلَّةٍ

وقال (ابن بَرَّاق) :

قَوْلٌ سَلْبِي : لَا أَمْرُضُ لِقَاعَةً

وَلَيْلُكَ مِنْ لَيْلِ الصَّالِكِ نَائِمٌ

ومثله :

لَقَدْ لُتْنَا يَا أُمَّ غِيلَانَ فِي السُّرَى وَنَمَتْ وَمَالِلُ الْمَلِيَّ بَنَائِمِ

وقولون « لَا يَرْقُدُ وَسَادُهُ » وإنما يريدون متوسدا الوساد .

باب معاني أبنية الأفعال في الأغلب الأكثر

أول ذلك (فَعَلْتُ) يكون بمعنى التكثير نحو «غَلَقْتُ الأبوابَ» .
وبمعنى «أَفْعَلْتُ» نحو «خَبَرْتُ» وأَخْبَرْتُ» . ويكون ضاذاً لَأَفْعَلْتُ نحو
«أَفَرَطْتُ» : جَزْتُ العَدَّ . و «فَرَطْتُ» : قَصَّرتُ . ويكون بنية لا
لمنى نحو «كَلِمْتُ» . ويكون قَلْتُ : نَسَبْتُ كقولك «شَجَمْتُ» . وَظَلَمْتُ :
نسبته إلى الشجاعة والظلم .

وأما (أَفْعَلْ) فيكون بمعنى «فَعَلْتُ» قول «أَسْقَيْتُهُ وَسَقَيْتُهُ» : قَلْتُهُ
«سَقَيْتُكَ» . ويكون بمعنى «فَعَلْتُ» نحو «مَحَضْتُهُ الرُّدَّ» . وَأَمَحَضْتُهُ .
وقد يختلفان نحو «أَجْبَرْتُهُ عَلَى الشَّيْءِ» . و «جَبَرْتُ العَظْمَ» . وقد يضادان
نحو «نَشَطْتُ المَقَنَةَ» : عَقَدْتُهَا . و «أَنْشَقْتُهَا» : إِذَا حَلَّتْهَا .

و (فَاعَلَ) يكون من اثنين . نحو «ضارب» . ويكون فاعَلٌ بمعنى
«فَعَلَ» نحو «قَاتَلَهُمْ الله» . و «سَافَرَ» . ويكون بمعنى «فَعَلَ» نحو
«ضَاعَفَ» . وَضَعَفَ .

و (تَفاعَلَ) يكون من اثنين ، نحو «تَخَاصَمَا» . ويكون من واحد ،
نحو «تَرَامَى لَهُ» . ويكون إظهاراً للغير ما هو عليه ، نحو «تَنَافَلَ» : أَظْهَرَ
غِلَّةً وليس بنافل .

و (تَعَمَّلَ) يكون لتكلف الشيء وليس به ، نحو «تَشَجَّعَ» . وَتَعَمَّلَ .
ويكون بمعنى «تَفاعَلَ» نحو «تَعَمَّى» . وتَعاظَمَا . ويكون لأخذ الشيء
نحو «تَقَفَّ» . وَتَعَلَّمَ . ويكون بنية نحو «تَكَلَّمَ» . ويكون «تَعَمَّلَ»
بمعنى «فَعَلَ» نحو «تَعَلَّمَ» بمعنى اعلم . قل :

تَعْلَمُ أَنَّ بَدْ الشَّرِّ خَيْرٌ
وَأَنَّ لَهُنَّ الْفُتُورَ اقْتِشَاعًا

وَأَمَّا (اسْتَفْعَلَ) فَيَكُونُ بِمَعْنَى التَّكَافُفِ ، نَحْوُ « تَعَطَّم . وَاسْتَعْظَمَ »
و « تَكَبَّرَ . وَاسْتَكَبَّرَ » وَيَكُونُ اسْتَفْعَلَ بِمَعْنَى الِاسْتِدْعَاءِ وَالطَّلَبِ نَحْوُ
« اسْتَوْهَبَ » . وَيَكُونُ بِمَعْنَى « فَعَلَ » : « قَرَأَ . وَاسْتَقَرَّ » .
وَأَمَّا (افْتَعَلَ) فَيَكُونُ بِمَعْنَى قَلَّ ، نَحْوُ « شَوَى . وَلِشَوَى » وَيَكُونُ
بِمَعْنَى حَلُوثِ صِفَةٍ فِيهِ نَحْوُ « افْتَقَرَ » .
وَأَمَّا (افْعَلَّ) فَهُوَ فِعْلُ الْمَطَاوَعَةِ . نَحْوُ « كَسَرْتُهُ . فَأَنْكَسَرَ » .
و « شَوَيْتُ الْلَحْمَ . فَأَلْشَوَى » . قَالَ

قَدْ أَلْشَوَى شَوْأَنَا الرَّعْبُ

فَاغْتَرَبُوا مِنَ الْغَنَاءِ فَكَلُوا

باب الفعل اللازم والمتمدى بلفظ واحد

قَوْلُ « كَسَبَ زَيْدٌ الْمَالَ . وَكَسَبَهُ غَيْرُهُ » . وَ « هَبَطَ . وَهَبَطَ غَيْرُهُ » .
و « جَبَرَتِ الْيَدُ . وَجَبَرَتْهَا » . وَيَكُونُ فَعْلٌ بِمَعْنَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ نَحْوُ « بَعَثُ
الشَّيْءَ » وَ « بَعَثَهُ » : اشْتَرِيَهُ . وَ « رَأَتْهُ الشَّيْءُ » أَرَاهُ وَشَدَّدَتْهُ .
و « شَبَّتُ الشَّيْءَ » جَمَعْتُهُ وَفَرَّقْتُهُ .

باب البناء الدال على الكثرة

الْبِنَاءُ الدَّالُّ عَلَى الْكَثْرَةِ « فَعُولُ . وَفَعَالٌ » نَحْوُ « ضَرَبَ . وَضَرَابٌ »
وَكُنْكَ « مِفْعَالٌ » إِذَا كَانَ عَادَةً نَحْوُ « مِظْطَارٌ » وَ « امْرَأَةٌ مُدْخِلَةٌ »

إِذَا كَانَتْ تِلْكَ كُورُ وَكَذَلِكَ « مِيْنَاتُ » فِي الْاَنَاءِ .

باب الأبنية الدالة في الأغلب الأكثر على معان

وقد تختلف

يقولون بما كان على (فعلان) دل على الحركة والاضطراب نحو «الزَّوَانِ .
والنَّهَّانِ» . و (فعلان) يجي في صفات تقع من جُوعٍ وعَطَشٍ نحو «عَطْشَانِ .
و غَرَّانِ» أو ما يضاد ذلك نحو «رَيَّانِ . وسكران» .

و (فعل) يكون في الوَجَعِ نحو «وَجَعٌ . وَحَبَطٌ» أو ما أشبهه
من «فَزَعٍ» . ويحي من هذا (فعل) نحو «سَقِيمٌ» . ويكون من الباب
«بَطِرٌ . وفَرِحٌ» وهذا على مُضَادَّةِ وَجَعٍ وَسَقِيمٍ .

قلوا : والصفات بالالوان تأتي على (أفعل) نحو «أَحْمَرٌ . وَأَسْوَدٌ» .
والافعال منها على «فعل» مثل «صَهْبٌ» . وعلى «فعل» نحو
«صَنِيْعٌ» . وعلى «أفعال» مثل «أَحْمَارٌ» . وكذلك الميوب والاذواء
تكون على «أفعل» نحو «أَزْرَقٌ . وَأَعْوَرٌ» . وأفعالها على «فعل» نحو
«عَوِرَ . وَشَتَرَ» . ويكون الاذواء على (فعل) نحو «الغَلَابُ . وَالْخُحَارُ» .
والاصوات أكثرها على هذا نحو «الدُّعَاءُ . والصَّرَاحُ» . وللاصوات جلب
آخر على (فعل) نحو «الهِدِيرُ . والصُّجُجُ» . و (فألة) يأتي أكثره
على ما يفضل عن الشيء ويسقط منه نحو «النَّحَاةُ» . و (فألة) في
الصناعات كالتيجارة والتجارة . ويكون (الفعال) في الاشياء كالصوب : كالتيطر
والشمس . وفي السمات : نحو الملائط والمليط ، وفي بلوغ الاشياء تهاتها :
نحو الصبرام والجيزاز . وتكون الصفات اللازمة للنفوس على (فعل) نحو

شرف وخفيف ، وعلى أضدادها : نحو وَضِعَ وكَبِيرٌ وصَغِيرٌ . هذا هو
الاعلب وقد يختلف في اليسير .

باب الفرق بين ضدين بحرف أو حركة

الفرق بين ضدين بحرف — قولهم « يُتَوَى » من اللدأو « يَدَاوِي »
من اللدواء . و « يَخْتَرِ » إذا أجزو « يَخْتَرِ » إذا قص : من خَفَرٍ وَأَخْفَرٍ ،
وهو كثير .

وما كان فرقه بحركة — قولهم « لَمَنَ » إذا كثر اللعنَ و « لُمَنَ »
إذا كان يَلْمَنُ و « هَزَأَ » وهزأه و « سَخَرَهُ » وسخره :

باب التوهم والايهام

ومن سنن العرب التوم والايهام ، وهو أن يتوهم أحدهم شيئاً ثم
يجهل ذلك كالخفي . منه قولهم « وقتتُ بالربع أسأله » وهو أكل عقلاً من
أن يسأل رسماً يعلم أنه لا يسمع ولا يفهم لكنه قبح لما رأى السكّن
رجلوا وتوهم أنه يسأل الربع أين اتوا . وذلك كثير في ألسنتهم ، قال :

وقتتُ على ربيع لية نلحي

فمازلت أكي عنده وأخاطبه

وأسألُ حتى كاد مما أجه (١)

تكلمني أحباراه وملاعيه

وتوهم وأوهم أن ثم كلاماً ومكلاماً . وبين ذلك (ليد) بقوله :

(١) يدوي هـ أجه ، ضم الاول وكر الثاني من باب الألف . وهو أقصم بالاصل

فوقتُ أسألها وكيف سؤلتنا
صماً خوالده ما بين كلامها

ومن الباب قوله :

لا يُزعجُ الارببَ أهوالها

إنما أراد : ليس بها أربب يُزعج . وكذلك :

على لا يحب لا يمتدنى لمتاره

إنما أراد : لا متار به . وأظهر ذلك قول (البصدي) :

سبقتُ صباحَ فراريجها وصوت نواقيس لم تضرب

وقال (أبو ذؤيب) :

مُتَقَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِيءٍ كَالْقَرْطِ صَاوٍ غَيْرُهُ لَا يُرْضَعُ

أو هم أن تم غباً ، وإنما أراد : لا غبره فيرضع .

باب البسط في الاسماء

العرب تبسط الاسم والفعل فزيد في عدد حروفهما ، ولمل أكثر

ذلك لإقامة وزن الشعر ونسوية قوافيه ، وذلك قول القائل :

وليلة خلدة خودا طخياء تُنشي الجدي والفرقودا

فزاد في « الفرقد » الواو وضم الفاء لأنه ليس في كلامهم « فكلوا »

ولذلك ضم الفاء . وقال في الزيادة في الفعل :

لو أن عمراً أن يرقودا

ومنه : أقول إذ خرت على الكلكل

أراد « الكلكل » وفي بعض الشعر « فأنظروا ^(١) » أراد « فأنظروا » .

وهذا قريبٌ من الذي ذكرناه في الخزم والزيادة التي لأمضى لها .

باب القبض

ومن سنن العرب القَيْضُ محاذاةٌ للبسط الذي ذكرناه، وهو النقصان من عدد الحروف كقول القائل :

غَرَّني الوِشاحَيْنِ ، صَمَوْتُ الخَلْخلِ

أراد الخَلْخلَ . وكُنْثَكَ قول الآخر « وَسُرْحٌ حَرْجُجٌ » أراد « حَرْجُوجًا » وهي الضامير . ويقولون « دَرَسَ النَّا » يريدون «للتَّزَلُّ» و:

كَاغَمَا تُذْ كِي سَنَا بِكُهَا الْعَبَا

أراد نَارَ الْجَبَابِيبِ . وقال (أبو النجم) : «أَمْسِكَ فلانٌ عَنْ فُلٍ» (١)

أراد عن فلان . و :

ليس شيء على النَوْنِ بِخَالٍ

أي : بِخَالِدٍ . ويقولون :

أَسْعَدَ بَنَ مَالٍ أَلَمْ تَعْبُوا ؟

ولمَّا أراد مالكًا . وقال آخر :

وَكَلَدَتْ فَرَّازَةَ تَشْقَى بَا فَاوَلَى فَرَّازَةُ أَوَّلَى فَرَزَلَا .

وقال (أوس) وهو الذي يسميه النحويون « الترخيم » :

تَنَكَّرْتُ مَنَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ لَيْمِ

أراد : لَيْمِيسَ . وهذا كثير في أشعارهم ، وما أحسب في كتب الله جل ثناؤه منه ، إلا أنه دُوِيَ عن بعض القراءة أنه قرأ « وَغَادُوا بِمَالٍ »

(١) «قرن» متدي واللمة من رجز له وتعلمه : لي لجة امسك فلان من كل

أراد « يا مالك » والله أعلم بصحة ذلك . وربما وقع الخلف في الأول نحو قوله :

بسم النبي في كل سورة سمة
أراد « اسمه » و « لاه ابن عمك » أراد : لله ابن عمك .

باب المحاذاة

معنى المحاذاة - أن يُجمل كلامٌ بمحذاء كلام ، فيؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفين فيقولون « الندايا والمشايا » فقالوا « النديا » لافضلها إلى « المشايا » . ومثله قولهم « أعوذ بك من السامة واللامة » فالسامة من قولك « سمّت » إذا خصّت و « اللامة » أصلها « ألّمت » لكن لما قرئت بالسامة جُمِلت في وزنها . وذكر بعض أهل العلم أن من هذا الباب كتابة المصحف ، كتبوا « والليل إذا سجي » بالياء وهو من ذوات الواو لما قرئ بغيره مما يكتب بالياء . قال : ومن هذا الباب في كتاب الله جل ثناؤه « ولو شاء الله لسلطهم عليكم » فاللام التي في « لسلطهم » جواب « لو » ثم قال « ففعلواكم » فهذه حُوذيت بتلك اللام ، وإلا فالعنى : لسلطهم عليكم ففعلواكم . ومثله « لا عذبته عذاباً شديداً أو لأذبحنه » فهما لا ما قسم ثم قال - أولياً يعني « فليس ذا موضع قسم لأنه عثر للمهدد فلم يكن يُقسم على المهدد أن يأتي بغيره ، لكنه لما جاء به على أمر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه ، فكذا بلب المحاذاة . قال : ومن الباب « وزنته فانزف » وكلته فاكتال » أي استوفاه كيلاً ووزناً . ومنه قوله جل ثناؤه « فما لكم عليهن من عدة تعدّونها » يستوفونها لأنها حق للأزواج على النساء .

ومن هذا الباب الجزاء على الفعل بمثل لفظه ، نحو « إنما نحن مستهزؤن ، الله يستهزئ بهم ، أي يجازيهم جزاء الاستهزاء . و « مَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » و « يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » و « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » و « جزاء سَيِّئِهِ سَيِّئٌ مَثَلًا » . ومثل هذا في شعر العرب قول القائل :
 أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

باب الاضمار

من سنن العرب الاضمار . ويكون على ثلاثة أضرب : إضمار الأسماء وإضمار الأفعال ، وإضمار الحروف .

فن إضمار الأسماء قولهم « أَلَا يَسْلَمِي » يريدون « أَلَا يَاهُنَّةُ اسلمي » . وفي كتاب الله جل ثناؤه « أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بمعنى : أَلَا يَاهُؤُلَاءِ اسجدوا . فلم يذكر « هؤلاء » بل أضمرم اتصلت « يا » بقوله « اسجدوا » فصار كأنه فصل مستقبل . ومثله قول (ذي الرمة) :

أَلَا يَسْلَمِي يَلْدَارِيَّ عَلَى الْيَلِيِّ وَلَا زَالٌ مِنْهَا بِحَرِّ عَائِكَ الْقَطْرِ
 وأخبرني علي بن إبراهيم عن محمد بن فرح عن صلة عن (القراء) سمع
 بعض العرب يقول « أَلَا يَرْمَحُنَا » يعني : أَلَا يَلْبِسُنَا رِحْمَنَا . ويقولون :

يَاهِلْ أَنَا هَا عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَتِّ
 يقولون لي يَحْتَفُّ وَلَسْتُ بِمُخَالَفٍ

يعني : يَاهَذَا احْفَفْ .

ويضمرُونَ مِنَ الْأَسْمَاءِ « مَنْ » فيقولون « مَا لِي حِينَئِذٍ إِلَّا هُيْلٌ » أي :
 مِنْ لَهْ هَيْلٌ . و « كَذَبْتُمْ بَنِي شَلَبَ قَرْنَاهَا » أي : مَنْ شَابَ . وفي

كتاب الله جل ثناؤه « وما منّا إلا له مقام » أي : من له . ويضرون
« هذا » كقول (حميد) :

أنت الهلالي الذي كنّ مرّةً سمعنا به بالأرجي المصنف
أي : وهذا الأرجي ، يعني ببيره .

باب اضممار الحروف

ويضرون الحروف فيقول قائلهم (١) :

ألا أي هذا الأرجي أشهد الوغى

يعنى أن أشهد . ويقولون « والله لكنّ كنا » بمعنى لقد . وقول (الناينة) :

لكلّفتني ذنب امرئيه

وفي كتاب الله جل ثناؤه « ألم غلبت الروم » قالوا : معناها لقد غلبت .
إلا أنه لما أضمر « قد » أضمر اللام . وفي كتاب الله جل ثناؤه « سنبيها »
سيرتها الأولى « فقالوا : ألى سيرتها . و « اختار موسى قومه » أي من
قومه . ويقولون « اشتتكتك » أي إليك . و « هل يسمونكم » بمعنى
لكم . و « أوجؤكم حصرت » أي قد حصرت . ويقول قائلهم « حطت »
بأفه لنا . أي لقد . وفي كتاب الله جل ثناؤه « فإن أضمرتم فما استيسر »
من الجنّي » أي فليكم . وقيل في قوله جل ثناؤه « وترغبون أن
تتكبروهن » معناها عن . وقوم يقولون : في أن تكبروهن . وفي كليب
الله جل ثناؤه « ومن آياته يُريكم البرق » أي أن يريكم . وكقوله جل ثناؤه
« ومن آياته أن خلق » .

(١) هو (طرفة بين اليد) من نسخة ٥٠٠ - راجع صفحة ١٠٤ من (المصاحي) .

باب اضمار الافعال

من ذلك « قيل . ويقال » . قال الله جل ثناؤه « فأما الذين أسودت
وجوههم أكَفَرْتُمْ » معناه : فيقال لهم ، لان « أما » لا يبدلها في الخبر من
فاء ، فلما أضمر القول أضمر الفاء . ومثله :

فلا تدفوني لندفي محرّم عليكم ولكن خايري أم عامر
أي اتركوني للتي قال لها « خايري » . ومنه « ثم يخرجكم طفلاً
ثم لتبأنوا أشدكم » أي : يصرّكم لتبأنوا أشدكم . ومن باب الاضمار
« أنبأنا وتقرّ » أي : أنري صلباً . وفي كتاب الله جل ثناؤه « وتنفقاهم
للاسلكة عذا يومكم » أي يقولون . وما أسرّ رجل أسيراً ليلاً فلما أصبح رآه
أسود فقال : أعبدت سائر الليلة ، كأنه قال : أواني أسرت عبداً . ومن
الاضمار « قل لمن مافي السماوات والارض ، قل لله » فهذا مضمّر كأنه لا
سألهم عاينوا بالسؤال عليه فقيل له : قل لله . ومن الاضمار « قتلنا اضربوه
يمضها ، كذلك » معناه : فضرّوه فحيّ ، كذلك . ينجي الله الموتى .
ومثله في كتاب الله كثير .

باب من الاضمار الآخر

العرب تضمر الفعل فيشبهه المعنى حتى يُمتَرَفِيَوْفَ على المراد . وذلك
كقول (الخنساء) :

يا صخرُ وراَدَ ماء قد تَنَازَرَهُ
اهلُ اللواردِ مافي ورْدِهِ عارُ

ظاهر هذا أن مناه : ما على من ورده عار ، وليس في ورد الماء عار
فَيُجَحِّجُ به . ولكن ميناه : مافي ترك ورْدِهِ مخافة عار . وإنما عتت أنه مورد

مأه غوقاً يحاماه الناس فيُذَرُّ بعضهم بعضاً، قول : فهو يرد هذا الماء
لجرائته . ومثله قول (التابته) :

فإني لا ألامُ على دخول ولكن ماوراءك يا عِصْلَمُ
يقول : لا ألامُ على ترك الدخول ، لأن الثمن قد كان نذر دمه متى
رآه ، فخطب بهذا الكلام حاجبه . وقال (الأعشي) :

أأزمت من آل ليلى ابتكاراً وشطت على ذي هوى أن تراه
ظاهرُ هذا : أأزمت أن تبكر منهم . وإنا للمنى : أأزمت من
أجل آل ليلى وشوقك إليهم أن تبكر من أهلك ؛ لأنه عزم الرحلة إليها
لأعنها ، ألا تراه يقول :

وبانت بها غربات النوى وبنتل شوقاً بها واد كلوا
وفي كتاب الله جل ثناؤه : « ألا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم
الآخر أن يجاهدوا » التأويل : لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم
الآخر أن يقاتلوا عن الجهاد .

باب التعويض

من سنن العرب التعويض - وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة . فيقيمون
الفعل الماضي مقام الراهن ، كقوله جل ثناؤه « قل سنظر أصدقت أم
كنت من الكاذبين » المعنى : أم أنت من الكاذبين . ومنه « وما جئنا القبة
التي كنت عليها » بمعنى : أنت عليها .

ومن ذلك إقامة المصدر مقام الأمر ، كقوله جل ثناؤه « فسيحان
الله حين تُسْمَوْنَ وحين تُسَيِّحُونَ » والسبحة : الصلاة . يقولون « سَبَّحْ »

سُبْحَةَ الضحى . فتأويل الآية : سَبَّحُوا لله جل ثناؤه ، فصار في معنى الأمر والاعراء ، كقوله جل ثناؤه « فَضْرَبَ الرَّقَابَ » .

ومن ذلك إقامة الفاعل مقام المصدر ، يقولون « قُمْ قُمْ » قال :

قُمْ قُمْ ، قُمْ قُمْ لَقَيْتَ عَبْدًا نَاعِمًا

وعُشْرَاءَ رَأَيْنَا وَأَمَةً مُرَاعِمًا

وفي كتاب الله جل ثلوه « لَيْسَ لِقَوْمَتِهَا كَذِبَةٌ » أي تكذيب .

ومن ذلك إقامة المفعول مقام المصدر ، كقوله جل ثناؤه « بِأَيْكُمْ الْفِتْنُونَ » أي الفتنة . تقول الرب « ماله مَقُول . وحَلَفَ مَحْلُوفُهُ بِالله . وَجَهَدَ بِمُجْهَدِهِ » . ويقولون « ماله مَقُول ولا مجلود » يريدون القتل والجلد . قال (الشماخ) :

من القواي إذا لانت حريركتها يبق لها بدنها آكل وتجلود
وقول الآخر :

لئن أنا المجلود من صبرا

ومن ذلك إقامة المصدر مقام الفعل ، يقولون « لَقَيْتَ زَيْدًا وَقِيلَهُ كَذَا » أي يقول كذا . قال (كعب) :

بسى الوُشَاءَ حَوَالِيهَا وَقِيلَهُمُ إِتَكَ يَا بَنِ أَبِي سُلَيْمٍ لَقْتُوْلُ

قَاوِلُهُ . يقولون . ولتلك نصب

ومن ذلك وضعهم « قَبِيلًا » في موضع « مَقِيل » نحو « أَمْرٌ حَكِيمٌ »

بمعنى مُحْكَم . ووضعهم « قَبِيلًا » في موضع « مَقِيل » نحو « عَذَابٌ أَلِيمٌ » بمعنى مؤلم وتقول :

أَمِنْ رِيحَانَةٍ (١) لِهَدَائِي السَّمِيعُ

بمعنى : مستمع .

ومن ذلك وضعهم : « مفعولاً » بمعنى « فاعل » كقوله جل ثناؤه « حجاباً مستورا » أي سارراً ، وقيل : مستوراً عن العيون كأنه أخذته لا يحس بها أحد .

ومن ذلك إقامة الفعل مقام الحال كقوله جل ثناؤه « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » أي مبتغياً . وقال :
الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ والبرقُ يَلْعَمُ فِي غَمَامِهِ
أراد : لا مَعَا .

باب من النظر الذي جاء في القرآن

من نظوم كتاب الله جل ثناؤه (الاقطه اص) - وهو أن يكون كلام في سورة مقتصاً من كلام في سورة أخرى أو في السورة معها . كقوله جل ثناؤه « وآتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » والآخرة دار ثواب لا عمل ، وهو مقتضى عن قوله « ومن يأت به مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى » . ومنه قوله جل ثناؤه « ولولا نعمة ربّي لكنت من المحضرين » مأخوذ من قوله جل ثناؤه « فأولئك في المذاب محضرون » وقوله « ثم لنخضرنهم حول جهنم » . فأما قوله جل ثناؤه « ويوم يقوم الأشهاد » فيقال : إنها مقتصة من أربع آيات لأن « الأشهاد » أربعة : الملائكة في قوله جل ثناؤه « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » والانبيااء صلوّات

الله عليهم « فكيف إذا جئنا من بكل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » وأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله جل ثناؤه « وكذلك جئناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » والأعضاء لقوله جل ثناؤه « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .
ومن الاختصاص قوله جل ثناؤه « إني أخاف عليكم يوم التناد » قرأت حَقْفَةً ومشددة: فمن شدد فهو « ند » إذا ضر ، وهو مقتص من قوله « يوم يقر المرء من أخيه » إلى آخر القصة ، ومن خفف فهو يتكلم من النداء مقتص من قوله جل ثناؤه « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار . ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة . ونادى أصحاب الأعراف » وما أشبه هذمان الآي التي فيها ذكر النداء .

باب الأمن المحتاج إلى بيان وبيانه متصل به

قال الله جل ثناؤه « ويسألوك عن الأفعال » — فبيان هذا السؤال متصل به وهو قوله جل ثناؤه « قل الأفعال لله والرسول » ومثله « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات » و « يسألونك عن الساعة ، قل إنما علمها عند ربي » ومنه « أم يقولون شاعر تتر بصر به ريب المتون ، قل ترتصوا » فهذا وما أشبهه هو الابتداء الذي تمامه متصل به .

باب ما يكون بيانه مضمرًا فيه

وذلك مثل قوله جل ثناؤه « حتى إذا جاؤوها وقَّحت أبوابها » فهذا يحتاج إلى بيان لأن « حتى إذا » لا بد لها من تمام فالبيان هاهنا مضمر ، قالوا: تأويله: حتى إذا جاؤوها جاؤوها وفتح أبوابها . ومثله « ولو أن قرأنا سيرت

به الجبال» . فقله مضر كأنه قال جل ثناؤه : لكن هذا القرآن . وهذا هو الذي يسمى في سنن العرب « باب الكف » وقد ذكر .

باب ما يكون بياناً منفصلاً منه

ويجيء في السورة معها أو في غيرها

قال الله جل ثناؤه « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » قال أهل العلم :
 بيان هذا العهد قوله جل ثناؤه « ولئن أقم الصلاة وآتيت الزكاة وآمنتم رسلي »
 الآية ، فهذا عهد جل ثناؤه ، وعهدهم تمام الآية في قوله جل ثناؤه
 « لا كفرن عنكم سيئاتكم » فإذا وقوا بالعهد الأول أعطوا ما وعده .
 وقال جل ثناؤه « ويقول للذين كفروا ألسنت مرسلات » فلقد على هذا
 قوله جل ثناؤه « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين » وهذا هو
 الذي يسميه أهل القرآن جواباً . ومن الباب قوله جل ثناؤه في الاخبار
 عنهم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » فقبل لهم « ولو رجحناهم
 وكشفنا ما بهم من ضرر لاجأوا في طغيانهم » . ومن الباب قوله جل ثناؤه
 « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريين عظيم » فرد عليهم
 حين قيل « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ما كان لهم الخيرة . ومن الباب
 قوله « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن » ومنه قوله « الرحمن
 علم القرآن » . ومنه قوله « قالوا قد سمعنا لولنا مثل هذا » فقيل لهم
 « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
 بمثله » . ومنه « وانطلق التلائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم »
 فقيل لهم في الجواب « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم » . ومنه « أم يقولون

نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَعَصِّرُونَ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ فِي قِصَّةِ مَنْ قَالَ «لَوْ أَطَاعُوا مَا قَلَّوْا» فَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ «لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ» . وَمِنْ الْبَابِ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ «أَمْ يَقُولُونَ قَوْلَهُ» فَرَدَّ عَلَيْهِمْ «وَلَوْ قَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَا خَذَنَّا مِنْهُ بِالْإِيمَانِ» . وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ حِكَايَةَ عَنْهُمْ «مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْأَسْوَاقِ» قِيلَ لَهُمْ «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاكُلُوا الطَّعَامَ وَيَعْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» . وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» فَجِيلَ فِي سُورَةِ أُخْرَى «وَقَرَأْنَا مَا فَرَقْنَاهُ» . وَمِنْهُ «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَذَاهِبَ قَوْمَانِ يَخْتَصِمُونَ» فَتَفْسِيرُ هَذَا الْاِخْتِصَامِ مَا قِيلَ فِي سُورَةِ أُخْرَى «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ: اتَّبِعُوا أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ» إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ . وَقَالَ فِي قِصَّةِ قَوْمِ «لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فَالْبَشَرَى قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ «تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا تَتَحَزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ» . وَمِنْهُ حِكَايَةُ عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ «وَمَا أَهْدِيَكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاءُهُ «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» . وَمِنْ الْبَابِ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ «يَوْمَ يَبْسُوهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْطِقُونَ لَهُ» وَذَكَرُوهَا هُنَا الْخَلْفَ فِي قَوْلِهِ جَلِ ثَنَاءُهُ «وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» . وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلِ وَعَزَى فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ «إِنِّي مُتْلَبٌ فَاتَّصِرْ» فَجِيلَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ «وَنَضْرِبُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا» . وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلِ ثَنَاءُهُ «وَقَالُوا طُوفْنَا عَلَى غُلَبٍ» أَيِ أَوْعِيَةٍ لِلِّمْ قِيلَ لَهُمْ «وَمَا أَوْعِيَتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» .

وهذا في القرآن كثير أفردناه كتاباً وهو الذي يسمى (الجوابات).

باب آخر من نظوم القرآن

وذلك أن تنجيء الكلمة الى جنب الكلمة كأنها في الظاهر معها، وهي في الحقيقة غير متصلة بها : قال الله جل ثناؤه « إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَمَلُوا أَعْزَةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةٌ . وَكَذَلِكَ يَمْضُونَ » فقوله « وَكَذَلِكَ يَمْضُونَ » من قول الله جل اسمه لا قول المرأة . ومنه « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ — انتهى قول المرأة ثم قال يوسف — ذلك ليعلم المَلَكُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » . ومنه « يَا بَنَاتَ مَنْ بَشَانٍ مَرْقَدَاتُ — ونتم الكلام فقالت الملائكة — هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » ومنه قوله جل ثناؤه « إِنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا فَذَاهِبٌ بِصُرُونِ — فهذه صفة الأتقياء المؤمنين ثم قال — وإخوانهم يُعَذِّبُهُمْ فِي النَّفْيِ » فهذا رَجَعَ عَلَى كَفَلِهِمْ أَنَّ كَفَارَ مَكَّةَ يُعَذِّبُهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ فِي النَّفْيِ .

باب إضافة الشيء الى من ليس له

لكن أضيف اليه لاتصاله به

وذلك قوله « سَرَجُ الْقَرْسِ » و « ثَمَرَةُ الشَّجَرَةِ » و « غَمُّ الرَّأْعِي »

قال الشاعر :

فَرَوْحَنَ يَحْتَوُهُنَّ قَصْرًا

كَمَا يَحْتَوِي قَلَابَةَ الْأَجِيرُ

باب آخر من الإضافة

ومن ذلك إضافة الشيء إلى نفسه وإلى نفسه .

فالإضافة الأولى قول (النَّارُ) :

سَقِيَهُ بَيْنَ أَهَارٍ وَذُورٍ وَزَرَعَ نَابِتٍ وَكَرُومٍ جَفْنٍ
وَالجَفْنُ هُوَ السَّكْرَمُ .

فإنما إضافته إلى نفسه فقولهم « بارحة الأولى . ويوم الخميس . ويوم الجمعة » . وفي كتاب الله جل ثناؤه « ولندار الآخرة » و « حقّ اليقين » .

باب جمع شيئين في الابتداء بهما

وجمع خبريهما ، ثم يُردّ إلى كل مبتدئه به خبره

من ذلك قول القائل « اني وإياك على عدل أو على جور » فجمع

شيئين في الابتداء وجمع الخبرين ، ومراده : اني على عدل وإياك على جور .

وهذا في كلامهم وأشعارهم كثير . قال (امرؤ القيس) :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا

لَدَى وَكَرْهَا النَّابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

أراد : كأن قلوب الطير رطبا ونابا والحنف البالي . ومن هذا في

القرآن « وأنا وإياكم ألهي هدى أو في ضلال مبين » معناه : وأنا على

هدى وإياكم في ضلال . ومنه قوله جل ثناؤه « قل أرأيتم أن كان من

عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن

واستكبرتم » إذا ردّ كل شيء إلى ما يصلح أن يتصل به كان التأويل : قل

أرأيتم أن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن

وكفرتهم به واستكبرتم . ومثله « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » قالوا : لئالم يصالح أن يقول الرسول متى نصر الله كان التأويل : وزلزلوا حتى قال المؤمنون متى نصر الله فقال الرسول ألا إن نصر الله قريب رد كل كلام الى من صلح أن يكون له . ومن الباب قول (ذي الرمة) :

ما بال عينك منها لما يشكيبُ كأنه من كل مفرقة سربُ
وقراء غزيفة أثنى خوارزها مُشكِلُ ضيعته ينها الكتبُ

فمضى البيت : كأنه من كل مفرقة وقرأ غزيفة أثنى خوارزها سربُ
مُشكِلُ ضيعته ينها الكتب . وفي كتاب الله جل ثناؤه « ومن رحمة جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » المعنى : جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله . ومن قوله عز وجل « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالنداء والمشي يريدون وجهه » ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فطردهم فكون من الظالمين ، تأويله والله أعلم : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالنداء والمشي فكون من الظالمين ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فطردهم . قال ومن هذا الباب قول (امرئ القيس) :

فلا وأيك ابنة الماري لا يدعي القوم أنني أفر
تيمم بن مري وأشياءها وكننة حولي جميعاً صبر
منه : لا يدعي القوم تيمم وأشياءها أنني أفر وكننة حولي .

باب التقديم والتأخير

من سنن السرب تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخر ، وتأخيرُه وهو في المعنى مُقدِّم . كقول (في الرثمة) :

ما بال عينك منها الماء ينسكب

أراد : ما بالاك عينك ينسكب منها الماء . وقد جاء مثل ذلك في القرآن قال الله جل ثناؤه « ولو ترى إذ فرعوا فلا قوت ولا خنوا من مكن قريب ، تأويله والله أعلم : ولو ترى إذ فرعوا وأخذوا من مكن قريب فلا قوت . لأن لا قوت يكون بعد الأخذ . ومن ذلك قوله جل ثناؤه وهل أذاك حديثُ النّاشية - يعني القيامة - وجوه يومئذ خاشعة ، وذلك يوم القيامة ثم قال « عاملة ناصبة » والتَّصَبُّ والعملُ يكونان في الدنيا ، فكأنه إذا على التقديم والتأخير معناه : وجوه عاملة ناصبة في الدنيا ، يومئذ - أي يوم القيامة - خاشعة . والدليل على هذا قوله جل اسمه « وجوه يومئذ ناعمة » . ومنه قوله جل ثناؤه « فلا تُنجيك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا » المعنى : لا تُنجيك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا . وكذلك قوله جل ثناؤه « فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظروا ماذا يرجعون » معناه : فألقه إليهم فانظروا ماذا يرجعون ثم تول عنهم . ومن ذلك قوله جل ثناؤه « إن الذين كفروا ينادون لَمَتُ الله أَكْبَرُ من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » تأويله : لَمَتُ الله إياكم في الدنيا حين دُعِيتُم إلى الإيمان فكفرتُم ، ومعناه إياكم اليوم أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم إذا دعيتُم إلى الحساب وعند نديمكم على ما كنتم منكم . ومنه قوله جل ثناؤه « ولولا كلمة

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرَأْسِنَا وَأَجَلَ مَسْمَى ، فَأَجَلَ مَعْطُوفٍ عَلَى كَلِمَةٍ ،
التَّأْوِيلُ : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلَ مَسْمَى — أَرَادَ الْإِجْلَ الْمَضْرُوبَ
لَهُمْ وَهِيَ السَّاعَةُ — لَكَانَ الْعَذَابُ لَازِمًا لَهُمْ .

باب الاعتراض

وَمِنْ سُنَنِ الْعَرَبِ أَنْ يُعْتَرِضَ بَيْنَ الْكَلَامِ وَتَمَامِهِ كَلَامٌ ، وَلَا يَكُونُ هَذَا
الْمُعْتَرِضُ إِلَّا مُعِيدًا . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ «اعْمَلْ» — وَاللَّهُ نَاصِرِي —
مَا شِئْتَ ، «إِنَّمَا أَرَادَ : اْعْمَلْ مَا شِئْتَ . وَاعْتَرِضَ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ ، اْعْتَرَضَ .
قَالَ (الشَّمَخُ) :

لَوْلَا ابْنُ عَفَّانَ وَالسُّلْطَانُ مَرْتَقِبٌ أوردتُ فُجَاءً مِنَ الْعَبَاءِ (١) جَامُودِي
قوله « والسُّلْطَانُ مَرْتَقِبٌ » مُعْتَرِضٌ بَيْنَ قَوْلِهِ « لَوْلَا ابْنُ عَفَّانَ » ،
وَقَوْلِهِ « أوردتُ » . وَمِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُومُوا إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ
— فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ — فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » إِنَّمَا أَرَادَ : إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي
وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ . وَاعْتَرِضَ بَيْنَهُمَا قَوْلُهُ : فَعَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْتُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ (الْأَعَشَى) :

فَإِنْ يُنْمِشْ عِنْدِي الْهَمُّ وَالشَّيْبُ وَالْعِشَاءُ

فَقَدْ بَنَى مِنِّي وَالسَّلَامُ تَقَلُّقُ

بِأَشْجَعِ أَخَذَ عَلَى الدَّهْرِ حِكْمَةً

فَعِنَ أَيَّ مَا تُجْنِي الْحَوَادِثُ أَفْرَقُ

أراد : **يَنْ مَنِي بِأَشْجَعِ** . والسَّلامَ قَلْبُ اعْتِراض . ومثل هذا في كتاب الله جل ثناؤه واشمل العرب كثير ، وإنما نذكر من الباب رسماً .

باب الإيماء

العرب تُشيرُ إلى المعنى إشارةً وتوميءُ إيماءً دون التصريح ، فيقول القائل : **« لو أن لي من يقبل مشورتني لأشرت »** ، وإنما بحث السامع على قبول المشورة . وهو في أشعارهم كثير قال الشاعر :

إذا غرَّدَ المُكَّاءُ في غيرِ رَوْضَةٍ

فويلٌ لأهلِ الشَّاءِ والحُمُرَاتِ

أوماً إلى الجذب ، وذلك أن المُكَّاءَ يأنفُ الرِّياضَ ، فإذا أجذبت الأرض سقط في غير روضة . ومنه قول (الأفوه)

إن بني أودهم ما هم للحرِّبِ وللجذبِ عامِ الشُّومِ

أوماً بقوله « الشُّومِ » إلى الجذب وقلة المطر والنعيم ، أي إن كل أياهم شومس بلا غيم . ويقولون : هو طويلُ نِجادِ السِّيفِ ، إنما يريدون طول الرُّجُلِ . و « غرَّ الرِّداء » يؤمِّن إلى الجود . و « فدَّله ثوبي » و « هو واسع جيب الكُم » إيماء إلى البذل . و « طربُ النِّان » يؤمِّن إلى الخفة والرشاقة . وفي كتاب الله جل ثناؤه « وقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » ، هذا إيماء إلى « أَنْ يُصِيبُونِي بَسْ » ، وذلك أن العرب قول « اللَّيْنُ محذور » أي : نُصِيبُهُ الآفات .

باب اضافة الفعل الى من وقع به ذلك الفعل

ومن سنن العرب اضافة الفعل إلى من وقع به ذلك الفعل . يقولون « ضربتُ زيداً وأعطيتُهُ بعداً - ضَرَبَ به - كَذَا » فينسب الضربَ إلى زيد وهو واقع به . قال الله جل ثناؤه « ألم . غلبت الرومُ - فَالْغَلَبَةُ واقعة بهم من غيرهم ثم قال - وهم من بعد غلبهم سيَّتُونَ » فأُضيف الغلبُ إليهم ، وإنما كان كذا لأن الغلبَ وإن كان لغيرهم فهو متصل بهم لوقوعه بهم . ومثله « وآتَى المالَ على حَبِّهِ » . و « يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَبِّهِ » فالحب في الظاهر . مضاف إلى الطعام والمال هو في الحقيقة لصاحب الطعام وصاحب المال . ومثله « وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » و « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي » أي مقامه بين يدي . ومثله قول (طَارِقَة) :

وَيَرَاكَ هَجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي

فأضاف المخافة إلى نفسه وإنما المخافة للبرك .

باب ما يجري من غير ابن آدم مجرى بني آدم

في الاخبار عنه

من سنن العرب أن تُجرى المَوَات وما لا يَمُوتُ في بعض الكلام مجرى بني آدم ، فيقولون في جمع أرض « أَرْضُونَ » وفي جمع كرة « كُرُون » وفي جمع إبرة « إِرُون » وفي جمع ظَبَّة السَّيْب « ظَبْرُون » وينشدون :

يَرَى الرَّأُوْنَ بِالشَّرَاتِ مِنْهَا كَسَارَ أَبِي حُبَابٍ وَالظُّبْيَا

ويقولون « لَيْتَ مِنْهُ الْأَقْوَرَيْنِ » و « أَصَابَتْنِي مِنْهُ الْأَمْثَرُونَ » و « مَضَتْ لَهُ سِنُونَ » ويشددون هذا إلى أكثر منه فيقول (الجَمْدِيُّ) :

عَزَّزْتُهَا وَاللَّيْلُ يُدْعُو صَبَاحَهُ إِذَا مَا بَنُو نَمَشٍ ذَنَوًا قَتَصُوا جَوَا
وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ «فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» وَ«لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَهْمُؤَلَاءِ يَنْطَلِقُونَ»
و«إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»
و«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» وَ«لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهُمَا وَرَدُّوْهَا»
وَيَقُولُونَ فِي جَمْعِ بُرَّةٍ «بُرَيْنٌ» . وَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلِ (الْثَابِتَةِ) قَوْلُ الْقَائِلِ (١) :
إِذَا اشْتَرَفَ الْعَبْدُ يُدْعُو بِبَعْضِ أَسْرَتِهِ إِلَى الصَّبَاحِ وَمِنْ قَوْمٍ مَسَايِلُ
وَجَعَلَ لَهُ أَسْرَةً وَسَمَّاهُمْ قَوْمًا .

باب اقتصارهم على ذكر بعض الشيء

وم يريدونه كله

مِنْ سَنَنِ الْعَرَبِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى ذِكْرِ بَعْضِ الشَّيْءِ وَمِنْ يُرِيدُونَهُ كُلَّهُ ،
فَيَقُولُونَ «قَدِمَ عَلَى صَنْدَرٍ رَاحِلَتُهُ وَضَى» . وَقَوْلُ قَائِلِهِمْ :
الْوَاثِقِينَ عَلَى صُنُورٍ نَمَاهِمِ
وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْفَنَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلَ (لَيْدٍ) :
أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَّفُوسِ حَامِيَهَا

وَأَيْنَهُ أَرَادَ كَلًّا وَذَكَرُوا فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ
يُفْعَلُوا مِنْ أَيْدِيكُمْ» وَقَالَ آخَرُونَ «مِنْ» هَذِهِ لِقَبِيضِ لَأَنَّهُمْ أَمَرُوا
بِالنَّصْرِ عَمَّا يَحْرُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ . وَمِنْ الْبَابِ «يَحْذَرُكَ اللَّهُ فَهَسَ» أَيَّ يَأْهَهُ .
وَمِنْهُ «نَلَمْ مَا فِي قَهْصِي» وَمِنْهُ قَوْلُهُ :

يَوْمًا بِأَجْوَدَ نَائِلًا مِنْهُ إِذَا قَهْصُ الْبَغِيلِ تَجَهَّمَتْ سَوَاهَا

ومنه « ويتقي وجه ربك » و « تواضعت سور المدية » . و :

رَأَتْ مَرَّ السَّيْنِ أَخَذَنِي

طُولُ اللَّيْلِ أَسْرَعَتْ فِي قَهْصِي و :

صَرَفَ النَّيَا بِالرَّجَالِ هَلَبُ و :

وقال (الجملي) :

جَزَعَتْ وَقَدْ نَالَكَ حَدْرُ مَاحِنَا بِقَوَاهِ يَثْنِي ذِكْرَهَا فِي الْحَافِلِ

باب الاثنين يعبر عنهما بهما مرة وبأحدهما مرة

قال (أوز كرماء القراء) : العرب تقول « رأته بعيني » و « بعيني » و

« الدار » في يدي . وفي يدي » . وكل اثنين لا يكاد أحدهما يفرد فهو على

هذا المثال مثل « اليمين » والرجلين » قال (الفرزنجي) :

فَلَوْ بَحَلَّتْ يَدَايَ بِهَا وَضَنْتُ لَكُنَّ عَلَيَّ لَقَنْدَرُ الْخِيَارِ

فقال « ضَنْتُ » بمد قوله « يداي » . وقال :

وَكُنَّ بِالْعَيْنَيْنِ حَبَّ قَرْفَلٍ أَوْ سُبُلًا كَحِلَّتْ بِهِ فَاهُكَّتْ

وقال :

إِذَا ذُكِّرَتْ عَيْنِي الزَّمَانُ الَّذِي مَضَى بِصَحْرَاءِ فَلَجٍ ظَلَّتْ تَكْفَانُ

باب الحمل

هذا باب يترك حكم ظاهر لفظه لأنه محمول على مناه . يقولون « ثلاثة

أشْخُس » والنفس مؤنثة لأنهم حملوه على الانسان . ويقولون « ثلاث

شخص » لأنهم يحملون ذلك على آهمن نساء . و :

أَنْ كَلَابًا هُنَّ عَشْرُ أَبْطُنِ

يذهبون إلى القبائل . وفي كتاب الله جل ثناؤه « السجدة منطَرٌ » حُبْلٌ عَلَى
 السُّفْ . وهذا يتسع جداً . وقد ذُكِرَ في هذا الباب ما تقدم ذكره من
 قوله جل ثناؤه « مستهزؤون » الله يستهزئ بهم » وهذا في باب المحاذاة
 أحسن . ومن الحَمَلِ قوله « أنا رسولُ ربِّ العالمين » قال (أبو عبيدة)
 أرادَ الرسالة . ومن الباب قوله جل وعزَّ « سعيراً » والسعيير مذ كَرِّمَ
 قال - إزاراً لهم » فحمله على النار . وقوله جل ثناؤه « فأحينا به بلدة ميتاً »
 حمله على المكان . ولهذا نظائر كثيرة .

باب من ألفاظ الجمع والواحد والاثنتين

من الجمع الذي لا واحد له من لفظه « العالمُ » والأَنامُ . والرهطُ .
 والنَّعرُ . والمُعْتَمِرُ . والجندُ . والنَّاسُ . والنَّعمُ . والأبلُ .
 وربما كان لفظ واحد لفظ ولا يجرى الجمع بذلك اللفظ نحو قولنا
 « امرؤٌ » و « امرأتان » و « قومٌ » و « امرأةٌ » و « امرأتان » و « نسوةٌ » .

ومن الإثنتين اللذين لا واحد لهما لفظاً قولهم « كلا » و « كانا » و « اثنتان »
 و « المذرتان » و « عقلة اثنتين » و « جاء بضرباً ضربة » و « أزدريه » و « دأبته »
 من التثنية و « ليك » و « سعتيك » و « حنائيك » وقد قيل : إن واحد
 حنائيك « حنان » وينشد :

قالت : حنان ما أتى بك هاهنا
 أذنوب أم أنت بالحي عارف

باب ما يجري من كلامهم مجرى التهكم والمهز

يقولون للرجل يُسَبِّحُ « يا عاقل ! » ويقول شاعرهم :
 قُتِلَ لِسَيِّدِنَا : يَاحِلِي . مُمُّكَ لَمْ تَأْسُ أَسْوَارَ فِيقَا

ومن الباب « أتاني قَرَبَتُهُ جَنَاءً وَأَعْطَيْتُهُ حَرَمَانًا » ومنه قوله :
ولم يكنوا كأقوامٍ علمتهم يَفْرُونَ ضَيْفَهُمُ الْمَلُوءَةَ الْجُلُودَا
يعني : السَّيَاط . وقول (الفرزدق) :
قَرَيْنَاكُمْ الْمَأْتُورَةَ الْبَيْضَ

وقال (عمرو) :

قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَابَكُمْ قَبِيلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا
ومن الباب حكاية عنهم « أنك لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » .

باب الكف

ومن سنن العرب الكف . وهو أن يكف عن ذكر الخبر اكتفاء
بما يدل عليه الكلام . كقول القائل :

وَجَدْتُكَ لَوْثِي أَتَانَا رَسُولُهُ وَلَكِنْ لَمْ تَجِئْنَاكَ مَنَفَا
المعنى : لو أنانا رسولُ سِوَاكَ لَمَنَفَانَا . وقال آخر :

إِذَا قُلْتُ سِيرِي نَحْوَ لَيْلِي لَهَا . جَرِي دُونَ لَيْلِي مِثْلُ الْقُرْنِ أَعْضَبُ
وَتَرَكْتُ خَيْرَ « لَهَا » . وقال :

فَمَنْ لَهُ فِي الطَّنِّ وَالضَّرَابِ يَلْمَعُ فِي كَفِّي كَلْثِيهَا
أي : مَنْ لَهُ فِي سَيْف . ومنه قوله جَلَّ وَعَزَّ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ « أَفَلَا
تَبْصُرُونَ أَمْ » أراد : أَمْ تَبْصُرُونَ . وبما يقرب من هذا الباب قوله (١) :
نَضِيهِ الظَّلَامَ بِالْمِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةٌ مُنْمَسَى رَاهِبٍ مَبْتَلٍ
أراد : مَنَارَةٌ .

(١) هو (امرؤ القيس) في نسخة .

باب الأعاراة

العرب تُعير الشيء ما ليس له . فيقولون « مرّين سمع الأرض
وبَصَرها » ويقول قائلهم :

كنلك فقله والناس طُرّاً بكفّ الدهر تهتلهم ضروباً
فجمل للدهر كفاً . ويقولون :

ثأرتُ (للسّمين) وقلت بواً بقتل أخي فزارة والخيار
قال (الأصمعي) : لم يكن واحد منهما سَمّاً وإنما كانا (عامراً)
و (عبد الملك) ابني (مالك بن مسنم) فأعارهما اسم جدّهما . ومثله
(الشّعثمان) لم يكن اسم أحدهما شعثماً وإنما أُعير اسم أبيهما (شعثم) .
ومثله (المهالبة) و (الأشرون) .

باب أفضل في الأوصاف لا يراد به التفضيل

يقولون « جرى لطارئ أشأم » ويقول شاعرهم (١) :
هي الهمّ لو أنّ النوى أصقبت بها ولكن كراً في رَكوبةٍ أعسر (٢)
وقال (الفرزدق) :

إنّ للفني سمك السماء بني لنا عزّاً دعائه أعزّ وأطول
وقال (أبو ذؤيب) :
مالي أحنّ إذا جالكِ قرّبت وأصدؤك وأنت مني أقرب
وقال :

(١) هو (جرير بن أبي خازم) - - - الأصل
(٢) هذا مثل لعرب يقرّبه في كل أمر شديد - - - (ركوبة) ثنية - - - الأصل .

بُيِّنَتْهُ مِنْ آلِ النَّسَاءِ وَإِنَّمَا يَكُنْ لِأَدْنَى لَا وَصَالَ لِنَائِبِ
 وَيَقُولُونَ : إِنْ مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « وَهَرَأُونُ عَلَيْهِ » .
 بَابُ نَفْيِ الشَّيْءِ جَمْلَةً مِنْ أَجْلِ عَدَمِ كِبَالِ صِفَتِهِ
 قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ فِي صِفَةِ أَهْلِ النَّارِ « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » فَنفَى عَنْهُ
 الْمَوْتَ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمَوْتٍ مُرِيحٍ وَنفَى عَنْهُ الْحَيَاةَ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَبْجِيَاءُ طَيِّبَةً وَلَا
 نَافِثَةً . وَهَذَا فِي كَلَامِ الرَّبِّ كَثِيرٌ ، قَالَ (أَبُو النَّجْمِ) :
 يَلْقَيْنِ بِالْغُبَارِ وَالْأَجْلَرِ كُلَّ جَيْضٍ لَيْلٍ الْأَكْرَعِ
 لَيْسَ بِمَحْفُوظٍ وَلَا بِضَالِعٍ
 لِأَنَّهُ مُوجُودٌ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَإِنْ لَمْ يَوْجَدْ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ
 بَلَاءَهُ لَمْ تُحْمَظْ وَلَمْ تُصَيِّمَ
 وَقَالَ .

وَقَدْ أَجُوبُ الْبَلَدِ الْبَرَاخَا الْمَرْمِيْسِ الْقَفْرَةَ الصَّخْصَا
 بِالْقَوْمِ لَا مَرْضَى وَلَا صِيَاهَا

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « لَمْ يَلْمِ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَهَا ،
 وَلَمْ يُعَيِّنْ لَا يُبْعِرُونَ » وَمِنْهُ « وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 خَلَقٍ » فَأُثْبِتَ عَلَمًا ثُمَّ قَالَ - وَلَيْشَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ،
 لَمَا كَانُوا عَلَمًا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ كَانُوا كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَمِنْ الْبَابِ قَوْلُ (مُسْكِينِ) :
 أَعْنَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السُّتْرُ
 وَأَصَمُّ عَمَّا كُنْ يَنْتَهَمَا سَمِعِي وَمَا يَسْمَعُ مِنْ وَفَرٍ (١)

جعل نفسه أعمى أصمّ لما لم ينظر ولم يسمع . وقال آخر :
 وكلامٌ بَسِيءٌ قد وُقِرَتْ أَذُنِي عنه وما بي من صَمٍّ
 وقريب من هذا الباب قوله جل وعز « وَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا
 بِسُكْرَى » أي ما بمُسْكِرٍ مشروب ولكن سُكْرَى فَرَعَ وَوَلَّهِ . ومن
 الباب قوله جل ثناؤه « لَا يَطْفُونَ ، وَلَا يُؤْذَنَ لَهُمْ فَيَعْتَرِوْنَ » وهم قد
 نطقوا بقولهم « يَا لَيْتَنَا تَرَدُّ » لكنهم نطقوا بما لم ينفع فكأنهم لم يطقوا .

باب الشرط

الشرط على ضربين : شرط واجب إعماله كقول القائل « إِنْ خَرَجَ
 زَيْدٌ خَرَجْتُ » . وفي كتاب الله جل ثناؤه « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ
 فَمَسَا فَاكُلُوهُ هَيْئًا مَرِيئًا » .

والشرط الآخر مذكور إلا أنه غير متزوم عليه ولا محتموم ، مثل قوله
 « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُتْرَجَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يَحْيَا حُدُودَ اللَّهِ » فقوله « إِنْ
 ظَنَّا » شرط لا إطلاق للمراجعة . فهو كان محتوما مفروضا لما جاز لهما أن
 يتراجعا إلا بعد الظن أن يحيا حدود الله . فالشرط هاهنا كالمجاز غير
 المتزوم . ومثله قوله جل ثناؤه « فَذَكَرْ إِنْ قَضَيْتَ لِلَّهِ كَرِي » لأن الأمر
 بالتذكير واقع في كل وقت . والتذكير واجب نعم أو لم ينفع ، فقد يكون
 بعض الشروط مجازا .

باب الكناية

الكناية لها باليان : أحدهما أن يُكْنَى عن الشيء فيذكر بغير اسمه
 تحميناً لللفظ أو إكراماً للذكور ، وذلك كقوله جل ثناؤه « وَقَالُوا لِمَ جَاءَهُمْ :

لم تشهدتم علينا؟ قالوا: إن الجلود في هذا فلو ضوع كناية عن آراب
الانسان. وكذلك قوله جل ثناؤه «ولكن لاتواعدوهن سراً» إياه
النكاح. وكذلك «أوجاء أحد منكم من الفأط» والفأط: مطمئن من
الأرض. كل هذا تحسين اللفظ والله جل ثناؤه كريم يكتفي بكاف في قصة
عيسى وأمه عليهما السلام «ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من
قبله الرسل» وأمه صديقة، كأنها كالان الطام، كناية عما لا بد
لاكل الطام منه.

والكناية التي للتبجيل قولهم «أبوفلان» صيانة لاسمه عن الابتذال
والكنى مما كان للعرب خصوصاً. ثم تشبه غيرهم بهم في ذلك.

باب الثاني من الكناية

الاسم يكون ظاهراً مثل «زيد. وعزوه». ويكون مكنياً وبعض
النحويين يسميه مضمراً، وذلك مثل «هو. وهي. وهما. وهن».
وزعم بعض أهل العربية أن أول أحوال الاسم الكناية، ثم يكون
ظاهراً. قال: وذلك أن أول حال التكلم أن يخبر عن نفسه وخاطبه فيقول
«أنا. وأنت». وهذان لظاهر لهما. وسار الاسم لظهر مرة ويكنى
عنها مرة.

والكناية متصلة ومنفصلة ومستحثة. فالمتصلة التاء في «حلت وقت».
والمنفصلة قولنا «إياه أردت». والمستحثة قولنا «قام زيد» فإذا كنينا
عنه قلنا «قام» فستّر الاسم في الفعل.

وربما كنى عن الشيء لم يجز له ذكر، في مثل قوله جل ثناؤه «يؤفك

عنه « أي يؤفك عن الدين أو عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . قال أهل العلم : وإنما جاز هذا لأنه قد جرى اللزك في القرآن . قال (حاشم) : أمكوي ما ينفي الشراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصنر فكفى عن النفس فقال « حشرجت » ويقولون :

إِذَا اغْبَرَأْتُ وَهَبْتُ شَمَالًا

أضمر الريح ولم يحجر لها ذكر .

ويكنى عن الشيتين والثلاثة بكناية الواحد ، فيقولون « هو أثنان الناس وأخْبَتْهُ » وهذا لا يكون إلا فيما يقال هو أفضل ، قال الشاعر :

شَرُّ يَوْمِيهَا وَأَشَقَّاهُ لَهَا رَكِبْتُ عَزْزًا يَحْمِلُ جَلًا

ولم يقل « أشقاهما » .

وتكون الكناية متصلة باسم وهي لغيره ، كقوله جل ثناؤه « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين - فهذا آدم عليه السلام ثم قال - جملناه نطفة » فهذا لولاه لأن آدم لم يخلق من نطفة . ومن هذا الباب قوله جل ثناؤه « لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوؤكم » قيل : إنما نزلت في (ابن حذافة) حين قال للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : من أبي ؟ فقال : حذافة . وكان يسب به فساءه ذلك ، فنزلت « لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوؤكم » . وقيل : نزلت في الحج حين قال القائل : أفي كل طام مرة ؟ ثم قال « وإن تسألوا عنها » يريد إن تسألوا عن أشياء أخر من أمر دينكم ودنياكم بكم إلى عليها حاجة تبدلكم ثم قال « قد سألتها » فهذه الهاء من غير الكنايتين لأن مناهها : قد طلبها ، والسؤال هاهنا طلب ، وذلك كقوم غيبني عليه السلام حين سألوه المائدة ، وكقوم موسى عليه

السلام حين قالوا «أرنا الله جرة» فالسؤال ما هنا طلب الكناية مبتدأة.
وربما كُني عن الجماعة كناية كقوله جل ثناؤه «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ»
أراد والله أعلم بهذا الذي تقدم ذكره.

باب الشيء يأتي مرة بلفظ المفعول ومرة بلفظ الفاعل
واللفظ واحد :

قول العرب «هو مُدَجِّجٌ . ومُدَجِّجٌ» و«عبدٌ مكاتبٌ . ومكاتبٌ»
و«شأؤٌ مُتَرَبٌّ . ومُتَرَبٌّ» و«سجنٌ مُخَيِّسٌ . ومُخَيِّسٌ» و«مكانٌ
عامرٌ . ومَمْنُورٌ» و«مَنْزَلٌ أَهْلٌ . ومَأْهولٌ» و«نُفْسٌ الْمَرْأَةِ . وَهَيْسَتْ»
و«لَا يُبْنِي لَكَ . وَلَا يُبْنِي لَكَ» و«عُتِبْتُ بِهِ . وَعَيْتُ» . قال :
عان بأخر لها طويل الشُّنْطِ
و«رُهِصَتِ الدَّابَّةُ . وَرَهِصَتْ» و«سُعِدُوا . وَسَعَمُوا» و«زُهِجِي
عَلَيْنَا . وَزَهَجِي»

باب الزيادة في حروف الفعل للمبالغة

وقد مضى في الاسماء مثله

العرب تزيد في حروف الفعل مبالغة ، فيقولون «حلا الشيء» فإذا
انتهى قالوا «أَحْلَوْا» . ويقولون «أَقْلَوْا عَلَى فَرَّاشِهِ» وينشدون :
وَأَقْلَوَيْنَ فَوْقَ الْمَضَاجِعِ
وقرأ (ابن عباس) «أَلَا أَنَّهُمْ تَتَوْنِي صُدُورُهُمْ» على هذا الذي قلناه
من المبالغة .

باب الخصائص

للمرب كلام بالفاظ تختص به ممان لا يجوز قلها إلى غيرها ، يكون في الخير والشرّ والحسن وغيره وفي الليل والنهار وغير ذلك . من ذلك قولهم « مكانك » قال أهل العلم : هي كلمة وضعت على الوعيد ، قال الله جل ثناؤه « مكانكم أنتم وشرّ كأؤكم » كأنه قيل لهم : انتظروا مكانكم حتى يفصل بينكم . ومن ذلك قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ما حملكم على أن تتأبموا في الكذب كما يتأبغ الفرائش في النار » قال (أبو عبيد) : هو التهافت ، ولم نسمعه إلا في الشر . ومن ذلك « أولى له » وقد فسرناه . ومن ذلك « ظلّ فلان يفعل كذا » اذا فعله نهاراً . و « بات يفعل كذا » اذا فعله ليلاً . ومن ذلك ما أخبرني به (أبو الحسن علي بن ابراهيم) قال سمعت (أبا العباس المبرّد) يقول : « التأوب » سيرُ النهار لا تعريج فيه و « الإيساد » سيرُ الليل لا تعريس فيه . ومن الباب « جألوا أحاديث » أي : مثل بهم ، ولا يقال في الخير . ومنه « لاعدوان إلا على الظالمين » .

ومن الخصائص في الأفعال قولهم « ظننتني . وحسبتي . وخطني » لا يقال الا فيها فيه أدنى شك ، ولا يقال « ضربتني » .

ولا يكون « التأين » الامدح الرجل ميتاً . ويقال « غضبت به » اذا كان ميتاً . و « المسعاة » الزّنا بالاماء خاصة . و « الرّاكب » راكب البعير خلصة . و « ألحّ الجمل » و « تخلّات الناقة » و « حرّنّ القرم » و « قشّت النعم » ليلاً و « تمهّلت » نهاراً . قال (الخليل) : « اليتملة »

من الابل اسم اشتق من «المَل» ولا يقال إلا نلانات . قال : و«لنت» وصف الشيء بما فيه من حسن إلا أن يتكلف متكلف فيقول «هنا نمت» سوء ، فأما العرب المازية فلها قول «لشيء نمت» يريدون به التهمة . قال (أبو حاتم) : «ليلة ذات أرين» أي : قُر شديد . ولا يقال يوم نوأزير . قال (ابن دُرَيْد) : «أش القوم» وتأششوا ، إذا قام بعضهم إلى بعض للشر لا للخير . ومن ذلك «جرزتُ الشاة» و«حلفتُ المتر» لا يكون الخلق في الضأن ولا العز في المعزى . و«خففتُ الجارية» ولا يقال في الغلام . و«حطب البعير» إذا لم يتم بوله لقصد ، ولا تحطب إلا الجمل . قال (أبو زيد) : «أبلمت البكرة» إذا ورم جياؤها لا يكون إلا للبكرة . و«عدتُ الابل في الحوض» لا تمدن إلا فيه . ويقال «غطَّ البعير» هتر ولا يقال في الناقة . وقال «ما أطيب قداوة هذا الطعام» أي : ريحة ولا يقال ذلك إلا في الطيبخ والشواء . و«لقمة بكرة» ولا يقال بغيرها . و«فلت ذلك قبل غير وما جرى» لا يُكلم به إلا في الواجب ، لا يقال : سأفعله قبل غير وما جرى . ومن الباب ما لا يقال إلا في النفي كقولهم «ماها أريم» أي ماها أحد . وهذا كثير فيه أبواب قد صنفها العلماء .

باب نظم للعرب لا يقول غيرهم

يقولون «عاد فلان شيخاً» وهو لم يكن شيخاً قط . و«عاد الماء أجناً» وهو لم يكن أجناً فيمود . وقول (الهدلي) :
قد عاد رهباً ردياً طائشاً القتم

قال :

قطعت الدهر في الشهوات حتى أعادتني عيسياً عبد عبدة

ومن هذا في كتاب الله جل ثناؤه « يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ »
 وهم لم يكونوا في نور قط . ومثله « يُرَدُّ إِلَى أَرْضِ الْعَمْرِ » وهو لم يكن في
 ذلك قط . وقال الله جل ثناؤه « حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » قال « عاد »
 ولم يكن عُرْجُونًا قَبْلُ .

باب إخراجهم الشيء المحمود بلفظ يؤهم غير ذلك
 يقولون « فلان كرم غير أنه شريف » و « كرم غير أن له حياءً »
 وهو شيء تنفرد فيه العرب . قال (١) :
 وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بِهِمْ قُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
 وقال (٢) :

فَيَكَلَّمَ أَخْلَافُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
 وهو كثير .

باب الافراط

العرب تُهْرِطُ في صفة الشيء مُجَاوِزَةً لِقَدْرِ اخْتِدَالِهَا عَلَى الْكَلَامِ كَقَوْلِهِ:
 يَخِيلُ (٣) تَضَلُّ الْبَلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْنًا لِلْأَحْوَاظِ
 ويقولون :

لَمَّا أَتَى خَيْرُ الْأَثَرِ تَوَاضَعَتْ سَوَارِ الْمَدِينَةِ وَخَشَعَتْ الْجِبَالُ (٤)

و : بِكَيْ حَارِثُ الْجَوْلَانِ مِنْ هُلَاكِ رَبِّهِ (٥)

و :

(١) هو (الباية القدياني) - الأصل (٢) هو (الباية الجدي) - الأصل
 (٣) ولي رواية « بجيش » - الشنيطي (٤) الرواية « والجبال الختم » - الشنيطي
 (٥) « حارث » اسم جبل - « الجولان » موضع - الأصل

لو انك تلقى حَظًّا فوقَ يَئُضِنَا تَخْرُجَ
وقولون :

ضَرَبَهُ فِي اللَّتْقِ ضَرْبَةً فزالَ عَن مَنكِهِ الكَهِلُ
فَصَارَ مَا يَينَهُمَا رَهْوَةً يَئُشِي بِهَا الرَّامِحُ وَالنَّابِلُ

باب نفى ضمنه اثبات

قول العرب : ليس بـ محلو ولا حامض ، يريدون انه جمع من ذاوذا .
وفي كتاب الله جل ثناؤه « لاشْرِيقَةَ وَلَا غَرِيَّةَ » قال (أبو عبيدة) :
لأشْرِيقَةَ تَصْحِي للشرق ولا غَرِيَّةَ لا تَصْحِي للشرق لكنها شَرْقية غَرِيَّةَ
بصبيها ذا وذا : الشرق والغرب .

باب الاشتراك

معنى الاشتراك : أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر ، كقوله
جل ثناؤه « فافْذِفِهِ فِي الْيَمِّ » ، فَلْيَقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ » فقوله « فَلْيَقِهِ » مشترك
بين الخبر وبين الأمر ، كأنه قال : فافْذِفِهِ فِي الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ . ومحمّل أن
يكون اليَمُّ أَمْرًا بِالْقَاتِهِ . ومنه قولهم . « أَرَأَيْتَ » فهو مَرَّةٌ لِلإِسْتِثْنَاءِ وَالسَّوْأَلِ
كقولك « أَرَأَيْتَ أَنْ صَلَّى الْإِمَامُ قَاعِدًا كَيْفَ يُصَلِّي مَنْ خَلَقَهُ ؟ » . ويكون
مَرَّةً لِلتَّنْذِيرِ وَلَا يَنْتَضِي مَفْعُولًا ، قال الله جل ثناؤه « أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّى ، أَلَمْ يَسْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » . ومن الباب قوله « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا » فهذا مشترك محتمل أن يكون لله جل ثناؤه لأنه اِضْرَدَ بِخَلْقِهِ ،
ومحمّل أن يكون : خَلَقْتُهُ وَحِيدًا فَرِيدًا مِنْ مَالِهِ وَوَلَدَهُ .

باب يسميه بعض المحلثين : الاستطراد

وذلك أن يشبه شيء بشيء ثم يمرّ المتكلم في وصف المشبه، كقول الشاعر حين شبه ناقته فقال :

كَأَنِّي وَرَحْلِي إِذْ رُعْتُهَا عَلَى جَعَزَى جَازِيَةٍ بِلَرِّ مَالٍ
فَشَبَّهَ نَاقَتَهُ بِدُورٍ وَمُغَى فِي وَصْفِ الثَّوَرِ ، ثُمَّ قَلَّ الشَّيْءُ إِلَى الْحَارِ قَالَ :
أَوْ أَصْحَمَ حَامٍ جَرَامِيرَهَ حَزَائِيَةً حَبْدَى بِلَدِّ حَالٍ
ومر في صفة العير إلى آخر كلمته . وقد قيل : في كتاب الله جل ثناؤه
من هذا النظم قوله « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِي كَرَّمْنَا جَاهَهُمْ » ولم يجر للذكر
خبر ، ثم قال « وَاتَّهَ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » وجواب « أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » قوله جل ثناؤه « وَأُولَئِكَ
يُلَاقُونَ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ » .

باب الاتباع

للرب الاتباع — وهو أَنْ تُتَّبَعَ الْكَلِمَةُ الْكَلِمَةُ عَلَى وَزْنِهَا أَوْ رَوِيَّتُهَا
أَشْبَاعًا وَتَأْكِيدًا . وَرُوي أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ سَتَّلَ عَنْ ذَلِكَ قَوْلًا : هُوَ شَيْءٌ
كَذُّهُ بِهَ كَلَامُنَا وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ « سَاغِبٌ لَا غِبَ » وَ « هُوَ خَبٌّ ضَبٌّ »
وَ « خَرَابٌ يَابٌ » . وَقَدْ شَارَكَتِ الْعَجْمُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْبَابِ .

باب الاوصاف التي لم يسمع لها بافعال

والأفعال التي لم يُوصَفَ بها
قال (الخطيب) : « ظِيٌّ عَنَانٌ » أي نشيط ، قال : ولم نسمع للنبيان

فعلاً ، قال « يَشْدُ شَدَّ الْمَنَانِ الْبَارِحِ » قال : و « الْخَصْبَةُ » صوت يخرج من قُبِّ الدَّابَّةِ ولا فعل لها . ويقولون في التحقير « هُو دُونُ » ولا فعل له . قال (أبو زيد) : يقال للجبان « إِنَّهُ كَمَقْوُذٌ » ولا فعل له . قال : و « الْغَبْطَةُ » مثل الرِّفْضِ من اللبن والماء ولا فعل لها . وقال : « أُعْجِنْتُ الْإِبِلَ إِمْعَادًا » إذا أنت أَشْبَعْتَهَا ولا فعل لها في هذا . و « الْفَرِيَّةُ » الفضل ولا فعل لها . قال (أبو زيد) : يقال « مَسَاءُهُ وَنَاءُهُ » تأكيدٌ للأول ولم يعرفوا من « نَاءُهُ » فعلاً ، لا يقولون « يَنْوَهُ » كما يقال « يَسُوهُ » .
ومن الأفعال التي لم يُوصَفْ بها قولنا « ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ » قال الله عز وجل « يَذَرُونَا كَمْ فِيهِ » ولم يُسمع في صفاته جل ثناؤه « الذَّارِي » .

باب النحت

العرب نَحَتَتْ من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار ، وذلك « رَجُلٌ عَبْشِيٌّ » منسوب إلى اسمين ، وأنشد (الخليل) :
أقول لها ودمعُ العينِ جِلرُ أَلَمْ تَحْزُنْكَ حَيْلَةُ الْمُنَادِي
من قوله « حَيٌّ عَلَى » . وهذا منحنينا في أن الأشياء الزائفة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت ، مثل قول العرب للرجل الشديد « ضَبَطَرٌ » من « ضَبَطَ » و « ضَبَرٌ » ، وفي قولهم « صَهْصَاقٌ » إنه من « صَهْلٌ » و « صَلَقٌ » وفي « الصِّلَمِ » إنه من « الصِّلْدَ » و « الصِّلْمُ » . وقد ذكرنا ذلك بوجوه في كتاب (مقاييس اللغة) .

باب الأشباع والتأكيد

قول العرب « عَشْرَةٌ وَعَشْرَةٌ فَتَكُ عَشْرُونَ » وذلك زيادة في التأكيد

ومنه قوله جل ثناؤه « فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة » وإنما قال هذا لنفي الاحتمال أن يكون أحدهما واجباً إما ثلاثة ولها سبعة فأكد وأزيل التوهم بأن جمع بينهما . ومن الباب قوله جل ثناؤه « ولا طائر يطير بجناحه » إنما ذكر الجناحين لأن العرب قد تُسمي الاسراع طيراً أنا ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « كلنا سمع هيمة طار إليها أخرى » . وكذلك قوله « يقولون بألسنتهم » فذكر الألسنة لأن الناس يقولون « قال في نفسه كذا » قال الله جل ثناؤه « ويقولون في أنفسهم لولا يمدبنا الله بما نقول » فأعلم أن ذلك باللسان دون كلام النفس .

باب الفصل بين الفعل والنعت

الثبت يؤخذ عن الفعل نحو « قام فهو قائم » وهذا للنفي يسميه بعض النحويين (اللفظ) وبعض يسميه (اسم الفاعل) . وتكون له رتبة زائدة على الفاعل . قال الله جل ثناؤه « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك » ولم يقل : لا تغل يدك ، وذلك أن الثبت أَوْم ، ألا ترى أنا قول « وعصى آدم ربه فغوى » ولا قول : آدم عاصي غاو ، لأن النعت لازمة وأدموان كان عصى في شيء فإنه لم يكن شأنه المصيان فيسمى به ، قوله جل ثناؤه « لا تجعل يدك مغلولة » أي لا تكونن عادتك المنع فتكون يدك مغلولة . ومنه قوله جل ثناؤه « وقال الرسول : يا رب إني قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » ولم يقل هجروا لأن شأن القوم كان هجران القرآن وشأن القرآن عندهم أن يهجروا أبداً فلذلك قال والله أعلم « اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » وهذا قياس الباب كله .

باب الشعر

الشعر - كلام موزون مُعْتَقَى دَالٌ عَلَى مَعْنَى . ويكون أكثر من بيت
وانما قلنا هذا لأن جازاً اتَّفَقَ سَطْرٌ واحدٌ بِوَزْنٍ يُشَبِّهُ وَزْنَ الشَّعْرِ
عن غير قصد ، فقد قيل : إن بعض الناس كتب في عنوان كتاب « للأُمير
(المُسَيَّب بن زهير) - مِنْ عِتَالِ بْنِ شُبَّةِ بْنِ عِقَالٍ ، فاستوى هذا في
الوزن الذي يُسَمَّى «الخفيف» . ولعلَّ الكاتب لم يقصد به شعراً .

وقد ذكر ناس في هذا كلمات من كتاب الله جل ثناؤه كَرِهْنَا
ذِكْرَهَا ، وقد نَزَّهَ اللهُ جل ثناؤه كتابه عن شبه الشعر كما نَزَّهَ نَبِيَّهَ صَلَّى
اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ عن قوله . فإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَا الْحِكْمَةُ فِي تَزْيِينِ اللهِ
جَلْ ثَنَاءَهُ نَبِيَّهَ عَنِ الشَّعْرِ ؟ قِيلَ لَهُ : أَوَّلُ مَا فِي ذَلِكَ حُكْمُ اللهِ جَلْ ثَنَاءَهُ بِأَنْ
«الشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، وَأُنْهَمُ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأُنْهَمُ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ » ثُمَّ قَالَ «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ
تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ كَانَ أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا وَأَوْ كَثَرُ الصَّالِحِينَ عَمَلًا لِلصَّالِحَاتِ
فَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ الشَّعْرُ بِحَالٍ ، لِأَنَّ الشَّعْرَ شَرَائِطُ لَا يُسَمَّى الْإِنْسَانُ بِغَيْرِهَا
شَاعِرًا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ عَمِلَ كَلَامًا مُسْتَقِيمًا مَوْزُونًا يَتَحَرَّى فِيهِ الصَّدْقُ
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْرُطَ أَوْ يَتَعَدَّى أَوْ يَمِينَ أَوْ يَأْتِيَ فِيهِ بِأَشْيَاءَ لَا يُمْكِنُ كَوْنُهَا بَتَّةً لَا
سِوَاهُ النَّاسِ شَاعِرًا وَلَكِنْ مَا يَقُولُهُ مَخْصُولًا سَاقِطًا . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ
وَسُئِلَ عَنِ الشَّعْرِ فَقَالَ «إِنْ هَزَلْتُ أَضْحَكَ ، وَإِنْ جَدْتُ كَذَبَ » فَالشَّاعِرُ
بَيْنَ كَذِبٍ وَإِضْحَاقٍ ، فَإِذَا كَانَ كَذَا فَهَذَا نَزَّهَ اللهُ جَلْ ثَنَاءَهُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللهُ
تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ عَنْ هَاتَيْنِ الْخِصْلَتَيْنِ وَعَنْ كُلِّ أَمْرٍ دَنِيٍّ

وبعد فأن لا نكاد نرى شاعراً إلا ملوحاً ضارِعاً أو هاجباً ذا قذع، وهذه
أوصاف لا تصلح لنبى . فان قال : فقد يكون من الشعر الحُكْم كما قال
رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ان من البيان لسجراً ، ولن من
الفكر لحكمة » أو قال « حُكماً » - قيل له : انما نزه الله جل ثناؤه نبىه
عن قيل الشعر لما ذكرناه ، فأما الحكمة فقد آتاه الله جل ثناؤه من ذلك
القِسْم الأَجْزَل والنَّصِيب الأَوْفى الأَزكى : قال الله جل ثناؤه في صفة نبىه
صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « وَزَكَّيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْمَعُونَ » والحكمة ،
وقال « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ » فأيات الله
القرآن ، والحكمة سُنته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . ومعنى آخر في
تزيه الله جل ثناؤه نبىه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قيل الشعر أن أهل
العروض مُجْتَمِعُونَ على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع . إلا
أن صناعة الإيقاع تَقِسِم الزمان بالنغم ، وصناعة العروض تَقِسِم الزمان بالحروف
المسموعة : فلما كان الشعر ذا ميزان ياسب الإيقاع ، والإيقاع ضرب
من الملاحى لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . وقد
قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ما أنا من دهر ولا دد منى » .

والشعر ديوان العرب ، وبه حُفِظَت الأنساب ، وعُرِفَت المآثر ،
ومنه تَلُمَّت اللغة . وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله جل
ثناؤه وغريب حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وحديث
صحابه والتابعين .

وقد يكون شاعرٌ أشعر ، وممرٌ أحلى وأظرف . فأما أن يتفاوت
الأشعار القديمة حتى يتباعد ما بينها في الجودة فلا . وبكلٍّ يُنْتَجِج إلى كلِّ

يُجَالِجُ . فَأَمَّا الاختيارُ الذي يراه الناسُ للناسِ فشيءات ، كلُّ مستحسنٍ شيئاً .
والشراءُ أمرٌ للكلام ، يقصرون المملود ، ولا يمدُّون المقصور .
وقد همون ويؤخرون ، ويؤمنون ويشيرون ، ويختلسون ويُمَيرون ويستعيرون .
فأما نحنُ في إعرابٍ أو إزالَةٍ كلمة عن نهجِ صوابٍ فليس لهم ذلك .
ولا معنى لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتي في شعره بما
لا يجوز . ولا معنى لقول من قال :

أَلَمْ يَأْتِكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنِي

وهذا وإن صحَّ وما أشبهه من قوله :

لَا جَعًا اخوانُهُ مَصَبًا

وقوله : قَهَا عِنْدَ مَا نَمِرْفَانُ رُبُوعُ

فكلُّه غلطٌ وخطأ . وما جعل الله الشراء معصومةً بين يَوْقُونَ الخطأ
والغلط ، فما صحَّ من شعرٍ فقبول ، وما أبته العرية وأصولها فَرْدُود .
بَلَى للشاعر إذا لم يَطْرُدْ له الذي يُريده في وزن شعره أن يأتي بما يقوم
مقامه بَسْطًا واختصارًا وأندالاً بعد أن لا يكون فيما يأتيهِ مُخْطِئًا أو لاحتًا ،
فله أن يقول :

كَالْتَحْلِ فِي مَاءِ رُضْبِ الْعَنْبِ

وهو يُريد المسل ، ولا أن يقول :

مِثْلَ الْفَنَيْقِ هَنَاءَةً بِصَبِ

و «المصيب» أو الهناء . وإنما أراد هَنَاءَةً هِنَاءً . وله أن يسط فيقول

كَمَا قَالَ (الأعشى) :

إِنْ تَرَ كِبَا فَرَكُوبِ الْخَيْلِ عَادَتْنَا أَوْ تَزِلُّونَ فَإِنَّا مَتَشَرُّونَ

معناه : ان تركبوا ركباننا وان تنزلوا نزلنا ، لكن لم يسقم له الا باليسط وكذلك قوله :

وان تسكنني نجداً فإجداً تجدُ

أراد : ان تسكنني نجداً سكناء ، فبسط لما أراد إقامة الشعر ، أنشد فيها أبي (فارسي بنز كرماء) قال أنشدني (أبو عبد الله محمد بن سلمان النحوي الهمداني) قال أنشدني (أبو نصر) صاحب الأصمعي :

قَضَيْتُ النِّوَانِي ، غَيْرَ أَنَّ مَوْدَّةً لِدَلْفَاءٍ مَا قَضَيْتُ آخِرَهَا بِمَدٍّ
فِي رِبْوَةٍ الرِّبْوَيْنِ حَيْثُ رِبْوَةٌ عَلَى النَّايِ مَنِي ، وَاسْتَهْلَ بِكَ الرَّغْدُ
فَإِنْ تَدْعِي تَجِدَنَّ نَدْعُهُ وَمَنْ بِهِ وَأَنْ تَسْكُنِي نَجْدًا فَيَا جِدًا تَجِدُ (١)

وما سوى هذا مما ذكرته الرواة أن الشُّبْرَاءَ غَطُّوا فِيهِ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي (كتاب خضارم) وهو (كتاب نمت الشعر) .

وهذا (تمام للكتاب الصاحب) أتم الله على (الصاحب) الجليل التَّعْمَ ، وَأَبْنَيْتُ لَهُ الْمَوَاجِبَ ، وَسَنَى لَهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ وَلِيٌّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ . وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وكتب (نوح بن أحمد اللباساني) في شعبان سنة اثنتين وثمانين وعلامة .
كنا بأصله للقروء على المؤلف وعليه خطه .

(١) الأيالت من نظم (شمر بن عمرو) وأولها :

بحيث التقى المخلوقات والجرح لمن دمتان ليس لي فيما به

فهرس

الصَّحِيحُ

في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها

صفحة

مقدمة النشر :

- ٣ حاجة الأمة العربية الى إحياء لسانها وآدابها
- ٣ الأصل الذي طبع (الصاحي) عنه .
- ٤ ما كتبه المؤلف على النسخة التي في القمصطينية
- ٤ ما كتبه المرحوم الشنيطي على نسخته المنقول عنها
- ترجمة ابن فارس :
- أ نسبه ومولده . البلد الذي قريء فيه (الصاحي) عليه
- ب أساتذته وتغلقه في طلب العلم
- ج علمه وتلاميذه
- د أمياله
- ه رسالته الى (ابن سعيد الكاتب) في المفاضلة بين شعراء الجاهلية والمولدين
- ي مصنفاته
- يب شعره
- به قصيدته في معاني (النين)

صفحة

يز ابن فارس وابن يالك

وفاته

المصاحبي:

- ٢ قديم الكتاب الى خزانة (الصاحب بن عباد) ونسبته باسمه
- ٣ أصل علم العرب وفرعه والفرق بينهما
- ٥ باب القول على لغة العرب : أتوقف أم اصطلاح ؟
- ٥ أقوال العلماء في ذلك . انتصار ابن فارس لقول (ابن عباس)
- ٦ اللغات لاتجبي جملة واحدة وفي زمان واحد
- ٧ بلب القول على الخط العربي ، وأول من كتب به
- ٧ للروايات في ذلك . منذهب ابن فارس فيه
- ٨ هل كانت العرب العاربة تعرف أسماء الحروف ، ومصطلحات العربية ، وعروض الشعر ؟
- ٩ مثال لكيفية كتابة المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه
- ١٠ علم العربية وعلم العروض قبل (أبي الأسود) و (الخليل بن أحمد)
- ١١ لملاء المصاحف وآباعه في غيرها
- ١٢ بلب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسمها
- ١٢ معنى « البيان » وفضل العربية بسمتها فيه
- ١٣ إيجاز القرآن واستحالة ترجمته بإيجازه وإعجازه
- ١٤ بلاغة العرب
- ١٥ بعض خصائص العربية مثل : القلب . عدم الجمع بين الساكنين .

- ١٥ اختلاس الحركات . الادغام . الحذف . اضمار الأفعال . كثرة المترادفات بكثرة أوصاف مدلولاتها .
- ١٦ بعض جوامع الكلم من أقوال العرب وآيات القرآن .
- ١٨ باب القول على لغة العرب ، وهل يجوز أن يُحاطَ بها ؟
- ١٨ ورع (الخليل بن أحمد) والرد على من نسب إليه أنه أحاط بلغة العرب
- ١٩ باب القول في اختلاف لغات العرب : اختلافهم في الحركات . في الحركة والسكون . في إبدال الحروف . في المهرز والتلين . في التقديم والتأخير . في الحذف والاثبات . في الحرف الصحيح والحرف المتل .
- ٢٠ اختلافهم في الاملة والتضخيم . في الحرف الساكن يستقبله مثله . في التذكير والتأنيث . في الادغام . في الاعراب .
- ٢١ الاختلاف في صورة الجمع . في التحقيق والاختلاس . في الوقف على هاء التأنيث . في الزيادة
- ٢٢ اختلاف التضاد : قول حمير لقائم « نب » أي « لقد »
- ٢٣ باب القول في أفصح العرب . فصاحة قرئش ومكاتها من العرب
- ٢٤ باب اللغات المنسوبة : عنزة تميم . كشكشة أسد . كسكسة ربيعة . الحروف التي لا تكلم العرب بها الا ضرورة
- ٢٥ قاف بني تميم . بلاء النسب التي تجعل جيماً . الكفاف التي تحول شيئاً .
- ٢٦ ولدا اسماعيل وولد قحطان : ليس اختلاف اللغات قادحاً في الانساب . الخرم .
- ٢٨ باب القول في اللغة التي بها نزل القرآن
- وأنه ليس في كتاب الله شيء بنير لغة العرب

- ٢٨ القبائل التي نزل القرآن بلغاتها
- ٢٩ توفيق (أبي عبيد) بين القائلين بأن القرآن كله عربي والقائلين بأن فيه كلاماً أعجمياً. رأي ابن فارس في أصحاب المقالات المتخالفة
- ٣٠ لوجه لقول من يُجيز قراءة القرآن في صلاته بالفارسية
- ٣١ باب القول في مأخذ اللثة
- ٣٢ باب القول في الاحتجاج باللغة العربية
- ٣٣ مخاطبة العلماء العامة باللهجة العامية لا يسميهم ، والدفاع عن (مالك بن أنس) في ذلك . وجوب وقوف العلماء على علم العربية
- ٣٤ باب القول على لغة العرب : هل لها قياس ، وهل يُشَقُّ بعض الكلام من بعض ؟
- ٣٥ باب القول على أن لغة العرب لم تنتهِ إلينا بكليتها ، وأن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وأن كثيراً من الكلام ذهب بنحباب أهله .
- ٣٦ الزجر والدعاء الذي لا يضم موضوعه
- ٣٧ المشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال
- ٣٨ باب انتهاء الخلاف في اللغات . ملغية لثتان . وثلاث . وأربع . وخمس . وست . أبواب الكلام الأربعة : المجمع عليه . ملغية فصح . وأفصح . ملغية لغات متساوية . ملغية لغة واحدة فغير فيها المولودون
- ٤٠ باب مراتب الكلام في وضوحه وأشكاله . مصادر الأشكال
- ٤١ باب ذكر ما اختصت به العرب : أعراب الكلمات .

- ٤٣ الشعر العربي . أنساب العرب . تراهم عن مخالطة ذوات المحارم
- ٤٤ باب الأسباب الاسلامية . آداب العرب قبل الاسلام وبعده
- ٤٥ الاصطلاحات الدينية في الاسلام
- ٤٨ باب القول في حقيقة الكلام . حد الكلام وأنواعه
- ٤٩ باب أقسام الكلام . تعريف الاسم
- ٥٢ باب الفعل
- ٥٣ باب الحرف
- ٥٤ باب أجناس الأسماء : الفارق . المفارق . المشتق . المضاف . للمقتضي
- ٥٥ قسم آخر للأسماء
- ٥٦ باب النعت
- ٥٧ باب القول على الاسم من أي شيء أخذ؟
- ٥٨ باب آخر في الأسماء : الأسماء التي حدثت في صدر الاسلام ، والتي كانت فزالت
- ٦١ باب ما جرى مجرى الأسماء وانما هي ألقاب
- ٦٢ سبب تسمية العرب أولادها بكلب وقرود وعر وأسد
- ٦٣ باب الاسماء التي تسمى بها الاشخاص على المجاوزة والسبب
- ٦٤ باب القول في أصول أسماء قيس عليها وألحق بها غيرها
- ٦٥ باب الأسماء كيف تقع على المسميات : تسمية شيئين مختلفين باسمين مختلفين . تسمية أشياء كثيرة باسم واحد . تسمية شيء واحد بأسماء كثيرة . المترادفات تختلف باختلاف أوصافها

صفحة

- ٦٩ باب الاسمين المصطلحين .
- ٧٠ باب زيادات الأسماء
- ٧١ باب الحروف وأصلها . من خصائص العرب اقرادها بالهخزة في عرض الكلام . الحاء والظاء والضاد مقصورة على العرب . باب دخول (الف التعريف ولامه) في الاسماء
- ٧٢ باب الالف للبتة بها
- ٧٣ باب وجوه دخول (الألف) في الافعال
- ٧٥ باب (الباء)
- ٧٨ باب (التاء)
- ٨٠ التاء . الجيم . الحاء والظاء . اللدال . الراء
- ٨١ التزاي . السين . الشين . العين . باب (الفاء) .
- ٨٢ القاف . باب (الكاف)
- ٨٣ باب (اللام)
- ٨٧ باب زليخة (الليم)
- ٨٨ النون
- ٨٩ الهاء . باب (الواو)
- ٩٢ باب (الياء)
- ٩٣ باب القول على الحروف المفردة العدالة على المعنى . الأفعال التي يكون الأمر فيها بحرف واحد . الحروف التي في فوائج السور ومذاهب العلماء فيها
- ٩٦ ملهيب ابن فلوس في ذلك

صفحة

- ٩٧ باب الكلام على حروف المعنى . ما أوله (ألف) : باب (أم)
- ٩٩ باب (أو)
- ١٠١ باب (إي) و (أي) . باب . إن . وإن . وإن . وإن
- ١٠٤ باب (إلى)
- ١٠٥ باب . (ألا) . باب (إنما)
- ١٠٦ باب (لّا) . اصل الاستثناء
- ١٠٧ استثناء القليل من الكثير وعكسه . معاني (إلا)
- ١٠٩ باب من (الاستثناء) آخر . قول (مالك) في دلالة « والانتصار له »
- ١١٠ باب (إيّا) . باب (إذا)
- ١١١ باب (إذ)
- ١١٣ باب (إذا) . باب (أي) . باب (أني)
- ١١٤ باب (أين) و (أينما) . باب (أيان) وأصلها . باب (الآن)
- ١١٥ أصل (الآن) . بناؤها
- ١١٦ باب «إيمالا» وتركيبها . باب «أما هو» «إياه» . ما أوله «ياه» : «بلى» وأصلها
- ١١٧ «بلى» . «بلى» . «يد» . «يدنا» و «ينما» ولشقاقهما . «يد»
- ١١٩ ما أوله «تاء» : «تال» ولشقاقها . ما أوله «تاء» : «تم»
- ١٢٠ «تم» . ما أوله «جيم» : «جبر»
- ١٢١ «لاجرم» وتركيبها
- ١٢٢ ما أوله «حاء» : «حق»

- ١٢٣ « حاشا » واشتقاقها . ما أوله « خاء » : « خلا » و « ما خلا » وأصلهما
 ما أوله « راه » : « رُبَّ »
 ١٢٤ « رُوَيْد » وأصلها . « فو » و « ذات »
 ١٢٥ « سوف » . « سوت »
 ١٢٦ « سِيَّما » وأصلها . « شَتَّان » وأصلها . « عن »
 ١٢٧ « على » : « عَوْض » . « عسى »
 ١٢٨ « غير » . « في »
 ١٢٩ « قد » . « كم » وأصلها
 ١٣٠ « كيف »
 ١٣١ « كاد » . « كان »
 ١٣٢ « كَانَيْن » . « كَان » وأصلها
 ١٣٣ « كَلَّآ » وأصلها
 ١٣٤ « لَو » و « لولا »
 ١٣٥ « لَمْ » و « ولا »
 ١٣٦ « لَنْ » وأصلها . « لا »
 ١٣٧ دخول « لا » توكيذاً
 ١٣٨ زيادة « لا »
 ١٣٩ « لات » وأصلها
 ١٤٠ « لَيْتَ » . « لَيْتَى » . « لَيْسَ »
 ١٤١ « لَبَل » . « لَكِن »

١٤٢ «مَدُّ» و «مُدُّ» . «مَاء»

١٤٣ «مِنْ»

١٤٤ «مَنْ»

١٤٥ «مَه» و «مَهْمَا» . «مَتَى»

١٤٦ «نَعَمْ» و «نَعِمَ» . «هَلَمْ» . «هَاتِ» . «وَيَكُنْ»

١٤٧ أصل «وَيَكُنْ»

١٤٨ «أَوَّلِي» . قول في اشتقاقها . «يَا»

١٥٠ باب معاني الكلام وأقسامه : باب الخبر . المعاني التي يحتملها لفظ الخبر

١٥١ باب الاستخبار : الفرق بين الاستخبار والاستفهام

١٥٢ المعاني التي يحتملها لفظ الاستخبار

١٥٤ حذف ألف الاستفهام . باب الأمر

١٥٥ المعاني التي يحتملها لفظ الأمر

١٥٧ حال الأمر في وجوبه ونهيه وجوبه

١٥٧ النهي . الدعاء والطلب . العرض والتحضيض والفرق بينهما .

١٥٨ مجيء «لولا» لمعنى التحضيض . التمني . التجنب .

١٥٩ باب الخطاب يأتي بلفظ المذكر ، أو لجماعة المذكرين . معنى كلمة «القوم»

١٦٠ أقل العدد الجمع . تفسير «ابن عباس» لفظ «الاخوة» بأكثر من اثنين

١٦١ باب الخطاب الذي يقع به الافهام من القائل ، والفهم من السامع .

١٦٢ مزنة الاعراب في اللغة العربية . تفریق العرب بين المعاني بالحركات .

١٦٢ مزنة التصريف في اللغة العربية . معاني ألفاظ المبالغة التي يعبر بها عن الأشياء

- ١٦٣ « المعنى » واشتقاقه . « التفسير » واشتقاقه .
- ١٦٤ « التأويل » واشتقاقه . باب الخطاب المطلق والمقيد . الاطلاق .
- ١٦٥ التقييد
- ١٦٦ باب الشيء يكون ذاوصفين فيطلق بمحكم من الأحكام على أحدوصفيه .
منعرب العرب ومنعرب الفقهاء في ذلك . ومنعرب « أبى عبيد »
- ١٦٧ باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز . معنى « الحقيقة » واشتقاقها .
- ١٦٨ معنى « المجاز » واشتقاقه والأمثلة عليه .
- ١٦٩ سنة العرب في مخالفة ظاهر اللفظ معناه . ردّ قول « ابن قتيبة » .
- ١٧٠ اطلاقات « ابن قتيبة » المنكرة .
- ١٧١ باب أجناس الكلام في الاتحاق والافتراق . اختلاف اللفظ والمعنى . اتحاق
اللفظ واختلاف المعنى . اتحاق اللفظ وتضاد المعنى . تعارب اللفظين والمعنيين
- ١٧٢ اختلاف اللفظين وتعارب المعنيين . تعارب اللفظين واختلاف المعنيين .
- باب القلب . القلب في الكلمة بالقلب في البصيرة
- ١٧٣ باب الابدال في الحروف . باب الاستعارة
- ١٧٥ باب الحذف والاختصار . باب الزيادة
- ١٧٦ زيادة الأسماء . زيادة الأفعال . زيادة حروف الماني .
- ١٧٧ باب التكرار . تكرير الكلمة والجملة . تكرير الأبناء والقصص في القرآن .
- ١٧٨ باب العموم والخصوص . العام الخاص . الكلامان المتصلان يكون أحدهما
عاماً والآخر خاصاً . العام الذي يراد به الخاص
- ١٧٩ الخاص الذي يراد به العام . باب إضافة الفعل الى . ليس بفاعل في الحقيقة .

- ١٨٠ باب الواحد يراد به الجمع . باب الجمع يراد به واحد واثنان .
- ١٨١ باب آخر . وصف الجمع بصفة الواحد . وصف الواحد بصفة الجمع
- ١٨٢ الجمع القوي يراد به الاثنان . باب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع . باب ذكر جماعة وجماعة أو جماعة وواحد والاخبار عنهما بلفظ الاثنين .
- باب مخاطبة الواحد خطاب الجمع له ولغيره .
- ١٨٣ تحويل الخطاب من الشاهد الى النائب . تحويله من النائب الى الشاهد
- ١٨٤ مخاطبة المخاطب ثم يحمل لغيره . أو يخبر عن شيء ثم يحمل الخبر المتصل بغيره
- ١٨٥ باب الشيتين ينسب الفعل اليهما وهو لأحدهما . باب نسبة الفعل الى أحد اثنين وهو لهما
- ١٨٦ باب أمر الواحد بلفظ أمر الاثنين . باب الفعل يأتي بلفظ الماضي وهو راهن أو مستقبل وبلفظ المستقبل وهو ماضٍ
- ١٨٧ باب المفعول يأتي بلفظ الفاعل
- ١٨٨ باب آخر في وصف الشيء بما يقع فيه أو هو نه
- ١٨٩ باب معاني أبنية الأفعال : فَعَلَ . أَفْعَلَ . فَعَّلَ . تَعَاعَلَ . تَعَمَّلَ .
- ١٩٠ استعملَ . ائتمَلَ . ائتمَلَ . باب الفعل اللازم والمتعدي بلفظ واحد .
- باب البناء للدال على الكثرة
- ٩١ باب الأبنية الدالة في الأغلب الأكثر على معان وقد تختلف
- ١٩٢ باب الفرق بين ضدين بحرف أو حركة . باب التوهم والايهام
- ١٩٣ باب البسط في الأسماء
- ١٩٤ باب القبض

- ١٩٥ باب المخاذاة والجزاء على الفعل بمثل لفظه
- ١٩٦ باب الاضمار : أقسام الاضمار . إضمار الأسماء
- ١٩٧ باب إضمار الحروف
- ١٩٨ باب إضمار الأفعال . باب من الاضمار آخر
- ١٩٩ باب التمييز : إقامة الفعل الماضي مقام الراهن والمصدر مقام الآمر
- ٢٠٠ إقامة الفاعل مقام المصدر . والمفعول مقام المصدر . والمصدر مقام الفعل .
- ووضعهم فيللاً في موضع «مفعول» و «مفعول»
- ٢٠١ وضعهم «مفعولاً» بمعنى «فاعل» . والفعل مقام الحال . باب من
- النظم الذي جاء في القرآن : الاختصاص .
- ٢٠٢ الأمر المحتاج الى بيان وبيانه متصل به . ما يكون بيانه مضمراً آفياً
- ٢٠٣ باب ما يكون بيانه منفصلاً منه ويجيء في السورة معها أو في غيرها
- ٢٠٥ باب آخر من نظوم القرآن : يجيء الكلمة الى جنب الكلمة كأنها معها
- وهي ليست كذلك . باب إضافة الشيء الى من ليس له لاحتضاله به
- ٢٠٦ باب إضافة الشيء الى نفسه والى نمته . باب جمع شيتين الاجداء
- بهما وجمع خبريهما ، ثم يرد الى كل مبتدء به خبره .
- ٢٠٨ باب التقديم والتأخير
- ٢٠٩ باب الاعتراض
- ٢١٠ باب الإيلاء
- ٢١١ إضافة الفعل الى من وقع به ما يجري من غير ابن آدم مجرى بني آدم في الاخبار عنه
- ٢١٢ باب اقتضاهم على ذكر بعض الشيء وهم يريدونه كله

- ٢١٣ باب الامتين يعبر عنهما بهما مرة وبأحدهما مرة . باب الجمل
- ٢١٤ ألفاظ الجمع . والواحد والاثنتين . ما يجري من كلامهم يجري التهكم والمهزء
- ٢١٥ باب الكفّ
- ٢١٦ باب الاعارة . باب « أفعل » في الأوصاف لا يراد به التفضيل
- ٢١٧ باب نفي الشيء جملة من أجل عدمه كمال صفته .
- ٢١٨ باب الشرط وأقسامه . باب الكتابة وأقسامها
- ٢١٩ باب الثاني من الكناية « الضمائر »
- ٢٢٠ باب الشيء يأتي مرة بلفظ المفعول ومرة بلفظ الفاعل والمعنى واحد
- باب الزيادة في حروف الفعل للبالغة وقد مضى في الأسما مثل
- ٢٢٢ باب الخصائص
- ٢٢٣ باب نظم للرّب لا يقوله غيرهم
- ٢٢٤ باب إخراجهم الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك . باب الإفراط
- ٢٢٥ باب نفي ضمنه إثبات . باب الاشتراك .
- ٢٢٦ باب يسميه بعض المحدثين « الاستطراد » . باب الاتباع . باب الأوصاف
- التي لم يسمع لها بأفعال والأفعال التي لم يوصف بها
- ٢٢٧ باب النحت . باب الاشباع والتأكيد
- ٢٢٨ باب الفصل بين الفعل والنعت
- ٢٢٩ باب الشعر : حذ الشعر . تنزيهه القسبحانه كتابه عن شبه الشعر ونبيه عن قوله
- ٢٣٠ حكمة الشعراء والحكمة النبوية . مزاي الشعر ومحاسنه . مراتب الشعر .
- ٢٣١ ما يجوز للشاعر وما لا يجوز .
- ٢٣٢ تمام الكتاب الصاحي

مجلد ۲۵ - نشرته المكتبة السلطانية - تصنیف النیسوف أبو نصر الفارابی - تصنیف النیسوف أبو نصر الفارابی - تصنیف الفلسفة القديمة (برادي)

﴿تنبیه﴾

وقع في أثناء الطبع بعض غلطات مطبعة لم ينتبه النظر اليها أثناء التصحيح، فأحيينا أن تأتي هنا على تصحيحها رجاء أن يود القاري، فيصححها، كيلا تكون نسخة (الصاحبي) بعد الطبع دونها قبله، وهذا ما كنا نؤمله عند الشروع في طبعه. وإلى القاري، تصحيح تلك الكلمات:

(صفحة ب: سطر ١) الخصب. (ب: ٢٣) فقريت.
(ج: ١٥) للؤلؤة. (١٢: ٥) الانكلر. (ز: ١٢) وقيت.
(ب: ٩) فؤاده (ك: ١٥) وباعلاني. (٤: هامش)
لانك. (٨: ٥) خُصِف. (٤: ١٤) انشائي. (٩: ١٦)
الايحاء اللطيف والاشارة. (٥: ١٨) لذعي. (٣: ٢١)
الارباب. (٣: ٢٥) كَل. (٦: ٢٧) فان. (٤٦: ١٤)
الصيام أصله. (٣: ٧٤) قَشَمْتُهُ. أترقت (٩: ٧٤) قع.
(٣: ٨٠) بني السجلات. (٥: ٩٩) عمرو. (١٠: ٤) هامش)
الأيها الاحي (٢٠: ١٠٧) ولا كثير. (٦: ١٢١) فناديت.
(١٣٩: هامش) تنقاد. (١٤٠: هامش) رَيْشَت. (٨: ١٤٢)
الابل. (٥: ١٧٤) السائق. (١٧: ١٧٨) المام. الخالص.

منطق المشرفين - تصنیف الرئيس ابن سينا - نشرته المكتبة السلطانية - منه فزك واحد

